(فهرسة الجزء السابع من التفسير المسمى فتح البيان في مقاصد القرآن)

صحيفة

(تمت)

(فهرسة الجزء السابع من تفسير الحافظ ابن كثير)

صحيفة

(تمت)

(الجزء السابع)

من التفسير المسمى فتح البيان

فى مقاصد القرآن للسيد الامام المجتهد المحقق

الهمام المؤيد من مولاه القدير البارى أبى الطيب

صديق بن حسن القنوجى البخارى ملك

مدينة بهوبال حالا بالاقطار الهندية

لازالت كواكب فضله

فى الآفاق زاهرة

آمين

وبهامشه تفسير الامام الجليل الكبير الحافظ عماد الدين أبى الفداء اسمعيل بن عمر بن
كثير القرشى الدمشقى المولود سنة سبعمائة وعشر المتوفى سنة سبعمائة وأربعة وسبعين
وهذا التفسير جليل مشحون بالاحاديث والآثار مسندة من أصحابها مع
الكلام على ما يحتاج اليه جرحا وتعديلا اه من كشف الظنون

(الطبعة الاولى)

(بالمطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر المحمية)

سنة ١٣٠١ هجرية



بسم الله الرحمن الرحيم

(سورة الشعراء مائتان وسبع وعشرون آية وهي مكية عند الجمهور)*

وبه قال ابن الزبير وقال ابن عباس سوى خمس آيات من آخرها نزلت بالمدينة وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وأخرج القرطبي في تفسيره عن البراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطاني المئين مكان الانجيل وأعطاني الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبي قبلي وأخرج أيضا عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت المفصل نافلة قال ابن كثير ووقع في تفسير مالك تسميتها بسورة الجامعة

(بسم الله الرحمن الرحيم)*

(طسم) محله الرفع على الابتداء ان كان اسما للسورة كما ذهب اليه الاكثر أو على انه خبر ويجوز أن يكون في محل نصب والتقدير اذكر أو اقرأ وأما اذا كان مسرودا على نمط التعديد كما تقدم مرارا فلا محل له من الاعراب وقد قيل انه اسم من أسماء الله سبحانه وقيل انه اسم من أسماء القرآن وقيل اسم السورة وقيل أقسم بطوله وسنائه وملكه وقال ابن عباس طسم عجزت العلماء عن علم تفسيرها وهو الحق في المقام واذا قال المحلي الله أعلم بمراده بذلك (تلك) أي السورة أو آيات هذه السورة (آيات الكتاب) أي القرآن (المبين) أي المبين المظهر للحق من الباطل أو البين الظاهر اعجازه ان كان من أبان اللازم بمعنى بان

(تفسير سورة المؤمنون مكية)
(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرني يونس ابن سليم قال أملى على يونس بن يزيد الايلي عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عبد الرحمن بن عبد القاري قال سمعت عمر بن الخطاب يقول كان اذا أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارض عنا وارضنا ثم قال لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون حتى ختم العشر ورواه الترمذي في تفسيره والنسائي في الصلاة من حديث عبد الرزاق به وقال الترمذي منكر لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم ويونس لا نعرفه وقال النسائي في تفسيره أنبأنا قتيبة بن سعيد حدثنا جعفر عن أبي عمران عن يزيد

وهذا

ابن بابنوس قال قلنا لعائشة أم المؤمنين كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم
القرآن فقرأت قد أفلح المؤمنون حتى انتهت الى والذين هم على صلواتهم يحافظون قالت هكذا كان خلق رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقد روى عن كعب الاحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر اليها وقال لها تكلمي فقالت
قد أفلح المؤمنون قال كعب الاحبار لما أعد لهم من الكرامة فيها وقال ابو العالية فأنزل الله ذلك في كتابه وقد روى ذلك عن أبي
سعيد الخدري مرفوعا فقال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا المغيرة بن ٣ مسلم حدثنا وهيب عن الجريري عن أبي
نضرة عن أبي سعيد قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها وقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فدخلتها الملائكة فقالت طوبى لك منزل الملوك ثم قال وحدثنا بشر بن آدم وحدثنا يونس بن [illegible] حدثنا عبد الأعلى بن الفضل حدثنا الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك قال البزار ورأيت في موضع آخر في هذا الحديث حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة وملاطها المسك فقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك ثم قال البزار لا نعلم أحدا رفعه الا عبد الأعلى بن الفضل وليس هو بالحافظ وهو شيخ متقدم الموت وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن علي حدثنا هشام بن خالد حدثنا بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله جنة عدن
خلق فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون بقية عن الحجازيين ضعيف وقال
الطبراني حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا حماد بن عيسى العبسي عن اسمعيل السدي عن أبي
صالح عن ابن عباس يرفعه لما خلق الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر اليها فقال قد أفلح المؤمنون قال
وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا محمد بن المثنى البزار حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بعيش
ابن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق الله جنة عدن بيده

وهذا المعنى أليق بالمقام وأوفق للمرام ولذا اقتصر عليه صاحب الكشاف (لعلك باخع) أي قاتل ومهلك (نفسك) لعل هنا للاشفاق أي أشفق على ابتخفيف هذا الغم والبخع في الاصل أن يبلغ بالذبح النخاع وهو عرق في القفا وقد مضى تحقيق هذا في سورة الكهف وقرئ باخع نفسك بالاضافة والمعنى لعلك قاتل نفسك (أن لا يكونوا) أي أهل مكة (مؤمنين) أي لعدم ايمانهم بما جئت به وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لانه كان حريصا على ايمان قومه شديد الاسف لما يراه من اعراضهم (ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية) مستأنفة مسوقة لتعليل ما سبق من التسلية والمعنى ننزل آية تلجئهم الى الايمان ولكن قد سبق القضاء بأنا لا ننزل ذلك وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أي انهم صاروا منقادين لها أي فتظل أعناقهم قيل وأصله فظلوا لها خاضعين فأقحمت الاعناق لتقرير والتصوير لان الاعناق موضع الخضوع وقيل انها لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء أجريت مجراهم ووصفت بما يوصفون به قال عيسى بن عمر وخاضعين وخاضعة سواء واختاره المبرد والمعنى انها اذا ذلت رقابهم ذلوا فالاخبار عن الرقاب اخبار عن أصحابها ويسوغ في كلام العرب أن يترك الخبر عن الاول ويخبر عن الثاني وقال أبو عبيد والكسائي ان المعنى خاضعيها هم وضعفه النحاس وقال مجاهد أعناقهم كبراؤهم قال النحاس وهذا معروف في اللغة يقال جاءني عنق من الناس أي رؤساء منهم وقال أبو زيد والاخفش أعناقهم جماعاتهم يقال جاءني عنق منهم أي جماعة وقال ابن عباس خاضعين ذليلين (وما يأتيهم من) مزيدة لتأكيد العموم (ذكر من الرحمن) لابتداء الغاية (محدث) انزاله وكلما نزل شئ من القرآن بعد شئ فهو أحدث من الاول (الا كانوا عنه معرضين) أي الا لا يجدد لهم موعظة وتذكيرا الا جددوا ما هو نقيض المقصود وهو الاعراض والتكذيب والاستهزاء والجملة حالية والاستثناء مفرغ من أعم العام وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية في سورة الانبياء (فقد كذبوا) بالذكر الذي يأتيهم تكذيبا صريحا ولم يكتفوا بمجرد الاعراض وقيل ان الاعراض بمعنى التكذيب لان من أعرض عن شئ ولم يقبله فقد كذبه وعلى هذا فيكون ذكر التكذيب للدلالة على صدور ذلك منهم على وجه التصريح والاول أولى فالاعراض عن الشئ عدم الالتفات اليه ثم

لبنة من درة بيضاء ولبنة من ياقوتة حمراء ولبنة من زبرجدة خضراء ملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ وحشيشها الزعفران ثم قال لها انطقي قالت قد أفلح المؤمنون فقال الله وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون وقوله تعالى قد أفلح المؤمنون أي قد فازوا وسعدوا وحصلوا على الفلاح وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الذين هم في صلاتهم خاشعون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس خاشعون خائفون ساكنون وكذا روي عن مجاهد والحسن وقتادة والزهري ٤ وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخشوع خشوع القلب وكذا قال ابراهيم النخعي وقال الحسن البصري كان خشوعهم في قلوبهم فغضوا بذلك أبصارهم وخفضوا الجناح وقال محمد بن سيرين كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفعون أبصارهم الى السماء في الصلاة فلما نزلت هذه الآية قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون خفضوا أبصارهم الى موضع سجودهم قال محمد بن سيرين وكانوا يقولون لا يجاوز بصره مصلاه فان كان قد اعتاد النظر فليغمض رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ثم روى ابن جرير عنه وعن عطاء بن أبي رباح أيضا مرسلا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك حتى نزلت هذه الآية والخشوع في الصلاة انما يحصل لمن فرغ قلبه لها واشتغل بها عما عداها وآثرها على غيرها وحينئذ تكون راحة له وقرة عين كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الامام أحمد والنسائي عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال حبب الي الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة وقال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا مسعر عن عمرو بن مرة عن سالم بن أبي الجعد [illegible] أن محمد بن الحنفية قال دخلت مع أبي على صهر لنا من الانصار فحضرت الصلاة فقال يا جارية ائتني بوضوء لعلي أصلي فأستريح فرآنا أنكرنا عليه ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قم يا بلال فأرحنا بالصلاة وقوله والذين هم عن اللغو معرضون أي عن الباطل وهو يشمل الشرك كما قاله بعضهم والمعاصي كما قاله آخرون وما لا فائدة فيه من الاقوال والافعال كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما قال قتادة أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك وقوله والذين هم للزكاة فاعلون الاكثرون

انتقلوا عن هذا الى ما هو أشد منه وهو التصريح بالتكذيب ثم انتقلوا عن التكذيب الى ما هو أشد منه وهو الاستهزاء كما يدل عليه قوله (فسيأتيهم أنباء) وهي ما يستحقونه من العقوبة آجلا وعاجلا وسميت أنباء لكونها مما أنبأ عنه القرآن وقال (ما كانوا به يستهزؤن) ولم يقل ما كانوا عنه معرضين أو ما كانوا به يكذبون لان الاستهزاء أشد منهما ومستلزم لهما وفي هذا وعيد شديد وقد مر تفسير مثل هذا في سورة الانعام ثم ذكر سبحانه ما يدل على كمال قدرته من الامور الحسية التي يحصل بها للمتأمل فيها والناظر اليها والمستدل بها أعظم دليل وأوضح برهان وبين انه أظهر لهم أدلة تحدث في الارض وقتا بعد وقت تدل على توحيده ومع ذلك استمر أكثرهم على الكفر فقال (أولم يروا) الهمزة للتوبيخ والواو للعطف على مقدر كما في نظائره (الى الارض) أي الى عجائبها وبين بعضها بقوله (كم أنبتنا فيها) أي كثيرا (من كل زوج كريم) فنبه سبحانه على عظمته وقدرته وان هؤلاء المكذبين المستهزئين لو نظروا حق النظر لعلموا أنه سبحانه الذي يستحق أن يعبد والمراد بالزوج هنا الصنف والنوع وقال الفراء هو اللون وقال الزجاج زوج نوع وكريم محمود والمعنى من كل زوج نافع لا يقدر على انباته الا رب العالمين [illegible] والكريم في الاصل الحسن الشريف يقال نخلة كريمة أي كثيرة الثمرة ورجل كريم شريف فاضل وكتاب كريم اذا كان مرضيا في معانيه والنبات الكريم هو المرضي في منافعه قال الشعبي الناس مثل نبات الارض فمن صار منهم الى الجنة فهو كريم ومن صار منهم الى النار فهو لئيم وفائدة الجمع بين كلمتي الكثرة والاحاطة ان كلمة كل تدل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم تدل على ان هذا المحيط متكاثر مفرط الكثرة وبه نبه على كمال قدرته قاله الزمخشري واليه أشار في التقرير (ان في ذلك لآية) أي فيما ذكر من الانبات أو في كل واحد من تلك الازواج لدلالة بينة وعلامة واضحة على كمال قدرة الله سبحانه وبديع صنعته واللام زائدة في اسم ان المؤخر وقد كررت هذه الآية في هذه السورة ثماني مرات ثم أخبر سبحانه بأن أكثر هؤلاء مستمر على ضلالته مصمم على جحوده وتكذيبه واستهزائه فقال (وما كان أكثرهم مؤمنين) أي سبق علمي فيهم انهم سيكونون هكذا فلذلك لا ينفعهم أمثال هذه الآيات العظام قال سيبويه ان كان هنا صلة أي زائدة (وان ربك لهو العزيز الرحيم) أي الغالب القاهر لهؤلاء بالانتقام منهم مع

على ان المراد بالزكاة هنا زكاة الاموال مع ان هذه الآية مكية وانما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة والظاهر أن التي فرضت بالمدينة انما هي ذات النصب والمقادير الخاصة والا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجبا بمكة قال تعالى في سورة الانعام وهي مكية وآتوا حقه يوم حصاده وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها وكقوله وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة على احد القولين في تفسيرهما وقد يحتمل أن يكون كلا الامرين مرادا وهو زكاة النفوس وزكاة الاموال فانه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذي يتعاطى هذا وهذا والله أعلم وقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم أو ماملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك أي غير الازواج والاماء فأولئك هم العادون أي المعتدون وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الاعلى حدثنا سعيد عن قتادة ان امرأة اتخذت مملوكها وقالت تأولت آية من كتاب الله أو ماملكت أيمانهم فأتي بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم تأولت آية من كتاب الله عز وجل على غير وجهها قال فغرب العبد وجز رأسه وقال أنت بعده حرام على كل مسلم هذا أثر غريب منقطع ذكره ابن جرير في تفسير أول سورة المائدة وهو ههنا أليق وانما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها والله أعلم وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم قال فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين وقد قال الله تعالى فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وقد استأنسوا بحديث رواه الامام الحسن بن عرفة في جزئه المشهور حيث قال حدثني علي بن ثابت الجزري عن مسلمة بن جعفر عن حسان بن حميد عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال سبعة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع

كونه كثير الرحمة ولذلك امهلهم ولم يعاجلهم بالعقوبة أو المعنى انه منتقم من أعدائه رحيم بأوليائه (واذ نادى ربك موسى) مستأنفة مسوقة لتقرير ماقبلها من الاعراض والتكذيب والاستهزاء وشروع في قصص سبع أولها قصة موسى والثانية ابراهيم والثالثة نوح والرابعة هود والخامسة صالح والسادسة لوط والسابعة شعيب والتقدير واتل اذ نادى أو اذكر يا محمد والنداء الدعاء أي نادى حين رأى الشجرة والنار وكان النداء بكلام سمعه من كل الجهات من غير واسطة (أن) مفسرة أو مصدرية أي بأن (ائت القوم الظالمين) وليس هذا مطلع ماورد في حيز النداء وانما هو مافصل في سورة طه من قوله اني أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى ووصفهم بالظلم لانهم جمعوا بين الكفر الذي ظلموا به أنفسهم وبين المعاصي التي ظلموا بها غيرهم كاستعباد بني اسرائيل وذبح أبنائهم وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفا (قوم فرعون) يعني القبط عطف بيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون وكأنهما عبارتان تعتقبان على مؤدى واحد (ألا يتقون) أي ألا يخافون عقاب الله سبحانه فيصرفون عن أنفسهم عقوبته بطاعته وقيل المعنى قل لهم ألا تتقون وجاء بالتحتية لانهم غيب وقت الخطاب وقرئ بالفوقية أي قل لهم ذلك ومثله قل للذين كفروا ستغلبون بالتحتية والفوقية أوانهم زاجرا فقد آن لهم أن يتقوا وهي كلمة حث واغراء وقيل يظلمون غير متقين الله وعقابه وعلى هذا حال من الضمير في الظالمين (قال) موسى واعتذر بثلاثة أعذار كل منها مرتب على ماقبله وليس مراده الامتناع من الرسالة بل اظهار العجز عن هذا الامر الثقيل وطلب المعونة عليه من الله (رب اني أخاف أن يكذبون) في الرسالة والخوف غم يلحق الانسان لامر سيقع (ويضيق صدري) بتكذيبهم اياي (ولا ينطلق لساني) أي بتأدية الرسالة للعقدة كانت على لسانه قرئ يضيق وينطلق بالرفع على العطف أو على الاستئناف وبنصبهما قال الفراء كلا القراءتين له وجه قال النحاس الوجه الرفع لان النصب عطف على يكذبون وهذا بعيد (فأرسل) جبريل بالوحي (الى) أخي (هرون) ليكون معي رسولا موازرا مظاهرا معاونا ولم يذكر الموازرة هنا لانها معلومة من غير هذا الموضع كقوله في طه واجعل لي وزيرا من أهلي وفي القصص أرسله معي ردأ يصدقني وكان هرون بمصر حين بعث موسى نبيا بالشام وهذا من موسى عليه السلام من باب طلب المعاونة له

العالمين ويدخلهم النار أول الداخلين الا ان يتوبوا ومن تاب تاب الله عليه والناكح يده والفاعل والمفعول به ومدمن الخمر والضارب والديه حتى يستغيثا والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه والناكح حليلة جاره هذا حديث غريب وإسناده فيه من لا يعرف لجهالته والله أعلم وقوله والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون أي اذا اؤتمنوا لم يخونوا بل يؤدونها الى أهلها واذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا اؤتمن خان وقوله والذين هم على ٦ صلواتهم يحافظون أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله أي العمل أحب الى الله قال الصلاة على وقتها قلت ثم أي قال بر الوالدين قلت ثم أي قال الجهاد في سبيل الله أخرجاه في الصحيحين وفي مستدرك الحاكم قال الصلاة في أول وقتها وقال ابن مسعود ومسروق في قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون يعني مواقيت الصلاة وكذا قال أبو الضحى وعلقمة بن قيس وسعيد ابن جبير وعكرمة وقال قتادة على مواقيتها وركوعها وسجودها وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم استقيموا ولن تحصوا واعلموا ان خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء الا مؤمن ولما وصفهم تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والافعال الرشيدة قال أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فان مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله أولئك هم الوارثون وقال ابن جريج عن الليث عن مجاهد أولئك هم الوارثون قال ما من عبد الا وله منزلان منزل في الجنة ومنزل في النار فأما المؤمن فيبنى بيته الذي في الجنة ويهدم بيته الذي في النار وأما الكافر فيهدم بيته الذي في الجنة ويبنى بيته الذي في النار وروي عن سعيد

المفهوم

والناس العون في تبليغ الرسالة بارسال أخيه لا من باب الاستعفاء من الرسالة ولا من التوقف عن المسارعة بالامتثال وكفى بطلب العون دليلا على التقبل لا على التعلل (ولهم على ذنب) هو قتله القبطي قاله قتادة وسماه ذنبا بحسب زعمهم أو كما سمى جزاء السيئة سيئة (فأخاف أن يقتلون) به قصاصا فيفوت المقصود من الرسالة فهذا استدفاع لما أخاف عليه وليس هذا تعللا أيضا بل استدفاع للبلية المتوقعة وفيه دليل على ان الخوف قد يحصل مع الانبياء فضلا عن الفضلاء ثم أجابه سبحانه بما يشتمل على نوع من الردع وطرف من الزجر (قال كلا) أي لا يقتلونك كأنه قيل ارتدع عما تظن (فاذهبا) أي أنت وأخوك (بآياتنا) وفي ضمن هذا الجواب اجابة موسى الى ما طلبه من ضم أخيه اليه كما يدل عليه توجيه الخطاب اليهما وفيه تغليب الحاضر على الغائب لانه اذ ذاك كان بمصر والارسال والخطاب كان في الطور (انا معكم) وفي هذا تعليل للردع عن الخوف وهو كقوله سبحانه اني معكما أسمع وأرى وأراد بذلك سبحانه تقوية قلوبهما وانه متول لحفظهما وكلاءتهما وأجراهما مجرى الجمع فقال معكم لكون الاثنين أقل الجمع على ما يذهب اليه بعض الائمة أو لكونه أراد موسى وهرون ومن أرسلا اليه ويجوز أن يكون المراد هما مع بني اسرائيل أو تعظيما لهما ولا يخفى ما في المعية من المجاز لان المصاحبة من صفات الاجسام فالمراد معية النصرة والمعونة (مستمعون) أي سامعون ما تقولون وما يقال لكم والاستماع في غير هذا الاصغاء للسماع يقال استمع فلان حديثه أي أصغى اليه ولا يجوز حمله هنا على ذلك فحمل على السماع قاله النسفي (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها قال القرطبي فانطلقا الى فرعون فلم يأذن لهما سنة في الدخول عليه ووحد الرسول هنا ولم يثنه كما في قوله انا رسولا ربك لانه مصدر بمعنى رسالة والمصدر يوحد وأما اذا كان بمعنى المرسل فانه يثنى مع المثنى ويجمع مع الجمع قال أبو عبيدة رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا انا ذوو رسالة وقال أبو عبيدة أيضا يجوز أن يكون الرسول بمعنى الاثنين والجمع تقول العرب هذا رسولي ووكيلي وهذان رسولي ووكيلي وهؤلاء رسولي ووكيلي ومنه قوله تعالى فانهم عدو لي وقيل ان معناه ان كل واحد منا رسول وقيل انهما لما كانا متعاضدين متساعدين في الرسالة كانا بمنزلة رسول واحد وأن في قوله (أن أرسل معنا بني اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال

ابن جبير نحو ذلك فالمؤمنون يرثون منازل الكفار لانهم خلقوا لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له فلما قام هؤلاء المؤمنون بما وجب عليهم من العبادة وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل بل أبلغ من هذا أيضا وهو ما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى بردة عن أبى موسى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يجئ ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى وفى لفظ له قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقال هذا فكاكك ٧ من النار فاستحلف عمر بن عبد العزيز أبا بردة بالله الذى لا اله الا هو ثلاث مرات ان أباه حدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال فحلف له قلت وهذه الآية كقوله تعالى تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا وكقوله وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون وقد قال مجاهد وسعيد بن جبير الجنة بالرومية هى الفردوس وقال بعض السلف لا يسمى البستان الفردوس الا اذا كان فيه عنب فالله أعلم (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) يقول تعالى مخبرا عن ابتداء خلق الانسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حما مسنون وقال الاعمش عن المنهال ابن عمرو عن أبى يحيى عن ابن عباس من سلالة من طين قال من صفوة الماء وقال مجاهد من سلالة أى من منى آدم وقال ابن جرير انما سمى آدم طينا لانه مخلوق منه وقال قتادة استل آدم من الطين وهذا أظهر فى المعنى وأقرب الى السياق فان آدم عليه السلام خلق من طين لازب وهو الصلصال من الحما المسنون وذلك مخلوق من التراب كما قال تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عوف حدثنا أسامة بن زهير عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض جاء منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والخبيث والطيب وبين ذلك وقد رواه أبو داود

المفهوم من الرسول معنى القول أى خلهم واطلقهم معنا الى أرض فلسطين ولا تستعبدهم وكان قد استعبدهم أربعمائة سنة (قال) فرعون لموسى بعد أن أتياه وقالا له ما أمرهما الله به (ألم نربك فينا) أى فى حجرنا ومنازلنا أراد بذلك المن عليه والاحتقار له أى ربيناك لدينا (وليدا) أى صغيرا قريبا من الولادة بعد فطامك ولم نقتلك فيمن قتلنا من الاطفال (ولبثت فينا من عمرك سنين) فمتى كان هذا الذى تدعيه قيل لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة وقيل أربعين سنة ثم وبخه بقتل القبطى فقال (وفعلت فعلتك التى فعلت) الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل كما قيل ع الفعلة للمرة والفعلة للحالة وقرأ الشعبى بكسر الفاء والفتح أولى لانها للمرة الواحدة لا للنوع والمعنى أنه عدد عليه النعم وذكر له ذنوبه وأراد بالفعلة قتل القبطى ثم قال (وأنت من الكافرين) للنعمة حيث قتلت رجلا من أصحابى وقيل من الكافرين بأن فرعون اله وقيل من الكافرين بالله فى زعمه لانه كان معهم على دينهم (قال) موسى مجيبا لفرعون (فعلتها اذا) أى فعلت هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى (وأنا) اذ ذاك (من الضالين) أى الجاهلين قاله ابن عباس فنفى عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر وأخبر انه فعل ذلك على الجهل قبل ان يأتيه العلم الذى علمه الله وقيل المعنى من الجاهلين ان تلك الوكزة تبلغ القتل وقال أبو عبيدة من الناسين وقيل من المخطئين قال ابن جرير العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال (ففررت منكم) أى خرجت من بينكم الى مدين كما فى سورة القصص (لما خفتكم) ان تقتلونى وذلك حين قال له مؤمن من آل فرعون ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج الآية (فوهب لى ربى حكما) أى نبوة أو علما وفهما وقال الزجاج المراد بالحكم تعليمه التوراة التى فيها حكم الله (وجعلنى من المرسلين) أى من جملة رسله رد بذلك ما وبخه به فرعون قدحا فى نبوته وهو القتل بغير حق ووجه الرد أن موهبة الحكم والنبوة كانت بعد تلك الحادثة (وتلك نعمة تمنها على) قيل هذا الكلام من موسى على جهة الاقرار بالنعمة كأنه قال نعم تلك التربية نعمة تمن بها على ولكن لا يدفع ذلك رسالتى وبهذا قال الفراء وابن جرير وقيل هو من موسى على جهة الانكار أى أتمن على بأن ربيتنى وليدا وأنت قد استعبدت بنى اسرائيل وقتلتهم وهم قومى قال الزجاج المفسرون أخرجوا هذا على جهة الانكار لأن يكون ما ذكر فرعون

والترمذى من طرق عن عوف الاعرابى به نحوه وقال الترمذى حسن صحيح ثم جعلناه نطفة هذا الضمير عائد على جنس الانسان كما قال فى الآية الاخرى وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين أى ضعيف كما قال ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين يعنى الرحم معد لذلك مهيأ له الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون أى مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقل من حال الى حال وصفة الى صفة ولهذا قال ههنا ثم خلقنا النطفة علقة أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وهو ظهره وترائب المرأة وهى ٨ عظام صدرها ما بين الترقوة الى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة المستطيلة قال عكرمة وهى دم فخلقنا العلقة مضغة وهى قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط فخلقنا المضغة عظاما يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها وقرأ آخرون فخلقنا المضغة عظما قال ابن عباس وهو عظم الصلب وفى الصحيح من حديث أبى الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جسد ابن آدم يبلى الا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب فكسونا العظام لحما أى جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ثم أنشأناه خلقا آخر أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقا آخر ذا سمع وبصر وادراك وحركة واضطراب فتبارك الله أحسن الخالقين وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا النضر يعنى ابن كثير مولى بنى هاشم حدثنا زيد بن على عن أبيه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال اذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله اليها ملكا فنفخ فيها الروح فى ظلمات ثلاث فذلك قوله ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى نفخنا فيه الروح وروى عن أبى سعيد الخدرى انه نفخ الروح قال ابن عباس ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى فنفخنا فيه الروح وكذا قال مجاهد وعكرمة والشعبى والحسن وأبو العالية والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد واختاره ابن جرير وقال العوفى عن ابن عباس ثم أنشأناه خلقا آخر يعنى ننقله من حال الى حال الى ان خرج طفلا ثم نشأ صغيرا ثم احتلم ثم صار شابا ثم كهلا ثم شيخا ثم هرما وعن قتادة والضحاك نحو ذلك ولا منافاة فانه من ابتداء نفخ الروح فيه شرع فى هذه التنقلات والاحوال والله أعلم

نعمة على موسى واللفظ لفظ خبر وفيه تبكيت للمخاطب على معنى أنك لو كنت لا تقتل أبناء بنى اسرائيل لكانت أمى مستغنية عن قذفى فى البحر فكأنك تمن على بما كان بلاؤك سببا له وذكر نحوه الازهرى بابسط منه وقال المبرد يقول التربية كانت بالسبب الذى ذكرت من التعبد أى تربيتك اياى كانت لاجل التملك والقهر لقومى وقيل ان فى الكلام تقدير الاستفهام أى أو تلك نعمة قاله الاخفش وأنكره النحاس قال الفراء ومن قال ان الكلام انكار قال أو تلك نعمة أى ليست هذه نعمة حتى تمن بها على ومعنى (أن عبدت بنى اسرائيل) ان اتخذتهم عبيدا يقال عبدته وأعبدته بمعنى كذا قال الفراء ومحله الرفع على انه خبر مبتدا محذوف أو بدل من نعمة والجر باضمار الباء والنصب بحذفها وعن مجاهد قال عبدت بنى اسرائيل قهرتهم واستعملتهم وفيه أوجه سبعة ذكرها السمين (قال فرعون وما رب العالمين) أى لما سمع قول موسى وهرون انا رسول رب العالمين قال مستفسرا لهما عن ذلك عازما على الاعتراض لما قالاه أى أى شىء هو جاء فى الاستفهام بما التى يستفهم بها عن المجهول ويطلب بها تعيين الجنس وقيل معناه وما صفته تقول ما زيد أى طويل أم قصير فقيه أم طبيب نص عليه صاحب الكشاف وغيره فلما قال فرعون ذلك (قال) موسى (رب السموات والارض وما بينهما) أى بين الجنسين فعين له ما أراد بالعالمين وترك جواب ما سأل عنه فرعون لانه سأل عن جنس رب العالمين ولا جنس له فأجابه موسى بما يدل على عظيم القدرة الالهية التى تتضح لكل سامع انه سبحانه الرب ولا رب غيره وفيه ابطال لدعواه انه اله (ان كنتم موقنين) بشىء من الاشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله وهو العلم الذى يستفاد بالاستدلال ولذا لا يقال الله موقن (قال) فرعون (لمن حوله) من اشراف قومه وهم خمسمائة رجل عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون) ما قاله يعنى موسى معجبا لهم من ضعف المقالة كأنه قال أتسمعون وتعجبون يعنى سألته عن حقيقته وهو يذكر أفعاله أو يزعم انه رب السموات وهى واجبة متحركة لذاتها كما هو مذهب الدهرية أو غير معلوم افتقارها الى مؤثر والعدول عن الجواب المطابق متعين لاستحالته فالسؤال عن الحقيقة سفه وعبث وحمق وهذا من اللعين مغالطة لما لم يجد جوابا عن الحجة التى أوردها عليه موسى فلما سمع موسى ما قاله فرعون أورد عليه حجة أخرى هى مندرجة تحت الحجة الاولى ولكنها أقرب الى فهم

قال الامام احمد في مسنده حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله هو ابن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق ان أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين ليلة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات رزقه وأجله وعمله وهل هو شقي أو سعيد فوالذي لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها وان الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها

أخرجاه من حديث سليمان بن مهران الاعمش وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الاعمش عن أبي خيثمة قال قال عبد الله يعني ابن مسعود ان النطفة اذا وقعت في الرحم طارت في كل شعر وظفر فتمكث أربعين يوما ثم تعود في الرحم فتكون علقة وقال الامام أحمد أيضا حدثنا حسين بن الحسن حدثنا أبو كدينة عن عطاء بن السائب عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله قال مر يهودي برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحدث أصحابه فقالت قريش يا يهودي ان هذا يزعم انه نبي فقال لأسألنه عن شئ لا يعلمه الا نبي قال فجاءه حتى جلس فقال يا محمد مم يخلق الانسان فقال يا يهودي من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة فاما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم فقال هكذا كان يقول من قبلك وقال الامام أحمد حدثنا سفيان بن عمرو عن أبي الطفيل عن حذيفة بن

أسيد الغفاري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين ليلة فيقول يا رب ماذا أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله فيكتبان ويكتب عمله وأثره ومصيبته ورزقه ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو وهو ابن دينار نحوه ومن طريق أخر عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة بن أسيد أبي سريحة الغفاري بنحوه والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن عبدة حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن أبي بكر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله وكل بالرحم

السامعين (قال ربكم ورب آبائكم الاولين) وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لان أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم ان فرعون مربوب لا رب كما يدعيه والمعنى ان هذا الرب الذي أدعوكم اليه هو الذي خلق آباءكم الاولين وخلقكم فكيف تعبدون من هو واحد منكم مخلوق كخلقكم وله آباء قد فنوا كآبائكم فلم يجبه فرعون عند ذلك بشئ يعتد به بل جاء بما يشكك قومه ويخيل اليهم ان هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء (قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون) قاصدا بذلك المغالطة وايقاعهم في الحيرة مظهرا انه مستخف بما قاله موسى مستهزئ به لاني أسأله عن شئ ويجيبني عن آخر وأضافه الى مخاطبيه ترفعا عن ان يكون مرسلا الى نفسه فأجابه موسى عند ذلك بما هو تكميل لجوابه الاول (قال رب المشرق والمغرب وما بينهما) خصهما لانهما أوضح دلالة وأظهر وذلك انه أراد بالمشرق طلوع الشمس وطلوع النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار ومعلوم ان طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم لا يكون الا بتقدير قادر حكيم والمعنى ليس ملكه كملكك لانك انما تملك بلدا واحدا لا يجري أمرك في غيره ويموت فيه من لا تحب أن يموت والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب وما بينهما أي فتشاهدون في كل يوم انه يأتي بالشمس من المشرق ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله حتى يبلغها الى المغرب على وجه نافع تنتظم به أمور الكائنات ولم يشتغل موسى بدفع ما نسبه اليه من الجنون بل بين لفرعون شمول ربوبية الله للمشرق والمغرب وما بينهما وان كان ذلك داخلا تحت ربوبيته سبحانه للسموات والارض وما بينهما لما تقدم ولان فيه تصريحا باسناد حركات السموات وما فيها وتغير أحوالها وأوضاعها تارة بالنور وتارة بالظلمة الى الله وقيل علم موسى ان قصده في السؤال معرفة من سأل عنه فأجاب بما هو الطريق الى معرفة الرب (ان كنتم تعقلون) شيأ من الاشياء أو ان كنتم من أهل العقول أي ان كنت يا فرعون ومن معك من العقلاء عرفت وعرفوا أنه لا جواب لسؤالك الا ما ذكرت لك لاينهم أولا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم ان كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم وأغلظ عليهم في الرد وعارضهم بمثل مقالتهم بقوله ان كنتم تعقلون لانه ابلغ وأوفق بما قبله من رد نسبة الجنون اليه ثم ان اللعين لما انقطع عن الحجة رجع الى

ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فإذا أراد الله خلقها قال أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد فما الرزق والأجل فيكتب في بطن أمه أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به وقوله فتبارك الله أحسن الخالقين يعني حين ذكر في خلق هذه النطفة من حال الى حال وشكل الى شكل حتى تصورت الى ما صارت اليه من الانسان السوي الكامل الخلق قال فتبارك الله أحسن الخالقين قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا حماد بن سلمة حدثنا علي بن زيد عن أنس قال قال عمر يعني (١) ابن الخطاب رضي الله عنه وافقت ربي ووافقني في أربع نزلت هذه الآية ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الآية قلت أنا فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت فتبارك الله أحسن الخالقين وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا آدم بن أبي اياس حدثنا شيبان عن جابر الجعفي عن عامر الشعبي عن زيد بن ثابت الانصاري قال أملى علي رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى قوله خلقا آخر فقال معاذ فتبارك الله أحسن الخالقين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له معاذ مم ضحكت يا رسول الله فقال بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين وفي اسناده جابر بن يزيد الجعفي ضعيف جدا وفي خبره هذا نكارة شديدة وذلك أن هذه السورة مكية وزيد بن ثابت انما كتب الوحي بالمدينة وكذلك اسلام معاذ بن جبل انما كان بالمدينة أيضا فالله أعلم وقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون يعني بعد هذه النشأة الاولى من العدم تصيرون الى الموت ثم انكم يوم القيامة تبعثون يعني النشأة الآخرة ثم الله ينشئ النشأة الآخرة يعني يوم المعاد وقيام الارواح الى الاجساد فيحاسب الخلائق ويوفي كل عامل عمله ان خيرا فخير وان شرا فشر (ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين) لما ذكر تعالى خلق الانسان عطف بذكر خلق السموات السبع وكثيرا ما يذكر تعالى خلق السموات والارض مع خلق الانسان كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر من خلق الناس وهكذا في أول الم السجدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها صبيحة يوم الجمعة في أولها خلق السموات والارض ثم بيان خلق الانسان من سلالة من طين وفيها أمر المعاد والجزاء وغير ذلك من المقاصد وقوله سبع طرائق

الاستعلاء والغلب والتهديد وهكذا ديدن المعاند المحجوج (قال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين) أي من أهل السجن واللام للعهد أي ممن عرفت حالهم في سجوني وكان سجن فرعون أشد من القتل لانه اذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت وكان يطرحه في هوة عميقة في مكان تحت الارض وحده ولذلك جعل أبلغ من لأسجننك فوعد موسى بالسجن ولم يقل ما دليلك على ان هذا الاله أرسلك لان فيه الاعتراف بان ثم الها غيره وفي توعده بالسجن ضعف لما روي انه كان يفزع من موسى فزعا شديدا حتى كان اللعين لا يمسك بوله فلما سمع موسى عليه الصلاة والسلام ذلك لاطفه طمعا في اجابته وارخاء لعنان المناظرة معه مريدا لقهره بالحجة المعتبرة في باب النبوة وهي اظهار المعجزة فعرض له على وجه يلجئه الى طلب المعجزة (قال أولو جئتك بشيء مبين) أي أتجعلني من المسجونين ولو جئتك بشيء يتبين به صدقي ويظهر عنده صحة دعواي يعني المعجزة فانها الجامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والهمزة هنا للاستفهام والواو للعطف على مقدر كما مر مرارا فلما سمع فرعون ذلك طلب ما عرضه عليه موسى (قال فأت به ان كنت من الصادقين) في دعواك وانما أمره بذلك لطمعه انه يقدر على معارضته وهذا الشرط جوابه محذوف لانه قد تقدم ما دل عليه وعند ذلك أبرز موسى المعجزة (فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين) أي ظاهر ثعبانيته ليس بتمويه وتخييل كما يفعل السحرة قيل انها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون فقال بالذي أرسلك الا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت وقد تقدم تفسير هذا وما بعده في سورة الاعراف واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء في الارض فانثعب أي فجرته فانفجر وقد عبر سبحانه في موضع آخر مكان الثعبان بالحية بقوله فاذا هي حية تسعى وفي موضع بالجان فقال كأنها جان والجان هو المائل الى الصغر والثعبان هو المائل الى الكبر والحية جنس يشمل الكبير والصغير (ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين) خلاف ما كانت عليه من الادمة وفيه دليل على ان بياضها كان شيئا يجتمع النظارة على النظر اليه لخروجه عن العادة وكان بياضها نورانيا قال ابن عباس يقول وأخرج موسى يده من جيبه فاذا هي بيضاء تلمع للناظر لمن ينظر اليها ويراها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يغشي الابصار ويسد الافق

(قال

(قال للملا) مستقرين (حوله ان هذا الساحر عليم) فائق فى علم السحر وكان زمان السحر فلهذا روج فرعون هذا القول على قوله ثم قال على سبيل التنفير (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره) لئلا يقبلوا قول موسى عليه الصلاة والسلام (فماذا تأمرون) أى ما رأيكم فيه وما مشورتكم فى مثله فاظهر لهم الميل الى ما يقولونه تألفا لهم واستجلابا لمودتهم لانه قد أشرف ما كان فيه من دعوى الربوبية على الزوال وقارب ما كان يعززبه عليهم الاضمحلال والا فهو أكبرتيها وأعظم كبرا من أن يخاطبهم مثل هذه المخاطبة المشعرة بأنه فرد من افرادهم وواحد منهم مع كونه قبل هذا الوقت يدعى انه الههم ويذعنون له بذلك ويصدقونه فى دعواه قال أبو السعود بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع لعبيده فى زعمه والامتثال بأمرهم أو الى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعدما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما من أرجيته اذا أخرته وقيل المعنى احبسهما (وابعث فى المدائن حاشرين) للسحرة وهم الشرط الذين يحشرون الناس أى يجمعونهم (يأتوك بكل سحار عليم) هذا ما أشاروا به عليه وجاؤا بكلمة الاحاطة وصيغة المبالغة ليسكنوا بعض قلقه والمراد بالسحار العليم الفائق فى معرفة السحر وصنعته أى يفضل موسى ويفوق ويزيد عليه فى علم السحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو يوم الزينة كما فى قوله قال موعدكم يوم الزينة وكان يوم عيد لهم أو يوم سوق وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى من يوم الزينة حيث قال وأن يحشر الناس ضحى والميقات ما وقت أى حد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الاحرام والصلاة (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) حثا لهم على الاجتماع ليشاهدوا ما يكون من موسى والسحرة ولمن تكون الغلبة وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور وطلبا أن يكون بجمع من الناس حتى لا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع ذلك من موسى الموقع الذى يريده لانه يعلم ان حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين والانقهار للمبطلين (لعلنا نتبع السحرة) فى دينهم (ان كانوا

قال مجاهد يعنى السموات السبع وهذه كقوله تعالى تسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا الله الذى خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شئ قدير وان الله قد أحاط بكل شئ علما وهكذا قال ههنا ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين أى ويعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا جبل الا يعلم ما فى وعره ولا بحر الا يعلم ما فى قعره ويعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والاشجار وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الارض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) يذكر تعالى نعمه على عبيده التى لا تعد ولا تحصى فى انزاله القطر من السماء بقدر أى بحسب الحاجة لا كثيرا فيفسد الارض والعمران ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار بل بقدر الحاجة اليه من السقى والشرب والانتفاع به حتى ان الاراضى التى تحتاج ماء كثيرا لزرعها ولا تحتمل دمنتها انزال المطر عليها يسوق اليها الماء من بلاد أخرى كما فى أرض مصر ويقال لها الارض الجرز يسوق الله اليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان امطارها فيأتى الماء يحمل طينا أحمر فيسقى أرض مصر ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه لان أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور وقوله فأسكناه فى الارض أى جعلنا الماء اذا نزل من السحاب يخلد فى الارض وجعلنا فى الارض قابلية له وتشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى وقوله وانا على ذهاب به لقادرون أى لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ولو شئنا أذى اصرفناه عنكم الى السباخ والبرارى والقفار لفعلنا ولو شئنا لجعلناه أجاجا لا ينتفع به لشرب ولا لسقى لفعلنا ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الارض بل يجرى على وجهها لفعلنا ولو شئنا لجعلناه اذا نزل فيها يغور الى مدى لا تصلون اليه ولا تنتفعون به

ما

هم الغالبين) لا موسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وانما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم على الاهتمام والجد في المبالغة قاله أبو السعود وقيل أرادوا بالسحرة موسى وهرون على طريقة الاستهزاء (فلما جاء السحرة) أي فعند ذلك طلب السحرة من فرعون الجزاء على ما سيفعلونه (وقالوا لفرعون أئن لنا لأجرا) أي لجزاء تجزينا به من مال أو جاه وقيل أرادوا أن لنا ثوابا عظيما ثم قيدوا ذلك بظهور غلبتهم لموسى فقالوا (ان كنا نحن الغالبين) فوافقهم فرعون على ذلك و (قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) أي نعم لكم ذلك الاجر والجعل عندي على عملكم السحر مع زيادة عليه وهي كونكم من المقربين لدي (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) من السحر فسوف ترون عاقبته وفي آية أخرى قالوا اما أن تلقي واما أن نكون نحن الملقين فيحمل ما ههنا على انه قال لهم ألقوا بعد ان قالوا هذا القول ولم يكن ذلك من موسى عليه السلام أمرا لهم بفعل السحر والتمويه بل أراد أن يقهرهم بالحجة توسلا الى اظهار الحق ويظهر لهم ان الذي جاء به ليس هو من الجنس الذي أرادوا معارضته به (فألقوا حبالهم وعصيهم) سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصا وقيل كانت الحبال اثنين وسبعين ألفا وكذا العصي فيخيلون انها حيات تسعى (وقالوا) عند الالقاء (بعزة فرعون) أقسموا بعزته وقوته وهو من أيمان الجاهلية وقولهم هذا يحتمل وجهين الاول انه قسم وجوابه ما بعده والثاني أن يتعلق بمحذوف والباء للسببية والمراد بالعزة العظمة (انا لنحن الغالبون) أي نغلب بسبب عزته لفرط اعتقادهم في أنفسهم بالغلبة واتيانهم باقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون) قد تقدم تفسير هذا مستوفى والمعنى انها تبتلع وتلقف ما صدر منهم من الافك باخراج الشيء عن صورته الحقيقية قيل ان عصا موسى صارت حية وابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم ثم أخذها موسى فاذا هي كما كانت أول مرة (فألقي السحرة) أي خروا وسقطوا (ساجدين) أي لما شاهدوا ذلك علموا أنه صنيع صانع حكيم ليس من صنيع البشر ولا من تمويه السحرة فآمنوا بالله وسجدوا له وأجابوا دعوة موسى وقبلوا نبوته وعبر عن الخرور بالالقاء بطريق المشاكلة لانه ذكر مع الالقاآت

ولانهم

لتعطشوا ولكن بلطفه وبرحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبا فراتا زلالا فيسكنه في الارض ويسلكه ينابيع في الارض فيفتح والانهار ويسقي به الزروع والثمار وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه وتتطهرون منه وتتنظفون فله المنة وقوله فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب يعني فأخرجنا لكم مما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ذات بهجة أي ذات منظر حسن وقوله من نخيل وأعناب أي فيها نخيل وأعناب وهذا ما كان يألف أهل الحجاز ولا فرق بين الشيء وبين نظيره وكذلك في حق كل أهل اقليم عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يعجزون عن القيام بشكره وقوله لكم فيها فواكه كثيرة أي من جميع الثمار كما قال ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات وقوله ومنها تأكلون كأنه معطوف على شيء مقدر تقديره تنظرون الى حسنه ونضجه ومنه تأكلون وقوله وشجرة تخرج من طور سيناء يعني الزيتونة والطور هو الجبل وقال بعضهم انما يسمى طورا اذا كان فيه شجر فان عري عنها سمي جبلا لا طورا فالله أعلم وطور سيناء هو طور سينين وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون وقوله تنبت بالدهن قال بعضهم الباء زائدة وتقديره تنبت الدهن كما في قول العرب ألقى فلان بيده أي يده وأما على قول من يضمن الفعل فتقديره تخرج بالدهن أو تأتي بالدهن ولهذا قال وصبغ أي أدم قاله قتادة للآكلين أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع عن عبد الله بن عيسى عن عطاء الشامي عن أبي أسيد واسمه مالك بن ربيعة الساعدي الانصاري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به فانه من شجرة مباركة وقال عبد بن حميد في مسنده وتفسيره حدثنا عبد الرزاق انا معمر عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ائتدموا بالزيت وادهنوا به فانه يخرج من شجرة مباركة ورواه الترمذي وابن ماجه من غير وجه عن عبد الرزاق قال الترمذي ولا يعرف الا من حديثه وكان يضطرب فيه فربما ذكر فيه عمر وربما لم يذكره وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي حدثنا سفيان بن عيينة حدثني الصعب بن حكيم بن شريك بن نملة عن أبيه عن جده قال ضفت عمر بن

الخطاب رضي الله عنه ليلة عاشوراء فأطعمني من رأس بعير بارد والمعمنا زيتا وقال هذا الزيت المبارك الذي قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم وقوله وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون يذكر تعالى ما جعل لخلقه في الأنعام من المنافع وذلك انهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها ويركبون ظهورها ويحملونها الاحمال الثقال الى البلاد النائية عنهم كما قال تعالى وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس ان ربكم لرؤف رحيم (١٣) وقال تعالى أولم يروا انا خلقنا لهم مما

ولاسيما لسرعة ما سجدوا واصاروا كأنهم ألقوا وأخذوا فطرحوا على وجوههم وانه تعالى ألقاهم بما خولهم من التوفيق وقد تقدم بيان معنى ألقي ومن فاعله لوقوع التصريح به قال الشهاب ففي فألقي استعارة تبعية حسنها المشاكلة وليس مجازا مرسلا وان احتمله النظم ووجه الشبه عدم التمالك (قالوا) عند سجودهم بدل اشتمال من ألقي أو حال باضمار قد (آمنا برب العالمين) قال عكرمة أصبحوا سحرة وأصبحوا شهداء (رب موسى وهرون) بدل للتوضيح والاشعار بأن سبب ايمانهم ما أجراه الله تعالى على يديهما لعلمهم بأن ما شاهدوه من العصا لا يتأتى بالسحر وأضافوه سبحانه اليهما لانهما القائمان بالدعوة في تلك الحالة وفيه تبكيت لفرعون بأنه ليس برب وان الرب في الحقيقة هو هذا فلما سمع فرعون ذلك منهم ورأى سجودهم لله (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم) أي بغير اذن مني قال ذلك لما خاف على قومه ان يتبعوا السحرة ثم قال مغالطا للسحرة الذين آمنوا وموهما للناس أن فعل موسى سحر من جنس ذلك السحر (انه لكبيركم الذي علمكم السحر) وانما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحب الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى لانه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاءت به السحرة فاراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم وان كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة فهو فعل كبيرهم ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر وانه من فعل الرب الذي يدعو اليه موسى ولا تعتقدوا ان السحرة آمنوا على بصيرة وظهور حق يعني ان غلبته عليكم لم تكن بالمعجز الالهي بل بما لم يعلمكم من السحر وأنتم اضعف عقولكم حسبتم انه غلبكم بغير جنس السحر فآمنتم ثم توعد أولئك السحرة الذين آمنوا بالله لما قهرتهم حجة الله فقال (فلسوف تعلمون) وبال ما فعلتم وما ينالكم مني أجمل التهديد أولا للتهويل ثم فصله فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف) أي من أجل خلاف ظهر منكم وقيل أي يد كل واحد اليمنى ورجله اليسرى (ولأصلبنكم أجمعين) كأنه أراد به ترهيب العامة لئلا يتبعوهم في الايمان قيل انه فعل بهم ما توعدهم به من التقطيع والتصليب وقيل لم يفعله بهم ولم يرد في القرآن ما يدل على انه فعل بهم ذلك فلما سمعوا ذلك من قوله (قالوا لا ضير) أي لا ضرر علينا فيما يلحقنا من عقاب الدنيا فان ذلك

عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه الى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون أي لا تخافون من الله في اشراككم به فقال الملأ وهم السادة والاكابر منهم ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم يعنون يترفع عليكم ويتعاظم بدعوى النبوة وهو بشر مثلكم فكيف أوحي اليه دونكم ولو شاء الله لانزل ملائكة أي لو أراد أن يبعث نبيا لبعث ملكا من عنده ولم يكن بشرا ما سمعنا بهذا أي ببعثة البشر في آبائنا الاولين يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية وقوله ان هو الا رجل به جنة أي مجنون فيما يزعمه من ان الله أرسله اليكم واختصه من بينكم بالوحي فتربصوا به حتى حين أي انتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه (قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان في ذلك لآيات وان

كالمبتلين) يخبر تعالى عن نوح عليه السلام انه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبرا عنه في الآية الاخرى فدعا ربه اني مغلوب فانتصر وقال ههنا رب انصرني بما كذبون فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة واحكامها واتقانها وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار وغير ذلك وان يحمل فيها أهله الا من سبق عليه القول منهم أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته والله أعلم وقوله ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون أي عند معاينة (١٤) انزال المطر العظيم لا تأخذنك رأفة بقومك وشفقة عليهم وطمع في تأخيرهم لعلهم يؤمنون فاني قد قضيت انهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان وقد تقدمت القصة مبسوطة في سورة هود بما يغني عن اعادة ذلك ههنا وقوله فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين كما قال وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وانا الى ربنا لمنقلبون وقد امتثل نوح عليه السلام هذا كما قال تعالى وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها فذكر الله تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه وقال تعالى وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين وقوله ان في ذلك لآيات أي ان في هذا الصنيع وهو انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين لآيات أي لحجج ودلالات واضحات على صدق الانبياء فيما جاؤا به عن الله تعالى وانه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شئ عليم بكل شئ وقوله وان كنا لمبتلين أي لمختبرين للعباد بارسال المرسلين (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين وبه

فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون قال عما قليل ليصبحن

يزول ولا بد من الانقلاب بعده الى ربنا فيعطينا من النعيم الدائم ما لا يحد ولا يوصف قال الهروي لا ضير ولا ضرر ولا ضر بمعنى واحد قال الجوهري ضاره يضوره ويضيره ضيرا وضورا أي ضره قال الكسائي سمعت بعضهم يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني قال أبو زيد لا يضيرنا الذي تقول وان صنعت بنا وصلبتنا (انا الى ربنا منقلبون) أي راجعون وهو مجازينا لصبرنا على عقوبتك ايانا وثباتنا على توحيده والبراءة من الكفر قاله أبو زيد. تعليل لعدم الضير أي لا ضير في ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به من القتل اذ لا بد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من أسباب الموت والقتل أهونها وأرجاها (انا نطمع) أي نرجو (أن يغفر لنا ربنا خطايانا) أي الكفر والسحر وغيرهما ثم علل هذا بقولهم (أن كنا) أي بسبب أن كنا (أول المؤمنين) أي انهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد وقال الفراء أول مؤمني زمانهم وأنكره الزجاج وقال قد روي انه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفا وهم الذين عناهم فرعون بقوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون قال أبو زيد كانوا كذلك يومئذ أول من آمن بآياته حين رأوها (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) أمر الله سبحانه موسى أن يخرج ببني اسرائيل ليلا الى البحر أي لا الى جهة الشام بالبر وهذا بعد سنين من ايمان السحرة وسماهم عباده لانهم آمنوا بموسى وبما جاء به وقد تقدم تفسير مثل هذا في سورة الاعراف (انكم متبعون) تعليل للامر المقدم أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم أي أسريهم حتى اذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم الى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم وأغرقهم (فأرسل فرعون في المدائن حاشرين) وذلك حين بلغه خروجهم والمراد بالحاشرين الجامعون للجيش من الامكنة التي فيها أتباع فرعون ثم قال فرعون لقومه بعد اجتماعهم لديه (ان هؤلاء لشرذمة قليلون) يريد بني اسرائيل والشرذمة الجمع الحقير القليل والجمع شراذم قال الجوهري الشرذمة الطائفة القليلة من الناس والقطعة من الشيء وثوب شراذم أي قطع قال الفراء يقال عصبة قليلة وقليلون وكثيرة وكثيرون قال المبرد الشرذمة القطعة من الناس غير الكثير وجمعها الشراذم قال الواحدي قال المفسرون وكان الشرذمة الذين قللهم فرعون ستمائة ألف

وبه قال ابن عباس ولا يحصى عدد أصحاب فرعون وقال ابن مسعود ستمائة ألف وسبعون ألفا ومقدمة جيشه سبعمائة ألف فقللهم بالنظر الى كثرة جيشه وجملة جيشه ألف ألف وستمائة ألف وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان أصحاب موسى الذين جازوا البحر اثني عشر سبطا فكان في كل طريق اثنا عشر ألفا كلهم ولد يعقوب وأخرج ابن مردويه عنه أيضا بسند قال السيوطي واه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان فرعون عدو الله حيث أغرقه الله سبحانه هو وأصحابه في سبعين قائدا مع كل قائد سبعون ألفا وكان موسى مع سبعين ألفا حيث عبروا البحر وعنه قال كان طلائع قوم فرعون الذين بعثهم في أثرهم ستمائة ألف ليس فيها أحد الا على بهيم وأقول هذه الاقوال والروايات المضطربة قد روي عن كثير من السلف ما يماثلها في الاضطراب والاختلاف ولا يصح منها شئ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وانهم لنا لغائظون) يقال غاظني كذا وأغاظني والغيظ الغضب ومنه التغيظ والاغتياظ أي غائظون بخروجهم من غير اذن مني (وانا لجميع حاذرون) أي خائفون من شرهم وقرئ حذرون قال الفراء الحاذر الذي يحذرك الآن والحذر المخلوق كذلك أي مجبولا على الحذر لا تلقاه الا حذرا وقال الزجاج الحاذر المستعد والحذر المتيقظ وبه قال الكسائي والمبرد وذهب أبو عبيدة الى ان معنى حاذرون وحذرون واحد وهو قول سيبويه أي وانا لجمع من عادتنا الحذر واستعمال الحزم في الامور أشار أولا الى عدم ما يمنع أتباعهم من شوكتهم ثم الى تحقق ما يدعو اليه من فرط عداوتهم ووجوب التيقظ في شأنهم حثا عليه أو اعتذر بذلك الى أهل المدائن كيلا يظن به ما يكسر سلطانه قاله البيضاوي (فأخرجناهم) أي فرعون وقومه أي خلقنا فيهم داعية الخروج فخرجوا (من جنات وعيون وكنوز) أخرجهم الله من أرض مصر ليلحقوا موسى وقومه وفيها الجنات والبساتين على جانبي النيل من أسوان الى رشيد وهي جمع جنة وعين وكنز والمراد بالكنوز الخزائن وقيل الدفائن وقيل الانهار وفيه نظر لان العيون المراد بها عند جمهور المفسرين عيون الماء فتدخل تحتها الانهار والمراد بالكنوز الاموال الظاهرة من الذهب والفضة وسميت كنوزا لانه لم يعط حق الله منها وفي الشهاب المراد بها اما الاموال التي تحت الارض وخصها لان ما فوقها انطمس أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لانه يقال له كنز والاول أوفق باللغة

نادمين فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) يخبر تعالى انه أنشأ بعد قوم نوح قرنا آخرين قيل المراد بهم عاد فانهم كانوا مستخلفين بعدهم وقيل المراد بهم ثمود لقوله فأخذتهم الصيحة بالحق وانه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم فدعاهم الى عبادة الله وحده لا شريك له فكذبوه وخالفوه وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم واستنكفوا عن اتباع رسول بشري وكذبوا بلقاء الله في القيامة وأنكروا المعاد الجثماني وقالوا أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون أي بعيد بعيد ذلك ان هو الا رجل افترى على الله كذبا أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والاخبار بالمعاد وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرني بما كذبون أي استفتح عليهم الرسول واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه قال عما قليل ليصبحن نادمين أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به فأخذتهم الصيحة بالحق أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم والظاهر انه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي الباردة تدمر كل شئ بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم وقوله فجعلناهم غثاء أي صرعى هلكى كغثاء السيل وهو الشئ الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشئ منه فبعدا للقوم الظالمين كقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا للقوم لا يؤمنون) يقول تعالى ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين أي أمما وخلائق ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون يعني بل يؤخذون على حسب ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة وقرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وخلفا بعد سلف ثم أرسلنا رسلنا تترى قال ابن عباس يعني يتبع بعضهم بعضا وهذا كقوله تعالى ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة وقوله كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعني جمهورهم وأكثرهم كقوله تعالى ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقوله فأتبعنا بعضهم بعضا أي أهلكناهم كقوله وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وقوله وجعلناهم أحاديث أي

أخباراً وأحاديث للناس كقوله فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام وأخاه هرون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات والبراهين القاطعات وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما لكونهما بشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر تشابهت قلوبهم فأهلك الله فرعون وملأه وأغرقهم في يوم واحد أجمعين وأنزل على موسى الكتاب وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه وذلك بعدما قصم الله فرعون والقبط وأخذهم أخذ عزيز مقتدر وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين كما قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين) يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى وقوله وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين قال الضحاك عن ابن عباس الربوة المكان المرتفع من الأرض وهو أحسن ما يكون فيه النبات وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير وقتادة قال ابن عباس وقوله ذات قرار يقول ذات خصب ومعين يعني ماء ظاهراً وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة وقال فقالوا مجاهد ربوة مستوية وقال سعيد بن جبير ذات قرار ومعين استوى الماء فيها وقال مجاهد وقتادة ومعين الماء الجاري ثم اختلف المفسرون في مكان هذه الربوة من أي أرض هي فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ليس الربى إلا بمصر والماء حين يرسل يكون الربى عليها القرى ولولا الربى غرقت القرى وروي عن وهب بن منبه نحو هذا وهو بعيد جداً وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب في قوله وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين قال هي دمشق قال وروي عن عبد الله بن سلام والحسن وزيد بن أسلم وخالد بن معدان نحو ذلك

والثاني مروي عن السلف فلا وجه لتحكمهما (ومقام كريم) أي محسن واختلف في تفسيره فقيل المنازل الحسان وقيل المنابر قاله ابن عباس وقيل مجالس الرؤساء والأمراء والوزراء حكاه ابن عيسى وقيل مرابط الخيل والأول أظهر وقال سعيد بن جبير يعني ان المقام الكريم الفيوم (كذلك) أي أخرجناهم مثل ذلك الإخراج الذي وصفنا أو مقام كريم مثل ذلك المقام الذي كان لهم أو الأمر كذلك (وأورثناها بني إسرائيل) أي جعلناها ملكاً لهم بعد إغراق فرعون وقومه قال الحسن لما عبروا النهر رجعوا وأخذوا ديارهم وجناتهم وأموالهم وعيونهم وقيل أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلي آل فرعون بأمر الله تعالى وقيل مساكنهم الحسنة والكنوز قلت وكلا الأمرين حصل لهم والحمد لله (فأتبعوهم) بقطع الهمزة وقرئ بوصلها وتشديد التاء أي فلحقوهم حال كونهم (مشرقين) أي داخلين في وقت الشروق فقال شرقت الشمس شروقاً إذا طلعت كأصبح وأمسى أي دخل في هذين الوقتين وقيل داخلين نحو المشرق كأنجدوا وأتهموا وقيل مضيئين قال الزجاج يقال شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت إذا أضاءت (فلما تراءى الجمعان) أي تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه وهو تفاعل من الرؤية وقرئ تراءت الفئتان والمراد بنو إسرائيل والقبط (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) أي سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم وهذه قراءة الجمهور يعني اسم مفعول من أدرك ومنه حتى إذا أدركه الغرق وقرئ بفتح الدال المشددة وكسر الراء قال الفراء هما بمعنى واحد قال النحاس ليس كذلك يقول النحويون الحذاق إنما يقولون مدركون بالتخفيف ملحقون وبالتشديد مجتهدون في لحاقهم قال وهذا معنى قول سيبويه وقال الزمخشري إن معنى هذه القراءة إنا لمتتابعون في الهلاك على أيديهم حتى لا يبقى منا أحد قال موسى زجراً لهم وردعاً (كلا) يعني إنهم لا يدركونكم وذكرهم وعد الله بالهداية والخلاص والظفر بقوله (إن معي ربي) بالنصر (سيهدين) أي سيدلني على طريق النجاة عن أبي موسى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال إن موسى لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا فقال له علماء بني إسرائيل إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً أن لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا فقال لهم موسى أيكم يدري أين قبره

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ذات قرار ومعين قال أنهار دمشق وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد وآويناهما الى ربوة قال عيسى بن مريم وامه حين أويا الى غوطة دمشق وما حولها وقال عبد الرزاق عن بشر بن رافع عن أبي عبد الله بن عم أبي هريرة قال سمعت أبا هريرة يقول في قول الله تعالى الى ربوة ذات قرار ومعين قال هي الرملة من فلسطين وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابراهيم بن محمد بن يوسف الفريابي حدثنا رواد بن الجراح حدثنا عبد الله بن عباد الخواص أبو عتبة

حدثنا الشيباني عن ابن وعلة عن كريب السحولي عن مرة البهذي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لرجل انك تموت بالربوة فمات بالرملة وهذا حديث غريب جدا وأقرب الاقوال في ذلك مارواه العوفي عن ابن عباس في قوله وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين قال المعين الماء الجاري وهو النهر الذي قال الله تعالى قد جعل ربك تحتك سريا وكذا قال الضحاك وقتادة الى ربوة ذات قرار ومعين هو بيت المقدس فهذا والله أعلم هو الاظهر لانه المذكور في الآية الاخرى والقرآن يفسر بعضه بعضا وهذا أولى ما يفسر به ثم الاحاديث الصحيحة ثم الآثار

(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم في غمرتهم حتى حين أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون) يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالاكل من الحلال والقيام بالصالح من الاعمال

فدل هذا على ان الحلال عون على العمل الصالح فقام الانبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام وجمعوا بين كل خير قولا وعملا ودلالة ونصحا فجزاهم الله عن العباد خيرا قال الحسن البصري في قوله يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال اما والله ما أمركم باصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا الى الحلال منه وقال سعيد بن جبير والضحاك كلوا من الطيبات يعني الحلال وقال أبو اسحق السبيعي عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه وفي الصحيح ومامن نبي الا رعى الغنم قالوا وأنت يا رسول الله قال نعم وأنا كنت ارعاها على قراريط لاهل مكة وفي الصحيح ان داود

فقالوا ما يعلم أحد مكان قبره الا عجوز لبني اسرائيل فارسل اليها موسى فقال دلينا على قبر يوسف فقالت لا والله حتى تعطيني حكمي قال وما حكمك قالت أن أكون معك في الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها فاعطاها حكمها فانطلقت بهم الى بحيرة مستنقعة ماء فقالت لهم انضبوا عنها الماء ففعلوا قالت احفروا فحفروا فاستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار فلما عظم البلاء على بني اسرائيل ورأوا من الجيوش مالا طاقة لهم به أمر الله سبحانه موسى أن يضرب البحر بعصاه وذلك قوله (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) وذلك أن الله عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله والا فضرب العصا ليس بفارق البحر ولا معينا على ذلك بذاته الا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه وبه نجى موسى وبنو اسرائيل وهلك عدوهم (فانفلق) الفاء فصيحة أي فضرب فصار وانشق اثني عشر فلقا بعدد الاسباط وقام الماء عن يمين الطريق وعن يساره كالجبل العظيم وهو معنى قوله (فكان كل فرق) هو القطعة من البحر وقرئ فلق باللام بدل الراء (كالطود) كالجبل أو عظيمه والجمع اطواد يقال طاد يطود اذا ثبت (العظيم) أي الضخم بينها مسالك سلكوها لم يبتل منها سرج الراكب ولا لبده قاله ابن عباس وابن مسعود (وأزلفنا ثم الآخرين) أي قربناهم الى البحر قاله ابن عباس قال أبو عبيدة أزلفنا جمعنا ومنه قيل لليلة المزدلفة ليلة جمع وثم ظرف مكان للبعيد وقيل قربناهم من النجاة وقرئ زلفنا ثلاثيا وقرئ أزلقنا أي أزللنا وأهلكنا من قولهم أزلقت الفرس اذا ألقت ولدها ويعني بالآخرين فرعون وقومه وقيل المراد بهم موسى وأصحابه والاول أولى قيل كان جبريل بين بني اسرائيل وبين قوم فرعون يقول لبني اسرائيل ليلحق آخركم أولكم ويقول للقبط رويدا ليلحق آخركم أولكم فكان بنو اسرائيل يقولون ما رأينا أحسن سياسة من هذا الرجل وكان القبط يقولون ما رأينا أحسن داع من هذا (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بمرورهم في البحر بعد ان جعله الله طرقا يمشون فيها (ثم أغرقنا الآخرين) يعني فرعون وقومه أغرقهم الله باطباق البحر عليهم بعد ان دخلوا فيه متبعين موسى وقومه وخرج بنو اسرائيل منه وفيه ابطال القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث فانهم اجتمعوا في الهلاك مع اختلاف طوالعهم (ان في ذلك) أي فيما صدر بين موسى وفرعون الى

عليه السلام كان يأكل من كسب يده وفي الصحيحين ان احب الصلاة الى الله صلاة داود واحب الصيام الى الله صيام داود واحب
القيام الى الله قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر اذا لاقى وقال ابن ابي
حاتم حدثنا ابي حدثنا ابو اليمان الحكم بن نافع حدثنا ابو بكر بن ابي مريم عن ضمرة بن حبيب ان ام عبد الله بنت شداد بن اوس
قالت بعثت الى النبي صلى الله عليه وسلم (١) بقدح لبن عند فطره وهو صائم وذلك في أول النهار وشدة الحر فرد اليها رسولها ان كانت
لك الشاة فقالت اشتريتها من مالي فشرب (١٨) منه فلما كان من الغد اتته أم عبد الله بنت شداد فقالت يا رسول الله بعثت اليك بلبن
مرثية لك من طول النهار وشدة
الحر فرددت الي الرسول فيه فقال
لها بذلك أمرت الرسل لا تأكل الا
طيبا ولا تعمل الا صالحا وقد ثبت
في صحيح مسلم وجامع الترمذي
ومسند الامام أحمد واللفظ له من
حديث فضيل بن مرزوق عن
عدي بن ثابت عن ابي حازم عن ابي
هريرة رضي الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يا ايها الناس
ان الله طيب لا يقبل الا طيبا وان
الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين
فقال يا ايها الرسل كلوا من الطيبات
واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم
وقال يا أيها الذين آمنوا كلوا من
طيبات ما رزقناكم ثم ذكر الرجل
يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه
حرام ومشربه حرام وملبسه حرام
وغذي بالحرام يمد يديه الى السماء
يارب يارب فأنى يستجاب لذلك
وقال الترمذي حسن غريب
لا نعرفه الا من حديث فضيل بن
مرزوق وقوله وان هذه امتكم امة
واحدة اي دينكم يا معشر الانبياء
دين واحد وملة واحدة وهو الدعوة
الى عبادة الله وحده لا شريك له
ولهذا قال وانا ربكم فاتقون وقد تقدم الكلام على ذلك في سورة الانبياء وان قوله امة واحدة منصوب على الحال عما
وقوله فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا أي الامم الذين بعثت اليهم الانبياء كل حزب بما لديهم فرحون أي يفرحون بما هم فيه من الضلال
لانهم يحسبون انهم مهتدون ولهذا قال متهددا لهم ومتوعدا فذرهم في غمرتهم أي غيهم وضلالهم حتى حين أي الى حين حينهم
وهلاكهم كما قال تعالى فمهل الكافرين أمهلهم رويدا وقال تعالى ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون وقوله
أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون يعني أيظن هؤلاء المغرورون ان ما نعطيهم من الاموال

هذه الغاية (لآية) عبرة عظيمة وقدرة باهرة من أدل العلامات على قدرة الله سبحانه وعظيم
سلطانه لمن بعدهم (وما كان أكثرهم) أي أكثر هؤلاء الذين مع فرعون (مؤمنين) بالله فانه
لم يؤمن منهم فيما بعد الا القليل كحزقيل وابنته وآسية امرأة فرعون والعجوز التي دلت على
قبر يوسف وليس المراد أكثر من كان مع فرعون عند لحاقه بموسى فانهم هلكوا جميعا في
البحر بل المراد من كان معه من الاصل ومن كان متابعا له ومنتسبا اليه هذا غاية ما يمكن
أن يقال وقال سيبويه وغيره ان كان زائدة وان المراد الاخبار عن المشركين بعدما سمعوا
الموعظة (وان ربك لهو العزيز) أي المنتقم من أعدائه باغراقهم (الرحيم) باوليائه
بانجائهم (واتل) أي اقصص يا محمد (عليهم) أي على كفار مكة (نبأ) خبر (ابراهيم)
وحديثه (اذ قال) أي وقت قوله (لابيه وقومه ما) أي أي شيء (تعبدون) وهو يعلم انهم
يعبدون الاصنام ولكنه أراد الزام الحجة وليريهم ان ما يعبدونه ليس مستحق للعبادة بل
بمعزل عنها بالكلية (قالوا نعبد اصناما) افتخارا ومباهاة بعبادتها (فنظل لها عاكفين)
أي فنقيم ونديم على عبادتها مستمرين طول النهار لا في وقت معين يقال ظل يفعل كذا اذا
فعله نهارا وبات يفعل كذا اذا فعله ليلا فظاهره انهم يستمرون على عبادتها نهارا الا ليلا
والمراد من العكوف لها الاقامة على عبادتها وانما قال لها لافادة ان ذلك العكوف
لاجلها فلما قالوا هذه المقالة (قال) ابراهيم منبها على فساد مذهبهم (هل يسمعونكم
اذ تدعون) قال الاخفش المعنى هل يسمعون منكم أو هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل
يسمعونكم بضم الياء أي هل يسمعونكم أصواتهم وقت دعائكم لهم قال الزمخشري انه
على حكاية الحال الماضية ومعناه استحضروا الاحوال التي كنتم تدعونها فيها هل سمعوكم
اذا دعوتم وهو أبلغ في التبكيت (أو ينفعونكم) بوجه من وجوه النفع ان عبدتموها
(أو يضرون) أي يضرونكم اذا تركتم عبادتها وهذا الاستفهام للتقرير فانها اذا كانت
لا تسمع ولا تنفع ولا تضر فلا وجه لعبادتها فاذا قالوا نعم هي كذلك أقروا بأن عبادتهم لها
من باب اللعب والعبث والسفه وعند ذلك تقوم الحجة عليهم فلما أورد عليهم الخليل هذه
الحجة الباهرة لم يجدوا لها جوابا الا رجوعهم الى التقليد البحت وهو أنهم (قالوا بل وجدنا
آباءنا كذلك يفعلون) هذه العبادة لهذه الاصنام فقلدناهم مع كونها بهذه الصفة التي
هي سلب السمع والنفع والضر عنها وفي أبي السعود هذا الجواب منهم اعتراف بانها بمعزل

(١) بقدح لبن عند فطره كذا بالنسخ التي بايدينا ولعل فيه سقطا والاصل يشرب به عند فطره أو نحو ذلك فحرر وانظر اه

والاولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا كلا ليس الامر كما يزعمون في قولهم نحن اكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين لقد اخطؤا في ذلك وخاب رجاؤهم بل انما نفعل بهم ذلك استدراجا وانظارا واملاء ولهذا قال بل لا يشعرون كما قال تعالى فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا الآية وقال تعالى انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقال تعالى فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم الآية وقال ذرني ومن خلقت وحيدا الى قوله عنيدا وقال تعالى وما اموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن وعمل صالحا الآية

والآيات في هذا كثيرة قال قتادة في قوله أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون قال مكر والله بالقوم في اموالهم واولادهم يا ابن آدم فلا تعتبر الناس باموالهم واولادهم ولكن اعتبرهم بالايمان والعمل الصالح وقال الامام احمد حدثنا محمد حدثنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم ارزاقكم وان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين الا لمن احب فمن اعطاه الله الدين فقد احبه والذي نفس محمد بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه يا رسول الله قال غشمه وظلمه ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره الا كان زاده الى النار ان الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن ان الخبيث لا يمحو الخبيث (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون) يقول تعالى ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون أي هم مع احسانهم وايمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه وجلون من مكره بهم كما قال الحسن البصري ان المؤمن جمع احسانا وشفقة وان المنافق جمع اساءة وأمنا والذين هم بآيات ربهم يؤمنون أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى اخبارا عن مريم عليها السلام وصدقت بكلمات ربها وكتبه أي أيقنت ان ما كان انما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو ان كان أمرا فمما يحبه ويرضاه وان كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وان كان خيرا فهو

عما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار ان لا مستند لهم سوى التقليد اي ما علمنا ولا رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون فاقتدينا بهم انتهى قال الخازن وفي الآية دليل على ابطال التقليد في الدين وذمه ومدح الاخذ بالاستدلال انتهى وهذا الجواب هو العصى التي يتوكأ عليها كل عاجز ويمشي بها كل أعرج ويغتربها كل مغرور وينخدع لها كل مخدوع فانك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الارض بطولها والعرض وقلت لهم ما الحجة لكم على تقليد فرد من افراد العلماء والاخذ بكل ما يقوله في الدين ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب ولا فاهوا بسواه وأخذوا يعدون عليك من سبقهم الى تقليد هذا من سلفهم واقتدى بقوله وفعله وهم قد ملؤا صدورهم هيبة وضاقت اذهانهم عن تصورهم وظنوا انهم خير أهل الارض وأعلمهم وأورعهم فلم يسمعوا الناصح نصحا ولا للداعي الى الحق دعاء ولو فطنوا لرأوا انفسهم في غرور عظيم وجهل شنيع وانهم كالبهيمة العمياء وأولئك الاسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي كما قال الشاعر

كبهيمة عمياء قاد زمامها * أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك ايها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف ان تورد عليهم حجج الله وتقيم عليهم براهينه فانه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء العضال فلو أوردت عليه كل حجة وأقمت عليه كل برهان لما أعارك الأذن صماء وعينا عمياء ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن والهداية بيد الخلاق العليم انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ولما قال هؤلاء المقلدة هذه المقالة (قال) الخليل عليه السلام (أفرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون) اي فهل ابصرتم او تفكرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون من هذه الاصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر حتى تعلموا انكم على ضلالة وجهالة والرؤية هنا مستعملة في معناها الاصلي والى هذا نحا أبو السعود وصنيع الكازروني يقتضي انها بمعنى اخبروني اي أخبروني عن حال ما كنتم تعبدون هل هو حقيق بالعبادة او لا وهذا استهزاء بعبدة الاصنام والفاء فاء السببية تفيد أن ما بعدها وهو العداوة سبب لطلب الاخبار عن حالهم فهي بمعنى اللام أي اخبروني عن حالها لانها عدو لي كما صرح به الرضي في قوله اخرج

حق كما قال الله والذين هم بربهم لا يشركون أي لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون انه لا اله الا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وانه لا نظير له ولا كفء له وقوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون ان لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط كما قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة انها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل قال لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم أولئك يسارعون في الخيرات وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول به نحوه قال الترمذي وروي هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد عن أبي حازم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحو هذا وهكذا قال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي والحسن البصري في تفسير هذه الآية وقد قرأ آخرون هذه الآية والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أي يفعلون ما يفعلون وهم خائفون وروي هذا مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها كذلك قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا صخر بن جويرية حدثنا اسمعيل المكي حدثنا أبو خلف مولى بني جمح انه دخل مع عبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقالت مرحبا بأبي عاصم ما يمنعك ان تزورنا أو تلم بنا فقال أخشى ان أملك فقالت ما كنت لتفعل قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها قالت أية آية قال الذين يؤتون ما آتوا والذين يأتون ما أتوا فقالت أيتهما أحب عليه اليك فقلت والذي نفسي بيده لاحدهما أحب الي من الدنيا جميعا أو الدنيا وما فيها قالت وما هي فقلت الذين يأتون ما أتوا فقالت أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف فيه اسمعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف والمعنى على القراءة الاولى وهي قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لانه قال أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الاخرى لاوشك أن لا يكونوا من السابقين بل من المقتصدين أو المقصرين والله أعلم

منها فانك رحيم ثم اخبرهم بالبراءة من هذه الاصنام التي يعبدونها فقال (فانهم عدو لي) ومعنى كونهم عدوا له مع كونهم جمادا انه ان عبدهم كانوا له عدوا يوم القيامة قال الفراء هذا من المقلوب اي فاني عدو لهم لان من عاديته عاداك واسند العداوة الى نفسه تعريضا بهم وهو انفع في النصيحة من التصريح بان يقول فانهم عدو لكم والعدو كالصديق يطلق على الواحد والمثنى والجماعة والمذكر والمؤنث كذا قال الفراء قال علي بن سليمان من قال عدوة الله فاثبت الهاء قال هي بمعنى المعادية ومن قال عدو للمؤنث والجمع جعله بمعنى النسب وقيل المراد بقوله فانهم عدو لي آباؤهم الاقدمون لاجل عبادتهم للاصنام ورد بان الكلام مسوق فيما عبدوه لا في العابدين (الا) أي لكن (رب العالمين) ليس كذلك بل هو وليي في الدنيا والآخرة لا يزال متفضلا علي فيهما قال الزجاج قال النحويون هو استثناء ليس من الاول واجاز الزجاج ايضا ان يكون من الاول على انهم كانوا يعبدون الله عز وجل ويعبدون معه الاصنام فأعلمهم انه تبرأ مما يعبدون الا الله فاني اعبده قال الجرجاني تقديره افرأيتم ما كنتم تعبدون انتم وآباؤكم الاقدمون الا رب العالمين فانهم عدو لي فجعله من باب التقديم والتأخير وجعل الا بمعنى دون وسوى كقوله لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى اي دون الموتة الاولى وقال الحسن بن الفضل ان المعنى الا من عبد رب العالمين ثم وصف رب العالمين بقوله (الذي خلقني فهو يهدين) اي يرشدني الى مصالح الدين والدنيا وطريق النجاة وقد وصف الخليل ربه بما يستحق العبادة لاجله فان الخلق والهداية والرزق الذي يدل عليه قوله (والذي هو يطعمني ويسقين واذا مرضت فهو يشفين) ودفع المرض وجلب مع الشفاء والاماتة والاحياء والمغفرة للذنب كلها نعم يجب على المنعم عليه بعضها فضلا عن كلها ان يشكر المنعم بجميع انواع الشكر التي اعلاها واولاها العبادة ودخول هذه الضمائر في صدور هذه الجمل للدلالة على انه الفاعل لذلك دون غيره واسند المرض الى نفسه دون غيره من هذه الافعال المذكورة رعاية واستعمالا للادب مع الرب كما قال الخضر فاردت ان اعيبها وقال فاراد ربك ان يبلغا أشدهما والا فالمرض والشفاء من الله سبحانه (والذي يميتني ثم يحيين) المراد بالاحياء البعث ولهذا عطف هنا بثم خلاف ما قبله لاتساع الامر بين الاماتة والاحياء لان المراد به الاحياء في الآخرة وحذف الياء من هذه الافعال لكونها رؤس الآي وقرئ كلها باثبات الياء وانما قال

(ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون) يقول تعالى مخبرا عن عدله فى شرعه على عباده فى الدنيا انه لا يكلف نفسا الا وسعها أى الا ما تطيق حمله والقيام به وانه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التى كتبها عليهم فى كتاب مسطور لا يضيع منه شئ ولهذا قال ولدينا كتاب ينطق بالحق يعنى كتاب الاعمال وهم لا يظلمون (٢١) أى لا يبخسون من الخير شيأ وأما السيآت فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش بل قلوبهم فى غمرة أى فى غفلة وضلالة من هذا أى القرآن الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم وقوله ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون قال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ولهم أعمال أى سيئة من دون ذلك يعنى الشرك وهم لها عاملون قال لا بد ان يعملوها وكذا روى عن مجاهد والحسن وغير واحد وقال آخرون ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون أى قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد ان يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب وروى نحو هذا عن مقاتل بن حيان والسدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ظاهر قوى حسن وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود فوالذى لا اله غيره ان الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وقوله حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون يعنى حتى اذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم اذا هم يجأرون أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا ان لدينا انكالا وجحيما الآية وقال تعالى وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص وقوله لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الامر ووجب العذاب ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون أى اذا دعيتم أبيتم وان طلبتم امتنعتم ذلكم بأنه اذا دعى الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا

عليه السلام (والذى أطمع ان يغفر لى خطيئتى) هضما لنفسه وتعليما للامة ان يجتنبوا المعاصى ويكونوا على حذر وطلب ان يغفر لهم ما يفرط منهم وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة المعطوفة للايذان بان كل واحد من تلك الصلات نعت جليل مستقل فى ايجاب الحكم قيل ان الطمع هنا بمعنى اليقين فى حقه وبمعنى الرجاء فى حق سواه وقرئ خطاياى لانها ليست خطيئة واحدة قال النحاس خطيئة بمعنى خطايا فى كلام العرب قال مجاهد يعنى بخطيئته قوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله انى سقيم وقوله ان سارة أخته زاد الحسن وقوله للكوكب هذا ربى وحكى الواحدى عن المفسرين انهم فسروا الخطايا بما فسر بها مجاهد قال الزجاج الانبياء بشر ويجوز ان تقع عليهم الخطيئة الا انهم لا تكون منهم الكبيرة لانهم معصومون (يوم الدين) أى يوم الجزاء للعباد بأعمالهم ولا يخفى ان تفسير الخطايا بما ذكره مجاهد ومن معه ضعيف فان تلك معاريض وهى أيضا انما صدرت عنه بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه وعن عائشة قالت قلت يا رسول الله ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين أكان ذلك نافعاله قال لا ينفعه انه لم يقل يوما رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين وهذا كله احتجاج من ابراهيم على قومه انه لا يصلح للالهية الا من يفعل هذه الافعال ثم لما فرغ الخليل من الثناء على ربه والاعتراف بنعمه وفنون ألطافه الفائضة عليه من حضرة الحق من مبدا خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى فعقبه بالدعاء ليقتدى به غيره فى ذلك فقال (رب هب لى حكما) المراد بالحكم الكمال فى العلم والفهم والعمل يستعد به لخلافة الحق ورياسة الخلق وقيل النبوة والرسالة وقيل المعرفة بحدود الله وأحكامه (وألحقنى بالصالحين) يعنى بالنبيين قبلى فى العمل الصالح وقيل بأهل الجنة أى فى درجاتهم قاله ابن عباس والاول أولى ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى اجعل لى ثناء حسنا وذكرا جميلا وجاها وصيتا وقبولا عاما فى الامم الآخرين الذين يأتون بعدى فى الدنيا يبقى أثره الى يوم القيامة قال القتيبى وضع اللسان موضع القول على الاستعارة لان القول يكون بها وقد تكنى العرب بها عن الكلمة وقد أعطى الله سبحانه ابراهيم ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين وأجاب دعاءه فان كل أمة تتمسك به وتعظمه وكل أهل الاديان يتولونه ويثنون عليه خصوصا هذه الامة وخصوصا فى كل تشهد من

فالحكم لله العلي الكبير وقوله مستكبرين به سامراً تهجرون في تفسيره قولان أحدهما أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله وعلى هذا فالضمير في به فيه ثلاثة أقوال أحدها أنه الحرم أي مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام والثاني أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة والثالث أنه محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة

من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذي أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء وقيل المراد بقوله مستكبرين به أي بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائي في التفسير من سننه أخبرنا أحمد بن سليمان أخبرنا عبيد الله عن إسرائيل عن عبد الأعلى أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية مستكبرين به سامراً تهجرون فقال مستكبرين بالبيت يقولون نحن أهله سامراً قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه وقد أطنب ابن أبي حاتم ههنا بما هذا حاصله (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف لا سيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها والقيام بشكرها وتفهمها والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي

وغيره

تشهدات الصلوات وقال مكي قيل معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيبت دعوته في محمد صلى الله عليه وآله وسلم فتكون الآية على تقدير مضاف أي صاحب لسان صدق أو هو مجاز من إطلاق الجزء على الكل لأن الدعوة باللسان ولا وجه لهذا التخصيص والتكلف وقال القشيري أراد الدعاء الحسن إلى قيام الساعة ولا وجه لهذا أيضاً فإن لسان الصدق أعم من ذلك وعن ابن عباس في الآية قال اجتماع أهل الملل على إبراهيم فما من أمة إلا وهي تحبه وتثني عليه (واجعلني) وارثاً (من ورثة جنة النعيم) أي ممن يرثها ومن جملتهم أي ممن يعطاها بلا تعب ومشقة كالإرث الحاصل للإنسان من غير تعب وإضافة الجنة إلى النعيم من إضافة المحل للحال فيه ولما طلب عليه السلام بالدعوة الأولى سعادة الدنيا طلب بهذه الدعوة سعادة الآخرة وهي جنة النعيم قيل وجعلها مما يورث تشبيهاً لغنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا وقد تقدم تفسير معنى الوراثة في سورة مريم (واغفر لأبي) كان أبوه قد وعده أنه يؤمن به فاستغفر له فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة التوبة وسورة مريم وعن ابن عباس قال امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك (إنه كان من الضالين) أي من المشركين الضالين عن طريق الهداية وكان زائدة على مذهب سيبويه كما تقدم في غير موضع (ولا تخزني يوم يبعثون) أي لا تفضحني على رؤوس الأشهاد بمعاتبتي أو بمعاقبتي على ما فرطت أو لا تعذبني يوم القيامة وقال ذلك لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلاً أو المعنى لا تخزني بتعذيب أبي أو ببعثه في جملة الضالين أو بنقص رتبتي عن رتبة بعض الوراث والإخزاء يطلق على الخزي وهو الهوان وعلى الخزاية وهي الحياء أي الاستحياء أخرج البخاري وغيره من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد فيقول الله إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول ما تحت رجليك يا إبراهيم فإذا بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار والذيخ هو الذكر من الضباع فكأنه حول آزر إلى صورة ذيخ وقد أخرجه النسائي بأطول من هذا (يوم لا ينفع) فيه (مال ولا بنون) أحداً من الناس والابن هو أخص القرابة وأولاهم بالحماية والدفع والنفع فإذا لم ينفع

عنهم وقال قتادة أفلم يدبروا القول اذا والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك ثم قال منكرا على الكافرين من قريش أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أى أفهم لا يعرفون محمدا وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم أى أفيقدرون على انكار ذلك والمباهتة فيه ولهذا قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشى ملك الحبشة أيها الملك ان الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين

سأله وأصحابه عن صفات النبى صلى الله عليه وسلم ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفارا لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم الا الصدق فاعترفوا بذلك وقوله أم يقولون به جنة يحكى قول المشركين عن النبى صلى الله عليه وسلم انه تقول القرآن أى افتراه من عنده أو ان به جنونا لا يدرى ما يقول وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن فانه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع وقد تحداهم وجميع أهل الارض ان يأتوا بمثله ان استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين ولهذا قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون يحتمل ان تكون هذه جملة حالية أى فى حالة كراهة أكثرهم للحق ويحتمل ان تكون خبرية مستأنفة والله أعلم وقال قتادة ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا فقال له أسلم فقال الرجل انك لتدعونى الى أمر أنا له كاره فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم وان كنت كارها وذكر لنا انه لقى رجلا فقال له أسلم فتصعده ذلك وكبر عليه فقال له نبى الله صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه ونسبه فدعاك الى طريق واسع سهل أكنت تتبعه قال نعم قال فوالذى نفس محمد بيده انك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وانى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت اليه وذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وسلم لقى رجلا فقال له أسلم فتصعده ذلك فقال له نبى الله صلى الله عليه وسلم أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما اذا حدثك صدقك واذا ائتمنته أدى اليك أهو أحب اليك أم فتاك الذى اذا حدثك كذبك واذا ائتمنته خانك قال بل فتاى الذى اذا حدثنى صدقنى واذا ائتمنته أدى الى فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم كذاكم أنتم عند ربكم وقوله ولو اتبع الحق أهواءهم

فغيره من القرابة والاعوان بالاولى وقال ابن عطية ان هذا وما بعده من كلام الله وهو ضعيف والاظهر انه من كلام ابراهيم (الا من أتى الله بقلب سليم) قيل هو استثناء منقطع أى لكن من أتى الله قال فى الكشاف الا مال من أتى الله فقدر مضافا محذوفا قال أبو حيان ولا ضرورة تدعو الى ذلك وقيل ان هذا الاستثناء بدل من المفعول المحذوف أو مستثنى منه اذ التقدير لا ينفع مال ولا بنون أحدا من الناس الا من كانت هذه صفته ويحتمل ان يكون بدلا من فاعل ينفع فيكون مرفوعا قال أبو البقاء فيكون التقدير الا مال من أو بنو من فانه ينفع وهذا الماضى بمعنى المضارع وكذا يقال فى قوله وأزلفت وبرزت وقيل وكبكبوا وقالوا واختلف فى معنى القلب السليم فقيل السليم من الشرك فأما الذنوب فليس يسلم منها أحد قاله أكثر المفسرين وقال سعيد بن المسيب السليم الصحيح وهو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض قال تعالى فى قلوبهم مرض وقيل هو القلب الخالى عن البدعة المطمئن الى السنة وقيل السالم من آفة المال والبنين وقال الضحاك السليم الخالص وقال الجنيد رحمه الله السليم فى اللغة اللديغ معناه انه قلب كاللديغ من خوف الله تعالى وهذا تحريف وتعكيس لمعنى القرآن قال الرازى أصح الاقوال ان المراد منه سلامة النفس عن الجهل والاخلاق الرذيلة وقال ابن عباس بشهادة أن لا اله الا الله وقد صوب الخليل استثناء الخليل اكراما له ثم جعله صفة له فى قوله وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم قال النسفى وما أحسن ما رتب عليه السلام من كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بانها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع وعلى تقليدهم آباءهم الاقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن ان يكون حجة ثم صور المسألة فى نفسه دونهم حتى تخلص منها الى ذكر الله تعالى فعظم شأنه وعدد نعمه من حين انشائه الى وقت وفاته مع ما يرجى فى الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك ان دعا بدعوات المخلصين وابتهل اليه ابتهال الادب ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع اليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمنى الكرة الى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا انتهى (وأزلفت الجنة للمتقين) أى قربت وأدنيت لهم ليدخلوها أو بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بانهم المحشورون اليها

قال مجاهد وأبو صالح والسدي الحق هو الله عز وجل والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ومن فيهن أي لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم في قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ثم قال أهم يقسمون رحمة ربك وقال تعالى قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق الآية وقال أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه تعالى وتقدس فلا إله غيره ولا رب سواه ولهذا قال بل أتيناهم بذكرهم أي القرآن فهم عن ذكرهم معرضون وقوله أم تسألهم خرجاً قال الحسن أجراً وقال قتادة جعلاً فخراج ربك خير أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلاً ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه كما قال قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وقال قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقال قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى وقال وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجراً وقوله وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن علي ابن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه اضرب مثل هذا ومثل أمته فقال إن ما مثل هذا ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة فقال أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعوني فقالوا نعم قال فانطلق بهم وأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني قالوا بلى قال فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني قال

وقال الزجاج قرب دخولهم إياها ونظرهم إليها (وبرزت الجحيم للغاوين) أي جعلت بارزة لهم والمراد بهم الكافرون الضالون عن طريق الحق الذي هو الإيمان والتقوى والمعنى أنها أظهرت بحيث يرونها مع ما فيها من أنواع الأحوال الهائلة ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفاً وقيل أظهرت قبل أن يدخلوها ليشتد حزن الكافرين ويكثر سرور المؤمنين وقرئ برزت على البناء للفاعل (وقيل لهم) على سبيل التوبيخ (أينما) أي في أي مكان (كنتم تعبدون من دون الله) من الأصنام والأنداد وهذا سؤال تبكيت لا يتوقع له جواب (هل ينصرونكم) فيدفعون عنكم العذاب (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا كله توبيخ وتقريع لهم (فكبكبوا فيها) أي ألقوا على رؤوسهم وقيل قلبوا على رؤوسهم وقيل ألقي بعضهم على بعض وقيل جمعوا قاله ابن عباس مأخوذ من الكبكبة وهي الجماعة قاله الهروي وقال النحاس هو مشتق من كوكب الشيء وهو معظمه والجماعة من الخيل كوكب وكبكبة وقيل دهدهوا وهذه المعاني متقاربة والكبكبة تكرير الكب وهو الإلقاء على الوجه جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها نعوذ بالله منها وأصله كببوا بباءين الأولى مشددة من حرفين فأبدل من الباء الوسطى الكاف وقد رجح الزجاج أن المعنى طرح بعضهم على بعض ورجح ابن قتيبة أن المعنى ألقوا على رؤوسهم وقيل أنكسوا وقيل الضمير في كبكبوا لقريش (هم) أي الآلهة المعبودون والأصنام (والغاوون) أي العابدون لهم وقيل الجن والكافرون وقال ابن عباس مشركو العرب والآلهة (وجنود إبليس) أي شياطينه الذين يغوون العباد من الإنس والجن وقيل ذريته وأتباعه وقيل كل من يدعو إلى عبادة الأصنام (أجمعون) تأكيد للضمير في كبكبوا وما عطف عليه (قالوا) أي الغاوون (وهم) أي حال كونهم (فيها يختصمون) مع معبوديهم مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم ما فعل ومقول القول (تالله إن كنا) أي إن الشأن كوننا (لفي ضلال مبين) واضح ظاهر والمراد بالضلال هنا الخسار والتبار والحيرة عن الحق ويجوز أن ينطق الله الأصنام حتى يصح التقاول والتخاصم أو يجري ذلك من العصاة والشياطين (إذ نسويكم) العامل في الظرف هو كونهم في الضلال وقيل العامل هو الضلال وفيه ضعف وقيل ظرف لمبين وقيل

فقالت طائفة صدق والله لنتبعنه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا زهير حدثنا يونس بن محمد حدثنا يعقوب بن عبد الله الاشعري حدثنا حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى ممسك بحجزكم عن النار وتغلبونى تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب فأوشك ان أرسل حجزكم وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا واشتاتا أعرفكم بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الابل فى ابله فيذهب بكم ذات الشمال فأناشدفيكم رب العالمين أى رب قومى أى رب أمتى فيقال يا محمد انك لاتدرى ما أحدثوا بعدك انهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم فلا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك من الله شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت ولا عرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيأ قد بلغت وقال على بن المدينى هذا حديث حسن الاسناد الا ان حفص بن حميد مجهول لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الاشعرى القمى قلت بل قد روى عنه أيضا أشعث بن اسحق وقال فيه يحيى ابن معين صالح ووثقه النسائى وابن حبان وقوله وان الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط

لناكبون أى لعادلون حائرون منحرفون تقول العرب نكب فلان عن الطريق اذا زاغ عنها وقوله ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون يخبر تعالى عن غلظهم فى كفرهم بانه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم كما قال تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون وقال ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه الى قوله بمبعوثين فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون لو كان كيف يكون قال الضحاك عن ابن عباس

ما يدل عليه الكلام كأنه قيل ضللنا وقت تسويتنا لكم فى العبادة (برب العالمين) الذى أنتم أدنى مخلوقاته وأذلهم وأعجزهم وقال الكوفيون ان فى ان كنا نافية واللام بمعنى الا أى ما كنا الا فى ضلال مبين والاول أولى وهو مذهب البصريين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية (وما أضلنا) عن الهدى (الا المجرمون) يعنى من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس والشياطين وقيل رؤساؤهم الذين أضلوهم وقيل ابليس وجنوده وابن آدم الاول وهو قابيل وهو أول من سن القتل وأنواع المعاصى وقيل من سن الشرك وقيل الاولون الذين اقتدينا بهم (فما لنا من شافعين) يشفعون لنا من العذاب كما للمؤمنين من الملائكة والنبيين والمؤمنين (ولا صديق حميم) أى ذى قرابة والحميم القريب الذى توده ويودك وجمع الشفعاء ووحد الصديق لما تقدم غير مرة أنه يطلق على الواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث أو لكثرة الشفعاء فى العادة وقلة الصديق لان الصديق الصادق فى وداده الذى يهمه ما أهمك قليل وسئل حكيم عن الصديق فقال اسم لا معنى له وقيل اسم بلا مسمى والنفى ههنا يحتمل نفى الصديق من أصله أو نفى صفته فقط أو لان الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء والحميم مأخوذ من حامة الرجل أى خاصته وأقربائه ويقال حم الشئ وأحم اذا قرب ومنه الحمى لانه يقرب من الاجل وقال على بن عيسى انما سمى القريب حميما لانه يحمى لغضب صاحبه فجعله مأخوذا من الحمية وقيل من الاحتمام بمعنى الاهتمام الذى يهمه ما يهمك قاله الزمخشرى (فلو أن لنا كرة) هذا منهم على طريق التمنى الدال على كمال التحسر كأنهم قالوا فليت لنا كرة أى رجعة الى الدنيا وجواب التمنى (فنكون من المؤمنين) أى نصير من جملتهم حتى تحل لنا الشفاعة كما حلت لهؤلاء (ان فى ذلك) أى ما تقدم ذكره من نبأ ابراهيم وقصة قومه (لآية) أى عبرة وعلامة وحجة وعظة لمن أراد أن يستبصر بها ويعتبر فانها جاءت على أنظم ترتيب وأحسن تقرير يتفطن المتأمل فيها الغزارة علمه لما فيها من الاشارة الى أصول العلوم الدينية والتنبيه على دلالتها وحسن دعوته للقوم وحسن مخالقته معهم وكمال اشفاقه عليهم وتصوير الامر فى نفسه واطلاق الوعد والوعيد على سبيل الحكاية تعريضا بهم وايقاظا لهم ليكون أدعى الى الاستماع والقبول والتنوين فى آية يدل على التعظيم والتفخيم (وما كان أكثرهم مؤمنين) أى أكثر هؤلاء الذين يتلو

كما فيه لو نموا الا يكون أبدا (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون بل قالوا مثل ما قال الأولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين) يقول تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد فما استكانوا لربهم وما يتضرعون أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة بل استمروا على غيهم وضلالهم فما استكانوا أي ما خشعوا وما يتضرعون أي ما دعوا كما قال تعالى فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن حمزة المروزي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبي عن يزيد يعني النحوي عن عكرمة عن ابن عباس انه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر والدم فأنزل الله ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا الآية وهكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل عن علي ابن الحسين عن أبيه وأصله في الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش حين استعصوا فقال اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا عبد الله ابن إبراهيم عن عمر بن كيسان حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله فقال وهب نحن في طرف من عذاب الله والله يقول ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله قال أحدث لنا فأحدثنا يعني أحدث لنا الحبس فأحدثنا زيادة عبادة وقوله حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون أي حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون فعند ذلك أبلسوا من كل خير وأيسوا من كل راحة وانقطعت آمالهم ورجاؤهم ثم ذكر تعالى نعمه على عباده في أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة وهي العقول والفهوم

عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مآثر إبراهيم وهم قريش ومن دان بدينهم وقيل وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين وهو ضعيف لأنهم كلهم غير مؤمنين (وإن ربك لهو العزيز) القاهر لأعدائه (الرحيم) بأوليائه أو الرحيم للأعداء بتأخير عقوبتهم وترك معاجلتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) أنث الفعل لكونه مسندا إلى قوم وهو في معنى الجماعة أو الأمة أو القبيلة وفي المصباح القوم يذكر ويؤنث وكذا كل اسم جمع لا واحد له من لفظه نحو رهط ونفر وأوقع التكذيب على المرسلين وهم لم يكذبوا إلا الرسول المرسل إليهم لأن من كذب رسولا فقد كذب الرسل لأن كل رسول يأمر بتصديق غيره من الرسل وقيل كذبوا نوحا في الرسالة وكذبوه فيما أخبرهم به من مجيء المرسلين بعده أو لأنه لطول لبثه فيهم كأنه رسل (إذ قال لهم أخوهم نوح) أي أخوهم من أبيهم لا أخوهم في الدين وقيل المراد أخوة المجالسة وقيل هو من قول العرب يا أخا تميم يريدون واحدا منهم (ألا تتقون) الله بترك عبادة الأصنام وتجيبون رسوله الذي أرسله إليكم (إني لكم رسول أمين) فيما أبلغكم عن الله وقيل أمين فيما بينكم فإنهم كانوا قد عرفوا أمانته وصدقه (فاتقوا الله) أي اجعلوا طاعة الله وقاية لكم من عذابه (وأطيعون) فيما آمركم به عن الله من الإيمان به وترك الشرك والقيام بفرائض الدين تصدير القصص الخمس بالحث على التقوى يدل على أن البعثة مقصورة على الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى ثوابه ويبعده عن عقابه وكان الأنبياء متفقين على ذلك وإن اختلفوا في بعض التفاريع مبرئين عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية (وما أسألكم عليه من أجر) أي ما أطلب منكم أجرا على تبليغ الرسالة ولا أطمع في ذلك منكم ومن زائدة في المفعول (إن أجري) أي ما ثوابي الذي أطلبه وأريده (إلا على رب العالمين) لا على غيره وكرر قوله (فاتقوا الله وأطيعون) للتأكيد والتقرير في النفوس مع كونه علق كل واحد منهما بسبب وهو الأمانة في الأول وقطع الطمع في الثاني ونظيره قولك ألا تتقي الله في عقوقي وقد ربيتك صغيرا ألا تتقي الله في عقوقي وقد علمتك كبيرا وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله علة لطاعته (قالوا أنؤمن لك) الاستفهام للإنكار أي كيف نتبعك ونصدق لك ونؤمن بك (و) الحال أن قد (اتبعك الأرذلون) جمع أرذل وجمع التكسير أراذل والأنثى رذلى وهم الأقلون جاها ومالا والرذالة الخسة والذلة

التي يدركون بها الاشياء يعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وانه الفاعل المختار لما يشاء وقوله قليلا ما تشكرون أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم كقوله وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة وذرئه لهم في سائر أقطار الارض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم ثم يوم القيامة يجمع الاولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا ولا ذكرا ولا أنثى ولا جليلا ولا حقيرا الا أعاده كما بدأه ولهذا قال وهو الذي يحيي ويميت أي يحيي الرمم ويميت الامم وله اختلاف

الليل والنهار أي وعن أمره تسخير الليل والنهار كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا يتعاقبان لا يفتران ولا يفترقان بزمان غيرهما كقوله لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار الآية وقوله أفلا تعقلون أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء وعز كل شيء وخضع له كل شيء ثم قال مخبرا عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم الى البلى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين يعنون الاعادة محال انما يخبر بها من تلقاها عن كتب الاولين واختلاقهم وهذا الانكار والتكذيب منهم كقوله اخبارا عنهم أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك اذا كرة خاسرة فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة وقال تعالى أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الآيات (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون) يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد الى انه الله الذي لا اله الا هو ولا تنبغي العبادة الا له وحده لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ان يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وانه لا شريك له فيها ومع هذا فقد أشركوا معه

استرذلوهم لقلة أموالهم وجاههم أو لاتضاع أنسابهم قال مجاهد الارذلون الحواكون وقال قتادة سفلة الناس وأراذلهم وقال ابن عباس يعني القافة وقيل هم الحاكة والاساكفة وقيل كانوا من أهل الصناعات الدنية والصناعة لا تزري بالديانة فالغنى غنى الدين والنسب نسب التقوى ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا وان كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا وما زالت أتباع الانبياء كذلك وانما بادر الاتباع قبل الاغنياء لاستيلاء الرياسة على الاغنياء وصعوبة الانفكاك منها والانفة عن الانقياد للغير والفقير خلي من تلك الموانع فهو سريع الاجابة والانقياد وهذا غالب أحوال أهل الدنيا وهذا من سخافة عقولهم وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلين من الدنيا مانعا من اتباعهم وجعلوا ايمانهم بما يدعوهم اليه دليلا على بطلانه وقرئ أتباعك الارذلون قال النحاس وهي قراءة حسنة لان هذه الواو تتبعها الاسماء كثيرا وأتباع جمع تابع (قال وما علمي بما كانوا يعملون) كان زائدة والمعنى وما علمي بعملهم أي لم أكلف العلم بأعمالهم انما كلفت أن أدعوهم الى الايمان والاعتبار به لا بالحرف والصنائع والفقر والغنى وكأنهم أشاروا بقولهم واتبعك الارذلون الى أن ايمانهم لم يكن عن نظر صحيح وانما لتوقع مال ورفعة فأجابهم بهذا أي اني لم أقف على باطن أمرهم وانما وقفت على ظواهرهم وقيل المعنى اني لم أعلم ان الله سيهديهم ويضلكم ويوفقهم ويخذلكم ويرشدهم ويغويكم (ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون) أي ما حسابهم والتفتيش عن ضمائرهم وأعمالهم الا على الله لو كنتم من أهل الشعور والفهم ما عيرتموهم بصنائعهم وقرئ يشعرون بالتحتية كأنه ترك الخطاب للكفار والتفت الى الاخبار عنهم قال الزجاج والصناعات لا تضر في باب الديانات وما أحسن ما قال (وما أنا بطارد المؤمنين) هذا جواب من نوح على ما ظهر من كلامهم من طلب الطرد لهم (ان أنا الا نذير مبين) أي ما أنا الا نذير موضح لما أمرني الله سبحانه بابلاغه اليكم وهذه الجملة كالعلة لما قبلها (قالوا لئن لم تنته يا نوح) أي ان لم تترك عيب ديننا وسب آلهتنا (لتكونن من المرجومين) بالحجارة وقيل من المشتومين وقيل من المقتولين فعدلوا بعد تلك المحاورة بينهم وبين نوح الى التجبر والتوعد فلما سمع نوح قولهم هذا (قال رب ان قومي كذبون) أي أصروا وصمموا على تكذيبي بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يسمعوا قولي ولا أجابوا دعائي وانما قال هذا اظهارا

فى الالهية مع اعترافهم ان الذين عبدوهم لا يخلقون شيأ ولا يملكون شيأ ولا يستبدون بشئ بل اعتقدوا انهم تقربهم اليه زلفى ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فقال قل لمن الارض ومن فيها أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ان كنتم تعلمون سيقولون لله أى فيعترفون لك بان ذلك لله وحده لا شريك له فاذا كان ذلك قل أفلا تذكرون فلا تعبدون غيره ان العبادة لا تنبغى الا للخالق الرازق لا لغيره قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات (٢٨) والملائكة الخاضعين له فى سائر الاقطار منها والجهات ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال شأن الله اعظم من ذلك ان عرشه على سمواته هكذا وأشار بيده مثل القبة وفى الحديث الآخر ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى الا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وان الكرسى بما فيه بالنسبة الى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة ولهذا قال بعض السلف ان مسافة ما بين قطرى العرش من جانب الى جانب مسيرة خمسين ألف سنة وارتفاعه عن الارض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وقال الضحاك عن ابن عباس انما سمى عرشا لارتفاعه وقال الاعمش عن كعب الاحبار ان السموات فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والارض وقال مجاهد ما السموات والارض فى العرش الا كحلقة فى أرض فلاة وقال ابن ابى حاتم حدثنا العلاء بن سالم حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثورى عن عمار الدهنى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال العرش لا يقدر قدره أحد وفى رواية الا الله عز وجل وقال بعض السلف العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال ههنا ورب العرش العظيم أى الكبير وقال فى آخر السورة رب العرش الكريم أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال انه من ياقوتة حمراء وقال ابن مسعود ان ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله سيقولون لله قل أفلا تتقون أى اذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه فى عبادتكم معه غيره واشراككم به قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب

لمبادئه وعليهم لا حله وهو تكذيب الحق لا تكذيبهم له واستخفافهم به (فافتح بينى وبينهم فتحا) الفتح الحكم أى احكم بيننا حكما يستحقه كل واحد منا أى أنزل العقوبة والهلاك وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح (ونجنى ومن معى من المؤمنين) وكانوا ثمانين أربعين من الرجال وأربعين من النساء (فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) أى السفينة المملوءة من الناس والحيوان والطير والشجر ملء السفينة بالناس والدواب والمتاع قال ابن عباس المشحون الممتلئ وعنه قال أتدرون ما المشحون قلنا لا قال هو الموقر وعنه أيضا قال هو المثقل (ثم أغرقنا بعد) أى بعد انجائهم (الباقين) من قومه (ان فى ذلك لآية) أى علامة وعبرة عظيمة (وما كان أكثرهم مؤمنين) انهم انه لو كان أكثرهم مؤمنين لما أخذوا (وان ربك لهو العزيز) أى القاهر لاعدائه والمنتقم باهانة من جحد وأصر (الرحيم) بأوليائه والمنعم باعانة من وحد وأقر (كذبت عاد المرسلين) أنث الفعل باعتبار اسناده الى القبيلة لان عادا اسم أبيهم الاعلى وكان من نسل سام بن نوح ومعنى تكذيبهم المرسلين مع كونهم لم يكذبوا الا رسولا واحدا قد تقدم وجهه فى قصة نوح قريبا (اذ قال لهم أخوهم) نسبا (هود) وكان تاجرا جميل الصورة يشبه آدم وعاش من العمر أربعمائة وأربعا وستين سنة (ألا تتقون) والكلام فيه كالكلام فى قول نوح المتقدم قريبا وكذا فى قوله (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية) الريع المكان المرتفع من الارض جمع ريعة يقال كم ريع أرضك أى كم ارتفاعها قال أبو عبيدة الريع الارتفاع جمع ريعة وقال قتادة والضحاك والكلبى الريع الطريق وبه قال مقاتل والسدى وابن عباس واطلاق الريع على ما ارتفع من الارض معروف عند أهل اللغة وقيل الريع الجبل واحده ريعة والجمع أرياع وقال مجاهد هو الفج بين الجبلين وروى عنه انه الثنية الصغيرة وروى عنه أيضا انه المنظرة وقيل بروج الحمام وقال ابن الاعرابى الريع الصومعة والريع البرج يكون فى الصحراء والريع التل العالى وفى الريع لغتان كسر الراء وفتحها والاستفهام للتقريع والتوبيخ ومعنى الآية انكم أتبنون بكل مكان مرتفع بناء (تعبثون) ببنائه وتلعبون بالمارة وتسخرون منهم لانكم تشرفون من ذلك البناء المرتفع على الطريق فتؤذون من يمر بكم وتسخرون منهم وقال الكلبى

والمثال والاعتبار حدثنا ابن ابراهيم ان عبيدالله بن جعفر أخبرني عبدالله بن دينار عن ابن عمر أنه كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم كثيرا مايحدث عن امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقك قالت الله
قال من خلق أبي قالت الله قال فمن خلقني قالت الله قال فمن خلق السموات قالت الله قال فمن خلق الارض قالت الله قال فمن خلق
الجبل قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم قالت الله قال فاني أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع قال ابن عمر كان رسول الله
كثيرا مايحدثنا هذا الحديث قال عبدالله بن دينار كان ابن عمر كثيرا (٢٦) ما يحدثنا بهذا الحديث قلت في اسناده عبدالله بن
جعفر المديني والد الامام علي بن المديني وقد تكلموا فيه فالله أعلم قل من بيده ملكوت كل شيء أي بيده الملك مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها أي متصرف فيها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا والذي نفسي بيده وكان اذا اجتهد في اليمين قال لا ومقلب القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون كانت العرب اذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر في جواره وليس لمن دونه ان يجير عليه لئلا يفتات عليه ولهذا قال الله وهو يجير ولا يجار عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والامر ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف وماشاء كان ومالم يشأ لم يكن وقال الله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون أي لا يسئل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسئلون عن أعمالهم كما قال تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقوله سيقولون لله أي
سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له قل فأنى تسحرون أي فكيف تذهب عقولكم
في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى بل أتيناهم بالحق وهو الاعلام بانه لا اله الا الله وأقمنا الادلة الصحيحة
الواضحة القاطعة على ذلك وانهم لكاذبون أي في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ومن يدع مع الله
الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم الى ماهم فيه من الافك
والضلال وانما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم

الكلبي انه عبث العشارين بأموال من يمر بهم حكاه الماوردي (وتتخذون مصانع)
هي الابنية التي يتخذها الناس منازل قال أبو عبيدة كل بناء مصنعة وبه قال الكلبي وغيره
وقيل هي الحصون المشيدة قاله مجاهد وغيره وقال الزجاج انها مصانع الماء التي تجعل
تحت الارض واحدتها مصنعة ومصنع أي حياضا وبركا تجمعون فيها الماء فهي من
قبيل الصهاريج قال الجوهري المصنعة بضم النون الحوض يجمع فيه ماء المطر والمصانع
الحصون وقال عبد الرزاق المصانع عندنا بلغة اليمن القصور العالية (لعلكم تخلدون)
أي راجين أن تخلدوا في الدنيا لانكاركم البعث والتوبيخ حينئذ ظاهر أو عاملين عمل من
يرجو ذلك فلذلك تحكمون بنيانها وقيل ان لعل هنا للاستفهام التوبيخي قاله زيد بن
علي وبه قال الكوفيون أي هل تخلدون كقولهم لعلك تشتمني أي هل تشتمني وقال الفراء
كي تخلدون وبه قرأ عبدالله أي لا تتفكرون في الموت وقيل المعنى كأنكم باقون مخلدون
فلعل معناها التشبيه ولم أر من نص على انها تكون للتشبيه وقرئ تخلدون مخففا
ومشددا وحكى النحاس أن في بعض القراآت كأنكم مخلدون وبه قال ابن عباس (واذا
بطشتم) بضرب أو قتل (بطشتم جبارين) من غير رأفة والبطش السطوة والاخذ بالعنف
قال مجاهد وغيره اذا أردتم البطش لئلا يتحد الشرط والجزاء قال الزجاج انما أنكر
عليهم ذلك لانه ظلم وأما في الحق فالبطش بالسوط والسيف جائز قال الكرخي اعلم ان
اتخاذ الابنية العالية تدل على حب الدنيا واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية
تدل على حب التفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهي ممتنعة الحصول للعبد انتهى ثم
لما وصفهم بهذه الاوصاف القبيحة الدالة على الظلم والعتو والتمرد والتجبر أمرهم بالتقوى
فقال (فاتقوا الله) في ذلك (وأطيعون) فيما أمرتكم به أجمل التقوى ثم فصله بقوله
(واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعم والخير الحاصلة لكم ثم فصل هذا الاجمال
بقوله (أمدكم بأنعام وبنين) الخ باعادة الفعل لزيادة التقرير والتأكيد لان التفصيل
بعد الاجمال والتفسير بعد الابهام أدخل في ذلك (وجنات وعيون) أي بساتين وأنهار
وآبار ثم وعظهم وحذرهم فقال (اني أخاف عليكم) ان كفرتم وأصررتم على ما أنتم فيه
ولم تشكروا هذه النعم (عذاب يوم عظيم) أي العذاب الدنيوي والاخروي فان كفران
النعمة مستتبع للعقاب كما أن شكرها مستتبع لزيادتها (قالوا سواء علينا) أي مستو

مشددون (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال تعالى ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض أي لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق فما كان ينتظم الوجود والمشاهد أن الوجود منتظم متسق كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ثم لكان كل منهم

يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا فأراد واحد تحريك جسم والآخر أراد سكونه فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين والواجب لا يكون عاجزا ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد فيكون محالا فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر كان الغالب هو الواجب والآخر المغلوب ممكنا لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا ولهذا قال تعالى ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا عالم الغيب والشهادة أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه فتعالى عما يشركون أي تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون (قل رب إما تريني ما يوعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون) يقول تعالى آمرا نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم رب إما تريني ما يوعدون أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وصححه وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون وقوله تعالى وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن ثم قال تعالى مرشدا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ادفع بالتي هي أحسن السيئة وهذا كما قال

عندنا (أوعظت أم لم تكن من الواعظين) أصلا أي وعظك وعدمه سواء عندنا لا نبالي بشيء منه ولا نلتفت إلى ما تقوله ولا نرعوي له والحاصل أنهم أظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده من المواعظ والوعظ كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد ولم يقل أم لم تعظ لرؤس الآي وتواخي القوافي وأبدى له الزمخشري معنى فقال هو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ وعن الكسائي أوعظت بإدغام الظاء في التاء وهو بعيد لأن حرف الظاء حرف إطباق إنما يدغم فيما قرب منه جدا وقرأ الباقون بإظهار الظاء (إن هذا) تعليل لما قبله أي ما هذا الذي جئتنا به ودعوتنا إليه من الدين وقيل المعنى ما هذا الذي نحن عليه (إلا خلق الأولين) أي طبيعتهم وعادتهم التي كانوا عليها وهذا بناء على ما قال الفراء وغيره أن معنى الخلق العادة قال النحاس الخلق عند الفراء العادة وعن محمد بن يزيد خلقهم مذهبهم وما جرى عليه أمرهم والقولان متقاربان وقال مقاتل قالوا ما هذا الذي تدعونا إليه إلا كذب الأولين قال الواحدي هو قول ابن مسعود ومجاهد قال والخلق والاختلاق الكذب ومنه قوله وتخلقون إفكا وقرئ خلق بفتح الخاء وسكون اللام وبضمهما قال الهروي معناه على الأولى اختلاقهم وكذبهم وعلى الثانية عادتهم وهذا التفصيل لا بد منه قال ابن الأعرابي الخلق الدين والطبع والمروءة وقرأ أبو قلابة بضم الخاء وسكون اللام وهي تخفيف لقراءة الضم لهما والظاهر أن المراد بالآية هو قول من قال ما هذا الذي نحن عليه إلا عادة الأولين وفعلهم ويؤيده قولهم (وما نحن بمعذبين) على ما نفعل من البطش ونحوه مما نحن عليه الآن في الدنيا من الأعمال ولا بعث ولا حساب (فكذبوه) أي هودا أي أصروا على تكذيبه (فأهلكناهم) في الدنيا بالريح كما صرح به القرآن في غير هذا الموضع وهي ريح باردة شديدة الصوت لا ماء فيها وسلطت عليهم سبع ليال وثمانية أيام أولها من صبح يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال وكانت في عجز الشتاء (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسير هذا قريبا في هذه السورة ثم لما فرغ سبحانه من ذكر قصة هود وقومه ذكر قصة صالح وقومه وكانوا يسكنون الحجر فقال (كذبت ثمود المرسلين) المراد بهم صالح وفي التعبير عنه بالجمع ما تقدم وثمود اسم قبيلة سميت باسم أبيها وهو ثمود جد صالح ولذا قال (إذ قال لهم أخوهم) نسبا (صالح) لاجتماعهم معهم في الأب الأعلى

في الآية الأخرى ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا الآية أي وما يلهم هذه الوصية أو هذه الخصلة أو الصفة إلا الذين صبروا أي على أذى الناس فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم أي في الدنيا والآخرة وقوله تعالى وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ولا ينقادون بالمعروف وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه

ونفخه ونفثه وقوله تعالى وأعوذ بك رب أن يحضرون أي في شيء من أمري ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور ولهذا روى أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اللهم إني أعوذ بك من الهرم وأعوذ بك من الهدم ومن الغرق وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن إسحق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع بسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث محمد بن إسحق وقال الترمذي حسن غريب (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ولهذا قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا كما قال تعالى وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت إلى قوله والله خبير بما تعملون وقال تعالى وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب إلى قوله ما لكم من زوال وقال تعالى يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل وقال تعالى ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا

الأعلى وعاش صالح من العمر مائتين وثمانين سنة وبينه وبين هود مائة سنة (ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين) قد تقدم تفسيره في قصة هود المذكورة قبل هذه القصة (أتتركون فيما ههنا آمنين) الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي لا تتركوا أو لا ينبغي لكم أن تعتقدوا أنكم تتركون في الدنيا مستقلين في هذه النعم التي أعطاكم الله آمنين من الموت أو العذاب باقين في الدنيا ولما أبهم النعم في هذا فسرها بقوله (في جنات وعيون وزروع ونخل) ذكر النخل مع دخوله تحت الجنات لفضله على سائر الأشجار أو لأن المراد بها غيره من الأشجار وكثيرا ما يذكرون الشيء الواحد بلفظ يعمه وغيره كما يذكرون النعم ولا يقصدون إلا الإبل وهكذا يذكرون الجنة ولا يريدون إلا غير النخل وهو اسم جمع الواحدة نخلة وكل اسم جمع كذلك يؤنث ويذكر وأما النخيل بالياء فمؤنثة اتفاقا (طلعها هضيم) الطلع أول ما يطلع من الثمر وبعده يسمى خلالا ثم بلحا ثم بسرا ثم رطبا ثم تمرا وفي البيضاوي هو ما يطلع منها كنصل السيف في جوفه شماريخ القنو انتهى وهذا التشبيه من حيث الهيئة والشكل والهضيم هو النضيج الرخص اللين اللطيف أو متدل متكسر من كثرة الحمل وقيل ما لم يخرج من كفراه لدخول بعضه في بعض وحكى الماوردي في معنى هضيم اثني عشر قولا أحسنها أو أوفقها باللغة ما ذكرناه وعن ابن عباس قال هضيم معشب وعنه قال أينع وبلغ وعنه قال أرطب واسترخى (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) النحت النجر والبري نحته ينحته بالكسر براه والنحاية البراية والمنحت ما ينحت به وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال لما طالت أعمارهم وتهدم بناؤهم من المدر فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم وفي الخطيب وكان الواحد منهم يعيش ثلثمائة سنة إلى ألف سنة وكذا كان قوم هود وقرئ فرهين قال أبو عبيدة وغيره وهما بمعنى واحد الفره النشاط وشدة الفرح وفرق بينهما أبو عبيد وغيره فقالوا فارهين حاذقين بنحتها قاله ابن عباس وقيل متجبرين وفرهين بطرين أشرين وبه قال مجاهد وابن عباس وغيره وقيل شرهين وقال الضحاك كيسين وقال قتادة معجبين ناعمين آمنين وبه قال الحسن وقيل فرحين قاله الأخفش وقال ابن زيد أقوياء (فاتقوا الله وأطيعون) فيما أمرتكم به (ولا تطيعوا أمر المسرفين) أي المشركين وقيل التسعة الذين عقروا الناقة جعل الأمر مطاعا على

ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون وقال تعالى ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا إلى قوله وإنهم لكاذبون وقال تعالى وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وقال تعالى قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل والآية بعدها وقال تعالى وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار ويوم النشور ووقت العرض على الجبار وحين يعرضون على النار وهم في غمرات عذاب الجحيم وقوله ههنا كلا إنها كلمة هو قائلها كلا حرف ردع وزجر أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه وقوله تعالى إنها كلمة هو قائلها قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله كلا أي لأنها كلمة أي سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقول لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون قال قتادة والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بأن يجمع الدنيا ويقضي الشهوات ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار وقال محمد بن كعب القرظي حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت قال فيقول الجبار كلا إنها كلمة هو قائلها وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة إذا قال الكافر رب ارجعون لعلي أعمل صالحا يقول الله تعالى كلا كذبت وقال قتادة في قوله تعالى حتى إذا جاء أحدهم الموت قال كان العلاء بن زياد يقول لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى وقال قتادة والله ما تمنى إلا أن يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله وعن محمد بن كعب القرظي نحوه وقال محمد بن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا فضيل يعني ابن عياض عن ليث عن طلحة بن مصرف عن أبي حازم عن أبي هريرة قال إذا وضع يعني الكافر في قبره فيرى مقعده من النار قال فيقول رب ارجعون أتوب وأعمل صالحا قال فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمنهوش ينام ويفزع

الجبار الملكي في السنة الإسماعيلية والمراد الآمر ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله (الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون) أي ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض ولا يصدر منهم الصلاح بطاعة لله البتة (قالوا إنما أنت من المسحرين) أي الذين أصيبوا بالسحر قاله مجاهد وقتادة وقيل المسحر هو المعلل بالطعام والشراب قاله الكلبي وغيره فيكون المسحر الذي له سحر وهو الرئة وكأنهم قالوا إنما أنت بشر مثلنا تأكل وتشرب قال الفراء أي إنك تأكل الطعام والشراب وتسحر به قال المؤرج المسحر المخلوق بلغة بجيلة قال ابن عباس مسحر من مخلوقين (ما أنت إلا بشر مثلنا) فكيف تدعي أنك رسول الله (فأت بآية إن كنت من الصادقين) في قولك ودعواك (قال) صالح (هذه ناقة) أشار إليها بعدما أخرجها الله من الصخرة بدعائه كما اقترحوها قال أبو موسى الأشعري رأيت مبركها فإذا هو ستون ذراعا في ستين ذراعا ثم وصاهم صالح بأمرين الأول (لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) أي لها نصيب من الماء ولكم نصيب منه معلوم ليس لكم أن تشربوا في اليوم الذي هو نصيبها ولا هي تشرب في اليوم الذي هو نصيبكم وهذا دليل على جواز المهايأة قال الفراء الشرب الحظ من الماء قال النحاس فأما المصدر فيقال فيه شرب شربا وشربا وأكثرها المضموم والشرب بفتح الشين جمع شارب والمراد هنا الشرب بالكسر وبه قرأ الجمهور فيهما وقرئ بالضم فيهما والأمر الثاني (ولا تمسوها بسوء) أي بعقر أو ضرب أو شيء مما يسوءها وجواب النهي (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) لحلول العذاب فيه ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد (فعقروها) يوم الثلاثاء أي عقرها قدار وضرب بالسيف في ساقيها وكان ابن زنية قصيرا دميما ولكنهم راضون به فأضيف إليهم (فأصبحوا نادمين) على عقرها لما عرفوا أن العذاب نازل وذلك أنه أنظرهم ثلاثا فظهرت عليهم العلامة في كل يوم وندموا حيث لا ينفع الندم لأن ذلك لا يجدي عند معاينة العذاب وظهور آثاره ولأن مجرد الندم ليس بتوبة (فأخذهم العذاب) الذي وعدهم به يوم السبت وهو أنهم في اليوم الأول أي الأربعاء اصفرت وجوههم ثم احمرت في الخميس ثم اسودت في الجمعة وفي قول مقاتل إنه خرج في أبدانهم خراج مثل الحمص فكان في اليوم الأول أحمر ثم صار من الغد أصفر ثم صار في الثالث أسود وكان عقر الناقة يوم الأربعاء وهلاكهم يوم الأحد فتفقعت فيه تلك الجراحات

وصاح عليهم جبريل صيحة فماتوا بالامرين وكان ذلك ضحوة وقد تقدم تفسير قوله (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين) وفيه ايماء بانه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم (وان ربك لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيرها أيضا في هذه السورة (كذبت قوم لوط المرسلين) ذكر سبحانه القصة السادسة من قصص الانبياء مع قومهم وهي قصة لوط وقد تقدم تفسير قوله (اذ قال لهم أخوهم لوط) أي في البلد والسكنى والتجاور في القرية لا في الدين ولا في النسب لانه ابن أخي ابراهيم وهما من بلاد المشرق من أرض بابل (ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتأتون) أي أتنكحون (الذكران) جمع الذكر ضد الانثى وهم بنو آدم أو كل حيوان (من العالمين) أي من الناس وقد كانوا يفعلون ذلك بالغرباء على ما تقدم في الاعراف (وتذرون) تتركون (ما خلق) أي أصلح وأحل وأباح (لكم ربكم) لاجل استمتاعكم به (من أزواجكم) المراد به جنس الاناث وقال مجاهد تركتم اقبال النساء الى أدبار الرجال وأدبار النساء وعن عكرمة نحوه وفيه دليل على تحريم أدبار الزوجات والمملوكات قال النسفي ومن أجازه فقد أخطأ خطأ عظيما (بل أنتم قوم عادون) أي متجاوزون للحد في جميع المعاصي ومن جملتها هذه المعصية التي ترتكبونها من الذكران (قالوا لئن لم تنته يا لوط) عن الانكار علينا وتقبيح أمرنا (لتكونن من المخرجين) من بلدنا المنفيين عنها ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على أسوأ حال (قال اني لعملكم) وهو ما أنتم فيه من اتيان الذكران (من القالين) أي من المبغضين له والقلى البغض الشديد كأنه يقلي الفؤاد يقال قليته اقليه قلى وقلاء وفيه دليل على عظم المعصية لان قلاه من حيث الدين ثم رغب عليه السلام عن محاورتهم وطلب من الله عز وجل ان ينجيه فقال (رب نجني وأهلي مما يعملون) أي من عملهم الخبيث أو من عقوبته التي ستصيبهم فأجاب الله سبحانه دعاءه فقال (فنجيناه وأهله) أي أهل بيته ومن تابعه على دينه (أجمعين الا عجوزا) هي امرأة لوط وكانت راضية بذلك والراضي بالمعصية في حكم العاصي واستثناء الكافرة من الاهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وان لم تشاركهم في الايمان (في الغابرين) أي من الباقين في العذاب وقال

ثم يأوي اليه هوام الارض وحياتها وعقاربها وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عمر بن علي حدثني سلمة بن تمام حدثنا علي بن زيد عن سعيد بن المسيب عن عائشة رضي الله عنها انها قالت ويل لاهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أو دهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذي قال الله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى ومن ورائهم يعني أمامهم وقال مجاهد البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم وقال أبو صخر البرزخ المقابر لاهم في الدنيا ولاهم في الآخرة فهم مقيمون الى يوم يبعثون وفي قوله تعالى ومن ورائهم برزخ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى من ورائهم جهنم وقال تعالى ومن ورائه عذاب غليظ وقوله تعالى الى يوم يبعثون أي يستمر به العذاب الى يوم البعث كما جاء في الحديث فلا يزال معذبا فيها اي في الارض (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون) يخبر تعالى انه اذا نفخ في الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون أي لا تنفع الانساب يومئذ ولا يرثي والد لولده ولا يلوي عليه قال الله تعالى ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم أي لا يسأل القريب عن قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد أثقل ظهره وهو أعز الناس عليه كان في الدنيا ما التفت اليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال الله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه الآية وقال ابن مسعود اذا كان يوم القيامة جمع الله الاولين والآخرين ثم نادى مناد الا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وان كان صغيرا ومصداق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون رواه ابن أبي حاتم وقال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم حدثنا عبد الله بن جعفر حدثتنا أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن عبيد الله بن رافع عن

المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها وينشطني ما ينشطها
وان الأنساب تنقطع يوم القيامة الا نسبي وسببي وصهري وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها وقال الامام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا زهير عن
عبد الله بن محمد عن حمزة بن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على هذا المنبر ما بال رجال
يقولون ان رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفع قومه بلى والله ان رحمي موصولة في الدنيا والآخرة واني أيها

الناس فرطكم اذا جئتم قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدي وارتددتم القهقرى وقد ذكرنا في مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من طرق متعددة عنه رضي الله عنه انه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما قال أما والله ما بي الا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كل سبب ونسب فانه منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي رواه الطبراني والبزار والهيثم بن كليب والبيهقي والحافظ الضياء في المختارة وذكر انه أصدقها أربعين ألفا اعظاما واكراما رضي الله عنه فقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق أبي القاسم بن البغوي حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع حدثنا ابراهيم بن عبد السلام عن ابراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة الا نسبي وصهري وروى
فيه من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا سألت ربي عز وجل ان لا أتزوج
الى أحد من أمتي ولا يتزوج الي أحد منهم الا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك ومن حديث عمار بن سيف عن اسمعيل عن عبد الله
ابن اتوه

وقوله تعالى فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون أي من رجحت حسناته على سيآته ولو بواحدة قاله
ابن عباس فأولئك هم المفلحون أي الذين فازوا فنجوا من النار وادخلوا الجنة وقال ابن عباس أولئك الذين فازوا بما طلبوا
ونجوا من شر ما منه هربوا ومن خفت موازينه أي ثقلت سيآته على حسناته فأولئك الذين خسروا أنفسهم أي خابوا

أبو عبيدة من الباقين في الهرم أي بقيت حتى هرمت قال النحاس يقال للذاهب غابر وللباقي غابر والأغبار بقية الألبان وتقول العرب ما مضى وما غبر أي ما بقي قال قتادة هي امرأة لوط غبرت في عذاب الله (ثم دمرنا الآخرين) أي أهلكناهم بالخسف والحصب وبقلب ديارهم عليهم وجعل عاليها سافلها (وأمطرنا عليهم) أي على من كان منهم في ذلك الوقت خارج القرى لسفر أو غيره (مطرا) يعني الحجارة وقيل الكبريت والنار (فساء مطر المنذرين) المخصوص بالذم محذوف والتقدير مطرهم ولم يرد بهم قوما بأعيانهم بل جنس الكافرين وقد تقدم تفسير قوله (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) في هذه السورة (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) الأيكة الشجر الملتف وهي الغيضة وقرئ ليكة بلام واحدة وفتح التاء جعلوه اسما غير معرف بأل مضافا اليه أصحاب وليكة اسم للقرية وأنكره الزمخشري وهو غير جيد وقيل هما بمعنى واحد اسم للغيضة قال القرطبي فأما ما حكاه أبو عبيدة من ان ليكة اسم القرية التي كانوا فيها وان الأيكة اسم البلد كله فشيء لم يثبت ولم يعرف من قاله ولو عرف لكان فيه نظر لأن أهل العلم جميعا على خلافه قال أبو علي الفارسي الأيكة تعريف أيكة فاذا حذفت الهمزة تخفيفا ألقيت حركتها على اللام قال الخليل الأيكة الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر قال مجاهد ليكة هي الأيكة وقد وقع لفظ الأيكة في القرآن أربع مرات في الحجر و ق وما هنا وفي ص والأولان بأل والجر والآخران يقرآن بأل وبالجر وبحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وفتح الهاء مع ان الكل مجرورات باضافة لفظ أصحاب اليها وقال ابن عباس كانوا أصحاب غيضة من ساحل البحر الى مدين (اذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل أخوهم كما قال في الأنبياء قبله لأنه لم يكن من أصحاب الأيكة في النسب فلما ذكر مدين قال أخاهم شعيبا لأنه كان منهم وقد مضى تحقيق نسبه في الأعراف وبعث الله شعيبا الى أمتين أصحاب الأيكة وأهل مدين فأهلك الله أصحاب الأيكة بالظلة وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا أجمعين (اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) وانما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء فيما حكى الله عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على تقوى الله وطاعته والاخلاص في العبادة والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة (أوفوا الكيل) أي

وهلكوا أو فازوا بالصفقة الخاسرة قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا اسمعيل بن الحرث حدثنا داود بن المحبر حدثنا صالح المري عن ثابت البناني وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان عن أنس بن مالك يرفعه قال ان لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فان ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمعه الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وان خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا اسناده ضعيف فان داود بن المحبر ضعيف متروك ولهذا قال تعالى في جهنم خالدون أي ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون تلفح وجوههم (٣٥) النار كما قال تعالى وتغشى وجوههم النار وقال تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا فروة بن أبي المغراء حدثنا محمد بن سليمان الاصبهاني عن أبي سنان ضرار بن مرة عن عبد الله ابن أبي الهذيل عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان جهنم لما سيق لها أهلها تلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم الا سقط على العرقوب وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القزاز حدثنا الخضر بن علي بن يونس القطان حدثنا عمرو بن أبي الحرث ابن الخضر القطان حدثنا سعيد بن سعيد المقبري عن أخيه عن أبيه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى تلفح وجوههم النار قال تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم وقوله تعالى وهم فيها كالحون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني عابسون وقال الثوري عن أبي اسحق عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود وهم فيها كالحون قال ألم تر الى الرأس المشيط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد رحمه الله أخبرنا علي بن اسحاق أخبرنا عبد الله هو ابن المبارك رحمه الله أخبرنا سعيد بن يزيد عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته ورواه الترمذي عن سويد بن نصر عن عبد الله بن المبارك به وقال حسن غريب (ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) هذا تقريع من الله وتوبيخ لاهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك

أتم لمن أراده وعامل به (ولا تكونوا من المخسرين) أي الناقصين للكيل والوزن يقال أخسرت الكيل والوزن أي نقصته ومنه قوله تعالى واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون قال النسفي الكيل واف وهو مأمور به وطفيف وهو منهي عنه وزائد وهو مسكوت عنه فتركه دليل على أنه ان فعله فقد أحسن وان لم يفعل فلا شيء عليه ثم زاد سبحانه في البيان فقال (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أي أعطوا الحق بالميزان السوي وقد مر بيان تفسير هذا في سورة سبحان وقرئ القسطاس مضموم القاف ومكسورها وهي الميزان أو القبان فان كان من القسط وهو العدل وجعلت العين مكررة فوزنه فعلاس والا فهو رباعي (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) البخس النقص يقال بخسه حقه اذا نقصه أي لا تنقصوا حقوقهم التي لهم وهذا تعميم بعد التخصيص وقيل دراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها وقد تقدم تفسيره في سورة هود وتقدم أيضا تفسير (ولا تعثوا في الارض مفسدين) فيها وفي غيرها أي لا تبالغوا فيها بالفساد نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه يقال عثا في الارض اذا أفسد وبابه سما وعثي بالكسر وعثي بفتحتين بوزن فتى قال الازهري القراء كلهم متفقون على فتح الثاء وقد دل على ان القرآن نزل باللغة الثانية وفي القاموس عثي كسعي ورمى ورضي (واتقوا) الله (الذي خلقكم) أي من نطفة واعدامكم أهون شيء عليه وأشار الى ضعفهم وقوة من كان قبلهم بقوله (والجبلة الاولين) الذين أهلكوا بالمعاصي كقوم لوط كانوا على خلقة وطبيعة عظيمة قرئ الجبلة بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وقرئ بضمهما وتشديد اللام وقرئ بفتح الجيم مع سكون الباء والجبلة الخليقة قاله مجاهد وغيره يعني الامم المتقدمة يقال جبل فلان على كذا أي خلق قال النحاس الخلق يقال له جبلة بكسر الحرفين الاولين وضمهما مع تشديد اللام فيهما وبضم الجيم وسكون الباء وضمه وفتحها قال الهروي الجبلة والجبلة والجبلة والجبل والجبل لغات وهو الجمع والعدد الكثير من الناس ومنه قوله تعالى جبلا كثيرا أي خلقا كثيرا (قالوا انما أنت من المسحرين) أي من المخلوقين (وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو هنا يفيد معنيين كلاهما مناف للرسالة عندهم التسحير والبشرية يعني ان كلا منهما كاف فكيف اذا اجتمعا وترك الواو في قصة ثمود ليفيد معنى واحدا وهو كونه مسحرا وقد تقدم تفسيره في هذه السورة (وان نظنك لمن الكاذبين) فيما تدعيه علينا من الرسالة

فقال تعالى ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون أي قد أرسلت إليكم الرسل وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير إلى قوله فسحقا لأصحاب السعير ولهذا قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين أي قد قامت علينا الحجة ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون أي ارددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا (٣٦) فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل إلى قوله فالحكم لله العلي الكبير أي لا سبيل إلى الخروج لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحده المؤمنون (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار يقول اخسئوا فيها أي امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء ولا تكلمون أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا فإنه لا جواب لكم عندي قال العوفي عن ابن عباس اخسئوا فيها ولا تكلمون قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة ابن سليمان المروزي حدثنا عبد الله بن المبارك عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا هذا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم اخسئوا فيها ولا تكلمون قال فوالله ما نبس القوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم قال فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل حدثنا أبو الزعراء قال قال عبد الله بن مسعود إذا أراد الله تعالى أن لا يخرج منهم أحدا غير وجوههم وألوانهم فيجيء الرجل من المؤمنين فيشفع

وقيل ما نظنك إلا من الكاذبين والأول أولى (فأسقط علينا كسفا) كان شعيب عليه السلام يتوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا فقالوا له هذا القول تعنتا واستبعادا وتعجيزا قال أبو عبيدة الكسف جمع كسفة مثل سدر وسدرة قال الجوهري الكسفة القطعة من الشيء يقال أعطني كسفة من ثوبك والجمع كسف وكسف وقد مضى تحقيق هذا في سورة سبحان (من السماء) أي السحاب أو الظلة (إن كنت من الصادقين) في دعواك (قال ربي أعلم بما تعملون) من الشرك والمعاصي فهو مجازيكم على ذلك إن شاء وفي هذا تهديد شديد (فكذبوه) استمروا على تكذيبه وأصروا على ذلك (فأخذهم عذاب يوم الظلة) هي السحاب أقامها الله فوق رؤسهم فأمطرت عليهم نارا فهلكوا وقد أصابهم الله بما اقترحوه لأنهم إن أرادوا بالكسف القطعة من السحاب فظاهر وإن أرادوا بها القطعة من السماء فقد نزل عليهم العذاب من جهتها قال ابن عباس أرسل الله إليهم سموما من جهنم فأطاف بهم سبعة أيام حتى أنضجهم الحر فحميت بيوتهم وغلت مياههم في الآبار والعيون فخرجوا من منازلهم ومحلتهم هاربين والسموم معهم فسلط الله عليهم الشمس من فوق رؤسهم فغشيتهم حتى تقلقلت فيها جماجمهم وسلط الله عليهم الرمضاء من تحت أرجلهم حتى تساقطت لحوم أرجلهم ثم نشأت لهم ظلة كالسحابة السوداء فلما رأوها ابتدروها يستغيثون بظلها حتى إذا كانوا جميعا أطبقت عليهم فهلكوا ونجى الله شعيبا والذين آمنوا معه وعنه أيضا أنه سئل عن قوله فأخذهم عذاب إلى آخره فقال خرجوا من البيوت هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أسقط الله عليهم نارا فذلك عذاب يوم الظلة وعنه قال من حدثك من العلماء عذاب يوم الظلة فكذبه فول فما نقول له رضي الله عنه وقد أخذ شيئا من ذلك مما نقلناه عنه هنا وقد رواه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم ويمكن أن يقال إنه لما كان هو البحر الذي علمه الله تأويل كتابه بدعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كان مختصا بمعرفة هذا الحديث دون غيره من أهل العلم فمن حدث بحديث عذاب يوم الظلة على وجه غير هذا الوجه الذي حدثنا به فقد وصانا بتكذيبه لأنه قد علمه ولم يعلمه غيره والله أعلم وأضاف العذاب إلى يوم الظلة لا إلى الظلة تنبيها على أن لهم في ذلك اليوم عذابا غير عذاب يوم الظلة (1) كذا قيل ثم وصف سبحانه

(1) قوله غير عذاب يوم الظلة كذا بالأصل الذي بأيدينا وانظره اهـ مصححه

فيقول يارب فيقول الله من عرف احدا فليخرجه فيجيء الرجل من المؤمنين فينظر فلا يعرف احدا فيناديه الرجل يافلان انا فلان
فيقول ما اعرفك قال فعند ذلك يقولون في النار ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فعند ذلك يقول الله تعالى اخسؤا فيها
ولا تكلمون فاذا قال ذلك أطبقت عليهم النار فلا يخرج منهم أحد ثم قال تعالى مذكرا لهم بذنوبهم في الدنيا وما كانوا يستهزؤن بعباده
المؤمنين وأوليائه فقال تعالى انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا
أي فسخرتم منهم في دعائهم اياي وتضرعهم الي حتى انسوكم ذكري (٣٧) أي حملكم بغضهم على ان نسيتم معاملتي
وكنتم منهم تضحكون أي من صنيعهم وعبادتهم كما قال تعالى ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون أي يلمزونهم استهزاء ثم اخبر تعالى عما جازى به اولياءه وعباده الصالحين فقال تعالى اني جزيتهم اليوم بما صبروا أي على أذاكم لهم واستهزائكم بهم انهم هم الفائزون أي جعلتهم هم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار (قال كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون قال كم لبثتم في الارض عدد سنين أي كم كانت اقامتكم في الدنيا قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين أي
الحاسبين قال ان لبثتم الا قليلا أي مدة يسيرة على كل تقدير لو انكم كنتم تعلمون اي لما آثرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لانفسكم
هذا التصرف السيء ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو انكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم
كما فازوا قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن يونس حدثنا الوليد حدثنا صفوان عن أيفع بن عبد الكلاعي انه سمعه يخطب
الناس فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله اذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال يا أهل الجنة كم لبثتم في الارض
عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم قال لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي امكثوا فيها خالدين مخلدين ثم

هذا العذاب الذي أصابهم بقوله (انه كان عذاب يوم عظيم) لما فيه من الشدة عليهم
التي لا يقادر قدرها وقد تقدم تفسير قوله (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) في هذه السورة مستوفى فلا نعيده وقد تقدم
الكلام على هذه القصص في سورة الاعراف وهود فأغنى عن الاعادة هنا وفي هذا التكرير
لهذه الكلمات في آخر هذه القصص السبع من التهديد والزجر والتقرير والتأكيد ما لا
يخفى على من يفهم مواقع الكلام ويعرف أساليبه وقال النسفي قد كرر في هذه السورة في
أول كل قصة وآخرها ما كرر تقريرا للمعاني في الصدور وليكون أبلغ في الوعظ والزجر
ولان كل قصة منها كتنزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها فكانت جديرة
بان تفتتح بما افتتحت به صاحبتها وان تختتم بما اختتمت به (وانه) الضمير يرجع الى ما نزله
عليه من الاخبار أي وان هذه الاخبار أو وان القرآن وان لم يجر له ذكر للعلم به وبه قال
قتادة (لتنزيل رب العالمين) أي فليس بشعر ولا سحر ولا أساطير ولا غير ذلك مما قالوه فيه
(نزل) قرئ مخففا ومشددا (به الروح الامين) هو جبريل كما في قوله قل من كان عدوا
لجبريل فانه نزله على قلبك وبه قال قتادة وابن عباس وعنه مرفوعا قال الروح الامين
جبريل رأيت له ستمائة جناح من لؤلؤ قد نشرها فهي مثل ريش الطواويس أخرجه
أبو الشيخ وسماه روحا لانه خلق من الروح وسماه أمينا لانه مؤتمن على وحيه لانبيائه
(على قلبك) اي انه تلاه على قلبك حتى تعيه وتفهمه ولا تنساه ووجه تخصيص القلب
انه اول مدرك من الحواس الباطنة قال الكرخي خصه بالذكر ليؤكد ان ذلك المنزل
محفوظ والرسول متمكن من قلبه لا يجوز عليه التغيير ولان القلب هو المخاطب في الحقيقة
لانه موضع التمييز والعقل والاختيار وسائر الاعضاء مسخرة له ويدل عليه القرآن
والحديث والمعقول اما القرآن فقوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب والحديث
قوله صلى الله عليه وآله وسلم ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا
فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب أخرجاه في الصحيحين واما المعقول فان القلب
اذا غشي عليه وقطع سائر الاعضاء لم يحصل له شعور واذا افاق القلب شعر بجميع ما ينزل
بالاعضاء من الآفات وعبارة الخازن ومن المعقول ان موضع الفرح والسرور والغم
والحزن هو القلب فاذا فرح القلب أو حزن يتغير حال سائر الاعضاء فكان القلب

قال يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فيقول بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم نارى وسخطي امكثوا فيها خالدين مخلدين وقوله تعالى أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا وقيل للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا كما خلقت البهائم لا ثواب لها ولا عقاب وإنما خلقناكم للعبادة وإقامة أوامر الله عز وجل وأنكم إلينا لا ترجعون أي لا تعودون في الدار الآخرة كما قال تعالى أيحسب الإنسان أن يترك سدى يعني هملا وقوله فتعالى الله الملك الحق أي تقدس أن يخلق (٣٨) شيئا عبثا فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك لا إله إلا هو رب العرش الكريم فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ووصفه بأنه كريم أي حسن المنظر بهي الشكل كما قال تعالى وأنبتنا فيها من كل زوج كريم قال ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا إسحق بن سليمان شيخ من أهل العراق أنبأنا شعيب ابن صفوان عن رجل من آل سعيد ابن العاص قال كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم فخاب وخسر وشقي عبد أخرجه الله من رحمته وحرم جنة عرضها السموات والأرض ألم تعلموا أنه لا يأمن عذاب الله غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه وباع نافدا بباق وقليلا بكثير وخوفا بأمان ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين وسيكون بعدكم للباقين حتى تردون إلى خير الوارثين ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقضى أجله حتى تغيبوه في صدع من الأرض في بطن صدع غير ممهد ولا موسد قد فارق الأحباب وباشر التراب وواجه الحساب مرتهن بعمله غني عما خلف فقير إلى ما قدم فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه ونزول الموت بكم ثم رفع طرف ردائه على وجهه وبكى وأبكى من حوله وقال ابن أبي حاتم حدثنا يحيى بن نصر الخولاني حدثنا ابن وهب أخبرني ابن لهيعة عن أبي هبيرة عن حنش بن عبد الله أن رجلا مصابا مر به على عبد الله بن مسعود فقرأ في أذنه هذه الآية أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق حتى ختم السورة فبرأ فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا قرأت (ولو

كالرئيس لها وسبب أن موضع العقل هو القلب على الصحيح من القولين فإذا ثبت ذلك كان القلب هو الأمير المطلق وهو المكلف لأن التكليف مشروط بالعقل والفهم انتهى (لتكون من المنذرين) علة للإنزال أي أنزله عليك لتنذرهم بما تضمنه من التحذيرات والإنذارات والعقوبات (بلسان عربي مبين) أي لتكون من المنذرين الذين أنذروا بهذا اللسان وهم هود وشعيب وصالح وإسمعيل عليهم الصلاة والسلام أو متعلق بنزل أي نزله بلسان عربي لتنذر به وقال أبو البقاء بلسان عربي أي برسالة أو لغة وقال أبو السعود باللغة العربية وإنما جعل الله سبحانه القرآن عربيا بلسان الرسول العربي لئلا يقول مشركو العرب لو نزل بالأعجمي لسنا نفهم ما تقوله بغير لساننا فقطع بذلك حجتهم وأزاح علتهم ودفع معذرتهم قال ابن عباس أي بلسان قريش ولو كان غير عربي ما فهموه وعن بريدة قال بلسان جرهم (وإنه) أي إن هذا القرآن باعتبار أحكامه التي أجمعت عليها الشرائع أو ذكره وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (لفي زبر الأولين) من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبر الكتب الواحد زبور وقد تقدم الكلام على تفسير مثل هذا وقيل المراد بكون القرآن فيها أنه مذكور فيها هو نفسه لا ما اشتمل عليه من الأحكام وفيه دليل على أن القرآن قرآن إذا ترجم بغير العربية كالفارسية وغيرها والأول أولى وقد قيل إن الصحيح من مذهب أبي حنيفة أن القرآن هو النظم والمعنى معا قاله الشهاب (أولم يكن لهم آية) الهمزة للإنكار والواو للعطف على مقدر كما تقدم مرارا والآية العلامة والدلالة أي ألم تكن لهؤلاء أي الكفار مكة علامة دالة على أن القرآن حق وأنه تنزيل رب العالمين وأنه في زبر الأولين (أن يعلمه علماء بني إسرائيل) على العموم أو من آمن منهم كعبد الله بن سلام وأسد وأسيد وثعلبة وابن يامين فهؤلاء الخمسة من علماء اليهود وقد حسن إسلامهم فإنهم يخبرون بذلك وإنما صارت شهادة أهل الكتاب حجة على المشركين لأنهم كانوا يرجعون إليهم ويصدقونهم قال الزجاج المعنى أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم نبي حق علامة ودلالة على نبوته لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل كانوا يخبرون بوجود ذكره في كتبهم وكذا قال الفراء عن ابن عباس قال كان عبد الله بن سلام من علماء بني إسرائيل وكان من خيارهم فآمن بكتاب محمد فقال لهم الله أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل

(ولو نزلناه) أي هذا القرآن على الصفة التي هو عليها (على بعض) رجل من (الاعجمين) جمع أعجمي قاله صاحب التحرير أو جمع أعجم قاله ابن عطية يقال رجل أعجم وأعجمي اذا كان غير فصيح اللسان وان كان عربيا ورجل عجمي اذا كان أصله من العجم وان كان فصيحا الا ان الفراء أجاز أن يقال رجل عجمي بمعنى أعجمي وقرئ على بعض الاعجميين على الاصل وقال الزمخشري الاعجم الذي لا يفصح وفي لسانه عجمة أو استعجام والاعجمي مثله الا ان فيه زيادة ياء النسب توكيدا (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة (ما كانوا به مؤمنين) انفة من اتباعه مع انضمام اعجاز القراءة من الرجل الاعجمي للكلام العربي أي القرآن أو المعنى أن الاعجمي لا يتهم باكتسابه أصلا ولا باختراعه لفقد الفصاحة فيه ولكونه ليس لغته وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم بلغته لم يؤمنوا به وقالوا ما نفقه هذا ولا نفهمه ومثل هذا قوله تعالى ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته وهذه الشرطية لا تستلزم الوقوع (كذلك) أي مثل ذلك السلك (سلكناه) أي أدخلنا القرآن (في قلوب المجرمين) أي كفار مكة بقراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى فهموا معانيه وعرفوا فصاحته وانه معجز وقال الحسن وغيره سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين وقال عكرمة سلكنا القسوة والاول أولى لان السياق في القرآن وفيه حجة على المعتزلة في خلق افعال العباد خيرها وشرها (لا يؤمنون به) أي بالقرآن (حتى يروا العذاب الاليم) أي الى هذه الغاية وهي مشاهدتهم للعذاب الاليم والمراد معاينة الموت عند الموت ويكون ذلك ايمان يأس فلا ينفعهم والجملة مستأنفة أو حالية (فيأتيهم) أي العذاب (بغتة) أي فجأة والفاء للترتيب الرتبي دون الزماني كما في الكشاف والمعنى حتى يروا العذاب فما هو أشد منه من رؤيته وهو لحوقه بهم مفاجأة فما هو أشد منه وهو سؤالهم الانظار مع القطع بامتناعه كما يأتي (وهم) أي والحال انهم (لا يشعرون) باتيانه وقرأ الحسن فتأتيهم بالفوقية أي الساعة وان لم يتقدم لها ذكر لكنه قد دل العذاب عليها لقربه (فيقولوا هل نحن منظرون) أي مؤخرون وممهلون عن الهلاك ولو طرفة عين لنؤمن قالوا هذا تحسرا على ما فات من الايمان وطمعا في المحال وهو امهالهم بعد مجيء العذاب وتمنيا للرجعة الى الدنيا لاستدراك ما فرط منهم فيقال لهم لا تأخير ولا امهال وقيل المراد بقولهم هذا الاستعجال للعذاب على طريقة الاستهزاء لقوله (أفبعذابنا يستعجلون)

في اذنه فاخبره فقال له انها الذ اقرئت في اذنه أحرقته ثم قال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لوان رجلا موقنا اقرأها على جبل لزال وروى أبو نعيم من طريق خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن محمد بن ابراهيم بن الحرث عن أبيه قال بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سرية وأمرنا ان نقول اذا نحن أمسينا وأصبحنا أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون قال فقرأناها فغنمنا وسلمنا وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا اسحق بن وهب العلاف الواسطي حدثنا أبو المسيب سالم بن سلام حدثنا بكر بن حبيش عن نهشل بن سعيد عن الضحاك بن (٣٩) مزاحم عن عبد الله بن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أمان أمتي من الغرق اذا ركبوا السفينة بسم الله الملك الحق وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون بسم الله مجراها ومرساها ان ربي لغفور رحيم (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ومخبرا ان من أشرك بالله لا برهان له أي لا دليل له على قوله فقال تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله فانما حسابه عند ربه أي الله يحاسبه على ذلك ثم أخبر انه لا يفلح الكافرون أي لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة قال قتادة ذكر لنا ان نبي الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل ما تعبد قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأيهم اذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك قال الله عز وجل قال فما يحملك على ان تعبد هؤلاء معه ام حسبت ان تغلب عليه قال أردت شكره بعبادة هؤلاء معه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلمون ولا يعلمون فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمني هذا مرسل من هذا الوجه وقد روى أبو عيسى الترمذي في جامعه مسندا عن عمران بن الحصين عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو ذلك وقوله تعالى وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين هذا ارشاد من الله تعالى الى هذا الدعاء فالغفر اذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها ان يسدده ويوفقه في الاقوال والافعال آخر تفسير سورة المؤمنون

(تفسير سورة النور وهي مدنية)

﴿بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون * الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾

يقول تعالى هذه سورة أنزلناها فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها وفرضناها قال مجاهد وقتادة أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود وقال البخاري ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم وأنزلنا فيها آيات بينات أي مفسرات واضحات لعلكم تذكرون (٤٠) ثم قال تعالى الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد وللعلماء فيه تفصيل ونزاع فإن الزاني لا يخلو إما أن يكون بكرا وهو الذي لم يتزوج أو محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فأما إذا كان بكرا لم يتزوج فإن حده مائة جلدة كما في الآية ويزاد على ذلك أن يغرب عاما عن بلده عند جمهور العلماء خلافا لأبي حنيفة رحمه الله فإن عنده أن التغريب إلى رأي الإمام إن شاء غرب وإن شاء لم يغرب وحجة الجمهور في ذلك ما ثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللذين أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهما يا رسول الله إن ابني هذا كان عسيفا يعني أجيرا على هذا فزنى بامرأته فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة فسألت أهل العلم فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى الوليدة والغنم رد عليك وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام واغد يا أنيس لرجل من أسلم إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فرجمها وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج فأما إذا كان محصنا وهو الذي قد وطئ في نكاح صحيح وهو حر بالغ عاقل فإنه يرجم كما قال الإمام مالك حدثني ابن شهاب أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن ابن عباس أخبره أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ورجم

ولا يخفى ما في هذا من البعد والمخالفة للمعنى الظاهر فإن معنى هل نحن منظرون طلب النظرة والإمهال وأما قوله أفبعذابنا يستعجلون فالمراد به الرد عليهم والإنكار لما وقع منهم من قولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقولهم فأتنا بما تعدنا حيث استعجلوا ما فيه ضررهم وحتف أنفسهم والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أيكون حالهم كما ذكر من نزول العذاب فيستعجلون به وبينهما من التنافي ما لا يخفى على أحد أو أيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون وتقديم الظرف لرعاية الفواصل (أفرأيت) الاستفهام للإنكار والفاء للعطف على مقدر يناسب المقام ومعنى رأيت أخبرني والخطاب لكل من يصلح له (إن متعناهم سنين) في الدنيا متطاولة وطولنا لهم الأعمار (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب والهلاك (ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) أي أي شيء أو أي إغناء أغنى عنهم كونهم ممتعين ذلك التمتع الطويل المديد والاستفهام للإنكار التقريري وما في ما كانوا مصدرية أو موصولة وقيل ما الأولى نافية والثانية مصدرية أي لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب وتخفيفه وقرئ يمتعون من أمتع الله زيدا بكذا وعن ميمون بن مهران أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظني فلم يزده على تلاوة هذه الآية فقال ميمون قد وعظت فأبلغت وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) من مزيدة للتأكيد أي وما أهلكنا قرية من القرى إلا بعد الإنذار والإعذار بإرسال الرسل إليهم وإنزال الكتب (ذكرى) بمعنى تذكرة أي يذكرون ذكرى قال النحاس وهذا قول صحيح لأن معنى إلا لها منذرون إلا لها مذكرون أو التقدير إنذارنا ذكرى أو ذلك ذكرى قال ابن الأنباري هي ذكرى أو يذكرهم ذكرى وقيل ينذرونهم ذوي تذكرة أو لأجل التذكرة وبه صرح أبو البقاء أي ينذرهم لأجل تذكيرهم بالعواقب وقد رجح الأخفش أنها خبر مبتدأ محذوف والجملة اعتراضية (وما كنا ظالمين) في تعذيبهم وليس من شأننا الظلم وقد قدمنا الحجة إليهم وأنذرناهم وأعذرنا إليهم (وما تنزلت به) أي بالقرآن (الشياطين) وقرئ بالواو والنون إجراء له مجرى جمع السلامة قال النحاس وهذا غلط عند جميع النحويين قال المبرد وهذا غلط من العلماء وبه قال الفراء ونقل المؤرج أن كان الشيطان من شاط يشيط كان لهذه القراءة وجه وقال يونس بن حبيب سمعت أعرابيا يقول دخلنا

بساتين من وراء تهابة بساقون وهذا رد لما زعمه الكفرة في القرآن انه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة بعد تحقيق الحق ببيان انه نزل به الروح الأمين فلا يكون سحرا أو كهانة أو شعرا أو أضغاث أحلام كما يقولون (وما ينبغي لهم) ذلك وما يصح منهم ولا يصلح أن ينزلوا به (وما يستطيعون) ما نسبه الكفار اليهم أصلا ولا يمكنهم (انهم عن السمع) للقرآن أو لكلام الملائكة (لمعزولون) أي لمحجوبون مرجومون بالشهب ثم لما قرر الله سبحانه حقية القرآن وانه منزل من عنده أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بدعاء الله وحده فقال (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) ان فعلت ذلك الذي دعوك اليه وخطاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا مع كونه منزها عنه معصوما منه لحث العباد على التوحيد ونهيهم عن شوائب الشرك وكأنه قال أنت أكرم الخلق علي وأعزهم عندي ولو اتخذت معي الها لعذبتك فكيف بغيرك من العباد قال في حاشية الجمل الخطاب له والمقصود غيره (وأنذر عشيرتك الاقربين) خصهم لان الاهتمام بشأنهم أولى وهدايتهم الى الحق أقدم قيل هم قريش وقيل بنو عبد مناف وقيل بنو هاشم وقد ثبت في البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قريشا وعم وخص فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فاني لا أملك لك ضرا ولا نفعا ألا أن لكم رحما وسأبلها ببلالها وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة فذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم بيان للعشيرة الاقربين وانذار لهم جهارا (واخفض جناحك) أي جانبك يقال خفض جناحه اذا ألانه وفيه استعارة حسنة والمعنى ألن جناحك وتواضع (لمن اتبعك من المؤمنين) الموحدين من عشيرتك وغيرهم وأظهر لهم المحبة والكرامة وتجاوز عنهم (فان عصوك) أي خالفوا أمرك ولم يتبعوك (فقل) لهم (اني بريء مما تعملون) أي من عملكم أو من الذي تعملونه من عبادة غير الله وهذا يدل على أن المراد بالمؤمنين المشارفون

رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده فأخشى ان يطول بالناس زمان ان يقول قائل لا نجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله فالرجم في كتاب الله حق على من زنى اذا أحصن من الرجال والنساء اذا قامت البينة أو الحبل أو الاعتراف أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك مطولا وهذا قطعة منه فيها مقصودنا ههنا وروى الامام أحمد عن هشيم عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس حدثني عبد الرحمن بن عوف ان عمر بن الخطاب خطب الناس فسمعته يقول ألا وان أناسا يقولون ما الرجم في كتاب الله وانما فيه الجلد وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ولولا ان يقول قائل أو يتكلم متكلم ان عمر زاد في كتاب الله ما ليس منه لاثبتها كما نزلت وأخرجه النسائي من حديث عبيد الله بن عبد الله به وقد روى الامام أحمد أيضا عن هشيم عن علي ابن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس قال خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فذكر الرجم فقال انا لا نجد من الرجم بدا فانه حد من حدود الله تعالى الا وان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده ولولا ان يقول قائلون ان عمر زاد في كتاب الله ما ليس فيه لكتبت في ناحية من المصحف وشهد عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف وفلان وفلان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم ورجمنا بعده الا انه سيكون قوم من بعدكم يكذبون بالرجم وبالشفاعة وبعذاب القبر وبقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا وروى أحمد أيضا عن يحيى القطان عن يحيى الانصاري عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب اياكم أن تهلكوا عن آية الرجم الحديث رواه الترمذي من حديث سعيد عن عمر وقال صحيح وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبيد الله بن عمر القواريري حدثنا يزيد بن زريع حدثنا ابن عوف عن محمد هو ابن سيرين قال ابن عمر نبئت عن كثير بن الصلت قال كنا عند مروان وفينا زيد فقال زيد ابن ثابت كنا نقرأ الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة قال مروان ألا كتبتها في المصحف قال ذكرنا ذلك وفينا عمر بن الخطاب فقال أنا أشفيكم من ذلك قال قلنا فكيف قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم قال فذكر كذا وكذا وذكر الرجم فأتاه فذكر ذلك الرجل الرجم فقال يا رسول الله اكتب آية الرجم قال لا أستطيع الآن هذا أو نحو ذلك وقد روى النسائي من حديث محمد

ابن المثنى عن غندر عن شعبة عن قتادة عن يونس بن جبير عن كثير بن الصلت عن زيد بن ثابت وهذه طرق كلها متعددة متعاضدة ودلت على أن آية الرجم كانت مكتوبة فنسخ تلاوتها وبقي حكمها معمولا به والله أعلم وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ورجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماعزا والغامدية وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلدهم قبل الرجم وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم وليس فيها ذكر الجلد (٤٢) ولهذا كان مذهب جمهور العلماء وإليه ذهب أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية والرجم للسنة كما روي ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه لما أتي بشراحة وكانت قد زنت وهي محصنة فجلدها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة فقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد روى الإمام أحمد وأهل السنن الأربعة ومسلم من حديث قتادة عن الحسن عن حطان بن عبد الله الرقاشي عن عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خذوا عني خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم وقوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله أي في حكم الله أي لا ترحموهما وترأفوا بهما في شرع الله وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد فلا يجوز ذلك قال مجاهد ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال إقامة الحدود إذا رفعت إلى السلطان فتقام ولا تعطل وكذا روي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وقد جاء في الحديث تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب وفي الحديث الآخر لحد يقام في الأرض خير لأهلها من أن يمطروا أربعين صباحا وقيل المراد ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله فلا تقيموا الحد كما ينبغي من شدة الضرب الزاجر عن المأثم وليس المراد الضرب المبرح قال عامر الشعبي ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال رحمة في شدة الضرب وقال عطاء ضرب ليس بالمبرح وقال سعيد بن أبي عروبة عن حماد بن أبي سليمان يجلد القاذف وعليه ثيابه والزاني تخلع ثيابه ثم تلا ولا تأخذكم

للأصنام المعبودة باطلة لأن المؤمنين أهل الحق لا يعبدونه ولا يخالفونه ثم بين له ما يعتمد عليه عند عصيانهم له فقال (وتوكل على العزيز الرحيم) أي فوض جميع أمورك إليه فإنه القادر على قهر الأعداء وهو الرحيم للأولياء قرئ فتوكل بالفاء والواو وهما قراءتان سبعيتان فعلى الأولى يكون ما بعده كالجزء مما قبله مرتبا عليه وعلى الثانية يكون ما بعد الواو معطوفا على ما قبلها عطف جملة على جملة من غير ترتيب (الذي يراك حين تقوم) إلى الصلاة وحدك في قول أكثر المفسرين وقال مجاهد حين تقوم حيثما كنت (وتقلبك في الساجدين) المصلين أي ويرى تقلبك في المصلين في الجماعة راكعا وقائما وساجدا كذا قال أكثر المفسرين وعن مقاتل أنه سأل أبا حنيفة رحمهما الله هل تجد الصلاة في الجماعة في القرآن قال لا يحضرني فتلا له هذه الآية وقيل يرى تقلبك في أصلاب الرجال الموحدين من نبي إلى نبي من لدن آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة حتى أخرجك في هذه الأمة فجميع أصوله رجالا ونساء مؤمنون وأورد على هذا آزر أبو إبراهيم فإنه كافر بمقتضى الآيات وأجاب بعضهم بأنه كان عم إبراهيم لا أباه وفيه ضعف بين وأجاب بعضهم أنه وإن لم يؤمن أصول محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يدخلهم الشرك بحال ما دام النور المحمدي في الذكر وفي الأنثى فإذا انتقل منه لم يبعد أن أمكن أن يعبد غير الله وآزر ما عبد الأصنام إلا بعد انتقال النور منه لإبراهيم وأما قبل انتقاله فلم يعبد غير الله قاله الحفناوي وقيل المراد بتقلبه قيامه إلى التهجد وبالتقلب تردده في تصفح أحوال المتهجدين في العبادة وتقلب بصره فيهم كذا قال مجاهد قال ابن عباس تقلبك أي قيامك وركوعك وسجودك وعنه قال يراك وأنت مع الساجدين تقوم وتقعد معهم وعنه قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا قام إلى الصلاة يرى من خلفه كما يرى من بين يديه وشاهده الحديث في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل ترون قبلتي ههنا فوالله ما يخفى علي خشوعكم ولا ركوعكم وإني لأراكم من وراء ظهري (إنه هو السميع) لما تقوله (العليم) به ثم أكد سبحانه معنى قوله وما تنزلت به الشياطين وبينه فقال (هل أنبئكم) يا كفار مكة (على من تنزل الشياطين) أي تتنزل فحذف إحدى التاءين وفيه بيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (تنزل على كل أفاك أثيم) الأفاك الكثير الإفك والأثيم كثير الإثم والمراد به كل من كان كاهنا

بهما رأفة في دين الله فقلت هذا في الحكم قال هذا في الحكم والجلد يعني في اقامة الحد وفي شدة الضرب وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الاودي حدثنا وكيع عن نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر أن جارية لابن عمر زنت فضرب رجليها قال نافع أراه قال وظهرها قال قلت ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله قال يا بني ورأيتني أخذتني بها رأفة ان الله لم يأمرني ان أقتلها ولا أن أجعل جلدها في رأسها وقد أوجعت حين ضربتها وقوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر أي فافعلوا ذلك واقيموا الحدود على من زنى وشددوا عليه الضرب ولكن ليس مبرحا ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك وقد جاء في المسند عن بعض الصحابة انه قال يا رسول الله اني لاذبح الشاة وأنا أرحمها فقال ولك في ذلك أجر وقوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين هذا فيه تنكيل للزانيين اذا جلدا بحضرة الناس فان ذلك يكون أبلغ في زجرهما وانجع في ردعهما فان في ذلك تقريعا وتوبيخا وفضيحة اذا كان الناس حضورا قال الحسن البصري في قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين يعني علانية ثم قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين الطائفة الرجل فما فوقه وقال مجاهد العلانية الرجل الواحد الى الالف وكذا قال عكرمة ولهذا قال أحمد ان الطائفة تصدق على واحد وقال عطاء بن أبي رباح اثنان وبه قال اسحق بن راهويه وكذا قال سعيد بن جبير طائفة من المؤمنين قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا وقال الزهري ثلاثة نفر فصاعدا وقال عبد الله بن وهب عن الامام مالك في قوله وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين قال الطائفة أربعة نفر فصاعدا لانه لا يكفي شهادة في الزنا الا أربعة شهداء فصاعدا وبه قال الشافعي وقال ربيعة خمسة وقال الحسن البصري عشرة وقال قتادة أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين أي نفر من المسلمين ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان حدثنا بقية قال سمعت نصر بن علقمة يقول في قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين قال ليس ذلك للفضيحة انما ذلك ليدعى الله تعالى لهما بالتوبة والرحمة (الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) هذا خبر من الله تعالى بان الزاني لا يطأ الا زانية أو مشركة اي لا يطاوعه على مراده من الزنا

فان الشياطين كانت تسترق السمع ثم يأتون اليهم فيلقونه اليهم مثل مسيلمة من المتنبئة وكسطيح من الكهنة وهو معنى قوله (يلقون السمع) أي ما يسمعونه مما يسترقونه فالمعنى حال كون الشياطين ملقين السمع أي ما يسمعونه من الملا الاعلى الى الكهان ويجوز أن يكون المعنى ان الشياطين يلقون السمع أي يصغون الى الملا الاعلى ليسترقوا منهم شيأ أو يكون المراد بالسمع على الوجه الاول المسموع وعلى الوجه الثاني نفس حاسة السمع ويجوز أن تكون جملة يلقون السمع راجعة الى كل أفاك أثيم على أنها صفة أو مستأنفة ومعنى الالقاء أنهم يسمعون ما تلقيه اليهم الشياطين من الكلمات التي تصدق الواحدة منها وتكذب المائة الكلمة ويلقونها الى عوام الخلق أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت سأل أناس النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكهان قال انهم ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله انهم يحدثون أحيانا بشيء يكون حقا قال تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة وفي لفظ للبخاري فيزيدون معها مائة كذبة (و) جملة (أكثرهم كاذبون) راجعة الى كل أفاك أثيم أي وأكثر هؤلاء الكهنة كاذبون فيما يتلقونه من الشياطين لانهم يضمون الى ما يسمعونه كثيرا من أكاذيبهم المختلقة أو وأكثرهم كاذبون فيما يلقونه من السمع أي المسموع من الشياطين الى الناس أو وهذه الجملة راجعة الى الشياطين أي وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه الى الكهنة مما يسمعونه فانهم يضمون الى ذلك من عند أنفسهم كثيرا من الكذب وكان هذا قبل ان حجبت الشياطين عن السماء وقد قيل كيف يصح على الوجه الاول وصف الافاكين بأن أكثرهم كاذبون بعد ما وصفوا جميعا بالافك وأجيب بأن المراد بالافاك الذي يكثر الكذب لا الذي لا ينطق الا بالكذب فالمراد بقوله وأكثرهم كاذبون انه قل من يصدق منهم فيما يحكي عن الشياطين والغرض الذي سيق لاجله هذا الكلام رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جملة من يلقي اليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان ان الاغلب على الكهنة الكذب ولم يظهر من أحوال محمد صلى الله عليه وآله وسلم الا الصدق فكيف يكون كما زعموا ثم ان هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين وهذا النبي المرسل من عند الله برسالته الى الناس يذمهم ويلعنهم ويأمر بالتعوذ منهم ثم لما كان قد قال قائل من المشركين ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم شاعر

الا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك وكذلك الزانية لا ينكحها الا زان أي عاص بزناه أو مشرك لا يعتقد تحريمه قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة قال ليس هذا بالنكاح انما هو الجماع لا يزني بها الا زان أو مشرك وهذا اسناده عنه صحيح وقد روي عنه من غير وجه أيضا وقد روي عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير والضحاك ومكحول ومقاتل بن حيان وغير واحد نحو ذلك وقوله تعالى وحرم ذلك على المؤمنين أي تعاطيه والتزويج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار وقال أبو داود الطيالسي حدثنا قيس عن أبي حصين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وحرم ذلك على المؤمنين قال حرم الله الزنا على المؤمنين وقال قتادة ومقاتل بن حيان حرم الله على المؤمنين نكاح البغايا وتقدم في ذلك فصل وحرم ذلك على المؤمنين وهذه الآية كقوله تعالى محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وقوله محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان الآية ومن ههنا ذهب الامام أحمد بن حنبل رحمه الله الى انه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي ما دامت كذلك حتى تستتاب فان تابت صح العقد عليها والا فلا وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة لقوله تعالى وحرم ذلك على المؤمنين وقال الامام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر بن سليمان قال قال أبي حدثنا الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ان رجلا من المسلمين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح وتشترط له ان تنفق عليه قال فاستأذن والمسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ذكر له أمرها قال فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين وقال النسائي أخبرنا عمرو بن علي حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحضرمي عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمرو قال كانت امرأة يقال لها أم مهزول وكانت تسافح فأراد رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأنزل الله عز وجل الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها

بين سبحانه حال الشعراء ومنافاة ما هم عليه لما عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (والشعراء يتبعهم) مشددا ومخففا أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم (الغاوون) أي الضالون عن الحق والشعراء جمع شاعر والغاوون جمع غاو وهم ضلال الجن والانس قاله ابن عباس وقيل الزائلون عن الحق وقيل المشركون وقيل الشياطين وقيل الذين يروون الشعر المشتمل على الهجاء وما لا يجوز وقيل المراد شعراء الكفار خاصة منهم عبد الله بن الزبعرى السهمي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع بن عبد مناف وأبو عزة الجمحي وأمية بن أبي الصلت الثقفي تكلموا بالكذب والباطل وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد وقالوا الشعر واجتمع اليهم غواة قومهم يسمعون أشعارهم حين يهجون النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ويروون عنهم قولهم فذلك قوله تعالى هذا قال الزجاج اذا مدح وهجا شاعر بما لا يكون وأحب ذلك قوم وتابعوه فهم الغاوون والمعنى لا يتبعهم على كذبهم وباطلهم وتمزيق الاعراض والقدح في الانساب والطعن في الاحساب ومدح من لا يستحق المدح وذم من لا يستحق الذم ولا يستحسن ذلك منهم الا الغاوون عن ابن عباس قال تهاجى رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحدهما من الانصار والآخر من قوم آخرين وكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فأنزل الله هذه الآية ثم بين سبحانه قبائح شعراء الباطل فقال (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون) تقرير لما قبله والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية يقال هام يهيم هيما وهيمانا اذا ذهب على وجهه والهائم أن يذهب على وجهه من عشق وغيره وهو تمثيل كما في الكشاف والمعنى ألم تر أنهم في كل فن من فنون الكذب يخوضون وفي كل شعب من شعاب الزور يتكلمون فتارة يمزقون الاعراض بالهجاء وتارة يأتون من المجون بكل ما يمجه السمع ويستقبحه العقل وتارة يخوضون في بحر السفاهة والوقاحة ويذمون الحق ويمدحون الباطل ويرغبون في فعل المحرمات ويدعون الناس الى فعل المنكرات كما تسمعه في أشعارهم من مدح الخمر والزنا واللواط ونحو هذه الرذائل الملعونة كيف وأكثر مقدماتهم خيالات لا حقيقة لها وأغلب كلماتهم في التشبيب بالحرام والغزل والابتهار والقدح في الانساب والطعن في الاحساب والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لا يستحقه والاطراء فيه قاله البيضاوي وغيره وهذا من باب الاستعارة المليحة

الازان أومشرك وحرم ذلك على المؤمنين قال الترمذي حدثنا عبد الله بن حميد حدثنا روح بن عبادة عن عبيد الله بن الاخنس أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال كان رجل يقال له مرثد بن أبي مرثد وكان رجلا يحمل الاسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة قال وكانت امرأة بغي بمكة يقال لها عناق وكانت صديقة له وانه واعد رجلا من أسارى مكة يحمله قال فجئت حتى انتهيت الى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة قال فجاءت عناق فأبصرت سواد ظل تحت الحائط فلما انتهت الى عرفتني فقالت مرثد فقلت مرثد فقالت مرحبا وأهلا هلم فبت عندنا الليلة قال فقلت يا عناق حرم الله الزنا فقالت يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم قال فتبعني ثمانية فسلكت الخندق فانتهيت الى غار أو كهف فدخلت فيه فجاؤا حتى قاموا على رأسي فبالوا فظل بولهم على رأسي فأعماهم الله عني قال ثم رجعوا فرجعت الى صاحبي فحملته وكان رجلا ثقيلا حتى انتهيت الى الاذخر ففككت عنه أحبله فجعلت أحمله ويعينني حتى أتيت به المدينة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسول الله أنكح عناقا أنكح عناقا مرتين فامسك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يرد علي شيأ حتى نزلت الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامرثد الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة فلا تنكحها ثم قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه وقد رواه أبو داود والنسائي في كتاب النكاح من سننهما من حديث عبيد الله بن الاخنس به وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسدد أبو الحسن حدثنا عبد الوارث عن حبيب المعلم حدثني عمرو بن شعيب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينكح الزاني المجلود الا مثله وهكذا أخرجه أبو داود في سننه عن مسدد وأبي معمر عن عبد الله بن عمرو كلاهما عن عبد الوارث به وقال الامام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا عاصم بن محمد عن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أخيه عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار مولى ابن عمر قال أشهد لسمعت سالما يقول قال عبد الله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يدخلون الجنة ولا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال والديوث وثلاثة لا ينظر الله اليهم يوم القيامة العاق

والتمثيل الرائع شبه جولانهم في أفانين القول بطريق المدح والذم والتشبيب وأنواع الشعر بهيام الهائم في كل وجه وطريق والهائم هو الذي يخبط في طريقه ولا يقصد موضعا معينا والهائم العاشق والهيمان العطشان والهيام داء يأخذ الابل من العطش وجمل أهيم وناقة هيماء والجمع فيهما هيم قال تعالى فشاربون شرب الهيم قال ابن عباس في الآية في كل لغو يخوضون وقيل يمدحون بالباطل ويهجون بالباطل وقيل انهم يمدحون الشئ ثم يذمونه لا يطلبون الحق والصدق فالوادي مثل لفنون الكلام وطرقه والغوص في المعاني والقوافي ثم قال سبحانه (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) أي يقولون فعلنا وفعلنا وهم كذبة في ذلك ألجأهم اليه الفن الذي سلكوه فقد يحثون بكلامهم على الكرم والخير ولا يفعلونه وقد ينسبون الى أنفسهم من أفعال الشر ما لا يقدرون على فعله كما تجده في كثير من أشعارهم من الدعاوى الكاذبة والزور الخالص المتضمن لقذف المحصنات وأنهم فعلوا بمن كذا وكذا وذلك كذب محض وافتراء بحت ثم استثنى سبحانه الشعراء المؤمنين الصالحين الذين أغلب أحوالهم تحري الحق والصدق وكانوا يجيبون شعراء الكفار ويهجونهم وينافحون عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه فقال (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أي دخلوا في حزب المؤمنين وعملوا بأعمالهم الصالحات (وذكروا الله كثيرا) في أشعارهم ولم يشغلهم الشعر عن ذكر الله كابن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير رضي الله تعالى عنهم عن عروة قال لما نزلت والشعراء الى قوله ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة يارسول الله قد علم الله أني منهم فأنزل الله الا الذين آمنوا الى قوله ينقلبون وروى نحو هذا من طرق (وانتصروا من بعد ما ظلموا) كمن يهجو منهم من هجاه أو ينتصر لعالم أو فاضل كما كان يقع من شعراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانهم كانوا يهجون من يهجوه ويحمون عنه ويذبون عن عرضه ويكافحون شعراء المشركين وينافحونهم ويدخل في هذا من انتصر بشعره لاهل السنة وكافح أهل البدعة وزيف ما يقول شعراؤهم من مدح بدعتهم وهجو السنة المطهرة كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة ونحوهم فان الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة وفاعله من المجاهدين في سبيل الله المنتصرين لدين الله القائمين بما أمر الله بالقيام به واعلم ان الشعر في نفسه ينقسم الى أقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه

لوالده ومدمن الخمر والمنان بما أعطى ورواه النسائي عن عمرو بن علي الفلاس عن يزيد بن زريع عن عمر بن محمد العمري عن عبد الله ابن يسار به وقال الامام أحمد أيضا حدثنا يعقوب حدثنا أبي حدثنا الوليد بن كثير عن قطن بن وهب عن عويمر بن الأجدع عمن حدثه عن سالم بن عبد الله بن عمر قال حدثني عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ثلاثة حرم الله عليهم الجنة مدمن الخمر والعاق لوالديه والذي يقر في أهله الخبث وقال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثني شعبة حدثني رجل من آل سهل بن حنيف عن محمد بن عمار عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل الجنة ديوث يستشهد به لما قبله من الاحاديث وقال ابن ماجه حدثنا هشام بن عمار حدثنا سلام ابن سوار حدثنا كثير بن سليم عن الضحاك بن مزاحم سمعت أنس ابن مالك يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أراد أن يلقى الله وهو طاهر متطهر فليتزوج الحرائر في اسناده ضعف وقال الامام أبو نصر اسمعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح في اللغة الديوث القنزع وهو الذي لا غيرة له فأما الحديث الذي رواه الامام أبو عبد الرحمن النسائي في كتاب النكاح من سننه أخبرنا محمد بن اسمعيل بن علية عن يزيد ابن هرون عن حماد بن سلمة وغير عن هرون بن زياد عن عبد الله بن عبيد ابن عمير وعبد الكريم عن عبد الله ابن عبيد بن عمير عن ابن عباس عبد الكريم رفعه الى ابن عباس وهرون لم يرفعه قالا جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ان عندي امرأة من أحب الناس الي وهي لا تمنع يد لامس قال طلقها قال لا صبر لي عنها قال استمتع بها ثم قال النسائي هذا الحديث غير ثابت وعبد الكريم ليس بالقوي وهرون أثبت منه وقد أرسل الحديث وهو ثقة وحديثه أولى بالصواب من حديث عبد الكريم قلت وهو ابن أبي المخارق البصري المؤدب تابعي ضعيف الحديث وقد خالفه هرون بن زياد وهو تابعي ثقة من رجال مسلم فحديثه المرسل أولى كما قال النسائي لكن قد رواه النسائي في كتاب الطلاق عن اسحق بن راهويه عن النضر بن شميل عن حماد بن سلمة عن هرون بن زياد عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عباس مسندا فذكره بهذا الاسناد فرجاله على شرط مسلم الا أن النسائي بعد روايته له قال هذا خطأ والصواب مرسل ورواه غير النضر على الصواب وقد رواه النسائي أيضا وأبو داود عن الحسين

منه الى قسم الحرام وقد يبلغ ما فيه خير منه الى قسم الراجح وقد وردت أحاديث في ذمه وذم الاستكثار منه ووردت أحاديث أخر في اباحته وتجويزه والكلام في تحقيق ذلك يطول وأخرج أحمد والبخاري في تاريخه وأبو يعلى وابن مردويه عن كعب بن مالك انه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه فقال ان المؤمن يجاهد بنفسه بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا وأخرج الديلمي مرفوعا عن ابن مسعود الشعراء الذين يموتون في الاسلام يأمرهم الله أن يقولوا شعرا يتغنى به الحور العين لأزواجهن في الجنة والذين ماتوا في الشرك يدعون بالويل والثبور في النار وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر لحكمة قال وأتاه قريظة بن كعب وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت فقالوا انا نقول الشعر وقد نزلت هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقرؤوا فقرؤوا والشعراء الى قوله الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقال أنتم هم وذكروا الله كثيرا فقال أنتم هم وانتصروا من بعد ما ظلموا فقال أنتم هم وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة عن البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحسان بن ثابت اهج المشركين فان جبريل معك وأخرج أحمد وابن سعد عن أبي هريرة قال مر عمر بحسان وهو ينشد في المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك فسكت ثم التفت حسان الى أبي هريرة فقال أنشدك بالله هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول أجب عني اللهم أيده بروح القدس قال نعم وأخرج ابن أبي شيبة عن بريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر حكما وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان من الشعر حكما ومن البيان سحرا وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري مرفوعا لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا قال في الصحاح وري القيح جوفه

ابن حريث أخبرنا الفضل بن موسى أخبرنا الحسين بن واقد عن عمارة بن أبي حفصة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره وهذا الاسناد جيد وقد اختلف الناس في هذا الحديث ما بين مضعف له كما تقدم عن النسائي ومنكر كما قال الامام أحمد هو حديث منكر وقال ابن قتيبة انما أراد انها سخية لا تمنع سائلا وحكاه النسائي في سننه عن بعضهم فقال وقيل سخية تعطي ورد هذا بانه لو كان المراد لقال لا ترد يد ملتمس وقيل المراد ان سجيتها لا ترد يد لامس لا ان المراد ان هذا واقع منها وانها تفعل الفاحشة فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأذن في مصاحبة من هذه صفتها فان زوجها والحالة هذه يكون ديوثا وقد تقدم الوعيد على ذلك ولكن لما كانت سجيتها هكذا ليس فيها ممانعة ولا مخالفة لمن أرادها لو خلا بها أحد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراقها فلما ذكر انه يحبها أباح البقاء معها لان محبته لها محققة ووقوع الفاحشة منها متوهم فلا يصار الى الضرر العاجل لتوهم الآجل والله سبحانه وتعالى أعلم قالوا فأما اذا حصلت توبة فانه يحل التزويج كما قال الامام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن ابن أبي ذئب قال سمعت شعبة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت ابن عباس وسأله رجل فقال اني كنت ألم بامرأة آتي منها ما حرم الله عز وجل علي فرزق الله عز وجل من ذلك توبة فأردت ان أتزوجها فقال أناس ان الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة فقال ابن عباس ليس هذا في هذا انكحها فما كان من اثم فعلي وقد ادعى طائفة آخرون من العلماء ان هذه الآية منسوخة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن يحيى بن سعيد بن المسيب قال ذكر عنده الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك قال كان يقال نسختها التي بعدها وأنكحوا الايامى منكم قال كان يقال الايامى من المسلمين وهكذا رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ له عن سعيد بن المسيب ونص على ذلك أيضا الامام أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة فاذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه

يريه وريا اذا أكله وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسن الشعر كحسن الكلام وقبيح الشعر كقبيح الكلام قال القرطبي رواه اسمعيل عن عبد الله بن عوف الشامي وحديثه عن أهل الشام صحيح فيما قال يحيى بن معين وغيره وأخرج مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال ردفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت قلت نعم قال هيه فانشدته بيتا فقال هيه ثم أنشدته بيتا فقال هيه حتى أنشدته مائة بيت وقال الشعبي كان أبو بكر يقول الشعر وكان عمر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان علي أشعر من الثلاثة وعن ابن عباس انه كان ينشد الشعر ويستنشده في المسجد وروي انه دعا عمرو بن أبي ربيعة المخزومي فاستنشده قصيدة فانشده اياها وهي قريب من تسعين بيتا ثم ان ابن عباس أعاد القصيدة جميعها وكان حفظها من مرة واحدة وروى البخاري عن أبي بن كعب ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان من الشعر حكمة وقالت عائشة الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح فخذ الحسن ودع القبيح ولآزاد البلجرامي رحمه الله في بيان حكم الشعر كلام لطيف في كتابه تسلية الفؤاد ان شئت فارجع اليه ثم ختم سبحانه هذه السورة بآية جامعة للوعيد كله فقال (وسيعلم) وفيه تهديد شديد ووعيد عظيم وكذا في اطلاق (الذين ظلموا) وابهام (أي منقلب ينقلبون) بعد الموت وخص بعضهم هذه الآية بالشعراء ولا وجه لذلك فان الاعتبار بعموم اللفظ وقد تلاها أبو بكر لعمر حين عهد اليه وكان السلف يتواعظون بها قال ابن عطاء سيعلم المعرض عنا ما الذي فاته منا والمعنى ينقلبون منقلبا أي منقلب والمراد جهنم وقدم أي لتضمنه معنى الاستفهام قال أبو البقاء ولا يعمل فيه سيعلم لان الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله بل هو معلق عن العمل فيه وهذا الذي قاله مردود بأن أيا الواقعة صفة لا تكون استفهامية وكذلك الاستفهامية لا تكون صفة بل هما قسمان كل منهما قسم برأسه وأي تنقسم الى أقسام كثيرة قال النحاس وحقيقة القول في ذلك الاستفهام معنى وما قبله معنى آخر فلو عمل فيه ما قبله لدخل بعض المعاني في بعض والله أعلم وقال القرطبي معناه أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون لان مصيرهم الى النار وهو أقبح مصير ومرجعهم الى العذاب وهو أشر مرجع والفرق بين المنقلب والمرجع ان المنقلب الانتقال الى ضد ما هو فيه والمرجع العود من حال هو فيها الى حال

أيضا وليس فيه نزاع بين العلماء فان أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درئ عنه الحد ولهذا قال تعالى ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون فأوجب على القاذف اذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام أحدها ان يجلد ثمانين جلدة الثاني انه ترد شهادته أبدا الثالث ان يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس ثم قال تعالى الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية واختلف العلماء في هذا الاستثناء هل يعود الى الجملة الاخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ويبقى مردود الشهادة دائما (٤٨) وان تاب أو يعود الى الجملتين الثانية والثالثة وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصر ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف فذهب الامام مالك وأحمد والشافعي الى انه اذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضا وقال الامام أبو حنيفة انما يعود الاستثناء الى الجملة الاخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ويبقى مردود الشهادة أبدا وممن ذهب اليه من السلف القاضي شريح وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومكحول وعبد الرحمن بن زيد ابن جابر وقال الشعبي والضحاك لا تقبل شهادته وان تاب الا أن يعترف على نفسه انه قد قال البهتان فحينئذ تقبل شهادته والله أعلم (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) هذه الآية الكريمة فيها فرج للازواج وزيادة مخرج اذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه اقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل وهو أن يحضرها الى الامام فيدعي عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء انه لمن الصادقين أي فيما رماها به من الزنا والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين فاذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء وحرمت عليه أبدا ويعطيها مهرها ويتوجه عليها حد الزنا ولا يدرأ عنها العذاب الا ان تلاعن فتشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين أي فيما رماها به والخامسة ان غضب

كان فيه اختصار كل مرجع منقلبا وليس كل منقلب مرجعا ذكره الماوردي والمعنى عند الحسن وابن عباس ان الظالمين يطمعون في الانفلات من عذاب الله والانفكاك منه ولا يقدرون على ذلك وعن فضالة بن عبيد في الآية قال هؤلاء الذين يخربون البيت

(سورة النمل هي ثلاث أو أربع أو خمس وتسعون آية)

قال القرطبي وهي مكية كلها في قول الجميع وبه قال ابن عباس وعن ابن الزبير مثله

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس) قد مر الكلام مفصلا في فواتح السور وهذه الحروف ان كانت اسما للسورة فمحلها الرفع على الابتداء وما بعدها خبرها ويجوز أن تكون خبر مبتدأ محذوف أي اسم هذه السورة طس وان كانت مسرودة على نمط التعديد فلا محل لها والله أعلم بمراده بذلك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها قد ذكرت اجمالا بذكر اسمها (آيات القرآن وكتاب مبين) عطف بزيادة صفة على مفهوم المعطوف عليه وكان مغايرا له بهذا الاعتبار والمراد بالكتاب القرآن نفسه أو اللوح المحفوظ أو نفس السورة وقد وصف الآيات بالوصفين القرآنية الدالة على كونها مقروءة مع الاشارة الى كونها قرآنا عربيا معجزا والكتابية الدالة على كونها مكتوبة مع الاشارة الى كونها متصفة بصفة الكتب المنزلة ثم ضم الى الوصفين وصفا ثالثا وهي الابانة لمعانيه لمن يقرأه وهو من أبان بمعنى بان معناه اتضح اعجازه بما اشتمل عليه من البلاغة أو يظهر لمتأمل تصاعيفه من الحكم والاحكام وأحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام وقدم وصف القرآنية هنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابة وأخره في سورة الحجر فقال تلك آيات الكتاب وقرآن مبين نظرا الى حالته التي قد صار عليها فانه مكتوب والكتابة سبب القراءة والله أعلم وأما تعريف القرآن هنا وتنكير الكتاب وتعريف الكتاب في سورة الحجر وتنكير القرآن فله لصلاحية كل واحد منهما للتعريف والتنكير لان القرآن والكتاب اسمان علمان للمنزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصفان له لانه مقرأ ويكتب فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف (هدى وبشرى للمؤمنين) أي تلك آيات هادية ومبشرة أو هو هدى أو بهم هدى ويبشر بشرى أو هاد من الضلالة ثم وصف المؤمنين الذين لهم الهدى والبشرى فقال

(الذين

الله عليها ان كان من الصادقين ولهذا قال ويدرأ عنها العذاب يعني الحد ان تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين فخصها بالغضب كما ان الغالب ان الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا الا وهو صادق معذور وهي تعلم صدقه فيما رماها به ولهذا كانت الخامسة في حقها ان غضب الله عليها والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته أي لحرجتم ولشق عليكم كثير من اموركم (٤٩) وان الله تواب على عباده وان كان ذلك بعد الحلف والايمان المغلظة حكيم فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه وقد وردت الاحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية وذكر سبب نزولها وفيمن نزلت فيه من الصحابة قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا عباد ابن منصور عن عكرمة عن ابن عباس قال لما نزلت والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا قال سعد بن عبادة وهو سيد الانصار رضي الله عنه أهكذا أنزلت يا رسول الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الانصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يا رسول الله لا تلمه فانه رجل غيور والله ما تزوج امرأة قط فاجترأ رجل منا ان يتزوجها من شدة غيرته فقال سعد والله يا رسول الله اني لأعلم انها الحق وانها من الله ولكني قد تعجبت اني لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لي ان أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله اني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته قال فما لبثوا الا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم فجاء من أرضه عشاء فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينيه وسمع بأذنيه فلم يهجه حتى أصبح فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني جئت أهلي عشاء فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت باذني فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به واشتد عليه واجتمعت عليه الانصار وقالوا قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم هلال بن أمية ويبطل شهادته في الناس فقال هلال والله اني لارجو ان يجعل الله لي منها مخرجا وقال هلال يا رسول الله فاني قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به والله يعلم اني لصادق فوالله ان رسول الله

(الذين يقيمون الصلاة) أي الخمس ويديمون على شرائطها من الفروض والسنن ويأتون بها على وجهها (ويؤتون الزكاة) أي يؤدون ويعطون زكاة أموالهم اذا وجبت عليهم طيبة بها أنفسهم ولما كانت اقامة الصلاة وايتاء الزكاة مما يتكرر ويتجدد في أوقاتهما أتى بهما فعلين ولما كان الايقان بالآخرة أمرا ثابتا مطلوبا دوامه أتى به جملة اسمية فقال (وهم بالآخرة هم يوقنون) يعلمونها بالاستدلال وجعل الخبر مضارعا للدلالة على أن ايقانهم يستمر على سبيل التجدد في كل وقت وعدم الانقطاع وكرر الضمير للدلالة على الحصر ولما فصل بينه وبين الخبر أي لا يوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق وانهم الاوحدون فيه ثم لما ذكر سبحانه أهل السعادة ذكر بعدهم أهل الشقاوة فقال (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي لا يصدقون بالبعث وهم الكفار (زينا لهم أعمالهم) قيل المراد ان الله زين لهم أعمالهم السيئة القبيحة بتركيب الشهوة فيهم حتى رأوها حسنة وقيل المراد ان الله زين لهم الاعمال الحسنة وذكر لهم ما فيها من خيري الدنيا والآخرة فلم يقبلوا ذلك قال الزجاج معنى الآية انا جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه بان جعلناه مشتهى بالطبع محبوبا للنفس (فهم يعمهون) أي يترددون فيها متحيرين على الاستمرار لا يهتدون الى طريقه ولا يقفون على حقيقته لعدم ادراكهم قبحها في الواقع وقيل المعنى يتمادون قاله أبو العالية وقال قتادة يلعبون وعن الحسن يتحيرون وقيل يداومون ويتمكنون فيها او يستمرون والمعاني متقاربة (أولئك الذين لهم سوء العذاب) أي أشده قيل في الدنيا كالقتل والاسر ووجه تخصيصه بعذاب الدنيا قوله بعده (وهم في الآخرة هم الاخسرون) أي هم أشد الناس خسرانا وأعظمهم خيبة فالمفضل عليه هو أنفسهم من حيث اعتبار اختلاف الزمان والمكان ثم مهد سبحانه مقدمة نافعة لما سيذكره بعد ذلك من الاخبار العجيبة فقال مخاطبا النبي صلى الله عليه وآله وسلم (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) أي يلقى عليك بشدة فتلقاه وتأخذه من لدن كثير الحكمة والعلم ووجه الجمع بينهما مع أن العلم داخل في الحكمة ان العلم الذي يدخل فيها هو العلم العملي وهو الذي يتعلق بكيفية عمل والعلم أعم منه فكأنه قيل مصيب في أفعاله لا يفعل شيأ الا على وفق علمه عليم بكل شيء سواء كان ذلك العلم مؤديا الى العمل أم لا قيل ان

صلى الله عليه وسلم يريدان يأمر بصربه اذا أرل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم الوحى وكان اذا أرل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد
وجهه يعنى فامسكوا عنه حتى فرغ من الوحى فرلت والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع
شهادات بالله الآية فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا فقال هلال قد كنت
أرجو ذلك من ربى عز وجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلوا اليها فارسلوا اليها فجاءت فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم
عليهما فذكرهما وأخبرهما ان عذاب الآخرة (٥٠) أشد من عذاب الدنيا فقال هلال والله يا رسول لقد صدقت عليها فقالت
كذب فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لاعنوا بينهما فقيل لهلال
اشهد فشهد أربع شهادات بالله
انه لمن الصادقين فلما كانت
الخامسة قيل له يا هلال اتق الله
فان عذاب الدنيا أهون من عذاب
الآخرة وان هذه الموجبة التى
توجب عليك العذاب فقال والله
لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى
عليها فشهد فى الخامسة ان لعنة الله
عليه ان كان من الكاذبين ثم قيل
للمرأة اشهدى أربع شهادات بالله
انه لمن الكاذبين فقال لها عند
الخامسة وأوقفها اتقى الله فان
عذاب الدنيا أهون من عذاب
الآخرة وان هذه الموجبة التى
توجب عليك العذاب فتلكأت
ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت
والله لا أفضح قومى فشهدت فى
الخامسة ان غضب الله عليها ان كان
من الصادقين ففرق رسول الله صلى
الله عليه وسلم بينهما وقضى ان
لا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها
ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد
وقضى ان لا قوت لها من أجل انهما
يفترقان من غير طلاق ولا متوفى
عنها وقال ان جاءت به أصيهب أريشح حمش الساقين فهو لهلال وان جاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين العطمة
سابغ الاليتين فهو للذى رميت به فجاءت به أورق جعدا جماليا خدلج الساقين سابغ الاليتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا
الأيمان لكان لى ولها شأن قال عكرمة فكان بعد ذلك أميرا على مصر وكان يدعى لامه ولا يدعى للأب رواه أبو داود وعن أنس عن
الحسن بن على عن يزيد بن هرون به نحوه مختصرا ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة فمنها ما قال البخارى
حدثنى محمد بن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن هشام بن حسان حدثنى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند

الذين هم اعمى عند وفيه العمات كما تقدم فى سورة الكهف وهذه الآية بساط وتمهيد لما
يريد ان يسوق بعدها من الاقاصيص وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه وقد
اشتملت هذه السورة على قصص خمسة الاولى هذه وتليها قصة النملة وتليها قصة بلقيس
وتليها قصة صالح وتليها قصة لوط (اذ قال موسى لاهله) قال الزجاج أى اذكر قصته اذ قال
لاهله والمراد باهله امرأته فى مسيره من مدين الى مصر وكان فى ليلة مظلمة باردة مثلجة وقد
ضل الطريق وأخذ زوجته الطلق والحامل له على هذا السفر ان يجتمع بامه وأخيه بمصر
ولم يكن معه اذ ذاك الا زوجته بنت شعيب فكنى عنها بلفظ الاهل الدال على الكثرة
للتعظيم وقيل كان معه ولده وخادمه أيضا وسلفه قوله امكثوا (انى آنست نارا) أى
أبصرتها من بعيد (سآتيكم منها بخبر) عن حال الطريق وكان قد ضلها والسين تدل على
بعد مسافة النار وتأكيد الوعد والجمع ان صح انه لم يكن معه عليه السلام الا امرأته
لما كنى عنها بالاهل أو للتعظيم مبالغة فى التسلية (أو آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على
ان الثانى بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أى بشعلة نار مقبوسة أى مأخوذة
من أصلها وقرئ بالاضافة على أنها للبيان فالمراد تعيين المقصود الذى هو القبس الجامع
لمنفعتى الضياء والاصطلاء لان من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه
الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما فى سورة طه من صيغة الترجى والترديد
للايذان بانه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه
تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين قاله أبو السعود والمعنى على القراءتين آتيكم بشعلة
نار مأخوذة من أصلها فى رأس فتيلة أو عود قال الزجاج من نون جعل قبس من صفة
شهاب وقال الفراء هذه الاضافة كمسجد الجامع وصلاة الاولى أضاف الشئ الى نفسه
لاختلاف أسمائه وقال النحاس هى اضافة النوع الى الجنس كما تقول ثوب خز وخاتم حديد
وهى بمعنى من أى شهاب من قبس قال ويجوز فى غير القرآن بشهاب قبسا على انه مصدر
أو بيان أو حال قال الزجاج كل أبيض ذى نور فهو شهاب وقال أبو عبيدة الشهاب
النار وقال ثعلب أصل الشهاب عود فى أحد طرفيه جمرة والآخر لا نار فيه والشهاب
الشعاع المضئ وقيل للكوكب شهاب (لعلكم تصطلون) أى رجاء ان تستدفئوا بها من
البرد أو لكى تستدفئوا بها يقال صلى بالنار واصطلى بها اذا استدفأ بها والصلاء النار

النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم البينة أو حد في ظهرك فقال يارسول الله اذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول البينة أو حد في ظهرك فقال هلال والذي بعثك بالحق انى لصادق ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل وانزل عليه والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى بلغ ان كان من الصادقين فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فارسل اليهما فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب ثم قامت فشهدت فلما كان في الخامسة وقفوها وقالوا انها موجبة قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا انها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم أبصروها فان جاءت به أكحل العينين سابغ الاليتين خدلج الساقين فهو لشريك ابن سحماء فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم لولا ما مضى من كتاب الله لكان لى ولها شأن انفرد به البخاري من هذا الوجه وقد رواه من غير وجه عن ابن عباس وغيره وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الزيادى حدثنا يونس بن محمد حدثنا صالح وهو ابن عمر حدثنا عاصم يعنى ابن كليب عن أبيه حدثنى ابن عباس قال جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرمى امرأته برجل فكره ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يزل يردده حتى أنزل الله تعالى والذين يرمون أزواجهم فقرأ حتى فرغ من الآيتين فارسل اليهما فدعاهما فقال ان الله تعالى قد أنزل فيكما فدعا الرجل فقرأ عليه فشهد اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ثم امر به فامسك على فيه فوعظه فقال له كل شئ اهون عليك من لعنة الله ثم أرسله فقال لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم دعاها فقرأ عليها فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين ثم أمر بها فأمسك على فيها فوعظها وقال ويحك كل شئ أهون من غضب الله ثم أرسلها فقالت غضب الله عليها ان كان من الصادقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما والله لاقضين بينكما قضاء فصلا قال فولدت فما رأيت مولودا بالمدينة أكثر منه فقال ان جاءت به لكذا وكذا فهو كذا وان جاءت به لكذا وكذا فهو لكذا فجاءت به يشبه الذي قذفت به وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال سمعت سعيد بن جبير قال سئلت عن المتلاعنين أيفرق بينهما في امارة ابن الزبير فما دريت ما أقول

العظيمة واختلاف الالفاظ في هاتين السورتين والقصة واحدة دليل على جواز نقل الحديث بالمعنى وجواز النكاح بغير لفظ التزوج (فلما جاءها) أى النار التى أبصرها (نودى) من جانب الطور (أن بورك من في النار ومن حولها) أن هى المفسرة لما في النداء من معنى القول أى قيل له بورك أو هى المصدرية أى بان بورك أى بارك الله أى ناداه بانا قدسناك وطهرناك واخترناك للرسالة وقيل هى المخففة من المثقلة وتقديره بأنه بورك واسمها ضمير الشان وبورك خبرها وجاز ذلك من غير عوض وان منعه الزمخشرى أى لم يحتج هنا الى فاصل لان قوله بورك دعاء والدعاء يخالف غيره في أحكام كثيرة وقرئ ان بوركت النار وحكى الكسائى عن العرب باركك الله وبارك فيك وعليك ولك وكذلك حكى هذا الفراء قال ابن جرير قال بورك من في النار ولم يقل بورك على من في النار على لغة من يقول باركك الله أى بورك وقدس وطهر من في النار وهو موسى وليس هو فيها حقيقة بل في المكان القريب منها وهذا تحية من الله تعالى لموسى وتكرمة له كما حيى ابراهيم على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت قاله القرطبي وقال السدى كان في النار ملائكة والنار هنا هى مجرد النور ولكنه ظن موسى انها نار فلما وصل اليها وجدها نورا وعن الحسن وسعيد بن جبير ان المراد بمن في النار هو الله سبحانه أى نوره أو قدرته وسلطانه وقيل بورك ما في النار من أمر الله سبحانه الذى جعلها على تلك الصفة قال الواحدى ومذهب المفسرين أن المراد بالنار هنا النور وعن ابن عباس قال يعنى تبارك وتعالى نفسه كان نور رب العالمين في الشجرة ومن حولها يعنى الملائكة وعنه قال كان الله في النور نودى من النور ومن حولها قال الملائكة وعنه قال ناداه الله وهو في النور وعنه قرئ بوركت النار وفي مصحف أبي بن كعب بوركت النار أما النار فيزعمون انها نور رب العالمين وعن ابن عباس بورك قال قدس وقيل المراد بمن غير العقلاء وهو النور والامكنة التى حولها وأخرج عبد بن حميد وابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقى عن أبي موسى الاشعرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان الله لا ينام ولا ينبغى له ان ينام يخفض القسط ويرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور لو رفع لاحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره ثم قرأ أبو عبيدة ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله

فقمت من مكاني الى منزل ابن عمر فقلت يا أبا عبد الرحمن المتلاعنان أيفرق بينهما فقال سبحان الله ان أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال يا رسول الله أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فان تكلم تكلم بأمر عظيم وان سكت سكت على مثل ذلك فسكت فلم يجبه فلما كان بعد ذلك أتاه فقال الذي سألتك عنه قد ابتليت به فأنزل الله تعالى هذه الآيات في سورة النور والذين يرمون أزواجهم حتى بلغ أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين فبدأ بالرجل فوعظه وذكره واخبره ان عذاب الدنيا اهون من عذاب الآخرة فقال والذي بعثك بالحق

ما كذبت ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكرها واخبرها ان عذاب الدنيا اهون من عذاب الآخرة فقالت المرأة والذي بعثك بالحق انه لكاذب قال فبدأ بالرجل فشهد اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ثم ثنى بالمرأة فشهدت اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ثم فرق بينهما رواه النسائي في التفسير من حديث عبد الملك بن ابي سليمان به واخرجاه في الصحيحين من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس وقال الامام احمد حدثنا يحيى بن حماد حدثنا ابو عوانة عن الاعمش عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال كنا جلوسا عشية الجمعة في المسجد فقال رجل من الانصار أحدنا اذا رأى مع امرأته رجلا ان قتله قتلتموه وان تكلم جلدتموه وان سكت سكت على غيظ والله لان أصبحت صحيحا لأسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فسأله فقال يا رسول الله ان احدنا اذا رأى مع امرأته رجلا ان قتله قتلتموه وان تكلم جلدتموه وان سكت سكت على غيظ اللهم احكم قال فنزلت آية اللعان فكان ذلك الرجل اول من ابتلي به انفرد باخراجه مسلم فرواه الخطاب من طرق عن سليمان بن مهران الاعمش به وقال الامام احمد ايضا حدثنا أبو كامل حدثنا ابراهيم بن سعد حدثنا ابن شهاب عن سهل بن سعد قال جاء عويمر الى عاصم بن عدي فقال له سل رسول الله صلى الله عليه وسلم ارأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله أيقتل به ام كيف يصنع فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل قال فلقيه عويمر فقال ما صنعت قال ما صنعت انك لم تأتني بخير سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب المسائل فقال عويمر والله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأسألنه فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما قال فدعا بهما ولاعن بينهما قال عويمر ان انطلقت بها يا رسول الله لقد

رب العالمين والحديث أصله مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة وفي التوراة جاء الله من سيناء وأشرق من ساعين واستعلى من جبال فاران والمراد بعثة موسى من سيناء وبعثة عيسى من ساعين وبعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فاران وهو اسم مكة ثم نزه سبحانه نفسه من السوء فقال (وسبحان الله رب العالمين) فيه تعجيب لموسى من ذلك وهو من جملة ما نودي به وانما وقع التعرض للتنزيه في هذا المقام ادفع ما رب ان يتوهمه موسى بحسب الطبع البشري الجاري على العادة الخلقية ان الكلام الذي يسمعه في ذلك المكان بحرف وصوت حادث ككلام الخلق أو المتكلم به في مكان أو جهة قاله الحفناوي (ياموسى انه) أي الشأن (أنا الله العزيز) الغالب القاهر (الحكيم) في أمري وفعلي وقيل ان موسى قال يا رب من الذي ناداني فاجابه سبحانه بقوله انه أنا الله وهو تمهيد لما أراد ان يظهر على يده من المعجزات فأمره سبحانه بان يلقي عصاه ليعرف ما أجراه على يده من المعجزات الخارقة فيأنس بها فقال (وألق) عطف على بورك منتظم معه في سلك تفسير النداء أي نودي ان بورك وأن ألق (عصاك فلما رآها تهتز) جملة حالية من هاء رآها لان الرؤية بصرية وقوله (كأنها جان) يجوز ان تكون حالا ثانية وان تكون حالا من ضمير تهتز فتكون حالا متداخلة قاله السمين قال الزجاج صارت العصا تتحرك كما يتحرك الجان وهو الحية البيضاء وانما شبهها بالجان في خفة حركتها والا فهي كانت كبيرة جدا وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها او جمع الجان جنان وهي الحية الخفيفة الصغيرة الجسم وقال الكلبي لا صغيرة ولا كبيرة والفاء فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فابصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أي لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر يقال عقب فلان اذا رجع وكل راجع معقب وقيل لم يقف ولم يلتفت ولم يعطف ولم ينتظر والاول أولى لان التعقيب هو الكر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه ان ذلك لامر أريد به كما ينبئ عنه قوله (ياموسى لا تخف) من غيري أي من الحية وضررها ثقة بي أو لا تخف مطلقا (اني لا يخاف لدي المرسلون) أي لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي من حية وغيرها فلا تخف أنت عندي قيل ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الاوقات بل في وقت

كذبت عليها قال ففارقها قبل ان يأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم فصارت سنة المتلاعنين وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ابصروها فان جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه الا قد صدق وان جاءت به أحيمر كأنه وحرة فلا أراه الا كاذبا فجاءت به على النعت المكروه أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة الا الترمذي ورواه البخاري أيضا من طرق عن الزهري به فقال حدثنا سليمان بن داود أبو الربيع حدثنا فليح عن الزهري عن سهل بن سعد أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أرأيت رجلا رأى مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه أم كيف يفعل فأنزل الله تعالى فيهم ما ذكر في القرآن من التلاعن فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قضي فيك وفي امرأتك قال فتلاعنا وانا شاهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ففارقها فكانت سنة ان يفرق بين المتلاعنين وكانت حاملا فأنكر حملها وكان ابنها يدعى اليها ثم جرت السنة في الميراث ان يرثها وترث منه ما فرض الله لها وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا اسحق بن الضيف حدثنا النضر بن شميل حدثنا يونس بن أبي اسحق عن أبيه عن زيد بن يثيع عن حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي بكر لو رأيت مع ام رومان رجلا ما كنت فاعلا قال كنت والله فاعلا به شرا قال فانت يا عمر قال كنت والله فاعلا كنت أقول لعن الله الاعجز فانه خبيث قال فنزلت والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم ثم قال لا نعلم أحدا أسنده الا النضر بن شميل عن يونس بن اسحق ثم رواه من حديث الثوري عن أبي اسحق عن زيد بن يثيع مرسلا فالله أعلم وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن هشام عن ابن سيرين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لأول لعان كان في الاسلام ان شريك بن سحماء قذفه هلال بن أمية بامرأته فرفعته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة شهود والا فحد في ظهرك فقال يا رسول الله ان الله يعلم اني لصادق ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهري من الجلد فأنزل الله آية اللعان والذين يرمون أزواجهم الى آخر الآية قال فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال اشهد بالله انك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا فشهد بذلك أربع شهادات ثم قال له في الخامسة ولعنة الله عليك ان كنت من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا ففعل ثم دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قومي فاشهدي بالله انه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا فشهدت بذلك أربع شهادات ثم قال لها في الخامسة وغضب الله عليك

الخطاب لهم والايحاء والارسال لانهم اذ ذاك مستغرقون في مطالعة شؤون الله عز وجل لا يخطر ببالهم خوف من شئ وأما في غير هذه الحالة فالمرسلون أخوف الناس منه تعالى أو المعنى لا يكون لهم عندي سوء عاقبة ليخافوا منه ثم استثنى استثناء منقطعا فقال (الا من ظلم) أي لكن من أذنب في ظلم نفسه بالمعصية (ثم بدل حسنا) أي توبة وندما أتاه (بعد سوء) أي بعد عمل سوء (فاني غفور رحيم) أقبل التوبة واغفر له وقيل الاستثناء من مقدر أي لا يخاف لدي المرسلون وانما يخاف غيرهم من ظلم الا من ظلم الخ كذا قال الفراء وقال النحاس الاستثناء من محذوف محال لانه استثناء من شئ لم يذكر وعن الفراء أن الا بمعنى الواو وقيل ان الاستثناء متصل من المذكور لا من المحذوف والمعنى الا من ظلم من المرسلين باتيان الصغائر التي لا يسلم منها أحد واختار هذا النحاس وقال علم من عصاه منهم فاستثناه فقال الا من ظلم وان كنت قد غفرت له كآدم وداود واخوة يوسف وموسى لقتله القبطي ولا مانع من الخوف بعد المغفرة فان نبينا صلى الله عليه وآله وسلم الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقول وددت اني شجرة تعضد (وأدخل يدك في جيبك) المراد بالجيب هو المعروف أي طوق القميص سمي جيبا لانه يجاب أي يقطع ليدخل فيه الرأس وفي القصص اسلك يدك في جيبك وفي أدخل من المبالغة ما لم يكن في اسلك ولم يأمره بادخالها في كمه لانه كان عليه مدرعة صغيرة من صوف لا كم لها وقيل كان لها كم قصير عن ابن عباس قال كانت على موسى جبة من صوف لا تبلغ مرفقيه فقال له أدخل يدك في جيبك فادخلها (تخرج) خلاف لونها من الادمة (بيضاء من غير سوء) أي من غير برص أو نحوه من الآفات فهو احتراس وقيل في الكلام حذف تقديره أدخل يدك تدخل وأخرجها تخرج ولا حاجة الى هذا الحذف ولا ملجئ اليه قال المفسرون وكانت على موسى مدرعة من صوف لا كم لها ولا ازار فادخل يده في جيبه وأخرجها فاذا هي تبرق كالبرق لها شعاع يغشى البصر (في تسع آيات) قال أبو البقاء هو في محل نصب على الحال من فاعل تخرج وفيه بعد وقيل متعلق بمحذوف أي اذهب في تسع آيات وقيل متعلق بقوله ألق عصاك وأدخل يدك في جملة تسع آيات وقيل المعنى فيهما آيتان من تسع يعني العصا واليد فتكون الآيات احدى عشرة هاتان والفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس والجدب في بواديهم والنقصان في مزارعهم

إن كان من الصادقين فيما رماها به من الزنا قال فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة حتى ظنوا أنها ستعترف ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت على القول ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وقال انظروا فإن جاءت به جعدا أحمش الساقين فهو لشريك بن سحماء وإن جاءت به أبيض سبطا قضيء العينين فهو لهلال بن أمية فجاءت به جعدا أحمش الساقين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا ما نزل فيهما من كتاب الله لكان لي ولها شأن (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) (٥٤) هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم أي جماعة منكم يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم وبقي الأمر كذلك قريبا من شهر حتى نزل القرآن وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري قال أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله تعالى وكلهم قد حدثني طائفة من حديثها وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضا ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم معه قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيها سهمي وخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك بعد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته وقفل ودنونا من المدينة فآذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن

قال النحاس أحسن ما قيل فيه أن هذه الآية يعني اليد داخلة في تسع آيات وكذا قال المهدوي والقشيري قال الزجاج والقشيري تقول خرجت في عشرة نفر وأنت أحدهم أي خرجت عاشر عشرة ففي بمعنى من لقربها منها كما تقول خذ لي عشرا من الإبل فيها فحلان أي منها وقيل في بمعنى مع واليد والعصا خارجتان من التسع وكذا فعل ابن عطية (إلى فرعون وقومه) قال الفراء في الكلام إضمار أي إنك مبعوث أو مرسل إلى فرعون وقومه وكذا قال الزجاج (إنهم كانوا قوما فاسقين) تعليل لما قبله من المقدر أي خارجين عن الحدود في الكفر والعدوان (فلما جاءتهم آياتنا) التي كانت على يد موسى حال كونها (مبصرة) أي مضيئة واضحة اسم فاعل أطلق على المفعول نحو ماء دافق أي مدفوق إشعارا بأنها لفرط إنارتها ووضوحها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر كقوله وآتينا ثمود الناقة مبصرة وقرئ مبصرة بفتح الميم والصاد أي مكانا يكثر فيه التبصر كما قال الراجح ومحله والأول أولى ونسب الإبصار إليها مجاز لأن بها تبصر والمعنى أنها مفهومة في كلها أو حسية ألصق بعضها وهو اليد فلما جاءتهم آياتنا (قالوا هذا) الذي نشاهده من الخوارق التي أتى بها موسى (سحر مبين) واضح ظاهر سحريته (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) أي قد كذبوا بها ولم يقروا حال كون أنفسهم مستيقنة لها أنها من عند الله فالواو للحال يقال جحد حقه وبحقه بمعنى والاستيقان أبلغ من الإيقان (ظلما) أي للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون ولقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا (وعلوا) استكبارا عن الإيمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما إما على العلة أي الحامل لهم على ذلك الظلم والعلو أو على الحالية من فاعل جحدوا أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها ويجوز أن يكونا نعت مصدر محذوف أي جحدوا بها جحودا ظلما وعلوا قال أبو عبيدة والباء في وجحدوا بها زائدة وقال الزجاج التقدير وجحدوا بها ظلما وعلوا أي وتكبروا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) أي تفكر يا محمد في ذلك فإن فيه معتبرا للمعتبرين وقد كان عاقبة أمرهم الإغراق لهم في البحر على تلك الصفة الهائلة والإحراق ثمة وإعلامهم بذكرهما على أنه عرضة لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر ولما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع في قصة داود وابنه سليمان وهذه القصة

وماقبلها ومابعدها هي كالبيان والتقرير لقوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فقال (ولقد آتينا) أي أعطينا (داود وسليمان) ابنه (علما) التنوين اما للنوع أي طائفة من العلم أو للتعظيم أي علما كثيرا قيل المراد علم الدين والحكم وقيل علم القضاء والسياسة وقيل علم داود تسبيح الطير وعلم سليمان منطق الطير والدواب وكان لداود تسعة عشر ولدا سليمان واحد منهم وعاش داود مائة سنة وبينه وبين موسى خمسمائة سنة وتسع وستون سنة وعاش سليمان نيفا وخمسين سنة وبينه وبين محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة ذكره في التحبير (وقالا) أي كل منهما والواو للعطف على محذوف لان هذا المقام مقام الفاء فالتقدير ولقد آتيناهما علما فعملا به وقالا شكرا لله (الحمد لله) ويؤيده ان الشكر باللسان انما يحسن اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية (الذي فضلنا) بالعلم والنبوة وتسخير الطير والجن والانس والشياطين (على كثير) ممن لم يؤت علما أو مثل علمنا وهذه المقالة على سبيل التحدث والشكر (من عباده المؤمنين) ولم يفضلوا أنفسهم على الكل تواضعا منهم وظاهر النظم ان التسخير كان لكل من داود وسليمان ومثله في الخازن والخطيب وفي الآية دليل على شرف العلم وارتفاع محله وتقدم حملته وأهله وان نعمة العلم من أجل النعم التي ينعم الله بها على عباده وان من أوتيه فقد أوتي فضلا على كثير من العباد ومنح شرفا جليلا وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورثة الانبياء الا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة لانهم القوام بما بعثوا من أجله وفيه انه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله على ما أوتوه وان يعتقد العالم انه ان فضل على كثير فقد فضل عليه مثلهم وما أحسن قول عمر رضي الله عنه كل الناس أفقه من عمر وعن عمر بن عبد العزيز انه كتب ان الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها الا كان حمده افضل من نعمته لو كنت لا تعرف ذلك الا في كتاب الله المنزل فقد قال الله عز وجل ولقد آتينا داود وسليمان علما الى قوله عباده المؤمنين وأي نعمة أفضل مما أعطي داود وسليمان أقول ليس في الآية ما يدل على ما فهمه رحمه الله والذي تدل عليه انهما حمدا الله سبحانه على ما فضلهما به من النعم فمن أين تدل على أن حمده أفضل من نعمته (وورث سليمان داود) أي ورثه العلم والنبوة والملك دون باقي اولاده قال قتادة والكلبي كان لداود تسعة عشر ولدا فاذكر ورث سليمان من بينهم نبوة ولو كان المراد

فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه قالت وكان النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم انما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه وظننت ان القوم سيفقدونني فيرجعون الي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش فادلج فاصبح عند منزلي فرأى سواد انسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وقد كان قد رآني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها فانطلق يقودبي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك من هلك في شأني وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا شهرا والناس يفيضون في قول أهل الافك ولا أشعر بشئ من ذلك وهو يريبني في وجعي اني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذي أرى منه حين أشتكي انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي ام مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج الا ليلا الى ليل وذلك قبل ان نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الاول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف ان نتخذها في بيوتنا فانطلقت أنا وام مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد المطلب بن عبد مناف وامها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن اثاثة بن عباد بن عبد المطلب فاقبلت أنا وابنة أبي رهم ام مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا فعثرت ام مسطح في مرطها فقالت تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت تسبين رجلا شهد بدرا فقالت أي هنتاه ألم تسمعي ما قال قلت وماذا قال قالت فأخبرتني بقول أهل الافك فازددت مرضا الى مرضي فلما رجعت الى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم قال كيف تيكم فقلت له أتأذن لي أن آتي أبوي قالت وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما

وأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتيت أبوي فقلت لأمي يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به فقالت أي بنية هوني عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها قالت فقلت سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا قالت فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يسألهما ويستشيرهما في فراق أهله قالت فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال أسامة يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيرا وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر قالت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة فقالت له بريرة والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول قالت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما كان يدخل على أهلي إلا معي فقام سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه فقال أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك قالت فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من وقد رهطك ما أحببت أن يقتل فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست

وراثة المال لم يخص سليمان بالذكر لأن جميع أولاده في ذلك سواء وكذا قال جمهور المفسرين فهذه الوراثة هي وراثة مجازية كما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم العلماء ورثة الأنبياء قال قتادة في الآية ورث نبوته وملكه وعلمه وأعطي ما أعطي داود وزيد له تسخير الريح والجن والشياطين وكان أعظم ملكا منه وأقضى منه وكان داود أشد تعبدا من سليمان شاكرا لنعم الله تعالى (وقال) سليمان لبني إسرائيل تحدثا بما أنعم الله به عليه وشكرا للنعمة التي خصه بها (يا أيها الناس علمنا) الضمير فيه وفي أوتينا لكل من داود وسليمان قال القرطبي نعمة الله علينا زيادة على ما ورثنا من داود من العلم والنبوة والخلافة في الأرض أن فهمنا (منطق الطير) أي فهم ما يريده كل طائر إذا صوت والمعاني التي في نفوسها سمي صوت الطير منطقا لحصول الفهم منه كما يفهم من كلام الناس وقدم منطق الطير لأنها نعمة خاصة به لا يشاركه فيها غيره قال الفراء منطق الطير كلام الطير فجعل كمنطق الرجل ومعنى الآية فهمنا ما يقول الطير ومقتضى هذا أن كلا منهما كان يعلم أصوات الطير وما تريده قال الخطيب علمنا أي أنا وأبي بأيسر أمر وأسهله وفي البيضاوي النطق والمنطق في التعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفردا كان أو مركبا مفيدا كان أو غير مفيد وقد يطلق على كل ما يصوت به على التشبيه أو التبع كقولهم نطقت الحمامة ومنه الناطق والصامت للحيوان والجماد فإن الأصوات الحيوانية من حيث إنها تابعة للتخيلات نزلت منزلة العبارات سيما وفيها ما يتفاوت باختلاف الأغراض بحيث يفهمها ما هو من جنسه ولعل سليمان مهما سمع صوت حيوان علم بقوته القدسية الغرض الذي صوت لأجله والغرض الذي نواه به انتهى قال جماعة من المفسرين إنه علم منطق جميع الحيوانات وإنما ذكر الطير لأنه كان جندا من جنوده يسير معه لتظليله من الشمس فخص بالذكر لكثرة مداخلته وقال قتادة والشعبي إنما علم منطق الطير خاصة ولا يعترض ذلك بالنملة فإنها من جملة الطير وكثيرا ما تخرج لها أجنحة فتطير وكذلك كانت هذه النملة التي سمع سليمان كلامها وفهمه أخرج أحمد في الزهد وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان بن داود يستسقي بالناس فمر على نملة مستلقية على قفاها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول اللهم إنا خلق من خلقك ليس بنا غنى عن رزقك فإما أن تسقينا وإما أن تهلكنا فقال سليمان للناس ارجعوا

فقد سقيتم بدعوة غيركم وقد ذكر الخازن والنسفي في تفسيريهما منطق بعض الطيور وما تقوله القمري وغيرها وكذا القرطبي بلا اسناد صحيح متصل يعتمد عليه ويصار اليه فتركنا ذكره ههنا فانه لا يأتي بكثير فائدة للمنتفعين (وأوتينا من كل شيء) تدعو اليه الحاجة كالعلم والنبوة والحكمة والمال وتسخير الجن والانس والطير والرياح والوحش والدواب وكل ما بين السماء والارض وجاء سليمان بنون العظمة والمراد نفسه بيانا لحاله من كونه مطاعا لا يخالف لا تكبرا وتعظيما لنفسه عن جعفر بن محمد قال أعطى سليمان ملك مشارق الارض ومغاربها فملك سليمان سبعمائة سنة وستة أشهر ملك أهل الدنيا كلهم وأعطي كل شيء وفي زمانه صنعت الصنائع المعجبة حتى اذا أراد الله أن يقبضه أوحى اليه ان يستودع علم الله وحكمته أخاه وولد داود كانوا أربعمائة وثمانين رجلا أنبياء بلا رسالة قال الذهبي هذا باطل وقد رويت قصص في عظم ملك سليمان عن القرطبي وغيره لا تطيب النفس بذكر شيء منها فالامساك عن ذكرها أولى (ان هذا) أي ما تقدم ذكره من التعليم والايتاء (لهو الفضل المبين) أي الظاهر الواضح الذي لا يخفى على أحد أو المظهر لفضيلتنا وانما قال ذلك شكرا لا فخرا (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير) من الاماكن المختلفة في مسيره والحشر الجمع أي جمع له جنوده من هذه الاجناس وقد أطال المفسرون في ذكر مقدار جنده وبالغ كثير منهم مبالغة تستبعدها العقول ولا تصح من جهة النقل ولو صحت لكان في القدرة الربانية ما هو أعظم من ذلك وأكثر (فهم يوزعون) أي لكل طائفة منهم وزعة ترد أولهم على آخرهم فيقفون على مراتبهم قيل كان في جنوده وزراء وهم النقباء ترد أول العسكر على آخره لئلا يتقدموا في السير يقال وزعه يزعه وزعا كفه فاتزع أي انكف وأوزعه بالشيء أغراه به واستوزعت الله شكره فأوزعني أي استلهمته فألهمني والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم أي يرده وجمعه وزعة وقيل هو من التوزيع بمعنى التفريق يقال القوم أوزاع أي طوائف وقال ابن عباس يوزعون يدفعون وعنه قال لكل صف وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا تتقدمها في السير كما يصنع الملوك وفي الآية دليل على اتخاذ الائمة والحكام وزعة يكفون الناس ويمنعونهم من تطاول بعضهم على بعض اذ لا يمكن الحكام ذلك بأنفسهم قال الحسن لا بد للناس من وازع أي سلطان يكفهم (حتى اذا أتوا) حتى هي

تبكي معي فبينا نحن على ذلك اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني شيء قالت فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ثم قال أما بعد يا عائشة فانه قد بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة فقلت لابي أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لامي أجيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن والله لقد علمت لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم اني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني ولئن اعترفت بأمر والله يعلم اني منه بريئة لتصدقني فوالله ما أجد لي ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي قالت وأنا والله أعلم حينئذ اني بريئة وان الله تعالى مبرئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى انه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه قالت فسري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال ابشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك قالت فقالت لي أمي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد الا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي وأنزل الله عز وجل ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة

التي يبتدأ بعدها الكلام ويكون غاية لما قبلها والمعنى فهم يوزعون الى حضور هذه الغاية وهي اتيانهم (على واد النمل) أي فهم يسيرون ممنوعا بعضهم من مفارقة بعض حتى اذا أتوا على مكان فيه نمل كثير وعدى بعلى لانهم كانوا محمولين على الريح فهم مستعلون والمعنى انهم قطعوا الوادي وبلغوا آخره قال كعب وادي النمل بالطائف وقال قتادة ومقاتل هو بالشام والنمل حيوان معروف شديد الاحساس والشم حتى انه يشم الشئ من بعيد ويدخر قوته ومن شدة ادراكه انه يفلق الحبة فلقتين خوفا من الانبات ويفلق حبة الكسبرة أربع فلق لانها اذا فلقت فلقتين تنبت ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي باقيه عدة ووقف القراء جميعهم على واد بدون ياء اتباعا للرسم حيث لم تحذف لالتقاء الساكنين كقوله الذين جابوا الصخر بالواد الا الكسائي فانه وقف بالياء قال لان الموجب للحذف انما هو التقاء الساكنين بالوصل (قالت نملة) ملكة النمل على وجه الصحة قولا مشتملا على حروف وأصوات وكانت عرجاء ذات جناحين وهي من الحيوانات التي تدخل الجنة قاله سليمان الجمل قيل وكانت أنثى بدليل تأنيث الفعل المسند اليها وبه قال أبو حيان فقد رد هذا أبو حيان فقال لحاق التاء في قالت لا يدل على أن النملة مؤنثة بل يصح أن يقال في المذكر قالت لان نملة وان كانت بالتاء فانها مما لا يتميز فيه المذكر من المؤنث بذكر الفعل ولا تأنيثه بل يتميز بالاخبار عنه بانه ذكر أو أنثى ولا يتعلق بمثل هذا كثير فائدة ولا بالتعرض لاسم النملة ولا لذكر القصص الموضوعة والاحاديث المكذوبة وقرئ النمل والنملة بزنة رجل وسمرة وقرئ بضمتين فيهما ثم قيل نمل هذا الوادي صغار وهو النمل المعروف أو كبار كالبخاتي أو كالذئاب والاول هو المشهور والجملة جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادي فرت ونهت سائر النمل مناديا لها قائلة (يا أيها النمل) وقد اشتمل هذا القول منها على أحد عشر نوعا من البلاغة أولها النداء بيا وثانيها أيها كنت باي وثالثها نبهت بها التنبيه ورابعها سمت بقولها النمل وخامسها أمرت بقولها (ادخلوا) وسادسها نصت بقولها (مساكنكم) جعل خطاب النمل كخطاب العقلاء لفهمها لذلك الخطاب والمساكن هي الامكنة التي تسكن النمل فيها وقرأ أبي ادخلن مساكنكن وقرئ مسكنكم وسابعها حذرت بقولها (لا يحطمنكم) أي لا يكسرنكم والحطم الكسر يقال حطمته حطما أي كسرته كسرا فتحطم وتحطم تكسر

ان يؤتوا أولي القربى الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع الى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال والله لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم عن أمري فقال يا زينب ماذا علمت أو رأيت فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت الا خيرا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فعصمها الله تعالى بالورع وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك قال ابن شهاب فهذا ما انتهى الينا من أمر هؤلاء الرهط أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري وهكذا رواه ابن اسحق عن الزهري كذلك قال وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الانصاري عن عمرة عن عائشة بنحو ما تقدم والله أعلم ثم قال البخاري وقال أبو اسامة عن هشام بن عروة قال أخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها قالت لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أما بعد أشيروا علي في أناس أبنوا أهلي وايم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط الا وأنا حاضر ولا غبت في سفر الا غاب معي فقام سعد ابن معاذ الانصاري فقال يا رسول الله ائذن لي ان نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان من رهط ذلك الرجل فقال كذبت أما والله ان لو كانوا من الاوس ما أحببت ان تضرب أعناقهم حتى كاد ان يكون بين الاوس والخزرج شر في المسجد وما علمت فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح فعثرت فقالت تعس مسطح فقلت لها أي أم تسبين ابنك فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت تعس مسطح فقلت لها أي أم تسبين ابنك ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه الا فيك فقلت في أي شأني قالت فبقرت لي الحديث فقلت وقد كان هذا قالت نعم والله فرجعت الى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ووعكت

وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني الى بيت ابى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ فقالت أم رومان ماجاء بك يابنية فأخبرتها وذكرت لها الحديث واذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى فقالت يابنية خففى عليك الشأن فانه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر الا حسدنها وقيل فيها واذا هو لم يبلغ منها ما بلغ منى فقلت وقد علم به أبى قالت نعم قلت ورسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لامى ماشأنها قالت بلغها الذى ذكر من شأنها فاضت عيناه رضى الله عنه فقال أقسمت عليك يابنية الا رجعت الى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتى فسأل عنى خادمى فقالت يارسول الله لا والله ماعلمت عليها عيبا الا أنها ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها وانتهرها بعض أصحابه فقال اصدقى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسقطوا لها به فقالت سبحان الله والله ماعلمت عليها الا مايعلم الصائغ على تبر الذهب الاحمر وبلغ الامر ذلك الرجل الذى قيل له فقال سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط قالت عائشة رضى الله عنها فقتل شهيدا فى سبيل الله قالت وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال أما بعد ياعائشة ان كنت قارفت سوأ أو ظلمت فتوبى الى الله فان الله يقبل التوبة عن عباده قالت وقد جاءت امرأة من الانصار فهى جالسة بالباب فقلت ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيأ فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت الى أبى فقلت له أجب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فماذا أقول فالتفت الى أمى فقلت أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت ماذا أقول فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت أما بعد فوالله ان قلت لكم انى لم أفعل والله عزوجل يشهد انى لصادقة ماذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم وان قلت لكم انى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها وانى والله ما أجد لى ولكم مثلا والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه الا أبا يوسف حين قال فصبر جميل والله المستعان

تكسير والحطم التكسير والحطام ما تكسر من اليبس وهذا النهى هو فى الظاهر للنمل وفى الحقيقة لسليمان فهو من باب لا أرينك ههنا أو بدل من الامر أو جواب للامر وهو ضعيف يدفعه نون التأكيد لانه من ضرورات الشعر وقرئ لايحطمنكم بضم الياء وفتح الحاء وتشديد الطاء وثامنها خصت بقولها (سليمان) وتاسعها عمت بقولها (وجنوده) أرادت جنود سليمان فجاءت بما هو أبلغ وعاشرها أشارت بقولها (وهم) وحادى عشرها عذرت بقولها (لايشعرون) أى يحطمنكم ولايعلمون بمكانكم أى لو شعروا لم يفعلوا قالت ذلك على وجه العذر واصفة لهم بالعدل كأنها عرفت أن النبى معصوم وجنده محفوظ فلا يقع منهم حطم هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء وحفظ أصحابهم وفيه ان الرافضة الذين ينسبون الظلم وحطم الحقوق الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى أهل بيته وعترته هم أقل عقلا وأضعف رأيا من تلك النملة فانها اعتقدت فى جنود سليمان العدل وهؤلاء اعتقدوا بأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم الظلم وشتان بينهما وقيل ان المعنى والنمل لايشعرون ان سليمان يفهم مقالتها وهو بعيد جدا (فتبسم) سليمان ابتداء (ضاحكا) انتهاء (من قولها) وقرئ ضحكا وعلى الاول حال مؤكدة لانه قد فهم الضحك من التبسم وقيل حال مقدرة لان التبسم أول الضحك وقيل لما كان التبسم قد يكون للغضب كان الضحك مبينا له وقيل ان ضحك الانبياء هو التبسم لاغير وعلى الثانى مصدر منصوب بفعل محذوف وكل من التبسم والضحك والقهقهة انفتاح فى الفم لكن الاول انفتاح بلا صوت أصلا والثانى مع صوت خفيف والثالث مع صوت قوى وكان ضحك سليمان تعجبا من قولها وفهمها واهتدائها الى تحذير النمل أو فرحا لظهور عدله (وقال رب أوزعنى) قد تقدم بيان معناه قريبا فى قوله فهم يوزعون قال فى الكشاف وحقيقة أوزعنى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأكفه وارتبطه لا ينفلت عنى حتى لا أنفك شاكرا لك انتهى قال الواحدى أوزعنى أى ألهمنى وبه قال قتادة وعن الحسن مثله يقال فلان موزع بكذا أى مولع به قال القرطبى وأصله من وزع فكأنه قال كفنى عما يسخطك انتهى وقال الزجاج معناه امنعنى أن أكفر نعمتك وهو تفسير باللازم (أن أشكر نعمتك التى أنعمت) بها (على) مفعول ثان لاوزعنى أى من النبوة والملك والعلم (وعلى والدى)

الدعاء منه بأن يوزعه الله شكر نعمته على والديه كما أوزعه شكر نعمته عليه لأن الإنعام عليهما إنعام عليه وذلك يستوجب الشكر منه لله سبحانه قال أهل الكتاب وأمه هي زوجة أوريا بن أوريا فوهبها الله لداود قاله القرطبي والله أعلم بصحته ثم طلب أن يضيف الله له لواحق نعمه إلى سوابقها ولا سيما النعم الدينية فقال (وأن أعمل صالحا) في بقية عمري (ترضاه) مني ثم دعا أن يجعله الله سبحانه في الآخرة داخلا في زمرة الصالحين فإن ذلك هو الغاية التي يتعلق بها الطلب فقال (وأدخلني) الجنة (برحمتك في عبادك الصالحين) من الأنبياء أو صلحاء العباد والمعنى أدخلني في جملتهم وأثبت اسمي في أسمائهم واحشرني في زمرتهم إلى دار الصالحين وهي الجنة أو في بمعنى مع والصالح الكامل هو الذي لا يعصي الله ولا يفعل معصية ولا يهم بها وهذه درجة عالية اللهم وإني أدعوك بما دعاك به هذا النبي الكريم فتقبل ذلك مني وتفضل علي به فإني وإن كنت مقصرا في العمل ففضلك الواسع هو سبب الفوز بالخير ورحمتك أرجى عندي من عملي فهذه الآية منادية بأعلى صوت وأوضح بيان بأن دخول الجنة التي هي دار المتقين بالتفضل منك لا بالعمل منهم كما قال رسولك الصادق المصدوق فيما ثبت عنه في الصحيح سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته فإذا لم يكن إلا فضلك الواسع فترك طلبه منك عجز والتفريط في التوسل إليك بالإيصال إليه تضييع ثم شرع سبحانه في ذكر قصة بلقيس وما جرى بينها وبين سليمان وذلك بدلالة الهدهد فقال (وتفقد الطير) التفقد تطلب ما غاب عنك وتعرف أحواله والطير اسم جنس لكل ما يطير والمعنى أنه تطلب ما فقد من الطير وتعرف حال ما غاب منها وكانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها (فقال مالي) وقرئ بسكون الياء (لا أرى الهدهد) أي ما للهدهد لا أراه فهذا من الكلام المقلوب الذي تستعمله العرب كثيرا وقيل لا حاجة إلى ادعاء القلب إذ المعنى صحيح بدونه بل هو استفهام واستخبار عن المانع له من رؤية الهدهد كأنه قال مالي لا أراه هل ذلك لساتر يستره عني أو لشيء آخر قال الكلبي ولم يكن له في سيره إلا هدهد واحد والهدهد معروف ثم ظهر له أنه غائب فقال (أم كان من الغائبين) فلم أره لغيبته وأم هي المنقطعة التي بمعنى الإضراب عن ابن عباس أنه سئل كيف تفقد سليمان الهدهد من بين الطير فقال إن سليمان نزل منزلا فلم يدر ما بعد الماء

على ما تصفون وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك قالت وكنت أشد ما كنت غضبا فقال لي أبواي قومي إليه فقلت والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وكانت عائشة تقول أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت والمنافق عبد الله بن أبي ابن سلول وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة قالت فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحا بنافعة أبدا فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولو الفضل منكم إلى آخر الآية يعني أبا بكر والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين يعني مسطحا إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم فقال أبو بكر بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقا بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد ابن أسامة أحد الأئمة الثقات وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع عن أبي أسامة مطولا بمثله أو نحوه ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة ببعضه وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت لما نزل عذري من السماء جاءني النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرني بذلك فقلت بحمد الله لا بحمدك وقال الإمام أحمد حدثني ابن أبي عدي عن محمد بن إسحق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة أيضا عن عائشة قالت لما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي هذا حديث حسن ووقع عند أبي داود تسميتهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها وقد روي من حديث أمها أم رومان رضي الله عنها فقال الإمام أحمد حدثنا علي بن عاصم أخبرنا حصين عن أبي وائل عن مسروق عن أم رومان قالت بينا أنا عند عائشة إذ دخلت عليها امرأة من الأنصار فقالت فعل الله بفلان وفعل فقالت عائشة ولم قالت إنه كان فيمن حدث الحديث قالت وأي الحديث قالت

كذا وكذا قالت وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت و بلغ أبا بكر قالت نعم فخرت عائشة رضي الله عنها مغشيا
عليها فما أفاقت الا وعليها حمى بنافض قالت فقمت فدثرتها قالت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال فما شأن هذه فقلت يا رسول الله
أخذتها حمى بنافض قال فلعله في حديث تحدث به قالت فاستوت عائشة قاعدة فقالت والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني ولئن
اعتذرت اليكم لا تعذروني فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب و بنيه حين قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت فخرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذرها فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر فدخل

فقال يا عائشة ان الله تعالى قد أنزل عذرك فقالت بحمد الله لا بحمدك فقال لها أبو بكر تقولين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت نعم قالت وكان فيمن حدث هذا الحديث رجل يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله فأنزل الله ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة الى آخر الآية فقال أبو بكر بلى فوصله تفرد به البخاري دون مسلم من طريق حصين وقد رواه البخاري عن موسى بن اسمعيل عن أبي عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به وفي لفظ أبي عوانة حدثتني أم رومان وهذا صريح في سماع مسروق منها وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي وذلك لما ذكره أهل التاريخ انها ماتت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قال الخطيب وقد كان مسروق يرسله فيقول سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف فاعتقد الراوي انها سألت فظنه متصلا قال الخطيب وقد رواه البخاري كذلك ولم تظهر له علته كذا قال والله أعلم فقوله تعالى ان

الذين جاؤا بالافك أي الكذب والبهت والافتراء عصبة أي جماعة منكم لا تحسبوه شرا لكم أي يا آل أبي بكر بل هو خير لكم أي في
الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة واظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها
حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الآية ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي
الله عنه وعنها وهي في سياق الموت قال لها أبشري فانك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك
ونزل براءتك من السماء وقال ابن جرير في تفسيره حدثني محمد بن عثمان الواسطي حدثنا جعفر بن عون عن المعلى بن عرفان

وكان الهدهد يدل سليمان على الماء فأراد أن يسأله عنه ففقده قال سعيد بن جبير لما ذكر
ابن عباس رضي الله عنه هذا قيل له كيف ذلك والهدهد ينصب له الفخ يلقى عليه التراب
و يضع له الصبي الحبالة فيغيبها فيصيده فقال اذا جاء القضاء ونزل القدر ذهب اللب وعمي
البصر فلما تحقق الغيبة قال (لأعذبنه عذابا شديدا) اختلفوا في هذا العذاب الشديد
ما هو فقال ابن عباس ومجاهد وابن جريج هو ان ينتف ريشه جميعا وروي نحو هذا عن
جماعة من التابعين وقال يزيد بن رومان هو ان ينتف ريش جناحيه وقيل أن يحبسه مع
اضداده وقيل أن يمنعه من خدمته وقيل القاؤه في الشمس وقيل التفريق بينه و بين الفه
وقيل الزامه خدمة اقرانه وقيل ايداعه في القفص وقيل طرحه بين يدي النمل ليأ كله وفي
هذا دليل على أن العقوبة على قدر الذنب لا على قدر الجسد وحل له تعذيب الهدهد
لما رأى فيه من المصلحة كما حل ذبح البهائم والطيور للأكل وغيره من المنافع واذا سخر
له الطير لم يتم التسخير الا بالتأديب والسياسة وعن الحسن قال كان اسم هدهد سليمان
غبر قال الشوكاني لا أدري من أين جاء هذا للحسن رحمه الله وهكذا ما روي عنه أن اسم
النملة حرس وانها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وانها كانت عرجاء وكانت بقدر
الذئب وهو رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ونحن نعلم انه لم يصح عن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك شئ ونعلم انه ليس للحسن اسناد متصل بسليمان أو بأحد
من أصحابه فهذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب وقد أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم
فان ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روي حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج فليس
ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة
لهم وقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة (أو لأذبحنه) بقطع
حلقومه (أو ليأتيني بسلطان مبين) هو الحجة البينة في غيبته قال ابن عباس السلطان
المبين خبر الحق الصدق البين وعنه قال كل سلطان في القرآن حجة وذكر هذه الآية ثم قال
وأي سلطان كان للهدهد يعني أن المراد بالسلطان الحجة لا السلطان الذي هو الملك
والحلف في الحقيقة على أحد الاولين بتقدير عدم الثالث فكلمة أو بين الاولين للتخيير
وفي الثالث للترديد بينه وبينهما قال الزمخشري فان قلت قد حلف على أحد ثلاثة أشياء
فحلفه على فعله لا كلام فيه ولكن كيف يصح حلفه على فعل الهدهد ومن أين درى انه

عن محمد بن عبد الله بن جحش قال تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب أنا التي نزل تزويجي من السماء وقالت عائشة
أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب يا عائشة ما قلت حين ركبتها قالت
قلت حسبي الله ونعم الوكيل قالت قلت كلمة المؤمنين وقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم أي لكل من تكلم في سده
العصبة ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب والذي تولى كبره قيل ابتدأه وقيل
الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ونسبه له عذاب عظيم أي على ذلك ثم الأكثرون على أن المراد بالذي
إنما هو عبد الله بن أبي ابن سلول قبحه
الله ولعنه وهو الذي تقدم النص
عليه في الحديث وقاله مجاهد
وغير واحد وقيل المراد به حسان
ابن ثابت وهو قول غريب ولولا أنه
وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على
ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة فإنه
من الصحابة الذين كان لهم فضائل
ومناقب ومآثر وأحسن مآثره
أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم بشعره وهو الذي قال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم
هاجهم وجبريل معك وقال الأعمش
عن أبي الضحى عن مسروق قال
كنت عند عائشة رضي الله عنها
فدخل حسان بن ثابت فأمرت
فألقي له وسادة فلما خرج قلت لعائشة
ما تصنعين بهذا يعني يدخل
عليك وفي رواية قيل لها أتأذنين
لهذا يدخل عليك وقد قال الله
والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم
قالت وأي عذاب أشد من العمى
وكان قد ذهب بصره لعل الله أن
يجعل ذلك هو العذاب العظيم
ثم قالت إنه كان ينافح عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم وفي رواية
أنه أنشدها عندما دخل عليها شعرا يمتدحها به فقال * حصان رزان ما تزن بريبة * وتصبح غرثى من لحوم اصا
الغوافل * فقالت أما أنت فلست كذلك وفي رواية لكنك لست كذلك وقال ابن جرير حدثنا الحسن بن قزعة حدثنا سلمة بن علقمة
حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان ولا تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبي
سفيان بن الحرث بن عبد المطلب

هجوت محمدا فأجبت عنه * وعند الله في ذاك الجزاء
فإن أبي ووالده وعرضي * لعرض محمد منكم وقاء
أتشتمه ولست له بكفء * فشركما لخيركما الفداء

يأتي بسلطان قيل المراد بالسلطان الحجة البينة وأو في أحكم الذي والحلف آل كلامه إلى قوله
ليكونن أحد الأمور يعني إن كان الإتيان بسلطان لم يكن تعذيب ولا ذبح وإن لم يكن
كان أحدهما وليس في هذا ادعاء دراية الهدهد وأو الثانية ترجع في المعنى إلى أنها بمعنى
الأولى وهي تدل على كل من الأمرين فلما قال كأنه قال لأعذبنه أو لأذبحنه أو ليأتيني أولا ذبحه إلا أن
يأتيني بسلطان مبين (فمكث) بفتح الكاف من باب نصر وقرئ بضم الكاف من باب قرب
قال سيبويه مكث يمكث مكوثا كما قعد يقعد قعودا أي مكث الهدهد بعد تفقد سليمان
إياه زمانا (غير بعيد) وقيل إن الضمير في مكث لسليمان والمعنى بقي سليمان بعد التفقد
والوعيد زمانا غير طويل والأول أولى (فقال أحطت بما لم تحط به) الإحاطة العلم بالشيء
من جميع جهاته حتى لا يخفى عليه منه معلوم ولعل في الكلام حذفا والتقدير فمكث الهدهد
غير بعيد فجاء فعوتب على مغيبه فقال معتذرا عن ذلك أحطت بما لم تحط به قال الفراء
ويجوز إدغام الطاء في التاء والمعنى علمت ما لم تعلمه من الأمر وبلغت ما لم تبلغه أنت
ولا جنودك وقال ابن عباس اطلعت على ما لم تطلع عليه وقد ألهم الله الهدهد هذا
الكلام فكافح سليمان به مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة ابتلاء له في علمه وتنبيها
على أن أدنى خلقه قد أحاط علما بما لم يحط به لتكون لطافة في ترك الإعجاب وإنما أخفى
الله على سليمان مكانها وكانت المسافة بينهما قريبة لمصلحة رآها كما أخفى مكان يوسف
على يعقوب وفيه دليل على بطلان قول الرافضة إن الإمام لا يخفى عليه شيء ولا يكون في
زمانه أحد أعلم منه (وجئتك من سبأ) قرئ بالصرف على أنه اسم رجل نسب إليه قوم
وقرئ بفتح الهمزة وترك الصرف على أنه اسم مدينة وأنكر الزجاج أن يكون اسم رجل
وقال سبأ اسم مدينة تعرف بمأرب اليمن وقيل هو اسم امرأة سميت بها المدينة قال
القرطبي والصحيح أنه اسم رجل كما في كتاب الترمذي من حديث فروة بن مسيك المرادي
قال ابن عطية وخفي هذا على الزجاج فخبط خبط عشواء وزعم الفراء أن الرؤاسي سأل
أبا عمرو بن العلاء عن سبأ فقال ما أدري ما هو قال النحاس وأبو عمرو أجل من أن يقول
هذا قال والقول في سبأ ما جاء التوقيف فيه أنه في الأصل اسم رجل فإن صرفته فلأنه
قد صار اسما للحي وإن لم تصرفه جعلته اسما للقبيلة مثل ثمود إلا أن الاختيار عند
سيبويه الصرف انتهى وأقول لا شك أن سبأ اسم للمدينة التي كانت فيها بلقيس وهو

لسانى صارم لا عيب فيه * و بحرى لا تكدره الدلاء   فقيل يا أم المؤمنين أليس هذا لغوا قالت لا انما اللغو ما قيل عند النساء قيل أليس الله يقول والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم قالت أليس قد أصابه عذاب عظيم أليس قد ذهب بصره وكنع بالسيف تعنى الضربة التى ضربه بها صفوان بن المعطل السلمى حين بلغه عنه انه يتكلم فى ذلك فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله (لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين فى قضية عائشة رضى الله عنها حين أفاض بعضهم فى ذلك الكلام السيئ وما ذكر من شأن الافك فقال تعالى لولا يعنى هلا اذ سمعتموه أى ذلك الكلام الذى رميت به أم المؤمنين رضى الله عنها ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا أى قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فان كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الاولى والاحرى وقد قيل انها نزلت فى أبى أيوب خالد بن زيد الانصارى وامرأته رضى الله عنهما كما قال الامام محمد بن اسحق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بنى النجار ان أبا أيوب خالد بن زيد الانصارى قالت له امرأته أم أيوب يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها قال نعم وذلك الكذب أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب قالت لا والله ما كنت لافعله قال فعائشة والله خير منك قال فلما نزل القرآن ذكر الله عز وجل من قال فى الفاحشة ما قال من أهل الافك ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا ثم قال تعالى لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون الآية أى كما قال أبو أيوب وصاحبته وقال محمد بن عمر الواقدى حدثنى ابن أبى حبيب عن داود بن الحصين عن أبى سفيان عن أفلح مولى أبى أيوب ان أم أيوب قالت لابى أيوب ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة قال بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب قالت لا والله قال فعائشة والله خير منك فلما نزل القرآن وذكر أهل الافك قال الله عز وجل لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين يعنى أبا أيوب حين قال لام أيوب ما قال ويقال انما قالها أبى بن كعب وقوله تعالى ظن المؤمنون الخ أى ظنوا الخير فان أم المؤمنين أهله وأولى به هذا ما يتعلق بالباطن وقوله وقالوا أى بألسنتهم هذا افك مبين أى كذب ظاهر على أم المؤمنين رضى الله عنها فان الذى وقع لم يكن ريبة

أيضا اسم رجل من قحطان وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود ولكن المراد هنا ان الهدهد جاء الى سليمان بخبر ما عاينه فى مدينة سبأ مما وصفه وسيأتى من المأثور ما يوضح هذا ويؤيده وعن ابن عباس قال سبأ بأرض اليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال والمعنى ان الهدهد جاء سليمان من هذه المدينة (بنبأ يقين) النبأ هو الخبر الخطير الشأن وهذا من محاسن الكلام ويسمى البديع وقد حسن وبدع لفظا ومعنى ههنا ألا ترى انه لو وضع مكان بنبأ بخبر لكان المعنى صحيحا وهو كما جاء أصح لما فى النبأ من الزيادة التى يطابقها وصف الحال فلما قال الهدهد لسليمان ما قال قال له سليمان وما ذاك فقال (انى وجدت امرأة تملكهم) وهى بلقيس بنت شراحيل روى ذلك عن الحسن وقتادة وزهير بن محمد وعن ابن جريج انها بنت ذى شرح وجدها الهدهد تملك أهل سبأ وكان أبوها ملك أرض اليمن ولم يكن له ولد غيرها فغلبت على الملك وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبأ على تأويل القوم وأهل المدينة والجملة هذه كالبيان والتفسير للجملة التى قبلها أى ذلك النبأ اليقين هو كون هذه المرأة تملك هؤلاء قال ابن عباس اسمها بلقيس بنت ذى شيرة وكانت هلباء شعراء قيل كانت من نسل يعرب بن قحطان وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احدى أبوى بلقيس كان جنيا أخرجه ابن عساكر وابن مردويه وأبو الشيخ وابن جرير (وأوتيت من كل شئ) فيه مبالغة والمراد انها أوتيت من كل شئ من الاشياء التى تحتاجها الملوك من الآلة والعدة وكان يخدمها النساء وهذا عام أريد به الخصوص وقيل المعنى أوتيت من كل شئ فى زمانها شيأ من أسباب الدنيا والمال والعدد ما يليق بحالها فحذف شيأ لان الكلام قد دل عليه (ولها عرش عظيم) أى سرير كبير ضخم وقيل المراد بالعرش هنا الملك والاول أولى لقول سليمان أيكم يأتينى بعرشها ووصفه بالعظم بالنسبة اليها والى أمثالها من ملوك الدنيا لانه كما قيل كان مضروبا من الذهب والفضة طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وارتفاعه فى السماء ثلاثون ذراعا مكللا بالدر والياقوت الاحمر والزبرجد الاخضر والزمرد وأما وصف عرش الله بالعظيم فهو بالنسبة الى جميع المخلوقات من السموات والارض وما بينهما فبينهما بون عظيم وفرق بين قال ابن عطية واللازم من الآية انها امرأة ملكة على مدائن اليمن ذات ملك عظيم وسرير كبير

وذلك أن مشى أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤس الأشهاد بل كان هذا يكون لو قدر خفية مستورا فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت والقول الزور والرعونة الفاحشة الفاجرة والصفقة الخاسرة قال الله تعالى لولا أي هلا جاؤا عليه أي على ما قالوه بأربعة شهداء يشهدون على صحة ما جاؤا به فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون أي في حكم الله كاذبون فاجرون (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في

الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) يقول تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة أيها الخائضون في شأن عائشة أن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه من قضية الإفك عذاب عظيم وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقا مشروطا بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه ثم قال تعالى إذ تلقونه بألسنتكم قال مجاهد وسعيد بن جبير أي يرويه بعضكم عن بعض يقول هذا سمعته من فلان وقال فلان كذا وكذا وذكر بعضهم كذا وقرأ آخرون إذ تلقونه بألسنتكم وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك وتقول هو من ولق اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه تقول العرب ولق فلان في السير إذا استمر فيه والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة هي أعلم به من غيرها وقوله تعالى وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم أي تقولون ما لا تعلمون ثم قال تعالى وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين

صحيح

وكانت كافرة من قوم كفار وعن ابن عباس قال سرير كريم من ذهب وقوائمه من جوهر ولؤلؤ حسن الصنعة غالي الثمن عليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أي يعبدونها متجاوزين عبادة الله سبحانه قيل كانوا مجوسا وقيل زنادقة ووجدت بمعنى لقيت وأصبت فتتعدى لواحد (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي يعملونها وهي عبادة الشمس وسائر أعمال الكفر (فصدهم عن السبيل) أي صدهم الشيطان بسبب ذلك التزيين عن الطريق الواضح وهو الإيمان بالله وتوحيده (فهم لا يهتدون) إلى ذلك ولا يبعد من الهدهد الملهم أن يهتدي إلى معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وحرمة السجود للشمس إلهاما من الله له كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوان المعارف اللطيفة التي لا يكاد العقلاء الرجاح العقول يهتدون لها (ألا يسجدوا لله) قال ابن الأنباري الوقف على لا يهتدون غير تام عند من شدد ألا لأن المعنى وزين لهم الشيطان أن لا يسجدوا وقال النحاس هي أن دخلت عليها لا قال الأخفش أي زين لهم أن لا يسجدوا لله بمعنى لئلا يسجدوا فهو على الوجهين مفعول له وقيل فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله ولا على هذا زائدة كقوله ما منعك أن لا تسجد وعلى قراءة الجمهور ليس هذه الآية موضع سجدة لأن ذلك إخبار عنهم بترك السجود إما بالتزيين أو بالصد أو بمنع الاهتداء وقد رجح كونه علة للصد الزجاج ورجح الفراء كونه علة لزين قال زين لهم أعمالهم لئلا يسجدوا وقرئ ألا بالتخفيف وعلى هذا فهي حرف تنبيه واستفتاح وما بعدها حرف نداء ألا يا اسجدوا واسجدوا فعل أمر وتقديره ألا يا هؤلاء اسجدوا قال الزجاج وقراءة التخفيف تقتضي وجوب السجود دون قراءة التشديد والقراءة بالتخفيف وجه حسن إلا أن فيها انقطاع الخبر عن أمر سبأ ثم الرجوع بعد ذلك إلى ذكرهم والقراءة بالتشديد خبر يتبع بعضه بعضا لا انقطاع في وسطه وكذا قال النحاس وعلى هذه تكون جملة ألا يا اسجدوا معترضة من كلام الهدهد أو من كلام سليمان أو من كلام الله سبحانه وقرأ ابن مسعود هلا تسجدوا بالفوقية وقرأ أبي ألا تسجدوا بالتاء وفيه مناسبة لما قبله وهي الرد على من يعبد الشمس وغيرها من دون الله (الذي يخرج الخبء في السموات والأرض) يقال خبأت الشيء أخبؤه خبأ والخبء ما خبأت أي يظهر ما هو مخبوء ومخفي فيهما لأنه لا يستحق العبادة إلا من هو قادر على من فيهما عالم

وتحسبون ذلك يسيرا لهم لا ولو لم تكن زوجة النبي صلى الله عليه وسلم لما كان شيئا فكيف وهي زوجة النبي الامي خاتم الانبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله ان يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل فان الله سبحانه وتعالى يغار لهذا وهو سبحانه وتعالى لا يقدر على زوجة نبي من الانبياء ذلك حاشا وكلا ولما لم يكن ذلك فكيف يكون هذا في سيدة نساء الانبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم وفي الصحيحين ان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والارض وفي رواية لا يلقي لها بالا (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) هذا تأديب آخر بعد الاول الآمر بظن الخير أي اذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فاولى ينبغي الظن بهم خيرا وان لا يشعر نفسه سوى ذلك ثم ان علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالا فلا ينبغي ان يتكلم به فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى تجاوز لامتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل اخرجاه في الصحيحين وقال الله تعالى ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا أي ما ينبغي لنا ان نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد سبحانك هذا بهتان عظيم أي سبحان الله ان يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله ثم قال تعالى يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا أي ينهاكم الله متوعدا ان يقع منكم ما يشبه هذا أبدا أي فيما يستقبل ولهذا قال ان كنتم مؤمنين أي ان كنتم تؤمنون بالله وشرعه وتعظمون رسوله صلى الله عليه وسلم فاما من كان متصفا بالكفر فله حكم آخر ثم قال تعالى ويبين الله لكم الآيات أي يوضح لكم الاحكام الشرعية والحكم القدرية والله عليم حكيم أي عليم بما يصلح عباده حكيم في شرعه وقدره (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه فقد قال تعالى ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح لهم عذاب أليم في الدنيا أي بالحد وفي الآخرة بالعذاب الاليم والله يعلم وأنتم لا تعلمون أي

بجميع المعلومات وفي اخراج الخبء دليل على القدرة قال الزجاج جاء في التفسير أن الخبء هنا بمعنى القطر من السماء والنبات من الارض وقيل خبء الارض كنوزها ونباتها وقال قتادة الخبء السر قال النحاس أي ما غاب فيهما وقرئ الخب بفتح الباء من غير همز وقرئ الخبا بالالف قال أبو حاتم وهذا لا يجوز في العربية ورد عليه بان سيبويه حكى عن العرب ان الالف تبدل من الهمزة اذا كان قبلها ساكن وقرئ من السموات قال الفراء من وفي تتعاقبان عن ابن عباس قال يعلم كل خبيئة في السماء والارض (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) قرئ بالتحتية في الفعلين وبالفوقية للخطاب اما الاولى فلكون الضمائر المتقدمة ضمائر غيبة وأما الثانية فلكون القراءة فيها الامر بالسجود والخطاب لهم بذلك فهذا من ذلك الخطاب والمعنى ان الله سبحانه يخرج ما في هذا العالم الانساني من الخفي بعلمه له كما يخرج ما خفي في السماء والارض وفيه دليل على اثبات العلم والاعلان ذكره لتوسيع دائرة العلم للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى علمه تعالى ثم بعد ما وصف الرب سبحانه بما تقدم مما يدل على عظيم قدرته وجليل سلطانه وسعة علمه ووجوب توحيده وتخصيصه بالعبادة قال (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) بالجر نعتا للعرش وبالرفع نعتا للرب وخص العرش بالذكر لانه أعظم المخلوقات كما ثبت ذلك في المرفوع الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأما عرش بلقيس فتعظيمه بالاضافة الى عروش أبناء جنسها من الملوك وهذا بالنسبة الى جميع الموجودات من السماء والارض وبينهما بون عظيم كما تقدم والى هنا كلام الهدهد لكنه من قوله الذي يخرج الى هنا ليس داخلا تحت قوله أحطت بما لم تحط به يعني ليس مما علمه الهدهد دون سليمان بل سليمان يعلمه أيضا على وجه أتم وأكمل من علم الهدهد وانما ذكره الهدهد بيانا لما هو عليه معتقده واظهار التصلبه في الدين فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال) له سليمان (سننظر) فيما أخبرتنا به من هذه القصة ونتعرف والنظر هو التأمل والتصفح وفيه ارشاد الى البحث عن الاخبار والكشف عن الحقائق وعدم قبول خبر المخبرين تقليدا لهم واعتمادا عليهم اذا تمكن من ذلك بوجه من الوجوه (أصدقت) فيما قلت والهمزة استفهامية (أم كنت من الكاذبين) أم هي المتصلة وهذا القول أبلغ من قوله أم كذبت فيه مع انه أخصر وأشهر لان المعنى من الذين اتصفوا بالكذب وصار خلقا لهم فهو يفيد أنه كاذب لا محالة على أتم وجه ومن كان كذلك

فردوا الامور اليه رشدوا وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون بن أبي محمد المرائي حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) يقول الله تعالى ولولا فضل (٦٦) الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم أي لولا هذا لكان أمر آخر ولكنه تعالى رؤف بعباده رحيم بهم فتاب على من تاب اليه من هذه وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم ثم قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر هذا تنفير وتحذير من الله بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس خطوات الشيطان عمله وقال عكرمة نزغاته وقال قتادة كل معصية فهي من خطوات الشيطان وقال أبو مجلز النذور في المعاصي من خطوات الشيطان وقال مسروق سأل رجل ابن مسعود فقال اني حرمت ان آكل طعاما وسماه فقال هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه ان يذبح كبشا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حسان ابن عبد الله المصري حدثنا السري ابن يحيى عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال غضبت على امرأتي فقالت هي يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر ان لم تطلق امرأتك فأتيت عبد الله بن عمر فقال انما هذه من نزغات الشيطان وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة وأتيت عاصم بن عمر فقالت مثل ذلك ثم قال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع اليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ولكن الله يزكي من يشاء أي من خلقه ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي وقوله والله سميع أي سميع لأقوال عباده عليم بمن يستحق منهم الهدى والضلال

لا يرتق به وقال البيضاوي التعبير للمبالغة والمحافظة على الفواصل ثم بين سليمان هذا العذر الذي وعده فقال (اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم) أي الى أهل سبأ قال الزجاج في ألقه خمسة أوجه قرئ بها وخص الهدهد بارساله بالكتاب لانه المخبر بالقصة ولكونه رأى منه من مخايل الفهم والعلم ما يقتضي كونه أهلا للرسالة (ثم تول) أي تنح وانصرف (عنهم) وقف قريبا منهم وانما أمره بذلك لكون التنحي بعد دفع الكتاب من أحسن الآداب التي يتأدب بها رسل الملوك والمراد التنحي الى مكان يسمع فيه حديثهم حتى يخبر سليمان بما سمع وقيل معنى التولي الرجوع اليه والاول أولى لقوله (فانظر ماذا يرجعون) أي تأمل وتفكر فيما يرجع بعضهم الى بعض من القول وما يتراجعونه بينهم من الكلام قال ابن عباس يقول كن قريبا منهم فانظر ما الذي يردون من الجواب (قالت) بلقيس (يا أيها الملأ) في الكلام حذف والتقدير فذهب الهدهد فألقاه اليهم فسمعها تقول يا أيها الملأ (اني ألقي الي كتاب كريم) والملأ هم الاشراف سموا ملأ لانهم يملؤن العيون وفاعل ألقي محذوف قيل لجهلها به ان لم تكن شاهدته وقيل لاحتقاره ان كانت رأته والكريم المكرم المعظم ووصفت الكتاب بالكريم لكونه من عند عظيم في نفسها فعظمته اجلالا لسليمان وقيل لاشتماله على كلام حسن وقيل لكونه مصدرا بالبسملة وقيل لغرابة شأنه وقيل لكونه وصل اليها مختوما بخاتم سليمان وكرامة الكتاب ختمه كما روى ذلك مرفوعا قال ابن المقفع من كتب الى أخيه كتابا لم يختمه فقد استخف به ثم بينت ما تضمنه هذا الكتاب فقالت (انه من) عبد الله (سليمان) بن داود الى بلقيس ملكة سبأ (وانه بسم الله الرحمن الرحيم) أي وان ما اشتمل عليه الكتاب من الكلام وتضمنه من القول مفتتح بالتسمية وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكريم قال ابن عباس انطلق بالكتاب حتى اذا توسط عرشها ألقى الكتاب اليها فقرئ عليها فاذا فيه انه من سليمان الخ وأخرج ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكان يكتب البسملة وبعدها السلام على من اتبع الهدى (ان لا تعلوا) أي اما بعد فلا تتكبروا (علي) كما تفعله جبابرة الملوك وان هي المفسرة وقيل مصدرية ولا ناهية وقيل نافية ومحل الجملة الرفع على انها بدل من كتاب أو خبر مبتدأ محذوف أي هو أن لا تعلوا وقرئ لا تغلوا بالغين من الغلو وهو تجاوز الحد في الكبر (وأتوني مسلمين)

(ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) يقول تعالى ولا يأتل من الألية وهي الحلف أي لا يحلف أولو الفضل منكم أي الطول والصدقة والاحسان والسعة أي الجدة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الارحام ولهذا قال تعالى وليعفوا وليصفحوا أي عما تقدم منهم من الاساءة والأذى وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم وهذه الآية نزلت في الصديق حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعدما قال في عائشة ما قال كما تقدم في الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة بعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة فانه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له الا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه وكان من المهاجرين في سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها وكان الصديق رضي الله عنه معروفا بالمعروف له الفضل والأيادي على الاقارب والاجانب فلما نزلت هذه الآية الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم الآية فان الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب اليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك فعند ذلك قال الصديق بلى والله انا نحب ان تغفر لنا يا ربنا ثم رجع الى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال والله لا أنزعها منه أبدا في مقابلة ما كان قال والله لا أنفعه بنافعة أبدا فلهذا كان الصديق هو الصديق (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات خرج مخرج الغالب المؤمنات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنها وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على ان من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فانه كافر لانه معاند للقرآن

أي طائعين منقادين للدين مؤمنين بما جئت به وقيل لم يزد سليمان على ما نص الله في كتابه وكذلك الانبياء كانوا يكتبون جملا لا يطيلون ولا يكثرون وقيل طبعه سليمان بالمسك أي جعل عليه قطعة منه كالشمع ثم ختمه بخاتمه (قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري) أي أشيروا علي وبينوا الى الصواب في هذا الامر وأجيبوني بما يقتضيه الحزم وعبرت عن المشورة بالفتوى لكون ذلك حلا لما أشكل من الامر عليها وفي الكلام حذف والتقدير فلما قرأت بلقيس الكتاب جمعت اشراف قومها وكانوا ثلثمائة واثني عشر لكل واحد منهم اتباع كثيرة وقالت لهم يا أيها الملأ اني ألقي الي يا أيها الملأ أفتوني وكرر قالت لمزيد العناية بما قالته لهم ثم زادت في التأدب واستجلاب خواطرهم ليمحضوها النصح ويشيروا عليها بالصواب فقالت (ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون) أي عادتي وشأني معكم اني ما كنت مبرمة وقاضية وفاصلة أمرا من الامور حتى تحضروا عندي وتشيروا علي فلما قالت لهم ذلك (قالوا) مجيبين لها (نحن أولو قوة) في العدد والعدة (وأولو بأس شديد) عند الحرب واللقاء ولنا من الشجاعة والنجدة ما نمنع به أنفسنا وبلدنا ومملكتنا يعني أشاروا عليها بالقتال ثم فوضوا الامر اليها لعلمهم بجودة رأيها وقوة عقلها فقالوا (والامر) موكول (اليك) أي الى رأيك ونظرك (فانظري) أي تأملي (ماذا تأمرين) ايانا به فنحن سامعون لامرك مطيعون له فلما سمعت تفويضهم الامر اليها لم ترض بالحرب بل مالت للصلح وبينت السبب في رغبتها فيه و(قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى (أفسدوها) أي خربوا مبانيها وغيروا مغانيها واتلفوا أموالها وفرقوا شمل أهلها قال ابن عباس اذا أخذوها عنوة وقهرا أخربوها وعن الزجاج مثله (وجعلوا أعزة أهلها أذلة) أي أهانوا أشرافها وحطوا مراتبهم فصاروا عند ذلك أذلة وانما يفعلون ذلك لاجل ان يتم لهم الملك وتستحكم لهم الوطأة وتتقرر لهم في قلوبهم المهابة والمقصود من قولها هذا تحذير قومها من مسير سليمان اليهم ودخوله بلادهم (وكذلك) أي مثل ذلك الفعل (يفعلون) أرادت ان هذه عادتهم المستمرة التي لا تتغير لانها كانت في بيت الملك القديم فسمعت نحو ذلك ورأت قال ابن الانباري الوقف على قوله أذلة وقف تام فقال الله عز وجل تحقيقا وتصديقا لقولها وكذلك يفعلون وقيل هذه الجملة من تمام كلامها فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله وعلى الاول مستأنفة لا محل لها من الاعراب قال النسفي واحتج الساعي في الارض

وفي قيمة أمهات المؤمنين قولان أصحهما انهن كهي والله اعلم وقوله تعالى لعنوا في الدنيا والآخرة الآية كقوله ان الذين يؤذون الله ورسوله الآية وقد ذهب بعضهم الى انها خاصة بعائشة رضي الله عنها فقال ابن ابي حاتم حدثنا ابو سعيد الاشج حدثنا عبد الله ابن خراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات قال نزلت في عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا احمد بن عبدة الضبي حدثنا أبو عوانة عن عمر بن ابي سلمة عن انس عن عائشة رضي (٦٨) الله عنها قالت رميت بما رميت به وانا غافلة فبلغني بعد ذلك قالت فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس عندي اذ اوحي اليه قالت وكان اذا أوحي اليه أخذه كهيئة السبات وانه أوحي اليه وهو جالس عندي ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال يا عائشة ابشري قالت فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات حتى بلغ أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم هكذا اورده وليس فيه ان الحكم خاص بها وانما فيه انها سبب النزول دون غيرها وان كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله اعلم وقال الضحاك وابو الجوزاء وسلمة بن نشيط المراد بها ازواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الآية يعني ازواج النبي صلى الله عليه وسلم رماهن اهل النفاق فاوجب الله لهم اللعنة والغضب وباؤا بسخط من الله فكان ذلك في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ثم نزل بعد ذلك والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء الى قوله فان الله غفور رحيم فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد وقال ابن جرير حدثنا القاسم بن الحطاب حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بني أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات الآية قال في شأن عائشة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي مبهمة وليست لهم توبة ثم قرأ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء الى قوله الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا الآية قال فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهم بعض القوم ان يقوم اليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور فقوله وهي مبهمة أي

بالفساد بهذه الآية ومن استباح حراما فقد كفر واذا احتج له بالقرآن على وجه التحريف فقد جمع بين كفرين انتهى ثم لما قدمت لهم هذه المقدمة وبينت لهم ما في دخول الملوك الى أرضهم من المفسدة أوضحت لهم وجه الرأي عندها وصرحت لهم بصوابه فقالت (واني مرسلة اليهم) أي الى أحرب هذا الرجل بارسال رسلي اليه (بهدية) مشتملة على نفائس الاموال قال كان ملكا ارضيناه بذلك وكفينا أمره وان كان نبيا لم يرضه ذلك لان غاية مطلبه ومنتهى أربه هو الدعاء الى الدين فلا ينجينا منه الا اجابته ومتابعته والتدين بدينه وسلوك طريقته ولهذا قالت (فناظرة بم يرجع المرسلون) بالهدية من قبول أورد فعاملة بما يقتضيه ذلك وذلك ان بلقيس كانت امرأة لبيبة عاقلة قد ساست الامور وجربتها وقد طول المفسرون في ذكر هذه الهدية قال ابن عباس أرسلت بلبنة من ذهب فلما قدموا اذا حيطان المدينة من ذهب فذلك قوله اتمدونن بمال الآية وقال ثابت البناني أهدت له صفائح الذهب في أوعية الديباج وقال مجاهد أهدت جواري لباسهن لباس الغلمان وغلمانا لباسهم لباس الجواري وقال عكرمة أهدت مائتي فرس على كل فرس غلام وجارية وعلى كل فرس لون ليس على الآخر وقال سعيد بن جبير كانت الهدية جواهر وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره (فلما جاء) رسولها المرسل بالهدية وهو منذر بن عمرو والمراد بهذا المضمر الجنس فلا ينافي كونهم جماعة كما يدل عليه قولها بم يرجع المرسلون وقرئ فلما جاؤا أي الرسل (سليمان قال أتمدونن بمال) مستأنفة والاستفهام للانكار أي قال منكرا لامدادهم له بالمال مع علو سلطانه وكثرة ماله (فما آتاني الله) من النبوة والعلم والملك العظيم والاموال الكثيرة (خير مما آتاكم) من المال الذي هذه الهدية من جملته وهذا تعليل للنفي ثم انه أضرب عن الانكار المتقدم وقال توبيخا لهم بفرحهم بهذه الهدية فرح فخر وخيلاء (بل أنتم بهديتكم تفرحون) وأما أنا فلا أفرح بها وليست في الدنيا من حاجتي لان الله سبحانه قد أعطاني منها ما لم يعطه أحدا من العالمين ومع ذلك أكرمني بالنبوة والمراد بهذا الاضراب من سليمان بيان السبب الحامل لهم على الهدية مع الازراء بهم والحط عليهم ثم قال سليمان للرسول (ارجع اليهم) أي الى بلقيس وقومها بما أتيت به من الهدية وخاطب المفرد ههنا بعد خطابه للجماعة فيما قبل اما لان الذي سيرجع هو الرسول فقط أو خص أمير الرسل

عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت اماما في ذلك وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن ابي حاتم حدثنا احمد بن عبد الرحمن بن اخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن ابي الغيث عن ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل وما هن يا رسول الله قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربا واكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات اخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به وقال الحافظ ابو القاسم الطبراني حدثنا محمد بن عمرو بن خالد الحذاء الحراني حدثني ابي ح وحدثنا ابو شعيب الحراني حدثنا جدي احمد بن ابي شعيب حدثني موسى بن أعين عن ليث عن ابي اسحق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة وقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وارجلهم بما كانوا يعملون قال ابن ابي حاتم حدثنا ابو سعيد الاشج حدثنا ابو يحيى الرازي عن عمرو بن ابي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال انهم يعني المشركين اذا رأوا أنه لا يدخل الجنة الا اهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على افواههم وتشهد ايديهم وارجلهم ولا يكتمون الله حديثا وروى ابن ابي حاتم وابن جرير ايضا حدثنا يونس بن عبد الاعلى حدثنا ابن وهب اخبرني عمرو بن الحرث عن دراج عن ابي الهيثم عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقال له هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم ايديهم والسنتهم ثم يدخلهم النار وقال ابن ابي حاتم ايضا حدثنا ابو شيبة ابراهيم بن عبد الله بن ابي شيبة الكوفي حدثنا منجاب بن الحرث التميمي حدثنا ابو عامر الاسدي حدثنا سفيان بن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو الفقيمي عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال اتدرون مم اضحك قلنا الله ورسوله اعلم قال من مجادلة العبد ربه يوم

بالخطاب هنا وخاطبهم معه فيما سبق افتنانا في الكلام وقرئ ارجعوا وقيل ان الضمير يرجع الى الهدهد واللام في (فلنأتينهم) جواب قسم محذوف أي والله ان لم يأتوني مسلمين لنأتينهم قال النحاس وسمعت ابن كيسان يقول هي لام توكيد ولام أمر ولام خفض وهذا قول الحذاق من النحويين لانهم يردون الشيء الى أصله وهذا لا يتهيأ الا لمن درب في العربية (بجنود لا قبل) أي لا طاقة (لهم بها) وحقيقة القبل المقابلة والمقاومة أي لا يقدرون أن يقابلوهم (ولنخرجنهم منها) أي من بلادهم وأرضهم التي هم فيها وهي سبأ حال كونهم (أذلة) بعد أن كانوا أعزة (وهم صاغرون) هي حال ثانية مؤكدة للاولى لان الصغار هو الذلة وقيل ان المراد بالصغار هنا الأسر والاستعباد وقيل ان الصغار الاهانة التي تسبب عنها الذلة ولما رجع الرسول الى بلقيس بالهدية تجهزت للمسير الى سليمان لتنظر ما يأمرها به وأخبر جبريل سليمان بذلك (قال) سليمان لكل من هو عنده في قبضته من الجن والانس وغيرهما (يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) أي عرش بلقيس الذي تقدم وصفه بالعظم وكان سليمان اذ ذاك في بيت المقدس وعرشها في سبا بلدة باليمن وبينها وبين القدس مسيرة شهرين (قبل أن يأتوني مسلمين) أي قبل أن تأتيني هي وقومها منقادين طائعين قيل انما أراد سليمان أخذ عرشها قبل أن يصلوا اليه ويسلموا لانهم حينئذ حربيون واذا أسلمت وأسلم قومها لم يحل أخذ أموالهم بغير رضاهم لان الاسلام يعصم مالهم قال ابن عطية وظاهر الروايات ان هذه المقالة من سليمان بعد مجيء هديتها ورده اياها وبعثه الهدهد بالكتاب وعلى هذا جمهور المتأولين وقيل استدعى العرش قبل وصولها اليه ليريها القدرة التي هي من عند الله ويجعله دليلا على نبوته وقيل أراد أن يختبر عقلها ولهذا قال نكروا لها عرشها كما سيأتي وقيل أراد أن يختبر صدق الهدهد في وصفه للعرش بالعظم والقول الاول هو الذي عليه الاكثر (قال عفريت من الجن) وقرئ عفرية بفتح التحتية بعدها تاء تأنيث منقلبة هاء ورويت هذه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقرأ أبو حيان بفتح العين وهو شاذ والعفريت المارد الغليظ الشديد القوي قال النحاس يقال للشديد اذا كان معه خبث ودهاء عفر وعفرية وعفريت وقال قتادة هو الداهية وقيل هو رئيس الجن وقال ابن عطية وقرأت فرقة عفر بكسر العين جمعه على عفار قال وهب اسمه كوذي وقال السهيلي ذكوان وقيل هو صخر المارد قاله ابن عباس

القيامة يقول يا رب ألم تجرني من الظلم فيقول بلى فيقول لا أجيز علي إلا شاهدا من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل وقد رواه مسلم والنسائي جميعا عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعي عن سفيان الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحدا روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال وقال قتادة ابن آدم والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك فإنه لا يخفى عليه خافية الظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله وقوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق قال ابن عباس دينهم أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم وكذا قال غير واحد ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم وقوله ويعلمون أن الله هو الحق المبين أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) قال ابن عباس الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول قال ونزلت في عائشة وأهل الإفك وهكذا روي عن مجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والشعبي والحسن بن أبي الحسن البصري وحبيب بن أبي ثابت والضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلام هم أولى به وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى أولئك مبرءون مما يقولون وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أي ما كان الله ليجعل عائشة

وقيل اسمه ذكوان وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه وكان مسخرا لسليمان (أنا آتيك به) أي أنا سآتيك بالعرش فآتيك فعل مضارع أو اسم فاعل (قبل أن تقوم من مقامك) أي مجلسك الذي تجلس فيه للحكومة بين الناس وهو من الغداة إلى نصف النهار (وإني عليه) أي على حمله (لقوي أمين) على ما فيه من الجواهر وغيرها قال سليمان أريد أسرع من ذلك (قال الذي عنده علم من الكتاب) المنزل على الأنبياء قبل سليمان كالتوراة التي أنزلت على موسى قال أكثر المفسرين اسمه آصف بن برخيا بالمد وبالقصر وهو من بني إسرائيل وكان وزير سليمان وصديقه وقيل كاتبه وكان من أولياء الله تظهر الخوارق على يديه كثيرا وقيل كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب قال ابن عطية وقالت فرقة هو سليمان نفسه ويكون الخطاب على هذا للعفريت كأن سليمان استبطأ ما قاله العفريت فقال له هذه المقالة تحقيرا له وقيل هو جبريل وقيل ملك آخر وقيل الخضر وقد قيل غير ذلك مما لا أصل له والأول أولى (أنا آتيك به) أي بالعرش وقال مجاهد في قراءة ابن مسعود أنا أنظر في كتاب ربي ثم آتيك به (قبل أن يرتد إليك طرفك) إذا نظرت به إلى شيء ما والمراد بالطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر وارتداده انضمامها ولكونه أمرا طبيعيا غير منوط بالقصد آثر الارتداد على الرد وفي القاموس إن الطرف كما يطلق على نظر العين يطلق على العين نفسها وقيل هو بمعنى المطروف أي الشيء الذي ينظره وقيل هو نفس الجفن عبر به عن سرعة الأمر كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة قاله مجاهد وقال سعيد بن جبير إنه قال لسليمان انظر إلى السماء فما طرف حتى جاء به فوضعه بين يديه والمعنى حتى يعود إليك طرفك بعد مده إلى السماء والأول أولى هذه الأقوال ثم الثالث قال ابن عباس لم يجر عرش صاحبة سبأ بين الأرض والسماء ولكن انشقت به الأرض فجرى تحت الأرض حتى ظهر بين يدي سليمان وقال مجاهد لما تكلم ذلك العالم بكلام دخل العرش في نفق تحت الأرض حتى خرج إليهم (فلما رآه مستقرا عنده) قيل في الآية حذف والتقدير فأذن له سليمان فدعا الله فأتى به فلما رأى سليمان العرش حاضرا لديه (قال هذا) أي حضور العرش وثبوته من غير تحرك وتعقل (من فضل ربي) وإحسانه إلي (ليبلوني) أي ليختبرني وقيل ليتعبدني وهو مجاز والأصل في الابتلاء الاختبار (أأشكر) الله بذلك وأعترف بأنه من فضله من غير حول مني ولا قوة

وأقوم

زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الا وهي طيبة لانه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا ولهذا قال تعالى أولئك مبرؤن مما يقولون أي هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان لهم مغفرة أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ورزق كريم أي عند الله في جنات النعيم وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنة قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن سلم حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن الحكم باسناده الى يحيى بن الجزار قال جاء أسير بن جابر الى عبد الله فقال لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبني فقال عبد الله ان الرجل المؤمن يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يتلها فيضمها اليه وان الرجل الفاجر يكون في قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل في صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذي عنده يتلها فيضمها اليه ثم قرأ عبد الله الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات الآية ويشبه هذا ما رواه الامام أحمد في المسند مرفوعا مثل الذي يسمع الحكمة ثم لا يحدث الا بشر ما سمع كمثل رجل جاء الى صاحب غنم فقال اجزرلي شاة فقال اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم وفي الحديث الآخر الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون) هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين وذلك في الاستئذان أمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات فان أذن له والا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك قال اني استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي واني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف فقال عمر لتأتيني على

وأقوم بحقه (أم أكفر) بترك الشكر وعدم القيام به أو بأن أثبت لنفسي فعلا وتصرفا في ذلك وقال الاخفش المعنى لينظر أأشكر أم أكفر (ومن شكر فانما يشكر لنفسه) لانه استحق بالشكر تمام النعمة ودوامها فان الشكر قيد النعمة الموجودة وصيد النعمة المفقودة والمعنى انه لا يرجع نفع ذلك وثوابه الا الى الشاكر (ومن كفر) النعمة بترك الشكر (فان ربي غني) عن شكره (كريم) في ترك المعاجلة بالعقوبة بنزع نعمه عنه وسلبه ما أعطاه منها (قال نكروا لها عرشها) قيل انما أعيد ذكر القول لكون المتعلق مختلفا لكونه أولا ثناء على الله وثانيا متعلقا بشأن عرشها والتنكير التغيير وجعل الشيء بحيث لا يعرف ضد التعريف ومنه نقل الى مصطلح أهل العربية يقول غيروا سريرها الى حال تنكره اذا رأته قيل جعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله وقيل غير بزيادة ونقصان قاله ابن عباس قال الفراء وغيره انما أمر بتنكيره لان الشياطين قالوا له ان في عقلها شيأ فاراد ان يمتحنها وقيل خافت الجن ان يتزوج بها سليمان فيولد له ولد منها فيبقون مسخرين لآل سليمان أبدا فقالوا لسليمان انها ضعيفة العقل ورجلها كرجل الحمار وقيل أراد سليمان ان يظهر لها أن الجن مسخرون له (ننظر) أي نعلم قرئ بالجزم على انه جواب الامر وبه قرأ الجمهور وقرئ بالرفع على الاستئناف قال ابن عباس لننظر الى عقلها فوجدت ثابتة العقل (أتهتدي) الى معرفته أو الى الايمان بالله (أم تكون من الذين لا يهتدون) الى ذلك (فلما جاءت) بلقيس الى سليمان (قيل) لها والقائل هو سليمان أو غيره بامره (أهكذا عرشك) الذي تركتيه في قصرك وأغلقت عليه الابواب وجعلت عليه حرسا والهمزة للاستفهام ولم يقل هذا عرشك لئلا يكون ذلك تلقينا لها فلا يتم الاختبار لعقلها (قالت كأنه هو) أي فاجابت أحسن جواب فلم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من رجاحة عقلها حيث لم تقع في المحتمل للامرين قال مجاهد جعلت تعرف وتنكر وتعجب من حضوره عند سليمان فقالت كأنه هو وقال مقاتل عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها ولو قيل لها أهذا عرشك لقالت نعم وقال عكرمة كانت حكيمة قالت ان قلت هو خشيت ان أكذب وان قلت لا خشيت ان أكذب فقالت كأنه هو (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) قيل هو من كلام بلقيس أي وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان من قبل هذه

هذا سمعه والأوجعتك ضربا فذهب الى ملأ من الانصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا لا يشهد لك الا أصغرنا فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك فقال ألهاني عنه الصفق بالاسواق وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ثابت عن أنس أو غيره ان النبي صلى الله عليه وسلم استأذن على سعد بن عبادة فقال السلام عليكم ورحمة الله فقال سعد وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبي صلى الله عليه وسلم حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبي صلى الله عليه وسلم فاتبعه سعد فقال يارسول الله بأبي أنت وأمي ما سلمت تسليمة (٧٢) الا وهي بأذني ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت ان استكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب له زبيبا فأكل نبي الله فلما فرغ قال أكل طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون وقد روى أبو داود والنسائي من حديث أبي عمرو الاوزاعي سمعت يحيى بن أبي كثير يقول حدثني محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن قيس بن سعد هو ابن عبادة قال زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا فقال السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا قال قيس فقلت ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبعه سعد فقال يارسول الله انى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام قال فانصرف معه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة قال ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام فلما أراد الانصراف قرب اليه سعد حمارا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد يا قيس اصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اركب فأبيت فقال اما أن تركب واما أن تنصرف قال فانصرفت وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوي والله أعلم ثم ليعلم انه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما

الآية في العرش وكان مقادير لامره وقيل هو من قول سليمان اى وأوتينا العلم بقدرة الله من قبل بلقيس وقيل العلم باسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وقيل هو من كلام قوم سليمان والقول الثاني أرجح من سائر الاقوال وبه قال مجاهد وعن زهير بن محمد نحوه (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) من جملة كلام سليمان او كلاهما على الاحتمالين السابقين وذكر أبو السعود احتمالا آخر وهو أنه من كلام الله سبحانه بيانا لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام أى منعها من اظهار الايمان ما كانت تعبده وهو الشمس قال النحاس اى صدها عبادتها عن التقدم الى الاسلام وقيل منعها الله عما كانت تعبد من دونه وقيل منعها سليمان عما كانت تعبد والاول أولى والجملة مستأنفة للبيان (انها كانت من قوم كافرين) تعليل للجملة الاولى اى سبب تأخرها عن عبادة الله ومنع ما كانت تعبده عن ذلك انها كانت من قوم متصفين بالكفر راسخين فيه ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهي بينهم بل حتى دخلت تحت ملك سليمان (قيل لها ادخلي الصرح) قال ابو عبيدة الصرح القصر وقال الزجاج الصرح الصحن يقال هذه صرحة الدار وقاعتها وقال ابن قتيبة الصرح بلاط اتخذ لها من قوارير وجعل تحته ماء وسمك وأصله من التصريح وهو الكشف وكذب صراح اى ظاهر مكشوف ولوم صراح وحكى ابو عبيد في الغريب ان الصرح كل بناء عال مرتفع (فلما رأته) اى الصرح بين يديها (حسبته لجة) هي معظم الماء وقال ابن عباس البحر (و) لذلك (كشفت عن ساقيها) لخوض الماء خوفا عليها ان تبتل فاذا هي احسن النساء ساقا سليمة مما قالت الجن فيها غير أنها كانت كثيرة الشعر فلما فعلت ذلك وبلغت الى هذا الحد (قال) لها سليمان بعد أن صرف بصره عنها (انه صرح ممرد) اى مسقف مسطح (من قوارير) فمن اراد مجاوزته لا يحتاج الى تشمير ثيابه والممرد المحكوك المملس ومنه الامرد لملاسة وجهه وتمرد الرجل اذا لم تخرج لحيته قال الفراء ومنه الشجرة المرداء التي لا ورق لها والتمريد في البناء التمليس والتسوية والممرد ايضا المطول ومنه قيل للحصن مارد وقوارير جمع قارورة اى زجاج وتطلق القارورة على المرأة لان الولد والمني يقر في رحمها كما يقر الشيء في الاناء او تشبيها بآنية الزجاج لضعفها قال الازهري والعرب تكنى عن المرأة بالقارورة والقوصرة قال آراد الحرامي رحمه الله

رواه أبو داود حدثنا مؤمل بن الفضل الحراني في آخرين قالوا حدثنا بقية حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بسر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول السلام عليكم السلام عليكم وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور انفرد به أبو داود وقال أبو داود أيضا حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير ح قال أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا حفص عن الأعمش عن طلحة عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان سعد فوقف على باب النبي صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على

الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم هكذا عنك أو هكذا فإنما الاستئذان من النظر وقد رواه أبو داود الطيالسي عن سفيان الثوري عن الأعمش عن طلحة بن مصرف عن رجل عن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه أبو داود من حديثه وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لو أن امرأ أطلع عليك بغير إذن فخذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح وأخرج الجماعة من حديث شعبة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في دين كان على أبي فدققت الباب فقال من ذا فقلت أنا قال أنا أنا كأنه كرهه وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس المأمور به في الآية وقال العوفي عن ابن عباس الاستئناس الاستئذان وكذا قال غير واحد وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا قال إنما هي خطأ من الكاتب حتى تستأذنوا وتسلموا وهكذا رواه هشيم عن أبي بشر وهو جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس بمثله وزاد وكان ابن عباس يقرأ حتى تستأذنوا وتسلموا وكان يقرأ على قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه وهذا غريب جدا عن ابن عباس وقال هشيم أخبرنا مغيرة عن إبراهيم قال في مصحف ابن مسعود حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا رواية عن ابن عباس وهو اختيار ابن جرير وقد قال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا ابن

كم من قلوب رقاق إثر عيسهم * يا حادي العيس رفقا بالقوارير

والمراد بها هنا بيت الزجاج فلما سمعت بلقيس ذلك أذعنت واستسلمت و (قالت رب إني ظلمت نفسي) أي بما كنت عليه من عبادة غيرك وهو الشمس وقيل بالظن الذي توهمته في سليمان لأنها توهمت أنه أراد تغريقها في اللجة والأول أولى (وأسلمت مع سليمان) متابعة له داخلة في دينه وهو الإسلام (لله رب العالمين) التفتت من الخطاب إلى الغيبة قيل لإظهار معرفتها بالله والأولى أنها التفتت لما في هذا الاسم الشريف من الدلالة على جميع الأسماء ولكونه علما للذات وأخرج ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي شيبة وغيرهم عن ابن عباس في أثر طويل أن سليمان تزوجها بعد ذلك قال أبو بكر بن أبي شيبة ما أحسنه من حديث قال ابن كثير في تفسيره بعد حكايته هذا القول بل هو منكر جدا ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب مما يوجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله فيما نقلا إلى هذه الأمة من بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ انتهى وكلامه هذا هو شعبة مما قد ذكرناه في هذا التفسير ونبهنا عليه في عدة مواضع وكنت أظن أنه لم ينبه على ذلك غيري فالحمد لله على هذه الموافقة لمثل هذا الحافظ المنصف وقيل انتهى أمرها إلى قولها أسلمت ولا علم لأحد وراء ذلك لأنه لم يذكر في الكتاب ولا في خبر صحيح وأخرج البخاري في تاريخه والعقيلي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أول من صنعت له الحمامات سليمان وروي عنه مرفوعا من طريق أخرى رواها الطبراني وابن عدي في الكامل والبيهقي في الشعب بلفظ أول من دخل الحمام سليمان فلما وجد حره قال أوه من عذاب الله روي أن سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وانقضى ملك بلقيس بانقضاء ملك سليمان فسبحان من لا انقضاء لدوام ملكه (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا) اللام هي الموطئة للقسم وهذه القصة من جملة بيان قوله وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم وثمود هو أبو القبيلة التي منها صالح فهو جده والمراد به هنا نفس القبيلة وتسمى عادا الثانية وأما عاد الأولى فهم قوم هود وتقدم أن بينهما مائة سنة وعاش صالح مائتين وثمانين سنة (أن اعبدوا الله) أن هي المفسرة أو المصدرية أي بأن اعبدوا الله ووحدوه (فإذا هم

جريج أخبرني عمرو بن أبي سفيان أن عمرو بن أبي صفوان أخبره أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبا وجداية وضغابيس والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى الوادي قال فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ولم أسلم ولم أستأذن فقال النبي صلى الله عليه وسلم ارجع فقل السلام عليكم أأدخل وذلك بعدما أسلم صفوان ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث ابن جريج به وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه من حديثه وروى أبو داود حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن ربعي قال أتى رجل من بني عامر (٧٤) استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته فقال أألج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقل له قل السلام عليكم أأدخل فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل وقال هشيم أخبرنا منصور عن ابن سيرين وأخبرنا يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد الثقفي أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أألج أو أنلج فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأمة له يقال لها روضة قومي إلى هذا فعلميه فإنه لا يحسن يستأذن فقولي له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فقال ادخل وقال الترمذي حدثنا الفضل بن الصباح حدثنا سعيد بن زكريا عن عنبسة بن عبد الرحمن عن محمد بن زاذان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام قبل الكلام ثم قال الترمذي عنبسة ضعيف الحديث ذاهب ومحمد بن زاذان في إسناده نكارة وضعف وقال هشيم قال مغيرة قال مجاهد جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال السلام عليكم أأدخل قالت ادخل بسلام فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال قولي ادخل قالت ادخل فدخل ولابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو نعيم الأحول حدثني خالد بن إياس حدثتني جدتي أم إياس قالت كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل فقالت لا قلن لصاحبتكن تستأذن فقالت السلام عليكم أندخل قالت ادخلوا ثم قالت يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها الآية وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار عن كردوس عن ابن مسعود قال عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم وقال أشعث

فريقان يختصمون) إذا هي الفجائية أي ففاجأ إرساله التفرق والاختصام والمراد بالفريقين المؤمنون منهم والكافرون ومعنى الاختصام أن كل فريق يخاصم على ما هو فيه ويزعم أن الحق معه وقيل إن الخصومة بينهم في صالح هل هو مرسل أم لا وقيل أحد الفريقين صالح والآخر جميع قومه وهو ضعيف وقد تقدم حكاية اختصام الفريقين في سورة الأعراف في قوله قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم الآية (قال) صالح للمكذبين (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة) قال مجاهد أي بالعذاب قبل الرحمة والمعنى لم تؤخرون الإيمان الذي يجلب إليكم الثواب وتقدمون الكفر الذي يجلب إليكم العقوبة وقد كانوا لفرط كفرهم يقولون ائتنا يا صالح بالعذاب ووصف العذاب بأنه سيئة مجازا إما لأن العقاب من لوازمه أو لأنه يشبهه في كونه مكروها (لولا) هلا (تستغفرون الله) وتتوبون إليه من الشرك (لعلكم ترحمون) أي رجاء أن ترحموا ولكي ترحموا فلا تعذبوا فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر فكان جوابهم عليه بعد هذا الإرشاد الصحيح والكلام اللين أنهم (قالوا اطيرنا بك) أصله تطيرنا وقد قرئ بذلك والتطير التشاؤم أي تشاءمنا بك وأصابنا الشؤم والضيق والشدة بك (وبمن معك) ممن أجابك ودخل في دينك وذلك لأنه أصابهم قحط فتشاءموا بصالح وقد كانت العرب أكثر الناس طيرة وأشقاهم بها وكانوا إذا أرادوا سفرا أو أمرا من الأمور نفروا طائرا من وكره فإن طار يمنة ساروا وفعلوا ما عزموا عليه وإن طار يسرة تركوا ذلك وفي القرطبي لا شيء أضر بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو يدفع مقدورا فقد جهل فلما قالوا ذلك (قال) لهم صالح (طائركم عند الله) أي ما يصيبكم من الخير والشر بأمر الله وهو مكتوب عليكم سمي طائرا لأنه لا شيء أسرع من نزول القضاء المحتوم والمعنى ليس ذلك بسبب الطيرة التي تشاءمون بها بل سبب ذلك عند الله وهو ما يقدره عليكم وقيل المعنى أن الشؤم الذي أصابكم هو من عند الله بسبب كفركم وهذا كقوله تعالى يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله وقيل طائركم عملكم وسمي طائرا لسرعة صعوده إلى السماء ثم أوضح لهم سبب ما هم فيه بأوضح بيان فقال (بل أنتم قوم تفتنون) أي تمتحنون وتختبرون وقيل تعذبون بذنوبكم وقيل يفتنكم غيركم وقيل يفتنكم الشيطان بما تقعون فيه من الطيرة أو بما لأجله تطيرون فأضرب عن ذكر

الطائر

عن عـدى بن ثابت أن امرأة من الانصار قالت يارسول الله انى أكون فى منزلى على الحال التى لا أحب أن يرانى أحد عليها لا والد ولا ولد وانه لايزال يدخل على رجل من أهلى وأنا على تلك الحال قال فنزلت يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا الآية وقال ابن جريج سمعت عطاء ابن أبى رباح يخبر عن ابن عباس رضى الله عنـه قال ثلاث آيات جحدهن الناس قال الله تعالى ان أكرمكم عند الله اتقاكم قال ويقولون ان أكرمهـم عند الله أعظمهم بيتا قال والادب كله قد جحده الناس قال قلت استأذن على اخواتى ايتام فى حجرى معى فى بيت واحد قال نعم فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال تحب (٢٥) أن تراها عريانة قلت لا قال فاستأذن قال فراجعته أيضا فقال أتحب أن تطيع الله قال قلت نعم قال قال فاستأذن قال ابن جريج وأخبرنى ابن طاوس عن أبيه قال مامن امرأة أكره الى أن أرى عورتها من ذات محرم قال وكان يشدد فى ذلك وقال ابن جريج عن الزهرى سمعت هزيل ابن شرحبيل الاودى الاعمى انه سمع ابن مسـعود يقول عليكم الاذن على امهاتكم وقال ابن جريج قلت لعطاء أيستأذن الرجل على امرأته قال لا وهـذا محمول عـلى عـدم الوجوب والا فالاولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال ان تكون على هيئة لاتحب أن يراها عليها قال أبو جعفر بن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا محمد ابن حازم عن الاعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى بن الجزار عن ابن أخى زينب امرأة عبد الله بن مسـعود عن زينب رضى الله عنها قالت كان عبد الله اذا جاء من حاجة فانتهى الى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه اسناده صحيح وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان الواسطى حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا الاعمش عن عمرو بن مرة عن أبى هبيرة قال كان عبـد الله اذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته وقال مجاهد حتى تستأنسوا قال تنحنحوا أو تنخموا وقال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله انه قال اذا دخل الرجل بيته استحب له أن يتنحنح أو يحرك نعليه ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم انه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا وفى رواية لئلا يتخونهم وفى الحديث الآخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال انتظروا حتى ندخل مساء يعنى آخر النهار حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحمن بن سليمان عن

الطائر الى ماهو السبب الداعى اليه وجاء بالخطاب مراعاة لتقدم الضمير ولو روعى مابعده لقيل يفتنون بياء الغيبـة وهو جائز ولكنه مرجوح تقول أنت رجل تفعل ويفعل ونحن قوم نقرو يقرون (وكان فى المدينـة) التى كان فيها صالح وهى الحجر كذا قال المفسرون هنا وتقدم فى سورة الحجر انه وادبين المدينة والشام وهو ديار ثمود (تسعة رهط) أى تسعة رجال أو أشخاص من أبناء الاشراف وبهذا الاعتبار وقع تمييز التسعة لا باعتبار لفظه والاضافة بيانية أى تسعة هم رهط والرهط اسم جماعة فكأنهـم كانوا رؤساء يتبع كل واحد منهم جماعة وقيل الرهط مادون العشرة من الرجال ليس فيه امرأة وسكون الهاء أفصح من فتحها وهو جمـع لا واحـد له من لفظه وقيل الرهط من سبعة الى عشرة ومادون السـبعة الى الثـلاثة نفر قال ثعلب الرهط والنفر والقوم والمعشر والعشـيرة معناهم الجمع لا واحـد لها من لفظها وهو للرجال دون النساء وقال ابن السـكيت الرهط والعترة بمعنى وقال الاصمعى الرهط مافوق العشرة الى الاربعين ونقله ابن فارس أيضا والجمع أرهط وأراهط وهؤلاء التسعـة هم أصحاب قدار عاقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وقد اختلف فى أسماء هؤلاء التسـعة اختلافا كثيرا لاحاجة الى التطويل بذكره ثم وصف هؤلاء بقوله (يفسدون فى الارض ولا يصلحون) أى شأنهم وعملهـم الفساد فى الارض لا فى المدينة فقط فسادا لا يخالطه شئ من الاصـلاح قيل كانوا يتبعون معائب الناس ولا يسـترون عوراتهم وقيل كانوا يظلمون ولا يمنعون الظالمين (قالوا تقاسموا) اى قال بعضهم لبعض احلفوا (بالله) هذا على ان تقاسموا فعل أمر ويجوز أن يكون فعلا ماضيا مفسرا لقالوا كأنه قيل ماقالوا فقال تقاسموا أو قالوا ذلك متقاسمين واليه ذهب الزمخشرى وقرأ ابن مسعود تقاسموا بالله ليس فيها قالوا (لنبيتنه) اللام جواب قسم أى لنأتينه بغتة فى وقت البيات فنقتله ليلا (وأهله) أى من آمن به وكانوا أربعة آلاف (ثم لنقولن لوليه) بالنون للمتـكلم وقرئ بالتحتية وبالفوقية على خطاب بعضهـم لبعض والمراد بولى صالح رهطه الذين لهـم ولاية الدم (ماشهدنا مهلك أهله) اى ماحضرنا قتلهم ولا ندرى من قتله وقتل اهله ونفيهم لشهودهم لمكان الهلاك يدل على نفى شهودهم لنفس القتل بالاولى وقيل ان المهلك بمعنى الاهلاك قرئ مهلك بفتح الميم واللام وبكسر اللام (وانا لصادقون) فيما قلناه من انكارنا لقتلهـم قال الزجاج وكان هؤلاء النفر تحالفوا ان يبيتوا صالحا وأهله ثم ينكروا عنـد

واصل بن السائب حدثني أبو سورة بن أخي أبي أيوب عن أبي أيوب قال قلت يارسول الله هذا السلام فما الاستئناس قال يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة وتحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت هذا حديث غريب وقال قتادة في قوله حتى تستأنسوا هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع اما الاولى فليسمع الحي واما الثانية فيأخذوا حذرهم واما الثالثة فان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فان الناس حاجات ولهم اشغال والله أولى بالعذر وقال مقاتل بن حيان في قوله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها كان الرجل في الجاهلية اذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم وكان أحدهم ينطلق الى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول قد دخلت ونحو ذلك فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها الآية وهذا الذي قاله مقاتل حسن ولهذا قال تعالى ذلكم خير لكم يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولاهل البيت لعلكم تذكرون وقوله تعالى فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير اذنه فان شاء اذن وان شاء لم يأذن وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم اى اذا ردوكم من الباب قبل الاذن او بعده فارجعوا هو أزكى لكم اى رجوعكم ازكى لكم وأطهر والله بما تعملون عليم وقال قتادة قال بعض المهاجرين لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما ادركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع فارجع وانا مغتبط فان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم وقال سعيد بن جبير في الآية اى لا تقفوا على أبواب الناس وقوله تعالى ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة الآية هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها وذلك انها تقتضي جواز الدخول الى البيوت التي ليس فيها احد اذا كان له متاع فيها بغير اذن كالبيت المعد للضيف اذا اذن له فيه اول مرة كفى قال ابن جريج قال ابن عباس لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم ثم نسخ واستثنى فقال تعالى ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم وكذا روي عن عكرمة والحسن البصري وقال آخرون هي بيوت التجار كالخانات ومنازل الاسفار وبيوت مكة وغير ذلك واختار

اوليائه انهم ما فعلوا ذلك ولا رأوه وكان هذا مكرا منهم ولهذا قال الله سبحانه (ومكروا) بهذه المحالفة (مكرا) وهو ما اخفوه من تدبير الفتك بصالح (ومكرنا مكرا) اى جازيناهم بفعلهم فأهلكناهم (وهم لا يشعرون) بمكر الله بهم وهذا على سبيل الاستعارة المنضمة الى المشاكلة كما في الكشاف وشروحه يعني تشبيه الله بالمكر من حيث كونه اضرارا في خفية لان المكر قصد الاضرار على طريق الغدر والحيلة (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) اى انظر ما انتهى اليه امرهم الذي بنوه على المكر وما اصابهم بسببه (انا دمرناهم وقومهم اجمعين) بفتح همزة انا وقرئ بكسرها وهما سبعيتان قال الفراء والزجاج من كسر استأنف وهو يفسر به ما كان قبله كأنه جعله تابعا للعاقبة كأنه قال العاقبة انا دمرناهم وعلى قراءة الفتح التقدير بانا أو لانا وكان تامة وعاقبة فاعل لها أو يكون بدلا من عاقبة أو يكون خبر مبتدا محذوف أي هي انا دمرناهم وفي حرف أبي ان دمرناهم والمعنى ان الله دمر التسعة الرهط المذكورين بالرمي ودمر قومهم الذين لم يكونوا معهم عند مباشرتهم لذلك بصيحة جبريل عليه السلام وأجمعين تأكيد لكل من المعطوف والمعطوف عليه ومعناه انه لم يشذ منهم احد ولا سلم من العقوبة فرد من افرادهم وجملة (فتلك بيوتهم خاوية) مقررة لما قبلها أى حال كونها خاوية قال الفراء والنحاس أى خالية عن اهلها خراب ليس بها ساكن من خوى البطن اذا اخلا أو ساقطة متهدمة من خوى النجم اذا سقط وقيل الاصل تلك بيوتهم الخاوية كقوله وله الدين واصبا (بما ظلموا) اى بسبب ظلمهم (ان في ذلك) التدمير والاهلاك (لآية) اى لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) اى يتصفون بالعلم بالاشياء (وانجينا الذين آمنوا) وهم صالح ومن آمن به (وكانوا يتقون) الله ويخافون عقابه وخرج صالح ومن معه من المؤمنين الى حضرموت فلما دخلها مات صالح فسمي حضرموت قال الضحاك ثم بنى الاربعة آلاف الذين كانوا معه مدينة يقال لها حاضوراء (و) ارسلنا (لوطا اذ قال لقومه) هم أهل سذوم (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية في القبح والشناعة وهي اتيان الذكور واللواط (وأنتم تبصرون) أى وأنتم تعلمون علما يقينيا انها فاحشة وقبيحة وذلك أعظم لذنوبكم على ان تبصرون من بصر القلب وهو العلم أو بمعنى النظر لانهم كانوا لا يستترون حال فعل الفاحشة عتوا وتمردا والجملة حالية مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ وقد تقدم تفسير هذه

القصة

ذلك ابن جرير وحكاه عن جماعة والاول اظهر والله اعلم وقال مالك عن زيد بن اسلم هي بيوت الشعر (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون) هذا امر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم فلا ينظروا الا الى ما أباح لهم النظر اليه وان يغضوا أبصارهم عن المحارم فان اتفق ان وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا كما رواه مسلم في صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عن جده عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال سألت النبي (٧٧) صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فامرني ان أصرف بصري وكذا رواه الامام احمد عن هشيم عن يونس ابن عبيد به ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديثه أيضا وقال الترمذي حسن صحيح وفي رواية لبعضهم فقال اطرق بصرك يعني انظر الى الارض والصرف أعم فانه قد يكون الى الارض والى جهة اخرى والله اعلم وقال ابو داود حدثنا اسمعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن ابي ربيعة الايدي عن عبد الله بن بريدة عن ابيه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليس لك الآخرة ورواه الترمذي من حديث شريك وقال غريب لا نعرفه الا من حديثه وفي الصحيح عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نقعد فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابيتم فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يارسول الله قال غض البصر وكف الاذى ورد السلام والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقال أبو القاسم البغوي حدثنا طالوت بن عباد حدثنا فضل بن جبير سمعت ابا امامة يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا لي ستا اكفل لكم بالجنة اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا اوتمن فلا يخن واذا وعد فلا يخلف وغضوا ابصاركم وكفوا ايديكم واحفظوا فروجكم وفي صحيح البخاري من يكفل لي ما بين لحييه وما بين رجليه اكفل له الجنة وقال عبد الرزاق انبأنا معمر عن ايوب عن ابن سيرين عن عبيدة قال كل ما عصي الله به فهو كبيرة وقد ذكر الطرفين فقال قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ولما كان النظر داعية الى فساد القلب كما قال بعض السلف النظر سهم سم الى القلب ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الابصار التي هي بواعث الى

القصة في الاعراف مستوفى (أئنكم لتأتون الرجال) فيه تكرير للتوبيخ مع التصريح بان تلك الفاحشة هي اللواطة التي أبهمها أولا وفيه اشارة الى ان فعلتهم هذه مما يعيي الواصف ولا يبلغ كنه قبحها ولا يصدق ذو عقل ان أحدا يفعلها ثم علل ذلك بقوله (شهوة) تنزيلا لهم الى رتبة البهائم التي ليس فيها قصد ولد ولا عفاف والتقدير للشهوة أو اتيانا شهوة أو مشتهين لهم (من دون النساء) أي متجاوزين النساء اللاتي هن محل لذلك وفيه اشارة الى انهم أساؤا من الطرفين في الفعل والترك (بل أنتم قوم تجهلون) التحريم أو عاقبة فعلكم والعقوبة عليه هذه المعصية قيل أراد بالجهل السفاهة التي كانوا عليها أو تفعلون فعل الجاهلين بقبحه وقد اجتمع الخطاب والغيبة هنا وفي قوله بل أنتم قوم تفتنون فغلب الخطاب على الغيبة لانه أقوى وأرسخ اذ الاصل ان يكون الكلام بين الحاضرين (فما كان جواب قومه الا ان قالوا) أي الا قولهم (أخرجوا آل لوط) أي لوطا وأهله والمراد بهم بناته وزوجته المؤمنة (من قريتكم) فيه امتنان عليه باسكانه عندهم والاضافة للجنس لان قراهم كانت خمسا أعظمها سدوم (انهم أناس يتطهرون) أي يتنزهون ويتباعدون عن أدبار الرجال قالوا ذلك استهزاء منهم بهم (فأنجيناه وأهله) من العذاب الواقع بالقوم فخرج لوط بأهله من أرضهم وطوى الله له الارض حتى نجا ووصل الى ابراهيم (الا امرأته قدرناها) قرئ مخففا ومشددا والمعنى واحد مع دلالة زيادة البناء على زيادة المعنى (من الغابرين) أي الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم) أي على كل من كان منهم خارج المدائن (مطرا) أي حجارة مكتوبا عليها اسم صاحبها وهو حجارة السجيل أي الطين المحرق وهذا التأكيد يدل على شدة المطر وانه غير معهود (فساء مطر المنذرين) أي الذين أنذروا فلم يعقلوا ولم يقبلوا الانذار والمخصوص بالذم محذوف أي مطرهم وقد مضى بيان ذلك كله في الاعراف والشعراء (قل الحمد لله) قال الفراء قال أهل المعاني قيل للوط قل الحمد لله على هلاكهم وخالفه جماعة المفسرين فقالوا ان هذا خطاب لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم أي قل الحمد لله على هلاك كفار الامم الخالية قال النحاس وهذا أولى لان القرآن منزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكل ما فيه فهو مخاطب به الا ما لم يصح معناه الا لغيره وكان هذا صدر خطبة لما يلقى من البراهين الدالة على الوحدانية والعلم والقدرة الآتي ذكرها بقوله أمن خلق الخ قيل والمراد بقوله (وسلام على عباده الذين اصطفى)

أمته صلى الله عليه وآله وسلم والأولى حمله على العموم فيشمل كل المؤمنين من السابقين واللاحقين فيدخل في ذلك الأنبياء وأتباعهم قال ابن عباس هم أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم اصطفاهم الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وروي مثله عن سفيان الثوري والأولى ما قدمناه من التعميم فيدخل في ذلك أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم دخولا أوليا وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال بأن يتبرك بهما ويستظهر بمكانهما (آلله) فيه وجهان يجريان في جميع مواضع في القرآن غير هذا الموضع أحدهما تسهيل الهمزة الثانية مقصورة والثاني أن يبدل لها ألفا ممدودة مدا لازما والمعنى آلله الذي ذكرت أفعاله وصفاته الدالة على عظيم قدرته (خير أما يشركون) به من الأصنام وفيه تبكيت للمشركين وإلزام الحجة عليهم بعد هلاك الكفار وأم هذه متصلة عاطفة لاستكمال شروطها والتقدير أيهما خير وهذه الخيرية ليست بمعناها الأصلي بل هي كقول الشاعر

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

فيكون ما في الآية من باب التهكم بهم إذ لا خير فيهم أصلا وقد حكى سيبويه أن العرب تقول السعادة أحب إليك أم الشقاوة ولا خير في الشقاوة أصلا وقيل المعنى أثواب الله خير أم عقاب ما يشركون به وقيل قال لهم ذلك جريا على اعتقادهم لأنهم كانوا يعتقدون أن في عبادة الأصنام خيرا وقيل المراد من هذا الاستفهام الخبر وقرأ الجمهور تشركون بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية (أمن خلق السموات والأرض) أم هذه هي المنقطعة وقال أبو حاتم تقديره آلهتكم خير أم من خلق السموات والأرض وقدر على خلقهن وقيل المعنى أعبادة ما تعبدون من أوثانكم خير أم عبادة من خلق العالم الجسماني فتكون أم على هذا متصلة وفيها معنى التوبيخ والتهكم كما في الجملة الأولى (وأنزل لكم من السماء ماء) أي نوعا من الماء وهو المطر (فأنبتنا به حدائق) جمع حديقة قال الفراء الحديقة البستان الذي عليه حائط فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان وليس بحديقة وقال قتادة وعكرمة الحدائق النخل (ذات بهجة) أي ذات منظر حسن ورونق والبهجة هي الحسن الذي يبتهج به من رآه ولم يقل ذوات بهجة على الجمع لأن المعنى جماعة حدائق وصرف الكلام عن الغيبة إلى التكلم لتأكيد المعنى اختصاص الفعل

ذلك فقال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى والذين هم لفروجهم حافظون الآية وتارة يكون بحفظه من النظر إليه كما جاء في الحديث في مسند أحمد والسنن احفظ عورتك إلا من زوجتك وما ملكت يمينك ذلك أزكى لهم أي أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته ويروى في قلبه وروى الإمام حدثنا عتاب حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها وروي هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم ولكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب ومثله يتسامح فيه وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم وقال الطبراني حدثنا أحمد بن زهير التستري قال قرأنا على محمد بن حفص بن عمر الضرير المقري حدثنا يحيى بن أبي بكير حدثنا هريم بن سفيان عن عبد الرحمن بن إسحق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه وقوله تعالى إن الله خبير بما يصنعون كما قال تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين [illegible] الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه رواه البخاري تعليقا ومسلم مسندا من وجه آخر بنحو ما تقدم وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا وقال ابن أبي الدنيا حدثنا أبو سعيد المدني حدثنا عمر بن سهل المازني حدثني عمر بن محمد بن صهبان عن صفوان بن سليم عن أبي هريرة رضي الله عنه

بذاته وايذانا بان انبات الحدائق المختلفة الاصناف والالوان والطعوم والاشكال مع سقيها بماء واحد لا يقدر عليه الا هو وحده ثم رشح معنى الاختصاص بقوله (ما كان لكم ان تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة ومعنى هذا النفي الحظر والمنع من فعل هذا أى ما يصح للبشر ولا يتهيأ لهم ذلك ولا يدخل تحت مقدورهم لعجزهم عن اخراج الشئ من العدم الى الوجود وان تأتى ذلك محال من غيره ثم قال سبحانه موبخا لهم ومقرعا (أإله) أى هل معبود (مع الله) الذى تقدم ذكر بعض أفعاله حتى يقرن به ويجعل شريكا له فى العبادة وقرئ الها أى أتدعون الها مع الله والاستفهام للانكار أى ليس معه اله وكذا يقال فى المواضع الاربعة الآتية ثم أضرب عن توبيخهم وتقريعهم بما تقدم وانتقل الى بيان سوء حالهم مع الالتفات من الخطاب الى الغيبة فقال (بل هم قوم يعدلون) بالله غيره أو يعدلون عن الحق الى الباطل و بل هم بعد الخطاب أبلغ فى تخطئة رأيهم ثم شرع فى الاستدلال باحوال الارض وما عليها فقال (أمن جعل الارض قرارا) القرار هو المستقر أى دحاها وسواها وجعلها بحيث يمكن الاستقرار عليها للانسان والدواب باخلاء بعضها من الماء حسبما تدور عليه منافعهم وقيل هذه الجمل وما بعدها من الجمل الثلاث بدل من قوله أمن خلق السموات والارض ولا ملجئ لذلك بل هى وما بعدها اضراب وانتقال من التقريع والتوبيخ بما قبلها الى التوبيخ والتقريع بشئ آخر (وجعل) أى خلق أو صير (خلالها) أى فيما بينها (أنهارا) تطرد بالمياه والخلال الوسط وقد تقدم تحقيقه فى قوله فجرنا خلالهما نهرا (وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت تمسكها وتمنعها من الحركة (وجعل بين البحرين) هما العذب والمالح أى جعل بينهما من قدرته (حاجزا) أى مانعا معنويا وهو المنع الالهى اذ ليس هنالك حاجز حسى كما هو مشاهد فلا يختلط أحدهما بالآخر فلا هذا يغير ذاك ولا ذاك يدخل فى هذا وقد مر بيانه فى سورة الفرقان (أإله مع الله) أى اذا ثبت انه لا يقدر على ذلك الا الله فهل اله فى الوجود يصنع صنعه و يخلق خلقه فكيف يشركون به ما لا يضر ولا ينفع (بل أكثرهم لا يعلمون) توحيد ربهم وسلطان قدرته (أمن يجيب المضطر اذا دعاه) هذا استدلال منه سبحانه بحاجة الانسان اليه على العموم والمضطر اسم مفعول من الاضطرار وهو افتعال من الضرورة وهى الحاجة المحوجة الى اللجا يقال اضطره الى كذا والمضطر هو المكروب المجهود الذى

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عين باكية يوم القيامة الا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت فى سبيل الله وعين يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن و يحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) هذا أمر من الله تعالى للنساء المؤمنات وغيرة منه لازواجهن عباده المؤمنين وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال بلغنا والله أعلم ان جابر بن عبد الله الانصارى حدث ان اسماء بنت مرشدة كانت فى محل لها فى بنى حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت اسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية فقوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن أى عما حرم الله عليهن من النظر الى غير أزواجهن ولهذا ذهب كثير من العلماء الى انه لا يجوز للمرأة النظر الى الرجال الاجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلا واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى من حديث الزهرى عن نبهان مولى أم سلمة انه حدثه ان أم سلمة حدثته انها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وميمونة قالت فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليه وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عميا وان أنتما ألستما تبصرانه ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وذهب آخرون من العلماء الى جواز نظرهن الى الاجانب بغير شهوة كما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينظر الى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد فى المسجد وعائشة أم المؤمنين تنظر اليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت وقوله و يحفظن فروجهن قال سعيد بن جبير عن الفواحش وقال قتادة وسفيان عما لا يحل

لهن وقال مقاتل عن الزنا وقال أبو العالية كل آية نزلت في القرآن يذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا الا هذه الآية ويحفظن فروجهن ان لا يراها أحد وقوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها أي ولا يظهرن شيأ من الزينة للاجانب الا ما لا يمكن اخفاؤه قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعني على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التي تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لان هذا لا يمكنها اخفاؤه ونظيره في زي النساء ما يظهر من ازارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن

مسعود الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وابراهيم النخعي وغيرهم وقال الاعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها قال وجهها وكفيها والخاتم وروي عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء والضحاك وابراهيم النخعي وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل ان يكون تفسيرا للزينة التي نهين عن ابدائها كما قال أبو اسحق السبيعي عن أبي الاحوص عن عبد الله قال في قوله ولا يبدين زينتهن الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة وفي رواية عنه بهذا الاسناد قال الزينة زينتان فزينة لا يراها الا الزوج الخاتم والسوار وزينة يراها الاجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا يحل له الا الاسورة والاخمرة والاقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها الا الخواتم وقال مالك عن الزهري الا ما ظهر منها الخاتم والخلخال ويحتمل ان ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكي ومؤمل بن الفضل الحراني قالا حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة رضي الله عنها ان أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعليها ثياب رقاق فاعرض عنها وقال يا أسماء ان المرأة اذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها الا هذا وأشار الى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل خالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها والله اعلم وقوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن يعني المقانع يعمل لها صنفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فانهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة

مسه الضر ولا حول له ولا قوة وقيل هو المذنب اذا استغفر وقيل هو المظلوم اذا دعا أو من رفع يديه ولم ير لنفسه حسنة غير التوحيد وهو منه على خطر وقيل هو الذي عراه ضر من فقر أو مرض أو نازلة من نوازل الدهر فالجأه الى التضرع الى الله واللام في المضطر للجنس لا للاستغراق فقد لا يجاب دعاء بعض المضطرين لمانع يمنع من ذلك بسبب يحدثه العبد يحول بينه وبين اجابة دعائه والا فقد ضمن الله سبحانه اجابة دعاء المضطر اذا دعاه وأخبر بذلك عن نفسه والوجه في اجابة دعاء المضطر أن ذلك الاضطرار الحاصل له يتسبب عنه الاخلاص وقطع النظر عما سوى الله وقد أخبر الله سبحانه بانه يجيب دعاء المخلصين له الدين وان كانوا كافرين فقال حتى اذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا انهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين وقال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون فاجابهم عند ضرورتهم واخلاصهم مع علمه بانهم سيعودون الى شركهم (ويكشف السوء) الذي يسوء العبد من غير تعيين وقيل هو الضر وقيل هو الجور وهذا من عطف العام على الخاص (ويجعلكم خلفاء الارض) أي يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله بعد انقراضهم والمعنى يهلك قرنا وينشئ آخرين وقيل يجعل أولادكم خلفا منكم وقيل جعلكم خلفاء الجن في الارض وقيل يجعل المسلمين خلفا من الكفار ينزلون أرضهم وديارهم (أإله مع الله) الذي يوليكم هذه النعم الجسام (قليلا ما) أي تذكرا قليلا (تذكرون) وما زائدة لتقليل القليل وهو كناية عن العدم بالكلية فالمراد نفي تذكرهم رأسا قال الكرخي المعنى نفي التذكر والقلة تستعمل في معنى النفي قرأ الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية على الخبر ردا على قوله بل أكثرهم لا يعلمون (أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر) أي يرشدكم في الليالي المظلمة اذا سافرتم في البر والبحر الى مقاصدكم وقيل المراد مفاوز البر التي لا أعلام لها ولجج البحار وشبهها بالظلمات لعدم ما يهتدون به فيها وقيل يهديكم بالنجوم ليلا وبعلامات الارض نهارا (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) المراد بالرحمة هنا المطر أي بين يدي المطر وقبل نزوله (أإله مع الله) يفعل ذلك ويوجده (تعالى الله عما يشركون) أي تنزه وتقدس عن وجود ما يجعلونه له شريكا (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) كانوا يقرون بأن الله سبحانه هو الخالق

فالزمهم

فألزمهم الاعادة أي اذا قدر على الابتداء قدر على الاعادة (ومن يرزقكم من السماء والارض) بالمطر والنبات أي أهو خير أم ما تجعلونه شريكا له مما لا يقدر على شيء من ذلك (ءاله مع الله) حتى تجعلوه شريكا له (قل هاتوا برهانكم) أي حجتكم عقلية أو نقلية على أن لله سبحانه شريكا أو هاتوا حجتكم على ان ثم صانعا يصنع كصنعه (ان كنتم صادقين) ان مع الله الها فعل شيأ مما ذكر وفي هذا تبكيت لهم وتهكم بهم وسألوه عن وقت قيام الساعة فنزل (قل لا يعلم من) اي لا يعلم أحد من المخلوقات الكائنة الثابتة الساكنة المستقرة (في السموات والارض) وهم الملائكة والانس (الغيب) الذي استأثر الله بعلمه (الا الله) أي لكن الله يعلم ذلك فالاستثناء منقطع ورفع ما بعد الا على اللغة التميمية كما في قوله * الا اليعافير والا العيس * وقيل لا يعلم غيب من فيهما ولا يعلم الاشياء التي تحدث فيهما الا الله وقيل هو استثناء متصل من من والاول أولى لان الاتصال يقتضي ان الله من جملة من فيهما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة قالت ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية وقالت في آخره ومن زعم انه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول قل لا يعلم الآية (وما يشعرون) أي الكفار (أيان يبعثون) أي متى ينشرون من القبور وأيان مركبة من أي وان وقد تقدم تحقيقه وقرئ ايان بكسر الهمزة وهي لغة بني سليم (بل ادارك) أصله تدارك وقرئ أدرك من الادراك وقرئ بل ادرك بفتح لام بل وتشديد الدال وأدرك على الاستفهام وقرئ بل تدارك باثبات التاء ومعنى الآية بل تكامل (علمهم في الآخرة) لانهم رأوا كل ما وعدوا به وعاينوه وقيل معناه تتابع وتلاحق والقراءة الثانية معناها كمل علمهم في الآخرة مع المعاينة وذلك حين لا ينفعهم العلم لانهم كانوا في الدنيا مكذبين وقال الزجاج انه على معنى الانكار واستدل على ذلك بقوله فيما بعد بل هم منها عمون أي لم يدرك علمهم علم الآخرة وقيل المعنى بل ضل وغاب علمهم في الآخرة فليس لهم فيها علم ومعنى الثالثة كالاولى فافتعل وتفاعل قد يجيئان لمعنى والرابعة هي بمعنى الانكار قال الفراء وهو وجه حسن كانه وجهه الى المكذبين على طريق الاستهزاء بهم وفي الآية قراآت أخر لا ينبغي الاشتغال بذكرها وتوجيهها وعن ابن عباس قال بل ادارك علمهم في الآخرة حين لا ينفع الندم وعنه قال لم يدرك علمهم وعنه انه قرأها بالاستفهام وعنه قال غاب علمهم

بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيآتهن وأحوالهن كما قال تعالى يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وقال في هذه الآية الكريمة وليضربن بخمرهن على جيوبهن والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطى به الرأس وهو التي تسميها الناس المقانع قال سعيد بن جبير وليضربن وليشددن بخمرهن على جيوبهن يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وقال البخاري حدثنا أحمد بن شبيب حدثنا أبي عن يونس عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت يرحم الله نساء المهاجرات الاول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن مروطهن فاختمرن به وقال أيضا حدثنا أبو نعيم حدثنا ابراهيم ابن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة ان عائشة رضي الله عنها كانت تقول لما نزلت هذه الآية وليضربن بخمرهن على جيوبهن أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس حدثني الزنجي بن خالد حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن صفية بنت شيبة قالت بينا نحن عند عائشة قالت فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها ان لنساء قريش لفضلا واني والله ما رأيت أفضل من نساء الانصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا ايمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور وليضربن بخمرهن على جيوبهن انقلب رجالهن اليهن يتلون عليهن ما أنزل اليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته فما منهن امرأة الا قامت الى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وايمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح معتجرات كأن على رؤسهن الغربان ورواه أبو داود من غير وجه عن صفية بنت شيبة به وقال ابن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب ان قرة بن عبد الرحمن أخبره عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة انها قالت يرحم الله النساء المهاجرات الاول لما أنزل الله وليضربن بخمرهن على جيوبهن شققن أكثف مروطهن فاختمرن به ورواه أبو داود من حديث ابن وهب به وقوله تعالى ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أي أزواجهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن

أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن فكل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها ان تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر حدثنا موسى يعني ابن هرون حدثنا أبو بكر يعني ابن أبي شيبة حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا داود عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن حتى فرغ منها وقال لم يذكر العم والخال لانهما ينعتان لابنائهما ولا تضع خمارها عند العم والخال فاما الزوج فانما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره وقوله أو نسائهن يعني تظهر زينتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن وذلك وان كان محذورا في جميع النساء الا انه في نساء أهل الذمة أشد فانهن لا يمنعهن من ذلك مانع فاما المسلمة فانها تعلم ان ذلك حرام فتنزجر عنه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر اليها أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود وروى سعيد بن منصور في سننه حدثنا اسمعيل بن عياش عن هشام ابن الغاز عن عبادة بن نسي عن أبيه عن الحرث بن قيس ان عمر ابن الخطاب كتب الى أبي عبيدة أما بعد فانه بلغني ان نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك فانه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر الى عورتها الا أهل ملتها وقال مجاهد في قوله او نسائهن قال نساؤهن المسلمات ليس المشركات من نسائهن وليس للمرأة المسلمة ان تكشف بين يدي مشركة وروى عبد الله في تفسيره عن الكلبي عن ابي صالح عن ابن عباس اونسائهن قال هن المسلمات لا تبديه اليهودية ولا نصرانية وهو النحر والقرط والوشاح وما يحل ان يراه الا محرم وروى سعيد حدثنا جرير عن ليث عن مجاهد قال لا تضع المسلمة خمارها ولا عند مشركة لان الله تعالى يقول او نسائهن فليست من نسائهن وعن مكحول وعبادة بن انسي انهما كرها ان تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة فاما ما رواه ابن ابي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا ابو عمير حدثنا ضمرة قال قال ابن عطاء عن ابيه قال لما قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المقدس كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات فهذا ان صح محمول على حال الضرورة أو ان ذلك من باب الامتهان ثم انه ليس فيه كشف عورة ولا بد والله أعلم وقوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن قال ابن جريج

(بل هم في شك منها) أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الآخرة ثم اضرب عن ذلك الى ما هو أشر منه فقال (بل هم منها عمون) فلا يدركون شيأ من دلائلها لاختلال بصائرهم التي يكون بها الادراك وعمون جمع عم وهو من كان أعمى القلب والمراد بيان جهلهم بها على وجه لا يهتدون الى شئ مما يوصل الى العلم بها فمن قال ان معنى الآية الاولى انه كمل علمهم وتم مع المعاينة فلا بد من حمل قوله بل هم في شك الخ على ما كانوا عليه في الدنيا ومن قال ان معنى الآية الاولى الاستهزاء بهم والتبكيت لهم لم يحتج الى تقييد قوله بل هم في شك الخ بما كانوا عليه في الدنيا وبهذا يتضح معنى هذه الآيات ويظهر ظهورا بينا والاضرابات الثلاث تنزيل لاحوالهم وتكرير لجهلهم ولما ذكر سبحانه أن المشركين في شك من البعث وانهم عمون عن النظر في دلائله أراد أن يبين غاية شبهتهم وهي مجرد استبعاد احياء الموتى بعد صيرورتهم ترابا فقال (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) المعنى انهم استنكروا واستبعدوا أن يخرجوا من قبورهم أحياء بعد ان قد صاروا ترابا ثم أكدوا ذلك الاستبعاد بما هو تكذيب للبعث فقالوا (لقد وعدنا هذا) يعنون البعث (نحن وآباؤنا من قبل) أي من قبل وعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم لنا وقد مرت الدهور على هذا الوعد ولم يقع منه شئ فذلك دليل على أنه لا حقيقة له والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير الانكار مصدرة بالقسم لزيادة التقرير (ان هذا) الوعد بالبعث (الا أساطير الاولين) أي أحاديثهم وأكاذيبهم الملفقة التي كتبوها ولا حقيقة لها وقد تقدم تحقيق معنى الاساطير في سورة المؤمنين ثم أوعدهم سبحانه على عدم قبول ما جاءت به الانبياء من الاخبار بالبعث فأمرهم بالنظر في أحوال الامم السابقة المكذبة للانبياء وما عوقبوا به وكيف كانت عاقبتهم فقال (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) المكذبين بما جاءت به الانبياء على نبينا وعليهم الصلاة والسلام من الاخبار بالبعث ومعنى النظر هو مشاهدة آثارهم بالبصر فان في المشاهدة زيادة اعتبار وكفاية لاولي الابصار وقيل المعنى فانظروا بقلوبكم وبصائركم كيف كان عاقبة المكذبين لرسلهم والاول أولى لامرهم بالسير في الارض وفيه تهديد لهم على التكذيب وتخويف بأن ينزل بهم مثل ما نزل بالمكذبين قبلهم (ولا تحزن عليهم) الحزن سببه اما فوت أمر في الماضي أو توقع مكروه في المستقبل أي لا تحزن على عدم ايمان المستهزئين فيما مضى

يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها وإليه ذهب سعيد بن المسيب وقال الأكثرون بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود حدثنا محمد بن عيسى حدثنا أبو جميع سالم بن دينار عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ما تلقى قال إنه ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه في ترجمة خديج

الحمصي مولى معاوية أن عبد الله بن مسعدة الفزاري كان أسود شديد الأدمة وأنه قد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهبه لابنته فاطمة فربته ثم أعتقته ثم قد كان بعد ذلك كله برز مع معاوية أيام صفين وكان من أشد الناس على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروى الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن نبهان عن أم سلمة ذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا كان لإحداكن مكاتب وكان له ما يؤدي فلتحتجب منه ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان وقوله تعالى أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال يعني كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء وهم مع ذلك في عقولهم وله ولا همم لهم إلى النساء ولا يشتهونهن قال ابن عباس هو المغفل الذي لا شهوة له وقال مجاهد هو الأبله وقال عكرمة هو المخنث الذي لا يقوم ذكره وكذلك قال غير واحد من السلف وفي الصحيح من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينعت امرأة يقول إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع وإذا أدبرت أدبرت بثمان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم فأخرجه فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة ليستطعم وروى الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة أنها قالت دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندها عبد الله بن أبي أمية والمخنث يقول يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا فعليك بابنة غيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال فسمعه

ولا تغتم وتهتم بمكرهم في المستقبل وهو معنى قوله (ولا تكن في ضيق مما يمكرون) الضيق الحرج يقال ضاق الشيء ضيقا بالفتح وضيقا بالكسر قرئ بهما وهما لغتان قال ابن السكيت يقال في صدر فلان ضيق وضيق وهو ما يضيق عنه الصدور وقرئ لا تكن بثبوت النون هنا على الأصل وقد حذفت من هذا المضارع في القرآن في عشرين موضعا تسعة منها مبدوءة بالتاء وثمانية بالياء واثنان بالنون وواحد بالهمزة وهو قوله ولم أك بغيا وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة النحل (ويقولون متى هذا الوعد) بالعذاب الذي تعدنا (إن كنتم صادقين) في ذلك خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين (قل عسى أن يكون ردف لكم) يقال ردفت الرجل وأردفته إذا ركبت خلفه وردفه إذا اتبعه وجاء في أثره قال ابن شجرة معنى ردف لكم تبعكم قال ومنه ردف المرأة لأنه تبع لها من خلفها قال الجوهري وأردفه لغة في ردفه مثل تبعه وأتبعه قال الفراء ردف لكم دنا لكم ولهذا قيل لكم وقرئ ردف بفتح الدال وهي لغة والكسر أشهر وقرأ ابن عباس أزف لكم وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بمدخولها وإنما يطلقونها إظهارا للوقار وإشعارا بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك يجري الله وعيده قاله أبو السعود والمعنى قل يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لهؤلاء الكفار عسى أن يكون هذا العذاب الذي به توعدون تبعكم ولحقكم فتكون اللام زائدة للتأكيد أو بمعنى اقترب لكم ودنا منكم قاله ابن عباس فتكون غير زائدة (بعض الذي تستعجلون) من العذاب أي حلوله قيل هو عذابهم بالقتل يوم بدر وقيل هو عذاب القبر ثم ذكر سبحانه فضله فقال (وإن ربك لذو فضل على الناس) في تأخير العقوبة والأولى أن تحمل الآية على العموم ويكون تأخير العقوبة من جملة أفضاله سبحانه وإنعامه (ولكن أكثرهم لا يشكرون) فضله وإنعامه ولا يعرفون حق إحسانه ثم بين سبحانه أنه مطلع على ما في صدورهم فقال (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أي ما تخفيه فليس التأخير لخفاء حالهم عليه قرئ بضم التاء من أكن وبفتحها وضم الكاف يقال كننته بمعنى سترته وأخفيت أثره (وما يعلنون) من أقوالهم وأفعالهم ويظهرونها وقال ابن عباس يعلم ما عملوا بالليل والنهار (وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين) أي في اللوح المحفوظ والغائبة هي من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كراوية

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لام سلمة لا يدخلن هذا عليك أخرجاه في الصحيحين عن هشام بن عروة به وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رجل يدخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم مخنث وكانوا يعدونه من غير أولي الاربة فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وهو عند بعض نسائه وهو ينعت امرأة فقال انها اذا أقبلت أقبلت بأربع واذا أدبرت أدبرت بثمان فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكم هذا فحجبوه ورواه مسلم وأبو داود من طريق (٨٤) عبد الرزاق به عن أم سلمة وقوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن فاذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء فأما ان كان مراهقا أو قريبا منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ويفرق بين الشوهاء والحسناء فلا يمكن من الدخول على النساء وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اياكم والدخول على النساء قيل يا رسول الله أفرأيت الحمو قال الحمو الموت وقوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن الآية كانت المرأة في الجاهلية اذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الارض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك وكذلك اذا كان شيء من زينتها مستورا فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي دخل في هذا النهي لقوله تعالى ولا يضربن بأرجلهن الى آخره ومن ذلك انها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن ثابت بن عمارة الحنفي عن غنيم بن قيس عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كل عين زانية والمرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية قال وفي الباب عن أبي هريرة وهذا حسن صحيح ورواه أبو داود والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به وقال أبو داود حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن عاصم بن عبيد الله عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لقيته امرأة شم منها ريح الطيب

وعلامة وقيل هي الداخلة على المصادر نحو العافية والعاقبة قال الزمخشري ونظيرها الذبيحة والنطيحة والرمية في أنها أسماء غير صفات قال الحسن الغائبة هنا هي القيامة وقال مقاتل علم ما يستعجلون من العذاب هو مبين عند الله وان غاب عن الخلق وقال ابن شجرة الغائبة هنا جميع ما أخفى الله عن خلقه وغيبه عنهم مبين في أم الكتاب فكيف يخفى عليه شيء من ذلك ومن جملة ذلك ما يستعجلون من العذاب فانه موقت بوقت مؤجل أجل علمه عند الله فكيف يستعجلونه قبل أجله المضروب له وقال ابن عباس ما من شيء في السماء والارض سرا وعلانية الا يعلمه (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل) الموجودين في زمان نبينا بالتصريح والتنصيص ولذا خص الاكثر بالذكر فقال (أكثر الذي هم فيه يختلفون) من التشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير ومسيح وذلك لان أهل الكتاب تفرقوا فرقا وتحزبوا أحزابا يطعن بعضهم على بعض ويتبرأ بعضهم من بعض فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه من الحق فلو أخذوا به لوجدوا فيه ما يرفع اختلافهم ويدفع تفرقهم (وانه لهدى) من الضلالة (ورحمة) من العذاب (للمؤمنين) أي لمن آمن بالله وتابع رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وخصهم لانهم هم المنتفعون به ومن جملتهم من آمن من بني اسرائيل (ان ربك يقضي بينهم) كغيرهم يوم القيامة (بحكمه) أي يقضي بالعدل بين المختلفين من بني اسرائيل فيحكم به من أحق فيجازي المحق ويعاقب المبطل فلا يمكن أحدا مخالفته كما خالف الكفار في الدنيا أنبياءه ورسله وقيل يقضي بينهم في الدنيا فيظهر ما حرفوه وقرئ بحكمه بضم الحاء وسكون الكاف وبكسرها وفتح الكاف جمع حكمة والحكم بمعنى العدل والحق والمحكوم به (وهو العزيز) الذي لا يغالب (العليم) بما يحكم به أو الكثير العلم ثم أمره سبحانه بالتوكل وقلة المبالاة فقال (فتوكل على الله) الفاء لترتيب الامر على ما تقدم ذكره لان هذه الاوصاف توجب على كل أحد أن يفوض جميع أموره اليه والمعنى فوض اليه أمرك واعتمد عليه فانه ناصرك ثم علل ذلك بعلتين الاولى قوله (انك على الحق المبين) أي الظاهر وقيل المظهر وهو الدين الواضح الذي لا يتعلق به شك وفيه بيان ان صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله وبنصرته وتأييده وحفظه له والعلة الثانية قوله (انك لا تسمع الموتى) أي موتى القلوب وهم الكفار وفيه قطع طمعه عن متابعتهم ومعاضدتهم رأسا (ولا تسمع الصم الدعاء) لانه اذا علم ان حالهم

ولذيلها اعصار فقال يا أمة الجبار جئت من المسجد قالت نعم قال لها تطيبت قالت نعم قال اني سمعت حبي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة ورواه ابن ماجه عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن سفيان هو ابن عيينة به وروى الترمذي أيضا من حديث موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد عن ميمونة بنت سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الرافلة في الزينة في غير أهلها كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها ومن ذلك أيضا انهن نهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج قال أبو داود حدثنا القعنبي حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد

عن أبي اليمان عن شداد بن أبي عمرو بن حماس عن أبيه عن حمزة بن أبي أسيد الانصاري عن أبيه انه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء استأخرن فانه ليس لكن ان تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى ان ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به وقوله تعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون أي افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة والاخلاق الجليلة واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الاخلاق والصفات الرذيلة فان الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهيا عنه والله تعالى هو المستعان (وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم واماءكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) اشتملت هذه الآيات الكريمة المبينة على جمل من الاحكام المحكمة والاوامر المبرمة فقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم الى آخره هذا أمر بالتزويج وقد ذهب طائفة من العلماء الى وجوبه على كل من قدر عليه واحتجوا بظاهر قوله عليه

حالهم كحال الموتى في انتفاء الجدوى بالسماع أو كحال الصم الذين لا يسمعون ولا يفهمون ولا يهتدون صار ذلك سياقو يا في عدم الاعتداد بهم شبه الكفار بالموتى الذين لا حس لهم ولا عقل و بالصم الذين لا يسمعون المواعظ ولا يجيبون الدعاء الى الله وقرئ تسمع بضم الفوقية وكسر الميم من أسمع وقرئ بالتحتية مفتوحة وفتح الميم وفاعله الصم ثم ذكر سبحانه جملة لتكميل التشبيه وتأكيده فقال (اذا ولوا مدبرين) أي أعرضوا عن الحق اعراضا تاما فان الاصم لا يسمع الدعاء اذا كان مقبلا فكيف اذا كان مدبرا معرضا عنه موليا قال قتادة الاصم اذا ولى مدبرا ثم ناديته لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى اليه من الايمان وظاهر نفي سماع الموتى العموم فلا يخص منه الا ما ورد بدليل كما ثبت في الصحيح انه صلى الله عليه وآله وسلم خاطب القتلى في قليب بدر فقيل له يا رسول الله انما تكلم أجسادا لا أرواح لها وكذلك ما ورد من أن الميت يسمع خفق نعال المشيعين له اذا انصرفوا ثم ضرب العمى مثلا لهم فقال (وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم) أي ما أنت بمرشد من أعماه الله عن الحق ارشادا يوصله الى المطلوب منه وهو الايمان وليس في وسعك ذلك ومثله قوله انك لا تهدي من أحببت قرأ الجمهور باضافة هادي الى العمى وقرئ بالتنوين وقرئ تهدي فعلا مضارعا وفي حرف عبد الله وما ان تهدي العمى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا) أي من يصدق بالقرآن في علم الله لا من يكفر (فهم مسلمون) تعليل للايمان أي فهم منقادون مخلصون بتوحيد الله ثم هدد العباد بذكر طرف من اشراط الساعة وأهوالها فقال (واذا وقع القول عليهم) اختلف في معنى هذا الوقوع فقال قتادة وجب الغضب عليهم وقال مجاهد حق القول عليهم بانهم لا يؤمنون وقيل حق العذاب عليهم وقيل وجب السخط والمعاني متقاربة وقيل المراد بالقول ما نطق به القرآن من مجيء الساعة وما فيها من فنون الاهوال التي كانوا يستعجلونها وقيل وقع القول بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن وذلك اذا لم يأمروا بالمعروف و ينهوا عن المنكر قاله ابن عمر وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا وعن أبي العالية انه فسر وقع القول بما أوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن والحاصل ان المراد بوقع وجب و بالقول مضمونه أو أطلق المصدر على المفعول أي المقول وجواب الشرط قوله (أخرجنا لهم دابة من الارض) اختلف في هذه الدابة على أقوال فقيل انها فصيل ناقة صالح يخرج عند اقتراب

السلام يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء أخرجاه في الصحيحين من حديث ابن مسعود وجاء في السنن من غير وجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تزوجوا الولود تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة وفي رواية حتى بالسقط والأيامى جمع أيم ويقال ذلك للمرأة التي لا زوج لها وللرجل الذي لا زوجة له وسواء كان قد تزوج ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما حكاه الجوهري عن أهل اللغة يقال رجل أيم وامرأة أيم وقوله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رغبهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ووعدهم عليه الغنى فقال إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمود بن خالد الأزرق حدثنا عمر بن عبد الواحد عن سعيد يعني ابن عبد العزيز قال بلغني أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى قال تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله وعن ابن مسعود التمسوا الغنى في النكاح يقول الله تعالى إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله رواه ابن جرير وذكر البغوي عن عمر نحوه وعن الليث عن محمد بن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقد زوج النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ولم يقدر على خاتم من حديد ومع هذا فزوجه تلك المرأة وجعل صداقها عليه أن يعلمها ما معه من القرآن والمعهود من كرم الله تعالى ولطفه أن يرزقه ما فيه كفاية لها وله وأما ما يورده كثير من الناس على أنه حديث تزوجوا فقراء يغنكم الله فلا أصل له ولم أره بإسناد قوي ولا ضعيف إلى الآن وفي القرآن غنية عنه وكذا هذه الأحاديث التي أوردناها ولله الحمد والمنة وقوله تعالى وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجا بالتعفف عن الحرام كما قال صلى الله عليه وسلم يا معشر الشباب من استطاع منكم

الساعة ويكون من أشراطها وقيل هي دابة جزعة ذات شعر وقوائم طوال يقال لها الجساسة وبه قال ابن عمرو وفي التعبير عنها باسم الجنس وتأكيد إبهامه بالتنوين التفخيمي من الدلالة على غرابة شأنها وخروج أوصافها عن طور البيان ما لا يخفى وقيل هي دابة على خلقة بني آدم رأسها في السحاب وقوائمها في الأرض وقيل رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصل ومفصل اثنا عشر ذراعا ولعل ذلك هو الجساسة وقيل هي الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة والمراد أنها هي التي تخرج في آخر الزمان وقيل هي دابة ما لها ذنب ولها لحية وقيل هي إنسان ناطق متكلم يناظر أهل البدع ويراجع الكفار وفيه بعد وعن ابن عباس قال الدابة ذات وبر وريش مؤلفة فيها من كل لون لها أربع قوائم تخرج بعقب من الحاج وقيل غير ذلك مما لا فائدة في التطويل بذكره وقد رجح القول الأول القرطبي في تفسيره وقال هو أصح الأقوال واختلف في تعيينها ووصفها اختلافا كثيرا قد ذكرناه في كتاب الذكرة انتهى واختلف من أي موضع تخرج فقيل من جبل الصفا بمكة يتصدع فتخرج منه قاله ابن عمرو وقيل تخرج من جبل أبي قبيس وقيل لها ثلاث خرجات خرجة في بعض البوادي حتى يتقاتل عليها الناس ويكثر الدماء ثم تكمن وتخرج في القرى ثم تخرج من أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها وقيل تخرج من بين الركن والمقام وقال ابن عباس تخرج من بعض أودية تهامة وقيل من مسجد الكوفة من حيث فار التنور وقيل من أرض الطائف وقيل من صخرة من شعب أجياد قاله ابن عمرو وقيل من صدع في الكعبة وقيل من بحر سدوم قاله وهب بن منبه واختلف في معنى قوله (تكلمهم) فقيل تكلم الموحدين ببطلان الأديان سوى دين الإسلام وقيل تكلمهم بما يسوءهم وقيل تكلمهم بالعربية بقوله تعالى الآتي أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون قاله ابن عباس أي بخروجها لأن خروجها من الآيات وقال ابن عباس أيضا تكلمهم تحدثهم وعنه أنه سئل هو من الكلام باللسان أو من الكلم وهو الجرح فقال كل ذلك والله تفعل تكلم المؤمن وتكلم الكافر أي تجرحه قرأ الجمهور تكلمهم من التكليم وتدل عليه قراءة أبي تنبئهم وقرئ بفتح

الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء الحديث وهذه الآية مطلقة والتي في سورة النساء أخص منها وهي قوله ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات الى قوله وأن تصبروا خير لكم أي صبركم عن تزويج الاماء خير لكم لان الولد يجيء رقيقا والله غفور رحيم قال عكرمة في قوله وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا قال هو الرجل يرى المرأة فكأنه يشتهي فان كانت له امرأة فليذهب اليها وليقض حاجته منها وان لم يكن له امرأة فلينظر في ملكوت السموات والارض حتى يغنيه الله وقوله تعالى والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا هذا أمر من الله تعالى للسادة اذا طلب عبيدهم منهم الكتابة ان يكاتبوهم بشرط ان يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي الى سيده المال الذي شارطه على أدائه وقد ذهب كثير من العلماء الى ان هذا الامر أمر ارشاد واستحباب لا أمر تحتم وايجاب بل السيد مخير اذا طلب منه عبده المكاتبة ان شاء كاتبه وان شاء لم يكاتبه قال الثوري عن جابر عن الشعبي ان شاء كاتبه وان شاء لم يكاتبه وكذا روى ابن وهب عن اسمعيل بن عياش عن رجل عن عطاء بن أبي رباح ان يشأ يكاتبه وان لم يشأ لم يكاتبه وكذا قال مقاتل ابن حيان والحسن البصري وذهب آخرون الى انه يجب على السيد اذا طلب منه عبده ذلك ان يجيبه الى ما طلب اخذا بظاهر هذا الامر وقال البخاري وقال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب علي اذا علمت له مالا ان أكاتبه قال ما أراه الا واجبا وقال عمرو بن دينار قلت لعطاء أتأثره عن احد قال لا ثم أخبرني ان موسى ابن أنس أخبره ان سيرين سأل انسا المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق الى عمر رضي الله عنه فقال كاتبه فأبى فضربه بالدرة ويتلو عمر رضي الله عنه فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا فكاتبه هكذا ذكره البخاري معلقا ورواه عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء أواجب علي اذا علمت له مالا أن أكاتبه قال ما أراه الا واجبا وقال ابن جريج حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن بكر حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس بن مالك ان سيرين أراد ان يكاتبه فتلكأ عليه فقال له عمر لتكاتبنه اسناد صحيح وروى سعيد بن منصور حدثنا هشيم بن جويبر عن الضحاك قال هي عزمة وهذا هو القول القديم من قولي الشافعي وذهب في الجديد

الفوقية وسكون الكاف من الكلم وهو الجرح قال عكرمة أي تسمهم وسما وقيل تجرحهم وقيل قراءة الجمهور مأخوذة من الكلم وهو الجرح والتشديد للتكثير قاله أبو حاتم وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عمر في الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس ذلك حديثا ولا كلاما ولكنها سمة تسم من أمرها الله به فيكون خروجها من الصفا ليلة منى فيصبحون بين رأسها وذنبها لا يدحض داحض ولا يجرح جارح حتى اذا فرغت مما أمرها الله به فهلك من هلك ونجا من نجا كان أول خطوة تضعها بأنطاكية وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال تخرج الدابة فتسم على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل الدابة فيقال له ممن اشتريتها فيقول من الرجل المخطم وعن حذيفة بن أسيد رفعه قال تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تخرج دابة الارض ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالخاتم وتخطم أنف الكافر بالعصى حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدابة فقال لها ثلاث خرجات من الدهر الحديث أخرجه البيهقي والحاكم وصححه وابن المنذر وغيرهم وفي صفتها ومكان خروجها وما تصنعه ومتى تخرج أحاديث كثيرة بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف وأما كونها تخرج وكونها من علامات الساعة فالاحاديث الواردة في ذلك صحيحة ومنها ما هو ثابت في الصحيح كحديث حذيفة مرفوعا لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات وذكر منها الدابة فانه في صحيح مسلم وفي السنن الاربع وكحديث بادروا بالاعمال طلوع الشمس من مغربها والدجال والدابة فانه في صحيح مسلم أيضا من حديث أبي هريرة مرفوعا وكحديث ابن عمر مرفوعا ان أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى فانه في صحيح مسلم أيضا ثم قرأ الجمهور (ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) بكسر ان على الاستئناف وقرئ بفتحها قال الاخفش المعنى على الفتح بأن الناس وبها قرأ ابن مسعود وقال أبو عبيدة أي تخبرهم أن الناس الخ وعلى هذه فالذي تكلم الناس به هو قوله ان الناس الخ كما قدمنا الاشارة الى ذلك وأما على الكسر

الى انه لايجب لقوله عليه السلام لايحل مال امرئ مسلم الابطيب نفس وقال ابن وهب قال مالك الامر عندنا انه ليس على سيد العبد ان يكاتبه اذا ساله ذلك ولم اسمع احدا من الائمة أكره احدا على ان يكاتب عبده قال مالك وانما ذلك أمر من الله تعالى واذن منه للناس وليس بواجب وكذا قال الثوري وابو حنيفة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهم واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية وقوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا قال بعضهم أمانة وقال بعضهم صدقا وقال بعضهم مالا وقال بعضهم حيلة وكسبا وروى أبو داود فى المراسيل عن يحيى بن أبى كثير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا قال ان علمتم فيهم حرفة ولاترسلوهم كلا على الناس وقوله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم أطرحوا لهم من الكتابة بعضها ثم قال بعضهم مقدار الربع وقيل الثلث وقيل النصف وقيل جزء من الكتابة من غير حد وقال آخرون بل المراد من قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكاة وهذا قول الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وابيه ومقاتل ابن حيان واختاره ابن جرير وقال ابراهيم النخعى فى قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم قال حث الناس عليه مولاه وغيره وكذا قال بريدة بن الحصيب الاسلمى وقتادة وقال ابن عباس أمر الله المؤمنين ان يعينوا فى الرقاب وقد تقدم فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ثلاثة حق على الله عونهم فذكر منهم المكاتب يريد الاداء والقول الاول أشهر وقال ابن ابى حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنا وكيع عن ابن شبيب عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر انه كاتب عبدا له يكنى أبا أمية فجاء بنجمه حين حل فقال يا أبا أمية اذهب فاستعن به فى مكاتبتك فقال يا امير المؤمنين لو تركته حتى يكون من آخر نجم قال اخاف ان لا ادرك ذلك ثم قرأ فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم قال عكرمة فكان اول نجم ادى فى الاسلام وروى ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا هرون بن المغيرة عن عنبسة عن سالم الافطس عن سعيد ابن جبير قال كان ابن عمر اذا كاتب مكاتبا لم يضع عنه شيأ من اول نجومه مخافة ان يعجز فترجع اليه صدقته ولكنه اذا كان فى

فالجملة مستأنفة كما قدمنا ولا يكون من كلام الدابة وقد صرح بذلك جماعة من المفسرين وجزم به الكسائى والفراء وقال الاخفش ان كسر ان هو على تقدير القول أى تقول لهم ان الناس فيرجع معنى القراءة الاولى على هذا الى معنى الثانية والمراد بالناس فى الآية هم الناس على العموم فيدخل فى ذلك كل مكلف وقيل المراد الكفار خاصة وقيل كفار مكة والاول أولى كما صنع جمهور المفسرين والمعنى لا يؤمنون بالقرآن المشتمل على البعث والحساب والعقاب وبخروجها ينقطع الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولا يبقى نائب ولا تائب ولا يؤمن كافر كما أوحى الله الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ثم ذكر سبحانه طرفا مجملا من أهوال يوم القيامة بعد بيان مبادئها فقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) العامل فى الظرف فعل محذوف خوطب به النبى صلى الله عليه وآله وسلم والحشر الجمع قيل والمراد بهذا الحشر هو حشر العذاب الخاص بعد الحشر الكلى الشامل لجميع الخلق ومن لابتداء الغاية والفوج الجماعة كالزمرة والقوم وقيدهم الراغب فقال الفوج الجماعة المارة المسرعة وكان هذا هو الاصل ثم أطلق وان لم يكن مرور ولا اسراع والجمع أفواج وفوج (ممن يكذب بآياتنا) من بيانية (فهم يوزعون) أى يحبس أولهم على آخرهم لاجل تلاحقهم وقيل معناه يدفعون وقد تقدم تحقيقه فى هذه السورة مستوفى ومعنى الآية واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة من الامم جماعة مكذبين بآياتنا فهم عند ذلك الحشر يرد أولهم على آخرهم أو يدفعون أى اذكر لهم هذا وبينه تحذيرا لهم وترهيبا (حتى اذا جاؤا) الى موقف الحساب (قال) الله لهم توبيخا وتقريعا (أكذبتم بآياتى) التى أنزلتها على رسلى وأمرتهم بابلاغها اليكم (و) الحال انكم (لم تحيطوا بها علما) بل كذبتم بها بادئ بدء جاهلين لها غير ناظرين فيها ولا مستدلين على صحتها أو بطلانها تمردا وعنادا وجرأة على الله وعلى رسله وفى هذا مزيد تقريع وتوبيخ لان من كذب بشئ ولم يحط به علما فقد كذب فى تكذيبه ونادى على نفسه بالجهل وعدم الانصاف وسوء الفهم وقصور الادراك ومن هذا القبيل من تصدى لذم علم من علوم الشريعة أو لذم علم هو مقدمة من مقدماتها ووسيلة يتوسل بها اليها وتفيد زيادة بصيرة فى معرفتها وتعقل معانيها كعلوم اللغة العربية بأسرها وهى اثنا عشر علما وعلم أصول الفقه فانه يتوصل به الى استنباط الاحكام الشرعية عن أدلتها التفصيلية

آخر مكاتبته وضع عنه ما أحب وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وآتوهم من مال الله الذي آتاكم قال ضعوا عنهم يعني من مكاتبتهم وكذا قال مجاهد وعطاء والقاسم بن أبي مرة وعبد الكريم بن مالك الجزري والسدي وقال محمد بن سيرين في الآية كان يعجبهم ان يدع الرجل لمكاتبه طائفة من مكاتبته وقال ابن أبي حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان المقرى أخبرنا ابراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف عن ابن جريج أخبرني عطاء بن السائب ان عبد الله بن جندب أخبره عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ربع الكتابة وهذا حديث غريب ورفعه منكر والاشبه انه موقوف (٨٩) على علي رضي الله عنه كما رواه أبو عبد الرحمن السلمي رحمه الله وقوله تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية كان أهل الجاهلية اذا كان لاحدهم أمة أرسلها تزني وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت فلما جاء الاسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك وكان سبب نزول هذه الآية فيما ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول فانه كان له اماء فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن ورغبة في أولادهن ورياسة منه فيما يزعم

* ذكر الآثار الواردة في ذلك *

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار رحمه الله في مسنده حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن اسحق عن الزهري قال كانت جارية لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الاسلام نزلت ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية وقال الاعمش عن أبي سفيان عن جابر في هذه الآية قال نزلت في أمة لعبد الله بن أبي ابن سلول يقال لها مسيكة كان يكرهها على الفجور وكانت

(١٢ - فتح البيان سابع) لا بأس بها فتأبى فأنزل الله هذه الآية ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الى قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم وروى النسائي من حديث ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر نحوه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا عمرو بن علي حدثنا علي بن سعيد حدثنا الاعمش حدثني أبو سفيان عن جابر قال كان لعبد الله بن أبي بن سلول جارية يقال لها مسيكة وكان يكرهها على البغاء فأنزل الله ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الى قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم صرح الاعمش بالسماع عن أبي سفيان طلحة بن نافع فدل على بطلان قول من قال لم يسمع منه انما هو صحيفة حكاه البزار وروى أبو داود الطيالسي عن سليمان بن معاذ عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس ان جارية لعبد الله بن أبي كانت تزني في الجاهلية فولدت

مع اشتماله على بيان قواعد اللغة العربية وهكذا كل علم من العلوم التي لها مزيد نفع في فهم كتاب الله وسنة رسوله فانه قد نادى على نفسه بأنه جاهل مجادل بالباطل طاعن على العلوم الشرعية مستحق لان تنزل به قارعة من قوارع العقوبة التي تزجره عن جهله وضلاله وطعنه على ما لا يعرفه ولا يعلم به ولا يحيط بكنهه حتى يصير عبرة لغيره وموعظة يتعظ بها أمثاله من ضعفاء العقول وركاك الاديان ورعاع المتلبسين بالعلم زورا وكذبا (أم ماذا) أم هي المنقطعة بمعنى بل والمعنى أي شئ (كنتم تعملون) حتى شغلكم ذلك عن النظر فيها والتفكر في معانيها وهذا الاستفهام على طريق التبكيت لهم (ووقع القول) أي وجب العذاب (عليهم) وقد تقدم تفسيره قريبا (بما ظلموا) أي بسبب الظلم الذي أعظم انواعه الشرك بالله (فهم لا ينطقون) عند وقوع القول عليهم أي ليس لهم عذر ينطقون به او لا يقدرون على القول لما يرونه من الهول العظيم وقال أكثر المفسرين يختم على أفواههم فلا ينطقون ثم بعد ان خوفهم باهوال القيامة ذكر سبحانه ما يصلح ان يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة في الارشاد وابلاء للمعذرة فقال (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) أي ألم يعلموا انا خلقنا الليل للسكون والاستقرار والنوم فيه وذلك بسبب ما فيه من الظلمة فانهم لا يسعون فيه للمعاش (و) خلقنا (النهار مبصرا) ليبصروا فيه ما يسعون له من المعاش الذي لا بد لهم منه ووصف النهار بالابصار وهو وصف الناس مبالغة في اضاءته كأنه يبصر ما فيه ففي الكلام اسناد عقلي من الاسناد الى الزمان قيل في الكلام حذف والتقدير وجعلنا الليل مظلما ليسكنوا وحذف مظلما لدلالة مبصرا عليه وقد تقدم تحقيقه في الاسراء وفي يونس (ان في ذلك) المذكور (لآيات) أي لعلامات ودلالات (لقوم يؤمنون) بالله سبحانه وفي الآية دليل على صحة البعث بعد الموت لان القادر على تقليب الضياء ظلمة والظلمة ضياء قادر على الاعادة بعد الموت كيف ومن تأمل في تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه مبنية على حكم تحار في فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله وشاهد في الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهي للحياة وعاين في نفسه تبدل النوم الذي هو أخو الموت بالتيقظ الذي هو مثل الحياة قضى بان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور وجزم بان الله قد جعل هذا انموذجا وادلا ليستدل به على ان

أولادا من الزنا فقال لهما مالك لا تزنين قالت والله لا أزني فضربها فأنزل الله عز وجل ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء الآية وروى البزار أيضا حدثنا أحمد بن داود الواسطي حدثنا أبو عمرو اللخمي يعني محمد بن الحجاج حدثنا محمد بن إسحق عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال كانت جارية لعبد الله بن أبي يقال لها معاذة يكرهها على الزنا فلما جاء الإسلام نزلت ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا الى ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري أن رجلا من قريش أسر يوم بدر وكان عبد الله بن أبي أسيرا وكانت لعبد الله (٩٠) بن أبي جارية يقال لها معاذة وكان القرشي الأسير يريدها على نفسها وكانت مسلمة وكانت تمتنع منه لإسلامها وكان عبد الله بن أبي يكرهها على ذلك ويضربها رجاء أن تحمل للقرشي فيطلب فداء ولده فقال تبارك وتعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا وقال السدي أنزلت هذه الآية الكريمة في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين وكانت له جارية تدعى معاذة وكان إذا نزل به ضيف أرسلها اليه ليواقعها إرادة الثواب منه والكرامة له فأقبلت الجارية الى أبي بكر رضي الله عنه فشكت اليه ذلك فذكره أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فأمره بقبضها فصاح عبد الله بن أبي من يعذرنا من محمد يغلبنا على مملوكتنا فأنزل الله فيهم هذا وقال مقاتل بن حيان بلغني والله أعلم أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا يكرهان أمتين لهما أحدهما اسمها مسيكة وكانت للأنصار (١) وكانت أميمة أم مسيكة لعبد الله بن أبي وكانت معاذة وأروى بتلك المنزلة فأتت مسيكة وأمها النبي صلى الله عليه وسلم فذكرتا ذلك له فأنزل الله في ذلك ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء يعني الزنا وقوله تعالى إن أردن تحصنا هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له وقوله تعالى لتبتغوا عرض الحياة الدنيا أي من خراجهن ومهورهن وأولادهن وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن وفي رواية مهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث وثمن الكلب خبيث وقوله تعالى ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم أي لهن كما تقدم في الحديث عن جابر وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم وإثمهن على من أكرههن وكذا قال مجاهد وعطاء الخراساني والأعمش وقتادة وقال أبو عبيد حدثني إسحق الأزرق عن عوف عن الحسن في هذه

سائر الآيات حتى نازل من عند الله قاله أبو السعود ثم ذكر سبحانه علامة أخرى للقيامة فقال (ويوم ينفخ في الصور) وهو معطوف على ويوم نحشر منصوب بناصبه المتقدم قال الفراء إن المعنى وذلكم يوم ينفخ في الصور والأول أولى والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل وقد تقدم في الأنعام استيفاء الكلام عليه والنفخات في الصور ثلاث الأولى نفخة الفزع والثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة البعث وقيل إنها نفختان وإن نفخة الفزع إما أن تكون راجعة الى نفخة الصعق أو الى نفخة البعث واختار هذا القشيري والقرطبي وغيرهما وقال الماوردي هذه النفخة المذكورة هنا هي يوم النشور من القبور (ففزع) كل (من) كان (في السموات ومن) كان (في الأرض) حيا ذلك الوقت لم يسبق له موت أو كان ميتا لكنه حي في قبره كالأنبياء والشهداء أي خافوا الخوف المفضي بهم الى الموت كما في آية أخرى فصعق من في السموات الخ والمراد بجو الشدة ما سمعوا وقيل المراد بالفزع هنا الإسراع والإجابة الى النداء من قولهم فزعت اليك في كذا إذا أسرعت الى إجابته والأول أولى بمعنى الآية وإنما عبر بالماضي مع كونه معطوفا على المضارع للدلالة على تحقق الوقوع حسبما ذكره علماء البيان وقال الفراء هو محمول على المعنى لأن المعنى إذا نفخ (إلا من شاء الله) أن لا يفزع عند تلك النفخة فهو لا يفزع واختلف في تعيين من وقع الاستثناء له فقيل هم الشهداء والأنبياء وقيل الملائكة وقيل جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وقيل الحور العين وخزنة النار وحملة العرش وقيل هم المؤمنون كافة بدليل قوله فيما بعد من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ويمكن أن يكون الاستثناء شاملا لجميع المذكورين فلا مانع من ذلك قال البيضاوي ولعل المراد ما يعم ذلك لعدم قرينة الخصوص انتهى فهؤلاء كلهم لا يفضي بهم الفزع الى الغشي والإغماء بل هو أقل من ذلك (وكل أتوه) قرئ فعلا ماضيا وكذا قرأ ابن مسعود وقرأ قتادة كل أتاه وقرئ آتوه على اسم الفاعل مضافا الى الضمير الراجع الى الله سبحانه قال الزجاج من قرأ على الفعل الماضي فقد وحد على لفظ كل ومن قرأ على اسم الفاعل فقد جمع على معناه وهو غلط ظاهر فإن كلتا القراءتين لا توحيد فيهما بل التوحيد في قراءة قتادة فقط (داخرين) أي صاغرين ذليلين قاله ابن عباس وقرئ دخرين بغير الألف والمعنى صغار ذل وهيبة من الجبار فيشمل هذا الطائعين والعاصين وقال الكرخي المراد به ذل العبودية

---

(١) قوله وكانت أميمة الخ كذا بالنسخ التي بأيدينا وحرر اه

الآية فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم قال لهن والله لهن والله وعن الزهري قال غفور لهن ما أكرهن عليه وعن زيد بن أسلم قال غفور رحيم للمكرهات حكاهن ابن المنذر في تفسيره بأسانيده وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيي بن عبد الله حدثني ابن لهيعة حدثني عطاء عن سعيد بن جبير قال في قراءة عبد الله بن مسعود فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم لهن وانمهن على من أكرههن وفي الحديث المرفوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ولما فصل تبارك وتعالى هذه الاحكام وبينها قال تعالى ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات يعني القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم أي خبرا عن الامم الماضية وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى كما قال تعالى فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين أي زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم للمتقين أي لمن اتقى الله وخافه قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الله نور السموات والارض يقول هادي أهل السموات والارض قال ابن جريج قال مجاهد وابن عباس في قوله الله نور السموات والارض يدبر الامر فيهما نجومهما وشمسهما وقمرهما وقال ابن جرير حدثنا سليمان بن عمر بن خالد الرقي حدثنا وهب بن راشد عن فرقد عن أنس بن مالك قال ان الله يقول نوري هدى واختار هذا القول ابن جرير وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره قال هو المؤمن الذي جعل الله الايمان والقرآن في صدره فضرب الله مثله فقال الله نور السموات والارض فبدأ بنور نفسه ثم ذكر نور المؤمن فقال مثل نور من آمن به قال فكان أبي بن كعب يقرأها مثل نور من آمن به فهو المؤمن جعل الايمان والقرآن في صدره وهكذا رواه سعيد بن جبير وقيس بن سعد عن ابن عباس انه قرأها

والرق لاذل الذنوب والمعاصي وذلك يعم الخلق كلهم كما في قوله تعالى ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا وفي القاموس دخر الشخص كمنع وفرح دخرا ودخورا صغر وذل وادخرته بالالف للتعدية وقد مضى تفسير هذا في سورة النحل (وترى الجبال تحسبها) بفتح السين وكسرها (جامدة) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح للرؤية والرؤية بصرية وهذه هي العلامة الثالثة لقيام الساعة والمعنى تظنها واقفة قائمة ساكنة مكانها قاله ابن عباس (وهي تمر مر السحاب) أي وهي تسير سيرا حثيثا كسير السحاب التي تسيرها الرياح وذلك ان كل شيء عظيم وكل جسم كبير وكل جمع كثير يقصر عنه البصر لكثرته وعظمه وبعد ما بين أطرافه فهو في حساب الناظر واقف وهو سائر كذلك سير الجبال يوم القيامة لا يرى لعظمها كما ان سير السحاب لا يرى لعظمه وقال القتيبي وذلك ان الجبال تجمع وتسير وهي في رؤية العين كالقائمة وهي تسير قال النسفي وهكذا الاجرام العظام المتكاثرة العدد اذا تحركت أي في سمت واحد لا تكاد تبين حركتها ونحوه قال البيضاوي قال القشيري وهذا يوم القيامة ومثله قوله تعالى وسيرت الجبال فكانت سرابا وقال أبو السعود هذا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله الارض غير الارض ويغير هيئتها ويسير الجبال عن مقارها على ما ذكر من الهيئة الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهي وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها انما يكون بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله فقل ينسفها ربي نسفا الخ وقوله يوم تبدل الارض وقد قيل ان المراد بالنفخة هي النفخة الاولى والفزع هو الذي يستتبع الموت فيختص أثرها بمن كان حيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم والمراد بالاتيان داخرين رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب في ان ذلك مما ينبغي ان تنزه ساحة التنزيل عن أمثاله وأبعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التي تكون قبل نفخة الصعق فانه مما لا ارتباط له بالمقام قطعا والحق الذي لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص في الباب ما سيأتي من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله الذي أتقن كل شيء) أي صنع الله ذلك صنعا وهو مصدر مؤكد لقوله ويوم ينفخ في الصور وقيل انظروا صنع الله الذي احكم يقال رجل تقن بكسر التاء أي حاذق بالاشياء والاتقان الاتيان بالشيء على أكمل حالاته وهو مأخوذ من قولهم تقن أرضه اذا ساق اليها الماء الخاثر بالطين لتصلح للزراعة وأرض

كذلك نور من آمن بالله وقرأ بعضهم الله نوّر السموات والارض وعن الضحاك الله نور السموات والارض وقال السدي في قوله الله نور السموات والارض فبنوره أضاءت السموات والارض وفي الحديث الذي رواه محمد بن اسحق في السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل بي غضبك أو ينزل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بالله وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام من الليل يقول اللهم (٩٢) لك الحمد أنت نور السموات والارض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيوم السموات والارض ومن فيهن الحديث وعن ابن مسعود قال ان ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور العرش من نور وجهه وقوله تعالى مثل نوره في هذا الضمير قولان أحدهما انه عائد الى الله عز وجل أي مثل هداه في قلب المؤمن قاله ابن عباس كمشكاة والثاني ان الضمير عائد الى المؤمن الذي دل عليه سياق الكلام تقديره مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه كما قال تعالى أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه فشبه قلب المؤمن في صفائه في نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهري وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافي المشرق المعتدل الذي لا كدر فيه ولا انحراف فقوله كمشكاة قال ابن عباس ومجاهد ومحمد بن كعب وغير واحد هو موضع الفتيلة من القنديل هذا هو المشهور ولهذا قال بعده فيها مصباح وهو الذبالة التي تضيء وقال العوفي عن ابن عباس قوله الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح وذلك أن اليهود قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم كيف يخلص نور الله من دون السماء فضرب الله مثل ذلك لنوره فقال تعالى الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة والمشكاة كوة البيت قال وهو مثل ضربه الله لطاعته فسمى الله طاعته نورا ثم سماها أنواعا شتى وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هي الكوة بلغة الحبشة وزاد بعضهم فقال المشكاة الكوة التي لا منفذ لها وعن مجاهد المشكاة الحدائد التي يعلق بها القنديل والقول الاول أولى وهو ان المشكاة هو موضع الفتيلة من القنديل ولهذا قال فيها مصباح وهو النور الذي في الذبالة قال أبي بن كعب المصباح النور وهو

صنعه والمعنى فعل ذلك صنعا والمعنى [illegible] من ذلك أو الارض ذكره [illegible] قال ابن عباس أتقن أي أحسن كل شيء صنعه وخلقه وأوثقه (انه خبير بما تفعلون) تعليل لما قبله من كونه سبحانه صنع ما صنع وأتقن كل شيء والخبير المطلع على الظواهر والضمائر وقرئ بالفوقية على الخطاب وبالتحتية على الخبر قال أبو علي أي بما تفعلون أعداؤه من المعصية وأولياؤه من الطاعة (من جاء بالحسنة) أي من جاء بخصلة من خصال الحسنة يوم القيامة (فله) من الجزاء والثواب عند الله (خير) أي أفضل (منها) وأكثر وقيل خير حاصل من جهتها والاول أولى وقيل الحسنة هي الاخلاص وقيل أداء الفرائض والتعميم أولى ولا وجه للتخصيص وان قال به بعض السلف وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة فله خير منها قال هي لا اله الا الله ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار قال هي الشرك واذا صح هذا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالمصير اليه في التفسير متعين ويحمل على ان المراد قال لا اله الا الله مخلصا وما يجب لها فيدخل تحت ذلك كل طاعة ويشهد له ما أخرجه الحاكم في الكنى عن صفوان بن عسال قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان يوم القيامة جاء الايمان والشرك يجثوان بين يدي الله سبحانه فيقول الله للايمان انطلق أنت وأهلك الى الجنة ويقول للشرك انطلق أنت وأهلك الى النار ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة فله خير منها يعني قول لا اله الا الله ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جاء بالحسنة يعني شهادة أن لا اله الا الله فله خير منها يعني بالخير الجنة ومن جاء بالسيئة يعني الشرك فكبت وجوههم في النار وقال هذه تنجي وهذه تردي وعن ابن مسعود وابن عباس مثله وعنه قال خير منها أي من جهتها وقال [illegible] قيل وشدة الجزاء بيان لقوله انه عليم بما تفعلون وقيل بيان لقوله وكل أتوه داخرين (وهم من فزع يومئذ آمنون) قرئ من فزع بالتنوين وفتح ميم يومئذ وقرئ بعضها من غير تنوين وقرئ باضافة فزع الى يومئذ قال أبو عبيدة وهذا أعجب الي لانه أعم التأويلين لان معناه الامن من فزع جميع ذلك اليوم ومع التنوين يكون الامن من فزع دون فزع وقيل

القرآن والايمان الذى فى صدره وقال السدى هو السراج المصباح فى زجاجة أى هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية وقال أبى ابن كعب وغير واحد وهى نظير قلب المؤمن الزجاجة كأنها كوكب درى قرأ بعضهم بضم الدال من غير همزة من الدر أى كأنها كوكب من در وقرأ آخرون درىء ودرىء بكسر الدال وضمها مع الهمزة من الدرء وهو الدفع وذلك ان النجم اذا رمى به يكون أشد استنارة من سائر الاحوال والعرب تسمى ما لا يعرف من الكواكب درارى قال أبى بن كعب كوكب مضىء وقال قتادة مضىء مبين ضخم يوقد من شجرة مباركة أى يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة زيتونة بدل أو عطف بيان لا شرقية ولا غربية أى ليست فى شرق بقعتها فلا تصل اليها الشمس من أول النهار ولا فى غربها فيقلص عنها الفىء قبل الغروب بل هى فى مكان وسط يقصرها الشمس من أول النهار الى آخره فيجىء زيتها صافيا معتدلا مشرقا وروى ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار قال حدثنا عبد الرحمن ابن عبد الله بن سعد أخبرنا عمر بن أبى قيس عن سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله زيتونة لا شرقية ولا غربية قال هى شجرة بالصحراء لا يظلها شجر ولا جبل ولا كهف ولا يواريها شىء وهو أجود لزيتها وقال يحيى بن سعيد القطان عن عمران بن جرير عن عكرمة فى قوله تعالى لا شرقية ولا غربية قال هى بصحراء وذلك أصفى لزيتها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عمرو بن فروخ عن حبيب بن الزبير عن عكرمة وسأله رجل عن قوله تعالى زيتونة لا شرقية ولا غربية قال تلك زيتونة بأرض فلاة اذا أشرقت الشمس أشرقت عليها فاذا غربت غربت عليها فذلك أصفى ما يكون من الزيت وقال مجاهد فى قوله تعالى لا شرقية ولا غربية قال ليست بشرقية لا تصيبها الشمس اذا طلعت ولا غربية لا تصيبها الشمس اذا غربت بل تصيبها اذا طلعت واذا غربت وعن سعيد بن جبير فى قوله زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء قال هو أجود الزيت قال اذا طلعت الشمس أصابتها من صوب المشرق فاذا أخذت فى الغروب أصابتها الشمس فالشمس تصيبها بالغداة والعشى فتلك لا تعد شرقية ولا غربية وقال السدى قوله زيتونة لا شرقية ولا غربية يقول ليست بشرقية يحوزها المشرق ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ولكنها على رأس جبل أو فى صحراء تصيبها الشمس النهار كله

انه مصدر يتناول الكثير فلا يتم الترجيح بما ذكر فتكون القراءتان بمعنى واحد وقيل المراد بالفزع ههنا هو الفزع الاكبر المذكور فى قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر وقد تقدم فى سورة هود كلام فى هذا مستوفى (ومن جاء بالسيئة) قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم حتى قيل انه مجمع عليه بين أهل التأويل ان المراد بالسيئة هنا الشرك ووجه التخصيص قوله (فكبت وجوههم فى النار) فهذا الجزاء لا يكون الا لمثل سيئة الشرك والمعنى انهم كبوا فيها على وجوههم وألقوا فيها وطرحوا عليها يقال كببت الرجل اذا ألقيته لوجهه فانكب وأكب وذكرت الوجوه لانها موضع الشرف من الحواس فغيرها أولى (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) بتقدير القول أى يقال لهم ذلك وقت كبهم أو مقولا لهم ذلك وهذا أوضح والقائل لهم خزنة جهنم أى ما تجزون الا جزاء عملكم فى الدنيا من الشرك والمعاصى (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة) لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدا والمعاد أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقول لهم هذه المقالة تنبيها لهم على انه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا أصلحوا أو أفسدوا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بأمر أنفسهم ويشتغلوا بالتدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والمعنى قل يا محمد انما أمرت أن أخص الله بالعبادة وحده لا شريك له والمراد بالبلدة مكة قاله ابن عباس وانما خصها من بين سائر البلاد لكون بيت الله الحرام فيها ولكونها أحب البلاد الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (الذى) الموصول صفة للرب وهكذا قرأ الجمهور وقرأ ابن عباس وابن مسعود التى على ان الموصول صفة للبلدة والسياق انما هو للرب لا للبلدة فلذلك كانت قراءة العامة واصحة ومعنى (حرمها) جعلها حرما آمنا لا يسفك فيها دم ولا يظلم فيها أحد ولا يعضد شوكها ولا يصاد صيدها ولا يختلى خلاها وتخصيص مكة بهذه الاضافة تشريف لها وتعظيم لشأنها فلا ينافى قوله (وله) أى للرب (كل شىء) من الاشياء خلقا وملكا وتصرفا (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى المنقادين لامر الله المستسلمين له بالطاعة وامتثال أمره واجتناب نهيه والمراد بقوله أن أكون أن اثبت على ما أنا عليه (وأن أتلو القرآن) أى أداوم تلاوته وأواظب على ذلك لتنكشف لى حقائقه الرائقة المخزونة فى تضاعيفه شيأ فشيأ قيل ليس المراد من تلاوة القرآن هنا الا تلاوة الدعوة الى الايمان والاول أولى قرأ الجمهور ان

وقيل المراد بقوله تعالى لا شرقية ولا غربية انها في وسط الشجر ليست بادية للمشرق ولا للمغرب قال أبو جعفر الرازي عن الربيع ابن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قول الله تعالى زيتونة لا شرقية ولا غربية قال هي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس على أي حال كانت لا اذا طلعت ولا اذا غربت قال وكذلك هذا المؤمن قد أجير من أن يصيبه شيء من الفتن وقد يبتلى بها فيثبته الله فيها فهو بين أربع خلال ان قال صدق وان حكم عدل وان ابتلي صبر وان أعطي شكر فهو في سائر الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الاموات قال ابن أبي حاتم

حدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد قال حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير في قوله زيتونة لا شرقية ولا غربية قال هي وسط الشجر لا تصيبها الشمس شرقا ولا غربا قال عطية العوفي لا شرقية ولا غربية قال هي شجرة في موضع من الشجر يرى ظل ثمرها في ورقها وهذه من الشجر لا تطلع عليها الشمس ولا تغرب وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن الدشتكي حدثنا عمرو بن أبي قيس عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى لا شرقية ولا غربية ليست شرقية ليس فيها شرق ولا غربية ليس فيها غرب ولكنها شرقية غربية وقال محمد بن كعب القرظي لا شرقية ولا غربية قال هي القبلية وقال زيد بن أسلم لا شرقية ولا غربية قال الشام وقال الحسن البصري لو كانت هذه شجرة في الارض لكانت شرقية أو غربية ولكنه مثل ضربه الله تعالى لنوره وقال الضحاك عن ابن عباس توقد من شجرة مباركة قال رجل صالح زيتونة لا شرقية ولا غربية قال لا يهودي ولا نصراني وأولى هذه الاقوال القول الاول وانها في مستوى من الارض في مكان فسيح باد ظاهر ضاح للشمس ولا تقرعه من أول النهار الى آخره ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف كما قال غير واحد ممن تقدم ولهذا قال تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني لضوء اشراق الزيت وقوله تعالى نور على نور قال العوفي عن ابن عباس يعني بذلك ايمان العبد وعمله وقال مجاهد والسدي يعني نور النار ونور الزيت وقال أبي بن كعب نور على نور فهو يتقلب في خمسة من النور فكلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى نور يوم القيامة الى الجنة وقال شمر بن عطية جاء ابن عباس الى كعب الاحبار فقال

أتلو بآيات القرآن من التلاوة وهي القراءة أو من التلو وهو الاتباع كقوله واتبع ما أوحي اليك من ربك وقرئ وان اتل بحذف الواو أمرا له صلى الله عليه وآله وسلم كذا وجهه الفراء قال النحاس ولا نعرف هذه القراءة وهي مخالفة لجميع المصاحف ولقد قام صلى الله عليه وآله وسلم بكل ما أمر به أتم قيام على ما أمر به (فمن اهتدى) أي على العموم أو من اهتدى بما أتلوه عليه فعمل بما فيه من الايمان بالله والعمل بشرائعه (فانما يهتدى لنفسه) لان نفع ذلك راجع اليه لا الي (ومن ضل) بالكفر وأعرض عن الهداية (فقل) له (انما أنا من المنذرين) وقد فعلت الانذار بالابلاغ وذلك اليكم وليس علي غير ذلك وقيل الجواب محذوف أي فوباله عليه وأقيم انما أنا من المنذرين مقامه لكونه كالعلة له والاول أظهر قيل نسختها آية القتال (وقل الحمد لله) على نعمه التي أنعم بها علي من النبوة والعلم وغير ذلك ووفقني لتحمل أعبائها وتبليغ أحكامها الى كافة الورى وقوله (سيريكم آياته) هو من جملة ما أمر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله أي سيريكم الله آياته الباهرة التي نطق بها القرآن في أنفسكم وفي غيركم قيل هو يوم بدر وهو ما أراهم من القتل والسبي وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم وقيل آياته في السموات والارض وقيل آياته في الآخرة فيستيقنون بها وقيل هو انشقاق القمر والدخان وما حل بهم من نقمات الله في الدنيا (فتعرفونها) أي تعرفون آياته ودلائل قدرته ووحدانيته وهذه المعرفة لا تنفع الكفار لانهم عرفوها حين لا يقبل منهم الايمان وذلك عند حضور الموت ثم ختم السورة بقوله (وما ربك بغافل عما تعملون) قرئ بالفوقية على الخطاب وبالتحتية وهو كلام من جهته سبحانه غير داخل تحت الكلام الذي أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يقوله وفيه ترهيب شديد وتهديد عظيم

(سورة القصص وتسمى أيضا سورة موسى وأسماء السور توقيفية وكذا ترتيبها وترتيب الآيات الكريمات)

وهي ثمان وثمانون آية وهي مكية كلها في قول الحسن وعكرمة وعطاء قال المحلي هي مكية الا ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد نزلت بالجحفة والا الذين آتيناهم الكتاب الى لا نبتغي الجاهلين انتهى عن ابن عباس نزلت الاولى بالجحفة فليست مكية

حدثني عن قول الله تعالى يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار قال يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ولو لم يتكلم انه نبي كما يكاد ذلك
الزيت أنه يضيء وقال السدي في قوله تعالى نور على نور قال نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءت أولا يضيء واحد بغير صاحبه
كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا فلا يكن أحدهما الا بصاحبه وقوله تعالى يهدي الله لنوره من يشاء أي يرشد الله الى
هدايته من يختاره كما جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا ابراهيم بن محمد الفزاري حدثنا الاوزاعي
حدثني ربيعة بن يزيد عن عبد الله الديلمي عن عبد الله بن عمرو سمعت رسول الله (٩٥) صلى الله عليه وسلم يقول ان الله تعالى خلق خلقه
في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره يومئذ فمن
أصاب من نوره يومئذ اهتدى ومن
أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم
على علم الله عز وجل طريق أخرى
عنه قال البزار حدثنا أيوب عن
سويد عن يحيى بن أبي كثير الشيباني
عن أبيه عن عبد الله بن عمرو سمعت
رسول صلى الله عليه وسلم يقول
ان الله خلق خلقه في ظلمة فألقى
عليهم نورا من نوره فمن أصابه من
ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل
ورواه البزار عن عبد الله بن عمرو
من طريق آخر بلفظه وحروفه
وقوله تعالى ويضرب الله الامثال
للناس والله بكل شيء عليم لما ذكر
تعالى هذا مثلا لنور هداه في قلب
المؤمن ختم الآية بقوله ويضرب
الله الامثال للناس والله بكل شيء
عليم أي هو أعلم بمن يستحق الهداية
ممن يستحق الاضلال قال الامام
أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا
أبو معاوية حدثنا شيبان عن ليث
عن عمرو بن مرة عن أبي البختري
عن أبي سعيد الخدري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم
القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل
السراج يزهر وقلب أغلف مربوط
على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الاجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره وأما القلب الاغلف فقلب الكافر وأما
القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه ايمان ونفاق ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء
الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح فأي المدتين غلبت على الاخرى غلبت عليه اسناده جيد ولم يخرجوه (في
بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة
وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير

ولا مدنية وقال مقاتل فيها من المدني الذي آتيناهم الخ

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) الله أعلم بمراده بذلك والكلام في فاتحة هذه السورة قدمر في فاتحة الشعراء
وغيرها فلا نعيده وكذلك مر الكلام على قوله (تلك آيات الكتاب المبين) قال الزجاج
مبين الحق من الباطل والحلال من الحرام وهو من أبان بمعنى أظهر ويقال أبنته فأبان
لازم ومتعد أي مبين خيره وبركته (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون)
أي نوحي اليك بواسطة جبريل من أمرهما متلبسا بالحق وخص المؤمنين لان التلاوة
انما ينتفع بها المؤمن وقيل نتلو عليك شيأ من نبئهما ومن مزيدة على رأي الاخفش
والاولى أن تكون للبيان أو للتبعيض ولا ملجئ الى الحكم بزيادتها والحق الصدق (ان
فرعون علا في الارض) مستأنفة مسوقة لبيان ما أجمله من النبا قال المفسرون معنى
علا تكبر وتعظم وتجبر بسلطانه والمراد بالارض أرض مصر وقيل معنى علا ادعى الربوبية
وقيل علا عن عبادة ربه (وجعل أهلها شيعا) أي فرقا وأصنافا في خدمته يشايعونه على
ما يريد ويطيعونه قال مجاهد فرق بينهم وقال قتادة يستعبد طائفة منهم ويدع طائفة
ويقتل طائفة ويستحيي طائفة أو فرقا متفرقة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا
تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) مستأنفة مسوقة لبيان حال الاهل الذين جعلهم
فرقا وأصنافا ويجوز أن تكون حالا من فاعل جعل أي جعلهم شيعا حال كونه مستضعفا
طائفة منهم ويجوز أن تكون صفة لطائفة والطائفة هم بنو اسرائيل فانهم عجزوا
وضعفوا عن دفعه عن أنفسهم وذلك ان بني اسرائيل لما كثروا وعصوا استطالوا على
الناس وعملوا المعاصي ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر فسلط الله عليهم القبط
فاستضعفوهم الى أن أنجاهم الله على يد موسى عليه السلام (يذبح أبناءهم ويستحيي
نساءهم) بدل من الجملة الاولى أو مستأنفة للبيان أو حال أو صفة كالتي قبلها وانما كان
فرعون يذبح أبناءهم ويترك نساءهم ويستبقيهن لان المنجمين في ذلك العصر أخبروه
انه يذهب ملكه على يد مولود من بني اسرائيل قال الزجاج والعجب من حمق فرعون فان
الكاهن الذي أخبره بذلك ان كان صادقا عنده فما ينفع القتل وان كان كاذبا فلا معنى

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقد من زيت طيب وذلك كالقنديل مثلاً ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد فقال تعالى في بيوت أذن الله أن ترفع أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية الكريمة في بيوت أذن الله أن ترفع قال نهى الله سبحانه عن اللغو فيها وكذا قال عكرمة وأبو صالح والضحاك ونافع بن جبير وأبو بكر بن سليمان بن أبي حثمة وسفيان بن حسين وغيرهم من العلماء المفسرين وقال قتادة هي هذه المساجد أمر الله سبحانه وتعالى ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها وقد ذكر لنا أن كعباً كان يقول مكتوب في التوراة إن بيوتي في الأرض المساجد وإنه من توضأ فأحسن وضوءه ثم زارني في بيتي أكرمته وحق على المزور كرامة الزائر رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في تفسيره وقد وردت أحاديث كثيرة في بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها وذلك له محل مفرد يذكر فيه وقد كتبت في ذلك جزءاً على حدة ولله الحمد والمنة ونحن بعون الله تعالى نذكر هنا طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى وبه الثقة وعليه التكلان فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة أخرجاه في الصحيحين وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى مسجداً يذكر فيه اسم الله بنى الله له بيتاً في الجنة وللنسائي عن عمرو بن عبسة مثله والأحاديث في هذا كثيرة جداً وعن عائشة رضي الله عنها قالت أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء الله المساجد في الدور وأن تنظف وتطيب رواه أحمد وأهل السنن إلا النسائي ولأحمد وأبي داود عن سمرة بن جندب نحوه وقال البخاري قال عمر ابن للناس ما يكنهم وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس وروى ابن ماجه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ساء عمل قوم قط إلا زخرفوا مساجدهم وفي إسناده ضعف وروى أبو داود عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أمرت بتشييد المساجد قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله

للقتل وقد قيل إنه ذبح سبعين ألفاً (إنه كان من المفسدين) الراسخين في الإفساد في الأرض بالمعاصي والتجبر ولذلك اجترأ على مثل تلك الجريمة العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء عليهم السلام وفيه بيان أن القتل من فعل أهل الفساد (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) جاء بصيغة المضارع لحكاية الحالة الماضية واستحضار صورتها أي نريد أن نتفضل عليهم بإنجائهم من بأسه بعد استضعافهم وقال النسفي وهو دليل لنا على مسألة الأصلح انتهى والمراد بهؤلاء بنو إسرائيل والواو للعطف على جملة إن فرعون علا وهذا أولى (ونجعلهم أئمة) أي قادة في الخير ودعاة إليه يقتدى بهم وولاة على الناس وملوكاً فيهم بعد أن كانوا أتباعاً مسخرين مهانين قال علي بن أبي طالب يعني يوسف وولده وقال قتادة أي ولاة الأمر وهم بنو إسرائيل (ونجعلهم الوارثين) أي الذين يرثون الأرض بعد فرعون وقومه لا الوراثة المعهودة في شرعنا قاله قتادة أي نجعلهم الوارثين لملك فرعون ومساكن القبط وأملاكهم فيكون ملك فرعون فيهم ويسكنون مساكنه ومساكن قومه وينتفعون بأملاكه وأملاكهم (ونمكن لهم في الأرض) أي نجعلهم مقتدرين عليها وعلى أهلها مسلطين على ذلك يتصرفون فيها كيف شاؤا يقال مكن له إذا جعل له مكاناً يقعد عليه أو يرقد ثم استعير للتسلط وإطلاق الأمر والأرض أرض مصر والشام (ونري فرعون وهامان وجنودهما) الفاعل هو الله سبحانه وقرئ يرى بالتحتية والفاعل فرعون والأولى ألصق بالسياق لأن قبله نريد ونمكن بالنون وأجاز الفراء ويري فرعون أي ويري الله فرعون والرؤية بصرية والإضافة إليهما إما للتغليب أو لأنه كان لهامان جنود مخصوصة به وإن كان وزيراً أو لأن جند السلطان جند وزيره والإبصار لا يتوقف على الحياة عند أهل الحق ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم في أهل القليب ما أنتم بأسمع منهم أو المراد رؤية طلائعه وأسبابه وذلك حين أدركهم الغرق (منهم) أي من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) والمعنى أن الله يريهم أو يرون هم الذي كانوا يخافون منه ويجتهدون في دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد المولود من بني إسرائيل المستضعفين والحذر التوقي من الضرر (وأوحينا إلى أم موسى) أي ألهمناها الذي صنعت بموسى قاله ابن عباس وليس ذلك هو الوحي الذي يوحى إلى الرسل وقيل كان ذلك رؤيا في منامها وقيل كان ذلك ملكاً أرسله

الله يعلمها بذلك فعلى هذا هو وحي اعلام لا الهام وقد اجمع العلماء على انها لم تكن نبية وانما كان ارسال الملك اليها عند من قال به على نحو تكلم الملك للاقرع والابرص والاعمى كما في الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما وقد سلمت على عمران بن حصين الملائكة كما في الحديث الثابت في الصحيح فلم يكن بذلك نبيا وكان اسمها يوحانذ وقيل لوخا بنت هاندين لاوى بن يعقوب نقله القرطبي عن الثعلبي (أن أرضعيه) أن هي المفسرة لان في الوحي معنى القول أو بان ارضعيه قيل ارضعته ثمانية أشهر وقيل اربعة وقيل ثلاثة وكانت ترضعه وهو لا يبكي ولا يتحرك في حجرها وكان الوحي برضاعه قبل ولادتها وقيل بعدها وأمرها بارضاعه مع انها ترضعه طبعا ليألف لبنها فلا يقبل ثدي غيرها بعد وقوعه في يد فرعون (فاذا خفت عليه) من فرعون بان يبلغ خبره اليه فيذبحه قال ابن عباس أن يسمع جيرانك صوته (فالقيه في اليم) وهو بحر النيل وقد تقدم بيان الكيفية التي ألقته في اليم عليها في سورة طه (ولا تخافي) عليه الغرق والضيعة (ولا تحزني) لفراقه والخوف غم يصيب الانسان لامر يتوقعه في المستقبل والحزن غم يصيبه لامر وقع ومضى فلا يقال ما الفرق بينهما حتى عطف أحدهما على الآخر في الآية (انا رادوه اليك) عن قريب على وجه تكون به نجاته وتأمنين عليه والجملة تعليل للنهي عن الخوف والحزن (وجاعلوه من المرسلين) الذين نرسلهم الى العباد وقد اشتملت هذه الآية على أمرين أرضعيه والقيه ونهيين لا تخافي ولا تحزني وخبرين انا رادوه وجاعلوه وبشارتين في ضمن الخبرين وهما الرد والجعل المذكوران (فالتقطه آل فرعون) الفاء هي الفصيحة والالتقاط اصابة الشيء من غير طلب والمراد بآل فرعون هم الذين أخذوا التابوت الذي فيه موسى من البحر والتقدير فالقته في اليم بعد ما جعلته في التابوت فالتقطه من وجده من آل فرعون أي اعوانه قال الزجاج كان فرعون من أهل فارس من اصطخر (ليكون لهم عدوا وحزنا) اللام لام العاقبة ووجه ذلك انهم انما أخذوه ليكون لهم ولدا وقرة عين لا ليكون عدوا فكان عاقبة ذلك انه كان لهم عدوا يقتل رجالهم وحزنا يستعبد نساءهم قاله المحلي وقال صاحب الكشاف هي لام كي التي معناها التعليل ولكن هذا المعنى وارد على طريق المجاز لانه لما كانت هذه العداوة نتيجة فعلهم وثمرته شبهت بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لاجله قرئ حزنا بفتح الحاء والزاي وحزنا بضم الحاء وسكون الزاي وهما لغتان كالعدم

صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد. رواه أحمد وأهل السنن الا الترمذي وعن بريدة ان رجلا نشد في المسجد فقال من دعا الى الجمل الاحمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا وجدت انما بنيت المساجد لما بنيت له رواه مسلم وعن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيع والابتياع وعن تناشد الاشعار في المساجد رواه أحمد وأهل السنن وقال الترمذي حسن وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا لا أربح الله تجارتك واذا رأيتم من ينشد ضالة في المسجد فقولوا لا ردها الله عليك رواه الترمذي وقال حسن غريب وقد روى ابن ماجه وغيره من حديث ابن عمر مرفوعا قال خصال لا تنبغي في المسجد لا يتخذ طريقا ولا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل ولا يمر فيه بلحم نيء ولا يضرب فيه حد ولا يقتص فيه أحد ولا يتخذ سوقا وعن واثلة بن الاسقع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جنبوا مساجدنا صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم واتخذوا على أبوابها المطاهر وجمروها في الجمع رواه ابن ماجه أيضا وفي اسنادهما ضعف اما انه لا يتخذ طريقا فقد كره بعض العلماء المرور فيه الا لحاجة اذا وجد مندوحة عنه وفي الآثار الملائكة لتتعجب من الرجل يمر بالمسجد لا يصلي فيه واما انه لا يشهر فيه بسلاح ولا ينبض فيه بقوس ولا ينثر فيه نبل فلما يخشى من اصابة بعض الناس به لكثرة المصلين فيه ولهذا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا مر رجل بسهام أن يقبض على نصالها لئلا يؤذي أحدا كما ثبت ذلك في الصحيح واما النهي عن المرور باللحم النيء فيه فلما يخشى من تقاطر الدم منه كما نهيت الحائض عن المرور فيه اذا خافت التلويث واما انه لا يضرب فيه حد ولا يقتص فلما يخشى من ايجاد النجاسة فيه من المضروب أو المقطوع واما انه لا يتخذ سوقا فلما تقدم من النهي عن البيع والشراء فيه فانه انما بني لذكر الله والصلاة فيه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك الاعرابي الذي بال في طائفة المسجد ان المساجد لم تبن لهذا انما بنيت لذكر الله والصلاة فيها ثم أمر بسجل من ماء فاهريق على بوله وفي الحديث الثاني جنبوا مساجدكم صبيانكم وذلك

لا تمسهم بالقيام ولا نسبهم وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه اذا رأى صبيانا يلعبون في المسجد ضربهم بالمخفقة وهي الدرة وكان يعس المسجد بعد العشاء فلا يترك فيه أحدا ويكره تمكينهم لأجل ضعف عقولهم وحضور الناس بهم فيؤدي الى التعبث فيه وما يأتي من تنفيرهم المسجد وتحويشه ويكره بشرائكم وبيعكم وخصوماتكم وتكبير القضاء والحكم فيه ولهذا نص كثير من العلماء على أنه لا ينتصب الحاكم للقضاء في المسجد بل يكون في موضع غيره لما فيه من كثرة الحكومات والتشاجر والألفاظ التي لا تناسبه وليه (٩١) قال بعده ورفع أصواتكم وقال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا يحيى ابن سعيد حدثنا الجعيد بن عبد الرحمن قال حدثني يزيد بن خصيفة عن السائب بن يزيد الكندي قال كنت قائما في المسجد فحصبني رجل فنظرت فاذا عمر بن الخطاب فقال اذهب فأتني بهذين فجئته بهما فقال من أنتما ومن أين أنتما قالا من أهل الطائف قال لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال النسائي حدثنا سويد بن نصر عن عبد الله ابن المبارك عن شعبة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال سمع عمر صوت رجل في المسجد فقال أتدري أين أنت وهذا أيضا صحيح وقوله واقامة حدودكم وسل سيوفكم تقدم وقوله واتخذوا على أبوابها المطاهر يعني المراحيض التي يستعان بها على الوضوء وقضاء الحاجة وقد كانت قريبا من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم آبار يستقون منها فيشربون ويتطهرون ويتوضؤن وغير ذلك وقوله وجمروها في الجمع يعني بخروها في أيام الجمع لكثرة اجتماع الناس يومئذ وقد قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا عبيد الله حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله ثقة ابن عمر عن نافع عن ابن عمر أن عمر كان يجمر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جمعة اسناده حسن لا بأس به والله أعلم وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفا وذلك أنه اذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج الى المسجد لا يخرجه الا الصلاة لم يخط خطوة الا رفعت له بها درجة وحط عنه بها خطيئة فاذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه اللهم صل عليه اللهم ارحمه ولا يزال في صلاة ما انتظر

ولعدم [illegible] (إن فرعون وهامان وجنودهما) تعليل لما قبله أو اعتراض لقصد التأكيد (كانوا خاطئين) أي عاصين آثمين في كل أفعالهم وأقوالهم فعوقبوا على يديه مع أنه تربى على أيديهم فيه نهاية أبلغ في اذلالهم وهو مأخوذ من الخطأ المقابل للصواب لأنهم لم يشعروا أن الذي يذهب بملكهم أو من خطئوا أي تجاوزوا الصواب (وقالت امرأة فرعون) وقد هم مع أعوانه بقتله وهي آسية بنت مزاحم وكانت من خيار النساء ومن بنات الأنبياء وقيل كانت من بني اسرائيل وقيل كانت عمة موسى حكاه السهيلي (قرت عين لي ولك) وكانت تريبا لهذا القول عند رؤيتها له لما وصل اليها وأخرجته من التابوت وخاطبت بقولها (لا تقتلوه) فرعون ومن عنده من قومه أو فرعون وحده على طريقة التعظيم له وقرأ ابن مسعود قالت امرأة فرعون لا تقتلوه قرة عين لي ولك قيل انها قالت هذا الولد أكبر من سنة وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي وقد حكى الفراء عن السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ان قوله لا تقتلوه من كلام فرعون واعتراض بكلام يرجع الى الملأ ويكفي في رده ضعف اسناده وقيل انها قالت لا تقتلوه فان الله أتى به من أرض بعيدة وليس من بني اسرائيل ثم عللت ما قالته بالترجي منها لحصول النفع منه لهم والتبني له فقالت (عسى أن ينفعنا) فنصيب منه خيرا لان فيه مخايل اليمن ودلائل النفع لأهله (أو نتخذه ولدا) وكانت لا تلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها (وهم لا يشعرون) انهم على خطأ في التقاطه وان هلاكهم على يده فيكون حالا من آل فرعون وهي من كلام الله سبحانه وقيل هي من كلام المرأة أي وبنو اسرائيل لا يدرون انا التقطناه وهم لا يشعرون قاله الكلبي وهو بعيد جدا وما أحسن تمام هذا الكلام عند أصحاب المعاني والبيان (وأصبح) أي صار (فؤاد أم موسى فارغا) من كل شيء الا من أمر موسى كأنها لم تهتم بشيء سواه قاله المفسرون وقال أبو عبيدة خاليا من ذكر كل شيء في الدنيا الا من ذكر موسى وقال الحسن وابن اسحق وابن زيد فارغا مما أوحى الله اليها من قوله ولا تخافي ولا تحزني وذلك لما سول الشيطان لها من غرقه وهلاكه وقال الأخفش فارغا من الخوف والغم لعلمها أنه لم يغرق بسبب ما تقدم من الوحي اليها وروي مثله عن أبي عبيدة أيضا وقال الكسائي ناسيا ذاهلا وقيل صفرا من العقل وقال العلاء بن زياد نافرا وقال سعيد بن جبير والها كادت تقول وا ابناه من شدة الجزع وقال مقاتل كادت تصيح

شفقة عليه من الغرق وقيل المعنى انها لما سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش قال النحاس وأصح هذه الاقوال الاول والذين قالوه أعلم بكتاب الله فاذا كان فارغا من كل شئ الا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحي وقول من قال فارغا من الغم غلط قبيح لان بعده ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها وقرئ فزعا مكان فارغا من الفزع أي خائفا وجلا وقرأ ابن عباس قرعا من قرع رأسه اذا انحسر شعره (ان كادت لتبدي به) من بدا يبدو اذا ظهر وأبدى يبدي أي أظهر والمعنى لتظهر أمر موسى وأنه ابنها من فرط ما دهمها من الدهش والخوف والحزن وقيل الضمير في به عائد الى الوحي الذي أوحي اليها والاول أولى وقال الفراء لتبدي باسمه لضيق صدرها وقال ابن عباس تقول يا ابناه وقيل الباء زائدة للتأكيد والمعنى لتبديه كما تقول أخذت الحبل وبالحبل وقيل المعنى لتبدي القول به (لولا أن ربطنا على قلبها) بالعصمة والصبر والتثبت قال الزجاج معنى الربط على القلب الهام الصبر وتقويته وجواب لولا محذوف أي لأبدت (لتكون من المؤمنين) أي ربطنا على قلبها لتكون من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك قال يوسف بن الحسين أمرت أم موسى بشيئين ونهيت عن شيئين وبشرت بشيئين فلم ينفعها الكل حتى تولى الله حياطتها فربط على قلبها (وقالت) أم موسى (لاخته) وهي مريم وقال الضحاك ان اسمها كلثمة وقال السهيلي كلثوم ذكره الماوردي (قصيه) أي تتبعي أثره واعرفي خبره وانظري أين وقع والى من صار يقال قصصت الشئ اذا اتبعت أثره متعرفا لحاله (فبصرت به) أي أبصرته قال المبرد أبصرته وبصرت به بمعنى وقرئ بصرت بفتح الباء وضم الصاد وقرئ بفتحها او بكسرها (عن جنب) أصله عن مكان جنب ومنه الاجنبي وقيل المراد بقوله عن جنب عن جانب قاله ابن عباس والمعنى انها أبصرته اليه متجانفة مخاتلة وقرئ عن جانب اي بصرت به مستخفية كائنة عن جنب او بعيدا منها وقرئ بضمتين وبضم الجيم وسكون النون وقال ابو عمرو بن العلاء ان معنى عن جنب عن شوق قال وهي لغة جذام يقولون جنبت اليك اي اشتقت اليك (وهم لا يشعرون) انها اخته وانها تقصه وتتبع أثره أخرج الطبراني وابن عساكر عن أبي امامة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لخديجة اما شعرت ان الله زوجني مريم بنت عمران وكلثوم اخت موسى وامرأة فرعون قالت هنيأ لك يارسول الله وأخرجه ابن عساكر عن

الصلاة وعند الدارقطني مرفوعا لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد وفي السنن بشر المشائين الى المساجد في الظلم بالنور التام يوم القيامة ويستحب لمن دخل المسجد أن يبدأ برجله اليمنى وان يقول كما ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا دخل المسجد قال أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم قال فاذا قال ذلك قال الشيطان حفظ مني سائر اليوم وروى مسلم بسنده عن أبي حميد أو أبي أسيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي

أبواب رحمتك واذا خرج فليقل اللهم افتح لي أبواب فضلك ورواه النسائي عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل أحدكم المسجد فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك واذا خرج فليسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وليقل اللهم اعصمني من الشيطان الرجيم ورواه ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما وقال الامام أحمد حدثنا اسمعيل بن ابراهيم حدثنا الليث بن أبي سليم عن عبد الرحمن بن حسين عن أمه فاطمة بنت حسين عن جدتها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك واذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي ابواب فضلك ورواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي هذا حديث حسن واسناده ليس بمتصل لان فاطمة بنت الحسين الصغرى لم تدرك الكبرى فهذا الذي ذكرناه مع ما تركناه من الاحاديث الواردة في ذلك كله محاذرة الطول داخل في قوله تعالى في بيوت اذن الله ان ترفع وقوله ويذكر فيها اسمه كقوله يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وقوله وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين وقوله وان المساجد لله الآية وقوله تعالى ويذكر فيها اسمه قال ابن عباس يعني يتلى كتابه وقوله تعالى يسبح له فيها بالغدو والآصال أي في البكرات والعشيات والآصال جمع أصيل وهو آخر النهار وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس كل تسبيح في القرآن هو الصلاة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني بالغدو صلاة الغداة ويعني بالآصال صلاة العصر وهما أول ما افترض

الشمس الصلاة فاحب أن يذكرهما وان يذكر بهما عباده وكذا قال الحسن والضحاك يسبح له فيها بالغدو والآصال يعني الصلاة ومن قرأ من القراء يسبح له فيها بالغدو والآصال بفتح الباء من يسبح على انه مبني لما لم يسم فاعله وقف على قوله والآصال وقفا تاما وابتدأ بقوله رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وكأنه مفسر للفاعل المحذوف كما قال الشاعر

ليبك يزيد ضارع لخصومة * ومختبط مما تطيح الطوائح

كأنه قال من يبكيه قال هذا يبكيه وكأنه قيل من يسبح له فيها قال رجال واما على قراءة من قرأ يسبح بكسر الباء فجعله فعلا وفاعله رجال فلا يحسن الوقف الا على الفاعل لانه تمام الكلام فقوله تعالى رجال فيه اشعار بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عمارا للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه كما قال تعالى من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية واما النساء وصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن لما رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثني عمرو عن أبي السمح عن السائب مولى ام سلمة عن ام سلمة رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال خير مساجد النساء قعر بيوتهن وقال أحمد أيضا حدثنا هرون أخبرني عبد الله بن وهب حدثنا داود بن قيس عن عبد الله بن سويد الانصاري عن عمته ام حميد امرأة أبي حميد الساعدي انها جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله اني أحب الصلاة معك قال قد علمت انك تحبين الصلاة معي وصلاتك في بيتك خير من صلاتك في حجرتك وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجدي قال فأمرت فبني لها مسجد في اقصى بيت من بيوتها فكانت والله تصلي فيه حتى لقيت الله تعالى لم يخرجوه هذا ويجوز لهن شهود جماعة الرجال بشرط ان لا تؤذي أحدا من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب كما في الصحيح عن عبد الله بن عمر انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تمنعوا اماء الله مساجد الله رواه

ابن ردادمر فوعا باطول من هذا وفي آخره انها قالت بالرفاء والبنين (وحرمنا عليه المراضع) جمع مرضع وقيل جمع مرضع بفتح الضاد وهو الرضاع أو موضعه وهو الثدي أي منعناه أن يرضع من المرضعات جعله مجازا اما استعارة أو مرسلا لان من حرم عليه شئ فقد منعه لان الصبي ليس من أهل التكليف (من قبل) أي من قبل ان نرده الى امه أو من قبل ان تأتيه امه أو من قبل قصها الاثر قال ابن عباس لا يؤتى بمرضع فيقبلها وقد كانت امرأة فرعون طلبت لموسى المرضعات ليرضعنه فلم يرضع من واحدة منهن (فقالت) اخته لما رأت امتناعه من الرضاع وحنوهم عليه (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) أي يضمنون لكم القيام به وارضاعه وهي امرأة قتل ولدها وأحب شئ اليها ان تجد ولدا ترضعه (وهم له ناصحون) اى مشفقون عليه لا يقصرون في ارضاعه وتربيته والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وفي الكلام حذف اى قال الناس هم فقالت أمي فقيل وهل لامك لبن قالت نعم لبن أخي هرون وكان ولد في السنة التي لا يقتل فيها فدلتهم على أم موسى فدفعوه اليها فقبل ثديها وارضعته قيل كانوا يعطونها كل يوم دينارا واعاجل لها ما تأخذه لانه مال حربي لا انه اجرة على ارضاع ولدها (فرددناه الى أمه كي تقر عينها) بولدها (ولا تحزن) حينئذ على فراقه (ولتعلم ان وعد الله) اى جميع وعده ومن جملة ذلك ما وعدها بقوله انا رادوه اليك (حق) لا خلف فيه وواقع لا محالة (ولكن أكثرهم) اى اكثر آل فرعون (لا يعلمون) بذلك بل كانوا في غفلة عن القدر وسر القضاء او اكثر الناس لا يعلمون بذلك أو لا يعلمون ان الله وعدها بان يرده اليها وهذه اخته وهذه امه (ولما بلغ أشده) اى نهاية القوة وتمام العقل وهو جمع شدة كنعمة وانعم عند سيبويه وقد قال ربيعة ومالك هو الحلم لقوله تعالى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا الآية وأقصاه اربع وثلاثون سنة كما قال مجاهد وسفيان الثوري وغيرهما وقيل الاشد ما بين الثمانية عشر الى الثلاثين وقال ابن عباس ثلاث وثلاثين سنة وقد تقدم الكلام في بلوغ الاشد في الانعام (واستوى) أي اعتدل وتم استحكامه والاستواء من الثلاثين الى الاربعين فاذا زاد على الاربعين أخذ في النقصان قاله ابن عباس وقيل الاستواء هو بلوغ الاربعين ويروى انه لم يبعث نبي الا على رأس أربعين سنة وقيل الاستواء اشارة الى كمال الخلقة وقيل الاشد والاستواء بمعنى واحد وهو ضعيف لان العطف يشعر بالمغايرة (آتيناه

حكما

البخاري ومسلم ولاحمد ولابي داود وبيوتهن خير لهن وفي رواية وليخرجن وهن تفلات أي لاريح لهن وقد ثبت في صحيح مسلم عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا شهدت احداكن المسجد فلا تمس طيبا وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها انها قالت كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس وفي الصحيحين عنها أيضا انها قالت لو أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد كما منعت نساء بني اسرائيل وقوله تعالى رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله الآية وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع الآية يقول تعالى لاتشغلهم الدنيا وزخارفها وزينتها وملاذ بيعها وربحه عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم والذين يعلمون ان الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم لان ما عندهم ينفد وما عند الله باق ولهذا قال تعالى لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة أي يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم قال هشيم عن سيار حدثت عن ابن مسعود انه رأى قوما من أهل السوق حيث نودي للصلاة المكتوبة تركوا بياعاتهم ونهضوا الى الصلاة فقال عبد الله بن مسعود هؤلاء من الذين ذكر الله في كتابه رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله الآية وهكذا روى عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انه كان في السوق فاقيمت الصلاة فاغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد فقال ابن عمر فيهم نزلت رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابي حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر الصنعاني حدثنا أبو سعيد مولى أبي هاشم حدثنا عبد الله بن بجير حدثنا ابو عبد رب قال قال أبو الدرداء رضي الله عنه اني قمت على هذا الدرج أبايع عليه اربح كل يوم ثلاثمائة دينار أشهد الصلاة في كل يوم في المسجد اما اني لا أقول ان ذلك ليس بحلال ولكني أحب ان أكون من الذين قال الله فيهم رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وقال عمرو بن دينار الاعور كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا الى الصلاة وخمروا

حكما وعلما) الحكم الحكمة على العموم وقيل النبوة وقيل الفقه في الدين والعلم الفهم قاله السدي وقال مجاهد الفقه وقال ابن اسحق العلم بدينه ودين آبائه وقيل كان هذا قبل النبوة وقد تقدم بيان معنى ذلك في البقرة (وكذلك) اي مثل ذلك الجزاء الذي جزينا ام موسى لما استسلمت لامر الله والقت ولدها في البحر وصدقت بوعد الله (نجزي المحسنين) على احسانهم والمراد العموم (ودخل المدينة) اي دخل موسى مدينة مصر الكبرى وقيل مدينة غيرها من مدائن مصر وهي منف من اعمال مصر وقيل ام خنان او حابين على رأس فرسخين من مصر وقيل مدينة عين شمس (على حين غفلة من اهلها) اي مستخفيا قيل لما عرف موسى ما هو عليه من الحق في دينه عاب ما عليه قوم فرعون وفشا ذلك منه فاخافوه فخافهم فكان لايدخل المدينة الا مستخفيا قيل كان دخوله بين العشاء والعتمة قاله ابن عباس وقيل وقت القائلة اي نصف النهار قاله ابن عباس ايضا وقيل يوم عيد لهم قد اشتغلوا بلهوهم ولعبهم قال الضحاك طلب ان يدخل المدينة وقت غفلة اهلها فدخل على حين علم منهم فكان منه ما حكى الله سبحانه بقوله (فوجد فيها رجلين يقتتلان) أي يختصمان ويتنازعان (هذا من شيعته) أي ممن شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل أي اسرائيلي وقيل هو السامري (وهذا من عدوه) أي من المعادين له على دينه وهم قوم فرعون أي قبطي وهو طباخ فرعون واسمه فاتون أو فليثون وكان كافرا اتفاقا وأما الاسرائيلي فقيل كان مؤمنا وقيل كان كافرا (فاستغاثه الذي من شيعته) أي طلب منه الاسرائيلي ان ينصره ويعينه على خصمه والاستغاثة طلب الغوث (على الذي من عدوه) أي القبطي فاغاثه لان نصر المظلوم واجب في جميع الملل قيل أراد القبطي ان يسخر الاسرائيلي ليحمل حطبا للمطبخ فرعون فابى عليه واستغاث موسى (فوكزه موسى) الوكز الضرب والدفع بجميع الكف وهكذا اللكز واللهز وقيل اللكز على اللحى والوكز على القلب وقيل اللكز باطراف الاصابع والوكز بجميع الكف وقيل بالعكس والنكز كاللكز وقيل ضربه بعصاه وقرأ ابن مسعود فلكزه وحكى الثعلبي أن في مصحف عثمان فنكزه بالنون قال الاصمعي نكزه بالنون ضربه ودفعه قال الجوهري اللكز الضرب على الصدر وقال أبو زيد في جميع الجسد يعني انه يقال له لكز واللهز الضرب بجميع اليدين في الصدر ومثله عن أبي عبيدة (فقضى عليه) الضمير

متاعهم ومطر سالم الى أمتعتهم ليس معها أحد فتلا سالم هذه الآية رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم قال هم هؤلاء وكذا
قال سعيد بن أبي الحسن والضحاك لا تلهيهم التجارة والبيع ان يأتوا الصلاة في وقتها وقال مطر الوراق كانوا يبيعون ويشترون
ولكن كان أحدهم اذا سمع النداء وميزانه في يده خفضه وأقبل الى الصلاة وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس لا تلهيهم تجارة ولا
بيع عن ذكر الله يقول عن الصلاة المكتوبة وكذا قال مقاتل بن حيان والربيع بن أنس وقال السدي عن الصلاة في جماعة وقال
مقاتل بن حيان لا يلهيهم ذلك عن حضور الصلاة وان يقيموها كما أمرهم الله وان يحافظوا على مواقيتها

المرفوع لله أولا لوكزه أو لموسى وهو الظاهر أي قتله وكل شيء أتيت عليه وفرغت منه فقد
قضيت عليه قيل لم يقصد موسى قتل القبطي وانما قصد دفعه فأتى ذلك على نفسه خطأ
فدم ودفنه في الرمل والوكزة لا تقتل غالبا وانما وافقت أجله وانهدا (قال هذا من عمل
الشيطان) وانما قال بهذا القول مع ان المقتول كافر حقيق بالقتل لانه لم يكن اذ ذاك
مأمورا بقتل الكفار وقيل ان تلك الحالة حالة كف عن القتال لكونه مأمونا عندهم فلم
يكن له ان يغتالهم فكبر ذلك على موسى وقيل ان الاشارة بقوله هذا الى عمل المقتول
لكونه كافرا مخالفا لما يريده الله وقيل انه اشارة الى المقتول نفسه يعني انه من جند
الشيطان وحزبه ثم وصف الشيطان بقوله (انه عدو مضل مبين) أي عدو للانسان يسعى
في اضلاله ظاهر العداوة والاضلال ثم طلب من الله سبحانه ان يغفر له ما وقع منه (قال
رب اني ظلمت نفسي) بقتل القبطي من غير أمر (فاغفر لي فغفر) الله (له) ذلك وعلم انه
غفر له بالهام أو نحوه ولا يلزم من هذا نبوته في هذا الوقت (انه هو الغفور) بما قاله الزلل
(الرحيم) بازالة الخلل المتصف بهما في الابد والازل ووجه استغفاره انه لم يكن لنبي ان
يقتل حتى يؤمر وقيل انه طلب المغفرة من تركه للأولى كما هو سنة المرسلين أو أراد اني
ظلمت نفسي بقتل هذا الكافر لان فرعون لو يعرف ذلك لقتلني به وقيل معنى فاغفر لي
استر ذلك علي لا يطلع عليه فرعون وهذا خلاف الظاهر فان موسى عليه السلام ما زال
نادما على ذلك خائفا من العقوبة بسببه حتى انه يوم القيامة عند طلب الناس الشفاعة منه
يقول اني قتلت نفسا لم أومر بقتلها كما ثبت ذلك في حديث الشفاعة الصحيح وقد قيل ان
هذا كان قبل النبوة وقيل كان قبل بلوغه سن التكليف وانه كان اذ ذاك في اثني عشر
سنة وكل هذه التأويلات البعيدة محافظة على ما تقرر من عصمة الانبياء ولا شك انهم
معصومون عن الكبائر والقتل الواقع منه لم يكن عن عمد فليس بكبيرة لان الوكزة في
الغالب لا تقتل وقيل بل كان من قبيل دفع الصائل وهو لا اثم فيه وأشار له القرطبي بقوله
وانما أعانه لان نصر المظلوم دين في الملل كلها وفرض في جميع الشرائع وقيل هو على
سبيل الانقطاع لله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب
فهو من باب حسنات الابرار سيئات المقربين ثم لما أجاب الله سؤاله وغفر له ما طلب منه
مغفرته (قال رب بما أنعمت علي) الباء للقسم وما موصولة أو مصدرية أي أقسم

وما استحفظهم الله فيها وقوله تعالى
يخافون يوما تتقلب فيه القلوب
والابصار أي يوم القيامة الذي
تتقلب فيه القلوب والابصار أي من
شدة الفزع وعظمة الاهوال كقوله
وانذرهم يوم الآزفة الآية وقوله
انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه
الابصار وقال تعالى ويطعمون
الطعام على حبه مسكينا ويتيما
وأسيرا انما نطعمكم لوجه الله
لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا
نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا
فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم
نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا
جنة وحريرا وقوله تعالى ههنا
ليجزيهم الله أحسن ما عملوا
أي هؤلاء من الذين يتقبل حسناتهم
ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله ويزيدهم
من فضله أي يتقبل منهم الحسن
ويضاعفه لهم كما قال تعالى ان الله
لا يظلم مثقال ذرة الآية وقال تعالى
من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها
الآية وقال من ذا الذي يقرض الله
قرضا حسنا الآية وقال والله
يضاعف لمن يشاء وقال ههنا والله
يرزق من يشاء بغير حساب وعن ابن
مسعود انه جيء له بضرع فعرضه على جلسائه واحدا واحدا فكلهم لم يشربه لانه كان صائما فتناوله ابن مسعود فشربه
لانه كان مفطرا ثم تلا قوله يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار رواه النسائي وابن أبي حاتم من حديث الاعمش عن ابراهيم عن
علقمة عنه وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا سويد بن شعبة حدثنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن اسحق عن شهر بن حوشب عن
أسماء بنت يزيد بن السكن قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا جمع الله الاولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى
بصوت يسمع الخلائق سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ليقم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون وهم قليل ثم

يحاسب سائر الخلائق وروى الطبراني من حديث بقية عن اسمعيل بن عبد الله الكندي عن الاعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ليوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله قال اجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم المعروف في الدنيا (والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم

يجعل الله له نورا فماله من نور) هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار كما ضرب للمنافقين في أول البقرة مثلين ناريا ومائيا وكما ضرب لما يقر في القلوب من الهدى والعلم في سورة الرعد مثلين مائيا وناريا وقد تكلمت على كل منهما في موضعه بما أغنى عن اعادته ولله الحمد والمنة فأما الاول من هذين المثلين فهو للكفار الدعاة الى كفرهم الذين يحسبون انهم على شئ من الاعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الامر على شئ فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الارض عن بعد كأنه بحر طام والقيعة جمع قاع كجار وجيرة والقاع أيضا واحدة القيعان كما يقال جار وجيران وهي الارض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب وانما يكون ذلك بعد نصف النهار وأما الال فانما يكون أول النهار ويرى كأنه ماء بين السماء والارض فاذا رأى السراب من هو محتاج الى الماء قصده يحسبه ماء ليشرب منه فلما انتهى اليه لم يجده شيأ فكذلك الكافر يحسب انه قد عمل عملا وانه قد حصل شيأ فاذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيأ بالكلية قد قبل اما لعدم الاخلاص او لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا وقال ههنا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وهكذا روى عن أبي بن كعب وابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد وفي الصحيحين انه يقال يوم القيامة لليهود ما كنتم تعبدون فيقولون كنا نعبد عزير ابن الله فيقال كذبتم ما اتخذ الله من ولد ماذا تبغون فيقولون يارب عطشنا فاسقنا فيقال ألا تردون فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فينطلقون فيتهافتون فيها وهذا المثال مثال لذوي الجهل المركب فأما أصحاب الجهل البسيط وهم الطماطم الاغشام المقلدون لائمة الكفر

بانعامك علي بالمغفرة لاتوبن قاله الزمخشري والمهدوي والماوردي وقيل المراد بما أنعم به عليه هو ما آتاه من الحكم والمعرفة والعلم والتوحيد قاله القرطبي وقال الثعلبي أي بالمغفرة فلم تعاقبني وجملة (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) كالتفسير للجواب وكأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما ويجوز أن تكون الباء هي باء السببية متعلقة بمحذوف أي اعصمني بسبب ما أنعمت به علي ويكون قوله فلن أكون ظهيرا مترتبا عليه ويكون في ذلك استعطاف لله تعالى وتوصل الى انعامه بانعامه وأراد بمظاهرة المجرمين اما صحبة فرعون والانتظام في جملته في ظاهر الامر أو مظاهرته على ما فيه اثم أو تكثير سواده قال الكسائي والفراء ليس قوله هذا خبرا بل هو دعاء أي فلا تجعلني يارب ظهيرا لهم وبها قرأ عبد الله وقال الفراء المعنى اللهم فلن أكون الخ وقال النحاس ان جعله من باب الخبر أوفى وأشبه بنسق الكلام وفيه دليل على ان الاسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافرا وقيل أراد اني وان أسأت في هذا القتل الذي لم أومر به فلا أترك نصرة المسلمين على المجرمين فعلى هذا كان الاسرائيلي مؤمنا ونصرة المؤمنين واجبة في جميع الاديان وقيل لم يستثن فابتلي في اليوم الثاني أي لم يقل فلم أكن ان شاء الله ظهيرا للمجرمين كما قال الله تعالى (فأصبح في المدينة) أي دخل في وقت الصباح في المدينة التي قتل فيها القبطي (خائفا يترقب) المكروه أو متى يؤخذ به أو يترقب الفرج أو الخبر هل وصل الى فرعون أم لا قال النسفي وفيه دليل على انه لا بأس بالخوف من دون الله بخلاف ما يقوله بعض الناس انه لا يسوغ الخوف من دون الله سبحانه زاد القرطبي وان الخوف لا ينافي المعرفة بالله ولا التوكل عليه (فاذا الذي استنصره) اذا هي الفجائية أي فاذا صاحبه الاسرائيلي الذي استغاثه (بالامس) يقاتل قبطيا آخر أراد ان يسخره ويظلمه كما أراد القبطي الذي قد قتله موسى بالامس (يستصرخه) أي يستغيث به والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ وذلك ان المستغيث يصوت ويصرخ في طلب الغوث (قال له) أي للاسرائيلي (موسى) واليه ذهب الخازن والمحلي أو للقبطي واليه ذهب القرطبي (انك لغوي مبين) أي بين الغواية وذلك انك تقاتل من لا تقدر على مقابلته ولا تطيقه وقيل انما قال له هذه المقالة لانه تسبب بالامس لقتل رجل ويريد اليوم ان يتسبب لقتل آخر (فلما أن أراد) موسى (أن يبطش بالذي) أي بالقبطي الذي (هو عدو لهما) أي لموسى وللاسرائيلي

حيث لم يكن على دينهما (قال) الإسرائيلي (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس) قال ذلك لما سمع موسى يقول له إنك لغوي مبين ورآه يريد أن يبطش بالقبطي ظن أنه يريد أن يبطش به فلما سمع القبطي ذلك أفشاه ولم يكن قد علم أحد من أصحاب فرعون أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس حتى أفشى عليه الإسرائيلي هكذا قال جمهور المفسرين وقيل إن القائل هو القبطي وكان قد بلغه الخبر من جهة الإسرائيلي وهذا هو الظاهر وقد سبق ذكر القبطي قبل هذا بلا فصل لأنه هو المراد بقوله عدو لهما ولا موجب لمخالفة الظاهر حتى يلزم منه أن المؤمن بموسى المستغيث به المرة الأولى والمرة الأخرى هو الذي أفشى عليه وأيضاً أن قوله (إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض) لا يليق صدوره إلا من كافر والجبار في اللغة أي ما تريد قال الزجاج الجبار في اللغة الذي يتعاظم ولا يتواضع لأمر الله والقاتل بغير حق جبار وقيل الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل ولا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقال عكرمة لا يكون الرجل جباراً حتى يقتل نفسين وهو تقييد بلا دلالة في الآية على ذلك والراجح هو الأول الموافق للغة (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس فتدفع التخاصم بالتي هي أحسن (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) قيل المراد بهذا الرجل حزقيل وهو مؤمن آل فرعون وكان ابن عم موسى وقيل اسمه شمعون وقيل طالوت وقيل سمعان والمراد بأقصى المدينة آخرها وأبعدها والمعنى يسرع في مشيه وأخذ طريقاً قريباً حتى سبق إلى موسى وأخبره وأنذره بما سمع (قال يا موسى إن الملأ) أي أشراف قوم فرعون (يأتمرون بك ليقتلوك) أي يتشاورون في قتلك ويأمرون بذلك وأصل معنى التشاور ائتمار لأن كلا من المتشاورين يأمر الآخر ويأتمر به قال الزجاج يأمر بعضهم بعضاً بقتلك وهذا أقرب باللفظ والمعنى قاله النحاوي وقال أبو عبيدة يتشاورون فيك قال الزهري ائتمر القوم وتآمروا أي أمر بعضهم بعضاً ونظيره قوله تعالى وأتمروا بينكم بمعروف (فاخرج) من المدينة (إني لك من الناصحين) في الأمر بالخروج واللام للبيان لأن معمول المجرور لا يقدم عليه (فخرج) موسى (منها) أي من المدينة (خائفاً يترقب) أي حال كونه خائفاً من الظالمين مترقباً لحوقهم به وإدراكهم له أو راجياً غوث الله إياه وقال المفسرين وعن ابن عباس قال خرج موسى من مصر إلى مدين وبينه وبينها ثمان ليال ولم يكن له

طعام

الصم البكم الذين لا يعقلون فمثلهم كما قال تعالى أو كظلمات في بحر لجي قال قتادة لجي هو العميق يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذي لا يعرف حال من يقوده ولا يدري أين يذهب بل كما يقال في المثل للجاهل أين تذهب قال معهم قيل فإلى أين يذهبون قال لا أدري وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما يغشاه موج الآية يعني بذلك الغشاوة التي على القلب والسمع والبصر وهي كقوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم الآية وكقوله أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة الآية وقال أبي بن كعب في قوله تعالى ظلمات بعضها فوق بعض فهو يتقلب في خمسة من الظلم فكلامه ظلمة وعمله ظلمة ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات إلى النار وقال السدي والربيع بن أنس نحو ذلك أيضاً وقوله تعالى ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كقوله من يضلل الله فلا هادي له وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين يهدي الله لنوره من يشاء فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً وعن أيماننا نوراً وعن شمائلنا نوراً وأن يعظم لنا نوراً (ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير) يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن الآية وقوله تعالى والطير صافات أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه وهو يعلم ما هي فاعلة ولهذا قال تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه أي كل قد أرشده إلى طريقه ومسلكه في عبادة الله عز وجل ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ولهذا قال تعالى والله عليم بما يفعلون ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ولا معقب لحكمه وإلى الله المصير أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ليجزي الذين

أساؤا إما عملوا الآتية فهو الخالق المالك الآله الحكم في الدنيا والاخرى وله الحمد في الاولى والآخرة (ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار) يذكر تعالى انه يسوق السحاب بقدرته أول ماينشئها وهي ضعيفة وهو الازجاء ثم يؤلف بينه أي يجمعه بعد تفرقه ثم يجعله ركاما أي متراكما أي يركب بعضه بعضا فترى الودق أي المطر يخرج من خلاله أي من خلله وكذا قرأها ابن عباس

والضحاك قال عبيد بن عمير الليثي يبعث الله المثيرة فتقم الارض قما ثم يبعث الله الناشئة فتنشئ السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب رواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله وقوله وينزل من السماء من جبال فيها من برد قال بعض النحاة من الاولى لابتداء الغاية والثانية للتبعيض والثالثة لبيان الجنس وهذا انما يجيء على قول من ذهب من المفسرين الى ان قوله من جبال فيها من برد معناه ان في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فان من الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضا لكنها بدل من الاولى والله أعلم وقوله تعالى فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يحتمل بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله فيصيب به من يشاء رحمة بهم ويصرفه عمن يشاء أي يؤخر عنهم الغيث ويحتمل ان يكون المراد بقوله فيصيب به أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم واتلاف زروعهم وأشجارهم ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم وقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الابصار اذا اتبعته وتراءته وقوله تعالى يقلب الله الليل والنهار أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيرا ويقصر الذي كان طويلا والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار أي لدليلا على عظمته تعالى كما قال تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب ومابعدها من الآيات الكريمات (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي

طعام الا ورق الشجر وخرج حافيا فما وصل اليها حتى وقع خف قدمه وعنه قال خرج موسى خائفا جائعا ليس معه زاد حتى انتهى الى ماء مدين وهو أول ابتلاء من الله تعالى لموسى ثم دعا ربه بان ينجيه عمن خافه و (قال رب نجني من القوم الظالمين) قوم فرعون أي خلصني منهم وادفعهم عني وحل بيني وبينهم واحفظني من لحوقهم (ولما توجه) أي قصد بوجهه (تلقاء مدين) أي نحوها وجهتها قاصدا لها ماضيا اليها قال الزجاج أي سلك في الطريق التي تلقاء مدين فيها انتهى والتوجه الاقبال على الشيء ومدين قرية شعيب يقال داره تلقاء دار فلان وأصله من اللقاء ولم تكن هذه القرية داخلة تحت سلطان فرعون ولهذا خرج اليها ولكن لم يكن يعرف طريقها (قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) أي يرشدني نحو الطريق المستوية الى مدين وهو من اضافة الصفة للموصوف وكان لها ثلاث طرق فاخذ موسى الوسطى وجاء الطلاب في أثره فساروا في الاخريين ذكره أبو السعود (ولما ورد ماء مدين) أي وصل اليه وهو الماء الذي يستقون منه والمراد بالماء هنا بئر فيها صرح به الخازن والمحلي فهو من باب ذكر الحال وارادة المحل ولفظ الورود قد يطلق على الدخول في المورد وقد يطلق على البلوغ اليه وان لم يدخل فيه وهو المراد هنا وقد تقدم تحقيق معنى الورود في قوله وان منكم الا واردها وقيل مدين اسم للقبيلة لا للقرية وهي غير منصرفة على كلا التقديرين (وجد عليه أمة) أي وجد على الماء جماعة كثيرة لان التنكير للتكثير (من الناس) أي من أناس مختلفين (يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) أي من دون الناس الذين يسقون مابينهم وبين الجهة التي جاء منها وقيل معناه في موضع أسفل منهم قاله أبو السعود وفي الخازن في موضع بعيد منهم (امرأتين تذودان) أي تحبسان أغنامهما من الماء حتى يفرغ الناس ويخلوا بينهما وبين الماء وبه قال ابن عباس وورد الذود بمعنى الطرد أي تطردان وقيل تكفان الغنم عن أن تختلط بأغنام الناس وقيل تمنعان اغنامهما عن ان تند وتذهب والاول أولى لقوله (قال) موسى للمرأتين (ما خطبكما) أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس والخطب الشأن قيل وانما يقال ماخطبك لمصاب أو لمضطهد (١) أو لمن يأتي بمنكر (قالتا) عادتنا التأني (لا نسقي حتى يصدر الرعاء) عن الماء وينصرفوا منه حذرا من مخالطتهم أو عجزا عن السقي معهم قرئ أسقي بفتح النون وبضمها من أسقى وقرئ يصدر من أصدر ومن صدر

(١) المضطهد المقهور المضطر اه صحاح اه

على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد فمنهم من يمشي على بطنه كالحية وما شاكلها ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير ومنهم من يمشي على أربع كالأنعام والحيوانات ولهذا قال يخلق الله ما يشاء أي بقدرته لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولهذا قال إن الله على كل شيء قدير (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) قرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من

الحكم والحكم والأمثال البينة المحكمة كثيراً وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى ولهذا قال والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون يقولون قولاً بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ولهذا قال تعالى وما أولئك بالمؤمنين وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء عن أبي ميمونة عن أسد عن الحسن عن سمرة مرفوعاً من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له وقوله تعالى وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم الآية أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك إلى قوله رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً وقوله تعالى وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله مذعنين وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم

تصدر الرعاء أي يرجعوا مواشيهم والرعاء جمع راع على غير قياس لأن فاعلاً الوصف المعتل اللام كقاض قياسه فعلة نحو قضاة ورماة خلافاً للزمخشري في أن جمعه على فعال قياس كصيام وقيام قاله الكرخي قرأ الجمهور الرعاء بكسر الراء وقرئ بفتحها قال أبو الفضل هو مصدر أقيم مقام الصفة فلذلك استوى فيه الواحد والجمع وقرئ الرعاء بالضم اسم جمع (وأبونا شيخ كبير) عالي السن وهذا من تمام كلامهما أبدتا فيه ما العذر في مباشرة السقي بأنفسهما أي لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر فلذلك احتجنا ونحن امرأتان ضعيفتان مستورتان لا نقدر على مزاحمة الرجال وعلى أن نسقي الغنم لعدم وجود رجل يقوم لنا بذلك قيل أبوهما هو شعيب وقيل هو يثرون بن أخي شعيب وقيل هو رجل ممن آمن بشعيب والأول أولى واعتذر عن شعيب لأنه يسقي الماشية ولأن هذا الأمر في نفسه ليس بمحظور والدين لا يأباه وأما المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة وأحوال العرب فيه خلاف أحوال العجم ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر خصوصاً إذا كانت الحالة حالة الضرورة فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ورحمهما (فسقى لهما) أي سقى أغنامهما لأجلهما رغبة في المعروف وإعانة للملهوف قال الجلال سقى من بئر أخرى بقربها رفع حجراً عنها لا يرفعه إلا عشرة أنفس انتهى (ثم) لما فرغ من السقي لهما (تولى إلى الظل) أي انصرف إليه فجلس فيه من شدة الحر وهو جائع قيل كان هذا الظل ظل سمرة هنالك وهي شجرة من شجر الطلح وفيه دليل على جواز الاستراحة في الدنيا بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة (فقال) أي ثم قال لما أصابه من الجهد والتعب منادياً لربه (رب إني لما أنزلت إلي من خير) أي خير كان (فقير) أي محتاج إلى ذلك واللام بمعنى إلى قال الأخفش يقال هو فقير له وإليه قال ابن عباس لقد قال ونبي الله وهو أكرم خلقه عليه ولقد افتقر إلى شق تمرة ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع وعنه قال ما سأل إلا الطعام وعنه قال سأل فلقاً من الخبز يشد بها صلبه من الجوع ويحتمل أن يريد إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إلي من خير الدين وهو النجاة من الظالمين لأنه كان عند فرعون في ملك وثروة قال ذلك رضاء بالبدل السني وفرحاً بالعوض الهني وشكراً لله العلي وقال ابن عطاء نظر من العبودية إلى الربوبية وتكلم بلسان الافتقار لما ورد على سره من الأنوار (فجاءته إحداهما) في الكلام حذف يدل عليه السياق قال الزجاج تقديره فذهبتا إلى أبيهما

ليروج باطله ثم فاذعانه أولا لم يكن عن اعتقاد منـه ان ذلك هو الحق بل لانه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصـده عدل عنه الى غيره ولهـذا قال تعالى أفى قلوبهم مرض الآية يعنى لا يخرج أمرهم عن ان يكون فى القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك فى الدين أو يخافون ان يجور الله ورسوله عليهـم فى الحكم وأيا ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطو عليه من هـذه الصفات وقوله تعالى بل أولئك هم الظالمون أى بل هم الظالمون الفاجرون والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك قال ابن أبي حاتم حـدثنا أبي حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا مبارك حـدثنا الحسـن قال كان الرجـل اذا كان بينه وبين الرجل منازعة فـدعى الى النبي صـلى الله عليـه وسـلم بياض بالاصل علم انه سيقضى له بالحق واذا أراد ان يظلم فدعى الى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض وقال أنطلق الى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبي صلى الله عليه وسـلم من كان بينه وبين أخيه شئ فدعى الى حكم من أحكام المسلمين فأبى ان يجيب فهو ظالم لا حق له وهذا حديث غريب وهو مرسل ثم أخـبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسـنة رسوله فقال تعالى انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهـم ان يقولوا سمعنا وأطعنا أى سمعا وطاعـة ولهـذا وصفهـم تعالى بالفـلاح وهو نيـل المطلوب والسـلامة من المرهوب فقال تعالى وأولئك هم المفلحون وقال قتادة فى هذه الآية ان يقولوا سمعنا وأطعنا ذكـر لنا ان عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدريا أحد نقباء الانصار انه لما حضره الموت قال لابن أخيـه جنادة بن أبي أمية ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك قال بلى قال فان عليك السمع والطاعـة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك وعليك ان تقيم لسانك بالعـدل وان لا تنازع الامر أهله الا ان يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شئ يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله وقال قتادة ذكر لنا ان أبا الدرداء قال لا اسلام الا بطاعة الله ولا خير الا فى جماعة والنصيحة لله ولرسوله وللخليفة وللمؤمنـين عامـة قال وذكر لنا ان عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان يقول عروة الاسلام شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين رواه ابن أبي حاتم والاحاديث والآثار

أبيهما ساربعتين وكانت عادتهما الابطاء فى السـقى فحدثتاه بما كان من الرجل الذى سقى لهما فامر الكبرى من بنتيه وهى صفورا وقيـل صفراء وقيـل أمر الصـغرى وهى ليا وقيـل صفيراء ان تدعوه له فجاءته وذهب أكثر المفسرين الى أنهما ابنتا شعيب وقيـل هما ابنتا أخى شـعيب وان شـعيبا كان قد مات والاول أرجح وهو ظاهر القرآن (تمشى) كائنة (على استحياء) حالتى المشى والمجئ لا عند المجئ فقط وهذا دليل كمال ايمانها وشرف عنصرها لانها كانت تدعوه الى ضيافتها ولم تعلم أيجيبها أم لا فأتته مستحيية قال عمر بن الخطاب جاءت مسـتترة بكم درعها على وجهها من الحياء والحياء والاستحياء بالمد الحشمة والانقباض والانزواء ويتعدى بنفسـه وبالحرف يقال استحييته واستحييت منه (قالت ان أبى يدعوك) مستأنفة جواب سؤال مقدر كأنه قيل ماذا قالت له لما جاءته فقيل قالت الخ (ليجزيك أجر ما سقيت لنا) أى جزاء سقيك لنا فاجابها منكرا فى نفسه أخذ الاجرة وقيل اجاب لوجه الله أو للتبرك برؤية الشيخ لما سمع منهما ان أباهما شيخ كبير (فلما جاءه) أى جاء موسى شعيبا عن أبى حازم قال لما دخل موسى على شعيب اذا هو بالعشاء فقال له شعيب كل قال موسى أعوذ بالله قال ولم ألست بجائع قال بلى ولكن أخاف ان يكون هذا عوضا عما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيأ من عمل الآخرة بملء الارض ذهبا قال لا والله ولكنها عادتى وعادة آبائى نقرى الضـيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل (وقص عليه القصص) مصدر يسمى به المفعول أى المقصوص يعنى أخبره بجميع ما اتفق له من عند قتل القبطى الى عند وصوله الى ماء مدين وعن مالك بن أنس انه بلغه ان شعيبا هو الذى قص عليه القصص (قال) شعيب (لا تخف نجوت من القوم الظالمين) أى فرعون وأصحابه لان فرعون لا سلطان له على مدين وفيه دليل على جواز العمل بخبر الواحـد ولو عبـدا أو انثى وعلى المشى مع الاجنبية مع ذلك الاحتياط والتورع وللرازى فى هذا الموضع اشكالات باردة جدا لا تستحق ان تذكر فى تفسير كلام الله عز وجل والجواب عليها يظهر للمقصر فضلا عن الكامل وأشف ما جاء به ان موسى كيف أجاب الدعوة المعللة بالجزاء لما فعله من السقى ويجاب عنه بانه اتبع سنة الله فى اجابة دعوة نبى من أنبياء الله ولم تكن تلك الاجابة لاجل اخذ الاجر على هـذا العمل ولهذا ورد انه لما قدم اليه الطعام قال انا أهل بيت لا نبيع ديننا بملء الارض ذهبا كما مر وفى الكشاف ان

فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله وللخلفاء الراشدين والائمة اذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان وقوله ومن يطع الله ورسوله قال قتادة يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل وقوله فأولئك هم الفائزون يعنى الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة ان الله خبير بما تعملون قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) (١٠٨) يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لئن أمرتهم بالخروج فى الغزو ليخرجن قال الله تعالى قل لا تقسموا أى لا تحلفوا وقوله طاعة معروفة قيل معناه طاعتكم طاعة معروفة أى قد علم طاعتكم انما هى قول لا فعل معه وكلما حلفتم كذبتم كما قال تعالى يحلفون لكم لترضوا عنهم الآية وقال تعالى اتخذوا أيمانهم جنة الآية فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه كما قال تعالى ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد انهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون وقيل المعنى فى قوله طاعة معروفة أى ليكن أمركم طاعة معروفة أى بالمعروف من غير حلف ولا اقسام كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف فكونوا أمثالهم ان الله خبير بما تعملون أى هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى فالحلف واظهار الطاعة والباطن بخلافه وان راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى لا يروج عليه شئ من التدليس بل هو خبير بضمائر عباده وان أظهروا خلافها ثم قال تعالى قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أى اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وقوله تعالى فان تولوا أى تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به فانما عليه ما حمل أى ابلاغ الرسالة وأداء الامانة وعليكم ما حملتم أى من قبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه وان تطيعوه تهتدوا وذلك انه يدعو الى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض الآية وقوله تعالى وما على الرسول الا البلاغ المبين كقوله تعالى فانما عليك

طلب الاجرة لشدة الفاقة غير منكر ويشهد لصحته لو شئت لاتخذت عليه أجرا (قالت احداهما) وهى التى جاءته (يا أبت استأجره) ليرعى لنا الغنم وفيه دليل على ان الاجرة كانت عندهم مشروعة وقد اتفق على جوازها ومشروعيتها جميع علماء الاسلام الا الاصم فانه عن سماع أدلتها أصم (ان خير من استأجرت القوى الامين) تعليل لما وقع منها من الارشاد لابيها الى استئجار موسى أى انه حقيق باستئجارك له لكونه جامعا بين خصلتى القوة والامانة ولم يقل تستأجر مع انه انسب لانه جعل لتحققه وتجربته منزلة ما مضى وعرف قبل وقد روى عن ابن عباس وعمر أن أباها سألها عن وصفها له بالقوة والامانة فأجابته أما قوته فرفعه الحجر لا يطيقه الا عشرة رجال وأما امانته فقال امشى خلفى وانعتى لى الطريق فانى أكره ان تصيب الريح ثيابك فتصف لى جسدك فزاده ذلك رغبة فيه وعن ابن مسعود أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف فى قوله عسى ان ينفعنا وأبو بكر فى أمر عمر (قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين) الكبرى أو الصغرى وفيه مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل وهذه سنة ثابتة فى الاسلام كما ثبت من عرض عمر لابنته حفصة على أبى بكر وعثمان والقصة معروفة وغير ذلك مما وقع فى أيام الصحابة وأيام النبوة وكذلك ما وقع من عرض المرأة لنفسها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قيل زوجه الكبرى وقال الاكثرون انه زوجه الصغرى منهما واسمها صفورا وهى التى ذهبت فى طلب موسى وهاتين يدل على انه كان له غيرهما وقد قال البقاعى ان له سبع بنات كما فى التوراة وهذه مواعدة منه ولم يكن ذلك عقد نكاح اذ لو كان عقدا لقال قد أنكحتك (على أن تأجرنى ثمانى حجج) جمع حجة وهى السنة قال الفراء يقول على ان تجعل ثوابى ان ترعى غنمى ثمانى سنين قال المبرد يقال أجرت دارى ومملوكى غير ممدود وممدودا والاول أكثر والتزوج على رعى الغنم جائز بالاجماع لانه من باب القيام بأمر الزوجية فلا مناقضة بخلاف التزوج على الخدمة (فان أتممت) ما استأجرتك عليه من الرعى (عشرا) من السنين (فمن عندك) أى تفضلا منك وتبرعا الا الزاما منى لك وليس بواجب عليك جعل ما زاد على الثمانية الاعوام الى تمام عشرة أعوام موكولا الى المروءة أى فهى من عندك والظاهر أنه استدعاء عقد بالاجل الاول نظرا الى شرعنا ويمكن كونه عقدا صحيحا عندهم قاله الكرخى (وما أريد أن أشق عليك) بالزامك اتمام العشرة

الاعوام

البلاغ وعلينا الحساب وقوله فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر قال وهب بن منبه أوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل يقال له شعياء أن قم في بني اسرائيل فاني سأطلق لسانك بوحي فقام فقال يا سماء اسمعي ويا أرض انصتي فان الله يريد ان يقضي شأنا ويدبر أمرا هو منفذه انه يريد ان يحول الريف الى الفلاة والآجام في الغيطان والانهار في الصحارى والنعمة في الفقراء والملك في الرعاة ويريد ان يبعث أميا من الاميين ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الاسواق لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه (١) أبعثه بشيرا ونذيرا لا يقول الخنا يفتح به اعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا واسدده بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوى ضميره والحكمة منطقه والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه والحق شريعته والعدل سيرته والهدى امامه والاسلام ملته وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلالة وأعلم به من الجهالة وأرفع به بعد الخمالة وأعرف به النكرة وأكثر به بعد القلة وأغني به بعد العيلة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة وأهواء متشتتة واستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين مصدقين بما جاءت به الرسل رواه ابن أبي حاتم (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيأ ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بانه سيجعل أمته خلفاء الارض أي أئمة الناس والولاة عليهم وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس امنا وحكما فيهم وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد والمنة فانه صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر واسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم واختار الله له

الاعوام ولا بالمناقشة في مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال واشتقاق المشقة من الشق اي شق ظنه نصفين فتارة يقول اطيق وتارة يقول لا اطيق ثم رغبه في قبول الاجارة فقال (ستجدني ان شاء الله من الصالحين) في حسن الصحبة ولطف المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد وقيل أراد الصلاح على العموم فيدخل صلاح المعاملة في تلك الاجارة تحت الآية دخولا أوليا وقيد ذلك بالمشيئة تفويضا للامر الى توفيق الله ومعونته والتبرك به لا لتعليق صلاحه بمشيئته تعالى ثم لما فرغ شعيب من كلامه قرره موسى و (قال ذلك بيني وبينك) والاشارة الى ما تعاقدا عليه (أيما الاجلين قضيت) شرطية وجوابها (فلا عدوان علي) والمراد بالاجلين الثمانية الاعوام والعشرة الاعوام ومعنى قضيت وفيت به وأتممته وفرغت منه والاجلين مخفوض باضافة أي اليه وما زائدة أو ما مخفوضة باضافة أي اليها والاجلين بدل منها وقرأ ابن مسعود أي الاجلين ما قضيت والمعنى لا ظلم علي بطلب الزيادة على ما قضيته من الاجلين اي كما لا أطالب بالزيادة على الثمانية الاعوام لا أطالب بالنقصان عن العشرة وقيل المعنى كما لا أطالب بالزيادة على العشرة الاعوام لا أطالب بالزيادة على الثمانية الاعوام وهذا أظهر واصل العدوان تجاوز الحد في غير ما يجب قال المبرد وقد علم موسى انه لا عدوان عليه في أتمهما ولكنه جمعهما ليجعل الاقل كالاتم في الوفاء وقرئ عدوان بضم العين وبكسرها (والله على ما نقول) من هذه الشروط الجارية بيننا (وكيل) اي شاهد وحفيظ فلا سبيل لاحدنا الى الخروج عن شيء من ذلك قيل هو من قول موسى وقيل من قول شعيب والاول أولى لوقوعه في جملة كلام موسى وتم العقد بذلك ولعل هذا كان في شرعهما والا فهذه الصيغة لا تكفي عندنا في عقد النكاح لان الواقع من شعيب وعد بالانكاح والواقع من موسى ليس فيه مادة التزويج ولا الانكاح وايضا الصداق ليس راجعا للمنكوحة بل لابيها هذا ما جرى عليه المحلي وقال غيره انهما عقدا عقدا بغير الصورة المذكورة هنا منهما قال ابو السعود ليس ما حكى عنهما في الآية تمام ما جرى بينهما من الكلام في انشاء عقد النكاح وعقد الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين في تلك الشريعة تفصيلا واخرج الطبراني وغيره عن عتبة السلمي قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقرأ سورة طسم حتى اذا بلغ قصة موسى

---

(١) قوله ابعثه الخ كذا بالنسخ وحرر اهـ

ما عنده من الكرامة قام بالامر بعده خليفته أبو بكر الصديق ولمّ شعث ما وهى بعد موته صلى الله عليه وسلم وأخذ جزيرة العرب ومهّدها وبعث جيوش الاسلام الى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد رضي الله عنه ففتحوا طرفا منها وقتلوا خلقا من أهلها وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الامراء الى أرض الشام وثالثا صحبة عمرو بن العاص رضي الله عنه الى بلاد مصر ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها وتوفاه الله عز وجل واختار له ما عنده من الكرامة ومنّ على أهل الاسلام بأن ألهم

الصديق أن استخلف عمر الفاروق فقام بالامر بعده قياما تاما لم يدر الفلك بعد الانبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر الى آخرها وأكثر اقليم فارس وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان وتقهقر الى أقصى مملكته وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر الى القسطنطينية وأنفق أموالها في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الاسلامية الى أقصى مشارق الارض ومغاربها ففتحت بلاد المغرب الى أقصى ما هنالك الاندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ومن ناحية المشرق الى أقصى بلاد الصين وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية وفتحت مدائن العراق وخراسان والاهواز وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا وخذل الله ملكهم الاعظم خاقان وجبي الخراج من المشارق والمغارب الى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الامة على حفظ القرآن ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الايمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا قال الامام مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا ثم تكلم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة خفيت عني فسألت أبي ماذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشرا على عفة فرجه وطعام بطنه فلما وفى الاجل قيل يا رسول الله أي الاجلين قضى موسى قال أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه الحديث بطوله وفيه مسلمة الدمشقي ضعفه الائمة (فلما قضى موسى الاجل) الذي هو أكملهما وأوفاهما وهو العشرة الاعوام والفاء فصيحة عن ابن عباس انه سئل أي الاجلين قضى موسى قال أكثرهما وأطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل وصححه الحاكم أقول في قوله اذا قال رسول الله فعل نظر فان موسى لم يقل انه سيقضي أكثر الاجلين بل قال أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان موسى قضى أتم الاجلين من طرق أخرج الخطيب في تاريخه عن أبي ذر قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا سئلت أي الاجلين قضى موسى فقل خيرهما وأبرهما وان سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما وهي التي جاءت وقالت يا أبت استأجره وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لي جبريل يا محمد ان سألك اليهود أي الاجلين قضى موسى فقل أوفاهما وان سألوك أيهما تزوج فقل الصغرى منهما فروايات انه قضى أتم الاجلين لها طرق يقوي بعضها بعضا (و) لما أتم الاجل ودنا أيام الزلفة وظهرت أنوار النبوة (سار بأهله) زوجته بإذن أبيها الى مصر ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه وقيل سار لصلة رحمه وزيارة أمه وأخيه وهذا أولى وفيه دليل على ان الرجل يذهب بأهله حيث شاء (آنس من جانب الطور) أي أبصر من الجهة التي تلي الطور (نارا) وذلك انه كان في البرية في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق وقد قدم تفسير هذا في سورة طه مستوفى قال ابن عباس لما قضى موسى الاجل سار بأهله فضل الطريق وكان في الشتاء فرفعت له نار فلما رآها ظن انها نار وكانت من نور الله (قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) أي لعلي أجد من يدلني على الطريق فان لم أجد خبرا آتيكم بشهاب قبس وهو المراد بقوله (أو جذوة من النار) وهذا تقدم تفسيره أيضا في سورة طه وفي سورة النمل وقرئ جذوة بكسر الجيم وضمها وفتحها وهي لغات في العود الذي في رأسه نار هذا هو المشهور وقيده بعضهم فقال في رأسه نار من غير لهب وقد ورد ما يقتضي وجود اللهب فيه قال الجوهري الجذوة والجذوة والجذوة الجمرة والجمع

فقال قال كلهم من قريش ورواه البخاري من حديث شعبة عن عبد الملك بن عمير به وفي رواية لمسلم انه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك وذكر معه أحاديث أخر وفي هذا الحديث دلالة على انه لابد من وجود اثنى عشر خليفة عادل وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فان كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الامر شيء فاما هؤلاء فانهم يكونون من قريش يلون فيعدلون وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة ثم لا يشترط ان يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الامة متتابعا ومتفرقا وقد وجد منهم أربعة على الولاء وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ثم كانت بعدهم فترة ثم وجد منهم ماشاء الله ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنيته كنيته يملأ الارض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما وقد روى الامام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا الآية قال كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون الى الله وحده والى عبادته وحده لاشريك له سرا وهم خائفون لايؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد بالهجرة الى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح فغبروا بذلك ماشاء الله ثم ان رجلا من أصحابه قال يارسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تصبروا الا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليس فيه حديدة وأنزل الله تعالى هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح ثم ان الله تعالى قبض نبيه صلى الله عليه وسلم فكانوا كذلك آمنين في امارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا فغير بهم وقال بعض السلف خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله ثم تلا هذه الآية وقال

جذى وجذى قال مجاهد ان الجذوة قطعة من الجمر في لغة العرب وقال أبو عبيدة هي القطعة الغليظة من الخشب كأن في طرفها نارا ولم تكن وليس المراد هنا الا ما في رأسه نار قاله السمين (لعلكم تصطلون) من البرد أي تستدفئون بالنار (فلما أتاها) اى النار التي ابصرها وقيل اى الشجرة والاول أولى لعدم الذكر للشجرة (نودي من) لابتداء الغاية (شاطئ الواد الايمن) صفة للشاطئ او للوادي وهو من اليمن وهو البركة او من جهة اليمين المقابل لليسار بالنسبة الى موسى اى الذي يلي يمينه دون يساره وشاطئ الوادي طرفه وحافته وكذا الشط والسيف والساحل كلها بمعنى قال الراغب وجمع الشاطئ اشطاء قال ابن عباس كان النداء من السماء الدنيا وظاهر القرآن يخالف ما قاله رضي الله تعالى عنه (في البقعة) متعلق بنودي او بمحذوف على انه حال من الشاطئ (المباركة) بتكليم الله تعالى فيها (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ الوادي لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ وقال الجوهري شاطئ الاودية ولا يجمع قرأ الجمهور البقعة بضم الباء وقرئ بفتحها وهي لغة حكاها ابو زيد عن ابن مسعود قال ذكرت لي الشجرة التي أوى اليها موسى فسرت اليها يومي وليلتي حتى صبحتها فاذا هي سمرة خضراء ترف فصليت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت فأهوى اليها بعيري وهو جائع فاخذ منها ملا فيه فلاكه فلم يستطع أن يسيغه فلفظه فصليت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلمت ثم انصرفت أخرجه عبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وقيل الشجرة العناب أو العوسج وقيل كانت من العليق (ان ياموسى اني أنا الله رب العالمين) ان هي المفسرة أو هي المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن وجملة النداء مفسرة له والاول أولى قرئ اني بكسر الهمزة على اضمار القول أو على تضمين النداء معناه والفتح قراءة ضعيفة قال جعفر أبصر نارا دلته على الانوار لانه رأى النور في هيئة النار فلما دنا منها شملته انوار القدس واحاطت به جلابيب الانس فخوطب بالطف خطاب واستدعى منه أحسن جواب فصار بذلك مكلما شريفا أعطي ماسأل وأمن مما خاف قيل ان موسى لما رأى النار في الشجرة الخضراء علم انه لا يقدر على الجمع بين النار وخضرة الشجرة الا الله فعلم بذلك ان المتكلم هو الله تعالى وقيل ان الله خلق في نفس موسى علما ضروريا بان المتكلم هو الله وان ذلك الكلام كلام الله وذهب جماعة من المتكلمين منهم الغزالي الى انه سمع كلامه الازلي

[illegible] حرب شديد [illegible] وقوله تعالى واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في
[illegible] لعلكم تشكرون وقوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه
عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض الآية وقال تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض الآيتين
وقوله وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم الآية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم حين وفد عليه أتعرف الحيرة
قال لم أعرفها ولكن قد سمعت بها قال فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة
حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز قلت كسرى بن هرمز قال نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد قال عدي فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قالها وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن أبي سلمة عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب وقوله تعالى يعبدونني لا يشركون بي شيئا قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن أنس أن معاذ بن جبل حدثه قال بينا أنا رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال يا معاذ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك
يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق الله على العباد قلت الله ورسوله أعلم قال حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به
شيئا قال ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قال
قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق العباد على الله أن لا يعذبهم أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة وقوله تعالى ومن كفر بعد
ذلك فأولئك هم الفاسقون أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما فالصحابة رضي الله عنهم

الذي لا صوت ولا حرف ولا دليل عليه وقيل غير ذلك مما لا فائدة في ذكره وقال في
سورة طه إني أنا ربك وقال في النمل نودي أن بورك من في النار ومن حولها وههنا
مخالفات لما هنا من حيث اللفظ إلا أن الجميع متوافق في المقصود وهو فتح باب الاسـ[illegible]
وسوق الكلام على وجه يؤدي إليه قال الإمام لا منافاة بين هذه الأشياء فهو تعالى ذكر
الكل إلا أنه حكى في كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء انتهى (وأن ألق عصاك) وقد
تقدم تفسير هذا وما بعده في طه والنمل وفي الكلام حذف أي فألقاها فصارت ثعبانا فاهتزت
(فلما رآها تهتز) أي تتحرك (كأنها جان) في سرعة حركتها مع عظم جسمها (ولى مدبرا)
أي هاربا منها (ولم يعقب) أي لم يرجع فنودي (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من
الآمنين) من أن ينالك مكروه من الحية وقد تقدم تفسير جميع ما ذكر هنا في سورة طه فلا
نعيده وكذلك قوله (اسلك يدك في جيبك) والسلك بالفتح والسلوك كل منهما مصدر
لسلك الشيء في الشيء أنفذه فيه فإنه من باب قعد ونصر (تخرج بيضاء من غير سوء)
فأدخلها فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس من غير برص (واضمم إليك جناحك) جناح
الإنسان عضده ويقال لليد كلها جناح أي اضمم إليك يديك المبسوطتين لتتقي بهما
الحية كالخائف الفزع وقد عبر عن هذا المعنى ثلاث عبارات الأولى اسلك يدك في جيبك
والثانية واضمم إليك جناحك والثالثة وأدخل يدك في جيبك قال الزمخشري جعل
الجناح وهو اليد في أحد الموضعين مضموما وفي الآخر مضموما إليه فالمراد بالجناح
المضموم اليد اليمنى وبالجناح المضموم إليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين
ويسراهما جناح ويجوز أن يراد بالضم التجلد والثبات عند انقلاب العصا ثعبانا وقيل كل
خائف بعد موسى إذا وضع يده على صدره زال خوفه قال الفراء أراد بالجناح عصاه (من
الرهب) أي من أجل الخوف قرئ بفتح الراء والهاء وبإسكان الهاء وبضم الراء وإسكان
الهاء وقال بعض أهل المعاني الرهب الكم بلغة حمير وبني حنيفة وقال الأصمعي سمعت
أعرابيا يقول لآخر أعطني ما في رهبك فسألته عن الرهب فقال الكم فعلى هذا يكون
معناها اضمم إليك يدك وأخرجها من الكم (فذانك) إشارة إلى العصا واليد قرئ بتخفيف
النون قيل والتشديد لغة قريش وقرئ بياء تحتية بعد نون مكسورة وهي لغة هذيل وقيل
لغة تميم (برهانان) أي حجتان نيرتان ودليلان واضحان وآيتان بينتان وسميت الحجة برهانا

لإنارتها

لما كانوا أقوم الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله وكان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا في سائر العباد والبلاد ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى يوم القيامة وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وفي رواية حتى يقاتلون الدجال وفي رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون وكل هذه الروايات

صحيحة ولا تعارض بينها (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير) يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة وهي الاحسان الى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم وان يكونوا في ذلك مطيعين للرسول صلى الله عليه وسلم أي سالكين وراءه فيما به أمرهم وترك ما عنه زجرهم لعل الله يرحمهم بذلك ولا شك ان من فعل هذا ان الله سيرحمه كما قال تعالى في الآية الاخرى أولئك سيرحمهم الله وقوله تعالى لا تحسبن أي لا تظن يا محمد ان الذين كفروا أي خالفوك وكذبوك معجزين في الأرض أي لا يعجزون الله بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى ومأواهم أي في الدار الآخرة النار ولبئس المصير أي بئس المآل مآل الكافرين وبئس القرار وبئس المهاد (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم) هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض وما تقدم في أول السورة فهو استئذان

لا نار به من قولهم للمرأة البيضاء برهونة (من ربك) أي كائنان منه تعالى مرسلان او واصلان (الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين) متجاوزين الحد في الظلم خارجين عن الطاعة أبلغ خروج والجملة تعليل لما قبلها ولما سمع موسى قول الله سبحانه هذا طلب منه سبحانه ان يقوي قلبه و(قال رب اني قتلت منهم نفسا) يعني القبطي الذي وكزه فقضى عليه (فأخاف أن يقتلون) بها (وأخي هرون هو أفصح مني لسانا) أي كلاما لانه كان في لسان موسى حبسة من وضع الجمر في فيه كما تقدم بيانه والفصاحة لغة الخلوص يقال فصح اللبن وأفصح فهو فصيح أي خلص من الرغوة ومنه فصح الرجل جادت لغته وأفصح تكلم بالعربية وقيل الفصيح الذي ينطق والاعجم الذي لا ينطق وأما في اصطلاح أهل البيان ففصاحة الكلمة خلوصها عن تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس وفصاحة الكلام خلوصه من ضعف التأليف والتعقيد (فأرسله معي ردأ) النصب على الحال أي عونا والرده المعين من أردأته اذا أعنته يقال فلان رده فلان اذا كان ينصره ويشد ظهره وقيل من قولهم اردى على المائة اذا زاد عليها فكأن المعنى أرسله معي زيادة في تصديق (يصدقني) بالرفع على الاستئناف وبالجزم على جواب الامر وقرأ أبي يصدقوني أي فرعون وملؤه وقال ابن عباس كي يصدقني أي هرون ومعنى تصديقه موسى اعانته اياه بزيادة البيان في مظان الجدال وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة وتلخيص الدلائل بلسانه والجواب عن شبهات الكفار ببيانه ليثبت دعواه لا ان يقول له صدقت ألا ترى الى قوله هو أفصح مني وفضل الفصاحة انما يحتاج اليه لتقرير البرهان لا لقوله صدقت فسحبان وباقل فيه يستويان وهذا هو الجاري مجرى التصديق كما يصدق القول بالبرهان (اني أخاف أن يكذبون) اذا لم يكن معي هرون لعدم انطلاق لساني بالمحاجة (قال سنشد عضدك بأخيك) هرون وكان اذ ذاك بمصر أي نقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد وعن شدتها بشدة العضد فهو مجاز مرسل على طريق اطلاق السبب وارادة المسبب بمرتبتين فان شدة العضد سبب مستلزم لشدة اليد وشدة اليد مستلزمة لقوة الشخص في المرتبة الثانية قال الشهاب الشد التقوية فهو اما كناية تلويحية عن تقويته لان اليد تشد بشد العضد والجملة تشتد بشد اليد ولا مانع من الحقيقة كما توهم أو استعارة تمثيلية شبه حال موسى في تقويه بأخيه

الاجانب بعضهم على بعض فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال الاول من قبل صلاة الغداة لان الناس اذذاك يكونون نياما فى فرشهم وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة أى فى وقت القيلولة لان الانسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ومن بعد صلاة العشاء لانه وقت النوم فيؤمر الخدم والاطفال ان لا يهجموا على أهل البيت فى هذه الاحوال لما يخشى من ان يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الاعمال ولهذا قال ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن (١١٤) أى اذا دخلوا فى حال غير هذه الاحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم اياهم ولا عليهم ان رأوا شيأ من غير تلك الاحوال لانه قد أذن لهم فى الهجوم ولانهم طوافون عليكم أى فى الخدمة وغير ذلك و يغتفر فى الطوافين مالا يغتفر فى غيرهم ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن ان النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الهرة انها ليست بنجسة انها من الطوافين عليكم أو الطوافات ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشئ وكان عمل الناس بها قليلا جدا أنكر عبد الله ابن عباس ذلك على الناس كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال قال ابن عباس ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الى آخر الآية والآية التى فى سورة النساء واذا حضر القسمة أولوا القربى الآية والآية التى فى الحجرات ان أكرمكم عند الله أتقاكم وفى لفظ له أيضا من حديث اسمعيل بن مسلم وهو ضعيف عن عمرو بن دينار عن عطاء ابن أبى رباح عن ابن عباس قال غلب الشيطان الناس على ثلاث آيات فلم يعملوا بهن يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الى آخر الآية وروى أبو داود حدثنا ابن الصباح بن سفيان وابن عبدة وهذا حديثه أخبرنا سفيان بن عبيد الله ابن أبى يزيد سمع ابن عباس يقول لم يؤمن بها أكثر الناس آية الاذن وانى لآمر جاريتى هذه تستأذن على قال أبو داود وكذلك رواه عطاء عن ابن عباس يأمر به وقال الثورى عن موسى بن أبى عائشة سألت الشعبى ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم قال لم تنسخ قلت فان الناس لا يعملون بها فقال الله المستعان وقال ابن أبى حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا ابن وهب أخبرنا سليمان بن

بحال اليد فى تقويها بالعضد و يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وفى ضده فت الله عضدك قرأ الجمهور عضدك بفتح العين وضم الضاد وقرئ بضمها وسكون الضاد و بفتحهما (ونجعل لكما سلطانا) أى حجة و برهانا أو تسلطا وغلبة وهيبة فى قلوب الاعداء (فلا يصلون اليكما) بالاذى والسوء ولا يقدرون على غلبتكما بالحجة (بآياتنا) أى تمتنعان منهم بآياتنا أو اذهبا بآياتنا وقيل الباء للقسم وجوابه فلا يصلون وما أضعف هذا القول وقال الاخفش وابن جرير فى الكلام تقديم وتأخير أى أنتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا وأولى هذه الوجوه أولها وفى قوله (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) تبشير لهما وتقوية لقلوبهما (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) واضحات الدلالة وقد تقدم وجه اطلاق الآيات وهى جمع على العصا واليد فى سورة طه وهو أن فى كل منهما آيات عديدة (قالوا ما هذا الا سحر مفترى) أى مختلق مكذوب اختلقته من قبل نفسك ثم افتريته على الله أو سحر موصوف بالافتراء كسائر أنواع السحر وليس بمعجزة من عند الله وسحر لم يفعل قبل هذا الوقت مثله (وما سمعنا بهذا) الذى جئت به من دعوى النبوة أو ما سمعنا بهذا السحر (فى آبائنا الاولين) أى كائنا أو واقعا فيهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) يريد نفسه وانما جاء بهذه العبارة لئلا يصرح لهم بما يريده قبل أن يوضح لهم الحجة والله أعلم قرئ وقال بالواو و بغيرها وكذلك هو فى مصاحف أهل مكة (ومن تكون له عاقبة الدار) بالفوقية وهى أوضح من قراءتها بالتحتية على ان اسم يكون عاقبة الدار والتذكير لوقوع الفصل ولانه تأنيث مجازى والمراد بالدار هنا الدنيا وعاقبتها هى الجنة وانما كانت عاقبة لها لان الدنيا خلقت مجازا وطريقا اليها أو المراد بالدار الدار الآخرة الصادقة على الجنة والنار والاضافة بمعنى فى والمعنى ومن تكون له العاقبة المحمودة فى الدار الآخرة (انه لا يفلح الظالمون) أى ان الشأن انهم لا يفوزون بمطلب خير (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) تمسك اللعين بمجرد الدعوى الباطلة مغالطة لقومه وقد كان يعلم ان ربه الله عز وجل والظاهر انه لا يريد بالالهية نفسه كونه خالقا للسموات والارض وما بينهما فان العلم بامتناع ذلك مما لا يخفى على أحد فالشك فى ذلك يقتضى زوال العقل بالكلية فالمخذول لعنه الله كأنه يظن ان الافلاك والكواكب كافية فى اختلاف أحوال هذا العالم السفلى فلا حاجة الى اثبات صانع قال القاضى نفى علمه باله غيره دون وجوده

بلال عن عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس ان رجلين سألاه عن الاستئذان في ثلاث عورات التي أمر الله بها في القرآن فقال ابن عباس ان الله ستير يحب الستر كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم فربما فاجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمه في حجره وهو على أهله فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات التي سمى الله ثم جاء الله بعد بالستور فبسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأى الناس ان ذلك قد كفاهم من الاستئذان الذي أمروا به وهذا اسناد صحيح الى ابن عباس ورواه أبو داود عن القعنبي عن الدراوردي عن عمرو بن أبي عمرو به وقال (١١٥) السدي كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون ان يواقعوا نساءهم في هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا الى الصلاة فأمرهم الله ان يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات الا باذن وقال مقاتل بن حيان بلغنا والله أعلم ان رجلا من الانصار وامرأته اسماء بنت مرشدة صنعا للنبي صلى الله عليه وسلم طعاما فجعل الناس يدخلون بغير اذن فقالت أسماء يا رسول الله ما أقبح هذا انه ليدخل على المرأة وزوجها وهما في ثوب واحد غلامهما بغير اذن فأنزل الله في ذلك يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم الى آخرها ومما يدل على انها محكمة لم تنسخ قوله كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ثم قال تعالى واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم يعني اذا بلغ الاطفال منكم الحلم الذين انما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث فاذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال يعني بالنسبة الى أجانبهم والى الاحوال التي يكون الرجل على امرأته وان لم يكن في الاحوال الثلاث قال الاوزاعي عن يحيى بن أبي كثير اذا كان الغلام رباعيا فانه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه فاذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال وهكذا قال سعيد بن جبير وقال في قوله كما استأذن الذين من قبلهم يعني كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه وقوله والقواعد من النساء قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والضحاك وقتادة هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد اللاتي لا يرجون نكاحا أي لم يبق لهن تشوف الى التزوج فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة أي ليس عليها من الحرج في التستر كما على غيرها من النساء قال أبو داود حدثنا أحمد بن محمد المروزي حدثني علي بن

اذ لم يكن عنده ما يقتضي الجزم بعدمه ولذلك أمر ببناء الصرح قلت هو رد على الزمخشري في قوله ان المقصود بنفي العلم بالاله نفي وجوده ويمكن التوجيه بان يقال الوجود وجودان وجود ذهني ووجود خارجي والمراد في كلامه الاول ولا شك انه اذا انتفى علم الانسان بشيء انتفى وجوده في ذهنه ولكن ربما كان هذا غير مراد للزمخشري لان الظاهر من كلامه الوجود الشائع عند أهل اللغة وهو الخارجي قال سراج الدين غرض صاحب الكشاف ان عدم الوجود سبب لعدم العلم بالوجود في الجملة ولا شك انه كذلك فاطلق المسبب وأريد السبب لا لان بينهما ملازمة كلية على انه لما كان من أقوى أسباب عدم العلم لانه المطرد جاز أن يطلق ويراد به الوجود اذ لا يشترط عند علماء هذا الفن اللزوم العقلي بل العادي والعرفي كاف أيضا وقد يقول أحدنا لا أعلم ذلك أي لو كان موجودا لعلمته اذا قامت قرينة وهذا استعمال شائع في عرف العرب والعجم عند العامة والخاصة كيف وكان المخذول يدعي الالهية فالظاهر أنه من الكناية لا من المجاز والمصنف اغتاظ من معاوسة انتفاء العلم لانتفاء الوجود ليبين ان انتفاء العلم من روادف انتفاء الوجود انتهى قال الشوكاني وهو الذي خطر ببالي انه الجواب لكنه عارض ذلك الخاطر اشكالات لا يتسع لها المقام انتهى وقد أشار أبو السعود في تفسيره الى الجواب عن هذا الاشكال فقال وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم من انتفائها انتفاء معلوماتها ولا كذلك العلوم الانفعالية انتهى وقد وافق على هذا القاضي ولاح لك عن هذا جوابان الاول انه ذكر نفي العلم وأراد نفي المعلوم بطريق الكناية على الوجه الذي ذكره السراج الثاني تخصيص العلم بالفعلي لا الانفعالي كما ذكره أبو السعود والبيضاوي والثالث ان يراد بالوجود الوجود في ذهن المتكلم بتلك الكلمة وفي كل جواب من هذه الاجوبة كلام لا يلتبس على العالم بالفن قال الخفاجي وعلى كل حال فكلام القاضي لا يخلو عن ضعف والذي غره فيه كلام صاحب الانتصاف انتهى قال ابن عباس لما قال فرعون هذا القول قال جبريل يا رب طغى عبدك فأذن لي في هلاكه فقال يا جبريل بل هو عبدي ولن يسبقني له أجل يجيء ذلك الاجل فلما قال أنا ربكم الاعلى قال الله يا جبريل سبقت دعوتك في عبدي وقد جاء أوان هلاكه وأخرج ابن مردويه عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمتان قالهما فرعون ما علمت لكم من اله غيري وقوله أنا ربكم الاعلى قال

الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوي عن عكرمة عن ابن عباس وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن الآية واستثنى من ذلك القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا الآية قال ابن مسعود في قوله فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن قال الجلباب أو الرداء وكذا روي عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جبير وأبي الشعثاء وابراهيم النخعي والحسن وقتادة والزهري والاوزاعي وغيرهم وقال أبو صالح تضع الجلباب وتقوم بين يدي الرجل في الدرع والخمار وقال سعيد بن جبير وغيره في قراءة عبد الله بن مسعود أن يضعن من ثيابهن وهو الجلباب من فوق الخمار فلا بأس أن يضعن عند غريب أو غيره بعد أن يكون عليها خمار صفيق وقال سعيد بن جبير في الآية غير متبرجات بزينة يقول لا يتبرجن بوضع الجلباب ليرى ما عليهن من الزينة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عبيد الله حدثنا ابن المبارك حدثني سوار بن ميمون حدثتنا طلحة بنت عاصم عن أم الضياء انها قالت دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت يا أم المؤمنين ما تقولين في الخضاب والنفاض والصباغ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب وثياب رقاق فقالت يا معشر النساء قصتكن كلها واحدة أحل الله لكن الزينة غير متبرجات أي لا يحل لكن أن يروا منكن محرما وقال السدي كان شريك لي يقال له مسلم وكان مولى لامرأة حذيفة بن اليمان فجاء يوما الى السوق وأثر الحناء في يده فسألته عن ذلك فأخبرني انه خضب رأس مولاته وهي امرأة حذيفة فأنكرت ذلك فقال ان شئت أدخلتك عليها فقلت نعم فأدخلني عليها فاذا هي امرأة جليلة فقلت لها ان مسلما حدثني انه خضب رأسك فقالت نعم يا بني اني من القواعد اللاتي لا يرجون نكاحا وقد قال الله تعالى في ذلك ما سمعت وقوله وان يستعففن خير لهن أي وترك وضعهن لثيابهن وان كان جائزا خير وأفضل لهن والله سميع عليم (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من

كان بينهما أربعون عاما فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ثم رجع الى تكبره وتجبره وايهام قومه بكمال اقتداره فقال (فأوقد لي يا هامان على الطين) أي اطبخ لي الطين حتى يصير آجرا أي بعد اتخاذه لبنا عن قتادة قال بلغني ان فرعون أول من طبخ الآجر وبنى به وعن ابن جريج نحوه والنداء بياهامان في وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر (فاجعل لي) من هذا الطين الذي توقد عليه حتى يصير آجرا (صرحا) أي قصرا عاليا وقيل منارة روي ان هامان بنى صرحا لم يبلغه بناء أحد من الخلق وأراد الله أن يفتنهم فيه فضرب الصرح جبريل بجناحه فقطعه ثلاث قطع وقعت قطعة على عسكر فرعون وقطعة في البحر وقطعة في المغرب ولم يبق أحد من عماله الا هلك (لعلي أطلع الى اله موسى) أي اصعد اليه وانظر وأقف على حاله كأنه توهم انه لو كان شأنه اله كان جسما في السماء يمكن الرقي اليه والاطلاع الصعود والطلوع والاطلاع واحد يقال طلع الجبل واطلع أي صعد (واني لاظنه) أي موسى (من الكاذبين) في دعواه ان للارض والخلق الها سواه وانه أرسله (واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق) المراد بها أرض مصر والاستكبار التعاظم بغير استحقاق بل بالعدوان لانهم لم تكن لهم حجة يدفع بها ما جاء به موسى ولا شبهة ينصبها في مقابلة ما أظهره من المعجزات (وظنوا) أي فرعون وجنوده (انهم الينا لا يرجعون) قرئ مبنيا للمفعول وللفاعل والمراد بالرجوع البعث والمعاد (فأخذناه وجنوده) بعد أن عتوا في الكفر وجاوزوا الحد فيه (فنبذناهم في اليم) أي طرحناهم في البحر المالح وهو القلزم وفي هذا تفخيم وتعظيم لشأن الاخذ واستحقار المأخوذين كأنه اخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في اليم وقد تقدم بيان الكلام في هذا (فانظر) يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم (كيف كان عاقبة الظالمين) حين صاروا الى الهلاك (وجعلناهم أئمة يدعون الى النار) أي صيرناهم رؤساء متبوعين في الكافرين فكأنهم باصرارهم على الكفر والتمادي فيه ودعائهم الى الشرك يدعون اتباعهم الى النار لانهم اقتدوا بهم وسلكوا طريقتهم تقليدا لهم وفيه دليل على خلق افعال العباد وقيل المعنى انه يأتم بهم أي يعتبر بهم من جاء بعدهم ويتعظ بما اصيبوا به والاول أولى (ويوم القيامة لا ينصرون) أي لا ينصرهم أحد ولا يمنعهم مانع من عذاب الله (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) أي طردا وابعادا وأمرنا العباد بلعنهم فكل من ذكرهم لعنهم والاول أولى وفي أبي السعود أي لا تزال تلعنهم

الملائكة

عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا فقال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقال انها نزلت في الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتي في سورة الفتح وتلك في الجهاد لا محالة أي أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم وكما قال تعالى في سورة براءة ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد

ما أحملكم عليه الى قوله ان لا يجدوا ما ينفقون وقيل المراد ههنا انهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره الى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره فكرهوا ان يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم وقال الضحاك كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرا وتعززا ولئلا يتفضلوا عليهم فأنزل الله هذه الآية وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى ليس على الأعمى حرج الآية قال كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض الى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون انما يذهبون بنا الى بيوت غيرهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم وقال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام فلا يأكل من أجل ان رب البيت ليس ثم فقال الله تعالى ليس على الأعمى حرج الآية وقوله تعالى ولا على أنفسكم ان تأكلوا من بيوتكم انما ذكر هذا وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ وليساويه ما بعده في الحكم وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ولهذا استدل بهذا من ذهب الى ان مال الولد بمنزلة مال أبيه وقد جاء في المسند والسنن من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال أنت ومالك لأبيك وقوله أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم الى قوله أو ما ملكتم مفاتحه هذا ظاهر وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض كما هو مذهب أبي حنيفة والامام أحمد بن حنبل في المشهور عنهما وأما قوله

الملائكة والمؤمنون خلفا عن سلف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) المبعدين والمقبوح المطرود المبعد وقال أبو عبيدة وابن كيسان معناه من المهلكين الممقوتين وقال أبو زيد قبح الله فلانا قبحا وقبوحا أبعده من كل خير قال أبو عمرو قبحت وجهه بالتخفيف بمعنى قبحت بالتشديد وقيل المقبوح المشوه الخلقة أي فهم من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسواد الوجوه والقبيح أيضا عظم الساعد مما يلي النصف منه الى المرفق والعامل في يوم محذوف يفسره من المقبوحين أي وقبحوا يوم القيامة وهو الأظهر أو هو معطوف على موضع في هذه الدنيا أي وأتبعناهم لعنة يوم القيامة أو معطوف على لعنة على حذف مضاف أي ولعنة يوم القيامة والوجه الثاني أظهر (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة (من بعد ما أهلكنا القرون الأولى) أي قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم وقيل من بعد ما أهلكنا فرعون وقومه وخسفنا بقارون والتعرض لكون ايتاء التوراة بعد اهلاك الأمم الماضية للاشعار بمسيس الحاجة الداعية اليها تمهيد لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن على رسول الله فان اهلاك القرون الأولى من موجبات اندراس معالم الشرائع وانطماس آثارها وأحكامها المؤديين الى اختلال نظام العالم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الأصول الباقية على ممر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الأمم الخالية الموجبة كأنه قيل ولقد آتينا موسى التوراة على حين حاجة اليها أخرج البزار وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أهلك الله قوما ولا قرنا ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير القرية التي مسخت قردة ألم تر الى قوله ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى وروي عنه موقوفا (بصائر للناس) أي آتيناه الكتاب لأجل أن يتبصر الناس به أو حال كونه بصائر لهم يبصرون به الحق والبصائر جمع بصيرة وهي نور القلب كما أن البصر نور العين (وهدى) يهتدون اليه وينقذون أنفسهم به من الضلالة بالاهتداء به (ورحمة) من الله رحمهم بها (لعلهم يتذكرون) هذه النعم فيشكرون الله ويؤمنون به ويجيبون داعيه الى ما فيه خير لهم ويتعظون بما فيه من المواعظ (وما كنت بجانب الغربي) هذا شروع في بيان ان انزال القرآن واقع في بيان شدة

أو ما ملكتم مفاتحه وقال سعيد بن جبير والسدي هو خادم الرجل من عبد وقهرمان فلا بأس ان يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف وقال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت كان المسلمون يرغبون في النفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدفعون مفاتحهم الى ضمنائهم ويقولون قد أحللنا لكم ان تأكلوا مما احتجتم اليه وكانوا يقولون انه لا يحل لنا ان نأكل انهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وانما نحن أمناء فأنزل الله أو ما ملكتم مفاتحه وقوله أو صديقكم أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم

ولا جناح عليكم في الاكل منها اذا علمتم ان ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك وقال قتادة اذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير اذنه وقوله ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا قال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وذلك لما أنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل قال المسلمون ان الله قد نهانا ان نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام من أفضل الاموال فلا يحل لاحد منا ان يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك فأنزل الله ليس على الاعمى حرج الى قوله أو صديقكم وكانوا أيضا يأنفون ويتحرجون ان يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون معه غيره فرخص الله لهم في ذلك فقال ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا وقال قتادة وكان هذا الحي من بني كنانة يرى أحدهم ان مخزاة عليه ان يأكل وحده في الجاهلية حتى ان كان الرجل ليسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا فهذه رخصة من الله تعالى في ان يأكل الرجل وحده ومع الجماعة وان كان الاكل مع الجماعة أفضل وأبرك كما رواه الامام احمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن وحشي بن حرب عن أبيه عن جده ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم انا نأكل ولا نشبع قال لعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث الوليد بن مسلم به وقد روى ابن ماجه أيضا من حديث عمرو بن دينار القهرماني عن سالم عن أبيه عن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال كلوا جميعا ولا تفرقوا فان البركة مع الجماعة وقوله فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم قال سعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة والزهري

دليل

الحاجة اليه أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي وهو المكان الواقع في شق الغرب فيكون من باب حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه واختاره الزجاج وقال الكلبي بجانب الوادي الغربي أي حيث ناجى موسى ربه (اذ قضينا الى موسى الامر) أي عهدنا اليه وكلمناه وأحكمنا الامر معه بالرسالة الى فرعون وقومه (وما كنت من الشاهدين) لذلك حتى تقف على حقيقته وتحكيه من جهة نفسك وقيل معنى اذ قضينا الى موسى الامر اذ كلفناه أمرنا ونهينا وقيل أخبرناه ان أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خير الامم ولا يسلم نفي كونه بجانب الغربي نفي كونه من الشاهدين لانه يجوز أن يحضر ولا يشهد وقيل المراد بالشاهدين السبعون الذين اختارهم موسى للميقات واذا تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الاحوال لا يمكن ان يكون بالحضور عندها من نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمشاهدة لها منه وانتفى بالادلة الصحيحة انه لم يتلق ذلك من غيره من البشر ولا علمه معلم منهم كما قدمنا تقريره تبين انه من عند الله سبحانه يوحيه الى رسوله بواسطة الملك النازل بذلك فهذا الكلام هو على طريقة وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم (ولكنا أنشأنا قرونا) أي خلقنا أمما بين زمانك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وزمان موسى (فتطاول عليهم العمر) أي طالت عليهم المهلة وتمادى عليهم الامد وفترت النبوة وكانت الاخبار تخفى فتغيرت الشرائع والاحكام وتنوسيت الاديان واندرست العلوم ووقع التحريف في كثير منها فتركوا أمر الله ونسوا عهده فاقتضت الحكمة التشريع الجديد فبعثناك رسولا وأوحينا اليك خبر موسى وغيره ليكون معجزة لك وتذكيرا لقومك ومثله قوله سبحانه فطال عليهم الامد فقست قلوبهم وقد استدل بهذا الكلام على ان الله سبحانه قد عهد الى موسى عهودا في محمد صلى الله عليه وآله وسلم وفي الايمان به فلما طال عليهم العمر ومضت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود وتركوا الوفاء بها (وما كنت ثاويا في أهل مدين) أي مقيما بينهم كما أقام موسى حتى تقرأ على أهل مكة خبرهم وتقص عليهم من جهة نفسك يقال ثوى يثوي ثواء وثويا فهو ثاو ومن المعلوم ان واقعة مدين كانت قبل واقعة الطور فمقتضى الترتيب الوقوعي ان يتقدم عليه ما وقع وسط بينهما للتنبيه على ان كلا منهما برهان مستقل على ان اخباره صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه القصص بطريق الوحي الالهي ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم ان الكل

يعنى فليسلم بعضكم على بعض وقال ابن جريج أخبرنى أبو الزبير سمعت جابر بن عبد الله يقول اذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة قال ما رأيته الا يركه قال ابن جريج وأخبرنى زياد عن ابن طاوس انه كان يقول اذا دخل أحدكم بيته فليسلم قال ابن جريج قلت لعطاء أواجب اذا خرجت ثم دخلت ان أسلم عليهم قال لا ولا أوثر وجوبه عن أحد ولكن هو أحب الى وما أدعه الا ناسيا وقال مجاهد اذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله واذا دخلت على أهلك فسلم عليهم واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وروى

الثورى عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد اذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله السلام علينا من ربنا السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وقال قتادة اذا دخلت على أهلك فسلم عليهم واذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فانه كان يؤمر بذلك وحدثنا ان الملائكة ترد عليه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عويد عن أبى عمران الجولانى عن أبيه عن أنس قال أوصانى النبى صلى الله عليه وسلم بخمس خصال قال يا أنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك وسلم على من لقيك من أمتى تكثر حسناتك واذا دخلت يعنى بيتك فسلم على أهلك يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين قبلك يا أنس ارحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة وقوله تحية من عند الله مباركة طيبة قال محمد بن اسحق حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس انه كان يقول ما أخذت التشهد الا من كتاب الله

دليل واحد على ما ذكر (تتلو عليهم) أى تقرأ على أهل مدين (آياتنا) وتعلم منهم وقيل تذكرهم بالوعد والوعيد وقيل الضمير لاهل مكة والمعنى عليه واضح وأكثر المفسرين على الوجه الاول والجملة فى محل نصب على الحال أو خبر ثان ويجوز ان تكون هذه الجملة هى الخبر وثاويا حال وجعلها الفراء مستأنفة كأنه قيل وها أنت تتلو على أمتك (ولكنا كنا مرسلين) أى أرسلناك الى أهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها قال الزجاج المعنى انك لم تشاهد قصص الانبياء ولا تليت عليك ولكنا أوحيناها اليك وقصصناها عليك (وما كنت) يا محمد (بجانب الطور) أى بجانب الجبل المسمى بالطور (اذ نادينا) موسى لما أتى الى الميقات مع السبعين ان خذ الكتاب بقوة وبين الارسال وايتاء التوراة نحو من ثلاثين سنة وقيل المنادى هو أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال وهب وذلك ان موسى لما ذكر الله له فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته قال يارب أرنيهم فقال الله انك لن تدركهم وان شئت ناديتهم فأسمعتك صوتهم قال بلى يارب فقال الله يا أمة محمد فأجابوا من أصلاب آبائهم فيكون معنى الآية على هذا ما كنت يا محمد بجانب الطور اذ كلمنا موسى فنادينا أمتك وسيأتى ما يدل على هذا ويقويه ويرجحه وعن أبى هريرة فى الآية قال نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل ان تسألونى واستجبت لكم قبل ان تدعونى وروى من وجه آخر عنه مرفوعا وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم فى الدلائل وأبو نصر السجزى فى الابانة والديلمى عن عمرو بن عبسة قال سألت النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ما كان النداء وما كانت الرحمة قال كتبه الله قبل أن يخلق خلقه بألفى عام ثم وضعه على عرشه ثم نادى يا أمة محمد سبقت رحمتى على غضبى أعطيتكم قبل أن تسألونى وغفرت لكم قبل ان تستغفرونى فمن لقينى منكم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبدى ورسولى صادقا أدخلته الجنة وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن حذيفة فى الآية قال نودوا يا أمة محمد ما دعوتمونا اذ استجبنا لكم ولا سألتمونا اذ أعطيناكم وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا ان الله نادى يا أمة محمد أجيبوا ربكم قال فأجابوا وهم فى أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم الى يوم القيامة فقالوا لبيك أنت ربنا حقا ونحن عبيدك حقا قال صدقتم أنا ربكم وأنتم عبيدى حقا قد عفوت عنكم قبل ان تدعونى وأعطيتكم قبل أن تسألونى فمن لقينى منكم بشهادة ان لا اله الا الله

سمعت الله يقول فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة فالتشهد فى الصلاة التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ثم يدعو لنفسه ويسلم وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث ابن اسحق والذى فى صحيح مسلم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالف هذا والله أعلم وقوله كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الاحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على انه يبين لعباده الآيات بيانا شافيا ليتدبروها

ويتقلوها العلوم يعملون (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم) وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات وسلامه عليه من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك أمرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه (١٢٠) والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ثم أمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه إذا استأذنه أحد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ولهذا قال فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الآية وقد قال أبو داود حدثنا أحمد بن حنبل ومسدد قالا حدثنا بشر هو ابن المفضل عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة وهكذا رواه الترمذي والنسائي من حديث محمد بن عجلان به وقال الترمذي حديث حسن (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) قال الضحاك عن ابن عباس كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه صلى الله عليه وسلم قال فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقال قتادة أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم وأن يبجل ويعظم وأن يسود وقال مقاتل في قوله لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً يقول لا تسموه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قال أمرهم الله أن يشرفوه هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا إلى آخر الآية وقوله يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون

دخل الجنة (ولكن رحمة من ربك) أي ولكن فعلنا ذلك رحمة منا لكم وقيل ولكن أرسلنا القرآن رحمة لكم وقيل علمناك وقيل عرفناك قال الأخفش ولكن رحمناك رحمة وقال الزجاج أي فعلنا ذلك بك لأجل الرحمة وقال الكسائي ولكن كان ذلك رحمة وقرئ رحمة بالرفع أي ولكن أنت رحمة (لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) والقوم هم أهل مكة فإنه لم يأتهم نذير ينذرهم قبله صلى الله عليه وآله وسلم في زمان الفترة بينه وبين عيسى وهو خمسمائة وخمسون سنة أو بينه وبين اسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببني اسرائيل (لعلهم يتذكرون) أي يتعظون بإنذارك (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) لولا هذه هي الامتناعية وأن وما في حيزها في موضع رفع بالابتداء أي ولولا إصابة المصيبة لهم وجوابها محذوف قال الزجاج تقديره ما أرسلنا إليهم رسلاً يعني أن الحامل على إرسال الرسل إليهم هو إزاحة عللهم فهو كقوله سبحانه لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقدره ابن عطية لعاجلناهم بالعقوبة ووافقه على هذا التقدير الواحدي فقال والمعنى لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة بكفرهم قال السمين ولا معنى لهذا (فيقولوا) الفاء السببية (ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً) لولا هذه هي التحضيضية أي هلا أرسلت رسولاً من عندك وجوابها قوله (فنتبع آياتك) فلذلك نصب بإضمار أن أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الهالك في الفترة يقول رب لم يأتني كتاب ولا رسول ثم قرأ هذه الآية والمراد بالآيات الآيات المنزلة الظاهرة الواضحة وإنما عطف القول على تصيبهم لكونه هو السبب للإرسال ولكن العقوبة لما كانت هي السبب للقول وكان وجوده بوجودها جعلت العقوبة كأنها هي السبب للإرسال بواسطة القول قاله في الكشاف وأطال سليمان الجمل في بيان ذلك وذكر عبارة السمين والشهاب وغيرهما وقال أبو السعود لولا قولهم هذا عند إصابة العقوبة لهم بسبب جناياتهم ما أرسلناك ولكن لما كان قولهم ذلك محققاً لا محيد عنه أرسلناك قطعاً لمعاذيرهم بالكلية (ونكون من المؤمنين) بهذه الآيات ومعنى الآية أنا لو عذبناهم لقالوا طال العهد بالرسل ولم يرسل الله إلينا رسولاً ويظنون أن ذلك عذر لهم ولا عذر لهم بعد أن بلغتهم أخبار الرسل ولكنا أكملنا الحجة وأزحنا العلة وأتممنا البيان بإرسالك يا محمد إليهم (فلما جاءهم الحق من عندنا) أي فلما جاءهم

أهل مكة الحق من عند الله وهو محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أنزل عليه من القرآن (قالوا) تعنتا منهم وجدالا بالباطل (لولا) هلا (أوتي) هذا الرسول (مثل ما أوتي موسى) من الآيات كاليد والعصا وغيرهما أو التوراة المنزلة عليه جملة واحدة فأجاب الله عليهم بقوله (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل) أي من قبل هذا القول أو من قبل ظهور محمد صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى انهم قد كفروا بآيات موسى كما كفروا بآيات محمد حيث (قالوا ساحران تظاهرا) مستأنفة مسوقة لتقرير كفرهم وعنادهم والمراد بهما موسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم والتظاهر التعاون أي تعاونا على السحر والضمير في أولم يكفروا الكفار قريش وقيل هو لليهود والاول أولى فان اليهود لا يصفون موسى بالسحر انما يصفه بذلك كفار قريش وأمثالهم الا أن يراد من أنكر نبوة موسى كفرعون وقومه فانهم وصفوا موسى وهرون بالسحر ولكنهم ليسوا من اليهود ويمكن أن يكون الضمير لمن كفر بموسى ومن كفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فان الذين كفروا بموسى وصفوه بالسحر والذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفوه أيضا بالسحر وقيل المعنى أولم يكفر اليهود في عصر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بما أوتي موسى من قبله بالبشارة بعيسى ومحمد قرأ الجمهور ساحران وقرأ الكوفيون سحران يعنون التوراة والقرآن وقيل الانجيل والقرآن قال بالاول الفراء وقال بالثاني أبو زيد وقيل ان الضمير في أولم يكفروا لليهود وانهم عنوا بقولهم ساحران عيسى ومحمدا عليهما الصلاة والسلام وقال ابن عباس في الآية هم أهل الكتاب (وقالوا انا بكل كافرون) يعني بكل من موسى ومحمد أو من موسى وهرون أو من موسى وعيسى أو من عيسى ومحمد أو بكل من التوراة والانجيل والفرقان على اختلاف الاقوال وفي هذه الجملة تقرير لما تقدمها من وصف النبيين بالسحر أو من وصف الكتابين به وتأكيد لذلك ثم أمر الله سبحانه نبيه أن يقول لهم قولا يظهر به عجزهم فقال (قل) لهم يا محمد اذا لم تؤمنوا بهذين الكتابين وقلتم فيهما ما قلتم (فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) أي من التوراة والقرآن وأوضح وأبين في هداية الخلق (أتبعه) جواب الامر وقد جزمه جمهور القراء لذلك وقرئ بالرفع على الاستئناف أي فان أتيتم به فأنا أتبعه وقال الفراء انه على هذه القراءة صفة للكتاب وفي هذا الكلام تهكم بهم وفيه أيضا دليل على أن قراءة الكوفيين أقوى من قراءة الجمهور لانه رجع الكلام الى الكتابين

الى قوله ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم الآية فهذا كله من باب الادب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم ... الآية والقول الثاني في ذلك ان المعنى في لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا أي لا تعتقدوا ان دعاءه على غيره كدعاء غيره فان دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن البصري وعطية العوفي والله أعلم وقوله قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا قال مقاتل بن حيان هم المنافقون كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ويعني بالحديث الخطبة فيلوذون بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى يخرجوا من المسجد وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد الا باذن من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة وكان اذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه الى النبي صلى الله عليه وسلم فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل لان الرجل منهم كان اذا تكلم والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب بطلت جمعته وقال السدي كانوا اذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم وقال قتادة في قوله قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا يعني لواذا عن نبي الله وعن كتابه وقال سفيان قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا قال من الصف وقال مجاهد في الآية لواذا قال خلافا وقوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره أي عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الاقوال والاعمال بأقواله وأعماله فما وافق ذلك قبل وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا ان تصيبهم فتنة أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة أو يصيبهم عذاب أليم أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك كما روى الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهي هذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها

وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها أخرجاه من حديث عبد الرزاق (ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم) يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه عالم الغيب والشهادة وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال قد يعلم ما أنتم عليه وقد للتحقيق كما قال قبلها قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا وقال تعالى قد يعلم الله المعوقين منكم الآية وقال تعالى قد سمع الله قول التي تجادلك الآية وقال

قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون وقال قد نرى تقلب وجهك في السماء الآية فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتا قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة فقوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه أي هو عالم به مشاهد له لا يعزب عنه مثقال ذرة كما قال تعالى وتوكل على العزيز الرحيم إلى قوله إنه هو السميع العليم وقوله وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين وقال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر وقال تعالى ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون وقال تعالى سواء منكم من أسر القول ومن جهر به الآية وقال تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين وقال وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جدا وقوله ويوم يرجعون إليه أي ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة فينبئهم بما عملوا أي يخبرهم بما فعلوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير كما قال تعالى ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر وقال ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ولهذا قال ههنا ويوم يرجعون إليه فينبئهم

لا إلى الرسولين (إن كنتم صادقين) فيما وصفتم به الرسولين أو الكتابين (فإن لم يستجيبوا لك) أي لم يفعلوا ما كلفوا به من الإتيان بكتاب هو أهدى من الكتابين وهذا كقوله فإن لم تفعلوا وقيل المعنى فإن لم يستجيبوا لك إلى الإيمان بما جئت به وتعدية يستجيبوا باللام هو أحد الجائزين وجواب الشرط (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) أي آراءهم الزائغة واستحساناتهم الزائفة بلا حجة ولا برهان وإنما أداة حصر أي أنهم ليس لهم مستند في ذلك ومتمسك يتمسكون به وإنما لهم محض هواهم الفاسد (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أضل منه بل هو الفرد الكامل في الضلال (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) لأنفسهم بالكفر وتكذيب الأنبياء والإعراض عن آيات الله (ولقد وصلنا لهم القول) قرئ بتشديد الصاد وتخفيفها ومعنى الآية أتبعنا بعضه بعضا في الإنزال ليتصل التذكر أو في النظم لتقرر الدعوة بالحجة والمواعظ بالمواعيد والنصائح بالعبر وبعضا رسولا بعد رسول وقال أبو عبيدة والأخفش معناه أتممنا وقال ابن عيينة والسدي بينا وقال ابن زيد وصلنا لهم خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا والأول أولى وهو مأخوذ من وصل الحبال بعضها ببعض وقال مجاهد جعلناه أوصالا أي أنواعا من المعاني والضمير في لهم عائد إلى قريش وقيل إلى اليهود وقيل للجميع (لعلهم يتذكرون) فيكون التذكر سببا لإيمانهم مخافة أن ينزل بهم ما نزل على قبلهم (الذين آتيناهم الكتاب من قبله) أي من قبل القرآن وقيل من قبل محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (هم به) أي بالقرآن أو بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (يؤمنون) أخبر سبحانه أن طائفة من بني إسرائيل آمنوا بالقرآن كعبد الله ابن سلام وسائر من أسلم من أهل الكتاب قيل نزلت في ثمانين أربعون من نجران واثنان وثلاثون من الحبشة وثمانية من الشام وقال ابن عباس يعني من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب والأول أولى (وإذا يتلى) أي القرآن (عليهم قالوا آمنا به) أي صدقناه (إنه الحق) الذي نعرفه المنزل (من ربنا) استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم به (إنا كنا من قبله مسلمين) أي مخلصين لله بالتوحيد أو مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وبما جاء به لما نعلمه من ذكره في التوراة والإنجيل من التبشير به وأنه سيبعث آخر الزمان وينزل عليه القرآن (أولئك) أي الموصوفون بتلك الصفات (يؤتون أجرهم

بما عملوا والله بكل شئ عليم والحمد لله رب العالمين ونسأله التمام آخر تفسير سورة النور ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة الفرقان مكية) (بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا) يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم كما قال تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات الآية وقال ههنا تبارك وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة الذى نزل الفرقان نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل لان الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات وأحكاما بعد أحكام وسورا بعد سور وهذا أشد وأبلغ وأشد اعتناء عن أنزل عليه كما قال فى أثناء هذه السورة وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ولهذا سماه ههنا الفرقان لانه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال والغى والرشاد والحلال والحرام وقوله على عبده هذه صفة مدح وثناء لانه أضافه الى عبوديته كما وصفه بها فى أشرف أحواله وهى ليلة الاسراء فقال سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وكما وصفه بذلك فى مقام الدعوة اليه وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا وكذلك وصفه عند انزال الكتاب عليه ونزول الملك اليه فقال تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقوله ليكون للعالمين نذيرا أى انما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد الذى جعله فرقانا عظيما انما خصه بالرسالة الى من يستظل بالخضراء ويستقل على الغبراء كما قال صلى الله عليه وسلم بعثت الى الاحمر والاسود وقال انى أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى فذكر منهن انه كان النبى يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة كما قال تعالى قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا الآية أى الذى أرسلنى هو مالك السموات والارض الذى يقول للشئ كن فيكون

مرتين) بايمانهم بالكتابين منصوب على المصدر قال ابن عباس نزلت فى عشرة رهط أنا أحدهم أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بالكتاب الاول والآخر ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها وعبد مملوك أحسن عبادة ربه ونصح لسيده (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الايمان بالكتاب الاول والكتاب الآخر وبالنبى الاول والنبى الآخر أو بالعمل بهما أو على الايمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب ومن عاداهم من أهل دينهم (ويدرؤن بالحسنة السيئة) الدرء الدفع أى يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن ما يلاقونه من الاذى وقيل يدفعون بالطاعة المعصية وقيل بالتوبة والاستغفار الذنوب وقيل بالحلم الاذى وقيل بشهادة أن لا اله الا الله الشرك (ومما رزقناهم ينفقون) أى ينفقون أموالهم فى الطاعات وفيما أمر به الشرع ثم مدحهم سبحانه باعراضهم عن اللغو فقال (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرما وتنزها وتأدبا بآداب الشرع ومثله قوله سبحانه واذا مروا باللغو مروا كراما واللغو ههنا هو ما يسمعونه من المشركين من الشتم لهم ولدينهم والاستهزاء بهم (وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) لا يلحقنا من ضرر كفركم شئ ولا يلحقكم من نفع ايماننا شئ (سلام عليكم) ليس المراد بهذا السلام سلام التحية ولكن المراد به سلام المتاركة والاعراض والفراق ومعناه أمنة لكم منا وسلامة لا نجاوبكم ولا نجازيكم فيما أنتم فيه ولا نقابل لغوكم بمثله قال الزجاج وهذا قبل الامر بالقتال (لا نبتغى الجاهلين) أى لا نطلب صحبتهم ومخالطتهم وقال مقاتل لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وقال الكلبى لا نحب دينكم الذى أنتم عليه (انك لا تهدى من أحببت) هدايته من الناس وليس ذلك اليك (ولكن الله يهدى من يشاء) هدايته (وهو أعلم) أى عالم (بالمهتدين) أى القابلين للهداية المستعدين لها أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث المسيب ومسلم وغيره من حديث أبى هريرة ان هذه الآية نزلت فى أبى طالب لما امتنع من الاسلام وقد تقدم ذلك فى براءة قال الزجاج أجمع المفسرون على انها نزلت فى أبى طالب وقد تقرر فى الاصول ان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل فى ذلك أبو طالب دخولا أوليا والآية حجة على المعتزلة

وهو الذي يحيي ويميت وهكذا قال ههنا الذي له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ثم أخبر انه خلق كل شيء فقدره تقديرا أي كل شيء مما سواه مخلوق مربوب وهو خالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا) يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء المالك لازمة الامور الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ومع هذا عبدوا معه من الاصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا فكيف يملكون لعابديهم ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا أي ليس لهم من ذلك شيء بل ذلك كله مرجعه الى الله عز وجل الذي هو يحيي ويميت وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة كقوله وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقوله فانما هي زجرة واحدة فاذا هم بالساهرة فانما هي زجرة واحدة فاذا هم ينظرون ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم جميع لدينا محضرون فهو الذي لا اله غيره ولا رب سواه ولا تنبغي العبادة الا له لانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو الذي لا ولد له ولا والد ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير بل هو الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والارض انه كان غفورا رحيما) يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ان هذا الا افك أي كذب افتراه يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأعانه عليه قوم آخرون أي واستعان على جمعه بقوم آخرين فقال الله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أي فقد افتروا هم قولا باطلا يعلمون انه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما يزعمونه وقالوا أساطير الاولين اكتتبها يعنون كتب الاوائل أي استنسخها فهي تملى عليه أي تقرأ عليه بكرة وأصيلا أي في أول النهار وآخره وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل أحد بطلانه فانه قد علم بالتواتر وبالضرورة ان محمدا رسول الله

لانهم يقولون الهدى هو البيان وقد هدى الناس أجمع ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم فدل ان وراء البيان ما يسمى هداية وهو خلق الاهتداء واعطاء التوفيق والقدرة (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) أي قال مشركو قريش ومن يمنعهم ان ندخل في دينك ونعمل به يا محمد يتخطفنا العرب من مكة وننزع منها بسرعة ولا طاقة لنا بهم وهذا من جملة اعذارهم الباطلة وتعللاتهم العاطلة والتخطف في الاصل هو الانتزاع بسرعة وقرئ نتخطف بالجزم على جواب الامر وبالرفع على الاستئناف ثم رد الله ذلك عليهم ردا مصدرا باستفهام التوبيخ والتقريع وألقمهم الحجر فقال (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أي ألم نجعل لهم حرما ذا أمن أو نؤمنا يأمن من دخله قال أبو البقاء عداه بنفسه لانه بمعنى جعل كما صرح بذلك في قوله أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ومكن متعد بنفسه من غير تضمين معنى جعل كقوله مكناهم فيما ان مكناكم فيه واسناد الامن الى أهل الحرم حقيقة والى الحرم مجاز عقلي ومن المعروف انه كان يأمن فيه الظباء من الذئاب والحمام من الحدأة ثم وصف هذا الحرم بصفة أخرى دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة بقوله (يجبى اليه ثمرات كل شيء) أي يجمع اليه الثمرات على اختلاف أنواعها من الاراضي المختلفة وتحمل اليه من الشام ومصر والعراق واليمن وتساق اليه ومعنى الكلية الكثرة على سبيل المجاز كقوله وأوتيت من كل شيء وقرئ يجبى بالتحتية اعتبارا بتذكير كل شيء ووجود الحائل بين الفعل وبين ثمرات وأيضا ليس تأنيث ثمرات حقيقيا وبالفوقية اعتبارا بثمرات وقرئ ثمرات بضمتين وبضمتين جمع ثمر بضمتين وقرئ بفتح الثاء وسكون الميم (رزقا من لدنا) أي سوقه اليهم رزقا من عندنا أو رازقين (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ان ما نقوله حق لفرط جهلهم وعدم تفطنهم وعدم تفكرهم في أمر معادهم ورشادهم لكونهم ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة (وكم أهلكنا من قرية) أي أهل قرية كانوا في خفض عيش ودعة ورخاء فرد قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف الخ بين الله لهم ان الامر بالعكس وانهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله ولا يغتروا بالامن الحاصل لهم فكثير من أهل القرى كان حالهم كحال هؤلاء في الامن والخصب ثم (بطرت) أي طغت وتمردت وخسرت وأشرت (معيشتها) أي في زمن حياتها وقال الكرخي كفرت نعمة معيشتها أي أيام حياتها وهي ما يعاش به من النبات والحيوان وغيرهما يعني وقع منهم

المطر

صلى الله عليه وسلم لم يكن يعانى شيأ من الكتابة لا فى أول عمره ولا فى آخره وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده الى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه وبره ونزاهته وأمانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الاخلاق الرديئة حتى انهم كانوا يسمونه فى صغره والى ان بعث الامين لما يعلمون من صدقه وبره فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ورموه بهذه الاقوال التى يعلم كل عاقل براءته منها وحاروا فيما يقذفونه به فتارة من افكهم يقولون ساحر وتارة يقولون شاعر وتارة يقولون مجنون وتارة يقولون كذاب قال الله تعالى انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الاولين والآخرين اخبارا حقا صدقا مطابقا للواقع فى الخارج ماضيا ومستقبلا الذى يعلم السر أى الله الذى يعلم غيب السموات والارض ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر وقوله انه كان غفورا رحيما دعاء لهم الى التوبة والانابة واخبار لهم بأن رحمته واسعة وان حلمه عظيم وان من تاب اليه تاب عليه فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم الى التوبة والاقلاع عما هم فيه الى الاسلام والهدى كما قال تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم وقال تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق قال الحسن البصرى انظروا الى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم الى التوبة والرحمة (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا

البطر فاهلكوا قال الزجاج البطر الطغيان عند النعمة وفى القاموس البطر محركا النشاط والاشر وقلة احتمال النعمة والدهش والحيرة والطغيان بالنعمة وكراهة الشئ من غير ان يستحق الكراهة وفعل الكل كفرح وبطر الحق أى تكبر عنده فلا يقبله قال عطاء عاشوا فى البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الاصنام وقال الزجاج والمازنى معناها بطرت فى معيشتها فلما حذفت فى تعدى الفعل كقوله واختار موسى قومه وقال الفراء هو منصوب على التفسير كما تقول بطرت مالك وبطرته ونظيره قوله تعالى الا من سفه نفسه ونصب المعارف على التمييز غير جائز عند البصريين لان معنى التفسير ان تكون النكرة دالة على الجنس وقيل ان معيشتها منصوبة ببطرت على تضمينه معنى جهلت (فتلك مساكنهم) أى منازلهم باقية الآثار يشاهدونها فى الاسفار كبلاد ثمود وقوم شعيب وغيرهم قد خربت بما طاوا (لم تسكن من بعدهم الا قليلا) أى لم يسكنها أحد بعدهم الا زمنا قليلا كالذى يمر بها مسافرا فانه يلبث فيها يوما أو بعض يوم أو المعنى لم يبق من يسكن فيها الا أياما قليلة لشؤم ما وقع فيها من معاصيهم وقيل ان الاستثناء يرجع الى المساكن أى لم تسكن بعد هلاك أهلها الا قليلة من المساكن وأكثرها خراب كذا قال الفراء وهو قول ضعيف (وكنا نحن الوارثين) لها منهم لانهم لم يتركوا وارثا يرث منازلهم وأموالهم ولم يخلفهم أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وغيرها (وما كان ربك) بيان للعادة الربانية أى ما صح ولا استقام وما كان وما ثبت فى حكمه الماضى وقضائه السابق ان يكون (مهلك القرى) الكافر أهلها قبل الانذار (حتى يبعث) ويرسل (فى أمها) أى أكبرها وأعظمها (رسولا) ينذرهم و(يتلو عليهم آياتنا) أى تاليا عليهم آيات الله الدالة الناطقة بما أوجبه الله عليهم وما أعد من الثواب للمطيع والعقاب للعاصى ومخبرا ان العذاب سينزل بهم اذا لم يؤمنوا وخص الاعظم منها بالبعثة اليها لان فيها أشراف القوم وأهل الفهم والرأى وفيها الملوك والاكابر فصارت بهذا الاعتبار كالام لما حولها من القرى وقال الحسن أم القرى أولها وقيل المراد بأم القرى هاهنا مكة كما فى قوله ان أول بيت وضع للناس الآية والالتفات الى نون العظمة لتربية المهابة والروعة وقد تقدم بيان ما تضمنته هذه الآية فى آخر سورة يوسف (وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون) معطوفة على الجملة التى قبلها والاستثناء مفرغ من أعم الاحوال أى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعد ان

ثبورا كثيرا) يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق لا بحجة ولا دليل منهم وإنما تعللوا بقولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ويمشي في الأسواق أي يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيرا يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه وهذا كما قال فرعون فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ولهذا قالوا أو يلقى إليه كنز

أي علم كنز ينفق منه أو تكون له جنة يأكل منها أي تسير معه حيث سار وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك وله الحجة البالغة وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا قال الله تعالى أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا أي جاؤوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك من قولهم ساحر مسحور مجنون كذاب شاعر وكلها أقوال باطلة كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ولهذا قال فضلوا عن طريق الهدى فلا يستطيعون سبيلا وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى فإنه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا ثم قال تعالى مخبرا نبيه أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون في الدنيا وأفضل وأحسن فقال تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك الآية قال مجاهد يعني في الدنيا قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا كبيرا كان أو صغيرا قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي صلى الله عليه وسلم إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعط نبيا قبلك ولا نعطي أحدا من بعدك ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله عز وجل في ذلك تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك الآية وقوله بل كذبوا بالساعة أي إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال وأعتدنا أي أرصدنا لمن كذب بالساعة سعيرا أي عذابا أليما حارا لا يطاق في نار جهنم قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن سعيد بن جبير السعير واد من قيح جهنم وقوله إذا رأتهم أي جهنم من مكان بعيد يعني في مقام المحشر قال السدي من مسيرة مائة عام سمعوا لها تغيظا وزفيرا أي حنقا عليهم كما قال تعالى إذا

بعث إلى أمهار رسولا يدعوهم إلى الحق في حال من الأحوال إلا حال كونهم ظالمين قد استحقوا الإهلاك لإصرارهم على الكفر بعد الإعذار إليهم وتأكيد الحجة عليهم كقوله سبحانه وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (وما أوتيتم) يا كفار مكة (من شيء) من الأشياء (فمتاع) أي فهو متاع (الحياة الدنيا) تتمتعون به مدة حياتكم أو بعض حياتكم ثم تزولون عنه أو يزول عنكم (وزينتها) تتزينون به أيام عيشكم ثم يفنى وعلى كل حال فذلك إلى فناء وانقضاء (وما عند الله) من ثوابه وجزائه (خير) من ذلك الزائل الفاني لأنه لذة خالصة عن شوب الكدر (وأبقى) لأنه يدوم أبدا وذلك ينقضي بسرعة (أفلا تعقلون) أن الباقي أفضل من الفاني وما فيه لذة خالصة غير مشوبة أفضل من اللذات المشوبة بالكدر المنغصة بعوارض البدن والقلب قيل من لم يرجح الآخرة على الدنيا فليس بعاقل قال الشافعي رحمه الله من وصى بثلث ماله لأعقل الناس صرف إلى المشتغلين بطاعة الله وقرئ يعقلون بالياء والتاء على الخطاب وهي أرجح لقوله وما أوتيتم وأخرج مسلم والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يقول الله عز وجل يا ابن آدم مرضت فلم تعدني الحديث بطوله وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن عبد بن عبيد بن عمير قال يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا وأعطش ما كانوا وأعرى ما كانوا فمن أطعم لله عز وجل أطعمه الله ومن كسا لله عز وجل كساه الله ومن سقى لله عز وجل سقاه الله ومن كان في رضاء الله كان الله في رضاه (أفمن وعدناه وعدا حسنا) بالجنة وما فيها من النعم التي لا تحصى (فهو لاقيه) أي مدركه ومصيبه لا محالة فإن الله لا يخلف الميعاد وذلك حي بالأسمية المفيدة لتحققه وعطف بفاء السببية والفاء الأولى لترتيب إنكار التساوي بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ما قبلها من ظهور التفاوت بين متاعها وبين ما عند الله عز وجل (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) المشوب بالأكدار المستتبع للتحسر على الانقطاع وأعطيناه منه بعض ما أراد مع سرعة زواله وتنغصه عن قريب (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) هذا معطوف على قوله متعناه داخل معه في حيز الصلة مؤكد لإنكار التشابه ومقرر له والمعنى ثم هذا الذي متعناه هو يوم القيامة من المحضرين النار وتخصيص المحضرين بالذين أحضروا العذاب اقتضاه المقام وفيه من التهويل ما لا يخفى أي ليس حالهما سواء فإن الموعود بالجنة لابد أن يظفر بما وعده مع

ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور تكاد تميز من الغيظ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وروى
ابن أبي حاتم حدثنا ادريس بن حاتم بن الاحنف الواسطي انه سمع محمد بن الحسن الواسطي عن أصبغ بن زيد عن خالد بن كثير عن
خالد بن دريك باسناده عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقل علي مالم أقل أو
ادعى الى غير والديه أو انتمى الى غير مواليه فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا قيل يارسول الله وهل لها من عينين قال أما سمعتم الله يقول
اذا رأتهم من مكان بعيد الآية ورواه ابن جرير عن محمد بن خداش عن محمد بن يزيد الواسطي به وقال أيضا
حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا أبو بكر بن عياش عن عيسى بن سليم عن أبي وائل وله أيضا عن قال خرجنا مع عبد الله يعني ابن مسعود ومعنا الربيع ابن خيثم فمروا على حداد فقام عبد الله ينظر الى حديدة في النار ونظر الربيع بن خيثم اليها فتمايل الربيع ليسقط فمر عبد الله على أتون على شاطئ الفرات فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا فصعق يعني الربيع وحملوه الى أهل بيته فرابطه عبد الله الى الظهر فلم يفق رضي الله عنه وحدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا اسرائيل عن أبي يحيى عن مجاهد ولابن أبي حاتم أيضا عن ابن عباس قال ان العبد ليجر الى النار فتشهق اليه شهقة البغلة الى الشعير ثم تزفر زفرة لا يبقى أحد الا خاف هكذا رواه ابن أبي حاتم باسناده مختصرا وقد رواه الامام أبو جعفر بن جرير حدثنا أحمد بن ابراهيم الدورقي حدثنا عبيد الله بن موسى أخبرنا اسرائيل عن أبي
يحيى عن مجاهد باسناده الى ابن عباس قال ان الرجل ليجر الى النار فينزوي بعضها الى بعض فيقول لها الرحمن مالك قالت انه
يستجير مني فيقول أرسلوا عبدي وان الرجل ليجر الى النار فيقول يارب ما كان هذا الظن بك فيقول فما كان ظنك فيقول ان تسعني
رحمتك فيقول أرسلوا عبدي وان الرجل ليجر الى النار فتشهق اليه النار شهقة البغلة الى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد الا خاف
وهذا اسناد صحيح وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن منصور عن مجاهد عن عبيد بن عمير في قوله سمعوا لها تغيظا وزفيرا قال ان جهنم
لتزفر زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل الا ترعد فرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول رب لا أسألك

[كذا بالأصل]

انه لا يفوته نصيبه من الدنيا وهذا حال المؤمن وأما حال الكافر فانه لم يكن معه الا مجرد
التمتع بشيء من الدنيا يستوي فيه هو والمؤمن وينال كل واحد منهما حظه منه وهو صائر
الى النار فهل يستويان وثم للتراخي في الزمان أو في الرتبة قيل نزلت في رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم وأبي جهل أو في علي وحمزة وأبي جهل أو في المؤمن والكافر أو في عمار
ابن ياسر والوليد بن المغيرة (ويوم يناديهم) أي اذكر يوم ينادي الله سبحانه هؤلاء المشركين
الذين عبدوا غير الله والقصد من هذا النداء توبيخهم وتقريعهم بان معبوداتهم لم تنفعهم
في هذا الوقت (فيقول) لهم (أين شركائي الذين) عبدتموهم من دوني وأثبتم لهم شركة في
استحقاق العبادة و(كنتم تزعمون) انهم ينصرونكم ويشفعون لكم (قال الذين حق
عليهم القول) أي حقت عليهم كلمة العذاب بدخول النار وهم رؤساء الضلال الذين
اتخذوهم أربابا من دون الله كذا قال الكلبي وقال قتادة هم الشياطين (ربنا هؤلاء الذين
أغوينا) أي دعوناهم الى الغواية يعنون الاتباع في الكفر (أغويناهم كما غوينا) أي
أضللناهم كما ضللنا وآثروا الكفر على الايمان كما آثرناه نحن وكنا السبب في كفرهم فقبلوا
منا فلا فرق اذا بيننا وبينهم وان كان تسويلنا لهم داعيا الى الكفر فقد كان في مقابلته
دعاء الله تعالى لهم الى الايمان بما وضع فيهم من أدلة العقل وما بعث اليهم من الرسل
وأنزل عليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر وناهيك بذلك صارفا
عن الكفر وداعيا الى الايمان (تبرأنا اليك) ممن أطاعنا وهذه الجملة مقررة لما قبلها ولذلك لم
يعطف قال الزجاج برئ بعضهم من بعض وصاروا أعداء كما قال تعالى الأخلاء يومئذ
بعضهم لبعض عدو (ما كانوا ايانا يعبدون) انما كانوا يعبدون أهواءهم قيل ما مصدرية
أي تبرأنا اليك من عبادتهم ايانا والاول أولى (وقيل) للكفار من بني آدم تهكما بهم
وتبكيتا لهم (ادعوا شركاءكم) أي استغيثوا بآلهتكم التي كنتم تعبدونهم من دون الله
في الدنيا لينصروكم ويدفعوا عنكم (فدعوهم) عند ذلك (فلم يستجيبوا لهم) ولا نفعوهم
بوجه من وجوه النفع (ورأوا) أي التابع والمتبوع (العذاب) قد غشيهم (لو أنهم كانوا
يهتدون) قال الزجاج جواب لو محذوف أي لانجاهم ذلك ولم يروا العذاب وقيل المعنى
ما دعوهم وقيل لو كانوا يهتدون في الدنيا لعلموا أن العذاب حق وقيل لو يهتدون بوجه من
وجوه الحيل لدفعوا به العذاب وقيل قد آن لهم ان يهتدوا لو كانوا يهتدون وقيل غير ذلك

اليوم الانفسي وقوله واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين قال قتادة عن أبي أيوب عن عبد الله بن عمرو قال مثل الزج في الرمح أي من ضيقه وقال عبد الله بن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن يحيى بن أبي أسيد يرفع الحديث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سئل عن قول الله واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين قال والذي نفسي بيده انهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط وقوله مقرنين قال أبو صالح يعني مكتفين دعوا هنالك ثبورا أي بالويل والحسرة والخيبة لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا الآية وروى الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه وينادون يا ثبورهم حتى يقفوا على النار فيقول يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم فيقال لهم لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن سنان عن عفان به ورواه ابن جرير من حديث ابن سلمة به وقال العوفي عن ابن عباس في قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا الآية أي لا تدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا وقال الضحاك الثبور الهلاك والأظهر ان الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون واني لأظنك يا فرعون مثبورا أي هالكا قال عبد الله بن الزبعرى

اذ أجاري الشيطان في سنن الغي ... ومن مال ميله مثبورا

(قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا) يقول تعالى يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم فتلقاهم اهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه في الدنيا وجعل ما لهم اليه الهم فيها ما يشاؤون من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا وهذا من وعد الله

(ويوم يناديهم) عطف على ما قبله فسئلوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك كما قال (فيقول ماذا أجبتم المرسلين) أي ما كان جوابكم لمن أرسل اليكم من النبيين لما بلغوا رسالاتي (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أي خفيت عليهم الحجج حتى صاروا كالعمي الذين لا يهتدون والاصل فعموا عن الانباء ولكنه عكس الكلام للمبالغة والانباء الاخبار وانما سمي حججهم أخبارا لانها لم تكن من الحجة في شيء وانما هي أقاصيص وحكايات وقرئ عميت بضم العين وتشديد الميم (فهم لا يتساءلون) أي لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب الواقع وذلك لفرط الدهشة أو لعلمهم بان الكل سواء في الجهل وقيل لا يسأل بعضهم بعضا عن الانساب قاله مجاهد ولا ينطقون بحجة ولا يدرون بما يجيبون لان الله قد أعذر اليهم في الدنيا فلا يكون لهم عذر ولا حجة يوم القيامة (فأما من تاب) من الشرك (وآمن) وصدق بتوحيد الله (وعمل صالحا) أي أدى الفرائض (فعسى ان يكون من المفلحين) أي الناجين بوعد الله الفائزين بعطاياهم من سعادة الدارين وعسى وان كانت في الاصل للرجاء فهي من الله واجب على ما هو عادة الكرام وقيل ان الترجي هو من قبل التائب المذكور لا من جهة الله سبحانه اي فليتوقع الفلاح (وربك يخلق ما يشاء) ان يخلقه وفيه دلالة على خلق الافعال (ويختار) ما يشاء ان يختار لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وهذا متصل بذكر الشركاء الذين عبدوهم واختاروهم أي الاختيار الى الله (ما كان لهم الخيرة) أي التخير وهو كالطيرة فانها التطير اسمان يستعملان استعمال المصدر وبمعنى المتخير كقولهم محمد خيرة الله من خلقه وقيل المراد من الآية انه ليس لاحد من خلق الله ان يختار شيئا اختيارا حقيقيا بحيث يقدم على تنفيذه بدون اختيار الله بل الاختيار هو الى الله عز وجل يختار لطاعته او لنبوته او المعنى يخلق محمدا ويختار الانصار لدينه وقيل اختار من النعم الضأن ومن الطير الحمام ولا وجه للتخصيص والعموم اولى وظاهر الآية نفي الاختيار عنهم رأسا والامر كذلك فان اختيار العباد مخلوق باختيار الله منوط بدواع لا اختيار لهم فيها وقيل ان هذه الآية جواب عن قولهم لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وقيل جواب عن اليهود حيث قالوا لو كان الرسول الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم غير جبريل لآمنا به قال الزجاج الوقف على ويختار تام على ان ما نافية قال ويجوز ان يكون ما في موضع نصب بيختار والمعنى ويختار الذي كان

لهم فيه الخيرة والصحيح الاول لاجماعهم على الوقف وقال ابن جرير ان تقدير الآية ويختار لولايته الخيرة من خلقه وهذا في غاية من الضعف وجوز ابن عطية ان تكون كان تامة ويكون لهم الخيرة جملة مستأنفة وهذا أيضا بعيد جدا وقيل معناه ويختار للعباد ما هو خير لهم وأصلح فهو مائل الى الاعتزال وقيل ان ما مصدرية أي يختار اختيارهم والمصدر واقع موقع المفعول به أي ويختار مختارهم وهذا كالتفسير لكلام ابن جرير والراجح أول هذه التفاسير ومثله قوله سبحانه وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة وقد ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصحيح تعليم الاستخارة وكيفية صلاتها ودعائها فلا نطول بذكرها ثم نزه سبحانه نفسه فقال (سبحان الله) أي تنزه تنزها خاصا به من غير أن ينازعه منازع أو يشاركه مشارك أو يزاحم اختياره (وتعالى عما يشركون) أي عن الذين يجعلونهم شركاء له (وربك يعلم ما تكن صدورهم) أي تخفيه قلوبهم وتسره من الشرك أو من عداوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو حسدا أو من جميع ما يخفونه مما يخالف الحق (وما يعلنون) بالسنتهم من ذلك ويظهرونه ثم تمدح نفسه سبحانه بالوحدانية والتفرد بالاستحقاق للحمد فقال (وهو الله) أي هو المستأثر بالالهية المختص بها وقوله (لا اله الا هو) تقرير لذلك (له الحمد في الاولى) أي في الدنيا (والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا والتحميد هنا على وجه اللذة لا على الكلفة وهو قولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده وقيل الحمد لله رب العالمين (وله الحكم) أي القضاء النافذ في كل شيء فيقضي بين عباده بما شاء من غير مشارك (واليه) لا الى غيره (ترجعون) بالبعث والنشور والخروج من القبور فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته (قل) لاهل مكة (أرأيتم) أي أخبروني (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) باسكان الشمس تحت الارض أو بتحريكها حول الافق الغائر والسرمد هو الدائم المستمر من السرد وهو المتابعة والاطراد فالميم زائدة كما في دلامص من الدلاص ووزنه فعمل وقيل ان ميمه أصلية ووزنه فعلل لا فعمل وهو الظاهر بين لهم سبحانه انه مهد لهم أسباب المعيشة ليقوموا بشكر النعمة فانه لو كان الدهر الذي يعيشون فيه ليلا دائما لا نهار معه (الى يوم القيامة) لم يتمكنوا من الحركة فيه وطلب ما لا بد لهم منه مما يقوم به

الذي تفضل به عليهم وأحسن به اليهم ولهذا قال كان على ربك وعدا مسئولا أي لا بد أن يقع وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية ان معنى قوله وعدا مسئولا أي وعدا واجبا وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كان على ربك وعدا مسئولا يقول سلوا الذي واعدتكم أو قال أوعدناكم تنجزوه وقال محمد بن كعب القرظي في قوله كان على ربك وعدا مسئولا ان الملائكة تسأل لهم ذلك ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم وقال أبو حازم اذا كان يوم القيامة قال المؤمنون ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا فأنجز لنا ما وعدتنا فذلك قوله وعدا مسئولا وهذا المقام في هذه السورة من ذكر النار ثم التنبيه على حال أهل الجنة كما ذكر تعالى في سورة الصافات حال أهل الجنة ثم وما فيها من النضرة والحبور ثم قال أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين انها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤس الشياطين فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم ثم ان مرجعهم لالى الجحيم انهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا) يقول تعالى مخبرا عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم فقال ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله قال مجاهد هو عيسى والعزير

والملائكة فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء الآية أي فيقول الرب تبارك وتعالى للمعبودين أأنتم دعوتم هؤلاء الى عبادتكم من دوني أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم كما قال الله تعالى واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ما قلت لهم الا ما أمرتني به الآية ولهذا قال تعالى مخبرا عما يجيب به المعبودون يوم القيامة قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء قرأ الاكثرون بفتح النون من قوله

نتخذ من دونك من أولياء أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحداً سواك لا نحن ولا هم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن برآء منهم ومن عبادتهم كما قال تعالى ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك الآية وقرأ آخرون ما كان ينبغي لنا أن نُتَّخذ من دونك من أولياء أي ما ينبغي لأحد أن يعبدنا فإنا عبيد لك وفقراء إليك وهي قريبة المعنى من الأولى ولكن متعتهم وآباءهم أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة

إلى عبادتك وحدك لا شريك لك وكانوا قوماً بوراً قال ابن عباس أي هلكى وقال الحسن البصري ومالك عن الزهري أي لا خير فيهم وقال ابن الزبعرى حين أسلم

يا رسول المليك إن لساني
راتق ما فتقت إذ أنا بور
إذ أجاري الشيطان في سنن الغي
ومن مال ميله مثبور

قال الله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى كقوله تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقوله فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ومن يظلم منكم أي يشرك بالله نذقه عذاباً كبيراً (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً) يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ويحتاجون إلى التغذي به ويمشون في الأسواق للتكسب رأيهم والتجارة وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة والصفات الجميلة والأقوال الفاضلة والأعمال الكاملة والخوارق الباهرة والأدلة القاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاؤوا به من الله ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى وقوله وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام الآية وقوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون أي اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع

العيش من المطاعم والمشارب والملابس ثم امتن عليهم فقال (من إله غير الله يأتيكم) أي هل لكم من إله بزعمكم من الآلهة التي تعبدونها يقدر على أن يرفع هذه الظلمة الدائمة عنكم (بضياء) أي نور تطلبون فيه المعيشة وتبصرون فيه ما تحتاجون إليه وتصلح ثماركم وتنمو عنده زرائعكم وتعيش فيه دوابكم والجملة صفة أخرى لإله عليها يدور التبكيت والإلزام (أفلا تسمعون) هذا الكلام سماع فهم وقبول وتدبر وتفكر وهذا توبيخ لهم على أبلغ وجه ثم لما فرغ الله من الامتنان عليهم بوجود النهار امتن عليهم بوجود الليل فقال (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً) أي جعل جميع الدهر الذي تعيشون فيه نهاراً (إلى يوم القيامة) لا ليل معه بإسكان الشمس في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الأفق (من إله غير الله) بزعمكم (يأتيكم بليل تسكنون) أي تستقرون (فيه) من النصب والتعب وتستريحون مما تزاولون من طلب المعاش والكسب (أفلا تبصرون) هذه المنفعة العظيمة إبصار متعظ متيقظ حتى تنزجروا عما أنتم فيه من عبادة غير الله فإذا أقررتم بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل فقد لزمتكم الحجة وبطل ما تتمسكون به من الشبه الساقطة وإنما قرن سبحانه بالضياء قوله أفلا تسمعون لأن السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل قوله أفلا تبصرون لأن غيرك يبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه البصر يدرك ما لا يدركه السمع من ذلك (ومن رحمته) تعالى (جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) أي في النهار بالسعي في المكاسب وفيه مدح السعي في طلب الرزق وهو لا ينافي التوكل (ولعلكم تشكرون) أي ولكي تشكروا نعمة الله عليكم وهذه الآية من باب اللف والنشر واعلم أنه وإن كان السكون في النهار ممكناً وطلب الرزق في الليل ممكناً وذلك عند طلوع القمر على الأرض أو عند الاستضاءة بشيء مما له نور كالسراج لكن ذلك قليل نادر مخالف لما يألفه العباد فلا اعتبار به (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) كرر سبحانه هذا لاختلاف الحالين لأنهم ينادون مرة فيدعون الأصنام وينادون أخرى فيسكتون وفي هذا التكرار أيضاً تقريع بعد تقريع وتوبيخ بعد توبيخ وإيذان بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده أو الأول لتقرير فساد

رأيهم والثاني لبيان انه لم يكن عن مستند وانما هو محض تشه وهوى (ونزعنا) جاء بصيغة الماضي للدلالة على التحقيق أي أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) يشهد عليهم بما قالوا قال مجاهد هم الانبياء وقيل عدول كل امة والاول أولى ومثله قوله سبحانه فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ثم بين سبحانه ما يقوله لكل امة من هذه الامم بقوله (فقلنا) لهم (هاتوا برهانكم) أي حجتكم ودليلكم بان معي شركاء فعند ذلك اعترفوا وخرسوا عن اقامة البرهان ولذا قال (فعلموا أن الحق لله) في الالهية وانه وحده لا شريك له (وضل عنهم ما كانوا يفترون) أي غاب عنهم غيبة الشيء الضائع وبطل وذهب ما كانوا يختلقون من الكذب في الدنيا بان لله شركاء يستحقون العبادة ثم عقب سبحانه حديث أهل الضلال بقصة قارون لما اشتملت عليه من بديع القدرة وعجيب الصنع فقال (ان قارون كان من قوم موسى) قارون على وزن فاعول اسم أعجمي ممتنع للعجمة والعلمية وليس بعربي مشتق من قرنت قال الزجاج لو كان قارون من قرنت الشيء لانصرف قال النخعي وقتادة وغيرهما كان ابن عم موسى وهو قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب وموسى هو ابن عمران بن قاهث وقال ابن اسحق كان عم موسى لاب وأم جعله أخا لعمران وهما ابنا قاهث وقيل هو ابن خالة موسى وكان يسمى المنور لحسن صورته وكان من السبعين الذين اختارهم موسى للمناجاة فسمع كلام الله قاله الرازي ولم يكن في بني اسرائيل اقرأ للتوراة منه فنافق كما نافق السامري وخرج عن طاعة موسى وهو معنى قوله (فبغى) أي جاوز الحد في التجبر والتكبر وطلب التفضل (عليهم) وان يكونوا تحت أمره وحسد موسى على رسالته وهرون على امامته وكفر بالله بعد ما آمن به هذا بسبب كثرة ماله قال الضحاك بغيه على بني اسرائيل استخفافه بهم لكثرة ماله وولده وقال قتادة بغيه بنسبة ما آتاه الله من المال الى نفسه لعلمه وحيلته وقيل كان عاملا لفرعون على بني اسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وقيل كان بغيه بغير ذلك مما لا يناسب معنى الآية (وآتيناه من الكنوز) جمع كنز وهو المال المدخر سميت أمواله كنوزا لانه كان ممتنعا من أداء الزكاة قال عطاء أصاب كنزا من كنوز يوسف وقيل كان يعمل الكيمياء (ما ان مفاتحه) ما موصولة صلتها ان وما في حيزها ولهذا كسرت ونقل الاخفش الصغير عن الكوفيين منع جعل المكسورة وما في حيزها صلة

من يعصي ولهذا قال أتصبرون وكان ربك بصيرا أي بمن يستحق ان يوحى اليه كما قال تعالى الله أعلم حيث يجعل رسالته ومن يستحق ان يهديه الله لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك قال محمد بن اسحق في قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون قال يقول الله لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت ولكني قد اردت ان أبتلي العباد بهم وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى اني مبتليك ومبتلي بك وفي المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو شئت لاجرى الله معي جبال الذهب والفضة وفي الصحيح انه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم لولا أنزل علينا الملائكة أي بالرسالة كما تنزل على الانبياء كما أخبر الله عنهم في الآية الاخرى قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ويحتمل أن يكون مرادهم ههنا لولا أنزل علينا الملائكة فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمدا رسول الله كقولهم أو تأتي بالله والملائكة قبيلا وقد تقدم تفسيرها في سورة سبحان ولهذا قال أو نرى ربنا ولهذا قال الله تعالى لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا وقد قال تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية وقوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث اخرجي الى سموم وحميم وظل من يحموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم الآية وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أي بالضرب أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون

على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ولهذا قال في هذه الآية الكريمة يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فانهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات قال الله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب ان الملائكة تقول لروح المؤمن

اخرجي أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمرينه اخرجي الى روح وريحان ورب غير غضبان وقد تقدم الحديث في سورة ابراهيم عند قوله تعالى يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء وقال آخرون بل المراد بقوله يوم يرون الملائكة لا بشرى يعني يوم القيامه قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ولا منافاة بين هذا وما تقدم فان الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا أي وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم وأصل الحجر المنع ومنه يقال حجر القاضي على فلان اذا منعه التصرف اما لفلس أو سفه أو صغر أو نحو ذلك ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام لانه يمنع الطواف ان يطوفوا فيه وانما يطاف من ورائه ومنه يقال للعقل حجر لانه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق والغرض ان الضمير في قوله ويقولون عائد على الملائكة هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا موسى يعني ابن قيس عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري في الآية ويقولون حجرا محجورا قال حراما محرما ان يبشر بما يبشر به المتقون وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج انه قال ذلك من كلام المشركين يوم يرون الملائكة أي يتعوذون من الملائكة وذلك ان العرب اذا نزل باحدهم نازلة أو شدة يقول حجرا محجورا وهذا القول وان كان له مأخذ ووجه ولكنه بالنسبة الى السياق بعيد لاسيما وقد نص الجمهور على

الذي واستقبح ذلك منهم لوروده في الكتاب العزيز في هذا الموضع والمفاتح جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل المراد بالمفاتح الخزائن فيكون واحدها مفتح بفتح الميم وقال الواحدي ان المفاتح الخزائن في قول أكثر المفسرين كقوله وعنده مفاتح الغيب قال وهو اختيار الزجاج قال الاشبه في التفسير ان مفاتحه خزائن ماله وقال آخرون هي جمع مفتاح وهو ما يفتح به الباب فهذا قول قتادة ومجاهد وعن خيثمة قال كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود الابل كل مفتاح مثل الاصبع كل مفتاح على خزانة على حدة فاذا ركب حملت المفاتيح على ستين بغلا أغر محجل وعنه قال وجدت في الانجيل ان بغال مفاتيح خزائن قارون غر محجلة ما يزيد كل مفتاح منها على اصبع لكل مفتاح كنز قال الشوكاني لم أجد في الانجيل هذا الذي ذكره خيثمة (لتنوء بالعصبة أولي القوة) أي لتثقل بالجماعة الاقوياء يقال نآى بحمله اذا نهض به متثاقلا ويقال نآى بي الحمل أي أثقلني والمعنى يثقلهم حمل المفاتيح فلا يستطيعون حملها وقال الرازي فلا يستطيعون ضبطها لكثرتها انتهى قال أبو عبيدة هذا من المقلوب والمعنى لتنوء بها العصبة أي تنهض بها قال أبو زيد نأوت بالحمل اذا نهضت به وقال الفراء معنى تنوء بالعصبة تميلهم بثقلها كما يقال يذهب بالبؤس ويذهب البؤس وذهبت به وأذهبته وجئت به واجأته ونؤت به وأنأته اختار هذا النحاس وبه قال كثير من السلف وقيل هو مأخوذ من النأي وهو البعد وهو بعيد وقرئ لينوء بالتحتية أي لينوء الواحد منها أو المذكور فحمل على المعنى أو التقدير حملها أو ثقلها وقيل الضمير في مفاتحه لقارون فاكتسب المضاف من المضاف اليه التذكير كقولهم ذهبت أهل اليمامة قاله الزمخشري والمراد بالعصبة الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض قيل هي من الثلاثة الى العشرة وقيل من العشرة الى الخمسة عشر وقيل ما بين العشرة الى العشرين وقيل من الخمسة الى العشرة وقيل أربعون وقيل سبعون وقيل غير ذلك قال ابن عباس لا ترفعها العصبة من الرجال أولي القوة والعصبة أربعون رجلا (اذ قال له قومه لا تفرح) أي اذكر والمراد بقومه هنا هم المؤمنون من بني اسرائيل وقال الفراء هو موسى وهو جمع أريد به الواحد والمعنى لا تبطر ولا تأشر ولا تفرح بكثرة المال (ان الله لا يحب الفرحين) البطرين الاشرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم قال الزجاج المعنى لا تفرح بالمال فان الفرح بالمال لا يؤدي حقه وقيل المعنى لا تفسد قال

الزجاج

ـنـ لا فيه ولكن قد روى ابن ابي نجيح عن مجاهد انه قال في قوله حجرا محجورا أي عوذا معاذا فيحتمل انه أراد ما ذكره ابن جريج ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد انه قال حجرا محجورا عوذا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم وقوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر فاخبر انه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الاعمال التي ظنوا انها منجاة لهم شئ وذلك لانها فقدت الشرط الشرعي اما الاخلاص فيها واما المتابعة لشرع الله فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ ولهذا قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل الآية قال مجاهد والثوري وقدمنا أي وعمدنا وكذا قال السدي وبعضهم يقول أتينا عليه وقوله تعالى فجعلناه هباء منثورا قال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن الحرث عن علي رضي الله عنه في قوله هباء منثورا قال شعاع الشمس اذا دخل في الكوة وكذا روي من غير هذا الوجه عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم وكذا قال الحسن البصري هو الشعاع في كوة أحدهم ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هباء منثورا قال هو الماء المهراق وقال أبو الاحوص عن أبي اسحق عن الحرث عن علي هباء منثورا قال الهباء وهج الدواب وروي مثله عن ابن عباس أيضا والضحاك وقاله عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وقال قتادة في قوله هباء منثورا قال ما رأيت يبيس الشجر اذا ذرته الريح فهو ذلك الورق قال وقال عبد الله بن وهب أخبرني عاصم بن حكيم عن أبي سريع الطائي عن عبيد بن يعلى قال وان الهباء الرماد اذا ذرته الريح وحاصل هذه الاقوال التنبيه على مضمون الآية وذلك انهم عملوا اعمالا اعتقدوا انها على شئ فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحدا اذا انها لاشئ بالكلية وشبهت في ذلك بالشئ التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شئ بالكلية كما قال تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى الى قوله تعالى لا يقدرون على شئ مما كسبوا وقال تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه

الزجاج الفرحين والفارحين سواء وقال الفراء معنى الفرحين الذين هم في حال الفرح والفارحين الذين يفرحون في المستقبل وقال مجاهد معنى لا تفرح لا تبغ والفرحين الباغين وقيل معناه لا تبخل ان الله لا يحب الباخلين وقال ابن عباس الفرحين المرحين قيل انه لا يفرح بالدنيا الا من رضي بها واطمأن واما من قلبه الى الآخرة ويعلم انه يتركها عن قريب فلا يفرح بها (وابتغ فيما آتاك الله) أي واطلب فيما أعطاك الله من الاموال والثروة والغنى (الدار الآخرة) هي الجنة فانفقه فيما يرضاه الله كصدقة وصلة رحم واطعام جائع وكسوة عار ونفقة على محتاج لا في التجبر والبغي وقرئ واتبع (ولا تنس نصيبك من الدنيا) قال جمهور المفسرين وهو ان يعمل في دنياه لآخرته ونصيب الانسان عمره وعمله الصالح قال الزجاج معناه لا تنس ان تعمل لآخرتك لان حقيقة نصيب الانسان من الدنيا الذي يعمل به لآخرته وقال الحسن وقتادة معناه لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك اياه وهذا الصق بمعنى النظم القرآني وقال ابن عباس ان تعمل فيها لآخرتك وفسر بعضهم النصيب بالكفن وعليه قول الشاعر

نصيبك مما تجمع الدهر كله * رداآن تدرج فيهما وحنوط

وفسره البيضاوي بما يحتاج اليه منها وفي الحديث اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك وهو مرسل وبهذا ما جرى عليه مجاهد وابن زيد وقيل معناه خذ ما تحتاجه من الدنيا وأخرج الباقي وقيل امر ان يعدم الفضل ويمسك ما يغنيه (وأحسن كما أحسن الله اليك) الكاف للتشبيه أي أحسن احسانا كاحسان الله اليك أو للتعليل أي أحسن الى عباد الله بما أنعم به عليك من نعم الدنيا لما أمره بالاحسان بالمال أمره ثانيا بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وقيل اطع الله واعبده كما أنعم عليك ويؤيده ما ثبت في الصحيحين وغيرهما ان جبريل سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الاحسان فقال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (ولا تبغ الفساد في الارض) أي لا تعمل فيها بمعاصي الله (ان الله لا يحب المفسدين) في الارض يعني انه يعاقبهم (قال انما أوتيته) أي المال (على علم عندي) قال قارون هذه المقالة ردا على من نصحه بما تقدم أي انما أعطيت ما أعطيت من المال لاجل علمي وليس

الطماً ن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ وتقدم الكلام على تفسير ذلك ولله الحمد والمنة وقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا
وأحسن مقيلا أي يوم القيامة لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون وذلك ان أهل الجنة يصيرون
الى الدرجات العاليات والغرفات الآمنات فهم في مقام أمين حسن المنظر طيب المقام خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما وأهل
النار يصيرون الى الدركات السافلات والحسرات المتتابعات وأنواع العذاب والعقوبات انها ساءت مستقرا ومقاما أي بئس
المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما ولهذا (١٣٤) قال تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا أي بما عملوه
من الاعمال المتقبلة نالوا ما نالوا
وصاروا الى ما صاروا اليه بخلاف
أهل النار فانهم ليس لهم عمل واحد
يقتضي دخول الجنة لهم والنجاة
من النار فنبه تعالى بحال السعداء
على حال الاشقياء وانه لا خير عندهم
بالكلية فقال تعالى أصحاب الجنة
يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا
قال الضحاك عن ابن عباس انما
هي ساعة فيقيل أولياء الله على
الاسرة مع الحور العين ويقيل
أعداء الله مع الشياطين مقرنين
وقال سعيد بن جبير يفرغ الله من
الحساب نصف النهار فيقيل أهل
الجنة في الجنة وأهل النار في النار
قال الله تعالى أصحاب الجنة يومئذ
خير مستقرا وأحسن مقيلا وقال
عكرمة اني لاعرف الساعة التي
يدخل فيها أهل الجنة الجنة وأهل
النار النار وهي الساعة التي
تكون في الدنيا عند ارتفاع الضحى
الاكبر اذا انقلب الناس الى أهليهم
للقيلولة فينصرف أهل النار الى
النار وأما أهل الجنة فينطلق بهم
الى الجنة فكانت قيلولتهم في الجنة
وأطعموا كبد حوت فأشبعهم ذلك
كلهم وذلك قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا وقال سفيان عن ميسرة عن المنهال عن أبي
عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال لا ينتصف النهار حتى يقيل هؤلاء وهؤلاء ثم قرأ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا
وقرأ ثم ان مرجعهم لالى الجحيم وقال العوفي عن ابن عباس في قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا قال قالوا في
الغرف من الجنة وكان حسابهم اذ عرضوا على ربهم عرضة واحدة وذلك الحساب اليسير وهو مثل قوله تعالى فأما من أوتي كتابه
بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا وقال قتادة خير مستقرا وأحسن مقيلا مأوى ومنزلا وقال قتادة

وقيل

تفضلا وهذا العلم الذي جعله سبب المال الله من الدنيا قيل هو علم التوراة وقيل علمه بوجوه
المكاسب والزراعات وأنواع التجارات وقيل معرفة الكنوز والدفائن وقيل علم الكيمياء
وقيل المعنى ان الله آتاني هذه الكنوز على علم منه باستحقاقي اياها لفضل علمه مني واختار
هذا الزجاج وأنكر ما عداه ثم رد الله عليه قوله هذا فقال (أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله
من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) للمال ولو كان المال أو القوة يدلان على
فضيلة لما أهلكهم الله وقيل القوة الآلات والجمع الاعوان وهذا الكلام خارج مخرج
التقريع والتوبيخ لقارون لانه قد قرأ التوراة وعلم علم القرون الاولى واهلاك الله
سبحانه لهم أو سمعه من حفاظ التواريخ قاله الكرخي (ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)
أي لا يسئلون سؤال استعتاب كما في قوله ولا هم يستعتبون وما هم من المعتبين وانما
يسئلون سؤال تقريع وتوبيخ ويحاسبون ويشدد عليهم كما في قوله تعالى فوربك لنسألنهم
أجمعين وقال مجاهد لا تسأل الملائكة عن المجرمين لانهم يعرفون بسيماهم فانهم
يحشرون سود الوجوه زرق العيون وقال قتادة لا يسئل المجرمون عن ذنوبهم لظهورها
وكثرتها بل يدخلون النار بغير سؤال وحساب وقيل لا يسئل مجرمو هذه الامة عن ذنوب
الامم الخالية أو المعنى يعترفون بها بغير سؤال وقيل لا يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها
اذا أراد أن يعاقبهم قال ابن عادل وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب (فخرج) قارون
وكان خروجه يوم السبت (على قومه في زينته) أي بأتباعه الكثيرين ركبانا متحلين بملابس
الذهب والحرير على خيول وبغال متحلية قاله المحلي عن أوس بن أوس الثقفي عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم قال خرج على قومه في أربعة آلاف بغل أخرجه ابن مردويه
وقد روي عن جماعة من التابعين أقوال في بيان ما خرج به على قومه من الزينة ولا يصح
منها شيء مرفوعا بل هي من أخبار أهل الكتاب كما عرفناك غير مرة ولا أدري كيف اسناد
هذا الحديث الذي رفعه ابن مردويه فمن ظفر بكتابه فلينظر فيه وقد ذكر المفسرون أيضا
في هذه الزينة التي خرج فيها روايات مختلفة والمراد انه خرج في زينة انبهر لها من رآها
ولهذا تمنى الناظرون اليه أن يكون لهم مثلها كما حكى الله عنهم بقوله (قال الذين يريدون
الحياة الدنيا) اختلف في هؤلاء القائلين بهذه المقالة فقيل هم من مؤمني ذلك الوقت تمنوا
الدنيا ليتقربوا الى الله تعالى ولينفقوه في سبيل الخير فتمنوا مثله لا عينه حذرا من الحسد

وحدث صفوان بن محرز انه قال يجاء برجلين يوم القيامة أحدهما كان ملكا في الدنيا الى الحمرة والبياض فيحاسب فاذا عبد لم يعمل خيرا قط فيؤمر به الى النار والآخر كان صاحب كساء في الدنيا فيحاسب فيقول يارب ما أعطيتني من شيء فتحاسبني به فيقول الله صدق عبدي فارسلوه فيؤمر به الى الجنة ثم يترك ماشاء الله ثم يدعى صاحب النار فاذا هو مثل الحممة السوداء فيقال له كيف وجدت فيقول شر مقيل فيقال له عد ثم يدعى بصاحب الجنة فاذا هو مثل القمر ليلة البدر فيقال له كيف وجدت فيقول رب خير مقيل فيقال له عد رواها ابن أبي حاتم كلها وقال ابن جرير (١٣٥) حدثني يونس أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحرث ان سعيدا الصواف حدثه انه بلغه ان يوم القيامة يقصر على المؤمن حتى يكون كما بين العصر الى غروب الشمس وانهم يتقلبون في رياض الجنة حتى يفرغ من الناس وذلك قوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا) يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الامور العظيمة فمنها انشقاق السماء وتفطرها وانفراجها بالغمام وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الابصار ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء قال مجاهد وهذا كما قال تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة الآية قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن عمار بن الحرث حدثنا مؤمل حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن يوسف بن مهران عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا قال ابن عباس رضي الله عنهما يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد الجن والانس والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والانس وجميع الخلق فيحيطون بالجن والانس وبجميع الخلق ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلها فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والانس وجميع الخلق وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها

وقيل هم قوم من الكفار (يا) للتنبيه (ليت لنا مثل ما أوتي قارون) في الدنيا (انه لذو حظ عظيم) أي نصيب وبخت ودولة وافر من الدنيا (وقال الذين أوتوا العلم) بما وعد الله في الآخرة وهم أحبار بني اسرائيل قالوا للذين تمنوا (ويلكم) كلمة زجر منصوبة بمقدر أي ألزمكم الله ويلكم قاله الزمخشري ومثله في التبيان وأصل ويلك الدعاء بالهلاك ثم استعمل في الزجر والردع والبعث على ترك مالا يرضى (ثواب الله) في الآخرة بالجنة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتي قارون في الدنيا لان الثواب منافعه عظيمة خالصة عن شوائب المضار دائمة وهذه النعم على الضد في هذه الصفات فلا تتمنوا عرض الدنيا الزائل الذي لا يدوم وهذا بيان للمفضل عليه (ولا يلقاها) أي هذه الكلمة التي تكلم بها الاحبار وقيل الضمير يعود الى الاعمال الصالحة وقيل الى الجنة والمعنى لا يفهمها ولا يوقف عليها ويوفق للعمل لها (الا الصابرون) على طاعة الله والصابرون أنفسهم عن الشهوات الراضون بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار (فخسفنا به) أي بقارون (وبداره الارض) يقال خسف المكان يخسف خسوفا ذهب في الارض وخسف به الارض خسفا أي غاب به فيها والمعنى ان الله غيبه وغيب داره في الارض (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله) أي ما كان له جماعة يدفعون ذلك الخسف عنه (وما كان) هو في نفسه (من المنتصرين) أي من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال كان قارون ابن عم موسى وكان يتبع العلم حتى جمع علما فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده فقال له موسى ان الله أمرني ان آخذ الزكاة فأبى فقال ان موسى يريد ان يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملون ان تعطوه أموالكم فقالوا لا نحتمل فما ترى فقال لهم أرى ان أرسل الى بغي من بغايا بني اسرائيل فترسلها اليه فترميه بانه أرادها على نفسها فارسلوا اليها فقالوا لها نعطيك حكمك على ان تشهدي على موسى انه فجر بك قالت نعم فجاء قارون الى موسى فقال اجمع بني اسرائيل فاخبرهم بما أمرك ربك قال نعم فجمعهم فقالوا له ما أمرك ربك قال أمرني ان تعبدوا الله ولا تشركوا به شيأ وان تصلوا الرحم وكذا وكذا وأمرني اذا زنى الرجل وقد أحصن ان يرجم قالوا وان كنت أنت قال

وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والانس وجميع الخلق ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة وهم أكثر من نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والانس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والانس وجميع الخلق كلهم وينزل ربنا عز وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع ومن الجن والانس وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم (١٣٦) زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله عز وجل ما بين أخمص قدم أحدهم الى كعبه مسيرة خمسمائة عام وما بين كعبه الى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبتيه الى حجزته مسيرة خمسمائة عام وما بين حجزته الى ترقوته مسيرة خمسمائة عام وما بين ترقوته الى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام وجهنم (١) مجسه هكذا رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسن حدثني الحجاج عن مبارك بن فضالة عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران انه سمع ابن عباس يقول ان هذه السماء اذا انشقت ينزل منها من الملائكة أكثر من الانس والجن وهو يوم التلاق يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الارض فيقول أهل الارض جاء ربنا فيقولون لم يجئ وهو آت ثم تنشق السماء الثانية ثم سماء سماء على قدر ذلك من التضعيف الى السماء السابعة فينزل منها من الملائكة أكثر من جميع من نزل من السموات ومن الجن والانس قال فتنزل الملائكة الكروبيون ثم يأتي ربنا في حملة العرش الثمانية بين كعب كل ملك وركبته مسيرة سبعين سنة وبين فخذه ومنكبه مسيرة سبعين سنة قال وكل ملك منهم لم يتأمل وجهه وجه صاحبه وكل ملك تفجع منهم واضع رأسه بين ثدييه يقول سبحان الملك القدوس وعلى رؤسهم شئ مبسوط كأنه القنا والعرش فوق ذلك ثم وقف فداره على علي بن زيد بن جدعان وفيه ضعف في سياقاته غالبا وفيها نكارة شديدة وقد ورد في حديث الصور المشهور قريب من هذا والله أعلم وقد قال الله تعالى فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية أربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك

ثم قالوا فانك قد زنيت قال أنا فارسلوا للمرأة فجاءت فقالوا اما تشهدين على موسى فقال لها موسى أنشدك بالله الا ما صدقت قالت اما اذا انشدتني بالله فانهم دعوني وجعلوا لي جعلا على ان أقذفك بنفسي وأنا أشهد انك بريء وانك رسول الله فخر موسى ساجدا يبكي ويقول يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فاوحى الله اليه ما يبكيك قد سلطناك على الارض فرها فتطيعك فرفع رأسه فقال خذيهم فاخذتهم الى أعقابهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم الى ركبهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم الى أعناقهم فجعلوا يقولون ياموسى ياموسى فقال خذيهم فاخذتهم فغشيتهم فاوحى الله اليه ياموسى سألك عبادي وتضرعوا اليك فلم تجبهم وعزتي لو انهم دعوني لاجبتهم قال ابن عباس وذلك قوله فخسفنا به وبداره الارض خسف به الى الارض السفلى ذكره الخازن والقرطبي وغيرهما بالفاظ وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من لبس ثوبا جديدا فاختال فيه خسف به من شفير جهنم فهو يتجلجل فيها لا يبلغ قعرها لان قارون لبس جبة فاختال فيها فخسف الله به الارض رواه الحرث بن اسحق من حديث ابن عباس وأبي هريرة بسند ضعيف جدا قال الحافظ في الفتح ان مقتضى هذا الحديث ان الارض لا تأكل جسده فيمكن ان يلغز ويقال لنا كافر لا يبلى جسده بعد الموت وهو قارون ذكره ابن القيم والتجلجل السوخ في الارض والتحرك والتضعضع والجلجلة التحريك قيل اذا وصل قارون الى قرار الارض السابعة نفخ اسرافيل في الصور (وأصبح) أي صار (الذين تمنوا مكانه) أي منزلته ورتبته من الدنيا (بالامس) أي منذ زمان قريب ولم يرد خصوص اليوم الذي قبل يومه (يقولون ويكأن الله) أي يقول كل واحد منهم متندما على ما فرط منه من التمني قال النحاس أحسن ما قيل في هذا ما قاله الخليل وسيبويه ويونس والكسائي ان القوم تنبهوا فقالوا وى والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه وى قال الجوهري وى كلمة تعجب ويقال ويك وقد تدخل وى على كأن المخففة والمشددة ويكأن الله قال الخليل هي مفصولة تقول وى ثم تبتدي فتقول كان وقال الفراء هي كلمة تقرير كقولك أما ترى صنع الله واحسانه وقيل هي كلمة تنبيه بمنزلة ألا وقال قطرب انما هو ويلك فاسقطت لامه وقال ابن الاعرابي والاخفش معنى ويك اعلم وقال القتيبي معناها بلغة حمير رحمة لك وقيل هي بمعنى ألم تر وروى عن الكسائي انه قال هي كلمة

(١) قوله مجسه هكذا في الاصل الذي بأيدينا من غير نقط ولم نحرر لفظ الرواية اه مصححه

وأربعة منهم يقولون سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك رواه ابن جرير عنه وقال أبو بكر بن عبد الله اذا نظر أهل الارض الى العرش يهبط عليهم من فوقهم شخصت اليه أبصارهم ورجفت كلاهم في أجوافهم وطارت قلوبهم من مقرها من صدورهم الى حناجرهم قال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا المعتمر بن سليمان عن عبد الجليل عن أبي حازم عن عبد الله بن عمرو قال يهبط الله عز وجل حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة فيصوت في تلك الظلمة صوت تخلع له القلوب وهذا موقوف على عبد الله بن عمرو ولعله من الزاملتين والله أعلم وقوله تعالى الملك يومئذ

تفجع وقيل معناها أظن وأقدر (يبسط) أي يوسع (الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي ويضيق على من يشاء والمعنى ليس الامر كما زعمنا ان البسط ينبئ عن الكرامة والقبض ينبئ عن الهوان بل كل منهما بمقتضى مشيئته (لولا أن من الله علينا) برحمته بعدم اعطائه ما تمنيناه وعصمنا من مثل ما كان عليه قارون من البطر والبغي (لخسف بنا) كما خسف به قرئ مبنيا للفاعل وللمفعول (ويكأنه لا يفلح الكافرون) أي لا يفوزون بمطلب من مطالبهم تأكيد لما قبله (تلك) التي سمعت بخبرها وبلغك شأنها (الدار الآخرة) أي الجنة والاشارة اليها لقصد التعظيم لها والتفخيم لشأنها (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) أي رفعة وتكبرا على المؤمنين وقيل ظلما وقيل استطالة على الناس وتهاونا بهم بالبغي (ولا فسادا) أي عملا بمعاصي الله سبحانه فيها كقتل النفس والزنا والسرقة وشرب الخمر أو دعاء الى عبادة غير الله ولم يعلق الموعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلوب اليهما كما قال ولا تركنوا الى الذين ظلموا فعلق الوعيد بالركون وعن عمر بن عبد العزيز انه كان يرددها حتى قبض وقال بعضهم حقيقته التنفير عن متابعة فرعون وقارون متشبثا بقوله ان فرعون علا في الارض ولا تبغ الفساد في الارض وذكر الفساد والعلو منكرين في حيز النفي يدل على شمولهما لكل ما يطلق عليه انه فساد وانه علو من غير تخصيص بنوع خاص اما الفساد فظاهر انه لا يجوز شئ منه كائنا ما كان وأما العلو فالممنوع منه ما كان على طريقة التكبر على الغير والتطاول على الناس وليس منه طلب العلو في الحق والرياسة في الدين ولا محبة اللباس الحسن والمركوب الحسن والمنزل الحسن عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الآية قال التجبر في الارض والاخذ بغير الحق أخرجه المحاملي والديلمي وروى مثله عن مسلم البطين وابن جرير وعكرمة وقال سعيد بن جبير بغيا في الارض وعن الحسن قال هو الشرف والعلو عند ذوي سلطانهم وأقول ان كان ذلك التقوي به على الحق فهو من خصال الخير لا من خصال الشر وعن علي بن أبي طالب قال ان الرجل ليعجب ان يكون شسع نعله أفضل من شسع نعل صاحبه فيدخل في هذه الآية قال ابن كثير في تفسيره بعد ذكر هذه الرواية عن علي وهذا محمول على من أحب ذلك لا لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت ان رجلا قال يا رسول الله اني أحب ان يكون ثوبي حسنا ونعلي حسنة أفمن الكبر

الحق للرحمن الآية كما قال تعالى لمن الملك اليوم لله الواحد القهار وفي الصحيح ان الله تعالى يطوي السموات بيمينه ويأخذ الارضين بيده الاخرى ثم يقول أنا الملك أنا الديان أين ملوك الارض أين الجبارون أين المتكبرون وقوله وكان يوما على الكافرين عسيرا أي شديدا صعبا لانه يوم عدل وقضاء فصل كما قال تعالى فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير فهذا حال الكافرين في هذا اليوم وأما المؤمنون فكما قال تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر الآية وروى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ما أطول هذا اليوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا وقوله تعالى ويوم يعض الظالم على يديه الآية يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله من الحق المبين الذي لا مرية فيه وسلك طريقا أخرى غير سبيل الرسول فاذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعض على يديه حسرة وأسفا وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الاشقيا فانها عامة في كل ظالم كما قال تعالى يوم تقلب وجوههم في النار الآيتين فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا يعني من صرفه عن الهدى وعدل به الى طريق الضلال وسواء في ذلك أمية بن خلف أو أخوه أبي بن خلف أو غيرهما لقد أضلني عن الذكر وهو القرآن بعد اذ جاءني أي بعد بلوغه الي قال الله تعالى وكان الشيطان للانسان خذولا أي يخذله عن الحق

ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل ويدعوه اليه (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) يقول تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم انه قال يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وذلك ان المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآية فكانوا اذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام فى غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه وترك الايمان به وترك تصديقه من هجرانه وترك تدبره وتفهمه من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدول عنه الى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه فنسأل الله الكريم المنان القادر على مايشاء أن يخلصنا مما يسخط ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يحبه ويرضاه انه كريم وهاب وقوله تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين أى كما حصل لك يا محمد فى قومك من الذين هجروا القرآن كذلك كان فى الامم الماضين لان الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين يدعون الناس الى ضلالهم وكفرهم كما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن الآيتين ولهذا قال تعالى ههنا وكفى بربك هاديا ونصيرا أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فان الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة وانما قال هاديا ونصيرا لان المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن فلهذا قال وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين الآية (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذى أوحى اليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والانجيل والزبور وغيرها من الكتب الالهية فأجابهم الله تعالى عن ذلك بانه انما نزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج

ذلك قال لا ان الله جميل يحب الجمال وعن على بن أبى طالب قال نزلت هذه الآية فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس وعن ابن عباس مثله وعن عدى بن حاتم قال لما دخل على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ألقى اليه وسادة فجلس على الارض فقال أشهد انك لا تبغى علوا فى الارض ولا فسادا فأسلم أخرجه ابن مردويه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) أى لمن اتقى عقاب الله باداء أوامره واجتناب نواهيه وقيل عاقبة المتقين الجنة (من جاء) يوم القيامة متصفا (بالحسنة) بان كان من المؤمنين والحسنة ما يحمد فاعلها شرعا وسميت حسنة لحسن وجه صاحبها عند رؤيتها فى القيامة والمراد الحسنة المقبولة الاصلية المعمولة للعبد أو ما فى حكمها كما لو تصدق عنه غيره لا المأخوذة فى نظير ظلامته كما لو ضرب زيد عمرا ضربة وكان لزيد حسنات موجودة فيؤخذ منها فيعطى لعمرو فهذه الحسنة لا تنسب لعمرو لا حقيقة ولا حكما فلا تضاعف له وخرج بالمعمولة ما لو هم بحسنة فلم يعملها لمانع فانها تكتب له واحدة ويجازى عليها من غير تضعيف (فله خير منها) وهو ان الله يجازيه بعشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف والتضعيف خاص بهذه الامة وأما غير هذه الامة من بقية الامم فلا تضعيف لهم والصواب دخول المضاعفة فى حسنات العصاة ان كانت على وجه يتناوله القبول بان يعملها على وجه لا رياء فيه ولا سمعة وعدم دخولها فى أعمال الكفار لانه لا يجتمع مع الكفر طاعة مقبولة ان لم يسلم والا فتكون كالمقبولة فى الاسلام ولا تضاعف الحسنات الحاصلة بالتضعيف (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى) معناه فلا يجزون فوضع (الذين عملوا السيآت) موضع الضمير لان فى اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين والسيئة هى ما يذم فاعلها شرعا صغيرة كانت أو كبيرة وسميت سيئة لان فاعلها يساء بها عند المجازاة عليها (الا) مثل (ما كانوا يعملون) وحذف المثل وأقيم مقامه ما كانوا الخ مبالغة فى المماثلة ومن فضله العظيم ان لا يجزى السيئة الا مثلها ويجزى الحسنة بعشر أمثالها وبسبعمائة وقد تقدم بيان معنى هذه الآية فى سورة النمل (ان الذى فرض عليك القرآن) قال المفسرون أى أنزل عليك وقال الزجاج فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن وتقدير الكلام فرض عليك أحكام القرآن وفرائضه وقيل أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه عن على بن حسين بن واقد قال أنزلت

هذه

المعنى الأحكام لتثبت قلوب المؤمنين به كقوله وقرآنا فرقناه الآية ولهذا قال لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا قال قتادة بيناه تبيينا وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا ولا يأتونك بمثل أى بحجة وشبهة الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا أى ولا يقولون قولا يعارضون به الحق الا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الامر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم قال سعيد بن جبير عن ابن عباس ولا يأتونك بمثل أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول الا جئناك بالحق الآية أى الا نزل جبرائيل من الله تعالى بجوابهم وما هذا الا اعتناء وكبير شرف للرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يأتيه الوحى من الله عز وجل بالقرآن صباحا ومساء وليلا ونهارا سفرا وحضرا وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كانزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة فهذا أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر اخوانه من الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم نبى أرسله الله تعالى وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ففى الملأ الاعلى أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ الى بيت العزة فى السماء الدنيا ثم أنزل بعد ذلك الى الارض منجما بحسب الوقائع والحوادث وروى النسائى باسناده عن ابن عباس قال أنزل القرآن جملة واحدة الى سماء الدنيا فى ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة قال الله تعالى ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا وقال تعالى وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ثم قال تعالى مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم الى جهنم فى أسوإ الحالات وأقبح الصفات الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا وفى الصحيح عن أنس ان رجلا قال يارسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة فقال ان الذى أمشاه على رجليه قادر ان يمشيه على وجهه يوم القيامة وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) يقول تعالى

هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجحفة حين خرج صلى الله عليه وآله وسلم مهاجرا الى المدينة فليست مكية ولا مدنية كما مر فى أول السورة (لرادك الى معاد) قال جمهور المفسرين أى الى مكة وهذا أقرب التفاسير وبه قال ابن عباس كما أخرجه البخارى عنه وزاد كما أخرجك منها قال القتيبى معاد الرجل بلده لانه ينصرف فيعود الى بلده وقال مجاهد وعكرمة والزهرى والحسن ان المعنى لرادك الى يوم القيامة وهو اختيار الزجاج يقال بينى وبينك المعاد أى يوم القيامة لان الناس يعودون فيه احياء وقال أبو مالك وأبو صالح لرادك الى الجنة وبه قال أبو سعيد الخدرى وروى عن مجاهد وقيل الى معاد أى الى الموت (قل ربى اعلم من جاء بالهدى) وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم لانه الجائى به (ومن هو فى ضلال مبين) وهم المشركون وهذا جواب لكفار مكة لما قالوا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم انك فى ضلال والاولى حمل الآية على العموم وان الله سبحانه يعلم حال كل طائفة من هاتين الطائفتين ويجازيها بما تستحقه من خير وشر (وما كنت) قبل مجىء الرسالة اليك (ترجو) وتؤمل ان نرسلك الى العباد و (ان يلقى اليك الكتاب) فانزاله عليك ليس عن ميعاد ولا عن طلب سابق منك وهذا تذكير له صلى الله عليه وآله وسلم بالنعم والاستثناء فى قوله (الا رحمة من ربك) منقطع أى لكن القاه عليك رحمة من ربك أو متصل حملا على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا لاجل الرحمة من ربك والاول أولى وبه جزم الكسائى والفراء ثم أمره الله بخمسة أشياء فقال (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أى عونا لهم وفيه تعريض بغيره من الامة وقيل المراد لا تكونن ظهيرا لهم بمداراتهم (ولا يصدنك) قرئ من صده يصده ومن أصده بمعنى صده والمعنى لا يمنعنك يا محمد الكافرون وأقوالهم وكذبهم وأذاهم (عن آيات الله) أى عن تلاوتها والعمل بها أو تبليغها (بعد اذ أنزلت اليك) أى بعد اذ أنزلها الله اليك وفرضت عليك (وادع) الناس (الى ربك) أى الى الله والى توحيده والعمل بفرائضه واجتناب معاصيه (ولا تكونن من المشركين) باعانتهم وفيه تعريض بغيره كما تقدم لانه صلى الله عليه وآله وسلم لا يكون منهم بحال من الاحوال وكذلك قوله (ولا تدع مع الله الها آخر) فانه تعريض بغيره ثم وحد سبحانه نفسه ووصفها بالبقاء والدوام فقال (لا اله الا هو كل شئ) من الاشياء كائنا ما كان (هالك) فى حد ذاته لان وجوده ليس ذاتيا بل لاستناده الى واجب الوجود فهو بالقوة وبالذات

متوعدا من كذب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم من مشركي قومه ومن خالفه ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالامم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وانه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا أى نبيا وازرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها وكذلك نفعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحا عليه السلام ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل اذ لا فرق بين رسول ورسول ولو فرض ان الله تعالى بعث اليهم كل رسول فانهم كانوا يكذبون ولهذا قال تعالى وقوم نوح لما كذبوا الرسل ولم يبعث اليهم الا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله عز وجل ويحذرهم نقمه فما آمن معه الا قليل ولهذا أغرقهم الله جميعا ولم يترك من بني آدم على وجه الارض سوى أصحاب السفينة فقط وجعلناهم للناس آية أى عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى انا لما طغى الماء حملنا كم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية أى وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من انجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره وقوله تعالى وعادا وثمود وأصحاب الرس قد تقدم الكلام على قصتيهما في غير ما سورة كسورة الاعراف بما أغنى عن الاعادة وأما أصحاب الرس فقال ابن جريج عن ابن عباس هم أهل قرية من قرى ثمود وقال ابن جريج قال عكرمة أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يس وقال قتادة فلج من قرى اليمامة ولابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله وأصحاب الرس قال بئر بأذربيجان وقال الثوري عن أبي بكر عن عكرمة الرس بئر رسوا فيها نبيهم أى دفنوه فيها قال ابن اسحق عن محمد بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أول الناس يدخل الجنة يوم القيامة العبد الاسود وذلك ان الله تعالى بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها الا ذلك العبد الاسود ثم ان أهل القرية عدوا على النبي فحفروا له بئرا فالقوه فيها ثم أطبقوا عليه بحجر أصم قال فكان ذلك العبد يذهب فيحتطب على ظهره ثم يأتي بحطبه فيبيعه ويشتري به طعاما وشرابا ثم يأتي به الى ذلك البئر فيرفع تلك الصخرة ويعينه الله تعالى عليها فيدلي اليه طعامه وشرابه ثم يردها كما كانت قال فكان ذلك ما شاء الله ان يكون ثم انه ذهب يحتطب كما كان يصنع فجمع حطبه وحزم حزمته

معدوم حالا والمراد بالمعدوم ما ليس له وجود ذاتي لان وجوده كلا وجود وأما حمل هالك على المستقبل فكلام ظاهري قاله الشهاب (الا وجهه) أى الا ذاته قال الزجاج وجهه منصوب على الاستثناء ولو كان في غير القرآن كان مرفوعا بمعنى كل شئ غير وجهه هالك وقضية الاستثناء اطلاق الشئ على الله تعالى وهو الصحيح لان المستثنى داخل في المستثنى منه وانما جاء على عادة العرب في التعبير بالاشرف عن الجملة ومن لم يطلقه عليه جعله متصلا أيضا وجعل الوجه ما عمل لاجله سبحانه فان ثوابه باق قاله الكرخي وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال لما نزلت كل من عليها فان قالت الملائكة هلك أهل الارض فلما نزلت كل نفس ذائقة الموت قالت الملائكة هلك كل نفس فلما نزلت كل شئ هالك الا وجهه قالت الملائكة هلك أهل السماء والارض وعنه قال الا ما أريد به وجهه والمستثنى من الهلاك والفناء ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله

ثمانية حكم البقاء يعمها * من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسي ونار وجنة * وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم

(له الحكم) أى القضاء النافذ يقضي بما شاء ويحكم بما أراد (واليه) أى الى جزائه أو اليه وحده (ترجعون) في جميع أحوالكم في الدنيا وعند البعث ليجزي المحسن باحسانه والمسئ باساءته لا الى غيره سبحانه وتعالى

(سورة العنكبوت هي تسع وتسعون آية قيل مكية كلها)

قاله ابن عباس وابن الزبير والحسن وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد وقيل انها مدنية كلها وهو أحد قولي ابن عباس وقتادة وهو قول يحيى بن سلام وعن علي بن أبي طالب قال نزلت بين مكة والمدينة وهذا قول ثالث وأخرج الدارقطني في السنن عن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات وأربع سجدات يقرأ في الركعة الاولى العنكبوت أو الروم وفي الثانية يس

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة مستوفى في أول سورة البقرة (أحسب الناس) الاستفهام للتوبيخ والتقريع أو للتقرير والحسبان قوة أحد

النقيضين

وفرغ منها فلما أراد ان يحملها وجد سنة فاضطجع فنام فضرب الله على أذنه سبع سنين ثم انه هب فتمطى فتحول لشقه الآخر فاضطجع فضرب الله على أذنه سبع سنين أخرى ثم انه هب واحتمل حزمته ولا يحسب الا انه نائم ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته ثم اشترى طعاما وشرابا كما كان يصنع ثم ذهب الى الحفيرة فى موضعها الذى كانت فيه فالتمسه فلم يجده وكان قد بدا لقومه فيه بداء فاستخرجوه وآمنوا به وصدقوه قال فكان نبيهم يسألهم عن ذلك الاسود وما فعل فيقولون له لا ندرى حتى قبض الله النبى وهب الاسود من نومته بعد ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن محمد بن كعب مرسلا وفيه غرابة ونكارة ولعل فيه ادراجا والله أعلم وقال ابن جرير لا يجوز ان يحمل هؤلاء على انهم أصحاب الرس الذين ذكروا فى القرآن لان الله أخبر عنهم انه أهلكهم وهؤلاء آمنوا بنبيهم الا ان يكون حدث احداث آمنوا بالنبى بعد هلاك آبائهم واختار ابن جرير ان المراد باصحاب الرس أصحاب الاخدود الذين ذكروا فى سورة البروج فالله أعلم وقوله تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا أى وأمما بين اضعاف ذلك أهلكناهم كثيرا ولهذا قال وكلا ضربنا له الامثال أى بينا لهم الحجج وأوضحنا لهم الادلة كما قال قتادة وأزحنا الاعذار عنهم وكلا تبرنا تتبيرا أى أهلكنا اهلاكا كقوله تعالى وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح والقرن هو الامة من الناس كقوله ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة وقيل بمائة وقيل بثمانين وقيل أربعين وقيل غير ذلك والاظهر ان القرن هو الامة المتعاصرون فى الزمن الواحد واذا ذهبوا وخلفهم جيل فهو قرن آخر كما ثبت فى الصحيحين خير القرون قرنى الحديث ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء يعنى قرية قوم لوط وهى سدوم التى أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التى من سجيل كما قال تعالى وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين وقال وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون وقال تعالى وانها لبسبيل مقيم وقال وانهما لبامام مبين ولهذا قال أفلم يكونوا يرونها أى فيعتبروا بما حل باهلها بسبب تكذيبهم الرسول وبمخالفتهم أوامر الله بل كانوا لا يرجون نشورا يعنى المارين بها من الكفار لا يعتبرون

النقيضين على الآخر كالظن بخلاف الشك فهو الوقوف بينهما والعلم هو القطع على أحدهما ولا يصح تعليقهما بمعانى المفردات ولكن بمضامين الجمل (أن يتركوا أن يقولوا) أى لان يقولوا أو بان يقولوا أو على ان يقولوا (آمنا) أى نطقوا بكلمة الشهادة (وهم لا يفتنون) أى يتركون بغير اختبار ولا ابتلاء وليس الامر كما حسبوا بل لا بد ان نختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب والثابت فى الدين من المضطرب فيه فالآية مسوقة لانكار ذلك الحسبان واستبعاده وبيان انه لا بد من الامتحان بأنواع التكاليف وغيرها قال الزجاج المعنى أحسبوا ان نقنع منهم بان يقولوا انا مؤمنون فقط ولا يمتحنون بما تبين به حقيقة ايمانهم بل يمتحنون ليتميز الراسخ فى الدين من غيره قال السدى وقتادة ومجاهد أى لا يبتلون فى أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب وسيأتى فى بيان سبب نزول هذه الآيات ما يوضح معنى ما ذكرنا قال ابن عطية وهذه الآية وان كانت نازلة فى سبب خاص فهى باقية فى أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم موجود حكمها بقية الدهر وذلك ان الفتنة من الله باقية فى ثغور المسلمين بالاسر ونكاية العدو وغير ذلك والفتنة الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الاوطان والمهاجرة ومجاهدة الاعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات وبالفقر والقحط وأنواع المصائب فى الانفس والاموال ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم لينالوا بالصبر عليها عوالى الدرجات فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لا يقتضى غير الخلاص من الخلود فى العذاب أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وغيرهم انها أنزلت فى ناس كانوا بمكة وقد أقروا بالاسلام فكتب اليهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من المدينة لما أنزلت آية الهجرة انه لا يقبل منكم اقرار ولا اسلام حتى تهاجروا قال فخرجوا عامدين الى المدينة فاتبعهم المشركون فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية فكتبوا اليهم انه قد أنزل فيكم كذا وكذا فقالوا نخرج فان اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ومنهم من نجا فانزل الله فيهم ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم وعن قتادة نحوه باخصر منه وقيل نزلت فى عمار ابن ياسر اذ كان يعذب فى الله وعن ابن مسعود قال أول من أظهر الله اسلامه سبعة رسول الله وأبو بكر وسمية أم عمار وعمار وصهيب وبلال والمقداد فاما رسول الله فمنعه الله

لأنهم لا يرجون نشوراً أى معاداً يوم القيامة (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأوه كما قال وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا الآية يعنونه بالعيب والنقص وقال ههنا وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث

الله رسولا أى على سبيل التنقص والازدراء فقبحهم الله كما قال ولقد استهزئ برسل من قبلك الآية وقوله تعالى إن كاد ليضلنا عن آلهتنا يعنون أنه كاد يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها قال الله تعالى متوعداً لهم ومتهدداً وسوف يعلمون حين يرون العذاب الآية ثم قال تعالى لنبيه منبهاً أن من كتب عليه الشقاوة والضلال فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل أرأيت من اتخذ إلهه هواه أى مهما استحسن من شىء ورآه حسناً فإن الله يضل من يشاء الآية ولهذا قال ههنا أفأنت تكون عليه وكيلا قال ابن عباس كان الرجل فى الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثانى وترك الأول ثم قال تعالى أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون الآية أى هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة فإن تلك تفعل ما خلقت له وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له فلم يفعلوا وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم وإرسال الرسل إليهم (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) من ههنا شرع سبحانه وتعالى فى بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى ألم تر إلى ربك كيف مد الظل قال ابن عباس وابن عمر وأبو العالية وأبو مالك ومسروق ومجاهد وسعيد بن جبير والنخعى والضحاك والحسن وقتادة هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ولو شاء لجعله ساكنا أى دائماً لا يزول كما قال تعالى قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا الآيات وقوله تعالى ثم جعلنا الشمس عليه دليلا

الزجاج

بعمه أبى طالب وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وصهروهم فى الشمس فما منهم من أحد إلا وقد آتاهم على ما أرادوا إلا بلال فإنه هانت عليه نفسه فى الله وهان على قومه فأخذوه وأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به فى شعاب مكة وهو يقول أحد أحد (ولقد فتنا الذين من قبلهم) أى هذه سنة الله فى عباده قديمة جارية فى الأمم كلها وأنه يختبر مؤمنى هذه الأمة كما اختبر من قبلهم من الأمم كما جاء به القرآن فى غير موضع من قصص الأنبياء وما وقع لهم من قومهم من المحن وما اختبر الله به أتباعهم ومن آمن بهم من تلك الأمور التى نزلت بهم فمنهم من نشر بالمنشار ومنهم من قتل ومنهم من ألقى فى النار ومنهم من مشط بأمشاط الحديد فما صرفه ذلك عن دينه وابتلى بنو إسرائيل بفرعون فكان يسومهم سوء العذاب والمقصود التنبيه على حظهم فى هذا الحسبان والمعنى أحسبوا ذلك وقد علموا أنه خلاف سنة الله ولن تجد لسنة الله تحويلا (فليعلمن الله الذين صدقوا) فى قولهم آمنا علم مشاهدة (وليعلمن الكاذبين) منهم فى ذلك أى ليظهر الله الصادق والكاذب فى قولهم ويميز بينهم وقرئ بضم الياء وكسر اللام والمعنى أنه يعلم الطائفتين فى الآخرة بمنازلهم أو يعلم الناس بصدق من صدق ويفضح الكاذبين بكذبهم أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها وتتميز عن غيرها وقيل إن علم الله صفة يظهر فيها كل ما يقع وما هو واقع إلا أن قبل التكليف يعلم أن زيداً مثلاً سيطيع وعمراً سيعصى ثم بعد التكليف يعلم أنه مطيع والآخر عاص ولا يتغير علمه فى شىء من الأحوال وإنما المتغير هو المعلوم وأتى بصيغة الفعل فى صدقوا وباسم الفاعل فى الكاذبين لأن اسم الفاعل يدل على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه لأن وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالإسلام وعن قوم مستمرين على الكفر فعبر فى حق الأولين بلفظ الفعل وفى حق الآخرين بالصيغة الدالة على الثبات قاله زاده (أم حسب الذين يعملون السيئات) أى الشرك والمعاصى (أن يسبقونا) أى أن يفوتونا فلا ننتقم منهم ويعجزونا قبل أن نؤاخذهم بما يعملون وأم هى المنقطعة ومعنى الإضراب فيها أن هذا الحسبان أبطل من الحسبان الأول لأن ذلك يقدر أنه لا يمتحن لإيمانه وهذا يظن أنه لا يجازى بمساويه وقالوا الأول فى المؤمنين وهذا فى الكافرين المشركين (ساء ما يحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم هذا وقال

أي لولا ان الشمس تطلع عليه لما عرف فان الضد لا يعرف الا بضده قال قتادة والسدي دليلا تتلوه وتتبعه حتى تأتي عليه كله وقوله تعالى ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا أي الظل وقيل الشمس يسيرا أي سهلا قال ابن عباس سريعا وقال مجاهد خفيا وقال السدي قبضا خفيا حتى لا يبقى في الارض ظل الا تحت سقف أو تحت شجرة وقد أظلت الشمس ما فوقه وقال أيوب بن موسى في الآية قبضا يسيرا قليلا قليلا وهو الذي جعل لكم الليل لباسا أي يلبس الوجود ويغشاه كما قال تعالى والليل اذا يغشى والنوم سباتا أي قاطعا للحركة لراحة الابدان فان الاعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش فاذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معا وجعل النهار نشورا أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله الآية (وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا) وهذا أيضا من قدرته التامة وسلطانه العظيم وهو انه تعالى يرسل الرياح مبشرات أي بمجيء السحاب بعدها والريح أنواع في صفات كثيرة من التسخير فمنها ما تثير السحاب ومنها ما تحمله ومنها ما تسوقه ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشرا ومنها ما يكون قبل ذلك تقم الارض ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ولهذا قال تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا أي آلة يتطهر بها كالسحور والوجور وما جرى مجراهما فهذا أصح ما يقال في ذلك وأما من قال انه فعول بمعنى فاعل أو انه مبني للمبالغة والتعدي فعلى كل منهما اشكالات من حيث اللغة والحكم ليس هذا موضع بسطها والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي باسناده الى الطويل عن ثابت البناني قال دخلت مع أبي العالية في يوم مطير وطرق البصرة قذرة فصلى فقلت له فقال وأنزلنا من السماء ماء طهورا قال طهره ماء السماء وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا وهيب عن داود عن سعيد بن المسيب في هذه الآية قال أنزله الله طهورا لا ينجسه شيء وعن أبي سعيد قال قيل يا رسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر

الزجاج ما في موضع نصب بمعنى ساء شيئا أو حكما يحكمون قال ويجوز أن تكون ما في موضع رفع بمعنى ساء الشيء أو الحكم حكمهم وقال ابن كيسان ساء حكمهم (من كان يرجو لقاء الله) الرجاء بمعنى الطمع قاله سعيد بن جبير وقيل الرجاء هنا بمعنى الخوف قال القرطبي وأجمع أهل التفسير على ان المعنى من كان يخاف الموت وقيل البعث والحساب قال الزجاج أي ثواب المصير اليه تعالى فالرجاء على هذا معناه الأمل ومن موصولة أو شرطية والجزاء قوله (فان أجل الله) والراجح انه ليس بجزاء لان أجله جاء لا محالة من غير تقييد بشرط لانه لو كان جواب الشرط لزم ان من لا يرجوه لا يكون أجل الله آتيا بل الجواب محذوف أي فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا والمعنى من كان يرجو ويطمع لقاء الله فان أجله المضروب للبعث والثواب والعقاب (لآت) أي لجاء لا محالة قال مقاتل يعني يوم القيامة وفي الآية من الوعد والوعيد والترهيب والترغيب ما لا يخفى (وهو السميع) لاقوال عباده (العليم) بما يسرونه وما يعلنونه (ومن جاهد) الكفار وجاهد نفسه بالصبر على الطاعات أو جاهد الشيطان بدفع وساوسه (فانما يجاهد لنفسه) أي ثواب ذلك له لا لغيره ولا يرجع الى الله سبحانه من نفع ذلك شيء وهذا بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق فان الكريم اذا وعد وفى فالحصر اضافي فلا يقال كيف يستقيم الحصر مع ان جهاد الشخص قد ينتفع به غيره كما ينتفع الآباء بصلاح الاولاد وينتفع من سن سنة حسنة بفعل من استن بها وقيل المعنى ومن جاهد عدوه لنفسه لا يريد بذلك وجه الله فليس لله حاجة بجهاده والاول أولى وفيه بشارة وتخويف (ان الله لغني عن العالمين) من الانس والجن والملائكة فلا يحتاج الى طاعاتهم كما لا تضره معاصيهم وانما أمر ونهى رحمة لعباده (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) أي لنبطلها حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل والتكفير اذهاب السيئة بالحسنة والمراد بالسيئة الشرك والمعاصي وتكفيرها هو الايمان والتوبة والآية تستدعي وجود السيئات حتى تكفر والوجه فيه انه ما من مكلف الا وله سيئة أما غير الانبياء فظاهر وأما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) أي بأحسن جزاء أعمالهم وقيل بجزاء أحسن أعمالهم والمراد بأحسن مجرد الوصف لا التفضيل لئلا يكون جزاؤهم بالحسن مسكوتا عنه وهذا

ليس بشئ لانه من باب الاولى فانه اذا جازاهم بالاحسن جازاهم بما دونه فهو من التنبيه على الادنى بالاعلى وقيل معناه نعطيهم أكثر مما عملوا وأحسن منه كما في قوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أي ايصاء حسنا على المبالغة قاله الكواشي أو ذا حسن وهذا مذهب البصريين أو ان يفعل حسنا قاله الكوفيون قال الزجاج ان يفعل بوالديه ما يحسن وقيل وصيناه أمرا ذا حسن وقيل ألزمناه حسنا وقيل وصيناه بحسن وقيل يحسن حسنا ومعنى الآية التوصية للانسان بوالديه بالبر لهما والعطف عليهما والاحسان اليهما بكل ما يمكنه من وجوه الاحسان فيشمل ذلك اعطاء المال والخدمة ولين القول وعدم المخالفة لهما وغير ذلك قرئ حسنا بضم الحاء واسكان السين وبفتحهما وقرئ احسانا وكذا في مصحف أبي (وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم) أي ان طلبا منك وألزماك ان تشرك بي الها ليس لك علم بكونه الها وفي سورة لقمان على ان تشرك بي لان ما هاهنا وافق ما قبله لفظا وهو من جاهد فانما يجاهد لنفسه وما هناك محمول على المعنى لان التقدير وان حملاك على أن تشرك قاله الكرماني (فلا تطعهما) في الاشراك وعبر بنفي العلم عن نفي الاله لان ما لم يعلم صحته لا يجوز اتباعه فكيف بما علم بطلانه واذا لم تجز طاعة الابوين في هذا المطلب مع المجاهدة منهما له فعدم جوازها مع مجرد الطلب بدون مجاهدة منهما أولى ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه فلا طاعة لهما فيما هو معصية الله كما صح ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال قالت أمي لا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يشجرون فاها بالعصا فنزلت هذه الآية الى قوله فلا تطعهما وأخرجه أيضا الترمذي من حديثه وقال نزلت في أربع آيات وذكر نحو هذه القصة وقال حسن صحيح وقد أخرج هذا الحديث أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا قال القرطبي فلم يطعها سعد وقال انها والله لو كان لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما كفرت بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم فان شئت فكلي وان شئت فلا تأكلي فلما رأت ذلك أكلت قال الكرخي هذا وما في لقمان والاحقاف نزل في سعد بن أبي وقاص (الي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) أي أخبركم بصالح أعمالكم وطالحها فأجازي كلا منكم بما يستحقه وفي

يأتي فم التين ولحوم الكلاب فقال ان الماء طهور لا ينجسه شئ رواه الشافعي وأحمد وصححه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وروى ابن أبي حاتم باسناده حدثنا أبي حدثنا أبو الاشعث حدثنا معتمر سمعت أبي يحدث عن سيار عن خالد بن يزيد قال كنا عند عبد الملك بن مروان فذكروا الماء فقال خالد بن يزيد منه ما من السماء ومنه ما يشربه الغيم من البحر فيعذبه الرعد والبرق فاما ما كان من البحر فلا يكون منه نبات فاما النبات فما كان من السماء وروى عن عكرمة قال ما أنزل الله من السماء قطرة الا أنبت بها في الارض عشبة اوفى البحر لؤلؤة وقال غيره في البر بر وفي البحر در وقوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا أي أرضا قد طال انتظارها للغيث فهي هامدة لا نبات فيها ولا شئ فلما جاءها الحيا عاشت واكتست رباها أنواع الازاهير والالوان كما قال تعالى فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت الآية ونسقيه مما خلقنا انعاما واناسي كثيرا اي وليشرب منه الحيوان من انعام واناسي محتاجين اليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم كما قال تعالى وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا الآية وقال تعالى فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها الآية وقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم ليذكروا أي أمطرنا هذه الارض دون هذه وسقنا السحاب يمر على الارض ويتعداها ويتجاوزها الى الارض الاخرى فيمطرها والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة ماء وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء ثم قرأ هذه الآية ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس الا كفورا اي ليذكروا باحياء الله الارض الميتة انه قادر على احياء الاموات والعظام الرفات أو ليذكر من منع المطر انما أصابه ذلك بذنب أصابه فيقلع عما هو فيه وقال عمر مولى غفرة كان جبريل عليه السلام في موضع الجنائز فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يا جبريل اني أحب أن أعلم أمر السحاب قال فقال له جبريل يا نبي الله هذا ملك السحاب فسله فقال تأتينا صكاك مختمة اسق بلاد كذا وكذا كذا وكذا قطرة رواه ابن أبي حاتم وهو حديث مرسل وقوله تعالى فأبى أكثر الناس الا كفورا قال عكرمة يعني الذين يقولون مطرنا بنوء كذا وكذا وهذا الذي قاله

عكرمة كما صح في الحديث المخرج في صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال لاصحابه يوما على أثر سماء أصابتهم من الليل أتدرون ماذا قال ربكم قالوا الله ورسوله أعلم قال قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا (١٤٥) وكان ربك قديرا) يقول تعالى ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا يدعوهم الى الله عز وجل ولكن خصصناك يا محمد بالبعثة الى جميع أهل الارض وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن لانذركم به ومن بلغ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده لتنذر أم القرى ومن حولها قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا وفي الصحيحين بعثت الى الاسود والاحمر وفيهما وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة ولهذا قال تعالى فلا تطع الكافرين وجاهدهم به يعني القرآن قاله ابن عباس جهادا كبيرا كما قال تعالى يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين الآية وقوله تعالى وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج أى خلق الماءين الحلو والملح فالحلو كالانهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال قاله ابن جريج واختاره ابن جرير وهذا المعنى لاشك فيه فانه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات والله سبحانه وتعالى انما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم اليه أنهارا وعيونا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لانفسهم وأراضيهم وقوله تعالى وهذا ملح أجاج أى مالح مر زعاق لا يستطاع وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب البحر المحيط وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم وبحر اليمن وبحر البصرة وبحر فارس وبحر الصين والهند وبحر الروم وبحر الخزر وما شابهها من البحار الساكنة التي لا تجري ولكن تموج وتضطرب وتلتطم في زمن الشتاء وشدة الرياح ومنها ما فيه مد وجزر ففي أول كل شهر يحصل منها

ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك وحث على الثبات والاستقامة في الدين (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أى في زمرة الراسخين في الصلاح وهو من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الانبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين وقال يوسف عليه السلام توفني مسلما وألحقني بالصالحين وقيل لندخلنهم في مدخل الصالحين وهو الجنة كذا قيل والاول أولى ومعنى ادخالهم فيهم كونهم معدودين من جملتهم لاتصافهم بصفتهم أى نحشرهم معهم اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين وارزقنا لسان صدق في الآخرين (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي) أى أصابه بلاء من الناس أو أذى من الكفار (في الله) أى في شأن الله وسبيله ولاجله كما يفعله أهل الكفر مع أهل الايمان وكما يفعله أهل المعاصي مع أهل الطاعات وأصحاب البدع مع أصحاب السنة وأهل التقليد مع أهل الاتباع بل كل مبطل مع كل محق من ايقاع أنواع الاذى عليهم لاجل الايمان بالله والعمل بما أمر به من كتاب وسنة (جعل فتنة الناس) التي هي ما يوقعونه عليه من الاذى وجزع من أذاهم فلم يصبر عليه وجعله في الشدة والعظم (كعذاب الله) فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عقابه وقيل هو المنافق اذا أوذي في الله رجع عن الدين فكفر وكان يمكنه أن يصبر على الاذى الى حد الاكراه ويكون قلبه مطمئنا بالايمان فجعل المنافقون فتنة الناس صارفة عن الايمان كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر فعذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا عذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عقاب أليم والمشقة اذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا قال الزجاج ينبغي للمؤمن أن يصبر على الاذية في الله أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن ماجه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي وغيرهم عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ولقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أتت على ثالثة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد الا ما وارى ابط بلال (ولئن جاء نصر من ربك) أى فتح من الله للمؤمنين وغلبة على الاعداء وغنيمة يغنمونها منهم (ليقولن) بضم اللام حملا على المعنى بعد الحمل على اللفظ ونقل أبو معاذ النحوي انه قرئ بالفتح جريا على مراعاة لفظها أيضا وقراءة العامة أحسن لقوله (انا كنا معكم) في دينكم

مدّ ونقص فاذا شرع الشهر في النقصان جزرت حتى ترجع الى غايتها الاولى فاذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد الى الليلة الرابعة عشر ثم تشرع في النقص فاجرى الله سبحانه وتعالى وهو ذو القدرة التامة العادة بذلك فكل هذه البحار الساكنة خلقها الله سبحانه وتعالى مالحة لئلا يحصل بسببها نتن الهواء فيفسد الوجود بذلك ولئلا تجوى الارض بما يموت فيها من الحيوان ولما كان ماؤها مالحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن ماء البحر أنتوضأ به فقال هو الطهور ماؤه الحل ميتته رواه الائمة مالك والشافعي وأحمد وأهل السنن باسناد جيد وقوله

تعالى وجعل بينهما برزخا وحجرا أي بين العذب والمالح برزخا أي حاجزا وهو اليبس من الارض وحجرا محجورا أي مانعا من أن يصل أحدهما الى الآخر كقوله تعالى مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان وقوله تعالى أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون وقوله تعالى وهو الذي خلق من الماء بشرا الآية أي خلق الانسان من نطفة ضعيفة فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا أو أنثى كما يشاء فجعله نسبا وصهرا فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات وكل ذلك من ماء مهين ولهذا قال تعالى وكان ربك قديرا (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من أجر الا من

فأشركوا في العمية فالمراد الفتنة في الايمان دون المحنة في المال لانها أعسر وأدعة قاله الشهاب فكذبهم الله فقال (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) من الايمان والنفاق أي هو سبحانه أعلم بما فيها من خير وشر فكيف يدعون هذه الدعاوى الكاذبة وهؤلاء هم قوم ممن كان في ايمانهم ضعف كانوا اذا مسهم الاذى من الكفار وافقوهم واذا ظهرت قوة الاسلام ونصر الله المؤمنين في موطن من المواطن قالوا انا كنا معكم وقيل المراد بهذا وما قبله المنافقون قال مجاهد نزلت في ناس كانوا يؤمنون بالله بألسنتهم فاذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا وقال الضحاك نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون فاذا أوذوا رجعوا الى الشرك وقيل نزلت في الذين أخرجهم المشركون معهم الى بدر والظاهر أن هذا النظم من قوله ومن الناس من يقول الى قوله وقال الذين كفروا نازل في المنافقين لما ظهر من السياق ولقوله (وليعلمن الله الذين آمنوا) بقلوبهم أي صدقوا وثبتوا على الاسلام عند البلاء (وليعلمن المنافقين) بترك الايمان عند البلاء فانه لتقرير ما قبله وتأكيده واللام في الفعلين لام قسم أي والله ليميزن الله بين الطائفتين ونظيرا خلاص المخلصين ونفاق المنافقين فيجازي الفريقين فالمخلص الذي لا يتزلزل بما يصيبه من الاذى ويصبر في الله حق الصبر ولا يجعل فتنة الناس كعذاب الله والمنافق الذي يميل هكذا وهكذا فان أصابه أذى من الكافرين وافقهم وتابعهم وكفر بالله عز وجل وان هبت ريح الاسلام وطلع نصره ولاح فتحه رجع الى الاسلام وزعم انه من المسلمين وتغيير الاسلوب حيث عبر في الاول بالفعل وفي الثاني باسم الفاعل نص لرعاية الفاصلة قيل هذه الآيات العشر من أول السورة الى ههنا مدنية وباقي السورة مكي قاله يحيى بن سلام (وقال الذين كفروا) من أهل مكة كأبي سفيان وأتباعه (للذين آمنوا) اللام لام التبليغ أي قالوا مخاطبين لهم كما سبق بيانه في غير موضع أي قالوا لهم (اتبعوا سبيلنا) أي اسلكوا طريقتنا وادخلوا في ديننا (ولنحمل خطاياكم) أي ان كان اتباع سبيلنا خطيئة تؤاخذون بها عند البعث والنشور كما تقولون فلنحمل ذلك عنكم فنؤاخذ بها دونكم قال مقاتل يعني قولهم نحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من الله واللام في لنحمل لام الامر كأنهم أمروا أنفسهم بذلك وقال الزمخشري الامر بمعنى الخبر وقرئ بكسر اللام وهو لغة الحجاز ثم رد عليهم بقوله (وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء) من

شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا الذي الاولى خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الاصنام التي لا تملك ضرا ولا نفعا بلا دليل قادهم الى ذلك ولا حجة أدتهم اليه بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء فهم يوالونهم ويقاتلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى وكان الكافر على ربه ظهيرا أي عونا في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم

الغالبون كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون أى آلهتهم التى اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا وهؤلاء الجهلة للاصنام جند محضر يقاتلون عنهم ويذبون عن حوزتهم ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله وللمؤمنين فى الدنيا والآخرة قال مجاهد وكان الكافر على ربه ظهيرا قال يظاهر الشيطان على معصية الله ويعينه وقال سعيد بن جبير وكان الكافر على ربه ظهيرا يقول عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك وقال زيد بن أسلم وكان الكافر على ربه ظهيرا قال مواليا ثم قال تعالى لرسوله

صلوات الله وسلامه عليه وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا أى بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرا بين يدى عذاب شديد لمن خالف أمر الله قل ما أسألكم عليه من أجر أى على هذا البلاغ وهذا الانذار من أجرة أطلبها من أموالكم وانما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى لمن شاء منكم أن يستقيم الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا أى طريقا ومسلكا ومنهجا يقتدى فيها بما جئت به ثم قال تعالى وتوكل على الحى الذى لا يموت أى فى أمورك كلها كن متوكلا على الله الحى الذى لا يموت أبدا الذى هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم الدائم الباقى السرمدى الابدى الحى القيوم رب كل شئ ومليكه اجعله ذخرك وملجأك وهو الذى يتوكل عليه ويفزع اليه فانه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وروى ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن على بن نفيل قال قرأت على معقل يعنى ابن عبيد الله عن عبد الله بن أبى حسين عن شهر بن حوشب قال لقى سلمان النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض فجاج المدينة فسجد له فقال لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت وهذا مرسل حسن وقوله تعالى وسبح بحمده قرن بين حمده وتسبيحه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أى اخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وقال تعالى فاعبده وتوكل عليه وقال تعالى قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا وقوله تعالى وكفى به بذنوب عباده خبيرا أى بعلمه التام الذى

الاولى بيانية والثانية مزيدة للاستغراق أى وما هم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا بها وضمنوا لهم حملها ثم وصفهم الله سبحانه بالكذب فى هذا التحمل فقال (انهم لكاذبون) فيما ضمنوا به من حمل خطاياهم قال المهدوى هذا التكذيب لهم من الله عز وجل حمل على المعنى لان المعنى ان اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم فلما كان الامر يرجع فى المعنى الى الخبر أوقع عليه التكذيب كما يوقع على الخبر (وليحملن أثقالهم) أى أوزارهم التى عملوها والتعبير عنها بالاثقال للايذان بأنها ذنوب عظيمة (وأثقالا مع أثقالهم) أى أوزارا مع أوزارهم وهى أوزار من أضلوهم وأخرجوهم عن الهدى الى الضلالة ومثله قوله سبحانه ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها كما فى حديث أبى هريرة الثابت فى صحيح مسلم وغيره (وليسئلن يوم القيامة) سؤال تقريع وتوبيخ (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه من الاكاذيب والاباطيل التى كانوا يأتون بها فى الدنيا وأضلوهم بها ومن جملتها هذا الوعد (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) وعمره أربعون سنة أو أكثر وبينه وبين آدم ألف سنة أجمل سبحانه قصة نوح تصديقا لقوله فى أول السورة ولقد فتنا الذين من قبلهم (فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) فيه تثبيت للنبى صلى الله عليه وآله وسلم كأنه قيل له ان نوحا لبث هذه المدة الكثيرة يدعو قومه ولم يؤمن منهم الا قليل فصبر وما ضجر فأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك قيل ووقع فى النظم الا خمسين عاما ولم يقل تسعمائة سنة وخمسين لان فى الاستثناء تحقيق العدد بخلاف الثانى فقد يطلق على ما يقرب منه وذكر الالف أفخم وأوصل الى الغرض وجئ بالمميز أولا بالسنة ثم بالعام لان تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة ثم انه خص لفظ العام بالخمسين ايذانا بأن نبى الله لما استراح منهم بقى فى زمن حسن والعرب تعبر عن الخصب بالعام وعن الجدب بالسنة وقد اختلف فى مقدار عمر نوح عليه السلام وليس فى الآية الا أنه لبث فيهم هذه المدة وهى لا تدل على انها جميع عمره فقد تلبث فى غيرهم قبل اللبث فيهم وقد تلبث فى الارض من بعد هلاكهم بالطوفان فقال ابن عباس بعث الله نوحا وهو ابن أربعين سنة ولبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما يدعوهم الى الله وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا وعن عكرمة قال كان عمر نوح

لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله تعالى الذي خلق السموات والارض الآية أي هو الحي الذي لا يموت وهو خالق كل شئ وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها والارضين السبع في سفولها وكثافتها في ستة أيام ثم استوى على العرش أي يدبر الامر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين وقوله ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا أي استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به وقد علم انه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى فما قاله فهو الحق وما أخبر به فهو الصدق وهو الامام المحكم الذي اذا تنازع الناس في شئ وجب رد نزاعهم اليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى فان تنازعتم في شئ الآية وقال تعالى وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله وقال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا أي صدقا في الاخبار وعدلا في الاوامر والنواهي ولهذا قال تعالى فاسأل به خبيرا قال مجاهد في قوله فاسأل به خبيرا قال ما أخبرتك من شئ فهو كما أخبرتك وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية في قوله فاسأل به خبيرا هذا القرآن خبير به ثم قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الاصنام والانداد واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أي لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون ان يسموا الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتب اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب باسمك اللهم ولهذا أنزل الله تعالى قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى أي هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أي لا نعرفه ولا نقر به أنسجد لما تأمرنا أي لمجرد قولك وزادهم نفورا فأما المؤمنون فانهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالالهية ويسجدون له وقد اتفق العلماء رحمهم الله على ان هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه والله سبحانه

قبل أن يبعث الى قومه وبعد ما بعث ألفا وسبعمائة سنة وعن عوف بن شداد قال ان الله أرسل نوحا الى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلثمائة سنة وقال أبو السعود عاش نوح بعد الطوفان مائتين وخمسين سنة فكان عمره ألفا ومائتين وأربعين وعن أنس بن مالك قال جاء ملك الموت الى نوح فقال يا أطول النبيين عمرا كيف وجدت الدنيا ولذتها قال كرجل دخل بيتا له بابان فقال في وسط البيت هنية ثم خرج من الباب الآخر (فأخذهم الطوفان) أي الماء الكثير طاف بهم وعلاهم فغرقوا وارتفع على أعلى جبل أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر حتى غرق كل شئ غير من في السفينة والفاء للتعقيب أي أخذهم عقب تمام المدة المذكورة والطوفان يقال لكل شئ كثير مطيف بجمع محيط بهم من مطر أو قتل أو موت قاله النحاس وقال سعيد بن جبير وقتادة والسدي هو المطر وقال الضحاك الغرق وقيل الموت قال الشهاب ولكنه غلب في الماء كما هو المراد هنا (وهم ظالمون) أي مستمرون على الظلم والشرك ولم ينجع فيهم ما وعظهم به نوح وذكرهم هذه المدة بطولها (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أي أنجينا نوحا وأنجينا من معه في السفينة من أولاده وأتباعه واختلف في عددهم على أقوال قيل كانوا ثمانية وسبعين نفسا نصفهم ذكور ونصفهم اناث منهم أولاد نوح سام وحام ويافث ونساؤهم (وجعلناها) أي السفينة (آية للعالمين) أي عبرة عظيمة لهم ولمن بعدهم من الناس ان عصوا رسولهم وفي كونها آية وجوه أحدها انها كانت باقية على الجودي مدة مديدة كذا قال قتادة وثانيها ان الله سلم السفينة بأن جعلها آية وقيل ان الضمير راجع في جعلناها الى الواقعة أو القصة أو الحادثة أو الى النجاة أو الى العقوبة بالغرق (وابراهيم) انتصابه بالعطف على نوحا وقال الكسائي هو معطوف على الهاء في جعلناها وقيل منصوب بمقدر أي واذكر وقرأ ابراهيم النخعي وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهما وابراهيم بالرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال) منصوب على الظرفية أي وأرسلنا ابراهيم وقت قوله أو وجعلنا ابراهيم آية وقت قوله أو واذكر ابراهيم وقت قوله (لقومه اعبدوا الله) أي أطيعوه وأفردوه بالعبادة وخصوه بها أو وحدوه وفيه اشارة الى اثبات الاله (واتقوه) أن تشركوا به شيأ وفيه اشارة الى نفي الغير لان من يشرك مع الملك غيره في ملكه فقد أتى بأعظم الجرائم وقيل اعبدوا الله اشارة الى الاتيان

بالواجبات

وتعالى أعلم (تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) يقول تعالى ممجدا نفسه ومعظما على جميل ما خلق في السماء من البروج وهي الكواكب العظام في قول مجاهد وسعيد بن جبير وأبي صالح والحسن وقتادة وقيل هي قصور في السماء للحرس يروى هذا عن علي وابن عباس ومحمد بن كعب وابراهيم النخعي وسليمان بن مهران الاعمش وهو رواية عن أبي صالح أيضا والقول الاول أظهر اللهم الا ان يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس فيجتمع القولان كما قال تعالى ولقد زينا السماء الدنيا

بمصابيح الآية وقوله تعالى تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود كما قال تعالى وجعلنا سراجا وهاجا وقمرا منيرا أي مشرقا مضيئا بنور آخر من غير نور الشمس كما قال تعالى وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقال مخبرا عن نوح عليه السلام انه قال لقومه ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ثم قال تعالى وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة أي يخلف كل واحد منهما صاحبه يتعاقبان لا يفتران اذا ذهب هذا جاء هذا واذا جاء هذا ذهب ذاك كما قال تعالى وسخر لكم الشمس والقمر دائبين الآية وقال يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا الآية وقال لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر الآية وقوله تعالى لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا أي جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادة عباده له عز وجل فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل وقد جاء في الحديث الصحيح ان الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو حمزة عن الحسن ان عمر بن الخطاب أطال صلاة الضحى فقيل له صنعت اليوم شيئا لم تكن تصنعه فقال انه بقي علي من وردي شيء فأحببت ان أتمه أو قال أقضيه وتلا هذه الآية وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول من فاته شيء من الليل ان يعمله أدركه بالنهار ومن فاته بالنهار أدركه بالليل وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقال مجاهد وقتادة خلفة أي مختلفين أي هذا

بالواجبات وقوله اتقوه اشارة الى الامتناع من المحرمات ثم يدخل في الاول الاعتراف بالله وفي الثاني الامتناع من الشرك (ذلكم) أي عبادة الله وتقواه (خير لكم) من الشرك ولا خير في الشرك أبدا ولكنه خاطبهم باعتبار اعتقادهم وقيل خير من كل شيء لان حذف المفضل عليه يقتضي العموم مع عدم احتياجه الى التأويل اذ المراد بكل شيء كل شيء فيه خيرية ويجوز كونه صفة لا اسم تفضيل (ان كنتم تعلمون) شيأ من العلم أو تعلمون علما تميزون به بين ما هو خير وما هو شر وان من المرسلين ابراهيم ثم ذكر ابراهيم بطلان مذهبهم بأبلغ وجه بقوله (انما تعبدون من دون الله أوثانا) وبين لهم انهم يعبدون ما لا ينفع ولا يضر ولا يسمع ولا يبصر والاوثان هي الاصنام وقال أبو عبيدة الصنم ما يتخذ من ذهب أو فضة أو نحاس والوثن ما يتخذ من جص أو حجارة وقال الجوهري الوثن الصنم والجمع أوثان (وتخلقون افكا) أي وتكذبون كذبا على ان معنى تخلقون تكذبون قال الحسن معنى تخلقون تنحتون أي انما تعبدون أوثانا وأنتم تصنعونها وهذا على قراءة الجمهور بفتح الفوقية وسكون الخاء وضم اللام مضارع خلق وافكا بكسر الهمزة وسكون الفاء وقرأ علي بن أبي طالب وزيد بن علي والسلمي وقتادة بفتح الخاء واللام مشددة والاصل تتخلقون وروي عن زيد بن علي انه قرأ بضم التاء وتشديد اللام مكسورة وقرأ ابن الزبير وفضيل بن ورقان افكا بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو مصدر كالكذب أو صفة لمصدر محذوف أي خلقا افكا (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا) أي لا يقدرون على ان يرزقوكم شيأ من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) أي اصرفوا رغبتكم في أرزاقكم الى الله فهو الذي عنده الرزق كله فاسألوه واطلبوه من فضله (واعبدوه) أي وحدوه دون غيره (واشكروا له) على نعمائه ذكرهما بعد طلب الرزق لان الاول أي العبادة سبب لحدوث الرزق والثاني أي الشكر موجب لبقائه وسبب لمزيد عليه يقال شكرته وشكرت له (اليه) أي الى محل جزائه تعالى (ترجعون) بالموت ثم بالبعث لا الى غيره فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه ولما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد وقال (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم) أي وان تكذبوني فقد وقع ذلك لغيري من قبلكم فهو من قول ابراهيم وقيل هو من قول الله سبحانه أي وان تكذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فذلك عادة الكفار مع من سلف كقوم شيث وادريس ونوح

بسواده وهدايته فيما يأتي (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) هذه صفات عباد الله المؤمنين الذين يمشون على الارض هونا أي بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار كقوله تعالى ولا تمش في الارض مرحا الآية فأما هؤلاء فانهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ولا تجبر وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء فقد كان سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم اذا مشى كأنما ينحط من صبب وكأنما الارض تطوى له وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع حتى روي عن عمر أنه رأى شابا يمشي رويدا فقال ما بالك أأنت مريض قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وأمره أن يمشي بقوة وانما المراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله وعباد الرحمن الآية قال ان المؤمنين قوم ذلت منهم والله الاسماع والابصار والجوارح حتى تحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض وانهم والله لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة فقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم في نفوسهم شئ طلبوا به الجنة ولكن أبكاهم الخوف من النار انه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله نعمة الا في مطعم أو في مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه وقوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما أي اذا سفه عليهم الجهال بالقول السيء لم يقابلوهم عليه بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون الا خيرا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل عليه الا حلما وكما قال تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه الآية وروى الامام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن الاعمش عن أبي خالد الوالبي عن النعمان بن مقرن المزني قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول

كالرأفة

وغيرهم وقيل هذا اعتراض متصل الى قوله عذاب أليم وقع بذكير الاهل مكة وتحذير الهم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) لقومه الذين أرسل اليهم وليس عليه هدايتهم وانما ذلك في وسعه ولما بين الله تعالى الاصل الاول وهو التوحيد واشار الى الثاني وهو الرسالة بقوله وما على الرسول الخ شرع في بيان الاصل الثالث وهو الحشر وهذه الاصول الثلاثة لا ينفك بعضها عن بعض في الذكر الالهي فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده) قرئ بالتحتية على الخبر قال أبو عبيد كأنه قال أولم ير الامم وقرئ بالفوقية على الخطاب من ابراهيم لقومه وقيل هو خطاب من الله لقريش وقرئ يبدئ من أبدأ يبدئ ومن بدأ يبدئ وقرئ كيف بدأ والمعنى ألم يروا كيف يخلقهم الله ابتداء نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم ينفخ فيهم الروح ثم يخرجهم الى الدنيا ثم يتوفاهم بعد ذلك ثم هو يعيدهم كما بدأهم وكذلك سائر الحيوانات وسائر النباتات فاذا رأيتم قدرة الله سبحانه على الابتداء والايجاد فهو القادر على الاعادة والهمزة لانكار عدم رؤيتهم والواو للعطف على مقدر والمراد بالرؤية العلم الواضح الذي هو كالرؤية والعاقل يعلم ان البدء من الله لان الخلق الاول لا يكون من مخلوق والا لما كان الخلق الاول خلقا اول فهو من الله (ان ذلك) أي الخلق الاول والثاني (على الله يسير) لانه اذا أراد أمرا قال له كن فيكون فكيف ينكرون الثاني ثم امر سبحانه ابراهيم ان يأمر قومه بالمسير في الارض ليتفكروا ويعتبروا فقال (قل) لمنكري البعث (سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق) على كثرتهم واختلاف الوانهم وطبائعهم وألسنتهم وانظروا الى مساكن القرون الماضية والامم الخالية وآثارهم لتعلموا بذلك كمال قدرة الله فان من قدر على انشائها ابتداء أقدر على اعادتها وقيل ان المعنى قل لهم يا محمد سيروا ومعنى قوله (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) ان الله الذي بدأ النشأة الاولى وخلقها على تلك الكيفية ينشئها نشأة ثانية عند البعث أي وكما لم يتعذر عليه احداثهم مبدئا كذلك لا يتعذر عليه انشاؤهم معيدا بعد الموت ثانيا وهذا دليل على انهما نشأتان وان كل واحدة منهما انشاء أي ابتداء واختراع واخراج من العدم الى الوجود غير أن الآخرة انشاء بعد انشاء مثله والاولى ليست كذلك والجملة عطف على جملة سيروا في الارض داخلة معها في حيز القول قال ابن عباس النشأة الآخرة هي الحياة بعد الموت وهو النشور قرئ النشأة بالقصر وسكون الشين وبالمد وفتح الشين وهما لغتان

عليك السلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ان ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به واذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به اسناده حسن ولم يخرجوه وقال مجاهد قالوا سلاما يعني قالوا سدادا وقال سعيد ابن جبير ردوا معروفا من القول وقال الحسن البصري قالوا سلام عليكم ان جهل عليهم حلموا يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ثم ذكر ان ليلهم خير ليل فقال تعالى والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما أى فى طاعته وعبادته كما قال تعالى كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون وقوله تتجافى جنوبهم عن المضاجع الآية وقال تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه الآية ولهذا قال تعالى والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما أى ملازما دائما كما قال الشاعر

ان يعذب يكن غراما وان يعـ * ـط جزيلا فانه لا يبالى

ولهذا قال الحسن فى قوله ان عذابها كان غراما كل شئ يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام انما الغرام اللازم مادامت الارض والسموات وكذا قال سليمان التيمى وقال محمد بن كعب ان عذابها كان غراما يعنى ما نعموا فى الدنيا ان الله تعالى سأل الكفار عن النعمة فلم يردوها اليه فأغرمهم فادخلهم النار انها ساءت مستقرا ومقاما أى بئست المنزل منظرا وبئس المقيل مقاما وقال ابن أبى حاتم عند قوله انها ساءت مستقرا ومقاما حدثنا أبى حدثنا الحسن ابن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحرث قال اذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فاذا انتهى الى بعض أبوابها قيل له مكانك حتى تحف قال فيسقى كأسا من سم الاساود والعقارب قال فتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الاحوص عن الاعمش عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدلم فاذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشعارهم فكشطت لحومهم الى أقدامهم فاذا وجدت حر النار رجعت وقال الامام احمد حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سلام يعنى بن مسكين عن أبى طلال عن أنس بن مالك رضى الله عنه

كالرأفة والرآفة وهى منتصبة على المصدرية بحذف الزوائد والاصل الانشاءة او على حذف العامل اى ينشئ فينشؤن النشأة (ان الله على كل شئ) من البداءة والاعادة (قدير) والجملة تعليل لما قبلها (يعذب من يشاء) تعذيبه بعد النشأة الآخرة بالخذلان وهم الكفار والعصاة (ويرحم) بالهداية (من يشاء) رحمته وهم المؤمنون به المصدقون لرسله العاملون بأوامره ونواهيه أو المعنى يعذب بالحرص ويرحم بالقناعة أو بسوء الخلق وحسنه أو بالاعراض عن الله وبالاقبال عليه أو بمتابعة البدع وبملازمة السنة وقدم التعذيب فى الذكر على الرحمة مع ان رحمته سابقة لان السابق ذكر الكفار فذكر العذاب أولا لسبق ذكر مستحقيه (واليه) لا الى غيره (تقلبون) أى ترجعون وتردون (وما انتم) الخطاب لبنى آدم وهم من أهل الارض وليس فى وسعهم الهرب فى السماء لكن المقصود امتناع الفوات على جميع الاحوال (بمعجزين) ربكم عن ادراككم (فى الارض) الفسيحة (ولا فى السماء) التى هى افسح منها قال الفراء ولا من فى السماء بمعجزين الله فيما قال وهو كما فى قول حسان

فمن يهجو رسول الله منكم * ويمدحه وينصره سواء

اى ومن يمدحه وينصره سواء ومثله قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم اى الا من له مقام معلوم والمعنى انه لا يعجزه سبحانه اهل الارض فى الارض ولا اهل السماء فى السماء ان عصوه وقال قطرب ان معنى الآية ولا فى السماء لو كنتم فيها كما تقول لا يفوتنى فلان ههنا ولا بالبصرة يعنى ولا بالبصرة لو صار اليها وقال المبرد المعنى ولا من فى السماء على ان من ليست موصولة بل نكرة وفى السماء صفة لها فاقيمت مقام الموصوف ورده الاخفش ورجح ما قاله قطرب والمقصود بيان امتناع الفوات على جميع التقادير ممكنا كان او مستحيلا وهذا ان حملت الارض والسماء على المشهورين معناهما ويجوز أن يراد بهما جهة السفل وجهة العلو وقال هنا فى الارض ولا فى السماء واقتصر فى شورى على الارض لان ما هنا خطاب لقوم فيهم النمروذ الذى حاول الصعود الى السماء وقد حذفا معا للاختصار فى قوله فى الزمر وما هم بمعجزين (وما لكم من دون الله) أى غيره (من ولى ولا نصير) من مزيدة للتأكيد أى ليس له ولى يواليه ولا نصير ينصره ويدفع عنه عذاب الله (والذين كفروا بآيات الله) اى التنزيلية او التكوينية او بجميعهما (ولقائه) اى

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عبدا في جهنم لينادي ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فأتني
بعبدي هذا فينطلق جبريل فيجد أهل النار مكبين يبكون فيرجع الى ربه عز وجل فيخبره فيقول الله عز وجل ائتني به فانه في مكان
كذا وكذا فيجيء به فيوقفه على ربه عز وجل فيقول له يا عبدي كيف وجدت مكانك ومقيلك فيقول يا رب شر مكان وشر مقيل
فيقول الله عز وجل ردوا عبدي فيقول يا رب ما كنت أرجو اذا أخرجتني منها ان تردني فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدي

وقوله تعالى والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا الآية أي ليسوا بمبذرين في انفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم فلا يكفونهم بل عدلا خيارا وخير الامور أوسطها لا هذا ولا هذا وكان بين ذلك قواما كما قال تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط الآية وقال الامام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثني أبو بكر ابن عبد الله بن أبي تميم الغساني عن ضمرة عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من فقه الرجل قصده في معيشته ولم يخرجوه وقال أحمد أيضا حدثنا أبو عبيدة الحداد حدثنا مسكين بن عبد العزيز العبدي حدثنا ابراهيم الهجري عن أبي الاحوص عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عال من اقتصد لم يخرجوه وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا ابراهيم بن محمد بن ميمون حدثنا سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب عن بلال يعني العبسي عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحسن القصد
في الغنى وما أحسن القصد في الفقر وما أحسن القصد في العبادة ثم قال لا نعرفه يروى الا من حديث حذيفة
رضي الله عنه وقال الحسن البصري ليس في النفقة في سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف
وقال غيره السرف النفقة في معصية الله عز وجل (والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا
يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل
الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية

انكروا البعث وما بعده ولم يعملوا بما أخبرتهم به رسل الله سبحانه والاشارة بقوله (أولئك) الى الكافرين بالآيات واللقاء (يئسوا من رحمتي) في الدنيا ولم ينجع فيهم ما نزل من كتب الله ولا ما أخبرتهم به رسله وقيل المعنى انهم ييأسون يوم القيامة من رحمة الله وهي الجنة وصيغة الماضي للدلالة على تحقق وقوعه واضاف الرحمة الى نفسه ولم يضف العذاب اليها لسبق رحمته واعلاما لعباده بعمومها لهم (وأولئك لهم عذاب أليم) تكرير الاشارة للتأكيد ووصف العذاب بكونه أليما للدلالة على انه في غاية الشدة وهذا آخر الآيات في تذكير أهل مكة وقوله (فما كان جواب قومه الا ان قالوا) رجوع الى خطاب ابراهيم بعد الاعتراض بما تقدم من خطاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم على قول من قال ان قوله قل سيروا في الارض خطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم واما على قول من قال انه خطاب لابراهيم عليه السلام فالكلام في سياقه سابقا ولاحقا اي قال بعضهم لبعض عند المشاورة بينهم لا تجيبوا عن براهينه الثلاثة الدالة على الاصول وهي التوحيد والنبوة والحشر وافعلوا بابراهيم احد الامرين (اقتلوه) بالسيف او نحوه فتستريحوا منه عاجلا (او حرقوه) بالنار فاما ان يرجع الى دينكم اذا وجعته النار واما ان يموت بها اذا اصر على قوله ودينه وانما اجابوا بذلك لعدم قدرتهم على الجواب الصحيح ثم اتفقوا على تحريقه فقذفوه في النار (فأنجاه الله من النار) بأن جعلها عليه بردا وسلاما قيل ان ذلك اليوم لم ينتفع احد بنار وذلك لذهاب حرها (ان في ذلك) اي في انجاء الله لابراهيم بعد القائه في النار (لآيات) اي دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا اثرت فيه اثرا بل صارت الى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة والاحراق قال المحلي هي عدم تأثيرها فيه واخمادها وانشاء روض مكانها في زمن يسير انتهى اي مقدار طرفة عين بحيث انها لم تؤذه ولكن احرقت وثاقه ليحل (لقوم يؤمنون) اي يصدقون بتوحيد الله وقدرته وانما خص المؤمنين لانهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه وينتفعون بها واما من عداهم فهم عن ذلك غافلون (وقال) ابراهيم لقومه بعد الانجاء من النار ولم يحصل له منهم رعب ولا مهابة (انما اتخذتم من دون الله اوثانا مودة بينكم) اي للتوادد بينكم والتواصل لاجتماعكم على عبادتها وللخشية من ذهاب المودة فيما بينكم ان تركتم عبادتها اقرئ برفع

مودة

حدثنا الاعمش عن شقيق عن عبد الله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أكبر قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك قال ثم أي قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك قال ثم أي قال ان تزاني حليلة جارك قال عبد الله وأنزل الله تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله الها آخر الآية وهكذا رواه النسائي عن هناد بن السري عن أبي معاوية به وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الاعمش ومنصور زاد البخاري وواصل ثلاثتهم عن أبي وائل شقيق بن سلمة عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل عن ابن مسعود به فالله أعلم ولفظهما عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم الحديث طريق غريب وقال ابن جرير حدثنا أحمد بن اسحق الاهوازي حدثنا عامر بن مدرك حدثنا السري يعني ابن اسمعيل حدثنا الشعبي عن مسروق قال قال عبد الله خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فاتبعته فجلس على نشز من الارض وقعدت أسفل منه ووجهي حيال ركبتيه واغتنمت خلوته وقلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أي الذنب أكبر قال ان تدعو لله ندا وهو خلقك قلت ثم مه قال ان تقتل ولدك كراهية أن يطعم معك قلت ثم مه قال ان تزاني حليلة جارك ثم قرأ والذين لا يدعون مع الله الآية وقال النسائي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال ابن يساف عن سلمة بن قيس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع الا انما هي أربع فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تشركوا بالله شيأ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وقال الامام أحمد حدثنا علي بن المديني رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعد الانصاري سمعت أبا طيبة الكلاعي سمعت المقداد بن الاسود رضي الله عنه يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه ما تقولون في الزنا قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام الى يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه لان يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره قال فما تقولون في السرقة قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام قال لان يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره وقال أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا

مودة واضافتها الى بينكم وبالنصب منونة ونصب بينكم على الظرفية (في الحياة الدنيا) اي ثم تنقطع ولا تنفع في الآخرة (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض) اي يكفر بعض هؤلاء المتخذين للاوثان العابدين لها بالبعض الآخر منهم فيتبرأ القادة من الاتباع والاتباع من القادة وقيل المعنى يتبرأ العابدون للاوثان من الاوثان والاوثان من العابدين لها يقولون لا نعرفكم (ويلعن بعضكم بعضا) اي كل فريق الآخر على التفسيرين المذكورين (ومأواكم النار) اي مأوى الكفار جميعا وقيل يدخل في ذلك الاوثان (وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها بنصرتهم لكم (فآمن له) اي لابراهيم (لوط) فصدقه في جميع ما جاء به وقيل انه لم يؤمن به الا حين رأى النار لا تحرقه وكان لوط ابن أخي ابراهيم هاران وقيل ابن أخته والاول أولى قال ابن عباس آمن أي صدق برسالته (وقال اني مهاجر الى ربي) قال النخعي وقتادة الذي قال اني مهاجر هو ابراهيم قيل هو أول من هاجر الى الله وترك بلده وسار الى حيث أمره الله بالمهاجرة اليه قيل هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة وقال قتادة هاجر من كوثى وهي قرية من سواد الكوفة الى حران ثم منها الى فلسطين وهي برية الشام ثم الى الشام ومعه ابن أخيه لوط وامرأته سارة وقد تزوجها ومن ثم قالوا لكل نبي هجرة ولابراهيم هجرتان والمعنى اني مهاجر عن دار قومي الى حيث أعبد ربي عن أنس قال أول من هاجر من المسلمين الى الحبشة بأهله عثمان بن عفان فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم صحبهما الله ان عثمان لاول من هاجر الى الله بأهله بعد لوط أخرجه أبو يعلى وابن مردويه عن أسماء بنت أبي بكر قالت هاجر عثمان الى الحبشة فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه أول من هاجر بعد ابراهيم ولوط أخرجه ابن منده وابن عساكر وعن زيد بن ثابت قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كان بين عثمان وبين رقية وبين لوط مهاجر أخرجه الطبراني والحاكم في الكنى وابن عساكر (انه هو العزيز الحكيم) أي الغالب الذي أفعاله جارية على مقتضى الحكمة وقيل ان القائل اني مهاجر الى ربي هو لوط والاول أولى لرجوع الضمير في قوله (ووهبنا له اسحق ويعقوب) الى ابراهيم وكذا الضمير في قوله (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا) فان هذه الضمائر كلها لابراهيم بلا خلاف يعني من الله عليه بالاولاد فوهب له بعد اسمعيل بأربع عشرة سنة اسحق ولد له ويعقوب ولد الولد اسحق وقول ابن عباس هما

سفيان بن عيينة عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له وقال ابن جريج أخبرني يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية ونزلت قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم الآية وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي (١٥٤) فاختة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق وينهاك أن تقتل ولدك وتغذو كلبك وينهاك أن تزني بحليلة جارك قال سفيان وهو قوله والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية وقوله تعالى ومن يفعل ذلك يلق أثاما روي عن عبد الله بن عمرو أنه قال أثاما واد في جهنم وقال عكرمة يلق أثاما أودية في جهنم يعذب فيها الزناة وكذا روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وقال قتادة يلق أثاما نكالا كنا نحدث أنه واد في جهنم وقد ذكر لنا أن لقمان كان يقول يا بني إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة وقد ورد في الحديث الذي رواه ابن جرير وغيره عن أبي أمامة الباهلي موقوفا ومرفوعا أن غيا وأثاما بئران في قعر جهنم أجارنا الله منهما بمنه وكرمه وقال السدي يلق أثاما جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا منه وهو قوله تعالى يضاعف له العذاب يوم القيامة أي يكرر عليه ويغلظ ويخلد فيه مهانا أي حقيرا ذليلا وقوله تعالى إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا أي جزاؤه على ما فعل من هذه الصفات القبيحة ما ذكر إلا من تاب أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك فإن الله يتوب عليه وقيل

وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ومن يقتل مؤمنا متعمدا الآية فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قال تعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به الآية وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب فقبل الله توبته وغير ذلك من الأحاديث وقوله تعالى فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما في معنى قوله يبدل الله

ولد إبراهيم لأنه يريد ولده وولد ولده لأن ولد الولد بمنزلة الولد وهذا لا يخفى على مثل ابن عباس وهو حبر الأمة وشهد عنه من رواية العوفي وفي الصحيحين إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم (وجعلنا في ذريته النبوة) فلم يبعث الله نبيا بعد إبراهيم إلا من صلبه ونسله (والكتاب) وحد الكتاب لأن الألف واللام فيه للجنس الشامل للكتب والمراد التوراة والإنجيل والزبور والفرقان (وآتيناه أجره في الدنيا) أنه أعطي فيها الأولاد في غير أوانه وأخبر الله باستمرار النبوة فيهم وذلك مما تقر به عينه ويزداد به سرورا وقيل أجره في الدنيا أن أهل الملل كلها تدعيه وتقول هو منهم ويثنون عليه الثناء الحسن ويذكره أهل الإسلام في آخر كل تشهد إلى آخر الدهر وقيل أعطاه في الدنيا عملا صالحا وعاقبة حسنة وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا وعن ابن عباس قال إن الله وصى أهل الأديان بدينه فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به وقال أجره الدنيا الذكر الحسن وقال أيضا الولد الصالح والثناء (وإنه في الآخرة لمن الصالحين) أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجرة وكثرة العطاء والفوز بالدرجات العلى من الرب سبحانه (و) اذكر (لوطا) وقال الكسائي المعنى وأنجينا لوطا أو أرسلنا لوطا (إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة) أي الخصلة المتناهية في القبح وهي اللواطة قرئ بالاستفهام وبغيره (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) الإنس والجن مستأنفة مقررة لكمال قبح هذه الخصلة وأنهم منفردون بذلك لم يسبقهم إلى عملها أحد من الناس على اختلاف أجناسهم قيل لم ينز ذكر على ذكر قبل قوم لوط من حيث إنه مما استنكرته الطباع وتحاشت عنه النفوس حتى قدموا عليها لخبث طينتهم وهذه الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة لأنها اشتركت مع الزنا في كونها فاحشة وقد قال تعالى ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وهذا وإن كان قياسا إلا أن الجامع مستفاد من الآية قاله الرازي ثم بين سبحانه هذه الفاحشة فقال (أئنكم لتأتون الرجال) أي تلوطون بهم (وتقطعون السبيل) قيل إنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن يمر بهم من المسافرين فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم فقطعوا السبيل بهذا السبب قال الفراء كانوا يعترضون الناس في الطرق بعملهم الخبيث وقيل كانوا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم ونهبهم والظاهر أنهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص

وقيل ان معنى قطع الطريق قطع النسل بالعدول عن النساء الى الرجال (وتأتون فى ناديكم المنكر) النادى والندى والمنتدى مجلس القوم ومتحدثهم ولا يقال للمجلس ناد الا مادام فيه أهله واختلف فى المنكر الذى كانوا يأتونه فيه فقيل كانوا يحذفون الناس بالحصباء ويستخفون بالغريب وعن أم هانئ بنت أبى طالب قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن هذه الآية قال كانوا يجلسون بالطريق فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم أخرجه أحمد والترمذى وحسنه وقال لا نعرفه الا من حديث حاتم بن أبى صغيرة عن سماك وأخرج ابن مردويه عن جابر ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الحذف وهو قول الله سبحانه وتأتون فى ناديكم المنكر وعن ابن عمر قال فى الآية هو الحذف وعن ابن عباس مثله وقيل كانوا يتضارطون فى مجالسهم قالته عائشة وقيل كانوا يأتون الرجال فى مجالسهم وبعضهم يرى بعضا وقيل كانوا يلعبون بالحمام وقيل كانوا يناقرون بين الديكة ويناطحون بين الكباش وقيل يبزق بعضهم على بعض ويلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات وكان من أخلاقهم مضغ العلك وتطريف الاصابع بالحناء وحل الازار والصفير ولا مانع من انهم كانوا يفعلون جميع هذه المنكرات قال الزجاج فى هذا اعلام انه لا ينبغى ان يتعاشر الناس على المنكر وان لا يجتمعوا على الهزء والمناهى ولما أنكر لوط عليهم ما كانوا يفعلون أجابوا بما حكى الله عنهم بقوله (فما كان جواب قومه الا أن قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى فما أجابوا بشئ الا بهذا القول رجوعا منهم الى التكذيب واللجاج والعناد وقد تقدم الكلام على هذه الآية وقد تقدم فى سورة النمل فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وتقدم فى الاعراف فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم وقد جمع بين هذه الثلاثة المواضع بأن لوطا كان ثابتا على الارشاد ومكررا النهى لهم والوعيد عليهم فقالوا له أولا ائتنا بعذاب الله كما فى هذه الآية فلما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوهم كما فى الاعراف والنمل وقيل انهم قالوا أولا أخرجوهم من قريتكم ثم قالوا ثانيا ائتنا بعذاب الله ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه و (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) بانزال عذابك عليهم وتحقيق قولى ان العذاب نازل بهم وافسادهم هو ما سبق من اتيان الرجال وعمل

سيآتهم حسنات قولان أحدهما أنهم بدلوا مكان عمل السيآت بعمل الحسنات قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال هم المؤمنون كانوا من قبل ايمانهم على السيآت فرغب الله بهم عن السيآت فحولهم الى الحسنات فابدلهم مكان السيآت الحسنات وروى عن مجاهد عن ابن عباس انه كان ينشد عند هذه الآية وبدلن بعد حره خريفا * وبعد طول النفس الوجيفا يعنى تغيرت تلك الاحوال الى غيرها وقال عطاء بن أبى رباح هذا فى الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا وقال سعيد بن جبير ابدلهم الله بعبادة الاوثان عبادة الرحمن وابدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات وقال الحسن البصرى أبدلهم بالعمل السئ العمل الصالح وأبدلهم بالشرك اخلاصا وأبدلهم بالفجور احصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبى العالية وقتادة وجماعة أخرى والقول الثانى ان تلك السيآت الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات وما ذاك الا انه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وان وجده مكتوبا عليه فانه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار النبوية عن السلف رضى الله عنهم (١) فعن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انى لاعرف آخر أهل النار خروجا من النار وآخر أهل الجنة دخولا الى الجنة يؤتى برجل فيقول نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له عملت يوم كذا كذا وكذا وعملت يوم كذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع ان ينكر من ذلك شيأ فيقال ان لك بكل سيئة حسنة فيقول يارب عملت أشياء لا أراها ههنا قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه انفرد باخراجه مسلم وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا هاشم بن يزيد حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنى أبى حدثنى ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان اعطنى صحيفتك فيعطيه اياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محا بها عشر سيآت من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين

(١) قوله فعن أبى ذر الخ فى بعض النسخ زيادة السند عبارته قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر الخ اهـ

تكبيرة وتحميدة وتسبيحة وثلاثون تحميدة وثلاث وثلاثين تسبيحة ثلثمائة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة بن عاصم والاسد ثنا ثابت يعني ابن يزيد أبو زيد حدثنا عاصم عن أبي عثمان عن سلمان قال يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فاذا سيآته فاذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فاذا حسناته ثم ينظر في أعلاها فاذا هي قد بدلت حسنات وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا سليمان بن موسى الزهري أبو داود حدثنا أبو العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال ليأتين الله عز وجل أناس يوم القيامة قد استكثروا من السيآت قيل من هم يا أبا هريرة قال الذين يبدل الله سيآتهم حسنات وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل قال يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين قلت لم سموا أصحاب اليمين قال لانهم قد عملوا بالسيآت والحسنات فاعطوا كتبهم بأيمانهم فقرؤا سيآتهم حرفا حرفا وقالوا يا ربنا هذه سيآتنا فأين حسناتنا فعند ذلك محا الله السيآت وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا هاؤم اقرؤا كتابيه فهم أكثر أهل الجنة وقال علي بن الحسين زين العابدين يبدل الله سيآتهم حسنات قال في الآخرة وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواهما ابن أبي حاتم وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد ابن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا أبو جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال جاء شيخ كبير قد هرم سقط حاجباه على عينيه فقال يا رسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة الا اقتطفها بيمينه لو قسمت خطيئته بين أهل الارض لاوبقتهم فهل له من توبة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أأسلمت فقال أما أنا فأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبي صلى الله عليه وسلم فان الله غافر لك غدراتك وفجراتك ومبدل سيآتك حسنات ما كنت كذلك فقال يا رسول الله وغدراتي وفجراتي فقال وغدراتك وفجراتك فولى الرجل يكبر ويهلل وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير عن أبي فروة أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرأيت رجلا عمل الذنوب

المنكر في بلادهم فاستجاب الله سبحانه دعاءه وبعث لعذابهم ملائكة وأمرهم بتبشير ابراهيم قبل عذابهم ولهذا قال (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أي بالبشارة بالولد وهو اسحق وبولد الولد وهو يعقوب (قالوا) لابراهيم (انا مهلكوا أهل هذه القرية) وهي سدوم التي كان فيها قوم لوط قيل كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع ابراهيم عليه السلام (ان أهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك أي أهلكناهم بهذا السبب (قال) لهم ابراهيم (ان فيها) أي في هذه القرية (لوطا) وهو غير ظالم فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها) من الاخيار والاشرار ونحن أعلم من غيرنا بمكان لوط (لننجينه وأهله) من العذاب قرئ لننجينه بالتخفيف والتشديد وهما قراءتان سبعيتان (الا امرأته كانت) في علم الله وحكمه الازلي (من الغابرين) أي الباقين في العذاب المعذبين فيه الذين لم يخلصوا منه بسبب أن الدال على الشر له نصيب كفاعله كما أن الدال على الخير كفاعله وهي كانت تدل القوم على اضياف لوط فصارت واحدة منهم بسبب الدلالة وقيل المعنى من الباقين في القرية التي سينزل بها العذاب فتعذب من جملتهم ولا تكون فيمن نجا ولفظ الغابر مشترك بين الماضي والباقي وقد تقدم تحقيقه (ولما أن جاءت رسلنا لوطا) بعد مفارقتهم ابراهيم وأن زائدة وهو مطرد (سيء بهم) أي جاءه ما ساءه وأخافه لانه ظنهم من البشر فخاف عليهم من قومه لكونهم في أحسن صورة من الصور البشرية (وضاق بهم ذرعا) أي عجز عن تدبيرهم وحزن وضاق صدره وضيق الذراع كناية عن العجز وفقد الطاقة كما يقال في الكناية عن الفقر ضاقت يده ومقابله رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا له وذلك لان طويل الذراع ينال ما لا يناله قصير الذراع وقد تقدم تفسيره مستوفى في هود ولما شاهدت الملائكة ما حل به من الحزن والضجر (قالوا لا تخف) علينا من قومك (ولا تحزن) فانهم لا يقدرون علينا (انا منجوك وأهلك) من العذاب الذي أمرنا الله بأن ننزله بهم قرئ منجوك بالتخفيف والتشديد قال المبرد التقدير وننجي أهلك (الا امرأتك كانت من الغابرين) في العذاب (انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) مستأنفة لبيان هلاكهم المفهوم من تخصيص التنجية به وبأهله والرجز العذاب أي عذابا من السماء وهو الرمي بالحجارة وقيل احراقهم بنار نازلة من السماء وقيل هو الخسف والحصب كما في غير هذا الموضع ومعنى كون الخسف من السماء أن الامر به نزل من السماء ومعنى

كلها ولم يترك حاجة ولا داجة له فهل له من توبة فقال أسلمت فقال نعم قال فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها قال وغدراتي وفجراتي قال نعم قال فما زال يكبر حتى توارى ورواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا ابراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماس عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال جاءتني امرأة فقالت هل لي من توبة اني زنيت وولدت وقتلته فقلت لا ولا نعمت

العين ولا كرامة فقامت وهي تدعو بالحسرة ثم صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية والذين لا يدعون مع الله الها آخر الى قوله الا من تاب الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي رجاله من لا يعرف والله أعلم وقد رواه ابن جرير من حديث ابراهيم بن المنذر الحزامي بسنده بنحوه وعنده فخرجت تدعو بالحسرة وتقول ياحسرتا أخلق هذا الحسن للنار وعنده انه لما رجع من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تطلبها في جميع دور المدينة فلم يجدها فلما كان من الليلة المقبلة جاءته فأخبرها بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا وتوبة مما عملت وأعتقت جارية كانت معها وابنتها وتابت الى الله عز وجل ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وانه من تاب اليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا أو صغيرا أو كبيرا فقال تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا أي فان الله يقبل توبته كما قال تعالى ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه الآية وقال تعالى ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده الآية وقال تعالى قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله الآية أي لمن تاب اليه (والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) هذه أيضا من صفات عباد الرحمن انهم لا يشهدون الزور قيل هو الشرك وعبادة الاصنام وقيل هو الكذب والفسق والكفر واللغو

العذاب بالرجز لانه يقلق المعذب من قولهم ارتجز اذا ارتجس أي اضطرب قرأ ابن عباس منزلون بالتشديد وقرئ بالتخفيف (بما كانوا يفسقون) أي بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بينة) أي أبقينا من القرية علامة ودلالة بينة وهي الآثار التي بها من الحجارة التي رجموا بها حتى أدركها أوائل هذه الامة وخراب الديار وآثار منازلهم الخربة وقال مجاهد هو الماء الاسود الباقي على وجه أرضهم ولا مانع من حمل الآية على جميع ما ذكر (لقوم) متعلق بتركنا أو بآية أو ببينة وهو أظهر (يعقلون) أي يتدبرون الآيات تدبر ذوي العقول وخص من يعقل لانه الذي يفهم ان تلك الآثار عبرة يعتبر بها من يراها (والى مدين) هو اسم رجل وقيل اسم المدينة فعلى الاول المعنى وأرسلنا الى مدين وأولاده وعلى الثاني أرسلنا الى أهل مدين (أخاهم شعيبا) قد تقدم ذكره وذكر نسبه وذكر قومه في سورة الاعراف وسورة هود واضيف شعيب هنا اليهم بخلافه في قصة نوح وابراهيم ولوط حيث ذكر قومهم مؤخرا عنهم معرفا بالاضافة الى ضمير كل واحد منهم لان الاصل في جميع المواضع ان يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان الله لا يبعث رسولا الى غير معين غير ان قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالاضافة لنبيهم فقيل قوم نوح وقوم لوط وقوم ابراهيم وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله فقال والى مدين أخاهم شعيبا والى عاد أخاهم هودا ذكره الرازي (فقال يا قوم اعبدوا الله) أي أفردوه بالعبادة وخصوه بها لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن غيره ذلك لان لوطا كان في زمن ابراهيم وابراهيم سبقه بذلك حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق وانما ذكر عنه ما اختص به من النهي عن الفاحشة وأما غيره فكان في زمن غيره مشتهر بالتوحيد فامروا به (وارجوا اليوم الآخر) أي توقعوه وافعلوا اليوم من الاعمال ما يدفع عذابه عنكم ذكر يونس النحوي معناه اخشوا الآخرة التي فيها الجزاء على الاعمال وخافوه (ولا تعثوا في الارض مفسدين) حال مؤكدة لعاملها والعثو والعثي أشد الفساد وقد تقدم تفسيره (فكذبوه) والتكذيب راجع الى الاخبارات المتضمنة كأنه قال الله واحد فاعبدوه والحشر كائن فارجوه والفساد محرم فلا تقربوه فلا يقال انه لا يكذب الآمر ولا الناهي وانما يكذب الخبر (فأخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة وكذا في الاعراف

والباطل. وقال محمد بن الحنفية هو اللغو والغناء. وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس وغيرهم هو أعياد المشركين. وقال عمرو بن قيس هي مجالس السوء والخنا. وقال مالك عن الزهري شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر. وقيل المراد بقوله تعالى لا يشهدون الزور أي شهادة الزور وهي الكذب متعمدا على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا قلنا بلى يا رسول الله قال الشرك بالله وعقوق (١٥٨) الوالدين وكان متكئا فجلس فقال ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أي لا يحضرونه ولهذا قال تعالى وإذا مروا باللغو مروا كراما أي لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء ولهذا قال مروا كراما. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو الحسن العجلي عن محمد بن مسلم أخبرني إبراهيم بن ميسرة أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلا إبراهيم بن ميسرة وإذا مروا باللغو مروا كراما. وقوله تعالى والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا وهذه أيضا من صفات المؤمنين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يقصر عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم. فقوله لم يخروا عليها صما وعميانا أي بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات الله لا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى. قال مجاهد قوله لم يخروا عليها صما وعميانا قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا. وقال الحسن البصري رضي الله عنه كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى. وقال قتادة قوله تعالى والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا يقول لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه فهم والله قوم عقلوا عن الله وانتفعوا بما سمعوا من كتابه. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أسيد بن عاصم حدثنا عبد الله بن حمران عن ابن عون قال

وقال في موضع: الرجفة والصيحة واحدة. قال ابن عباس: أي صيحة جبريل. وقيل هي سبب الرجفة، ورجفت الأرض من صيحته والقلوب رجفت بها، والإضافة إلى السبب لا تنافي الإضافة إلى سبب السبب (فأصبحوا في دارهم) أي في بلدهم وأرضهم أو ديارهم (جاثمين) أي باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) بالصرف وتركه على الحي والقبيلة. قال الكسائي: قال بعضهم هو راجع إلى أول السورة أي ولقد فتنا الذين من قبلهم وفتنا عادا وثمود. قال: وأحب إلي أن يكون معطوفا على فأخذتهم الرجفة أي وأخذت عادا وثمود. وقال الزجاج: التقدير وأهلكنا عادا وثمود. وقيل المعنى اذكر عادا وثمود إذ أرسلنا إليهم هودا وصالحا (وقد تبين) أي ظهر (لكم) يا معشر الكفار ويا أهل مكة (من مساكنهم) أي منازلهم الكائنة بالحجر والأحقاف وإلى آثارها بينات تمرون بها وتتفكرون فيها وكانوا يمرون عليها في أسفارهم فيبصرونها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التي يعملونها من الكفر ومعاصي الله (فصدهم) بهذا التزيين (عن السبيل) أي الطريق الواضح الموصل إلى الحق (وكانوا مستبصرين) بواسطة الرسل يعني لم يكن لهم في ذلك عذر لأن الرسل أوضحوا السبيل، قاله الفراء. وقيل مستبصرين في الضلالة، قاله ابن عباس. أي أهل بصائر يتمكنون بها من معرفة الحق بالاستدلال لكنهم لم يفعلوا. وقال الفراء: كانوا عقلاء ذوي بصائر في أمور الدنيا ولم تنفعهم بصائرهم. وقيل المعنى كانوا مستبصرين في كفرهم وضلالهم معجبين بها يحسبون أنهم على هدى ويرون أن أمرهم حق فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم، أو مستيقنين أن العذاب لاحق بهم بإخبار الرسل لهم ولكنهم لجوا حتى هلكوا (وقارون وفرعون وهامان) قال الكسائي: إن شئت كان معطوفا على عاد وكان فيه ما فيه، وإن شئت كان على فصدهم عن السبيل أي وصد قارون الخ. وقيل التقدير وأهلكنا هؤلاء بعد أن جاءتهم الرسل. وقدم قارون على فرعون لشرف نسبه لقرابته من موسى لكونه ابن عمه، وهامان وزير فرعون (ولقد جاءهم موسى بالبينات) أي بالحجج الظاهرات والدلالات الواضحات الباهرات (فاستكبروا في الأرض) عن عبادة الله (وما كانوا سابقين) أي فائتين عذابنا فارين منه. يقال سبق طالبه إذا فاته. وقيل سابقين في الكفر بل قد سبقهم إليه قرون كثيرة (فكلا) من المذكورين (أخذنا بذنبه) أي عاقبناه بسبب كفره وتكذيبه. قال الكسائي: أي فأخذنا كلا بذنبه

وفيه رد على من يجوز العقوبة بغير ذنب (فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) أي ريحا تأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار فترجمهم بها وهم قوم لوط قاله ابن عباس (ومنهم من أخذته الصيحة) وهو ثمود وأهل مدين قاله ابن عباس (ومنهم من خسفنا به الارض) وهو قارون وأصحابه قاله ابن عباس (ومنهم من أغرقنا) وهم قوم نوح وفرعون قاله ابن عباس (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فيعذبهم بغير ذنب لانه قد أرسل اليهم رسله وأنزل اليهم كتبه (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) باستمرارهم على الكفر وتكذيبهم للرسل وعملهم بمعاصي الله وارتكابهم الذنوب (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) يوالونهم ويتكلون عليهم في حاجاتهم من دون الله سواء كانوا من الجماد أو الحيوان ومن الاحياء أو من الاموات (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لنفسها تأوي اليه وان بيتها في غاية الضعف والوهن لا يغني عنها شيأ لا في حر ولا قر ولا مطر كذلك ما اتخذوه وليا من دون الله فانه لا ينفعهم بوجه من وجوه النفع ولا يغني عنهم شيأ شبه حال من اتخذ الاصنام والاوثان والاحبار والرهبان أولياء وعبدها واعتمد عليها راجيا لنفعها وشفاعتها بحال العنكبوت التي اتخذت بيتا لا يغني عنها في مطر ولا أذى قال الفراء هو مثل ضربه الله لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره كما ان بيت العنكبوت لا يقيها حرا ولا بردا قال ولا يحسن الوقف على العنكبوت لانه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شئ شبهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به وقد جوز الوقف على العنكبوت الاخفش وغلطه ابن الانباري قال لان اتخذت صلة للعنكبوت كأنه قال كمثل العنكبوت التي اتخذت بيتا فلا يحسن الوقف على الصلة دون الموصول والعنكبوت تقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ونونه أصلية والواو والتاء مزيدتان بدليل قولهم في الجمع عناكب وفي التصغير عنيكب وهذا مطرد في أسماء الاجناس ويجمع على عكاب وعكبة وأعكاب وعناكب وعنكبوتات أيضا وهي الدويبة الصغيرة التي تنسج نسجا رقيقا وقد يقال لها عنكبات والغالب في استعماله التأنيث (وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت) لا بيت أضعف منه مما يتخذه الهوام بيتا ولا يدانيه في الوهن والوهن شئ من ذلك فان الريح اذا هبت عليه أو لمسه لامس فلا يبقى له عين ولا أثر فكما ان أوهن البيوت بيته كذلك أضعف الاديان دين عبدة الاوثان ومن يعبد غير الله أو يتخذه وليا وأربابا من دونه كمقتدي الاحبار والرهبان ومقلديهم (لو كانوا

سألت الشعبي قلت الرجل يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم قال فتلا هذه الآية يعني انه لا يسجد معهم لانه لم يتدبر آية السجدة ولا ينبغي للمؤمن أن يكون امعة الا على بصيرة في أمره ويقين واضح بين وقوله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم في الدنيا والآخرة قال عكرمة لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال ان يرى الله

العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شيء أقر لعين المسلم ان يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل قال ابن جريج في الآية في قوله هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين قال يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعني يسألون الله تعالى لأزواجهم وذرياتهم ان يهديهم للاسلام وقال الامام أحمد حدثنا يعمر بن بشر حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو حدثني عبد الرحمن ابن جبير بن نفير عن أبيه قال جلسنا الى المقداد بن الاسود يوما فمر به رجل فقال طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله صلى الله عليه وسلم لوددنا انا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لانه ما قال الا خيرا ثم أقبل اليه فقال ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه والله لقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه أولا تحمدون الله اذ أخرجكم الله من بطون أمهاتكم لا تعرفون الا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم لقد بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم على أشد حال بعث عليها نبيا من الانبياء في فترة جاهلية ما يرون ان دينا أفضل من عبادة الاوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده ان كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للايمان يعلم انه ان هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم ان حبيبه في النار وانها التي قال الله تعالى والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين وهذا اسناد صحيح ولم يخرجوه وقوله تعالى واجعلنا للمتقين اماما قال ابن عباس والحسن والسدي

وقتادة والربيع بن أنس أئمة يقتدى بنا في الخير، وقال غيرهم هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) (١٦٠) لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله أولئك أي المتصفون بهذه يجزون يوم القيامة الغرفة وهي الجنة قال أبو جعفر الباقر وسعيد بن جبير والضحاك والسدي سميت بذلك لارتفاعها بما صبروا أي على القيام بذلك ويلقون فيها أي في الجنة تحية وسلاما أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ويلقون التوقير والاحترام فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وقوله تعالى خالدين فيها أي مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض الآية وقوله تعالى حسنت مستقرا ومقاما أي حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا ثم قال تعالى قل ما يعبأ بكم ربي أي لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا قال مجاهد وعمرو بن شعيب ما يعبأ بكم ربي يقول ما يفعل بكم ربي وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله قل ما يعبأ بكم ربي الآية يقول لولا إيمانكم وأخبر الله تعالى الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين وقوله تعالى فقد كذبتم أيها الكافرون فسوف يكون لزاما أي فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعني مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ويدخل في ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصري فسوف يكون لزاما أي يوم القيامة ولا منافاة بينهما (آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة)

يعلمون) أن اتخاذهم الأولياء من دون الله كاتخاذ العنكبوت بيتا وأن أمر دينهم بلغ هذه الغاية من الوهن ما عبدوها أو لو كانوا يعلمون شيئا من العلم لعلموا هذا قال ابن عباس في الآية ذلك مثل ضربه الله لمن عبد غيره أن مثله كمثل بيت العنكبوت وأخرج أبو داود في مراسيله عن يزيد بن مرثد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العنكبوت شيطان مسخه الله فمن وجدها فليقتلها وعن يزيد بن ميسرة قال العنكبوت شيطان وأخرج الخطيب عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهن وروى القرطبي في تفسيره عن علي أنه قال طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت فإن تركه في البيوت يورث الفقر وعن عطاء الخراساني قال نسجت العنكبوت مرتين مرة على داود عليه السلام ومرة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء) ما استفهامية أو نافية أو موصولة ومن للتبيين أو مزيدة للتأكيد وقيل التقدير قل للكافرين إن الله يعلم أي شيء تدعون من دونه من إنس وجن وملك وحجر وراهب وغير ذلك وجزم أبو علي الفارسي بأنها استفهامية وعلى تقدير النفي كأنه قيل يعلم أنكم لا تدعون من دونه من شيء يعني ما تدعونه ليس بشيء وهذا تأكيد للمثل وزيادة عليه وعلى تقدير الموصولة إن الله يعلم الذين يدعونهم من دونه وهذا أظهر الوجوه كما قال الكرخي ويجوز أن تكون ما مصدرية ومن شيء عبارة عن المصدر وقرئ يدعون بالتحتية لذكر الأمم قبل هذه الآية وقرئ بالفوقية على الخطاب (وهو العزيز) الغالب المصدر أفعاله على غاية الإحكام والإتقان وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جمادا وحيوانا لا علم له ولا قدرة وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء (الحكيم) الذي لا يفعل كل شيء إلا بحكمة وتدبير (وتلك الأمثال) أي هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن (نضربها للناس) تنبيها لهم وتقريبا لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) أي ما يفهم صحتها وحسنها وفائدتها أو يتعقل الأمر الذي ضربناها لأجله (إلا العالمون) بالله وبأسمائه وصفاته الراسخون في العلم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم وما يشاهدونه لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه بين حال المشرك وحال الموحد ودلت الآية على فضل العلم على العقل ثم إنه تعالى لما أمر الخلق

بالإيمان

* (تفسير سورة الشعراء وهي مكية) * ووقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتها سورة الجامعة (بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في اول تفسير سورة البقرة وقوله تعالى (١٦١) تلك آيات الكتاب المبين أي هذه آيات القرآن المبين أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد وقوله تعالى لعلك باخع أي مهلك نفسك أي مما تحرص وتحزن عليهم الا يكونوا مؤمنين وهذه تسلية من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في عدم ايمان من لم يؤمن به من الكفار كما قال تعالى فلا تذهب نفسك عليهم حسرات كقوله فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية قال مجاهد وعكرمة وقتادة وعطية والضحاك والحسن وغيرهم لعلك باخع نفسك أي قاتل نفسك قال الشاعر

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه
لشئ نحته عن يديه المقادر

ثم قال تعالى ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين أي لو نشاء لانزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ولكن لا نفعل ذلك لانا لا نريد من أحد الا الايمان الاختياري وقال تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين وقال تعالى ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة الآية فنفذ قدره ومضت حكمته

وقامت حجته البالغة على خلقه بارسال الرسل اليهم وانزال الكتب عليهم ثم قال تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن وقال تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه الآية ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذي اجترؤا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الارض وأنبت فيها من كل زوج

بالايمان وأظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بما أمرهم ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل وحصل يأس الناس عنهم سلى المؤمنين بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق) أي خلقهما متلبسا بالعدل والقسط مراعيا في خلقهما مصالح عباده غير قاصد به باطلا وقيل المراد بالحق كلامه وقدرته والاول أولى لان المقصود بالذات من خلقهما أفاضة الخير والدلالة على ذاته وصفاته كما أشار له بقوله (ان في ذلك لآية للمؤمنين) أي لدلالة عظيمة وعلامة ظاهرة على قدرته وتفرده بالالهية وخص المؤمنين لانهم الذين ينتفعون بذلك بخلاف الكافرين أي فان لم يؤمنوا فلا يضر ذلك في يقينكم وايمانكم (أتل ما أوحي اليك من الكتاب) أي القرآن وفيه الامر بالتلاوة للقرآن والمحافظة على قراءته تقربا اليه مع التدبر لآياته والتفكر في معانيه من الاوامر والنواهي (وأقم الصلاة) أي دم على اقامتها وجملة (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) تعليل لما قبلها كأنه قيل صل بهم ان الصلاة الخ والفحشاء ما قبح من العمل كالزنا مثلا والمنكر ما لا يعرف في الشريعة أي تمنعه عن معاصي الله وتبعده منها ومعنى نهيها عن ذلك ان فعلها يكون سببا للانتهاء عنهما والمراد هنا الصلوات المفروضة المكتوبة المؤداة بالجماعة قال ابن عباس وابن مسعود في الصلاة منتهى ومزدجر عن المعاصي أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين قال سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله هذا فقال من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له أخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقي وأخرج الخطيب عن ابن عمر مرفوعا نحوه وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن مسعود مرفوعا نحوه قال السيوطي وسنده ضعيف قال ابن كثير في تفسيره والاصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والاعمش وغيرهم وقيل من داوم على الصلاة جره ذلك الى ترك المعاصي والسيآت كما روي عن أنس قال كان فتى من الانصار يصلي الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لم يدع من الفواحش شيأ الا ركبه فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال ان صلاته ستنهاه يوما فلم

كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثورى عن رجل عن الشعبى الناس من نبات الارض فمن دخل الجنة فهو كريم ومن دخل النار فهو لئيم ان فى ذلك لآية أى دلالة على قدرة الخالق للاشياء الذى بسط الارض ورفع بناء السماء ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه وقوله وان ربك لهو العزيز أى الذى عز على كل شئ وقهره وغلبه الرحيم أى بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس وابن اسحق العزيز فى نقمته وانتصاره (١٦٢) ممن خالف أمره وعبد غيره وقال سعيد بن جبير الرحيم عن تاب اليه وأناب لديه

(واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون قال رب انى أخاف ان يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فأخاف ان يقتلون قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى اسرائيل قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين قال فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الايمن وكلمه وناجاه وارسله واصطفاه وأمره بالذهاب الى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الا يتقون قال رب انى أخاف ان يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هارون ولهم على ذنب فأخاف ان يقتلون هذه أعذار سأل من الله ازاحتها عنه كما قال فى سورة طه قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى الى قوله قد أوتيت سؤلك يا موسى وقوله تعالى وقيل ولهم على ذنب فأخاف ان يقتلون أى بسبب قتل القبطى الذى كان سبب خروجه من بلاد مصر قال كلا أى قال الله له لا تخف من شئ من ذلك كقوله سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا أى برهانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون كقوله اننى معكما أسمع وأرى أى اننى معكما بحفظى وكلاءتى ونصرى وتأييدى فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين كقوله فى الآية الاخرى انا رسولا ربك أى كل منا أرسل اليك أن أرسل معنا بنى اسرائيل أى أطلقهم من

يلبث ان تاب وحسنت حاله وقيل معنى الآية انه ما دام فى صلاته فانها تنهاه عن الفحشاء والمنكر ومنه قوله ان فى الصلاة لشغلا وقيل تنهى عنهما مطلقا فى سائر الاوقات لان الصلاة تشغل جميع بدن المصلى فاذا دخل فى المحراب خشع وأخبت لربه وتذكر انه واقف بين يدى مولاه وانه تعالى مطلع عليه ويراه فصلحت لذلك نفسه وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيئتها لو بعد خروجه منها ولم يكد يفتر عن ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها الى أفضل حاله فهذا معنى هذه الآية لان صلاة المؤمن هكذا ينبغى ان تكون لا سيما وان أشعر نفسه ان هذا ربما يكون آخر عمله فهو أبلغ فى المقصود وأتم فى المراد فان الموت ليس له سن محدود ولا زمن مخصوص ولا مرض معلوم وهذا مما لا خلاف فيه روى عن بعض السلف انه كان اذا قام الى الصلاة ارتعد واصفر لونه فكلم فى ذلك فقال انى واقف بين يدى الله وحق لى هذا مع ملوك الدنيا فكيف مع ملك الملوك فهذه صلاة تنهى ولا بد عن الفحشاء والمنكر ومن صلاته قاصرة على الاجزاء أى اسقاط الطلب عن المكلف ولا خشوع فيها ولا تذكر ولا فضائل كصلاتنا فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان فان كان مرتكبا للمعاصى قد بعد من الله بسببها فتلك الصلاة تتركه يتمادى على بعده وقيل لابن مسعود ان فلانا كثير الصلاة فقال انها لا تنفع الا من أطاعها ذكره القرطبى وقيل أراد بالصلاة القرآن وفيه ضعف لتقدم ذكر القرآن والاول أولى وعلى كل حال فان المراعى للصلاة لا بد وان يكون أبعد عن الفحشاء والمنكر ممن لا يراعيها (ولذكر الله) بسائر أنواعه من تحميد وتهليل وتسبيح وغير ذلك (أكبر) من كل شئ أى أفضل من العبادات كلها بغير ذكر وقد نقل القرطبى هذا التقييد عن ابن زيد وقتادة قال ابن عطية وعندى ان المعنى ولذكر الله أكبر على الاطلاق أى هو الذى ينهى عن الفحشاء والمنكر فالجزء الذى منه فى الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل ما لم يكن منه فى الصلاة لان الانتهاء لا يكون الا من ذكر الله مراقبا له وقيل ذكر الله أكبر من الصلاة فى النهى عن الفحشاء والمنكر مع المداومة عليه قال الفراء وابن قتيبة المراد بالذكر هنا الصلاة والصلاة أكبر من سائر الطاعات وعبر عنها بالذكر كما فى قوله فاسعوا الى ذكر الله للدلالة على ان ما فيها من الذكر هو العمدة فى تفضيلها على سائر الطاعات وكونها ناهية عن السيآت وقيل عبر عنها بالذكر ليستقل بالتعليل كأنه قال والصلاة أكبر لانها ذكر الله

اسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك فانهم وحزبه المخلصون وهم معلق في العذاب،
أعرض فرعون عما هنالك بالكلية ونظر الى ... والغمص فقال ألم نربك فينا وليدا الآية أى أما
ربى فيننا وأنعمنا عليه مدة من السنين ثم بعد هذا قابلت ذلك الاحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك
قال وأنت من الكافرين أى الجاحدين قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير قال فعلتها اذا أى في تلك
الحال وأنا من الضالين أى قبل ان يوحى الى وينعم على بالرسالة والنبوة قال ابن عباس رضى الله عنهما
ومجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم
وأنا من الضالين أى الجاهلين قال
ابن جريج وهو كذلك في قراءة عبد
الله بن مسعود رضى الله عنه
ففررت منكم لما خفتكم الآية
أى انفصل الحال الاول وجاء أمر
آخر فقد أرسلني الله اليك فان
أطعته سلمت وان خالفته عطبت
ثم قال موسى وتلك نعمة تمنها على
أن عبدت بنى اسرائيل أى وما
أحسنت الى وربيتني يقابل ما أسأت
الى بنى اسرائيل فجعلتهم عبيدا
وخدما تصرفهم في أعمالك
ومشاق رعيتك أفيفى احسانك
الى رجل واحد منهم بما أسأت الى
مجموعهم أى ليس ما ذكرته شيأ
بالنسبة الى ما فعلت بهم (قال
فرعون وما رب العالمين قال رب
السموات والارض وما بينهما ان
كنتم موقنين قال لمن حوله ألا
تستمعون قال ربكم ورب آبائكم
الاولين قال ان رسولكم الذى
أرسل اليكم لمجنون قال رب المشرق
والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون)
يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون
وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله وما
رب العالمين وذلك انه كان يقول لقومه ما علمت لكم من اله غيرى فاستخف قومه فأطاعوه وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا
ويعتقدون انه لا رب لهم سوى فرعون فلما قال له موسى انى رسول رب العالمين قال له فرعون ومن هذا الذى تزعم انه رب العالمين
غيرى هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدى هذه الآية كقوله تعالى فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شئ
خلقه ثم هدى ومن زعم من أهل المنطق ان هذا سؤال عن الماهية فقد غلط فانه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية بل
كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر وان كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين قال

وقيل المعنى ولذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم منه أكبر من ذكركم له في عباداتكم
وصلواتكم واختار هذا ابن جرير ويؤيده حديث من ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى
ومن ذكرنى في ملا ذكرته في ملا خير منهم وقال ابن عباس يقول ولذكر الله لعباده
اذا ذكروه أكبر من ذكرهم اياه وعن عبد الله بن ربيعة قال سألنى ابن عباس عن قول الله
ولذكر الله أكبر فقلت ذكر الله بالتسبيح والتهليل والتكبير قال ولذكر الله اياكم أكبر من
ذكركم اياه ثم قال اذكرونى أذكركم وعن ابن مسعود قال ذكر الله العبد أكبر من ذكر
العبد لله وعن ابن عمر نحوه وعن ابن عباس أيضا قال لها وجهان ذكر الله أكبر مما سواه
وفي لفظ ذكر الله عندما حرمه وذكر الله اياكم أعظم من ذكركم اياه وعن معاذ بن جبل
قال ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا ولا الجهاد في سبيل الله قال
لا الا ان يضرب بسيفه حتى ينقطع لان الله يقول في كتابه العزيز ولذكر الله أكبر وعن
عنترة قال قلت لابن عباس أى العمل أفضل قال ذكر الله وعن أبى الدرداء قال قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم
وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا
أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا بلى يا رسول الله قال ذكر الله
أخرجه الترمذى وله عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قالوا
يا رسول الله ومن الغازى في سبيل الله فقال لو ضرب بسيفه الكفار والمشركين حتى
ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله كثيرا أفضل منه درجة وأخرج مسلم عن
أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون
يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وأخرج البخارى عن أبى هريرة وأبى
سعيد انهما شهدا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال لا يقعد قوم يذكرون الله
الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده
وروى ان اعرابيا قال يا رسول الله أى الاعمال أفضل قال تفارق الدنيا ولسانك رطب
بذكر الله وفي الباب أحاديث كثيرة لا نطول بذكرها قال ابن عطاء أكبر أى لن تبقى معه
معصية وقيل ذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته وقيل لان ذكره بلا علة

رب السموات والارض وما بينهما أي خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه والهه لاشريك له هو الذي خلق الاشياء كلها العالم العلوي ومافيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات والعالم السفلي ومافيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ومايحتوي عليه الجو الجميع عبيد له خاضعون ذليلون ان كنتم موقنين أي ان كانت لكم قلوب موقنة وأبصار نافذة فعند ذلك التفت فرعون الى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلا لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ألا تستمعون أي ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه ان لكم الها غيري فقال لهم موسى ربكم ورب آبائكم الاولين أي خالقكم وخالق آبائكم الاولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه قال أي فرعون لقومه ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون أي ليس له عقل في دعواه ان ثم ربا غيري قال أي موسى لاولئك الذين أوغر اليهم فرعون ما أوغر من الشبهة فأجاب موسى بقوله رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون أي هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها فان كان هذا الذي يزعم انه ربكم والهكم صادقا فليعكس الامر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا كما قال تعالى عن الذي حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب الآية ولهذا لما غلب فرعون وانقطعت حجته عدل الى استعمال جاهه وقوته وسلطانه واعتقد ان ذلك نافع له ونافذ في موسى عليه السلام فقال ما أخبر الله تعالى عنه (قال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشيء مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين قال للملأ حوله ان هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل الى ان يقهر موسى بيده وسلطانه فظن انه ليس وراء هذا المقام مقال فقال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين فعند ذلك قال موسى أولو جئتك

القرآن

وذكركم مشوب بالعلل والاماني ولان ذكره لايفنى وذكركم لايبقى أو ذكره أكبر من ان تحويه افهامكم وعقولكم والذكر النافع هو الذي يكون مع العلم واقبال القلب وتفرغه مما سوى الله تعالى واما ما لايتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى (والله يعلم ما تصنعون) من الذكر ومن سائر الطاعات لايخفى عليه من ذلك خافية فهو مجازيكم بالخير خيرا وبالشر شرا ثم شرع سبحانه في بيان ارشاد أهل الكتاب بعد بيان ارشاد أهل الشرك فقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن) أي بالخصلة التي هي أحسن للثواب وذلك على سبيل الدعاء لهم الى الله عز وجل والتنبيه لهم على حججه وبراهينه رجاء اجابتهم الى الاسلام لا على طريق الاغلاظ والمخاشنة وعن ابن عباس قال بالتي هي أحسن بلا اله الا الله (الا الذين ظلموا منهم) بان افرطوا في المجادلة ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالاغلاظ عليهم والتخشين في مجادلتهم هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بان المراد باهل الكتاب اليهود والنصارى وقيل معنى الآية لاتجادلوا من آمن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسائر من آمن منهم الا بالتي هي أحسن يعني بالموافقة فيما حدثوكم به من اخبار أهل الكتاب ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا القول هم الباقون على كفرهم قال مجاهد هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها وقيل هي منسوخة بآية القتال وبذلك قال قتادة ومقاتل قال النحاس وغيره من قال هي منسوخة احتج بان الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض ولا طلب جزية ولا غير ذلك وقول مجاهد حسن لان أحكام الله عز وجل لا يقال فيها انها منسوخة الا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول واختار هذا القول ابن العربي قال سعيد بن جبير ومجاهد المراد بالذين ظلموا منهم الذين نصبوا القتال للمسلمين وآذوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجدالهم بالسيف حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وقيل الا الذين اثبتوا الولد والشريك فقد دخل فيه أهل الشرك وعبدة الاوثان والآية تدل على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين وعلى جواز تعلم علم الكلام الذي به تتحقق المجادلة الحقة بالتي هي أحسن قال السمين الاستثناء متصل وفيه معنيان أحدهما الا الظلمة فلا تجادلوهم البتة بل جادلوهم بالسيف والثاني جادلوهم بغير التي هي أحسن أي اغلظوا لهم كما أغلظوا عليكم وقرأ ابن عباس ألا حرف تنبيه أي جادلوهم (وقولوا) هذا تبيين لمجادلتهم بالتي هي أحسن (آمنا بالذي أنزل الينا) من

القرآن (وأنزل إليكم) من التوراة والانجيل أي بأنهما منزلان من عند الله وانهما شريعة ثابتة الى قيام الشريعة الاسلامية والبعثة المحمدية ولا يدخل في ذلك ما حرفوه وبدلوه أخرج البخاري والنسائي وابن جرير والبيهقي وغيرهم عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لاهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا واليكم وأخرج البيهقي وأبو نصر السجزي في الابانة عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا اما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق والله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له الا أن يتبعني وعن ابن مسعود قال لا تسألوا أهل الكتاب وذكر نحو حديث جابر ثم قال فان كنتم سائليهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه وهذه الآية من جنس المجادلة بالاحسن (والهنا والهكم واحد) لا شريك له ولا ند ولا ضد (ونحن له مسلمون) أي ونحن معاشر أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مطيعون له خاصة لم نقل عزير ابن الله ولا المسيح ابن الله ولا اتخذنا أحبارنا ورهباننا أربابا من دون الله ويحتمل ان يراد ونحن جميعا منقادون له ولا يقدح في هذا الوجه كون انقياد المسلمين أتم من انقياد أهل الكتاب وطاعتهم أبلغ من طاعتهم (وكذلك أنزلنا) هذا خطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والاشارة الى مصدر الفعل كما بيناه في مواضع كثيرة أي ومثل ذلك الانزال البديع أنزلنا (اليك الكتاب) وهو القرآن وقيل المعنى كما أنزلنا الكتاب عليهم أنزلنا عليك القرآن (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعني مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره وخصهم بايتائهم الكتاب لكونهم العاملين به وكأن غيرهم لم يؤتوه لعدم عملهم بما فيه وجحدهم لصفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المذكورة فيه وكان اسلامهم بالمدينة والسورة مكية فهذا من قبيل الاخبار بالغيب أخبره تعالى بحالهم قبل وقوعه (ومن هؤلاء) اشارة الى أهل مكة والمراد ان منهم وهو من قد أسلم (من يؤمن به) أي بالقرآن وقيل اشارة الى جميع العرب (وما يجحد بآياتنا) أي القرآن والجحود انما يكون بعد المعرفة وعبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى واضيفت الى نون العظمة لمزيد تفخيمها وغاية

بشيء مبين أي ببرهان قاطع واضح قال فأت به ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ونزع يده أي من جيبه فاذا هي بيضاء للناظرين أي تتلألأ كقطعة من القمر فبادر فرعون بشقاوته الى التكذيب والعناد فقال للملا حوله ان هذا لساحر عليم أي فاضل بارع في السحر فروج عليهم فرعون ان هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به فقال يريد ان يخرجكم من أرضكم بسحره الآية أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذوا البلاد منكم فأشيروا علي فيه ماذا أصنع به قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم أي أخره حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم يقابلونه ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد فأجابهم الى ذلك وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ائن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) ذكر تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط في سورة الاعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة وذلك ان القبط أرادوا ان يطفؤا نور الله بأفواههم فأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون وهذا شأن الكفر والايمان ما تواجها وتقابلا الا غلبه الايمان بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون وقل جاء الحق وزهق الباطل الآية ولهذا جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر وكانوا اذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك وكان السحرة جمعا كثيرا وجما غفيرا قيل كانوا اثني عشر ألفا وقيل خمسة عشر ألفا وقيل سبعة عشر ألفا وقيل تسعة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين

أيضا وقيل غاية اتباعنا وقيل عند ذلك رأينا أعلم بعدتهم قال ابن إسحاق وكان أمرهم راجعا إلى أربعة منهم وهم رؤساؤهم وهم
زور وسابور وحطحط ومصفى واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم
الغالبين ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى بل الرعية على دين ملكهم فلما جاء السحرة إلى مجلس
فرعون وقد ضربوا له وطاقا وجمع خدمه وحشمه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون
منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا أي هذا الذي جمعتنا من أجله فقالوا أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين
قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين أي
وأخص مما تطلبون أجعلكم من
المقربين عندي وجلسائي فعادوا
إلى مقام المناظرة قالوا يا موسى
إما أن تلقي وإما أن نكون أول من
ألقى قال بل ألقوا وقد اختصر هذا
ههنا فقال لهم موسى ألقوا ما أنتم
ملقون إلى قوله إنا لنحن الغالبون
وهذا كما يقوله الجهلة من العوام
إذا فعلوا شيئا هذا بثواب فلان
وقد ذكر الله تعالى في سورة الأعراف
أنهم سحروا أعين الناس واسترهبوهم
وجاؤوا بسحر عظيم وقال في سورة
طه فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه
من سحرهم أنها تسعى إلى قوله ولا
يفلح الساحر حيث أتى وقال ههنا
فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف
ما يأفكون أي تختطفه وتجمعه
من كل بقعة وتبتلعه فلم تدع منه شيئا
قال الله تعالى فوقع الحق وبطل
ما كانوا يعملون إلى قوله رب موسى
وهرون فكان هذا أمرا عظيما جدا
وبرهانا قاطعا للعذر وحجة دامغة
وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب
منهم أن يغلبوا غلبوا وخضعوا
وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة
وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهرون بالحق وبالمعجزة الباهرة فغلب فرعون غلبا لم يشاهد العالم مثله محوطا
وكان وقحا جريئا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يتهددهم ويتوعدهم
ويقول إنه لكبيركم الذي علمكم السحر وقال إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة الآية (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم
الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون
إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما وذلك أنه

السبع على من جحدها (إلا الكافرون) المصممون على كفرهم إلا وعارفون به من
المشركين ومن أهل الكتاب ككعب بن الأشرف وأضرابه فإن ذلك يصدهم عن التأمل
عما يؤديهم إلى معرفة حقيتها (وما كنت) يا محمد (تتلو من قبله من كتاب) أي من قبل
القرآن كتابا ولا تقدر على ذلك لأنك أمي لا تقرأ ولا تكتب ومن زائدة (ولا تخطه بيمينك)
أي ولا تكتبه لأنك لا تقدر على الكتابة وخص اليمين لأن الكتابة غالبا تكون باليمين أي
ولا تكتب كما قال مجاهد كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدا صلى الله عليه وآله
وسلم لا يخط ولا يقرأ فنزلت هذه الآية قال النحاس وذلك دليل على نبوته لأنه لا يكتب
ولا يخالط أهل الكتاب ولم يكن بمكة أهل الكتاب فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم قال ابن
عباس لم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ولا يكتب وكان أميا قال الحافظ ابن
حجر في تخريج أحاديث الرافعي قال البغوي في التهذيب هل كان النبي صلى الله عليه وآله
وسلم يحسن الخط ولا يكتب ويحسن الشعر ولا يقوله أولا والأصح أنه كان لا يحسنهما
ولكن كان يميز بين رديء الشعر وجيده ذكره الشهاب وما أحسن ما قال الآزاد رحمه الله

ما كان يعرف ألواحا ولا قلما ٭ وكان يعرف ما في اللوح والقلم

وهذا شروع في الدليل على كون القرآن معجزا (إذا لارتاب المبطلون) أي لو كنت ممن
يقدر على التلاوة والخط لقالوا لعله وجد ما يتلوه علينا من كتب الله السابقة من الكتب
المدونة في أخبار الأمم فلما كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب لم يكن هناك موضع للريبة ولا
محل للشك أبدا بل إنكار من أنكر وكفر من كفر مجرد عناد وجحود بلا شبهة وسماهم
المبطلين لأن ارتيابهم على تقدير أنه صلى الله عليه وآله وسلم يقرأ ويكتب ظلم منهم لظهور
نزاهته ووضوح معجزاته (بل هو) أي القرآن الذي جئت به (آيات بينات) وقال قتادة
ومقاتل إن الضمير يرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أي بل محمد آيات أي ذو آيات
وقرأ ابن مسعود بل هي آيات بينات قال الفراء معنى هذه القراءة بل آيات القرآن آيات
بينات واختار ابن جرير ما قاله قتادة ومقاتل وقد استدل لما قالاه بقراءة ابن السميفع
بل هذا آيات بينات ولا دليل في هذه على ذلك لأن الإشارة يجوز أن تكون إلى القرآن كما
جاز أن تكون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بل رجوعها إلى القرآن أظهر لعدم
احتياج ذلك إلى التأويل وهو إضراب عن ارتيابهم أي ليس القرآن مما يرتاب فيه لكونه

قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من ان هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر الا ان يكون الله قد أيده به وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ولهذا لما قال لهم فرعون آمنتم له قبل ان آذن لكم أي كان ينبغي ان تستأذنوني فيما فعلتم ولا تفتاتوا علي في ذلك فان أذنت لكم فعلتم وان منعتكم امتنعتم فاني انا الحاكم المطاع انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها فانهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر هذا لا يقوله عاقل ثم توعدهم فرعون بقطع الايدي والارجل (١٦٧) والصلب فقالوا لا ضير أي لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به انا الى ربنا منقلبون أي المرجع الى الله عز وجل وهو لا يضيع أجر من أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء ولهذا قالوا انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا أي ما قارفنا من الذنوب وما أكرهتنا عليه من السحر ان كنا أول المؤمنين أي بسبب انا بادرنا قومنا من القبط الى الايمان فقتلهم كلهم (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي انكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني اسرائيل) لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون لم يبق لهم الا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام ان يخرج ببني اسرائيل ليلا من مصر وان يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل خرج بهم بعد ما استعار راس قوم فرعون حليا كثيرا وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر وذكر مجاهد رحمه الله انه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم وان موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بني اسرائيل عليه فاحتمل تابوته معهم ويقال انه هو الذي حمله بنفسه عليهما السلام وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك اذا خرج بنو اسرائيل ان يحتملوه معهم وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان بن صالح حدثنا ابن فضيل عن عبد الله بن أبي اسحق عن ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال نزل رسول الله

محفوظا (في صدور الذين أوتوا العلم) يعني العلماء المؤمنين الذين حفظوا القرآن على عهده صلى الله عليه وآله وسلم وحفظوه بعده عن ظهر قلب وهذا من خصائص القرآن بخلاف سائر الكتب فانها لم تكن معجزات ولا كانت تقرأ الا من المصاحف ولذا جاء في وصف هذه الامة صدورهم أناجيلهم ولذلك لا يقدرون على تحريفه ولا تغييره والمراد انهم يحفظونه تلقيا منك ويعضهم من بعض وانت تلقيته عن جبريل عن اللوح المحفوظ فلم تأخذه من كتاب بطريق تلقيه منه (وما يجحد بآياتنا) أي القرآن الكريم (الا الظالمون) أي المجاوزون للحد والمتوغلون في الظلم (وقالوا) أي المشركون (لولا أنزل عليه آيات من ربه) المعنى هلا أنزلت عليه آيات كآيات الانبياء وذلك كآيات موسى وناقة صالح واحياء المسيح الموتى ثم أمره الله سبحانه ان يجيب عليهم فقال (قل انما الآيات عند الله) ينزلها على من يشاء من عباده ولا قدرة لاحد على ذلك (وانما أنا نذير مبين) أنذركم بما أمرت وابين لكم كما ينبغي ليس في قدرتي غير ذلك (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) مستأنفة للرد على اقتراحهم وبيان بطلانه أي أولم يكف المشركين من الآيات التي اقترحوها هذا الكتاب المعجز الذي قد تحديتهم بان يأتوا بمثله أو بسورة منه فعجزوا ولو أتيتهم بآيات موسى أو بآيات غيره من الانبياء لقالوا سحر ونحن لا نعرف السحر والكلام مقدور لهم ومع ذلك عجزوا عن المعارضة ولما آمنوا كما لم يؤمنوا بالقرآن الذي يتلى عليهم في كل زمان ومكان فلا تزال معهم آية ثابتة لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها أو تكون في مكان دون مكان والمعنى ان القرآن معجزة أتم من معجزة من تقدم من الانبياء مغنية عن سائر الآيات لان معجزة القرآن تدوم على مر الدهور والزمان ثابتة لا تضمحل كغيرها من الآيات (ان في ذلك) الكتاب الموجود في كل مكان وزمان الى آخر الدهور الموصوف بما ذكر (لرحمة) عظيمة في الدنيا والآخرة (وذكرى) في الدنيا يتذكرون بها وترشدهم الى الحق (لقوم يؤمنون) أي لقوم يصدقون بما جئت به من عند الله فانهم هم الذين ينتفعون بذلك أخرج الدارمي وأبو داود في مراسيله وغيرهما عن يحيى بن جعدة قال جاء أناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كفى بقوم حمقا أو ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم اليهم الى ما جاء به غيره الى غيرهم فنزلت أولم يكفهم الآية وعن الزهري ان حفصة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله

وسلم بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرؤه والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يتلون وجهه فقال والذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف وأنا بينكم فاتبعتموه وتركتموني لضللتم وعن عبد الله بن الحرث الانصاري قال دخل عمر بن الخطاب على النبي صلى الله عليه وآله وسلم بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من اهل الكتاب أعرضها عليك فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغيرا شديدا لم أر مثله قط فقال عبد الله بن الحرث لعمر أما ترى وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر رضينا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا فسري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنا حظكم من الامم أخرجه عبد الرزاق وابن سعد وابن الضريس وأخرج البيهقي وضعفه عن عمر بن الخطاب قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن تعلم التوراة فقال لا تتعلمها وآمن بها وتعلموا ما أنزل اليكم وآمنوا به (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا) أي قل للمكذبين كفى الله شهيدا بما وقع بيني وبينكم وقال ابن عباس معناه يشهد لي انى رسوله والقرآن كتابه ويشهد عليكم بالتكذيب وشهادة الله اثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه والقرآن وحده كاف واف لا حاجة معه الى غيره من الكتب لمن آمن به وعمل صالحا (يعلم ما في السموات والارض) لا تخفى عليه من ذلك خافية ومن جملته ما صدر بينكم وبين رسوله صلى الله عليه وآله وسلم (والذين آمنوا بالباطل) أي بما يعبدونه من دون الله قال ابن عباس بالباطل أي بغير الله وقيل بعبادة الشيطان وقيل بما سوى الله والمعاني متقاربة ثم ذكر الكفر بعد الباطل لبيان قبح الاول فقال (وكفروا بالله) وآياته والجملة مؤكدة لما قبلها (أولئك هم الخاسرون) الجامعون بين خسران الدنيا والآخرة في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان (ويستعجلونك بالعذاب) استهزاء وتكذيبا منهم بذلك كقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم (ولولا أجل مسمى) قد جعله الله لعذابهم وعينه وهو القيامة وقال الضحاك الاجل مدة أعمارهم لانهم اذا ماتوا صاروا الى العذاب وقيل المراد بالاجل المسمى النفخة الاولى وقيل الوقت الذي قدره الله لعذابهم في الدنيا بالقتل أو الاسر يوم بدر والحاصل ان لكل عذاب اجلا لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه كما في قوله سبحانه لكل نبإ مستقر (لجاءهم العذاب) أي لولا ذلك الاجل المضروب لجاءهم العذاب

الذي

صلى الله عليه وسلم باعرابي فأكرمه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاهدنا فأتاه الاعرابي فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حاجتك قال ناقة برحلها وعنز يحتلبها أهلي فقال أعجزت ان تكون مثل عجوز بني اسرائيل فقال له أصحابه وما عجوز بني اسرائيل يا رسول الله قال ان موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببني اسرائيل أضل الطريق فقال لبني اسرائيل ما هذا فقال له علماء بني اسرائيل نحن نحدثك ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله ان لا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا فقال لهم موسى فأيكم يدري أين قبر يوسف قالوا ما يعلمه الا عجوز من بني اسرائيل فأرسل اليها فقال لها دليني على قبر يوسف فقالت والله لا أفعل حتى تعطيني حكمي فقال لها وما حكمك قالت حكمي ان أكون معك في الجنة فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها قال فانطلقت معهم الى بحيرة مستنقع ماء فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما أنضبوه قالت احفروا فلما حفروا استخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه اذا الطريق مثل ضوء النهار وهذا حديث غريب جدا والاقرب انه موقوف والله أعلم فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني اسرائيل لما يريد الله تعالى به من الدمار فأرسل سريعا في بلاده حاشرين أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ان هؤلاء يعني بني اسرائيل لشرذمة قليلون أي لطائفة قليلة وانهم لنا لغائظون أي كل وقت يصل منهم الينا ما يغيظنا وانا لجميع حاذرون أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف وانا لجميع حذرون أي مستعدون بالسلاح واني أريد ان أستأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم قال الله تعالى فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم أي فخرجوا من هذا النعيم الى الجحيم وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والانهار والاموال والارزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا كذلك وأورثناها بني اسرائيل كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التي باركنا فيها الآية وقال تعالى ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين الآيتين (فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب

موسى انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين فأوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه أولي الحل والعقد والدول من الامراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود فاما ما ذكره غير واحد من الاسرائليات من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على

خيل دهم ففيه نظر وقال كعب الاحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفي ذلك نظر والظاهر ان ذلك من مجازفات بني اسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم والذي أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم اذ لا فائدة تحته لانهم خرجوا بأجمعهم فأتبعوهم مشرقين أي وصلوا اليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها فلما تراءى الجمعان أي رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك قال أصحاب موسى انا لمدركون وذلك انه انتهى بهم السير الى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار امامهم البحر وقد أدركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا انا لمدركون قال كلا ان معي ربي سيهدين أي لا يصل اليكم شيء مما تحذرون فان الله سبحانه هو الذي أمرني ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد وكان هرون عليه السلام في المقدمة ومعه يوشع ابن نون أو مؤمن آل فرعون وموسى عليه السلام في الساقة وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام يا نبي الله ههنا أمرك ربك ان تسير فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق الا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق باذن الله وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة بن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر قال يا من كان قبل كل شيء المكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة الى البحر ان اذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدري من أي جانب يضربه موسى

الذي يستحقونه بذنوبهم عاجلا (وليأتينهم بغتة) أي فجأة كوقعة بدر فانها أتتهم بغتة والجملة مستأنفة مبينة لمجيء العذاب المذكور قبلها (وهم لا يشعرون) أي حال كونهم لا يعلمون باتيانه على ما يشهد له كتب السير ثم ذكر سبحانه ان موعد عذابهم النار فقال (يستعجلونك بالعذاب) أي يطلبون منك تعجيل عذابهم في الدنيا ذكر هذا للتعجب لان من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لكمة قد يرى من نفسه الجلد ويقول باسم الله هات واما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بان المتوعد قادر لا يخلف الميعاد فلا يخطر بباله ان يقول هات ما توعدتني به فقوله ويستعجلونك بالعذاب أولا اخبار عنهم وقوله ثانيا يستعجلونك بالعذاب تعجب منهم وقيل التكرير للتأكيد (وان جهنم لمحيطة بالكافرين) أي والحال ان مكان العذاب محيط بهم أي سيحيط بهم عن قرب فان ما هو آت قريب فعبر عن الاستقبال بالحال للدلالة على التحقق والمبالغة أو يراد بجهنم أسبابها الموصلة اليها فلا تأويل في قوله محيطة والاول أظهر والمراد بالكافرين جنسهم فيدخل فيه هؤلاء المستعجلون دخولا أوليا والمعنى ان جهنم جامعة لهم لا يبقى منهم أحد الا دخلها قال ابن عباس جهنم هو هذا البحر الاخضر تنتثر الكواكب فيه وتكون فيه الشمس والقمر ثم يستوقد فيكون هو جهنم وفي هذا نكارة شديدة فان الاحاديث الكثيرة الصحيحة ناطقة بان جهنم موجودة مخلوقة على الصفات التي وردت بها الكتاب والسنة ثم ذكر سبحانه كيفية احاطة العذاب بهم فقال (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أي من جميع جهاتهم لقوله تعالى من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل فاذا غشيهم العذاب على هذه الصفة فقد أحاطت بهم جهنم قيل خص الجانبين ولم يذكر اليمين ولا الشمال ولا الخلف ولا الامام لان المقصود ذكر ما تميز به نار جهنم عن نار الدنيا فنار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة قدامه وخلفه ويمينه وشماله وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل في العادة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة التي تحت القدم بل تطفأ ونار جهنم تنزل من فوق ولا تطفأ بالدوس عليها بوضع القدم ذكره الرازي (ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) والقائل هو الله سبحانه أو بعض ملائكته بامره في ذلك اليوم أي ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من الكفر والمعاصي فلا تفوتونا قرئ نقول بالنون وبالتحتية لقوله قل كفى بالله وقرئ ويقال ذوقوا ولما ذكر سبحانه حال الكفرة من

أهل الكتاب ومن المشركين وجمعهم في الانذار وجعلهم من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في ايذاء المسلمين بكل وجه فقال الله سبحانه (يا عبادي الذين آمنوا) أضافهم اليه بعد خطابه لهم تشريفا وتكريما والموصول صفة موضحة أو مميزة (ان أرضي واسعة) قيل نزلت في ضعفاء مسلمي أهل مكة يقول الله ان كنتم في ضيق بمكة من اظهار الايمان وفي مكابدة للكفار فاخرجوا منها الى السعة ليتيسر لكم عبادتي وحدي وتسهل عليكم وقيل نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة وقال الزمخشري ان هاجر ناس الخروج وضيق المعيشة فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج قال الزجاج أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك ان يهاجر الى حيث يتهيأ له ان يعبد الله حق عبادته وقال مطرف بن الشخير المعنى ان رحمتي واسعة ورزقي لكم واسع فابتغوه في الارض وقيل البلاد والبقاع تتفاوت في ذلك تفاوتا كثيرا قال علي القاري رحمه الله وأما اليوم فانا نحمد الله لم نجد أعون على قهر النفس وأجمع للقلب وأحث على القناعة وأطرد للشيطان وأبعد من الفتن وأربط للأمر الديني وأطهر له من مكة حرسها الله تعالى أقول لولا ما فيها الآن من استطالة أهل البدع على أهل السنة وايثار المطعومات السلطانية على الاحكام الرحمانية وظلم أهل المكس على الحجاج وعدم الانتصاف من أهل الاعتساف والحرج على العمل بالسنة والمسك بالحق والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد قال سهل اذا ظهرت المعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها الى أرض المطيعين قلت وأي لنا هذا اليوم ولو علمنا أرضا طائعة على وجه البسيطة على حسب ما نطق به الكتاب والسنة أو مذاهب السنة فقهاء الامة لخرجنا اليها ان شاء الله تعالى ولكن كم من أمة ضاعت فانا لله وانا اليه راجعون وروي مرفوعا من فر بدينه من أرض الى أرض وان كان شبرا من الارض استوجب الجنة ولينظر في سنده وتخريجه وقيل المعنى ان أرضي التي هي أرض الجنة واسعة (فاياي فاعبدون) حتى أورثكموها وانتصاب اياي بفعل مضمر أي فاعبدوا اياي ثم لما صعب على المؤمنين ترك الاوطان ومفارقة الاخوان خوفهم سبحانه بالموت ليهون عليهم أمر الهجرة وشجع المهاجرين لئلا يقيموا بدار الشرك خوفا من الموت فقال (كل نفس) من النفوس (ذائقة الموت) أي واجدة مرارة الموت وكربه ومشاقه لا محالة كما

فلما تم ... الى موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبي الله أين أمرك ربك عز وجل قال أمرني أن أضرب البحر قال فاضرب به وقال محمد بن اسحق أوحى الله فيما ذكر لي الى البحر اذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظار ما أمره الله وأوحى الله الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه بها وفيها سلطان الله الذي أعطاه فانفلق وذكر غير واحد انه جاءه فقال انفلق علي ذلك باذن الله قال الله تعالى فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم أي كالجبل الكبير قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن (١٧٠) كعب والضحاك وقتادة وغيرهم وقال عطاء الخراساني هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس صار البحر اثنى عشر طريقا لكل سبط طريق وزاد السدي وصار فيه طاقات ينظر بعضهم الى بعض وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح الى قعر البحر فلفحته فصار يبسا كوجه الارض قال الله تعالى فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى وقال في هذه القصة وأزلفنا ثم أي هنالك الآخرين قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي وأزلفنا أي قربنا من البحر فرعون وجنوده وأدنيناهم اليه وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين أي أنجينا موسى وبني اسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل الا هلك وروى ابن أبي حاتم حدثنا علي ابن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود ان موسى عليه السلام حين أسرى ببني اسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع الي ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى الى البحر فقال له انفرق فقال له البحر لقد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لاحد من ولد آدم فأنفرق لك قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبي الله قال ما أمرت الا بهذا الوجه يعني البحر قال والله ما كذبت ولا كذبت ثم اقتحم الثانية فسبح(١) ثم خرج فقال أين أمرت يا نبي الله قال ما أمرت الا بهذا الوجه قال والله ما كذبت ولا كذبت قال فأوحى الله الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم

(١) قوله ثم اقتحم الثانية الخ هكذا في النسخ وحرر اه

وفي رواية اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون انطم عليهم البحر فما رؤي سواداً أكثر من يومئذ وغرق فرعون لعنه الله ثم قال تعالى ان في ذلك لآية أي في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم تقدم تفسيره (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال

أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين) هذا اخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم عليه السلام امام الحنفاء أمر الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ان يتلوه على أمته ليقتدوا به في الاخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له والتبري من الشرك وأهله فان الله تعالى آتى ابراهيم رشده من قبل أي من صغره الى كبره فانه من وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الاصنام مع الله عز وجل فقال لابيه وقومه ماذا تعبدون أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين أي مقيمين على عبادتها ودعائها قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون يعني اعترفوا بان أصنامهم لا تفعل شيأ من ذلك وانما رأوا آباءهم كذلك يفعلون فهم على آثارهم يهرعون فعند ذلك قال لهم ابراهيم أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لي الا رب العالمين أي ان كانت هذه الاصنام شيأ ولها تأثير وتقدر فلتخلص الي بالمساءة فاني عدو لها لا أبالي بها ولا أفكر فيها وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام فأجمعوا أمركم وشركاءكم الآية وقال هود عليه السلام اني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون اني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم وهكذا تبرأ ابراهيم من آلهتهم فقال وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله الآية وقال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم الى قوله حتى تؤمنوا بالله وحده وقال تعالى واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه انني براء مما تعبدون الا الذي فطرني

يجد الذائق طعم المذوق فلا يصعب عليكم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان وهجر الخلان بل الاولى ان يكون ذلك في سبيل الله فيجازيكم عليه فلا تخافوا من بعد الشقة ومقاساة المشقة (ثم الينا) لا الى غيرنا (ترجعون) بالموت والبعث فنحن كل حي في سفر الى دار القرار وان طال لبثه في هذه الدار عن علي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت انك ميت وانهم ميتون قلت يا رب أيموت الخلائق كلهم ويبقى الانبياء فنزلت كل نفس ذائقة الموت الآية أخرجه ابن مردويه وينظر كيف صحته فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ان يسمع قول الله سبحانه انك ميت وانهم ميتون يعلم انه ميت وقد علم ان من قبله من الانبياء قد ماتوا وانه خاتم الانبياء فكيف ينشأ عن هذه الآية ما نقل عنه علي رضي الله عنه من قوله أيموت الخلائق ويبقى الانبياء فلعل هذه الرواية لا تصح مرفوعة ولا موقوفة (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) في هذا ترغيب الى الهجرة وان جزاء من هاجر ان يكون في غرف الجنة كما قال (لنبوئنهم) أي لننزلنهم وهو مأخوذ من المباءة وهي الانزال وقرئ لنثوينهم بالثاء والمعنى لنعطينهم غرفا يثوون فيها من الثوى وهو الاقامة قال الزجاج يقال ثوى الرجل اذا أقام وأثويته اذا أنزلته منزلا يقيم فيه قال الاخفش لا يعجبني هذه القراءة لانك لا تقول أثويته الدار بل تقول في الدار وليس في الآية حرف جر في المفعول الثاني (من الجنة غرفا) أي غرف الجنة وهي علاليها جمع علية ثم وصف سبحانه تلك الغرف فقال (تجري من تحتها الانهار) أي من تحت الغرف (خالدين فيها) أي مقدرين الخلود في الغرف لا يموتون أبدا أو في الجنة والاول أولى (نعم أجر العاملين) للاعمال الصالحة أجرهم بين في هذه الآية ان للمؤمنين الجنات في مقابلة ان للكافرين النيران وان فيها غرفا تحتها الانهار في مقابلة ان تحت الكافرين النار وبين ان ذلك أجر عملهم بقوله نعم أجر العاملين في مقابلة ما تقدم للكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ولم يذكر ما فوق المؤمنين لانهم في أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيأ اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم ولم يجعل الماء من تحت أقدامهم بل من تحت غرفهم لان الماء يكون ملتذا به في أي جهة كان وعلى أي بعد كان اذا كان تحت الغرفة ذكره الرازي ثم وصف هؤلاء العاملين بقوله (الذين صبروا) على مشاق التكاليف وعلى أذية المشركين لهم والهجرة لاظهار الدين وعلى الطاعة وعن المعاصي ولم يتركوا دينهم لشدة لحقتهم (وعلى

فإنه سيهدين وجعلها كلمة هي لا إله إلا الله (الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء الذي خلقني فهو يهدين أي هو الخالق الذي قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجري على ما قدر له وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء والذي يطعمني ويسقين أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيى به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسي كثيرا وقوله وإذا مرضت فهو يشفين أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصلي أن يقول اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله أدبا وأسند الضلال إلى العبد كما قالت الجن وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا وكذا قال إبراهيم وإذا مرضت فهو يشفين أي إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه والذي يميتني ثم يحيين أي هو الذي يحيي ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء (رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم واغفر لأبي إنه كان من الضالين ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكما قال ابن عباس وهو العلم وقال عكرمة هو اللب وقال مجاهد هو القرآن وقال السدي هو النبوة وقوله وألحقني بالصالحين أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عند الاحتضار اللهم في الرفيق الأعلى قالها ثلاثا وفي الحديث في الدعاء اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين وقوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين أي واجعل لي ذكرا جميلا بعدي أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى وتركنا عليه

ربهم يتوكلون) أي يفوضون أمورهم إليه في كل إقدام وإحجام ثم ذكر سبحانه ما يعين على الصبر والتوكل وهو النظر في حال الدواب فقال (وكأين) قد تقدم الكلام فيها وأنها أي دخلت عليها كاف التشبيه وصار فيها معنى كم كما صرح به الخليل وسيبويه وتقديرها عندهما كشيء كثير من العدد (من دابة) وقيل المعنى وكم من دابة ذات حاجة إلى غذاء (لا تحمل رزقها) أي لا تطيق حمله لضعفها ولا تدخره لغد ولا ترفعه معها مثل البهائم والطير (الله يرزقها وإياكم) أي إنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم فكيف لا تتوكلون على الله مع قوتكم وقدرتكم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها قال الحسن تأكل لوقتها لا تدخر شيئا وقال مجاهد يعني الطير والبهائم تأكل بأفواهها ولا تحمل شيئا وعن عمر بن الخطاب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا أخرجه الترمذي وقال حديث حسن والمعنى أنها تذهب أول النهار جياعا ضامرة البطون وتروح آخر النهار إلى أوكارها شباعا ممتلئة البطون ولا تدخر شيئا قال سفيان بن عيينة ليس شيء من خلق الله يخبأ إلا الإنسان والفأرة والنملة سوى سبحانه وتعالى في هذه الآية بين الحريص والمتوكل في الرزق وبين الراغب والقانع وبين الجلد والعاجز يعني أن الجلد لا يتصور أنه مرزوق بجلده ولا يتصور العاجز أنه ممنوع من الرزق بعجزه (وهو السميع) الذي يسمع كل مسموع (العليم) بكل معلوم أخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر قال السيوطي بسند ضعيف عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط التمر ويأكل فقال لي ما لك لا تأكل قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني أشتهيه وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم ويضعف اليقين قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ألا وإني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا أخبأ رزقا لغد وهذا الحديث فيه نكارة شديدة لمخالفته ما كان عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد كان يعطي نساءه قوت العام كما ثبت ذلك في كتب الحديث المعتبرة

وفى اسناده أبو العطوف الجوزى وهو ضعيف ثم انه سبحانه ذكر حال المشركين من أهل مكة وغيرهم وعجب السامع من كونهم يقرون بأنه خالقهم ورازقهم ولا يوحدونه ولا يتركون عبادة غيره فقال (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض) أتى بشيئين أحدهما يتعلق بالذوات وهو هذا والثانى يتعلق بالصفات وهو قوله (وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) خالقها لا يقدرون على انكار ذلك ولا يتمكنون من جحوده (فأنى يؤفكون) أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده بالالهية وانه وحده لا شريك له والاستفهام للانكار والاستبعاد ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير لان مجرد خلقهما ليس حكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف ولا الشتاء فحينئذ الحكمة انما هى فى تحريكهما وتسخيرهما ولما قال المشركون لبعض المؤمنين لو كنتم على حق لم تكونوا فقراء دفع الله سبحانه ذلك بقوله (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى التوسيع فى الرزق والتقتير له هو من الله الباسط القابض يبسطه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء على حسب ما تقتضيه حكمته وما يليق بأحوال عباده من القبض والبسط ولهذا قال (ان الله بكل شئ عليم) يعلم ما فيه صلاح عباده وفسادهم ومنه البسط والتضييق (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض من بعد موتها) أى جدبها وقحط أهلها (ليقولن الله) أى يعترفون بذلك لا يجدون الى انكاره سبيلا فكيف يشركون به بعد هذا الاقرار ثم لما اعترفوا هذا الاعتراف فى هذه الآيات وهو يقتضى بطلان ما هم عليه من الشرك وعدم افراد الله سبحانه بالعبادة أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمد الله على اقرارهم بذلك وعدم جحودهم مع تصلبهم فى العناد وتشددهم فى رد كل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من التوحيد فقال (قل الحمد لله) أى احمد الله على ان جعل الحق معك وأظهر حجتك عليهم وقيل على انزال الماء واحياء الارض بالنبات والاول أولى ثم ذمهم فقال (بل أكثرهم لا يعقلون) الاشياء التى يتعقلها العقلاء فلذلك لا يعملون بمقتضى ما اعترفوا به مما يستلزم بطلان ما هم عليه عند كل عاقل ثم أشار سبحانه الى تحقير الدنيا وتصغيرها وانها من جنس اللعب واللهو وهى لا تزن عند الله جناح بعوضة وان الدار على الحقيقة هى الدار الآخرة فقال (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب) أى من جنس

فى الآخرين سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين قال مجاهد وقتادة واجعل لى لسان صدق فى الآخرين يعنى الثناء الحسن قال مجاهد كقوله تعالى وآتيناه فى الدنيا حسنة الآية وكقوله وآتيناه أجره فى الدنيا الآية وقال ليث بن أبى سليم كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة وقوله تعالى واجعلنى من ورثة جنة النعيم أى أنعم على فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدى وفى الآخرة بأن تجعلنى من ورثة جنة النعيم وقوله واغفر لأبى الآية كقوله ربنا اغفر لى ولوالدى وهذا مما رجع عنه ابراهيم عليه السلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الى قوله ان ابراهيم لأواه حليم وقد قطع تعالى الالحاق فى استغفاره لابيه فقال تعالى قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه الى قوله وما أملك لك من الله من شئ وقوله ولا تخزنى يوم يبعثون أى أجرنى من الخزى يوم القيامة ويبعث الخلائق أولهم وآخرهم وقال البخارى عند هذه الآية قال ابراهيم بن طهمان عن ابن أبى ذئب عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة وفى رواية أخرى حدثنا اسمعيل حدثنا أخى عن ابن أبى ذئب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يلقى ابراهيم أباه فيقول يا رب انك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فيقول الله تعالى انى حرمت الجنة على الكافرين هكذا رواه عند هذه الآية وفى أحاديث الانبياء بهذا الاسناد بعينه منفردا به ولفظه يلقى ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له ابراهيم ألم أقل لك لا تعصينى فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول ابراهيم يا رب انك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الابعد فيقول الله تعالى انى حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا ابراهيم انظر تحت رجلك فينظر فاذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار ورواه عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه الكبير وقوله ولا تخزنى يوم يبعثون أخبرنا أحمد بن حفص بن عبد الله حدثنى أبى حدثنى ابراهيم بن طهمان عن محمد بن عبد الرحمن عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة وقال له قد نهيتك عن هذا فعصيتنى قال لكنى اليوم لا أعصيك واحدة قال يا رب وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون فان أخزيت أباه فقد أخزيت

الا بعد قال يا ابراهيم انى حرمتها على الكافرين فأخذ منه قال يا ابراهيم أين أبوك قال أنت أخذته منى قال انظر أسفل منك فنظر فاذا ذيخ تمرغ فى نتنه فأخذ بقوائمه فألقى فى النار وهذا اسناد غريب وفيه نكارة والذيخ هو الذكر من الضباع كأنه حول آزر الى صورة ذيخ متلطخ بعذرته فليقى فى النار كذلك وقد رواه البزار باسناده من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم وفيه غرابة ورواه أيضا من حديث قتادة عن جعفر بن عبد الغافر عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه وقوله يوم

لا ينفع مال ولا بنون أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى على الارض ذهبا ولا بنوه أى ولو افتدى بمن على الارض جميعا ولا ينفع يومئذ الا الايمان بالله واخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله ولهذا قال الا من أتى الله بقلب سليم أى سالم من الدنس والشرك قال ابن سيرين القلب السليم ان تعلم ان الله حق وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من فى القبور وقال ابن عباس الا من أتى الله بقلب سليم أن يشهد أن لا اله الا الله وقال مجاهد والحسن وغيرهما بقلب سليم يعنى من الشرك وقال سعيد بن المسيب القلب السليم هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن لان قلب الكافر والمنافق مريض قال الله تعالى فى قلوبهم مرض قال أبو عثمان النيسابورى هو القلب السالم من البدعة المطمئن الى السنة

(وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وأزلفت الجنة أى قربت وأدنيت من أهل الموقف مزخرفة مزينة لناظريها وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما فى الدنيا وعملوا لها فى الدنيا وبرزت الجحيم للغاوين أى أظهرت وكشف عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر وقيل لاهلها تقريعا وتوبيخا أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون أى ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الاصنام

ما يلهو به الصبيان ويلعبون به وأما القرب كالصلاة والصوم والحج والاستغفار والتسبيح فمن أمور الآخرة لظهور غرتها فيها واللهو هو الاستمتاع بلذات الدنيا وقيل هو الاشتغال بما لا يعنيه وما لا يهمه واللعب هو العبث وقيل اللهو هو الاعراض عن الحق بالكلية واللعب الاقبال على الباطل قاله الرازى وفى هذا تصغير للدنيا وازدراء بها ومعنى الآية ان سرعة زوال الدنيا عن أهلها وتقلبهم فيها وموتهم عنها كما يلعب الصبيان ساعة ثم ينصرفون (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة الدائمة الخالدة التى لا موت فيها قال أبو عبيدة وابن قتيبة ان الحيوان الحياة قال الواحدى وهو قول جميع المفسرين ذهبوا الى أن معنى الحيوان ههنا الحياة وانه مصدر بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان وواو الحيوان مقلوبة عن ياء عند سيبويه وأتباعه وقال أبدلت شذوذا وكذا فى حياة علما وقال أبو البقاء لئلا يلتبس بالتثنية وغير سيبويه حمل ذلك على ظاهره فالحياة عنده لامها واو ولا دليل لسيبويه فى حى لان الواو متى انكسرت ما قبلها قلبت ياء نحو عرى ورعى ورضى والتقدير لهى دار الحيوان أو ذات الحيوان أى دار الحياة الباقية التى لا تزول أو لا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم وقدر أبو البقاء ان حياة الدار وذلك ليتطابق المبتدأ والخبر والمبالغة أحسن قال ابن عباس هى الحيوان أى باقية وعن أبى جعفر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عجبا كل العجب من مصدق بدار الحيوان وهو يسعى لدار الغرور أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى فى الشعب وهو مرسل (لو كانوا يعلمون) أن الحياة هى حياة الآخرة أو يعلمون شيأ من العلم لما آثروا الدار الفانية المنغصة على الآخرة الباقية ثم بين سبحانه انه ليس المانع لهم من الايمان الا مجرد تأثير الحياة فقال (فاذا ركبوا فى الفلك) أى اذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا الى الفطرة والركوب هو الاستعلاء وهو متعد بنفسه وانما عدى بكلمة فى للاشعار بأن المركوب فى نفسه من قبيل الامكنة (دعوا الله) وحده (مخلصين له الدين) بصدق نياتهم وتركهم عند ذلك دعاء الاصنام لعلمهم انه لا يكشف هذه الشدة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه (فلما نجاهم الى البر) وأمنوا (اذا هم يشركون) أى فاجؤا المعاودة الى الشرك ودعوا غير الله سبحانه وعادوا الى ما كانوا عليه من العناد وقيل كان أهل الجاهلية اذا ركبوا البحر حملوا الاصنام فاذا اشتد الريح ألقوها فى البحر وقالوا يارب يارب (ليكفروا بما آتيناهم

والانداد لتغني عنكم اليوم شيأ ولا تدفع عن أنفسها فانكم واياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون وقوله فكبكبوا فيها هم
والغاوون قال مجاهد يعني قدهوروا فيها وقال غيره كبكبوا فيها والكاف مكررة كما يقال صرصر والمراد انه ألقى بعضهم على بعض
من الكفار وقادتهم الذين دعوهم الى الشرك وجنود ابليس أجمعون أي ألقوا فيها عن آخرهم قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا
لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين أي يقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار
ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة تالله ان كنا لفي ضلال مبين (١٧٥) اذ نسويكم برب العالمين أي نجعل أمركم
مطاعا كما يطاع أمر رب العالمين
وعبدناكم مع رب العالمين وما
أضلنا الا المجرمون أي مادعانا الى
ذلك الا المجرمون فما لنا من شافعين
قال بعضهم يعني من الملائكة كما
يقولون فهل لنا من شفعاء فيشفعوا
لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل
وكذا قالوا فما لنا من شافعين ولا
صديق حميم أي قريب قال قتادة
يعلمون والله ان الصديق اذا كان
صالحا نفع وان الحميم اذا كان
صالحا شفع فلو أن لنا كرة فنكون
من المؤمنين وذلك انهم يتمنون انهم
يردون الى دار الدنيا ليعملوا بطاعة
ربهم فيما يزعمون والله تعالى يعلم
انهم لو ردوا الى دار الدنيا لعادوا لما
نهوا عنه وانهم لكاذبون وقد أخبر
الله تعالى عن تخاصم أهل النار في
سورة ص ثم قال تعالى ان ذلك لحق
تخاصم أهل النار ثم قال تعالى ان
في ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين أي ان في محاجة ابراهيم
لقومه واقامة الحجج عليهم في
التوحيد لآية أي لدلالة واضحة
جلية على أن لا اله الا الله وما كان
أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو
العزيز الرحيم (كذبت قوم نوح
المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على
رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون) هذا اخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام وهو أول رسول بعثه الله الى أهل
الارض بعد ماعبدت الاصنام والانداد فبعثه الله ناهيا عن ذلك ومحذرا من وبيل عقابه فكذبه قومه فاستمروا على ماهم فيه من
الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى وأنزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل فلهذا قال تعالى كذبت
قوم نوح المرسلين اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون أي لا تخافون الله في عبادتكم غيره اني لكم رسول أمين أي اني رسول من الله اليكم

آتيناهم) من نعمة الانجاء (وليتمتعوا) أي فاجؤا الشرك بالله ليكفروا أو يجحدوا نعمة
الله وليتمتعوا بها فاللام في الفعلين لام كي وفيه شئ لانه ليس الحامل لهم على الاشراك قصد
الكفر والظاهر انها لام العاقبة والمآل كما أشار له الشهاب وقيل اللام للتعليل والمعنى
لافائدة لهم في الاشراك الا التمتع به في العاجلة ولا نصيب لهم في الآخرة وقيل هما لاما
الامر تهديدا ووعيدا أي اكفروا بما أعطيناكم من النعمة وتمتعوا ويدل على هذا المعنى
قراءة أبي وتمتعوا وهذا الاحتمال للامرين انما هو على قراءة أبي عمرو وورش بكسر اللام
واما على قراءة الجمهور بسكونها فلا خلاف انها لام الامر (فسوف يعلمون) عاقبة ذلك
الامر وما فيه من الوبال عليهم وفيه تهديد لهم عظيم (أولم يروا) أي ألم ينظر كفار قريش
(أنا جعلنا) حرمهم أي بلدهم مكة (حرما آمنا) يأمن فيه ساكنه من الغارة والقتل
والسبي والنهب فصاروا في سلامة وعافية مما صار فيه غيرهم من العرب فانهم في كل حين
تطرقهم الغارات وتجتاح أموالهم الغزاة وتسفك دماءهم الجنود وتستبيح حرمهم
وأموالهم شطار العرب وشياطينها (ويتخطف الناس) جملة حالية أي وهم يتخطف الناس
(من حولهم) بالقتل والسبي والنهب والخطف الاخذ بسرعة وقد مضى تحقيق معناه في
سورة القصص والجملة حالية (أفبالباطل يؤمنون) وهو الشرك والاصنام والشيطان بعد
ظهور حجة الله عليهم واقرارهم بما يوجب التوحيد (وبنعمة الله يكفرون) أي بمحمد
صلى الله عليه وآله وسلم والاسلام ويجعلون كفرها مكان شكرها وفي هذا الاستفهام من
التقريع والتوبيخ مالا يقادر قدره (ومن) أي لا أحد (أظلم ممن افترى على الله كذبا) وهو
من زعم ان لله شريكا (أو كذب بالحق لما جاءه) أي كذب بالرسول الذي أرسل اليه
أو بالكتاب الذي أنزله على رسوله وقال السدي بالتوحيد والظاهر شموله لما يصدق عليه
انه حق ثم هدد المكذبين وتوعدهم فقال (أليس في جهنم مثوى للكافرين) أي مكان
يستقرون فيه والاستفهام للتقرير والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها وقد فعلوا
ما فعلوا لان همزة الانكار اذا دخلت على النفي صار ايجابا فيرجع الى معنى التقرير أو ألم
يصح عندهم ان جهنم مثواهم حين اجترؤا مثل هذه الجرأة ثم لما ذكر حال المشركين
الجاحدين التوحيد الكافرين بنعم الله أردفه بحال عباده الصالحين فقال (والذين
جاهدوا) أي أوقعوا الجهاد بغاية جهدهم على ما دل عليه المفاعلة (فينا) أي في شأن الله

أمري فيما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم بل أدخر ثواب ذلك عند الله فاتقوا الله وأطيعون فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه (قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين) يقولون لا نؤمن لك ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الارذلين الذين اتبعوك وصدقوك وهم أراذلنا ولهذا قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمي بما كانوا يعملون أي وأي شيء يلزمني من

اتباع هؤلاء لي ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنهم والبحث والفحص انما علي ان أقبل منهم تصديقهم اياي وأكل سرائرهم الى الله عز وجل ان حسابهم الا على ربي لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين كأنهم سألوا منه ان يبعدهم عنه ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين أي انما بعثت نذيرا فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه سواء كان شريفا أو وضيعا أو جليلا أو حقيرا (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا ونجني ومن معي من المؤمنين فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم الى الله تعالى ليلا ونهارا وسرا وجهارا وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ والامتناع الشديد وقالوا في الآخر لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين أي لئن لم تنته عن دعوتك ايانا الى دينك لتكونن من المرجومين أي لنرجمنك فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه فقال يا رب ان قومي كذبون فافتح بيني وبينهم فتحا الآية كما قال في الآية الاخرى فدعا ربه اني مغلوب فانتصر الى آخر الآية وقال ههنا فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين والمشحون هو المملوء بالامتعة والازواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين أي أنجينا نوحا ومن اتبعه كلهم وأغرقنا من كفر به وخالف أمره كلهم أجمعين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون اني لكم

لطالب مرضاته ورجاء ما عنده من الخير وقيل في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصا ومن اقبتنا خاصة بلزوم الطاعات من جهاد الكفار وغيرهم من كل ما ينبغي الجهاد فيه بالقول والفعل في الشدة والرخاء ومخالفة الهوى عند هجوم الفتن وشدائد المحن مستحضرين لعظمتنا (لنهدينهم سبلنا) أي سبل السير والطريق الموصل الينا وقيل لنزيدنهم هداية الى سبل الخير وتوفيقا وعن ابن عطاء جاهدوا في رضانا لنهدينهم الى الوصول الى محل الرضوان وعن الجنيد جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الاخلاص أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا والانس بنا قال ابن عطية هي مكية نزلت قبل فرض الجهاد العرفي وانما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته وقيل الآية هذه نزلت في العباد قال سفيان بن عيينة اذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغور فان الله تعالى يقول والذين جاهدوا فينا الخ وقيل المجاهدة الصبر على الطاعات والمخالفة للهوى وقال الفضيل بن عياض والذين جاهدوا فينا أي في طلب العلم لنهدينهم سبل العلم والعمل به وقال سهل بن عبد الله الذين جاهدوا باقامة السنة واماتة البدعة لنهدينهم سبل الجنة وقال ابن عباس الذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا وقال أبو سليمان الداراني الذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم الى ما لم يعلموا وعن بعضهم من عمل بما علم وفق لعلم ما لم يعلم وقال ابراهيم بن أدهم هي في الذين يعملون بما يعلمون وقال الداراني أيضا ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين والرد على المبطلين وقمع الظالمين وأعظمه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله قال ابن عيينة مثل السنة في الدنيا كمثل الجنة في العقبى من دخل الجنة في العقبى سلم فكذلك من لزم السنة في الدنيا سلم وظاهر الآية العموم فيدخل تحته كل ذلك قال النسفي أطلق المجاهدة ولم يقيدها بمفعول ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين (وان الله لمع المحسنين) بالنصر والعون في دنياهم والمغفرة في عقباهم وثوابهم الجنة في الآخرة ومن كان الله معه لا يخذل أبدا ودخلت لام التوكيد على مع بتأويل كونها اسما أو على انها حرف ودخلت عليها لافادة معنى الاستقرار كما تقول ان زيدا لفي الدار والبحث مقرر في علم النحو وفيه اقامة الظاهر مقام المضمر اظهارا لشرفهم بوصف الاحسان

(سورة الروم هي ستون أو تسع وخمسون آية)

قال القرطبي كلها مكية بلا خلاف قال ابن عباس نزلت بمكة وعن ابن الزبير مثله وقال البيضاوي الا قوله فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون والاول أولى وأخرج عبد الرزاق وأحمد قال السيوطي بسند حسن عن رجل من الصحابة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها سورة الروم وأخرج البزار عن الاغر المزني مثله وعن عبد الملك بن عمير ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ في الفجر يوم الجمعة بسورة الروم وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وأحمد بن قانع من طريق ابن عمير مثل حديث الرجل الذي من الصحابة وزاد فتردد فيها فلما انصرف قال انما يلبس علينا في صلاتنا قوم يحضرون الصلاة بغير طهور من شهد الصلاة فليحسن الطهور

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم الكلام على فاتحة هذه السورة في فاتحة سورة البقرة والله أعلم بمراده بذلك (غلبت الروم) قرئ مبنيا للمفعول وللفاعل قال النحاس قراءة الناس بضم الغين وكسر اللام قال أهل التفسير غلبت فارس الروم ففرح بذلك كفار مكة وقالوا الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب وافتخروا على المسلمين فقالوا نحن أيضا نغلبكم كما غلبت فارس الروم وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لانهم أهل كتاب أي نصارى فهم أقرب الى الاسلام والفرس مجوس فهم أقرب الى كفار قريش وفارس اسم أعجمي علم على تلك القبيلة فهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث بل والعجمة وعن أبي سعيد قال لما كان يوم بدر ظهر الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت الم غلبت الروم وقرأها على البناء للفاعل ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس وعن أبي الدرداء قال سيجيء أقوام يقرؤن الم غلبت يعني بالفتح وانما هي غلبت يعني بالضم والروم اسم قبيلة سميت باسم جدها وهو روم بن عيصو بن اسحق بن ابراهيم قاله ابن جزي في تفسيره وسمي عيصو لانه كان مع يعقوب في بطن فعند خروجهما تزاحما وأراد كل ان يخرج قبل صاحبه فقال عيصو ليعقوب ان لم أخرج قبلك والا خرجت من جنبها فتأخر يعقوب شفقة منه فلذا كان أبا الانبياء وعيصو أبا الجبارين كذا قيل والله أعلم قيل وكان هذا الحرب بين اذرعات

رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) وهذا اخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام انه دعا قومه عادا وكان قومه يسكنون الاحقاف وهي جبال الرمل قريبا من حضرموت من جهة بلاد اليمن وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال في سورة الاعراف واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة وذلك انهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد والطول المديد والارزاق الدارة والاموال والجنات والانهار والابناء والزروع والثمار وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه فبعث الله هودا اليهم رجلا منهم رسولا وبشيرا ونذيرا فدعاهم الى الله وحده وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه فقال لهم كما قال نوح لقومه الى أن قال أتبنون بكل ريع آية تعبثون اختلف المفسرون في الريع بما حاصله انه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة تبنون هنالك بناء محكما هائلا باهرا ولهذا قال أتبنون بكل ريع آية أي علما بناء مشهورا تعبثون أي وانما تفعلون ذلك عبثا لا للاحتياج اليه بل لمجرد اللعب واللهو واظهار القوة ولهذا أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك لانه تضييع للزمان واتعاب للابدان في غير فائدة واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة ولهذا قال وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون قال مجاهد والمصانع البروج المشيدة والبنيان المخلد وفي رواية عنه بروج الحمام وقال قتادة هي مآخذ الماء قال قتادة وقرأ بعضهم وتتخذون مصانع كأنكم خالدون وفي القراءة المشهورة وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون أي لكي تقيموا فيها أبدا وذلك ليس بحاصل لكم بل زائل عنكم كما زال عمن كان قبلكم وروى ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا الحكم بن موسى حدثنا الوليد حدثنا ابن عجلان حدثني عون بن عبد الله بن عتبة ان أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق فاجتمعوا اليه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ألا تستحيون ألا تستحيون تجمعون ما لا تأكلون وتبنون

مالا تسكنون وتأملون مالا تدركون انه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ويبنون فيوثقون ويأملون فيطيلون فأصبح املهم غرورا وأصبح جمعهم بورا وأصبحت مساكنهم قبورا ألا ان عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين وقوله واذا بطشتم بطشتم جبارين أى يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت فاتقوا الله وأطيعون أى اعبدوا ربكم وأطيعوا رسولكم ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم أى ان كذبتم وخالفتم فدعاهم بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الاولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فأهلكناهم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم ورغبهم ورهبهم وبين لهم الحق ووضحه قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين أى لا نرجع عما نحن عليه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين وهكذا الامر فان الله تعالى قال ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون وقال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية وقولهم ان هذا الا خلق الاولين قرأ بعضهم ان هذا الا خلق الاولين بفتح الخاء وتسكين اللام قال ابن مسعود والعوفى عن عبد الله بن عباس وعلقمة ومجاهد يعنون ما هذا الذى جئتنا به الا أخلاق الاولين كما قال المشركون من قريش وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وقال وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين وقرأ آخرون ان هذا الا خلق الاولين بضم الخاء واللام يعنون دينهم وما هم عليه من الامر هو دين الاولين من الآباء والاجداد ونحن تابعون لهم سالكون وراءهم نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا معاد ولهذا قالوا وما نحن بمعذبين قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ان هذا الا خلق الاولين يقول دين الاولين وقاله عكرمة وعطاء الخراسانى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقوله فكذبوه فأهلكناهم أى استمروا على تكذيب نبى الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله وقد بين سبب اهلاكه اياهم

وبصرى والملك بفارس يومئذ كسرى أبرويز (فى أدنى الارض) متعلق بغلبت أى أقرب أرض من أرض العرب أو فى أقرب أرض العرب منهم قيل هى أرض الجزيرة وقيل اذرعات وقيل كسكر وقيل الاردن وقيل فلسطين وهذه المواضع هى أقرب الى بلاد العرب من غيرها وانما حملت الارض على أرض العرب لانها المعهودة فى ألسنتهم اذا أطلقوا الارض ارادوا بها جزيرة عرب وقيل ان الالف واللام عوض عن المضاف اليه والتقدير فى ادنى ارضهم فيعود الضمير الى الروم ويكون المعنى فى أقرب أرض الروم من العرب الى فارس والمراد بالجزيرة ما بين دجلة والفرات وليس المراد بها جزيرة العرب وحدها على ما روى عن الاصمعى انها من أقصى عدن الى ريف العراق طولا ومن جدة وما والاها الى اطراف الشام عرضا وسبب تسميتها جزيرة احاطة البحار والانهار العظيمة بها كبحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات وقال ابن جرى فى تفسيره الجزيرة بين الشام والعراق وهى أول الروم الى فارس قال ابن عطية ان كانت الوقعة باذرعات فهى من أدنى الارض بالقياس الى مكة وان كانت الوقعة بالجزيرة فهى أدنى بالقياس الى أرض كسرى وان كانت بالاردن فهى أدنى الى ارض الروم وعن ابن عباس قال كان المشركون يحبون ان يظهر فارس على الروم لانهم كانوا أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لانهم أصحاب كتاب فذكروه لابى بكر فذكره أبو بكر للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما انهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل بينهم أجلا خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الا جعلته أراه قال دون العشرة فظهرت الروم بعد ذلك فذلك قوله الم غلبت الروم فغلبت ثم غلبت بعد قال سفيان سمعت انهم ظهروا عليهم يوم بدر وعن البراء بن عازب نحوه وزاد انه لما مضى الاجل ولم تغلب الروم فارس ساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ما جعله أبو بكر من المدة وكرهه وقال ما دعاك الى هذا قال تصديقا لله ولرسوله فقال تعرض لهم وأعظم الخطة واجعله الى بضع سنين فأتاهم أبو بكر فقال هل لكم فى العود فان العود أحمد قالوا نعم فلم تمض تلك السنون حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا رومية فقمر أبو بكر فجاء به أبو بكر يحمله الى رسول

الله

في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحا صرصرا عاتية أي ريحا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدا فكانت سبب إهلاكهم من جنسهم فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة كما قال تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد وهم عاد الاولى كما قال وأنه أهلك عادا الاولى وهم من نسل ارم بن سام بن نوح ذات العماد الذين كانوا يسكنون العمد ومن زعم ان ارم مدينة فإنما أخذ ذلك من الاسرائيليات من كلام كعب ووهب وليس لذلك أصل أصيل ولهذا قال التي لم يخلق مثلها في البلاد أي لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم

ولو كان المراد بذلك مدينة لقال التي لم يبن مثلها في البلاد وقال تعالى فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون وقد قدمنا ان الله تعالى لم يرسل عليهم من الريح الا مقدار أنف الثور عتت على الخزنة فأذن الله لها في ذلك فسلكت فحصبت بلادهم فحصبت كل شيء لهم كما قال تعالى تدمر كل شيء بأمر ربها الآية وقال تعالى فأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية الى قوله حسوما أي كاملة فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية أي بقوا أبدانا بلا رؤس وذلك ان الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه وتكسر رأسه وتلقيه كأنهم أعجاز نخل منقعر وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات وحفروا لهم في الارض الى أنصافهم فلم يغن عنهم ذلك من أمر الله شيأ لان أجل الله اذا جاء لا يؤخر ولهذا قال تعالى فكذبوه فأهلكناهم الآية (كذبت ثمود المرسلين اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون اني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) وهذا اخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام انه بعثه الى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ومساكنهم معروفة مشهورة وقد قدمنا في سورة الاعراف الاحاديث المروية في مرور رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم حين أراد غزو الشام فوصل الى تبوك ثم عاد الى المدينة ليتأهب لذلك وكانوا بعد عاد وقبل الخليل عليه السلام فدعاهم نبيهم صالح الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده لا شريك له وان يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه وأخبرهم انه لا يبتغي بدعوتهم أجرا

الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال هذا السحت تصدق به ومن مذهب أبي حنيفة ومحمد ان العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار وقد احتجا على صحة ذلك بهذه القصة والقصة حجة عليهما لا لهما لانها كانت قبل تحريم القمار وفيه هذا السحت تصدق به (وهم من بعد غلبهم) أي والروم من بعد غلب فارس إياهم (سيغلبون) أهل فارس والغلب والغلبة لغتان (في بضع سنين) قد تقدم تفسير البضع واشتقاقه في سورة يوسف والمراد به هنا ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل الى التسع وقيل الى السبع وقيل ما دون العشرة وانما أبهم البضع ولم يبينه وان كان معلوما للنبيه صلى الله عليه وآله وسلم لادخال الرعب والخوف عليهم في كل وقت كما يؤخذ ذلك من تفسير الفخر الرازي أخرج الترمذي وصححه والدارقطني في الافراد والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والبيهقي في الشعب عن نيار بن مكرم الاسلمي قال لما نزلت الم غلبت الروم الآية كانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لانهم واياهم أهل الكتاب وفي ذلك يقول الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الخ وكانت قريش تحب ظهور فارس لانهم واياهم ليسوا أهل كتاب ولا ايمان ببعث فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فقال ناس من قريش لابي بكر فذلك بيننا وبينكم يزعم صاحبك ان الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك فقال بلى وذلك قبل تحريم الرهان فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لابي بكر لم تجعل البضع ثلاث سنين الى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا تنتهي اليه قال فسموا بينهم ست سنين فمضت الست قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم فعاب المسلمون على أبي بكر تسميته ست سنين لان الله قال في بضع سنين فأسلم عند ذلك ناس كثير وأخرج الترمذي وحسنه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لابي بكر ألا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث الى تسع وأخرج البخاري عنه في تاريخه نحوه وفي الباب روايات وما ذكرنا يغني عما سواه (لله الامر) اي هو المتفرد بالقدرة وانفاذ الاحكام (من قبل ومن بعد) أي من وقت المغلوبية ووقت الغالبية فهو لف ونشر مرتب على الآية وقال ابو السعود اي في اول الوقتين

منهم وإنما طلب ثواب ذلك من الله عز وجل ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال (أتتركون في ما ههنا آمنين في جنات وعيون وزروع
ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون) يقول لهم واعظا لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة وجعلهم في
أمن من المحذورات وأنبت لهم من الجنات وفجر لهم من العيون الجاريات وأخرج لهم من الزروع والثمرات ولهذا قال ونخل
طلعها هضيم قال العوفي عن ابن عباس أينع وبلغ فهو هضيم وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس
ونخل طلعها هضيم يقول معشبة
وقال إسماعيل بن أبي خالد عن عمرو
ابن أبي عمرو وقد أدرك الصحابة عن
ابن عباس في قوله ونخل طلعها
هضيم قال إذا رطب واسترخى رواه
ابن أبي حاتم ثم قال وروي عن أبي
صالح نحو هذا وقال أبو إسحق عن
أبي العلاء ونخل طلعها هضيم قال
هو المزنب من الرطب وقال مجاهد
هو الذي إذا مس تهشم وتفتت
وتناثر وقال ابن جريج سمعت عبد
الكريم أبا أمية سمعت مجاهدا
يقول ونخل طلعها هضيم قال حين
يطلع يقبض عليه فتهضمه فهو من
الرطب الهضيم ومن اليابس الهشيم
يقبض عليه فتهشمه وقال عكرمة
وقتادة الهضيم الرطب اللين وقال
الضحاك إذا كثر حمل الثمرة وركب
بعضها بعضا فهو هضيم وقال مرة
هو الطلع حين يتفرق ويخضر
وقال الحسن البصري هو الذي
لا نوى له وقال أبو صخر ما رأيت
الطلع حين يشق عنه الكم فترى
الطلع قد لصق بعضه ببعض فهو
الهضيم وقوله وتنحتون من الجبال
بيوتا فارهين قال ابن عباس وغير
واحد يعني حاذقين وفي رواية عنه شرهين أشرين وهو اختيار مجاهد وجماعة ولا منافاة بينهما فإنهم كانوا
يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكناها وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو
المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ولهذا قال فاتقوا الله وأطيعون أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من
عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض
ولا يصلحون يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق (قالوا إنما أنت من المسحرين ما أنت

وفي آخرهما حين علموا وحين يعلمون والمعنى أن كلا من كونهم مغلوبين أولا وغالبين آخرا
ليس إلا بأمر الله تعالى وقضائه وتلك الأيام نداولها بين الناس انتهى قرئ بضم الظرفين
لكونهما مقطوعين عن الإضافة أي من قبل الغلب ومن بعده أو من قبل كل أمر وبعده
قال الزجاج معنى الآية من متقدم ومن متأخر وحكى الكسائي من قبل ومن بعد بكسر
الأول منونا وضم الثاني بلا تنوين وحكى الفراء بكسرهما من غير تنوين وغلطه
النحاس وقال إنما يجوز من قبل ومن بعد مكسورا منونا وقد قرئ بذلك ووجهه أنه لم ينو إضافتهما
فأعربهما وقال شهاب الدين وقد قرئ بكسرهما منونين (ويومئذ) أي يوم أن تغلب
الروم على فارس ويحل ما وعده الله من غلبتهم (يفرح المؤمنون بنصر الله) للروم على
فارس لكونهم أهل كتاب كما أن المسلمين أهل كتاب بخلاف فارس فإنهم لا كتاب لهم ولهذا
سر المشركون بنصرهم على الروم وقيل نصر الله هو إظهار صدق المؤمنين فيما أخبروا به
المشركين من غلبة الروم على فارس والأول أولى قال الزجاج هذه الآية من الآيات التي
تدل على أن القرآن من عند الله لأنه أنبأ بما سيكون وهذا لا يعلمه إلا الله سبحانه (ينصر من
يشاء) أي ينصره (وهو العزيز) الغالب القاهر (الرحيم) الكثير الرحمة لعباده
المؤمنين وقيل المراد بالرحمة هنا الدنيوية وهي شاملة للمسلم والكافر (وعد الله لا يخلف الله
وعده) أي وعد الله وعدا لا يخلفه وهو ظهور الروم على فارس (ولكن أكثر الناس
لا يعلمون) بجهلهم وعدم تفكرهم أن الله لا يخلف وعده وهم الكفار وقيل كفار مكة على
الخصوص نفى عنهم العلم النافع للآخرة وقد أثبت لهم العلم بأحوال الدنيا فقال (يعلمون)
بدل من لا يعلمون وهذا أحسن من قول الحوفي إنها مستأنفة من حيث المعنى إلا أن
الصناعة لا تساعد عليه لأن بدل فعل مثبت من فعل منفي لا يصح والضمير للأكثر وكذا
يقال فيما بعده وفيه بيان أنه لا فرق بين عدم العلم الذي هو الجهل وبين وجود العلم الذي
لا يتجاوز عن تحصيل الدنيا (ظاهرا من الحياة الدنيا) أي ظاهر ما يشاهدونه من زخارف
الدنيا وملاذها وأمر معاشهم وأسباب تحصيل فوائدهم الدنيوية وقيل هو ما تلقيه
الشياطين إليهم من أمور الدنيا عند استراقهم السمع وقيل الظاهر الباطل وقيل يعني
معايشهم كيف يكتسبون ويتجرون ومتى يغرسون ومتى يزرعون ومتى يحصدون قال
الحسن إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه لا يخطئ وهو لا يحسن يصلي
وقيل

الابشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة * لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب
يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم)
يقول تعالى مخبرا عن ثمود وجوابهم لنبيهم صالح عليه السلام حين دعاهم الى عبادة ربهم عز وجل انهم قالوا انما أنت من المسحرين
قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين وروى أبو صالح عن ابن عباس من المسحرين يعني من المخلوقين واستشهد بعضهم
على هذا بقول الشاعر

فان تسألينا فيم نحن فاننا * عصافير من هذا الانام مسحر

يعني الذين لهم سحر والسحر الرئة والاظهر في هذا قول مجاهد وقتادة انهم يقولون انما أنت في قولك هذا مسحور لاعقل لك ثم قالوا ما أنت الابشر مثلنا يعني فكيف أوحي اليك دوننا كما قالوا في الآية الاخرى أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر سيعلمون غدا من الكذاب الاشر ثم انهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء وأشاروا الى صخرة عندهم من صفتها كذا وكذا فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل ان يجيبهم الى سؤالهم فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا اليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها فآمن بعضهم وكفر أكثرهم قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم يعني ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فحذرهم نقمة الله ان أصابوها بسوء فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم شربا وريا فلما طال عليهم الامد وحضر أشقاهم تمالؤا على قتلها وعقرها فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب وهو ان أرضهم زلزلت زلزالا شديدا وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها وأتاهم من الامر ما لم يكونوا يحتسبون وأصبحوا في دارهم جاثمين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط الا تتقون اني

وقيل يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وقيل لا يعلمون الدنيا بحقيقتها انما يعلمون ظاهرها وهو ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهو مضارها ومتاعبها وافادت الآية الكريمة ان للدنيا ظاهرا وباطنا فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها وباطنها انها مجاز الى الآخرة يتزود منها اليها بالطاعة وبالاعمال الصالحة وتنكير الظاهر يفيد انهم لا يعلمون الا ظاهرا واحدا من جملة ظواهرها (وهم عن الآخرة) التي هي النعمة الدائمة واللذة الخالصة (هم غافلون) لا يلتفتون اليها ولا يعدون لها ما تحتاج اليه أو غافلون عن الايمان بها والتصديق بمجيئها وفيه انهم معدن الغفلة عن الآخرة ومقرها واعادة لفظ هم الثانية للتأكيد (أولم يتفكروا) الهمزة للانكار عليهم والواو للعطف على مقدر كما في نظائره (في أنفسهم) ظرف للتفكر وليس مفعولا للتفكر والمعنى ان أسباب التفكر حاصلة لهم وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي لعلموا وحدانيته تعالى وصدق أنبيائه وقيل انها مفعول التفكر والمعنى أولم يتفكروا في خلق الله اياهم ولم يكونوا شيأ والاول أولى لان المعنى أولم يتفكروا في قلوبهم الفارغة من الفكر التي هي أقرب اليهم من غيرها من المخلوقات وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله ظاهرا وباطنا من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الاهمال وانه لابد لها من الانتهاء الى وقت يجازي فيه على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك ان سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة في التدبير وانه لابد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) متعلق بالقول المحذوف معناه أولم يتفكروا فيقولوا هذا القول وقيل معناه فيعلموا لان في الكلام دليلا عليه وما في ما خلق نافية اي لم يخلقها (الا بالحق) الثابت الذي يحق ثبوته أو هي اسم في محل نصب على اسقاط الخافض أي بما خلق الله ويضعف ان تكون استفهامية بمعنى النفي والباء السببية أو هي ومجرورها في محل النصب على الحال أي متلبسة بالحق قال الفراء معناه الا للحق اي للثواب والعقاب وقيل بالحق بالعدل وقيل بالحكمة وقيل انه هو الحق وللحق خلقها (وأجل مسمى) للسموات والارض وما بينهما تنتهي اليه وهو يوم القيامة وفي هذا تنبيه على الفناء وان لكل مخلوق أجلا لا يجاوزه وقيل معناه انه خلق ما خلق في وقت سماه لخلق ذلك الشيء (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم) أي بالبعث بعد الموت (لكافرون)

لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله
لوط عليه السلام وهو لوط بن هاران بن آزر وهو ابن أخي ابراهيم الخليل عليه السلام وكان الله تعالى قد بعثه الى أمة عظيمة
في حياة ابراهيم عليهما السلام وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهي
مشهورة ببلاد الغور ناحية جبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك فدعاهم الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده
لا شريك له وان يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله اليهم ونهاهم عن معصية الله وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه
في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق الى فعله من اتيان الذكور دون الاناث ولهذا قال تعالى (أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال اني لعملكم من القالين رب نجني وأهلي مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش وغشيانهم الذكور وأرشدهم الى اتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان جوابهم له الا ان قالوا لئن لم تنته يا لوط أي عما جئتنا به لتكونن من المخرجين أي ننفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فلما رأى انهم لا يرتدعون عما هم فيه وانهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال اني لعملكم من القالين أي المبغضين لا أحبه ولا أرضى به واني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال رب نجني وأهلي مما يعملون قال الله تعالى فنجيناه وأهله أجمعين أي كلهم الا عجوزا في الغابرين وهي امرأته وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الاعراف وهود وكذا في الحجر حين أمره الله ان يسري بأهله الا امرأته وانهم لا يلتفتوا اذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه فصبروا لامر الله واستمروا وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك الآية ولهذا قال تعالى ثم دمرنا الآخرين

والفاعل

واللام هي المؤكدة والمراد هؤلاء الكفار على الاطلاق أو كفار مكة (أولم يسيروا في الارض فينظروا) الاستفهام للتقريع والتوبيخ لعدم تفكرهم في الآثار وتأملهم لمواقع الاعتبار والمعنى انهم قد ساروا وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من طوائف الكفار والامم الذين أهلكوا بسبب كفرهم بالله وجحودهم للحق وتكذيبهم للرسل (كانوا أشد منهم قوة) كعاد وثمود وجملة مبينة للكيفية التي كانوا عليها وانهم أقدر من كفار مكة ومن تابعهم على الامور الدنيوية وقال ابن عمر كان الرجل ممن كان قبلكم بين منكبيه ميل أخرجه ابن مردويه (وأثاروا الارض) أي حرثوها وقلبوها للزراعة وزاولوا أسباب ذلك ولم يكن أهل مكة أهل حرث (وعمروها) عمارة (أكثر مما عمروها) لان أولئك كانوا أطول منهم أعمارا وأقوى أجساما وأكثر تحصيلا لاسباب المعاش فعمروا الارض بالابنية والزراعة والغرس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) اي المعجزات والحجج الظاهرات وقيل بالاحكام الشرعية (فما كان الله ليظلمهم) فيعذبهم على غير ذنب واهلاكهم بغير جرم (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالكفر والتكذيب للرسل (ثم كان عاقبة الذين أساؤوا) اي عملوا السيئات من الشرك والمعاصي (السوأى) هي فعلى من السوء تأنيث الاسوأ وهو الاقبح أي كان عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وقيل هي اسم لجهنم كما ان الحسنى اسم للجنة أو مصدر كالبشرى والذكرى وصفت به العقوبة مبالغة وقرئ عاقبة بالرفع على انها اسم كان والخبر السوأى أي الفعلة أو الخصلة او العقوبة السوأى ومن القائلين بان السوأى جهنم الفراء والزجاج وابن قتيبة وأكثر المفسرين وسميت سوأى لانها تسوء صاحبها (أن كذبوا) أي لان كذبوا (بآيات الله) التي أنزلها على رسوله أو بان كذبوا قال الزجاج المعنى ثم كان عاقبة الذين أشركوا تكذيبهم بآيات الله واستهزاؤهم بها (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه في حكم العلة او في حكم الاسمية لكان او الخبرية لها (الله يبدأ الخلق ثم يعيده) اي يخلقهم اولا ثم يعيدهم بعد الموت أحياء كما كانوا (ثم اليه ترجعون) اي الى موقف الحساب فيجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وافرد الضمير في يعيده اعتبارا للفظ الخلق وجمعه في ترجعون باعتبار معناه وقرئ يرجعون بالتحتية والفوقية على الخطاب والالتفات المؤذن بالمبالغة (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) قرئ يبلس على البناء

وأمطرنا عليهم مطرا الى قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم. (كذب أصحاب الأيكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين) هؤلاء يعنى أصحاب الايكة هم أهل مدين على الصحيح وكان نبى الله شعيب من أنفسهم وانما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لانهم نسبوا الى عبادة الايكة وهى شجرة وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها فلهذا لما قال كذب أصحاب الايكة المرسلين لم يقل اذ قال لهم أخوهم شعيب وانما قال اذ قال لهم شعيب فقطع نسب الاخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا اليه وان كان أخاهم نسبا ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن ان أصحاب الايكة غير أهل مدين فزعم ان شعيبا عليه السلام بعثه الله الى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم وقد روى اسحق بن بشر الكاهلى وهو ضعيف حدثنى ابن السدى عن أبيه وزكريا بن عمرو عن خصيف عن عكرمة قالا مابعث الله نبيا مرتين الا شعيبا مرة الى مدين فأخذهم الله بالصيحة ومرة الى أصحاب الايكة فأخذهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة وروى أبو القاسم البغوى عن هدبة عن همام عن قتادة فى قوله تعالى وأصحاب الرس قوم شعيب وقوله وأصحاب الايكة قوم شعيب وقاله اسحق بن بشر وقال غير جويبر أصحاب الايكة ومدين هما واحد والله أعلم، وقد روى الحافظ بن عساكر فى ترجمة شعيب من طريق محمد بن عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن معاوية بن هشام عن هشام بن سعيد عن سعيد بن أبى هلال عن ربيعة بن يوسف عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قوم مدين وأصحاب الايكة أمتان بعث الله اليهما شعيبا النبى عليه السلام وهذا غريب وفى رفعه نظر والاشبه ان يكون موقوفا والصحيح انهم أمة واحدة وصفوا فى كل مقام بشئ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على انهما أمة واحدة (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين) يأمرهم عليه السلام بايفاء المكيال والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين أى اذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصا وتأخذوه اذا كان لكم تاما وافيا ولكن خذوا كما تعطون

للفاعل يقال أبلس الرجل اذا سكت وانقطعت حجته فهو قاصر لا يتعدى قال الفراء والزجاج المبلس الساكت المنقطع فى حجته الذى أيس ان يهتدى اليها وقرئ مبنيا للمفعول وفيه بعد لان أبلس لا يتعدى وقال الكلبى أى ييأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب وقد قدمنا تفسير الابلاس عند قوله فاذا هم مبلسون وقال ابن عباس يبلس يبتئس وعنه يكتئب وعنه الابلاس الفضيحة (ولم يكن لهم) أى لا يكون للمشركين يوم تقوم الساعة (من شركائهم) الذين عبدوهم من دون الله وأشركوهم وهم الاصنام ليشفعوا لهم (شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله (وكانوا) فى ذلك الوقت (بشركائهم) أى بآلهتهم الذين جعلوهم شركاء لله (كافرين) أى جاحدين لكونهم آلهة لانهم علموا اذ ذاك انهم لا ينفعون ولا يضرون وقيل ان معنى الآية كانوا كافرين فى الدنيا بسبب عبادتهم والاول أولى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى يتفرق جميع الخلق المدلول عليهم بقوله الله يبدأ الخلق والمراد بالتفرق ان كل طائفة تنفرد فالمؤمنون يصيرون الى الجنة والكافرون الى النار وليس المراد تفرق كل فرد منهم عن الآخر ومثله قوله فريق فى الجنة وفريق فى السعير وذلك بعد تمام الحساب فلا يجتمعون أبدا ثم بين الله سبحانه كيفية تفرقهم فقال (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال النحاس سمعت الزجاج يقول معنى أما دع ما كنا فيه وخذ فى غيره وكذا قال سيبويه ان معناها مهما يكن من شئ فخذ فى غير ما كنا فيه (فهم فى روضة) الروضة كل ارض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وقيل البستان الذى هو فى غاية النضارة قال المفسرون والمراد بها هنا الجنة والتنكير للابهام امرها وتفخيم شأنها قال ابو عبيد الروضة ما كان فى سفل فاذا كان مرتفعا فهو ترعة وقال غيره أحسن ما تكون الروضة اذا كانت فى مكان مرتفع (يحبرون) الحبور والحبرة السرور أى فهم فى رياض الجنة ينعمون وقال ابن عباس يحبرون يكرمون وقال النحاس حكى الكسائى حبرته اى أكرمته ونعمته وقيل يصلون والاولى تفسير يحبرون بالسرور كما هو المعنى العربى ونفس دخول الجنة يستلزم الاكرام والنعيم وفى السرور زيادة على ذلك وقيل التحبير التحسين فمعنى يحبرون يحسن اليهم وقيل هو السماع الذى يسمعون فى الجنة وقيل غير ذلك والراجح ما ذكرناه واخرج الديلمى عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا كان يوم القيامة قال الله اين الذين كانوا ينزهون اسماعهم

وأعطوا كما تأخذون وزنوا بالقسطاس المستقيم والقسطاس هو الميزان وقيل هو القبان قال بعضهم هو معرب من الرومية قال مجاهد القسطاس المستقيم هو العدل بالرومية وقال قتادة القسطاس العدل وقوله ولا تبخسوا الناس أشياءهم أي لا تنقصوهم أموالهم ولا تعثوا في الارض مفسدين يعني قطع الطريق كما قال في الآية الاخرى ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وقوله واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الاوائل كما قال موسى عليه السلام ربكم ورب آبائكم الاولين قال ابن عباس ومجاهد والسدي وسفيان بن عيينة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والجبلة الاولين يقول خلق الاولين وقرأ ابن زيد ولقد أضل منكم جبلا كثيرا (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربي أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا انما أنت من المسحرين يعني من المسحورين كما تقدم وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين أي نتعمد الكذب فيما تقوله لا أن الله أرسلك الينا فأسقط علينا كسفا من السماء قال الضحاك جانبا من السماء وقال قتادة قطعا من السماء وقال السدي عذابا من السماء وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى أن قالوا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا وقوله واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية وهكذا قال هؤلاء الكفار الجهلة فأسقط علينا كسفا من السماء الآية قال ربي أعلم بما تعملون يقول الله أعلم بكم فان كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم وهكذا وقع بهم جزاء كما سألوا جزاء وفاقا ولهذا قال تعالى فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وهذا من جنس ما سألوه من اسقاط الكسف عليهم فان الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يكنهم منه شيء ثم أقبلت اليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون

وابصارهم عن مزامير الشيطان مروهم فيميرون في كثب المسك والعنبر ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحي وتحميدي وتهليلي قال فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط وعن مجاهد قال ينادي مناد يوم القيامة وذكر نحوه وعن ابن عباس قال السيوطي بسند صحيح في الجنة شجر على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مائة عام فيخرج اهل الجنة اهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا وعن أبي هريرة مرفوعا نحوه اخرجه الحكيم الترمذي في النوادر (واما الذين كفروا) بالله (وكذبوا بآياتنا) اي القرآن (ولقاء الآخرة) اي البعث والجنة والنار (فأولئك) المتصفون بهذه الصفات (في العذاب محضرون) اي مقيمون فيه لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم كقوله وما هم بخارجين منها وقيل مجموعون وقيل نازلون وقيل معذبون والمعاني متقاربة والمراد دوام عذابهم ثم لما بين عاقبة طائفة المؤمنين وطائفة الكافرين ارشد المؤمنين الى ما فيه الاجر الوافر والخير العام فقال (فسبحان الله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي فاذا علمتم ذلك فسبحوا الله اي نزهوه عما لا يليق به وصفوه بصفات الكمال وهذا أولى وقيل صلوا كما سيأتي (حين تمسون وحين تصبحون) اي في وقت الصباح والمساء وفي العشي وفي وقت الظهيرة وعلى ان المراد بالتسبيح هنا الصلوات الخمس فقوله حين تمسون صلاة المغرب والعشاء وقوله حين تصبحون صلاة الفجر (وله الحمد في السموات والارض) معترضة مسوقة للارشاد الى الحمد والايذان بمشروعية الجمع بينه وبين التسبيح كما في قوله سبحانه فسبح بحمد ربك وقوله ونحن نسبح بحمدك وقيل معنى وله الحمد الاختصاص له بالصلاة التي يقرأ فيها الحمد والاول أولى (وعشيا) عطف على حين وفيه صلاة العصر والعشي من صلاة المغرب الى العتمة قاله الجوهري وقال قوم هو من زوال الشمس الى طلوع الفجر اي الحمد له يكون في السموات والارض (وحين تظهرون) اي تصلون صلاة الظهر كذا قال الضحاك وسعيد ابن جبير وغيرهما قال الواحدي قال المفسرون ان معنى فسبحان الله فصلوا لله قال النحاس أهل التفسير على ان هذه الآية في الصلوات الخمس قال وسمعت محمد بن يزيد يقول حقيقته عندي فسبحوا الله في الصلوات لان التسبيح يكون في الصلاة وقال ابن عباس كل تسبيح في القرآن فهو صلاة وعنه قال جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة

فسبحان

فسبحان الله حين تمسون المغرب والعشاء وحين تصبحون الفجر وعشيا العصر وحين تظهرون الظهر وقد وردت أحاديث صحاح في فضل التسبيح وثواب المسبح وأخرج أحمد وابن السني والطبراني وغيرهم عن معاذ بن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذي وفى لانه كان يقول كلما أصبح وأمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد الآية وفي اسناده ابن لهيعة وأخرج أبو داود والطبراني وابن السني وغيرهم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال حين يصبح سبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ادرك مافاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك مافاته في ليلته واسناده ضعيف (يخرج الحي من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة والمؤمن من الكافر (ويخرج الميت من الحي) كالنطفة والبيضة من الانسان والطير والكافر من المؤمن وقد سبق بيان هذا في سورة آل عمران قيل ووجه تعلق هذه الآية بالتي قبلها ان الانسان عند الصباح يخرج من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج من اليقظة الى النوم (ويحيي الارض) بالنبات (بعد موتها) باليباس وهو شبيه باخراج الحي من الميت (وكذلك) الاخراج (تخرجون) من قبوركم قرئ على البناء للمفعول والفاعل فأسند الخروج اليهم كقوله يخرجون من الاجداث والمعنى ان الابداء والاعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على اخراج الميت من الحي وعكسه (ومن آياته) الباهرة الدالة على البعث وذكر لفظ من آياته ست مرات تنتهي عند قوله اذا أنتم تخرجون ذكر فيها بدء خلق الانسان آية آية الى حين بعثه من القبور وختم هذه الآية بقيام السموات والارض لكونه من العوارض اللازمة لان كلا من السماء والارض لا يخرج عن مكانه فيتعجب من وقوف الارض وعدم نزولها ومن علو السماء وثباتها بغير عمد ثم أتبع ذلك بالنشأة الآخرة وهي الخروج من الارض وذكر من الانفس أمرين خلقكم وخلق لكم من أنفسكم وذكر من الآفاق السماء والارض وذكر من لوازم الانسان اختلاف الالسنة واختلاف اللون وذكر من عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البرق والمطر ومن لوازمهما قيام السماء وقيام الارض كذا في النهر فجملة ما يتعلق بالنوع الانساني ستة أشياء اثنان أصول واثنان لوازم واثنان عوارض وستة متعلقة بالآفاق اثنان أصول واثنان لوازم

اليها يستظلون بظلها من الحر فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررا من نار ولهبا ووهجا عظيما ورجفت بهم الارض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ولهذا قال تعالى انه كان عذاب يوم عظيم وقد ذكر الله تعالى صفة اهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق ففي الاعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين وذلك لانهم قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه فأخذتهم الرجفة وفي سورة هود قال فأخذتهم الصيحة وذلك لانهم استهزؤا بنبي الله في قولهم أصلواتك تأمرك ان نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء انك لانت الحليم الرشيد قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء فناسب ان يأتيهم صيحة تسكتهم فقال فأخذتهم الصيحة الآية وههنا قالوا فأسقط علينا كسفا من السماء الآية على وجه التعنت والعناد فناسب ان يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم قال قتادة قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه ان الله سلط عليهم الحر سبعة أيام حتى ما يظلهم منه شئ ثم ان الله تعالى أنشأ لهم سحابة فانطلق اليها أحدهم فاستظل بها فأصاب تحتها بردا وراحة فأعلم بذلك قومه فأتوها جميعا فاستظلوا تحتها فأججت عليهم نارا وهكذا روى عن عكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم بعث الله اليهم الظلة حتى اذا اجتمعوا كلهم كشف الله عنهم الظلة وأحمى عليهم الشمس فاحترقوا كما يحترق الجراد في المقلى وقال محمد ابن كعب القرظي ان أهل مدين عذبوا بثلاثة أصناف من العذاب

 أخذتهم الرجفة في دارهم حتى خرجوا منها فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد ففرقوا أن يدخلوا الى البيوت فتسقط عليهم فأرسل الله عليهم الظلة فدخل تحتها رجل فقال ما رأيت كاليوم ظلا لا أطيب ولا أبرد من هذا هلموا أيها الناس فدخلوا جميعا تحت الظلة فصاح بهم صيحة واحدة فماتوا جميعا ثم تلا محمد بن كعب فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم وقال محمد بن جرير حدثني الحرث حدثني الحسن حدثني سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد حدثنا حاتم بن أبي صفيرة حدثني يزيد الباهلي سألت ابن عباس عن هذه الآية فأخذهم عذاب يوم الظلة الآية قال بعث الله عليهم رعدة وحرا شديدا فأخذ بأنفاسهم

تخربوا من البيوت هرابا الى البرية فبعث الله عليهم سحابة فأظلتهم من الشمس فوجدوا لها بردا ولذة فنادى بعضهم بعضا حتى اذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم نارا قال ابن عباس فذلك عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم أى العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين) يقول تعالى مخبرا عن الكتاب الذى أنزله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وانه أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الآية لتنزيل رب العالمين أى انزله الله عليك وأوحاه اليك نزل به الروح الامين وهو جبريل عليه السلام قاله غير واحد من السلف ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج وهذا مما لا نزاع فيه قال الزهرى وهذه كقوله قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وقال مجاهد من كلمه الروح الامين لا تأكله الارض على قلبك لتكون من المنذرين اى نزل به ملك كريم ذو مكانة عند الله مطاع فى الملا الاعلى على قلبك يا محمد سالما من الدنس والزيادة والنقص من المنذرين اى لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه وتبشر به المؤمنين المتبعين له وقوله تعالى بلسان عربى مبين أى هذا القرآن الذى أنزلناه اليك أنزلناه باللسان العربى الفصيح الكامل الشامل ليكون بينا واضحا ظاهرا قاطعا للعذر مقيما للحجة دليلا الى المحجة قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن ابى بكر العتكى حدثنا عباد بن عباد المهلبى عن موسى بن محمد عن ابراهيم التيمى عن أبيه قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه فى يوم دجن اذ قال لهم كيف ترون بواسقها قالوا ما أحسنها وأشد تراكمها قال فكيف ترون قواعدها قالوا ما أحسنها وأشد تمكنها قال فكيف ترون جريها قالوا ما أحسنه وأشد سواده قال فكيف ترون رحاها استدارت قالوا ما أحسنها وأشد استدارتها قال فكيف ترون برقها أومض أم خفق أم يشق شقا قالوا بل يشق شقا قال الحياء الحياء ان شاء الله قال فقال رجل يا رسول الله بأبى وأمى ما أفصحك ما رأيت الذى هو أعرب منك قال فقال حق لى وانما انزل القرآن بلسانى والله يقول بلسان عربى مبين وقال سفيان الثورى لم ينزل

الارض

وانسان عوارض (أن خلقكم) أى خلق أباكم آدم (من تراب) وخلقكم فى ضمن خلقه لان الفرع مستمد من الاصل ومأخوذ منه وقد مضى تفسير هذا فى الانعام (ثم اذا أنتم بشر) الترتيب والمهلة هنا ظاهران فانهم انما يصيرون بشرا بعد أطوار كثيرة واذا هى الفجائية وان كانت أكثر ما تقع بعد الفاء لكنها وقعت هنا بعد ثم بالنسبة الى ما يليق بهذه الحالة الخاصة وهى أطوار الانسان كما حكاه الله فى مواضع من كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما مكسوا لحما فاجأ البشرية والانتشار (تنتشرون) أى تنصرفون فيما هو قوام معايشكم وتنبسطون فى الارض (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم) أى من جنسكم فى البشرية والانسانية (أزواجا) وقيل المراد حواء فانه خلقها من ضلع آدم والنساء بعدها خلقن من أصلاب الرجال ونطف النساء (لتسكنوا) أى تألفوا وتميلوا (اليها) أى الى الازواج فان الجنسين المختلفين لا يسكن أحدهما الى الآخر ولا يميل قلبه اليه (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى ودادا وتراحما بسبب عصمة النكاح يعطف به بعضكم على بعض من غير أن يكون بينكم من قبل ذلك معرفة فضلا عن مودة ورحمة وقال مجاهد المودة الجماع والرحمة الولد وبه قال الحسن وابن عباس وقال السدى المودة المحبة والرحمة الشفقة وقيل المودة حب الرجل امرأته والرحمة رحمته اياها من أن يصيبها بسوء وقيل المودة للشابة والرحمة للعجوز وقيل المودة والرحمة من الله والفرك من الشيطان أى بغض المرأة زوجها وبغض الزوج المرأة (ان فى ذلك) المذكور سابقا (لآيات) عظيمة الشأن بديعة البيان واضحة البرهان على قدرته سبحانه على البعث والنشور (لقوم يتفكرون) ان قوام الدنيا بوجود التناسل لانهم الذين يقتدرون على الاستدلال لكون التفكر مادة له يتحصل عنه أولا ان الفكر يؤدى الى الوقوف على المعانى المطلوبة من التأنس والتجانس بين الاشياء كالزوجين وأما الغافلون عن التفكر فما هم الا كالانعام (ومن آياته) الدالة على أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) فان من خلق هذه الاجرام العظيمة بلا مادة مساعدة لها وجعلها باقية مادامت هذه الدار وخلق فيها من عجائب الصنع وغرائب التكوين ما هو عبرة للمعتبرين قادر على ان يخلقكم بعد موتكم وينشركم من قبوركم وقدم السماء على الارض لان السماء كالذكر فنزول المطر من السماء على الارض كنزول المنى من الذكر فى المرأة لان

الارض تنبت وتخضر بالمطر (واختلاف ألسنتكم) أى لغاتكم من عرب وعجم وترك وروم وغير ذلك بان علم كل صنف لغته أو ألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس النطق وأشكاله فانك لا تكاد تسمع متكلمين متساويين فى الكيفية من كل وجه (وألوانكم) من البياض والسواد والحمرة والصفرة والشقرة والزرقة والخضرة مع كونكم أولاد رجل واحد وأم واحدة ويجمعكم نوع واحد وهو الانسانية وفصل واحد وهو الناطقية حتى صرتم متميزين فى ذات بينكم لا يلتبس هذا بهذا بل فى كل فرد من افرادكم ما يميزه عن غيره من الافراد حتى ان التوأمين مع توافق موادهما واسبابهما والامور الملاقية لهما فى التخليق يختلفان فى شئ من ذلك لا محالة وان كانا فى غاية التشابه وفى هذا من بديع القدرة ما لا يعقله الا العالمون ولا يفهمه الا المتفكرون ولو اتفقت الاصوات والصور وتشاكلت وكانت ضربا واحدا لوقع التجاهل والالتباس ولتعطلت مصالح كثيرة ولم يعرف العدو من الصديق ولا القريب من البعيد فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد وانما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات الانفسية الحقيقة بالانتظام فى سلك ما سبق من خلق أنفسهم وأزواجهم للايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان فى ذلك لآيات) لدلالات على قدرته تعالى (للعالمين) لعموم العلم فيهم قرئ بكسر اللام وبفتحها وهما سبعيتان وقال الفراء الكسر وجه جيد لانه قد قال لآيات لقوم يعقلون لآيات لاولى الالباب وما يعقلها الا العالمون (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) قيل فى الكلام تقديم وتأخير والتقدير ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار وقيل المعنى صحيح من دون تقديم وتأخير أى ومن آياته العظيمة انكم تنامون بالليل وتنامون بالنهار فى بعض الاحوال للاستراحة كوقت القيلولة والنوم بالنهار مما كانت العرب تعده نعمة من الله ولاسيما فى البلاد الحارة وابتغاؤكم من فضله فيهما فان كل واحد منهما يقع فيه ذلك وان كان ابتغاء الفضل فى النهار أكثر والاول هو المناسب لسائر الآيات الواردة فى هذا المعنى والآخر هو المناسب للنظم القرآنى ههنا ووجه ذكر النوم والابتغاء ههنا وجعلهما من جملة الادلة على البعث ان النوم شبيه بالموت والتصرف فى الحاجات والسعى فى المكاسب شبيه بالحياة بعد الموت (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) الآيات

وفى الا بالعربية ثم ترجم كل نبى لقومه واللسان يوم القيامة بالسريانية فمن دخل الجنة تكلم بالعربية رواه ابن أبى حاتم (وانه لفى زبر الاولين أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين) يقول تعالى وان ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الاولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود وقال الله تعالى وكل شئ فعلوه فى الزبر أى مكتوب عليهم فى صحف الملائكة ثم قال تعالى أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل أى أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك ان العلماء من بنى اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى عمن أدركه منهم ومن شاكلهم قال الله تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الامى الآية ثم قال تعالى مخبرا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن انه لو نزل على رجل من الاعاجم ممن لا يدرى من العربية كلمة وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به ولهذا قال ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين كما أخبر عنهم فى الآية الاخرى ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا الآية وقال تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى الآية وقال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون الآية (كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) يقول تعالى كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أى أدخلناه فى قلوب المجرمين لا يؤمنون به أى بالحق حتى يروا العذاب الاليم أى حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار فيأتيهم بغتة أى عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون

؛ قوله اهل نحن منظرون أي مؤخرون حين يشاهدون العذاب أي لو أنظروا قليلا ليعملوا في زعمهم بطاعة الله كما قال الله تعالى وأنذر
الناس يوم يأتيهم العذاب الى قوله ما لكم من زوال فكل ظالم وفاجر وكافر اذا شاهد عقوبته ندم ندما شديدا هذا فرعون لما دعا عليه
الكليم بقوله ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا الى قوله قال قد أجيبت دعوتكما فأثرت هذه الدعوة في فرعون
فما آمن حتى رأى العذاب الاليم حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو اسرائيل الى قوله وكنت من المفسدين
وقال تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده الآيات وقوله تعالى أفبعذابنا يستعجلون انكار عليهم وتهديد لهم

والمواعظ سماع متفكر متدبر بآذان واعية فيستدلون بذلك على البعث (ومن آياته
يريكم البرق) المعنى ان يريكم ومنه المثل المشهور تسمع بالمعيدي خير من أن تراه وقيل
ويريكم البرق من آياته وقيل من آياته آية يريكم بها وفيها البرق وقيل التقدير ومن آياته
سحاب يريكم البرق (خوفا وطمعا) من آياته قال قتادة خوفا للمسافر وطمعا للمقيم وقال
الضحاك خوفا من الصواعق وطمعا في الغيث وقال يحيى بن سلام خوفا أن يكون البرق
برقا خلبا لا يمطر وطمعا أن يكون ممطرا (وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها)
بالنبات بأن تنبت (ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فان من له نصيب من العقل يعلم ان
ذلك آية يستدل بها على القدرة الباهرة كيف والعقل ملاك الامر وهو المؤدي الى العلم
فيما ذكر وغيره وانما قال هنا يعقلون وفيما تقدم يتفكرون لانه لما كان حدوث الولد
من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتطرق الى الاوهام القاصرة ان ذلك
بالطبيعة لان المطرد أقرب الى الطبيعة من المختلف والبرق والمطر ليس أمرا مطردا غير
مختلف بل يختلف اذ يقع ببلدة دون بلدة وفي وقت دون وقت وتارة يكون قويا وتارة يكون
ضعيفا فهو أظهر في العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل وان لم يتفكر
تفكرا تاما قاله الكرخي (ومن آياته أن تقوم السماء والارض) هذا شروع في بيان
بقائهما وثباتهما بعد بيان ايجادهما في قوله ومن آياته خلق السموات والارض وأظهر كلمه
أن هنا التي هي علم الاستقبال لان القيام هنا بمعنى البقاء لا الايجاد وهو مستقبل باعتبار
أواخره وما بعد نزول هذه الآيات (بأمره) أي قيامهما واستمساكهما بارادته سبحانه
وقدرته بلا عمد يعمدهما ولا مستقر يستقران عليه قال الفراء يقول ان تدوما قائمتين
بأمره واعاد ذكر قوله ان في ذلك لآيات في أربع مواضع ولم يذكره في الاول وهو قوله
ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا في الاخيرة وهي هذه لان في الاول خلق الانس وخلق
الازواج من باب واحد وهو الايجاد فاكتفى فيهما بذكره مرة واحدة وأما قيام السموات
والارض الذي هو الاخير فلان في الآيات السماوية ذكر أنها آيات للعالمين ولقوم يسمعون
ولقوم يعقلون لظهورها فلما كان في أول الامر ظاهرا ففي آخر الامر بعد سرد الدلائل
يكون أظهر فلم يخص أحدا دون أحد بذكر ما هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة قاله الرازي

فانهم كانوا يقولون للرسول تكذيبا واستبعادا ائتنا بعذاب الله كما قال تعالى ويستعجلونك بالعذاب الآيات ثم قال أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحينا من الزمان وان طال ثم جاءهم أمر الله أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وقال تعالى يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر وقال تعالى وما يغني عنه ماله اذا تردى ولهذا قال تعالى ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وفي الحديث الصحيح يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة ثم يقال له هل رأيت خيرا قط هل رأيت نعيما قط فيقول لا والله يارب ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان في الدنيا فيصبغ في الجنة صبغة ثم يقال له هل رأيت بؤسا قط فيقول لا والله يارب أي ما كان شيأ كان ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة * اذا أنت أدركت الذي أنت تطلب ثم قال تعالى مخبرا عن عدله في خلقه انه ما أهلك أمة من الامم (ثم)
الا بعد الاعذار اليهم والانذار لهم وبعثة الرسل اليهم وقيام الحجة عليهم ولهذا قال تعالى وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى
وما كنا ظالمين كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال تعالى وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم
آياتنا الى قوله وأهلها ظالمون (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون) يقول تعالى مخبرا عن
كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد انه نزل به الروح الامين المؤيد من الله وما تنزلت به

الشياطين ثم ذكر أنه يمتنع عليهم ذلك من ثلاثة أوجه أحدها انه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم لان من سجاياهم الفساد واضلال العباد وهذا فيه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ونور وهدى وبرهان عظيم فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ولهذا قال تعالى وما ينبغي لهم وقوله تعالى وما يستطيعون أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك قال الله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا الى ذلك لانهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله لان السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا في مدة انزال القرآن على رسول الله فلم يخلص أحد من الشياطين الى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه الامر وهذا من رحمة الله بعباده وحفظه لشرعه وتأييده لكتابه ولرسوله ولهذا قال تعالى انهم عن السمع لمعزولون كما قال تعالى مخبرا عن الجن وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا الى قوله أم أراد بهم ربهم رشدا (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين وأنذر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين انه هو السميع العليم) يقول تعالى آمرا بعبادته وحده لا شريك له ومخبرا أن من أشرك به عذبه ثم قال تعالى آمرا الرسول صلى الله عليه وسلم ان ينذر عشيرته الاقربين أي الادنين اليه وانه لا يخلص أحدا منهم الا ايمانه بربه عزوجل وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ولهذا قال تعالى فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال تعالى لتنذر أم القرى ومن حولها وقال تعالى وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم وقال تعالى لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا وقال تعالى لأنذركم به ومن بلغ كما قال تعالى ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وفي صحيح مسلم والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها الحديث الاول قال الامام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الله بن نمير عن الاعمش

(ثم) أي بعد موتكم ومصيركم في القبور (اذا دعاكم دعوة) واحدة (من الارض) التي أنتم فيها كما يقال دعوته من أسفل الوادي فطلع الي وقيل أي خرجتم من الارض ولا يجوز أن يتعلق بتخرجون لان ما بعد اذا لا يعمل فيما قبلها وهذه الدعوة هي نفخة اسرافيل الآخرة في الصور على ما تقدم بيانه (اذا أنتم تخرجون) أي فاجأتم الخروج منها بسرعة من غير تلبث ولا توقف كما يجيب المدعو المطيع دعوة الداعي المطاع واذا الفجائية تقوم مقام الفاء في جواب الشرط وقال هنا اذا أنتم وقال في خلق الانسان ثم اذا أنتم بشر تنتشرون لان هناك يكون خلق وتقدير وتدريج حتى يصير التراب قابلا للحياة فتنفخ فيه الروح فاذا هو بشر وأما في الاعادة فلا يكون تدريج بل يكون بدء وخروج فلم يقل هنا ثم ذكره الكرخي وقد أجمع القراء على فتح التاء في تخرجون هنا وانما قرئ بضمها في الاعراف (وله من في السموات والارض) من جميع المخلوقات ملكا وتصرفا وخلقا ليس لغيره في ذلك شئ (كل له قانتون) أي مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس وقيل مقرون بالعبودية اما بالمقال واما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي وقيل مصلون وقيل قائمون يوم القيامة كقوله يوم يقوم الناس لرب العالمين أي للحساب قاله الربيع ابن أنس وقيل بالشهادة انهم عباده قاله الحسن وقيل مطيعون لافعاله لا يمتنع عليه شئ يريد فعله بهم من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الارادة لا طاعة العبادة وقيل مخلصون قاله سعيد بن جبير وقال ابن عباس مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة (وهو الذي يبدأ الخلق) للناس (ثم يعيده) بعد الموت فيحييه الحياة الدائمة (وهو) أي البعث أو الاعادة نظرا الى المعنى دون اللفظ وهو رجعه أورده وتذكيره باعتبار الخبر (أهون عليه) أي هين لا يستصعبه أو أهون عليه بالنسبة الى قدرتكم وعلى ما يقوله بعضكم لبعض والا فلا شئ في قدرته بعضه أهون من بعض بل كل الاشياء مستوية يوجدها بقوله كن فيكون قال أبو عبيدة من جعل أهون عبارة عن تفضيل شئ على شئ فقوله مردود بقوله وكان ذلك على الله يسيرا وبقوله ولا يؤده حفظهما والعرب تحمل أفعل على فاعل كثيرا كما في قول الفرزدق

ان الذي سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

أي عزيزة طويلة وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب على ذلك

عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما أنزل الله عز وجل وأنذر عشيرتك الأقربين أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني قالوا نعم قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله تبت يدا أبي لهب وتب ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الأعمش به (١٩) الحديث الثاني قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا فاطمة ابنة محمد يا صفية ابنة عبد المطلب يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا سلوني من مالي ما شئتم انفرد بإخراجه مسلم الحديث الثالث قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة حدثنا عبد الملك ابن عمير عن موسى بن طلحة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الأقربين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فعم وخص فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني والله لا أملك لكم من الله شيئا إلا أن لكم رحما سأبلها ببلالها ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به وقال الترمذي غريب من هذا الوجه ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلا ولم يذكر فيه أبا هريرة والموصول هو الصحيح وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة وهذا وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا محمد يعني ابن إسحاق عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب اشتروا أنفسكم من الله يا صفية عمة رسول الله ويا فاطمة بنت رسول الله اشتريا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئا سلاني من مالي ما شئتما تفرد به من هذا الوجه وتفرد به أيضا عن معاوية عن زائدة عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه ورواه أيضا عن حسن بن

بني رجال إن أموت وإن أمت * فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد وكقولهم الله أكبر أي كبير وهي رواية العوفي عن ابن عباس وقرأ ابن مسعود وهو عليه هين وقال مجاهد وعكرمة والضحاك إن الإعادة أهون على الله من البداءة أي أيسر وإن كان جميعه هينا وقيل المراد أن الإعادة فيما بين الخلق أهون من البداءة وقيل الضمير في عليه للخلق أي والعود أهون على الخلق أي أسرع وأقصر عليه وأيسر وأقل انتقالا من طور إلى طور لأنه يصاح بهم صيحة واحدة فيقومون ويقال لهم كونوا فيكونون فذلك أهون عليهم من أن يكونوا نطفة ثم علقة ثم مضغة إلى آخر النشأة وقال ابن عباس الإعادة أهون على المخلوق لأنه يقول له يوم القيامة كن فيكون وابتداء الخلقة من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة (وله المثل الأعلى) أي الوصف الأعلى العجيب الشأن من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال والجلال والجمال التي ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها وقال الخليل المثل الصفة أي وله الوصف الأعلى قول لا إله إلا الله أي الوحدانية وبه قال قتادة وقال الزجاج وله المثل الأعلى (في السموات والأرض) من بعد عاملته وهو قوله وهو أهون عليه قد ضربه لكم مثلا فيما يصعب ويسهل وقيل مرتبط بما بعده من قوله ضرب لكم مثلا من أنفسكم وقيل المثل الأعلى هو أنه ليس كمثله شيء قاله ابن عباس وقيل هو أن ما أراده كان بقول كن والمعنى أنه سبحانه عرف بالمثل الأعلى ووصف به في السموات والأرض أي في هاتين الجهتين وقيل غير ذلك (وهو العزيز) في ملكه القادر الذي لا يغالب (الحكيم) في أفعاله وأقواله (ضرب لكم) أيها المشركون (مثلا) قد تقدم تحقيق معنى المثل (من أنفسكم) من لابتداء الغاية أي مثلا منتزعا كائنا ومأخوذا من أنفسكم فإنها أقرب شيء منكم وأبين من غيرها عندكم فإذا ضرب لكم المثل بها في بطلان الشرك كان أظهر دلالة وأعظم وضوحا ثم بين المثل المذكور فقال (هل لكم مما ملكت أيمانكم) من للتبعيض أي من مماليككم وفي قوله (من شركاء) زائدة للتأكيد والمعنى هل لكم شركاء (فيما رزقناكم) من الأموال وغيرها كائنون من النوع الذي ملكت أيمانكم وهم العبيد والإماء والاستفهام للإنكار قال ابن عباس في الآية كان يلبي أهل الشرك لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك فأنزل الله هذه الآية (فأنتم) وهم (فيه سواء) أي مستوون في التصرف فيه على عادة الشركاء

لهيعة عن الاعرج عن أبي هريرة مرفوعا وقال أبو يعلى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا هشام بن اسمعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يا بني قصي يا بني هاشم يا بني عبد مناف أنا النذير والموت المغير والساعة الموعد الحديث الرابع قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد التيمي عن أبي عثمان عن قبيصة بن مخارق وزهير بن عمرو قالا لما نزلت وأنذر عشيرتك الاقربين صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رضمة من جبل على أعلاها حجر فجعل ينادي يا بني عبد مناف انما أنا نذير انما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه فجعل ينادي ويهتف يا صباحاه ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن طرخان التيمي عن أبي عثمان عبد الرحمن بن مل النهدي عن قبيصة وزهير بن عمرو الهلالي به الحديث الخامس قال الامام احمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا شريك عن الاعمش عن المنهال عن عباد بن عبد الله الاسدي عن علي رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية وانذر عشيرتك الاقربين جمع النبي صلى الله عليه وسلم من اهل بيته فاجتمع ثلاثون فاكلوا وشربوا قال وقال لهم من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي فقال رجل لم يسمه شريك يا رسول الله أنت كنت بحرا من يقوم بهذا قال ثم قال الآخر ثلاثا قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي أنا طريق اخرى بأبسط من هذا السياق قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا عثمان ابن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة ابن ماجد عن علي رضي الله عنه قال جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو دعا رسول الله بني عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب وقال يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة والى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي قال فلم يقم اليه احد قال فقمت اليه وكنت أصغر القوم قال فقال اجلس ثم قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم اليه فيقول لي اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخر قال الحافظ أبو بكر البيهقي في دلائل النبوة أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا أحمد بن عبد الجبار حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن

وهذا جواب للاستفهام الذي بمعنى النفي ومحقق لنفي الشركة بينهم وبين العبيد والاماء المملوكين لهم في أموالهم والمعنى هل ترضون لانفسكم والحال ان عبيدكم واماءكم أمثالكم في البشرية أن يساووكم في التصرف بما رزقناكم من الاموال ويشاركوكم فيها من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خيفة (كخيفتكم أنفسكم) أي كما تخافون الاحرار المشابهين لكم في الحرية وملك الاموال وجواز التصرف والمراد نفي الاشياء الثلاثة الشركة بينهم وبين المملوكين والاستواء معهم وخوفهم اياهم وليس المراد ثبوت الشركة ونفي الاستواء والخوف كما قيل في قولهم ما تأتينا فتحدثنا والمراد اقامة الحجة على المشركين فانهم لابد أن يقولوا لا نرضى بذلك فيقال لهم فكيف تنزهون أنفسكم عن مشاركة المملوكين لكم وهم أمثالكم في البشرية وتجعلون عبيد الله شركاء له فاذا بطلت الشركة بين الله وبين أحد من خلقه والخلق كلهم عبيد الله تعالى لم يبق الا انه رب وحده لاشريك له قرئ أنفسكم بالنصب على انه معمول المصدر المضاف الى فاعله وبالرفع على اضافة المصدر الى مفعوله (كذلك نفصل الآيات) تفصيلا واضحا وبيانا جليا لان التمثيل مما يكشف المعاني ويوضحها (لقوم يعقلون) لانهم الذين ينتفعون بالآيات التنزيلية والتكوينية باستعمال عقولهم في تدبرها والتفكر فيها ثم أضرب سبحانه عن مخاطبة المشركين وارشادهم الى الحق بما ضرب لهم من المثل فقال (بل اتبع الذين ظلموا) بالاشراك وفيه الاضراب مع الالتفات وأقيم الظاهر مقام الضمير للتسجيل عليهم بوصف الظلم (أهواءهم بغير علم) أي لم يعقلوا الآيات بل اتبعوا أهواءهم الزائغة وآراءهم الفاسدة الزائفة والمعنى جاهلين بأنهم على ضلالة (فمن يهدي من أضل الله) أي لا أحد يقدر على هدايته لان الرشاد والهداية بتقدير الله وارادته (ومالهم) أي ما لهؤلاء الذين أضلهم الله والجمع باعتبار معنى من (من ناصرين) ينصرونهم ويحولون بينهم وبين عذاب الله سبحانه ثم أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بتوحيده وعبادته كما أمره فقال (فأقم وجهك للدين حنيفا) شبه الاقبال على الدين بتقويم وجهه اليه واقباله عليه أي مائلا اليه مستقيما عليه غير ملتفت الى غيره من الأديان الباطلة فان من اهتم بالشئ عقد عليه طرفه وسدد اليه نظره وقوم له وجهه مقبلا عليه (فطرت الله التي فطر الناس عليها) الفطرة في الاصل الخلقة والمراد بها هنا الملة وهي الاسلام والتوحيد قال

اسحق قال حدثني من سمع عبد الله بن الحرث بن نوفل واستكتمني اسمه عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت اني ان بادرت بها قومي رأيت منهم ما أكره فصمت فجاءني جبريل عليه السلام فقال يا محمد ان لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك قال علي رضي الله عنه فدعاني فقال يا علي ان الله تعالى قد أمرني ان انذر عشيرتي الأقربين فعرفت اني ان بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره فصمت (١٩٢) عن ذلك ثم جاءني جبريل فقال يا محمد ان لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك فاصنع لنا يا علي شاة على صاع من طعام واعدد لنا عس لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب ففعلت فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب الكافر الخبيث فقدمت اليهم تلك الجفنة فأخذ منها رسول الله صلى الله عليه وسلم جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها في نواحيها وقال كلوا باسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى الا آثار أصابعهم والله ان كان الرجل منهم ليأكل مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقهم يا علي فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم بدره أبو لهب الى الكلام فقال لهذا سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني الى ما سمعت قبل ان أكلم القوم ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه وايم الله ان كان الرجل منهم لغة ليأكل مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اسقهم يا علي فجئت بذلك القعب فشربوا حتى نهلوا جميعا وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال لهذا سحركم صاحبكم فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان من الغد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا علي عد لنا بمثل الذي كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فان هذا الرجل قد بدرني الى ما سمعت قبل ان أكلم القوم ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم

الواحدي هذا قول المفسرين في الفطرة وقيل المراد بها قابلية الدين والتهيؤ له وترسم الفطرة بالتاء المجرورة وليس في القرآن غيرها والمراد بالناس هنا الذين فطرهم الله على الاسلام لأن المشرك لم يفطر على الاسلام وهذا الخطاب وان كان خاصا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأمته داخلة معه فيه قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم وانهم جميعا مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من مولود الا يولد على الفطرة وفي رواية على هذه الملة ولكن أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول أبو هريرة واقرؤا ان شئتم فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله وفي رواية حتى تكونوا أنتم تجدعونها أخرج أحمد والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم عن الأسود بن سريع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث سرية الى خيبر فقاتلوا المشركين فانتهى القتل الى الذرية فلما جاؤا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما حملكم على قتل الذرية قالوا يا رسول الله انما كانوا أولاد المشركين قال وهل خياركم الا أولاد المشركين والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد الا على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا وروى الامام أحمد في المسند عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب يوما فقال في خطبته حاكيا عن الله سبحانه واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم الحديث وهذه معاضدة لحديث أبي هريرة المتقدم فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي مخلوق على ملة الاسلام ولكن لا اعتبار بالايمان والاسلام الفطريين وانما يعتبر الايمان والاسلام الشرعيان وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم وقول جماعة من المفسرين وهو الحق والقول بأن المراد بالفطرة هنا الاسلام هو مذهب جمهور السلف وقال آخرون هي البداءة التي ابتدأهم عليها فانه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة والفاطر في كلام العرب هو المبتدئ وهذا مصير من القائلين به الى معنى الفطرة

لم تزل على معناها شرعا والمعنى الشرعي مقدم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مرادا بها اللغوي كقوله تعالى الحمد لله فاطر السموات والارض أي خالقهما ومبتدئهما وكقوله ومالي لا أعبد الذي فطرني اذ لا نزاع في ان المعنى اللغوي هو هذا ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة وهو ما ذكره الاولون كما بيناه وانتصاب فطرة على انها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها وقال الزجاج منصوب بمعنى اتبع فطرة الله قال لان معنى فاقم وجهك للدين اتبع الدين واتبع فطرة الله وقال ابن جرير هي مصدر من معنى فاقم وجهك لان معنى ذلك فطرة الله الناس على الدين وقيل هي منصوبة على الاغراء اي الزموا فطرة الله أو عليكم فطرة الله ورد هذا الوجه أبو حيان وقال ان كلمة الاغراء لا تضمر اذ هي عوض عن الفعل فلو حذفها لزم حذف العوض والمعوض عنه وهو اجحاف وأجيب بان هذا رأي البصريين واما الكسائي وأتباعه فيجيزون ذلك (لا تبديل لخلق الله) أي لما جبلكم وطبعكم عليه من قبول الحق وهذا تعليل لما قبله من الامر بلزوم الفطرة أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه أو تعليل لوجوب الامتثال له أي لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بموجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشياطين وقيل لا يقدر أحد أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس الفطرة بازالتها رأسا ووضع فطرة اخرى مكانها غير مصححة لقبول الحق والتمكن من ادراكه ضرورة ان التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة ان سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان ذكره أبو السعود وقيل هو نفي معناه النهي أي لا تبدلوا خلق الله قال مجاهد وابراهيم النخعي معناه لا تبديل لدين الله قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد هذا في المعتقدات وقال عكرمة ان المعنى لا تغيير لخلق الله في البهائم بان تخصى فحولها وقيل لا تبدلوا التوحيد بالشرك والسنة بالبدعة وقيل لا تبديل لما جبل عليه الانسان من السعادة والشقاوة فلا يصير السعيد شقيا ولا الشقي سعيدا (ذلك) الدين المأمور باقامة الوجه له هو (الدين القيم) أو لزوم الفطرة هو الدين القيم أي المستقيم وقال ابن عباس الدين القضاء (ولكن أكثر الناس) أي كفار مكة

كما صنع بالامس فاكلوا حتى نهلوا ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه وايم الله ان كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة قال أحمد بن عبد الجبار بلغني ان ابن اسحق انما سمعه من عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق عن عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله اني جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله ان أدعوكم اليه فايكم يوازرني على هذا الامر على ان يكون أخي وكذا وكذا قال فاحجم القوم عنها جميعا وقلت واني لأحدثهم سنا وأرمصهم عينا وأعظمهم بطنا وأحمشهم ساقا أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فاخذ برقبتي ثم قال ان هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ثم قام القوم يضحكون ويقولون لابي طالب قد أمرك ان تسمع لابنك وتطيع تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم وهو متروك كذاب شيعي اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث وضعفه الائمة رحمهم الله طريق أخرى قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي أخبرنا الحسين عن عيسى بن ميسرة الحارثي حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الاعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحرث قال قال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية وأنذر عشيرتك الاقربين قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اصنع لي رجل شاة بصاع من طعام واناء لبنا قال ففعلت ثم قال لي ادع بني هاشم قال فدعوتهم وانهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل قال وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال فلما أتوا بالقصعة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذروتها ثم قال كلوا فأكلوا حتى شبعوا وهي على هيئتها لم يزدرد ولمنها الا اليسير قال ثم أتيتهم بالاناء فشربوا حتى رووا قال وفضل فضل فلما فرغوا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يتكلم فبدروه الكلام فقالوا ما رأينا كاليوم في السحر فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لي اصنع رجل شاة بصاع من طعام فصنعت قال فجمعتهم فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلام فقال أيكم يقضي عني

دعي ويكون خليفتي في أهلي قال فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله قال وسكت أنا وسن العباس ثم قالها مرة أخرى فسكت العباس فلما رأيت ذلك قلت أنا يا رسول الله قال وإني يومئذ لأسوأهم هيئة وإني لأعمش العينين ضخم البطن حمش الساقين فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن علي رضي الله عنه ومعنى سؤاله صلى الله عليه وسلم لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه في أهله يعني إن قتل في سبيل الله كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل فلما أنزل الله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فعند ذلك أمن وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية والله يعصمك من الناس ولم يكن أحد في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم من علي رضي الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كان بعد هذا والله أعلم دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى أي إنما أنا نذير والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الواحد الدمشقي من طريق عمرو بن سمرة عن محمد بن سوقة عن عبد الواحد الدمشقي قال رأيت أبا الدرداء رضي الله عنه يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه وأهل بيته جلوس في جانب المسجد يتحدثون فقيل له ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين فقال لأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أزهد الناس في الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى وأنذر عشيرتك الأقربين إلى قوله فقل إني بريء مما تعملون وقوله تعالى وتوكل على العزيز الرحيم أي في جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعل كلمتك وقوله تعالى الذي يراك حين تقوم أي هو معتن بك كما قال تعالى فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا قال ابن عباس الذي يراك حين تقوم يعني إلى الصلاة وقال عكرمة يرى قيامه وركوعه وسجوده وقال الحسن الذي يراك حين تقوم إذا صليت وحدك وقال الضحاك الذي يراك حين تقوم أي من فراشك أو مجلسك وقال قتادة الذي يراك قائما وجالسا وعلى حالاتك وقوله تعالى وتقلبك في الساجدين قال قتادة الذي يراك حين

(لا يعلمون) ذلك حتى يعلموه ويعملوا به (منيبين) أي راجعين (إليه) بالتوبة والإخلاص ومطيعين له في أوامره ونواهيه قال الجوهري أناب إلى الله أقبل وتاب قال الفراء فأقم وجهك ومن معك منيبين وكذا قال الزجاج وقال تقديره فأقم وجهك وأمتك فالحال من الجميع وقيل كونوا منيبين إليه لدلالة ولا تكونوا من المشركين على ذلك ثم أمرهم سبحانه بالتقوى بعد أمرهم بالإنابة فقال (واتقوه) أي خافوه باجتناب معاصيه (وأقيموا الصلاة) التي أمرتم بها (ولا تكونوا من المشركين) بالله أي ممن يشرك به غيره في العبادة وقوله (من الذين فرقوا دينهم) باختلافهم فيما يعبدونه وهو بدل مما قبله بإعادة الجار (وكانوا شيعا) أي فرقا أي لا تكونوا من الذين تفرقوا فرقا في الدين يشايع بعضهم بعضا من أهل البدع والأهواء وقيل المراد بهم اليهود والنصارى وقرئ فارقوا دينهم أي الذي يجب اتباعه وهو التوحيد وهي سبعية وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الأنعام (كل حزب) أي كل فريق منهم (بما لديهم) من الدين المبني على غير الصواب (فرحون) أي مسرورون مبتهجون يظنون أنهم على الحق وليس بأيديهم منه شيء والجملة اعتراض مقرر لما قبله من تفريقهم دينهم وكونهم شيعا (وإذا مس الناس) أي كفار مكة وغيرهم (ضر) أي قحط وشدة أو هزال أو مرض (دعوا ربهم) أن يرفع ذلك عنهم واستغاثوا به (منيبين) أي راجعين ملتجئين (إليه) لا يعولون على غيره وقيل مقبلين عليه بكل قلوبهم (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) بإجابة دعائهم ورفع تلك الشدائد عنهم (إذا فريق منهم بربهم يشركون) إذا هي الفجائية وقعت جواب الشرط لأنها كالفاء في إفادة التعقيب أي فاجأ فريق منهم الإشراك وهم الذين دعوه فخلصهم مما كانوا فيه وهذا الكلام مسوق للتعجيب من أحوالهم وما صاروا عليه من الاعتراف بوحدانية الله سبحانه عند نزول الشدائد والرجوع إلى الشرك عند رفع ذلك عنهم وفيه مراعاة معنى لفظ الفريق وكذا في قوله (ليكفروا بما آتيناهم) أي من نعمة الله عليهم واللام لام كي وقيل لام الأمر لقصد الوعيد والتهديد وقيل هي لام العاقبة التي تقتضي المهلة سميت لام المآل والشرك والكفران متقاربان لا مهلة بينهما ثم خاطب سبحانه هؤلاء الذين وقع منهم ما وقع فقال (فتمتعوا) أريد به التهديد أيضا وفيه الالتفات عن الغيبة إلى الخطاب لأجل المبالغة في زجرهم وقرئ فيتمتعوا على الخطاب وبالتحتية على البناء للمفعول وفي مصحف ابن مسعود فليتمتعوا (فسوف تعلمون)

يقوم وتقلبك في الساجدين قال في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري وقال مجاهد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى من خلفه كما يرى من أمامه ويشهد لهذا ما صح في الحديث سووا صفوفكم فاني أراكم من وراء ظهري وروى البزار وابن أبي حاتم من طريقين عن ابن عباس انه قال في هذه الآية يعني تقلبه من صلب نبي الى صلب نبي حتى أخرجه نبيا وقوله تعالى انه هو السميع العليم أي السميع لاقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه الآية (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) يقول تعالى مخاطبا لمن زعم من المشركين ان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بحق وانه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو انه أتاه به رئي من الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ونبه ان ما جاء به انما هو من عند الله وانه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وانه ليس من قبل الشياطين فانهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم وانما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ولهذا قال تعالى هل أنبئكم أي أخبركم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم أي كذوب في قوله وهو الافاك الاثيم اي الفاجر في أفعاله فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة فان الشياطين أيضا كذبة فسقة يلقون السمع أي يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ثم يلقونها الى أوليائهم من الانس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء كما صح بذلك الحديث كما رواه البخاري من حديث الزهري أخبرني يحيى بن عروة بن الزبير انه سمع عروة بن الزبير يقول قالت عائشة رضي الله عنها سأل ناس النبي صلى الله عليه وسلم عن الكهان فقال انهم ليسوا بشيء قالوا يا رسول الله فانهم يحدثون بالشيء يكون حقا فقال النبي صلى الله عليه وسلم

ما يعقب هذا القنوط الزائل من العذاب الاليم (أم أنزلنا عليهم سلطانا) أم هي المنقطعة والاستفهام للانكار على مذهب الكوفيين ومذهب البصريين انها بمعنى بل والهمزة والسلطان الحجة الظاهرة وفيه التفات عن الخطاب الى الغيبة للايذان بالاعراض عنهم وبعدهم عن ساحة الخطاب قال الفراء ان العرب تؤنث السلطان يقولون قضت به عليك السلطان فاما البصريون فالتذكير عندهم أفصح وبه جاء القرآن والتأنيث عندهم جائز لانه بمعنى الحجة وقيل المراد بالسلطان هنا الملك (فهو يتكلم) أي يدل كما في قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وهو في حيز النفي المستفاد من أم (بما كانوا به يشركون) أي ينطق باشراكهم بالله سبحانه أو المعنى بالامر الذي كانوا بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس) أي كفار مكة وغيرهم (رحمة) أي خصبا ومطرا ونعمة وسعة وصحة وعافية (فرحوا بها) فرح بطر وأشر لا فرح شكر بها وابتهاج بوصولها اليهم كما دل عليه قوله قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ثم قال سبحانه (وان تصبهم سيئة) أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض أو شدة على أي صفة (بما قدمت أيديهم) أي بسبب شؤم ذنوبهم (اذا هم يقنطون) القنوط الاياس من الرحمة كذا قال الجمهور وقال الحسن القنوط ترك فرائض الله سبحانه وقرئ يقنطون بفتح النون وبكسرها وهما سبعيتان وبابه ضرب وتعب والمعنى اذا هم يأسون وهذا خلاف وصف المؤمنين فان من شأنهم أن يشكروا عند النعمة ويرجوا ربهم عند الشدة أو يقال الدعاء اللساني بناء على مجرى العادة لا ينافي القنوط القلبي وقد يشاهد مثل ذلك في كثير من الناس فلا يخالف هذا قوله دعوا ربهم منيبين اليه أو المراد يفعلون فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخائر أيام الغلاء قاله الكرخي (أولم يروا) أي فما لهم لم يشكروا في السراء والضراء كالمؤمنين ولم يعلموا (ان الله يبسط الرزق) أي يوسعه (لمن يشاء) من عباده امتحانا هل يشكر أم يطغى فيكفر (ويقدر) أي يضيق على من يشاء ابتلاء هل يصبر أم يضيق ذرعا فيكفر (ان في ذلك) البسط والقبض (لآيات لقوم يؤمنون) فيستدلون بها على الحق لدلالتها على كمال القدرة وبديع الصنع وغريب الخلق والحكمة ولما بين سبحانه كيفية التعظيم لامر الله أشار الى ما ينبغي من مواساة القرابة وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه فقال (فآت ذا القربى حقه) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته أسوته أو لكل مكلف له مال

تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة وروى البخاري أيضا حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثنا عمرو قال سمعت عكرمة يقول سمعت أبا هريرة يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم قال إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنها سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ووصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء تفرد به البخاري وروى مسلم من حديث الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الأنصار قريبا من هذا وسيأتي عند قوله تعالى في سبأ حتى إذا فزع عن قلوبهم الآية وروى البخاري أيضا وقال الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال أن أبا الأسود أخبره عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة وروى البخاري في موضع آخر من كتاب بدء الخلق عن سعيد بن أبي مريم عن الليث عن عبد الله بن أبي جعفر عن أبي الأسود عن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة بنحوه

وقوله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني الكفار يتبعهم ضلال قوله الإنس والجن وكذا قال مجاهد رحمه الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما وقال عكرمة كان الشاعران يتهاجيان فينتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس فأنزل الله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ليث عن ابن الهاد عن يحنس مولى مصعب بن الزبير عن أبي سعيد قال بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من

وسع الله به عليه وقدم الإحسان إلى القرابة لأن خير الصدقة ما كان على قريب فهو صدقة مضاعفة وصلة رحم مرغب فيها والمراد الإحسان إليهم بالصدقة والصلة والبر سواء كانوا في مخمصة أو لم يكونوا وقيل فيه دليل على وجوب النفقة للمحارم وبه قالت الحنفية وعدم ذكر بقية الأصناف المستحقين للزكاة يدل على أن ذلك في صدقة التطوع وقاس الشافعي سائر القرابة ما عدا الفروع والأصول على ابن العم لأنه لا ولادة بينهم ولا يصح حمل الصدقة على الواجبة يعني الزكاة لأن السورة مكية والزكاة ما فرضت إلا في السنة الثانية من الهجرة بالمدينة والقريب المعسر في ماله نفقته على غيره واجبة وبه قال مجاهد وقتادة قال مجاهد لا تقبل صدقة من أحد ورحمه محتاج وقيل المراد بالقربى قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القرطبي والأول أصح فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى وقال الحسن إن الأمر في إيتاء ذي القربى للندب (والمسكين وابن السبيل) أي آتهما حقهما الذي يستحقانه ووجه تخصيص الأصناف الثلاثة بالذكر أنهم أولى من سائر الأصناف بالإحسان ولكون ذلك واجبا لهم على كل من له مال فاضل عن كفايته وكفاية من يعول سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان قبل الحول أو بعده لأن المقصود هنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الإحسان إليهم وإن لم يكن للإنسان مال زائد والفقير داخل في المسكين لأن من أوصى للمساكين بشيء صرف إلى الفقراء أيضا وإذا نظرت إلى الباقين من الأصناف رأيتهم لا يجب صرف المال إليهم إلا على الذين وجبت الزكاة عليهم وأما المسكين فحاجته ليست مختصة بوضع فتقدم على من حاجته مختصة بوضع دون موضع قال مقاتل حق المسكين أن يتصدق عليه وحق ابن السبيل الضيافة وقد اختلف في هذه الآية هل هي محكمة أو منسوخة فقيل هي منسوخة بآية المواريث وقيل محكمة (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) أي ذلك الإيتاء أفضل من الإمساك لمن يريد التقرب إلى الله سبحانه ويقصد بمعروفه إياه خالصا (وأولئك هم المفلحون) أي الفائزون بمطلوبهم حيث أنفقوا لأجل الله امتثالا لأمره (وما آتيتم) بالمد بمعنى أعطيتم وقرئ بالقصر بمعنى ما فعلتم وجئتم وقيل بالقصر بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا وهو يؤول من حيث المعنى إلى القراءة المشهورة لأنه يقال أتى معروفا وأتى قبيحا إذا فعلهما (من ربا) وأجمعوا على الأولى في

أن يتلى شعرا وقوله تعالى ألم تر انهم فى كل واد يهيمون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى كل لغو يخوضون وقال الضحاك عن ابن عباس فى كل فن من الكلام وكذا قال مجاهد وغيره وقال الحسن البصرى قد والله رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها مرة فى شتيمة فلان ومرة فى مديحة فلان وقال قتادة الشاعر يمدح قوما بباطل ويذم قوما بباطل وقوله تعالى وانهم يقولون مالا يفعلون قال العوفى عن ابن عباس كان رجلان على عهد رسول الله أحدهما من الانصار والآخر من قوم آخرين وانهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه وهم السفهاء فقال الله تعالى والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر انهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالا يفعلون قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنه هو الواقع فى نفس الامر فان الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله فيما اذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا لانهم يقولون مالا يفعلون على قولين وقد ذكر محمد بن اسحق ومحمد بن سعد فى الطبقات والزبير بن بكار فى كتاب الفكاهة ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى بن نضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر فقال

ألا هل أتى الحسناء أن خليلها * بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
اذا شئت غنتنى دهاقين قرية * ورقاصة تجثو على كل منسم
فان كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى * ولا تسقنى بالاصغر المتثلم
لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال اى والله انه ليسوءنى ذلك ومن لقيه فليخبره انى قد عزلته وكتب اليه عمر بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا اله الا هو اليه المصير أما بعد فقد بلغنى قولك

لعل أمير المؤمنين يسوءه * تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوءنى وقد عزلتك فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر وقال والله يا أمير المؤمنين ما شربتها قط وما ذاك الشعر الا شئ طفح على لسانى فقال عمر أظن ذلك ولكن والله لا تعمل لى عملا أبدا وقد

قوله وما آتيتم من زكاة أصل الربا الزيادة والمعنى ما أعطيتم من زيادة خالية عن العوض بان تعطوا شيأ هبة أو هدية (ليربوا فى أموال الناس) أى ليزيدوا ويزكوا فى أموالهم (فلا يربو عند الله) قرئ بالتحتية على ان الفعل مسند الى ضمير الربا وقرئ بالفوقية مضمومة خطابا للجماعة بمعنى لتكونوا ذوى زيادات وقرئ لتربوها ومعنى الآية انه لا يزكوا عند الله ولا يثيب عليه لانه لا يقبل الا ما أريد به وجهه خالصا قال السدى الربا فى هذا الموضع الهدية يهديها الرجل لاخيه يطلب المكافأة فان ذلك لا يربو عند الله أى لا يؤجر عليه صاحبه ولا اثم عليه وهكذا قال قتادة والضحاك قال الواحدى وهذا قول جماعة المفسرين قال الزجاج يعنى دفع الرجل الشئ ليعوض أكثر منه وذلك ليس بحرام ولكنه لا ثواب فيه لان الذى يهبه يستدعى به ما هو أكثر منه وقال الشعبى معنى الآية ان ما خدم به الانسان أحدا لينتفع به فى دنياه فان ذلك النفع الذى يجرى به الخدمة لا يربو عند الله وقيل هذا كان حراما على النبى صلى الله عليه وآله وسلم على الخصوص لقوله سبحانه ولا تمنن تستكثر ومعناها ان تعطى فتأخذ أكثر منه عوضا عنه وحرم عليه تشريفا له وقيل ان هذه الآية نزلت فى هبة الثواب وبه قال ابن عباس وابن جبير وطاوس ومجاهد قال ابن عطية وما يجرى مجراه مما يصنعه الانسان ليجازى عليه كالسلام وغيره وهو وان كان لا اثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله قال عكرمة الربا ربوان فربا حلال وربا حرام فاما الربا الحلال فهو الذى يهدى يلتمس ما هو أفضل منه يعنى كما فى هذه الآية وقيل ان هذا الذى فى هذه الآية هو الربا المحرم فمعنى لا يربو عند الله على هذا القول لا يحكم به بل هو للمأخوذ منه قال المهلب اختلف العلماء فيمن وهب هبة يطلب بها الثواب فقال مالك ينظر فيه فان كان مثله ممن يطلب الثواب من الموهوب له فله مثل ذلك مثل هبة الفقير للغنى وهبة الخادم للمخدوم وهبة الرجل لاميره وهو أحد قولى الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون له ثواب اذا لم يشترط وهو قول الشافعى رحمه الله الآخر وعن على قال المواهب ثلاثة موهبة يراد بها وجه الله وموهبة يراد بها ثناء الناس وموهبة يراد بها الثواب فموهبة الثواب يرجع فيها صاحبها اذا لم يثب عليها بخلاف القسمين الآخرين فلا يرجع فيهما صاحبهما قال ابن عباس فى الآية الربا ربوان ربا لا بأس به وربا لا يصلح فاما الربا الذى لا بأس به فهدية الرجل الى الرجل يريد فضلها وأضعافها عنه قال هذا هو الربا الحلال أن يهدى

قلت ما قلت فلم يحده على الشراب وقد ضمنه شعره لأنهم يقولون ما لا يفعلون ولكن ذمه عمر رضي الله عنه ولامه على ذلك وعزله به ولهذا جاء في الحديث لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً يريه خير له من أن يمتلئ شعراً والمراد من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر لأن حاله منافٍ لحالهم من وجوه ظاهرة كما قال تعالى وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين وقال تعالى إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين وهكذا قال (١٩٨) ههنا وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين إلى أن قال وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون إلى أن قال هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون وقوله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن سالم البراد مولى تميم الداري قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكون قالوا قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي صلى الله عليه وسلم إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال أنتم وذكروا الله كثيراً قال أنتم وانتصروا من بعد ما ظلموا قال أنتم رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من رواية ابن إسحق وقد روى ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة عن الوليد بن أبي كثير عن يزيد بن عبد الله عن أبي الحسن مولى بني نوفل أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية والشعراء يتبعهم الغاوون يبكيان وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأها عليهما والشعراء يتبعهم الغاوون حتى بلغ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات قال أنتم وقال أيضاً حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة عن هشام بن عروة قال لما نزلت والشعراء يتبعهم الغاوون إلى قوله وأنهم يقولون ما لا يفعلون قال عبد الله بن رواحة يا رسول الله قد علم الله أني منهم فأنزل الله تعالى إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات الآية وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد محمد

يريد أكثر منه وليس له أجر ولا وزر ونهي النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة فقال ولا تمنن تستكثر (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله) أي وما أعطيتم من صدقة تطوع لا تطلبون بها المكافأة وإنما تقصدون بها ما عند الله (فأولئك هم المضعفون) أي ذوو الأضعاف من الحسنات الذين يعطون بالحسنة عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الفراء هو نحو قولهم مسمن ومعطش ومضعف إذا كانت له إبل سمان وعطاش وضعيفة وقرئ بفتح العين اسم مفعول وفيه التفات حسن عن الخطاب لأنه يفيد التعظيم كأنه خاطب به الملائكة وخواص الخلق تعريفاً لحالهم فهو أمدح لهم من أن يقول فأنتم المضعفون أو للتعميم لغير المخاطبين كأنه قال من فعل هذا فسبيله سبيل المخاطبين وكان مقتضى ظاهر النظم أن يقال فتربو عند الله فغير عبارة الربا إلى الأضعاف ونظم التعليه إلى الاسمية الدالة على الدوام المشتملة على ضمير الفصل المفيد للحصر والمعنى المضعفون به لأنه لا بد له من ضمير يرجع إلى ما الموصولة (الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) عاد سبحانه إلى الاحتجاج على المشركين وأنه الخالق الرازق المميت المحيي أي المختص بالخلق والرزق والإماتة والإحياء ثم قال على جهة الاستفهام (هل من شركائكم) أي أصنامكم التي زعمتم أنهم شركاء وأضاف الشركاء إليهم لأنهم كانوا يسمونهم آلهة ويجعلون لهم نصيباً من أموالهم (من يفعل من ذلكم) أي الخلق والرزق والإماتة والإحياء (من شيء) أي شيئاً من هذه الأفعال ومعلوم أنهم يقولون ليس فيهم من يفعل شيئاً من ذلك فتقوم عليهم الحجة ومن الأولى والثانية للبيان شروع الحكم في جنس الشركاء والأفعال والثالثة مزيدة لتعميم النفي ثم نزه سبحانه نفسه فقال (سبحانه وتعالى عما يشركون) أي نزهوه تنزيهاً وهو متعال عن أن يجوز عليه شيء من ذلك (ظهر الفساد) بين سبحانه أن الشرك والمعاصي سبب لظهور الفساد (في البر والبحر) أي العالم والفساد من فسد كنصر وكرم فساداً ضد صلح فهو فاسد والفساد أخذ المال ظلماً والجدب والمفسدة ضد المصلحة واختلف في معنى ظهور الفساد المذكور فقيل هو القحط وعدم النبات ونقصان الرزق وكثرة الخوف ونحو ذلك وقال مجاهد وعكرمة فساد البر قتل ابن آدم أخاه يعني قتل قابيل لهابيل وفساد البحر الملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً وليت شعري أي دليل دلهما على هذا التخصيص البعيد والتعيين الغريب فإن الآية نزلت على

وقتادة وزيد بن أسلم وغير واحد أن هذا استثناء مما تقدم ولا شك أنه استثناء ولكن هذه السورة مكية فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار وفي ذلك نظر ولم يتقدم الا مرسلات لا يعتمد عليها والله اعلم ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الانصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بذم الاسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء فان الحسنات يذهبن السيآت وامتدح الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم

يارسول المليك ان لساني * راتق ما فتقت اذ أنا بور
اذ أجاري الشيطان في سنن الغي * ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا فلما أسلم لم يكن أحد أحب اليه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما كان يهجوه ويتولاه بعدما كان قد عاداه وهكذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس ان أبا سفيان صخر بن حرب لما أسلم قال يارسول الله ثلاث أعطنيهن قال نعم قال معاوية تجعله كاتبا بين يديك قال نعم قال وتؤمرني حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين قال نعم وذكر الثالثة ولهذا قال تعالى الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا قيل معناه ذكروا الله كثيرا في كلامهم وقيل في شعرهم وكلاهما صحيح مكفر لما سبق وقوله تعالى وانتصروا من بعد ما ظلموا قال ابن عباس يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد وهذا كما ثبت في الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان اهجهم أو قال هاجهم وجبريل معك وقال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه انه قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان الله عزوجل قد أنزل في الشعر ما أنزل فقال رسول الله ان المؤمن يجاهد بنفسه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل وقوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون كقوله تعالى يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم الآية وفي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اياكم والظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة قال قتادة بن دعامة في قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أي

محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتعريف في الفساد يدل على الجنس فيعم كل فساد واقع في حيزي البر والبحر وقال السدي الفساد الشرك وهو أعظم الفساد ويمكن ان يقال ان الشرك وان كان الفرد الكامل في أنواع المعاصي ولكن لا دليل على انه المراد بخصوصه وقيل الفساد كساد الاسعار وقلة المعاش وقيل قطع السبل والظلم وقيل نقصان البركة باعمال العباد كي يتوبوا قاله النحاس وهو أحسن ما قيل في الآية وعنه ان الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم قال ابن عطية فاذا قل المطر قل الغوص فيه وعميت دواب البحر وقيل غير ذلك مما هو تخصيص لا دليل عليه والظاهر من الآية ظهور ما يصح اطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعا الى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيآت وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم أو راجعا الى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع والثمار وكثرة الحرق والغرق ومحق البركات من كل شئ والبر والبحر هما المعروفان المشهوران وقيل البر الفيافي والبحر القرى التي على ماء قاله عكرمة والعرب تسمي الامصار البحار قال مجاهد البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر والبحر ما كان على شط نهر وعن ابن عباس نحوه والاول أولى ويكون معنى البر مدن البر ومعنى البحر مدن البحر وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها (بما كسبت أيدي الناس) من المعاصي والذنوب والباء السببية وما اما موصولة أو مصدرية (ليذيقهم بعض الذي عملوا) اللام للعلة أي ليذيقهم بعض عقوبة عملهم أو جزاء بعض عملهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة وقيل للصيرورة وقرئ بالياء وبنون العظمة (لعلهم يرجعون) عما هم فيه من المعاصي ويتوبون الى الله قال ابن عباس يرجعون من الذنوب ولما بين سبحانه ظهور الفساد فيما بما كسبت أيدي المشركين والعصاة بين لهم ضلال امثالهم من أهل الزمن الاول فقال (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) أمرهم بان يسيروا لينظروا آثارهم ويشاهدوا كيف كانت عاقبتهم فان منازلهم خاوية وأراضيهم مقفرة موحشة كعاد وثمود ونحوهم من طوائف الكفار (كان أكثرهم مشركين) مستأنفة لبيان الحالة التي كانوا عليها وايضاح السبب الذي صارت عاقبتهم به الى ما صارت اليه وهو فشو الشرك والعصيان فيما بينهم أو كان الشرك في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم (فأقم)

منقلب ينقلبون يعني من الشعراء وغيرهم وقال ابو داود الطيالسي حدثنا اياس بن ابي تميمة قال حضرت الحسن ومر عليه جنازة نصراني فقال وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون قال عبد الله بن ابي رباح وصفوان بن محرز انه كان اذا قرأ هذه الآية بكى حتى اقول قد اندق قصيب زوره وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون وقال ابن وهب اخبرنا ابن شريح الاسكندراني عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبيناهم ليلة على نار يشتوون عليها او يصطلون اذا ركبان قد أقبلوا فقاموا اليهم فاذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم قال وصاحب لنا قائم يصلي حتى مر بهذه الآية وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون قال فضالة بن عبيد هؤلاء الذين يخربون البيت وقيل المراد بهم أهل مكة وقيل الذين ظلموا من المشركين والصحيح ان هذه الآية عامة في كل ظالم كما قال ابن أبي حاتم ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطي حدثني الهيثم بن محفوظ أبو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت كتب أبي في وصيته سطرين بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اوصى به ابو بكر بن ابي قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهي الفاجر ويصدق الكاذب اني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فان يعدل فذاك ظني به ورجائي فيه وان يجر ويبدل فلا أعلم الغيب وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون آخر تفسير سورة الشعراء والحمد لله رب العالمين

(تفسير سورة النمل وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور وقوله تعالى تلك آيات أي هذه آيات القرآن وكتاب مبين أي بين واضح هدى وبشرى للمؤمنين أي انما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الاعمال خيرها وشرها والجنة والنار كما قال تعالى قل هو للذين

خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمته اسوته فيه كأن المعنى اذا قد ظهر الفساد بالسبب المتقدم فأقم (وجهك) يا محمد (للدين القيم) قال الزجاج اجعل جهتك اتباع الدين القيم البليغ الاستقامة الذي لا يأتي فيه عوج وهو الاسلام وقيل المعنى أوضح الحق وبالغ في الاعذار واشتغل بما أنت فيه ولا تحزن عليهم قاله القرطبي (من قبل أن يأتي يوم) يعني يوم القيامة (لا مرد له من الله) المرد مصدر رد أي لا يقدر أحد على أن يرده كقوله لا يستطيعون ردها فلا بد من وقوعه وقيل المعنى لا يرده الله لتعلق ارادته القديمة بمجيئه قاله أبو السعود (يومئذ) أي يوم اذ يأتي هذا اليوم (يصدعون) أصله يتصدعون والتصدع التفرق يقال تصدع القوم اذا تفرقوا ومنه قول الشاعر

وكنا كندماني جذيمة حقبة * من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وفي المصباح صدعته صدعا من باب نفع شققته فانصدع وصدعت القوم صدعا فتصدعوا أي فرقتهم فتفرقوا وقوله فاصدع بما تؤمر قيل مأخوذ من هذا أي شق جماعاتهم بالتوحيد وقيل افرق بذلك بين الحق والباطل وقيل أظهر ذلك وصدعت بالحق تكلمت به جهارا وصدعت الفلاة قطعتها والمراد بتفرقهم ان أهل الجنة يصيرون الى الجنة وأهل النار الى النار ثم فصل سبحانه المتصدعين بقوله (من كفر فعليه كفره) أي جزاء كفره ووباله وهو النار (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أي يوطئون لأنفسهم منازل في الجنة بالعمل الصالح والمهاد الفراش وقد يقول مهدت الفراش مهدا اذا بسطته ووطأته فجعل الاعمال الصالحة التي هي سبب لدخول الجنة كبناء المنازل في الجنة وفرشها وقيل المعنى فعلى أنفسهم يشفقون من قولهم في المشفق أم فرشت فأنامت وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص وقال مجاهد فلأنفسهم يمهدون في القبر أي يوطئون المضاجع ويسوونها في القبور (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) والكافرين بعدله متعلق بيصدعون أو يمهدون أي يتفرقون ليجزي الله المؤمنين بما يستحقونه على ان ضرر الكفر لا يعود الا على الكافر ومنفعة الايمان والعمل الصالح ترجع الى المؤمن لا تجاوزه أو يمهدون لأنفسهم بالاعمال الصالحة ليجزيهم وقال ابن عطية تقديره ذلك ليجزي وتكون الاشارة الى ما تقدم من قوله من كفر ومن عمل قال ابن عباس ليثيبهم الله ثوابا أكثر من أعمالهم وجعل أبو حيان قسيم قوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات

الصالحات بحذوف لدلالة قوله (إنه لا يحب الكافرين) عليه لأنه كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه وغضبه يستتبع عقوبته وقيل تقرير بعد تقرير على الطرد والعكس وفيه تهديد ووعيد لهم (ومن آياته أن يرسل الرياح) أي ومن دلالات بديع قدرته تعالى إرسال الرياح أي الشمال والصبا والجنوب فإنها رياح الرحمة وأما الدبور فهي ريح العذاب ومنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح بالجمع والإفراد على قصد الجنس لأجل قوله (مبشرات) بالمطر لأنها تتقدمه كما في قوله سبحانه بشرا بين يدي رحمته (وليذيقكم من رحمته) أي يرسلها ليذيقكم بها الغيث والخصب أو نعمته من المياه العذبة والأشجار الرطبة وصحة الأبدان وما يتبع ذلك من أمور لا يحصيها إلا الله وقيل اللام متعلقة بمحذوف أي وأرسلها ليذيقكم وقيل الواو مزيدة على رأي من يجوز ذلك فتتعلق اللام بيرسل ومن تبعيضية (و) يرسل الرياح (لتجري الفلك) في البحر عند هبوبها ولما أسند الجري إلى الفلك عقبه بقوله (بأمره) أي بتدبيره أو بتكوينه كقوله إنما أمره إذا أراد شيئا الآية (ولتبتغوا) الرزق (من فضله) بالتجارة التي تحملها السفن (ولعلكم تشكرون) هذه النعم فتفردون الله بالعبادة وتستكثرون من الطاعة (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم) كما أرسلناك إلى قومك وهذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو اعتراض بين الكلامين المتصلين معنى أي قوله ومن آياته أن يرسل الرياح وقوله الله الذي يرسل الرياح وقال أبو حيان جاءت تسلية له صلى الله عليه وآله وسلم ووعدا بالنصر ووعيدا لأهل الكفر وحقية نصر المؤمنين على الله لا تختص بالدنيا بل تعم الآخرة أيضا فما في الآخرة من متناولات الآية (فجاؤهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحات والحجج النيرات على صدقهم في رسالتهم إليهم فآمن بهم قوم وكفر بهم قوم ويدل على هذا الإضمار قوله (فانتقمنا) بالإهلاك في الدنيا (من الذين أجرموا) أي فعلوا الأجرام وهي الآثام (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) على الكافرين بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين أخرج الطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه والترمذي عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ما من مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان

آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر الآية وقال تعالى لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ولهذا قال تعالى ههنا إن الذين لا يؤمنون بالآخرة أي يكذبون بها ويستبعدون وقوعها زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أي حسنا لهم ما هم فيه ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة كما قال تعالى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة الآية أولئك الذين لهم سوء العذاب أي في الدنيا والآخرة وهم في الآخرة هم الأخسرون أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر وقوله تعالى وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أي وإنك يا محمد لتلقى أي لتأخذ القرآن من لدن حكيم عليم أي من عند حكيم عليم أي حكيم في أمره ونهيه عليم بالأمور جليلها وحقيرها فخبره هو الصدق المحض وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا (إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم مذكرا له ما كان من أمر موسى عليه السلام كيف اصطفاه الله

وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة والأدلة القاهرة وابتعثه إلى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له فقال تعالى إذ قال موسى لأهله أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق وذلك في ليل وظلام فآنس من جانب الطور نارا أي رأى نارا تأجج وتضطرم فقال لأهله إني آنست نارا سآتيكم منها بخبر أي عن الطريق أو آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون أي تتدفؤن به وكان كما قال فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس منها نورا عظيما ولهذا قال تعالى فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها أي فلما أتاها ورأى منظرا هائلا عظيما حيث انتهى

اليها والنار تضطرم في شجرة خضراء لا تزداد النار الا توقدا ولا تزداد الشجرة الا خضرة ونضرة ثم رفع رأسه فاذا نورها متصل بعنان السماء قال ابن عباس وغيره لم تكن نارا وانما كانت نورا يتوهج وفي رواية عن ابن عباس نور رب العالمين فوقف موسى متعجبا مما رأى فنودي أن بورك من في النار قال ابن عباس تقدس ومن حولها أي من الملائكة قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد ابن جبير والحسن وقتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود وهو الطيالسي حدثنا شعبة والمسعودي عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل زاد المسعودي وحجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شئ أدركه بصره ثم قرأ أبو عبيدة أن بورك من في النار ومن حولها وأصل الحديث مخرج في صحيح مسلم من حديث عمرو بن مرة وقوله تعالى وسبحان الله رب العالمين أي الذي يفعل ما يشاء ولا يشبهه شئ من مخلوقاته ولا يحيط به شئ من مصنوعاته وهو العلي العظيم المباين لجميع المخلوقات ولا يكتنفه الارض والسموات بل هو الاحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات وقوله تعالى يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه الله العزيز الذي عز كل شئ وقهره وغلبه الحكيم في أقواله وأفعاله ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلا واضحا على أنه الفاعل المختار القادر على كل شئ فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر وسرعة الحركة مع ذلك ولهذا قال تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان والجان ضرب من الحيات أسرعه حركة وأكثره اضطرابا وفي الحديث نهى عن قتل جنان البيوت فلما عاين موسى ذلك ولى مدبرا ولم يعقب أي لم يلتفت من شدة فرقه يا موسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون أي لا تخف مما ترى فاني أريد أن أصطفيك رسولا وأجعلك نبيا وجيها وقوله تعالى الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم هذا استثناء منقطع وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سئ ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب فان الله يتوب عليه كما قال تعالى واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وقال تعالى ومن يعمل

حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا وكان حقا علينا نصر المؤمنين وهو من طريق شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء (الله الذي يرسل الرياح) قرئ بالجمع والافراد قال أبو عمرو كل ما كان بمعنى الرحمة فهو جمع وما كان بمعنى العذاب فهو موحد وهي مسوقة لبيان ما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا) أي تزعجه وتهيجه وتحركه (فيبسطه) أي ينشره متصلا بعضه ببعض أي ينشره كمال الانتشار والا فأصل الانتشار موجود في السحاب دائما (في السماء) أي في سمت السماء وجهتها وشقها كقوله وفرعها في السماء أي في جهة العلو وليس المراد حقيقة السماء المعروفة (كيف يشاء) تارة سائرا وتارة واقفا وتارة مطبقا وتارة غير مطبق وتارة الى مسافة بعيدة وتارة الى مسافة قريبة وتارة من ناحية الشمال وتارة من ناحية الجنوب أو الدبور أو الصبا وقد تقدم تفسير هذه الآية في البقرة وفي سورة النور (ويجعله كسفا) تارة أخرى أو يجعله بعد بسطه قطعا متفرقة بعضها فوق بعض والكسف جمع كسفة بالكسر وهي القطعة من الشئ أو السحاب وقرئ بفتح السين وسكونها والمسكن مخفف من المحرك بمعنى والقراءتان سبعيتان وجمع الجمع أكساف وكسوف وكسفه يكسفه قطعه (فترى الودق) أي المطر (يخرج من خلاله) أي من بينه ووسطه (فاذا أصاب به) أي بالودق (من يشاء من عباده) أي بلادهم وأرضهم (اذا هم يستبشرون) اذا هي الفجائية أي فاجؤا الاستبشار بمجئ المطر والخصب والاستبشار الفرح (وان) أي وان الشأن وفسر المحلي ان بقد تبعا للفوي والاول أولى ويدل له اللام في لمبلسين فانها اللام الفارقة (كانوا من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله) تكرير للتأكيد قاله الاخفش وأكثر النحويين كما حكاه عنهم النحاس كقوله فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ومعنى التوكيد فيها على ما قاله الزمخشري الدلالة على ان عهدهم بالمطر قد تطاول فاستحكم يأسهم وتمادى ابلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك قال السمين وهو كلام حسن وقال ابن عطية وفائدة هذا التأكيد الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الابلاس الى الاستبشار وذلك ان قوله من قبل أن ينزل عليهم يحتمل الفسحة في الزمان أي من قبل ان ينزل بكثير كالايام فجاء قوله من قبله بمعنى ان ذلك متصل بالمطر فهو تأكيد مفيد وقال قطرب ان الضمير في قبله راجع الى المطر أي وان كانوا من قبل التنزيل من قبل المطر قبل

سوأ أو يظلم نفسه الآية والآيات في هذا كثيرة جدا وقوله تعالى وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء هذه آية أخرى ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار وصدق من جعل له معجزة وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه فاذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف وقوله تعالى في تسع آيات أي هاتان ثنتان من تسع آيات أؤيدك بهن واجعلهن برهانا لك الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين وهذه هي الآيات التسع التي قال الله تعالى ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كما تقدم تقرير ذلك هنالك وقوله تعالى فلما جاءتهم آياتنا

مبصرة أي بينة واضحة ظاهرة قالوا هذا سحر مبين وأرادوا معارضته بسحرهم فغلبوا وانقلبوا صاغرين وجحدوا بها أي في ظاهر أمرهم واستيقنتها أنفسهم أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله ولكن جحدوها وعاندوها وكابروها ظلما وعلوا أي ظلما من أنفسهم سجية ملعونة وعلوا أي استكبارا عن اتباع الحق ولهذا قال تعالى فانظر كيف كان عاقبة المفسدين أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في اهلاك الله اياهم واغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة وفحوى الخطاب يقول احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى فان محمدا صلى الله عليه وسلم أشرف وأعظم من موسى وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة والمواهب الجليلة والصفات الجميلة

المعنى من قبل تنزيل الغيث عليهم من قبل الزرع والمطر وقيل من قبل أن ينزل عليهم من قبل السحاب أي من قبل رؤيته واختار هذا النحاس وقيل الضمير عائد الى الكسف وقيل الى الارسال وقيل الى الاستبشار والراجح الوجه الأول وما بعده من هذه الوجوه كلها في غاية التكلف والتعسف (لمبلسين) أي آيسين يقال أبلس الرجل ابلاسا سكت وأبلس أيس وقد تقدم تحقيق الكلام في هذا (فانظر الى آثار رحمة الله) الناشئة عن انزال المطر من النبات والثمار والزرائع التي بها يكون الخصب ورخاء العيش أي انظر نظر اعتبار واستبصار لتستدل بذلك على توحيد الله وتفرده بهذا الصنع العجيب والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وآثار بالجمع سبعية (كيف يحيي الأرض بعد موتها) فاعل الاحياء ضمير يعود الى الله سبحانه وقيل ضمير يعود الى الأثر أي انظر الى كيفية هذا الاحياء البديع للأرض بعد موتها والمراد بالنظر التنبيه على عظيم قدرته وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لأمر البعث وقرئ تحيي بالفوقية على ان فاعله ضمير يعود الى الرحمة أو الى الآثار (ان ذلك) أي ان الله العظيم الشأن المخترع لهذه الأشياء المذكورة (لمحيي الموتى) أي لقادر على احيائهم في الآخرة وبعثهم ومجازاتهم كما أحيا الأرض الميتة بالمطر وهذا استدلال باحياء الموات على احياء الأموات (وهو على كل شيء قدير) أي عظيم القدرة وكثيرها وهذا من جملة المقدورات بدليل الانشاء (ولئن أرسلنا ريحا) مضرة وهي الريح الدبور التي أهلكت بها عاد (فرأوه) أي الزرع والنبات الذي كان من أثر رحمة الله (مصفرا) من البرد الناشئ عن الريح التي أرسلها الله بعد اخضراره وقيل الضمير راجع الى الريح وهو يجوز تذكيره وتأنيثه وقيل راجع الى الأثر المدلول عليه بالآثار وقيل راجع الى السحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر والأول أولى واللام هي الموطئة وجواب القسم قوله تعالى (لظلوا من بعده) وهو يسد مسد جواب الشرط لانه اجتمع هنا شرط وقسم والشرط مؤخر فحذف جوابه دلالة عليه بجواب القسم على القاعدة والمعنى والله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفرة لظلوا من بعد ذلك (يكفرون) بالله ويجحدون نعمه والمعنى انهم يفرحون عند الخصب ولو أرسلت عذابا على زرعهم لجحدوا سالف نعمتي وفي هذا دليل على سرعة تقلبهم وعدم صبرهم وضعف قلوبهم وليس كذا حال أهل الايمان ثم شبههم بالموتى وبالصم فقال (فانك لا تسمع الموتى)

وما جمع لهما بين سعادة الدنيا والآخرة الملك والتمكين التام في الدنيا والنبوة والرسالة في الدين ولهذا قال تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين قال ابن أبي حاتم ذكر عن ابراهيم بن يحيى بن هشام أخبرني أبي عن جدي قال كتب عمر بن عبد العزيز ان الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها الا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لا تعرف ذلك الا في كتاب الله المنزل قال الله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين فأي نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان عليهما السلام وقوله تعالى وورث سليمان داود أي في الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال اذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود فانه كان لداود مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فان الانبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم حتى انه سخر له الانس والجن والطير وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا وهذا شئ لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بني آدم قبل سليمان بن داود كما قد يتفوه به كثير من الناس فهو قول بلا علم ولو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول وليس الامر كما زعموا ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت الى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال ولكن الله سبحانه كان قد أفهم سليمان ما يخاطب به الطيور في الهواء وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال تعالى علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ أي مما يحتاج اليه الملك ان هذا لهو الفضل المبين أي الظاهر البين لله علينا قال الامام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان اذا خرج أغلقت الابواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال فخرج ذات يوم وأغلقت الابواب فأقبلت امرأة تطلع الى الدار

أي موتى القلوب اذا دعوتهم فكذا هؤلاء لعدم فهمهم للحقائق ومعرفتهم للصواب (ولا تسمع الصم الدعاء) اذا دعوتهم الى الحق ووعظتهم بمواعظ الله وذكرتهم الآخرة وما فيها (اذا ولوا مدبرين) بيان لاعراضهم عن الحق بعد بيان كونهم كالاموات وكونهم صم الآذان وقد تقدم تفسير هذا في سورة النمل فان قلت الاصم لا يسمع مقبلا أو مدبرا فما فائدة هذا التخصيص قلت هو اذا كان مقبلا يفهم بالرمز والاشارة فاذا ولى لا يسمع ولا يفهم بالاشارة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لاهل بدر والاسناد ضعيف والمشهور في الصحيحين وغيرهما ان عائشة استدلت بهذه الآية على رد رواية من روى من الصحابة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم نادى أهل قليب بدر وهو من الاستدلال بالعام على رد الخاص فقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قيل له انك تنادي أجسادا بالية ما أنتم بأسمع لما أقول منهم وفي مسلم من حديث أنس ان عمر بن الخطاب لما سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يناديهم فقال يا رسول الله تناديهم بعد ثلاث وهل يسمعون يقول الله انك لا تسمع الموتى فقال والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع منهم ولكنهم لا يطيقون ان يجيبوا ثم وصفهم بالعمى فقال (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) لفقدهم للانتفاع بالابصار كما ينبغي أو لفقدهم للبصائر (ان) أي ما (تسمع الا من يؤمن بآياتنا) لكونهم أهل التفكر والتدبر والاستدلال بالآثار على المؤثر (فهم مسلمون) أي منقادون للحق متبعون له وفيه مراعاة معنى من (الله الذي خلقكم) ذكر سبحانه استدلالا آخر على كمال قدرته وهو خلق الانسان نفسه على أطوار مختلفة كما قال (من ضعف) أي بدأكم وأنشأكم على ضعف وهو مصدر ضد القوة قال الواحدي قال المفسرون من نطفة كقوله من ماء مهين أي ذي ضعف وقيل المراد حال الطفولية والصغر وهذه أحوال غاية الضعف قرئ ضعف بضم الضاد في هذه المواضع وفتحها وهما لغتان قال الفراء الضم لغة قريش والفتح لغة تميم قال الجوهري الضعف والضعف خلاف القوة والصحة وقيل هو بالفتح في الرأي وبالضم في الجسم وأجاز الكوفيون ضعف بفتحتين (ثم جعل من بعد ضعف قوة) وهي قوة الشباب وبلوغ الاشد فانه اذ ذاك تستحكم القوة وتشتد الخلقة الى بلوغ النهاية (ثم جعل من بعد قوة ضعفا) أي عند الكبر والهرم (وشيبة) هي تمام الضعف ونهاية الكبر وقيل بياض الشعر الاسود ويحصل أوله

في الغالب في السنة الثالثة والاربعين وهو أول سن الاكتهال والاخذ في النقص بالفعل بعد الخمسين الى أن يزيد النقص في الثالثة والستين وهو أول سن الشيخوخة ويقوى الضعف الى ماشاء الله تعالى (يخلق مايشاء) من جميع الاشياء ومن جملتها القوة والضعف والشباب والشيبة في بني آدم (وهو العليم) بتدبيره وأحوالهم (القدير) على خلق مايريده وتغييرهم وهذا الترديد في الاحوال أبين دليل على الصانع القادر (ويوم تقوم) أي توجد وتحصل (الساعة) أي القيامة وهي النفخة الثانية وسميت ساعة لانها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة (يقسم المجرمون) أي يحلف المشركون والكافرون المنكرون للبعث بانهم (مالبثوا) في الدنيا قاله الخطيب والكشاف والقاضي أو في قبورهم قاله مقاتل والكلبي (غير ساعة) فيمكن ان يكونوا استقلوا مدة لبثهم واستقر ذلك في أذهانهم فحلفوا عليه وهم يظنون ان حلفهم مطابق للواقع وقال ابن قتيبة انهم كذبوا في هذا الوقت كما كانوا يكذبون من قبل وهذا هو الظاهر لانهم ان أرادوا لبثهم في الدنيا فقد علم كل واحد منهم مقداره وان أرادوا لبثهم في القبور فقد حلفوا على جهالة ان كانوا لايعرفون الاوقات في البرزخ (كذلك) الصرف (كانوا يؤفكون) أي يصرفون ويقولون ماهي الا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين يقال افك الرجل اذا صرف عن الصدق والحق وقيل المراد يصرفون عن الحق وقيل عن الخير والاول أولى وهو دليل على ان حلفهم كذب (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) اختلف في تعيين هؤلاء فقيل الملائكة وقيل الانبياء وقيل علماء الامم وقيل مؤمنو هذه الامة ولامانع من الحمل على الجميع قالوا رداً على هؤلاء الكفرة وتكذيباً لهم (لقد لبثتم في كتاب الله) أي سابق علمه وسابق قضائه (الى يوم البعث) قال الزجاج في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ قال الواحدي المفسرون حملوا هذا على التقديم والتأخير على تقدير وقال الذين أوتوا العلم في كتاب الله وكان رد الذين أوتوا العلم عليهم باليمين للتأكيد أو للمقابلة لليمين باليمين ردوا ما قالوه وحلفوا عليه وأطلعوهم على الحقيقة ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على انكار البعث فقالوا على طريقة التبكيت بقولهم (فهذا) الوقت الذي صاروا فيه هو (يوم البعث) الذي كنتم تنكرونه في الدنيا وقيل الفاء جواب شرط محذوف تقديره ان كنتم منكرين للبعث فهذا يومه أي فقد تبين بطلان انكاركم (ولكنكم كنتم لاتعلمون) انه حق وقوعه في

فاذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لنفتضحن بداود فجاء داود عليه السلام فاذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود من أنت فقال الذي لايهاب الملوك ولايمتنع من الحجاب فقال داود أنت اذا والله ملك الموت مرحبا بامر الله فدخل داود مكانه حتى قبضت نفسه حتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقال سليمان عليه السلام للطير أظلي داود فظللت عليه الطير حتى أظلمت عليه الارض فقال لها سليمان اقبضي جناحا جناحا قال أبو هريرة يارسول الله كيف فعلت الطير فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وغلبت عليه يومئذ المضرجية قال أبو الفرج ابن الجوزي المضرجية هي النسور الحمر وقوله تعالى وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون اي وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الانس وكانوا هم الذين يلونه والجن وهم بعدهم في المنزلة والطير ومنزلتها فوق رأسه فان كان حر أظلته منه باجنحتها وقوله فهم يوزعون أي يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التي هي مرتبة له قال مجاهد جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم وقوله حتى اذا أتوا على وادي النمل أي حتى اذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فاورد ابن عساكر من طريق اسحق بن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن ان اسم هذه النملة حرس وانها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان وانها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب أي خافت على النمل ان تحطمها الخيول بحوافرها فامرتهم بالدخول الى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وان أعمل صالحا ترضاه أي الهمني ان أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان وعلى والدي بالاسلام لك والايمان بك وان أعمل صالحا ترضاه أي عملا تحبه وترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين أي اذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك والرفيق الاعلى من أوليائك ومن قال من المفسرين ان هذا الوادي كان بارض الشام أو بغيره وان هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك

من الاقاويل فلا حاصل لها وعن نوف البكالي أنه قال كان نمل سليمان أمثال الذئاب هكذا رأيته مضبوطا بالياء المثناة من تحت وانما هو بالباء الموحدة وذلك تصحيف والله أعلم والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها وتبسم ضاحكا من ذلك وهذا أمر عظيم جدا وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن بشار حدثنا يزيد بن هرون أنبأنا مسعر عن زيد العمي عن أبي الصديق الناجي قال خرج سليمان بن داود عليهما السلام يستسقي فاذا هو بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها الى السماء وهي تقول اللهم انا خلق من خلقك ولاغنى بنا عن سقياك والا تسقنا تهلكنا فقال سليمان ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم

وقد ثبت في الصحيح عند مسلم من طريق عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال قرصت نبيا من الانبياء نملة فامر بقرية النمل فاحرقت فاوحى الله اليه أفي أن قرصتك نملة أهلكت امة من الامم تسبح فهلا نملة واحدة (وتفقد الطير فقال مالي لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين) قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره كان الهدهد مهندسا يدل سليمان عليه السلام على الماء اذا كان بارض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الارض كما يرى الانسان الشئ الظاهر على وجه الارض ويعرف كم مساحة بعده من وجه الارض فاذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره فنزل سليمان عليه السلام يوما بفلاة من الارض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره فقال مالي لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الازرق وكان كثير الاعتراض على ابن عباس فقال له قف يا ابن عباس غلبت اليوم قال ولم قال انك تخبر عن الهدهد انه يرى الماء في تخوم الارض وان الصبي ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجيء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبي فقال ابن عباس لولا ان يذهب هذا فيقول رددت على ابن عباس لما أجبته ثم قال له ويحك انه اذا نزل القدر عمي البصر وذهب الحذر فقال له نافع والله لاأجادلك في شيء من القرآن أبدا وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله البرزي من أهل برزة من حوائط دمشق

الدنيا بل كنتم تستعجلونه تكذيبا واستهزاء (فيومئذ) الفاء لتفصيل لما يفهم مما قبلها من انه لا يفيدهم تقليل مدة اللبث ولا النسيان أو هو جواب شرط مقدر أيضا (لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم) أي لا ينفعهم الاعتذار يومئذ ولا يفيدهم علمهم بالقيامة كأنهم توهموا ان التقليل ونحوه عذر في عدم طاعتهم كقوله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وقيل لما رد عليهم المؤمنون سألوا الرجوع الى الدنيا واعتذروا ولم يعذروا قرئ لا ينفع بالتحتية وبالفوقية وهما سبعيتان (ولاهم يستعتبون) أي لا يطلب منهم العتبى وهو الرجوع الى ما يرضي الله من التوبة والعمل الصالح وذلك لانقطاع التكليف في ذلك اليوم يقال استعتبته فاعتبني أي استرضيته فأرضاني وذلك اذا كنت جانيا عليه وحقيقة أعتبته أزلت عتبه والمعنى أنهم لا يدعون الى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا الى ذلك في الدنيا (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أي وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم وما يقولون وما يقال لهم وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الامثال التي تدلهم على توحيد الله وصدق رسله واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار (ولئن جئتهم باية) من آيات القرآن الناطقة بذلك أو لئن جئتهم باية كالعصا واليد أو جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل (ليقولن الذين كفروا) منهم (ان انتم الا مبطلون) أي ما أنت يا محمد وأصحابك الا أصحاب أباطيل تتبعون السحر وما هو مثله في البطلان أو انكم كلكم أيها الرسل مبطلون واللام مؤكدة واقعة في جواب القسم (كذلك) الطبع (يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) أي الفاقدين للعلم النافع الذي يهتدون به الى الحق والتوحيد وينجون به من الباطل والشرك والمصرين على خرافات اعتقدوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر معللا لذلك بحقية وعده سبحانه وعدم الخلف فيه فقال (فاصبر) على ما تسمعه منهم من الاذى وتنظره من الافعال الكفرية والفاء فصيحة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصر عليهم واعلاء حجتك واظهار دعوتك ووعده حق لا خلف فيه (ولا يستخفنك) أي لا يحملنك يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الخفة والجهل والطيش

وكان من الصالحين يصوم يوم الاثنين والخميس وكان أعو ... فروى ابن عساكر بسنده الى أبي سليمان
من بنى عورة فامتنع عليه فألح عليه ثم ورا فأخبره انه ... من اهل خراسان نزلا عنده جمعة فى قرية برزة وسألاه عن و
فأريتهما اياه فأخرجا جامرا وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجعج الوادى بالدخان فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان اليهما فلا
يلتفتان الى شئ منها حتى اقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار فاستبشرا عظيما وقالا الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا
من سنة وكسرا الجامر واخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به

فسألتهما ان يكحلانى فأبيا فألححت عليهما

والطيش بترك الصبر ولا يستفزنك عن دينك وما انت عليه يقال استخف فلان فلانا أى استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى وقرئ من الاستحقاق والنهى فى الآية من باب لا اربنك ههنا (الذين لا يوقنون) بالله ولا يصدقون انبياءه ولا يؤمنون بكتبه ولا بالبعث والحساب

(سورة لقمان آياتها ثلاث أو أربع وثلاثون آية)

وهى مكية الا ثلاث آيات وهى قوله تعالى ولو أن ما فى الارض من شجرة اقلام الى تمام الآيات الثلاث قاله ابن عباس وعنه انها مكية ولم يستثن وعن قتادة انها مكية الا آيتين مدنيتان وأخرج النسائى وابن ماجه عن البراء قال كنا نصلى خلف النبى صلى الله عليه وآله وسلم الظهر نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الله أعلم بمراده به وقد تقدم الكلام على مثل فاتحة هذه السورة فلا نعيده (تلك آيات الكتاب الحكيم) وقد تقدم أيضا بيان مرجع الاشارة من اراف نظائرها والحكيم اما ان يكون بمعنى مفعل أو بمعنى فاعل أو بمعنى ذى الحكمة أو الحكيم قائله والاضافة بمعنى من (هدى ورحمة) قال الزجاج المعنى تلك آيات الكتاب فى حال الهداية والرحمة وقرئ بالرفع أى هو هدى ورحمة (للمحسنين) المحسن العامل للحسنات أو من يعبد الله كأنه يراه كما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم فى الصحيح لما سأله جبريل عن الاحسان فقال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ثم وصفهم بقوله (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) وخص هذه العبادات الثلاث لانها عمدتها (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) قد تقدم تفسير هذا فى أوائل سورة البقرة والمعنى هنا ان أولئك المتصفين بالاحسان وفعل تلك الطاعات التى هى امهات العبادات هم على طريقة الهدى وهم الفائزون بمطالبهم الظافرون بخيرى الدارين (ومن الناس من يشترى) من اما موصولة أو موصوفة ومفرد لفظا جمع معنى وروعى لفظها أولا فى ثلاثة ضمائر يشترى ويضل ويتخذ وروعى معناها ثانيا فى موضعين وهما أولئك لهم ثم رجع الى مراعاة اللفظ فى خمسة ضمائر وهى واذا تتلى عليه الخ (لهو الحديث) وهو كل باطل

وقلت لابد من ذلك وتوعدتهما بالدولة فكحلا عينى الواحدة اليمنى فحين وقع فى عينى نظرت الى الارض تحتى مثل المرآة أنظر ما تحتها كما ترى المرآة ثم قالا لى سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثانى حتى اذا بعدت عن القرية اخذانى فكتفانى وادخل احدهما يده فى عينى ففقأها ورمى بها ومضى فلم ازل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بى نفر ففك وثاقى فهذا ما كان من خبر عينى وقال ابن ابى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال اسم هدهد سليمان عليه السلام عنبر وقال محمد بن اسحق كان سليمان عليه السلام اذا غدا الى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير وكان فيما يزعمون يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره الا الهدهد فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين أخطأه بصرى أم غاب فلم يحضر

وقوله لأعذبنه عذابا شديدا قال الاعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد عن ابن عباس يعنى نتف ريشه وقال عبد الله بن شداد نتف ريشه وتشميسه وكذا قال غير واحد من السلف انه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل وقوله أو لأذبحنه يعنى قتله أو ليأتينى بسلطان مبين بعذر بين واضح وقال سفيان بن عيينة وعبد الله بن شداد لما قدم الهدهد قالت له الطير ما خلفك فقد نذر سليمان دمك فقال هل استثنى قالوا نعم قال لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه او ليأتينى بسلطان مبين قال نجوت اذا قال مجاهد انما دفع الله عنه ببره بامه (فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت

من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) يقول تعالى فمكث الهدهد غير بعيد أي غاب زمانا يسيرا ثم جاء فقال لسليمان أحطت بما لم تحط به أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك وجئتك من سبأ بنبأ يقين أي بخبر صدق حق يقين وسبأ هم حمير وهم ملوك اليمن ثم قال إني وجدت امرأة تملكهم قال الحسن

البصري وهي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ وقال قتادة كانت أمها جنية وكان مؤخر قدميها مثل حافر الدابة من بيت مملكة وقال زهير بن محمد هي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن الريان وأمها فارعة الجنية وقال ابن جريج بلقيس بنت ذي شرح وأمها بلتعة وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا مسدد حدثنا سفيان بن عيينة عن عطاء بن السائب عن مجاهد عن ابن عباس قال كان مع صاحبة سليمان مائة ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف وقال الأعمش عن مجاهد كان تحت يدي ملكة سبأ اثنا عشر ألف قيل تحت كل قيل مائة ألف مقاتل وقال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة في قوله تعالى إني وجدت امرأة تملكهم كانت من بيت مملكة وكان أولو مشورتها ثلثمائة واثني عشر رجلا كل رجل منهم على عشرة آلاف رجل وكانت بأرض يقال لها مأرب على ثلاثة أميال من صنعاء وهذا القول هو أقرب على أنه كثير على مملكة اليمن والله أعلم وقوله وأوتيت من كل شيء أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك المتمكن ولها عرش عظيم يعني سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب وأنواع الجواهر واللآلئ قال زهير بن محمد كان من ذهب وصفحتاه مرمولان بالياقوت والزبرجد طوله ثمانون ذراعا وعرضه أربعون ذراعا وقال محمد بن إسحق كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ وكان إنما يخدمها النساء ولها ستمائة امرأة تلي الخدمة قال علماء التاريخ وكان هذا السرير في قصر عظيم مشيد رفيع البناء محكم وكان فيه ثلثمائة وستون طاقة من مشرقه ومثلها من مغربه قد وضع بناؤه على أن تدخل الشمس كل يوم من طاقة وتغرب من مقابلتها فيسجدون لها صباحا ومساء

يلهي ويشغل عن الخير من الغناء والملاهي والأحاديث المكذوبة والأضاحيك والسمر بالأساطير التي لا أصل لها والخرافات والقصص المختلقة والمعازف والمزامير وكل ما هو منكر والإضافة بيانية أي اللهو من الحديث لأن اللهو يكون حديثا وغيره فهو كثوب خز وهذا أبلغ من حذف المضاف وقيل المراد شراء القينات المغنيات والمغنين فيكون التقدير من يشتري أهل لهو الحديث قال الحسن لهو الحديث المعازف والغناء وروي عنه أنه قال هو الكفر والشرك وفيه بعد والمراد بالحديث الحديث المنكر والمعنى يختارون حديث الباطل على حديث الحق قال القرطبي إن أولى ما قيل في هذا الباب هو تفسير لهو الحديث بالغناء قال وهو قول الصحابة والتابعين قال ابن عباس لهو الحديث باطله وهو في النضر بن الحرث بن علقمة اشترى أحاديث الأعاجم وأخبار الأكاسرة وصنيعهم في دهرهم وكان يكتب الكتب من الحيرة إلى الشام ويحدث بها قريشا ويكذب القرآن وعنه قال هو الغناء وأشباهه أخرجه البخاري في الأدب المفرد وعنه قال الجواري الضاربات وعن ابن مسعود قال هو والله الغناء وفي لفظ قال هو الغناء والله الذي لا إله إلا هو يرددها ثلاث مرات وعن ابن عباس والحسن وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا لهو الحديث هو الغناء والآية نزلت فيه وقيل هو كل لهو ولعب والمعنى يستبدل ويختار الغناء والمزامير والمعازف على القرآن وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية وفي إسناده عبيد بن زحر عن علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن وفيهم ضعف وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن مردويه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ومن الناس من يشتري لهو الحديث وأخرج البيهقي في السنن وابن أبي الدنيا وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الغناء ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل ورويناه عنه موقوفا وأخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك وأخرج الترمذي عنه مرفوعا نحوه

وفي

ولهذا قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل أي عن طريق الحق فهم لا يهتدون وقوله ألا يسجدوا لله معناه وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ان لا يسجدوا لله أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي اخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها كما قال تعالى ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ان كنتم اياه تعبدون وقرأ بعض القراء الا يسجدوا لله جعلها ألا الاستفتاحية ويا للنداء وحذف المنادى تقديره عنده ألا يا قوم اسجدوا لله. وقوله الذي يخرج الخبء في السموات والارض قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعلم كل خبيئة في السماء والارض وكذا قال عكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغير واحد وقال سعيد بن المسيب الخبء الماء وكذا قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم خبء السموات والارض ما جعل فيهما من الارزاق المطر من السماء والنبات من الارض وهذا مناسب من كلام الهدهد الذي جعل الله فيه من الخاصية ما ذكره ابن عباس وغيره من أنه يرى الماء يجري في تخوم الارض وداخلها وقوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الاقوال والافعال وهذا كقوله تعالى سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وقوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم أي هو المدعو الله وهو الذي لا اله الا هو رب العرش العظيم أي الذي ليس في المخلوقات أعظم منه ولما كان الهدهد داعيا الى الخير وعبادة الله وحده والسجود له نهي عن قتله كما رواه الامام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهد والصرد واسناده صحيح (قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون قالت يا أيها الملأ اني ألقي الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين)

وفي الباب أحاديث في كل حديث منها مقال وقال ابن مسعود لهو الحديث الرجل يشتري جارية تغنيه ليلا ونهارا وعن ابن عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في لهو الحديث انما ذلك شراء الرجل اللعب والباطل أخرجه ابن مردويه وعن نافع قال كنت أسير مع عبد الله بن عمر في طريق فسمع زمارة فوضع اصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أتسمع قلت لا فاخرج اصبعيه من أذنيه وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صنع وعن ابن عوف ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال انما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نعمة لهو ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان (ليضل عن سبيل الله) اللام للتعليل قرئ بضم الياء أي ليضل غيره عن طريق الهدى ومنهج الحق وقرئ بفتح الياء أي ليضل هو في نفسه ويدوم ويستمر ويثبت على الضلال وهما سبعيتان قال الزجاج من قرأ بضم الياء فمعناه ليضل غيره فاذا أضل غيره فقد ضل هو ومن قرأ بالفتح فمعناه ليصير أمره الى الضلال وهو وان لم يكن يشتري الضلالة فان أمره الى ذلك فأفاد هذا التعليل انه انما يستحق الذم من اشترى لهو الحديث لهذا القصد ويؤيده هذا سبب النزول قال ابن عباس سبيل الله قراءة القرآن وذكر الله نزلت في رجل من قريش اشترى جارية مغنية قال الطبري قد أجمع علماء الامصار على كراهة الغناء والمنع منه وانما فارق الجماعة ابراهيم بن سعد وعبيد الله العنبري قال القاضي أبو بكر بن العربي يجوز للرجل ان يسمع غناء جاريته اذ ليس شيء منها عليه حراما لا من ظاهرها ولا من باطنها فكيف يمنع من التلذذ بصوتها وقال في نيل الاوطار بعد ذكر الاختلاف فيه مع الادلة لا يخفى على الناظر ان محل النزاع اذا خرج عن دائرة الحرام لم يخرج عن دائرة الاشتباه والمؤمنون وقافون عند الشبهات كما صرح به الحديث الصحيح ومن تركها فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ولا سيما اذا كان مشتملا على ذكر القدود والخدود والجمال والدلال والهجر والوصال ومعاقرة العقار وخلع العذار والوقار فان سامع ما كان كذلك لا يخلو عن بلية وان كان من التصلب في ذات الله على حد يقصر عنه الوصف وكم لهذه الوسيلة الشيطانية من قتيل دمه مطلول وأسير بهموم غرامه وهيامه مكبول نسأل الله السداد والثبات قلت وقد جمع الشوكاني رسالة مشتملة على أقوال أهل العلم في الغناء وما استدل

يقول تعالى مخبرا عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين أي أصدقت في اخبارك هذا أم كنت من الكاذبين في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون وذلك ان سليمان عليه السلام كتب كتابا الى بلقيس وقومها وأعطاه ذلك الهدهد فحمله قيل في جناحه كما هي عادة الطير وقيل بمنقاره وذهب الى بلادهم فجاء الى قصر بلقيس الى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه اليها من كوة هنالك بين يديها ثم تولى ناحية أدبا ورياسة

الضالون له والمحرمون له وحققت هذا المقام بما لا يحتاج من نظر فيها وتدبر معانيها الى النظر في غيرها وسميتها ابطال دعوى الاجماع على تحريم مطلق السماع ولما أجاب شيخنا رحمه الله عن سؤال جوابا بسيطا في جواز الغناء وعدم جوازه بالفارسية ذكرناه في كتابنا هداية السائل في أحسن تحقيق المقام كما ينبغي فليرجع الى ذلك (بغير علم) أي حال كونه غير عالم بحال ما يشتريه أو بحال ما ينفع من التجارة وما يضر فلهذا استبدل بالخير ما هو شر محض أو يفعله عن جهل أو جهلا بما عليه من الوزر ونحوه قوله تعالى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين أي لصواب التجارة (ويتخذها) قرأ حمزة والكسائي والأعمش بالنصب عطفا على يضل والضمير المنصوب راجع الى السبيل فيكون المعنى على هذه القراءة من جملة التعليل للحجر والمعنى انه يشتري لهو الحديث للاضلال عن سبيل الله واتخاذ السبيل (هزوا) أي مهزوا به والسبيل يذكر ويؤنث وقرأ الجمهور بالرفع عطفا على يشتري فهو من جملة الصلة وقيل الرفع على الاستئناف والضمير المنصوب يعود الى الآيات المتقدم ذكرها والأول أولى (أولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها كما تقدم (لهم عذاب مهين) هو الشديد الذي يصير به من وقع عليه مهينا (واذا تتلى عليه) أي على هذا المستهزئ (آياتنا ولى مستكبرا) أي أعرض عنها حال كونه مبالغا في التكبر رافعا نفسه عن الاصغاء الى القرآن (كأن لم يسمعها) أي كأن ذلك المعرض المستكبر لم يسمعها مع انه قد سمعها ولكن أشبهت حاله حال من لم يسمع (كأن في أذنيه وقرا) ولا وقر فيهما والوقر الثقل وهو حال من لم يسمعها وقد تقدم بيانه وفيه مبالغة في اعراض ذلك المعرض (فبشره بعذاب أليم) أي أخبره بأن له العذاب البليغ في الألم وذكر البشارة تهكم به ثم لما بين سبحانه حال من يعرض عن الآيات بين حال من يقبل عليها فقال (ان الذين آمنوا) بالله وبآياته ولم يعرضوا عنها بل قبلوها (وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم) أي نعيم الجنات فعكسه للمبالغة جعل لهم جنات النعيم كما جعل للفريق الأول العذاب المهين (خالدين فيها) حال من الضمير في لهم أي مقدرا خلودهم فيها اذا دخلوها (وعد الله حقا) هما مصدران الأول مؤكد لنفسه أي وعد الله وعدا والثاني مؤكد لغيره وهو مضمون الجملة الأولى وتقديره حق ذلك حقا والمعنى ان وعده أن لهم جنات النعيم كائن لا محالة ولا خلف فيه (وهو العزيز) الذي لا يغلبه غالب (الحكيم) ف

فتحيرت مما رأت وهالها ذلك ثم عمدت الى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فاذا فيه انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها ثم قالت لهم يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره كون طائر أتاها به فألقاه اليها ثم تولى عنها أدبا وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم الى ذلك ثم قرأت عليهم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين فعرفوا انه من نبي الله سليمان عليه السلام وانه لا قبل لهم به وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة فانه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها قال العلماء لم يكتب أحد بسم الله الرحمن الرحيم قبل سليمان عليه السلام وقد روى ابن أبي حاتم في ذلك حديثا في تفسيره حيث قال حدثنا أبي حدثنا هرون بن الفضل أبو يعلى الخياط حدثنا أبو يوسف عن سلمة بن صالح عن عبد الكريم أبي أمية عن ابن بريدة عن أبيه قال كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اني أعلم آية لم تنزل على نبي قبلي بعد سليمان بن داود قلت يا نبي الله أي آية قال سأعلمكها قبل ان أخرج من المسجد قال فانتهى الى الباب فأخرج احدى قدميه فقلت نسي ثم التفت الي وقال انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم هذا حديث غريب واسناده ضعيف وقال ميمون بن مهران كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يكتب باسمك اللهم حتى نزلت هذه الآية فكتب بسم الله الرحمن الرحيم وقوله ان لا تعلوا على قال قتادة يقول لا تجبروا على وأتوني مسلمين وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لا تمتنعوا ولا تتكبروا على وأتوني مسلمين قال ابن عباس موحدين وقال غيره مخلصين وقال سفيان بن عيينة طائعين (قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون واني مرسلة اليهم

بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها وما قد نزل بها ولهذا قالت يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون أي حتى تحضرون وتشيرون قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد أي منوا اليها بعددهم وعددهم وقوتهم ثم فوضوا اليها بعد ذلك الامر فقالوا والامر اليك فانظري ماذا تأمرين أي نحن ليس لنا عاقة ولا بنا بأس ان شئت ان تقصديه وتحاربيه فالاعاقة عنه وبعد هذا فالامر اليك فأري فينا رأيك نمتثله ونطيعه قال الحسن البصري رحمه الله فوضوا أمرهم الى علجة يضطرب ثدياها فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأيا منهم وأعلم بأمر سليمان وانه لا قبل لها بجنوده وجيوشه وما سخر له من الجن والانس والطير وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمرا عجيبا بديعا فقالت لهم اني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ويهلكنا بمن معه ويخلص الى والكم الهلاك والدمار دون غيرنا ولهذا قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها قال ابن عباس أي اذا دخلوا بلدا عنوة أفسدوه أي خربوه وجعلوا أعزة أهلها أذلة أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود فأهانوهم غاية الهوان اما بالقتل أو بالاسر قال ابن عباس قالت بلقيس ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة قال الرب عز وجل وكذلك يفعلون ثم عدلت الى المصالحة والمهادنة والمسالمة والمخادعة والمصانعة فقالت واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون أي سأبعث اليه بهدية تليق بمثله وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك فلعله يقبل

كل أفعاله وأقواله ثم بين سبحانه عزته وحكمته بقوله (خلق السموات بغير عمد) جمع عماد كأهب جمع اهاب وهو ما يعمد به أي يسند يقال عمدت الحائط اذا دعمته والدعامة بالكسر ما يسند به الحائط اذا مال يمنعه السقوط ودعمت الحائط دعما من باب نفع وقد تقدم الكلام فيه في سورة الرعد قيل ان السماء خلقت مبسوطة كصحيفة مستوية وهو قول المفسرين وهي في الفضاء والفضاء لا نهاية له وكون السماء في بعضه دون بعض ليس ذلك الا بقدرة قادر مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد (ترونها) أي ليس لها شئ يمنعها الزوال من موضعها وهي ثابتة لا تزول وليس ذلك الا بقدرة الله تعالى وفيه وجهان أحدهما انه راجع الى السموات أي ليست هي بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد الوجه الثاني انه راجع الى العمد ومعناه بغير عمد مرئية فيمكن ان تكون ثم عمد ولكن لا ترى وقيل ولا عمد البتة قال علي بن سليمان الاولى أن يكون مستأنفا أي ولا عمد ثم (وألقى في الارض رواسي) أي جبالا مرتفعة ثوابت شوامخ من أوتاد الارض وهي سبعة عشر جبلا منها قاف وأبو قبيس والجودي ولبنان وطور سينين وطور سيناء أخرجه ابن جرير ولكن لا وجه للتخصيص والاولى العموم والجبال على الارض أكثر من ذلك والكل يصلح للرسو يقال رسا الشئ ثبت وبابه عدا وسما والرواسي الرواسخ واحدتها راسية (أن تميد بكم) أي كراهة أن تميد بكم وقيل لئلا تميد والمعنى انه خلقها وجعلها مستقرة ثابتة لا تتحرك بجبال جعلها عليها وأرساها على ظهرها (وبث) أي نشر وفرق (فيها) أي في الارض (من كل دابة) أي كل نوع من أنواع الدواب ومن زائدة (وأنزلنا) فيه التفات عن الغيبة (من السماء ماء) مطرا وهو من انعام الله على عباده وفضله (فأنبتنا فيها) أي في الارض بسبب انزال الماء (من كل زوج كريم) أي من كل صنف حسن ووصفه بكونه كريما لحسن لونه وكثرة منافعه وقيل ان المراد بذلك الناس فالكريم منهم من يصير الى الجنة واللئيم من يصير الى النار قاله الشعبي وغيره والاول أولى (هذا) أي ما ذكر من خلق السموات والارض وما تعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه تعالى (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) أي من آلهتكم التي تعبدونها من دون الله والاستفهام للتقريع والتوبيخ والمعنى فأروني أي شئ خلقوا مما يحاكي خلق الله أو يقاربه حتى استوجبوا عندكم العبادة وهذا الامر لهم لقصد التعجيز والتبكيت

ذلك منا ويكف عنا أو يضرب علينا خراجا نحمله اليه في كل عام ونلتزم له بذلك ويترك قتالنا ومحاربتنا قال قتادة رحمه الله ما كان أعقلها في اسلامها وشركها علمت ان الهدية تقع موقعا من الناس وقال ابن عباس وغير واحد قالت لقومها ان قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه وان لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه (فلما جاء سليمان قال أتمدونني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم انها بعثت اليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلئ وغير ذلك وقال بعضهم أرسلت بلبنة من ذهب والصحيح انها أرسلت اليه بآنية من ذهب قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما أرسلت جواري في زي الغلمان وغلمانا في زي الجواري فقالت ان عرف هؤلاء من هؤلاء فهو نبي قالوا فأمرهم سليمان فتوضؤا فجعلت الجارية تفرغ على يدها من الماء وجعل الغلام يغترف فميزهم بذلك وقيل بل جعلت الجارية تغسل باطن يدها قبل ظاهرها والغلام بالعكس وقيل بل جعلت الجواري يغسلن من أكفهن الى مرافقهن والغلمان من مرافقهم الى كفوفهم ولا منافاة بين ذلك كله والله أعلم وذكر بعضهم انها أرسلت اليه بقدح ليملأه ماء رواء لا من السماء ولا من الارض فأجرى الخيل حتى عرقت ثم ملأه من ذلك وبخرزة وسلك ليجعله فيها ففعل ذلك والله أعلم أكان ذلك أم لا وأكثره مأخوذ من الاسرائيليات والظاهر ان سليمان عليه السلام لم ينظر الى ما جاؤا به بالكلية ولا اعتنى به بل أعرض عنه وقال منكرا عليهم أتمدونني بمال أي أتصانعونني بمال لأترككم على شرككم وملككم فما آتاني الله خير مما آتاكم أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه بل أنتم بهديتكم تفرحون أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف وأما أنا فلا أقبل منكم الا الاسلام أو السيف قال الاعمش عن المنهال ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه أمر سليمان الشياطين فموهوا له ألف قصر من ذهب وفضة فلما رأت رسلها ذلك قالوا ما يصنع هذا بهديتنا وفي هذا جواز تهيؤ الملوك واظهارهم الزينة للرسل والقصاد ارجع اليهم أي بهديتهم

ثم اضرب عن تبكيتهم عاذكرا الى الحكم عليهم بالضلال الظاهر والاعلام ببطلان ما هم عليه فقال (بل الظالمون في ضلال مبين) فقرر ظلمهم أولا وضلالهم ثانيا ووصفه بالوضوح والظهور ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدي الى الحق (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف لبيان بطلان الشرك واختلف في لقمان هل هو عربي أم أعجمي مشتق من اللقم فمن قال انه أعجمي منعه للتعريف والعجمة ومن قال انه عربي منعه للتعريف ولزيادة الالف والنون قال الخفاجي والاول أظهر واختلفوا أيضا هل هو نبي أم رجل صالح فذهب أكثر أهل العلم الى انه ليس بنبي وحكى الواحدي عن عكرمة والسدي والشعبي انه كان نبيا والاول أرجح لما سيأتي وقيل لم يقل بنبوته الا عكرمة فقط مع ان الراوي لذلك عنه جابر الجعفي وهو ضعيف جدا وقيل خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة وهو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر أبو ابراهيم وقيل هو لقمان بن عنقاء بن مرون وكان نوبيا من أهل ايلة ذكره السهيلي قال وهب هو ابن أخت أيوب وقال مقاتل هو ابن خالته عاش ألف سنة وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل مبعث داود فلما بعث داود قطع الفتوى فقيل له فقال ألا أكتفي اذ كفيت وقيل كان خياطا وقيل نجارا وقيل راعيا وقال الواقدي كان قاضيا في بني اسرائيل وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتدرون ما كان لقمان قالوا الله ورسوله أعلم قال كان حبشيا أخرجه ابن مردويه وعن ابن عباس قال كان عبدا حبشيا نجارا وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم سادات أهل الجنة لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء قال الطبراني أراد الحبشة والحكمة التي آتاه الله هي الفقه والعقل والاصابة في القول وفسر الحكمة من قال بنبوته بالنبوة وقال ابن عباس يعني العقل والفهم والفطنة في غير نبوة وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان لقمان الحكيم كان يقول ان الله اذا استودع شيأ حفظه وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه ولم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك شيء ولا يثبت اسناد صحيح الى لقمان بشيء منها حتى نقبله وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع وفيه كفاية وما عدا ذلك

فلما أتيتهم بجنود لا قبل لهم بها أي لا طاقة لهم بقتالهم ولنخرجنهم منها أذلة اي ولنخرجنهم من بلادهم أذلة وهم صاغرون أي
مهانون مدحورون فلما رجعت اليها رسلها بهديتها وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير اليه في جنودها
خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ناوية متابعته في الاسلام ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ووفودهم اليه فرح
بذلك وسره (قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل ان يأتوني مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من
مقامك واني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من
الكتاب أنا آتيك به قبل ان يرتد اليك
طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال
هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم
أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه
ومن كفر فان ربي غني كريم) قال
محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان
قال فلما رجعت اليها الرسل بما قال
سليمان قالت قد والله عرفت ما هذا
بملك وما لنا به من طاقة وما نصنع
بمكابرته شيأ وبعثت اليه اني
قادمة عليك بملوك قومي لانظر
ما أمرك وما تدعونا اليه من دينك
ثم أمرت بسرير ملكها الذي كانت
تجلس عليه وكان من ذهب
مفصص بالياقوت والزبرجد
واللؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها
في بعض ثم أقفلت عليه الابواب ثم
قالت لمن خلفت على سلطانها
احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا
يخلص اليه أحد من عباد الله
ولا يرينه أحد حتى آتيك ثم شخصت
الى سليمان في اثني عشر ألف قيل
من ملوك اليمن تحت يد كل قيل
ألوف كثيرة فجعل سليمان يبعث
الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل
يوم وليلة حتى اذا دنت جمع من
عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين وقال قتادة لما بلغ سليمان انها
جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر وكان مسترا بالديباج والحرير وكانت عليه تسعة مغاليق
فكره ان يأخذه بعد اسلامهم وقد علم نبي الله انهم متى أسلموا تحرم اموالهم ودماؤهم فقال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل ان
يأتوني مسلمين وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد قبل أن يأتوني مسلمين فتحرم علي أموالهم باسلامهم قال عفريت
من الجن قال مجاهد أي مارد من الجن قال شعيب الجبائي وكان اسمه كوزن وكذا قال محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان وكذا قال

ما لم يصح فليس في ذكره الا شغلة للحيز وقطيعة للوقت ولم يكن نبيا حتى يكون ما نقل
عنه من شرع من قبلنا ولا صح اسناد ما روي عنه من الكلمات حتى يكون ذكر ذلك من
تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن (أن اشكر لله) ان هي المفسرة لان في الايتاء
معنى القول لانه تعليم أو وحي وقيل التقدير قلنا له هذا القول وقال الزجاج التقدير لان
اشكر وقيل بان اشكر فشكر فكان حكيما بشكره والشكر لله الثناء عليه في مقابلة
النعمة وطاعته فيما أمر به وقيل الشكر أن لا تعصي الله بنعمه وقيل أن لا ترى معه شريكا
له في نعمه وقيل هو الاقرار بالعجز ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل ثم بين سبحانه
ان الشكر لا ينتفع به الا الشاكر فقال (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) لان نفع ذلك
وثوابه راجع اليه وفائدته حاصلة له اذ به تستبقى النعمة وبسببه يستجلب المزيد لها من الله
سبحانه والجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها موجبة لامتثال الامر (ومن كفر) أي
من جعل كفر النعمة مكان شكرها (فان الله غني) عن شكره غير محتاج اليه (حميد)
مستحق للحمد من خلقه لانعامه عليهم بنعمه التي لا يحاط بقدرها ولا يحصر عددها وان
لم يحمده أحد فان كل موجود ناطق بحمده بلسان الحال قال يحيى بن سلام غني عن خلقه
حميد في فعله (و) اذكر (اذ قال لقمان لابنه) قال السهيلي واسم ابنه ثاران في قول ابن
جرير والقتيبي وقال الكلبي مشكم وقال النقاش انعم وقيل ماتان قال القشيري كان
ابنه وامرأته كافرين فما زال يعظهما حتى أسلما ودل على هذا قوله لا تشرك بالله ان
الشرك لظلم عظيم والتقدير آتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه وحين
جعلناه واعظا لغيره (وهو يعظه) أي والحال انه يخاطبه بالموعظة التي ترغبه في التوحيد
وتصده عن الشرك وذلك لان أعلى مراتب الانسان أن يكون كاملا في نفسه مكملا
لغيره وبدأ بالاقرب اليه وهو ابنه فقال (يا بني) تصغير اشفاق ومحبة (لا تشرك بالله) وهذا
يدل على انه كان كافرا كما تقدم قال الخطيب والخازن فرجع اليه وأسلم وقيل كان مسلما
ونهاه ان يقع منه الشرك في المستقبل (ان الشرك لظلم عظيم) لانه تسوية بين من لا نعمة
الا وهي منه وبين من لا نعمة له أصلا وبدأ في وعظه بنهيه عن الشرك لانه أهم من غيره
وقد اختلف في هذه الجملة فقيل هي من كلام لقمان فتكون تعليلا لما قبلها وقيل هي
من كلام الله فتكون منقطعة عما قبلها ويؤيد هذا ما ثبت في الحديث الصحيح انها لما

ثمناوهن في نفسه قال أبو صالح وكان كأنه رجل آتاك به قبل أن تقوم من مقامك قال ابن عباس يعني قبل أن تقوم من مجلسك
وقال مجاهد مقعدك وقال السدي وغيره كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس
وإني عليه لقوي أمين قال ابن عباس أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر وقال سليمان عليه السلام أريد أعجل من ذلك
ومن ههنا نفهم أن سليمان أراد بإحضاره هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخره من الجنود الذي لم يعطه أحد

قبله ولا يكون لأحد من بعده وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا أمر عظيم أن
تأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك قال الذي عنده علم من الكتاب قال ابن عباس وهو آصف كاتب سليمان وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد ابن رومان أنه آصف بن برخيا وكان صديقا يعلم الاسم الأعظم وقال قتادة كان مؤمنا من الإنس واسمه آصف وكذا قال أبو صالح والضحاك وقتادة أنه كان من الإنس زاد قتادة من بني إسرائيل وقال مجاهد كان اسمه أسطوم وقال قتادة في رواية عنه كان اسمه بليخا وقال زهير بن محمد هو رجل من الإنس يقال له ذو النور وزعم عبد الله بن لهيعة أنه الخضر وهو غريب جدا وقوله أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي ارفع بصرك وامدد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك وقال وهب بن منبه امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هذا العرش
المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله تعالى قال مجاهد قال يا ذا الجلال والإكرام وقال الزهري
قال يا إلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتني بعرشها قال فمثل بين يديه قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وزهير ابن محمد وغيرهم لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه قال وكان هذا الذي جاء به من عباد البحر فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي أي هذا من نعم الله

تراب ولم يلبسوا الحلي ولم يتطيبوا ثم شق ذلك على الصحابة فقالوا أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله أن الشرك لظلم عظيم فطابت أنفسهم (ووصينا الإنسان بوالديه) أي أمرناه أن يبرهما وهذه الوصية بالوالدين وما بعدها إلى قوله بما كنتم تعملون اعتراض من كلام لقمان على سبيل الاستطراد لقصد التأكيد لما اشتملت عليه من النهي عن الشرك بالله وتفسير الوصية هو قوله أن اشكر لي ولوالديك وما بينهما اعتراض بين المفسر والمفسر وفي جعل الشكر لهما مقرونا بالشكر لله دلالة على أن حقهما من أعظم الحقوق على الولد وأكبرها وأشدها وجوبا (حملته أمه وهنا على وهن) قرئ بسكون الهاء وفتحها وهما في موضع نصب وهما لغتان أي أمه حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفا على ضعف فإنها لا تزال تتضاعف ضعفا والوهن الضعف والمشقة وقد وهن من باب وعد ووهنه غيره يوهنه وهنا والوهن والموهن نحو من نصف الليل وقال ابن عباس شدة بعد شدة وخلقا بعد خلق وقيل المعنى أن المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل وقيل أي حملته ضعف على ضعف وقال الزجاج المعنى لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة أي وهنا كائنا على وهن لأن الحمل وهن والطلق وهن والوضع وهن والرضاع وهن وانتصاب وهنا على المصدر أو الحال (وفصاله في عامين) الفصال الفطام عن الرضاع وهو أن يفصل الولد عن الأم وقرئ وفصله وهما لغتان يقال انفصل عن كذا أي تميز وبه سمي الفصيل والمعنى فطامه لتمام سنتين عن الرضاع قال الصاوي وفيه دليل على أن مدة الإرضاع حولان (أن اشكر لي ولوالديك) أي وصيناه بشكرنا وشكر والديه قال سفيان بن عيينة من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات الخمس فقد شكر للوالدين وأن مفسرة أو مصدرية وهو قول الزجاج (إلي المصير) تعليل لوجوب امتثال الأمر أي الرجوع إلي لا إلى غيري وفيه الجزاء على وفق المصير إلي (وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم) أي ما لا علم لك بشركته وذكر هذا المفهوم موافقة للواقع ولا مفهوم له إذ ليس لله شريك تعلم لأنه مستحيل (فلا تطعهما) في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وجملة هذا أن طاعة الأبوين لا تراعى في ركوب كبيرة ولا ترك فريضة على الأعيان وتلزم طاعتهما في المباحات وقد قدمنا تفسير الآية وسبب نزولها في سورة العنكبوت قال سعد بن أبي وقاص نزلت في هذه الآية وعن أبي هريرة مثله وعليه جماعة من

المفسرين

المفسرين (وصاحبهما فى الدنيا) أى فى أمورها التى لا تتعلق بالدين مادمت حيا صحابا (معروفا) ببرهما ان كانا على دين يقران عليه وقيل صاحبهما بمعروف وهو البر والصلة والعشرة الجميلة والخلق الجميل والحلم والاحتمال وما يقتضيه مكارم الاخلاق ومعالى الشيم (واتبع سبيل من أناب) أى رجع (الى) والخطاب لسائر المكلفين أى اتبع أيها المكلف دين من أقبل الى طاعتى من عبادى الصالحين بالتوبة والاخلاص وهو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقيل يعنى أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قال ابن عباس وذلك حين أسلم أتاه عثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وقالوا والله قد صدقت هذا الرجل وآمنت به قال نعم انه صادق فآمنوا به ثم حملهم الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم حتى أسلموا فهؤلاء لهم سابقة الاسلام أسلموا بارشاد أبى بكر (ثم الى) لا الى غيرى (مرجعكم) جميعا أى أنت ووالداك ومن أناب الى (فأنبئكم) أخبركم عند رجوعكم الى (بما كنتم تعملون) من خير أو شر فأجازى كل عامل بعمله ثم شرع سبحانه فى حكاية بقية كلام لقمان فى وعظه لابنه فقال (يابنى انها) الضمير عائد الى الخطيئة لما روى ان ابن لقمان قال لابيه يا أبت ان عملت الخطيئة حيث لا يرانى أحد هل يعلمها الله فقال انها أى الخطيئة (ان تك) بالفوقية على معنى ان تك الخطيئة أو المسئلة أو الخصلة أو القصة (مثقال) قرئ بالنصب على انه خبر كان واسمها هو أحد تلك المقدرات وقرئ بالرفع على انه اسم كان وهى تامة وأنث الفعل فى هذه القراءة لاضافة مثقال الى المؤنث أى زنة (حبة من خردل) والجملة الشرطية مفسرة للضمير قال الزجاج التقدير ان التى سألتنى عنها ان تك مثقال حبة من جنس الخردل وعبر بالخردلة لانها أصغر الحبوب ولا يدرك ثقلها بالحس ولا ترجح ميزانا ثم زاد فى بيان خفاء الحبة مع خفتها وصغرها فقال (فتكن فى صخرة) فانها عند كونها فى الصخرة قد صارت فى أخفى مكان وأحرزه قرئ فتكن بضم الكاف (١) ومن الكن الذى هو الشئ المغطى قال السدى هذه الصخرة هى صخرة ليست فى السموات والارض وقال ابن عباس صخرة تحت الارضين السبع وهى التى تكتب فيها أعمال الفجار وهى السجين وخضرة السماء منها وقيل غير ذلك (أو فى السموات أو فى الارض) أى حيث كانت من بقاع السموات أو بقاع الارض أى فى أخفى مكان من ذلك فالاخفى من الصخرة كأن تكون فى صخرة تحت الارضين السبع والاخفى

على ليبلونى أى ليختبرنى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه كقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وكقوله ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون وقوله ومن كفر فان ربى غنى كريم أى هو غنى عن العباد وعبادتهم كريم أى كريم فى نفسه وان لم يعبده أحد فان عظمته ليست مفتقرة الى أحد وهذا كما قال موسى ان تكفروا أنتم ومن فى الارض جميعا فان الله لغنى حميد وفى صحيح مسلم يقول الله تعالى يا عبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيأ يا عبادى لو ان أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم مانقص ذلك من ملكى شيأ يا عبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها وثباتها عند رؤيته هل تقدم على انه عرشها أو انه ليس بعرشها فقال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون قال ابن عباس نزع منه فصوصه ومرافقه وقال مجاهد أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر وما كان أصفر جعل أحمر وما كان أخضر جعل أحمر غير كل شئ عن حاله وقال عكرمة زادوا فيه ونقصوا وقال قتادة جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا فلما جاءت قيل أهكذا عرشك أى عرض عليها عرشها وقد غير ونكر وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ولها لب ودهاء وحزم فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ولا انه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وان غير وبدل ونكر فقالت كأنه هو أى يشبهه ويقاربه وهذا غاية فى الذكاء والحزم وقوله وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين قال مجاهد سليمان يقوله وقوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام فى قول مجاهد وسعيد بن جبير رحمهما

(١) ومن الكن الخ كذا فى أصله وتأمل وحرر اهـ

من السموات كأن تكون فى أعلاها او الاخفى من الارض كأن تكون فى أسفلها (يأت بها الله) أى يحضرها يوم القيامة ويحاسب فاعلها عليها (ان الله لطيف) باستخراجها لا يخفى عليه خافية بل يصل علمه الى كل خفى (خبير) بمكانها وبكل شئ لا يغيب عنه شئ ومعنى الآية الاحاطة بالاشياء صغيرها وكبيرها (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك) من الاذى فى ذات الله اذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر أو اصبر على ما أصابك من المحن فانها تورث المنح حكى سبحانه عن لقمان انه أمر ابنه بهذه الامور ووجه تخصيص هذه الطاعات انها أمهات العبادات وعماد الخير كله (ان ذلك) الطاعات المذكورة التى وصاه بها (من عزم الامور) أى مما جعله الله عزيمة وأوجبه على عباده وحتمه على المكلفين ولم يرخص فى تركه وقيل المعنى من حق الامور التى أمر الله بها والعزم يجوز أن يكون بمعنى المعزوم أى من معزومات الامور أو بمعنى العازم كقوله فاذا عزم الامر قال المبرد ان العين تبدل حاء فقال عزم وحزم وقال ابن جريج ويحتمل أن يريد ان ذلك من مكارم أهل الاخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة وصوب هذا القرطبى وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأمورا بها فى سائر الامم (ولا تصعر خدك للناس) وقرئ تصاعر والمعنى متقارب وكل منهما فى خط المصحف الامام بلا ألف والصعر الميل يقال صعر خده وصاعر خده اذا أمال وجهه وأعرض تكبرا والمعنى لا تعرض عن الناس تكبرا عليهم وبه قال الهروى يقال أصاب البعير صعر اذا أصابه داء يلوى عنقه وقيل المعنى ولا تلوى شدقك اذا ذكر الرجل عندك كأنك تحتقره وقال ابن خواز منداد كأنه نهى ان يذل الانسان نفسه من غير حاجة ولعله فهم من التصعير التذلل وعن أبى أيوب الانصارى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن قوله ولا تصعر خدك فقال لى الشدق أخرجه الطبرانى وابن عدى وابن مردويه وقال ابن عباس لا تتكبر فتحتقر عباد الله وتعرض عنهم اذا كلموك وعنه قال هو الذى اذا سلم عليه لوى عنقه كالمستكبر والمعنى أقبل على الناس بوجهك تواضعا ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون بل يكون الفقير والغنى عندك سواء (ولا تمش فى الارض مرحا) اى خيلاء وفرحا والمراد النهى عن التكبر والتجبر والمختال يمرح فى مشيه وقد تقدم تحقيقه (ان الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهى المذكور لان الاختيال هو المرح والفخور

الله اى قال سليمان اوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وهى كانت قد صدها اى منعها من عبادة الله وحده ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين وهذا الذى قاله مجاهد وسعيد حسن وقاله ابن جرير أيضا ثم قال ابن جرير ويحتمل ان يكون فى قوله وصدها ضمير يعود الى سليمان او الى الله عز وجل تقديره ومنعها ما كانت تعبد من دون الله اى صدها عن عبادة غير الله انها كانت من قوم كافرين (قلت) ويؤيد قول مجاهد انها انما اظهرت الاسلام بعد دخولها الى الصرح كما سيأتى وقوله قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها وذلك ان سليمان عليه السلام امر الشياطين فبنوا له قصرا عظيما من قوارير اى من زجاج واجرى تحته الماء فالذى لا يعرف امره يحسب انه ماء ولكن الزجاج يحول بين الماشى وبينه واختلفوا فى السبب الذى دعا سليمان عليه السلام الى اتخاذه فقيل انه لما عزم على تزوجها واصطفائها لنفسه ذكر له جمالها وحسنها ولكن فى ساقيها هلب عظيم ومؤخر أقدامها كمؤخر الدابة فساءه ذلك فاتخذ هذا ليعلم صحته أم لا هكذا قول محمد بن كعب القرظى وغيره فلما دخلت وكشفت عن ساقيها رأى أحسن الناس ساقا وأحسنهم قدما ولكن رأى على رجليها شعرا لانها ملكة ليس لها زوج فأحب أن يذهب ذلك عنها فقيل له الموسى فقالت لا أستطيع ذلك وكره سليمان ذلك وقال للجن اصنعوا شيأ غير الموسى يذهب به هذا الشعر فصنعوا له النورة وكان أول من اتخذت له النورة قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والسدى وابن جريج وغيرهم وقال محمد بن اسحق عن يزيد بن رومان ثم قال لها ادخلى الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك انه ماء تخوضه فقيل لها انه صرح ممرد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله وحده وعاتبها فى عبادتها الشمس من دون الله وقال الحسن البصرى لما رأت العلجة الصرح عرفت والله أن قد رأت ملكا أعظم من ملكها وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه قال أمر سليمان بالصرح وقد عملته له الشياطين من زجاج كأنه الماء بياضا ثم أرسل الماء تحته ثم وضع له فيه سريره فجلس عليه وعكفت عليه الطير والجن والانس ثم قال لها ادخلى الصرح ليريها ملكا هو أعز من ملكها وسلطانا هو أعظم من سلطانها فلما رأته

هو

هو الذي يفتخر على الناس بماله من المال والشرف أو القوة أو يعدد مناقبه تطاولا أو غير ذلك ويظن ان اسباغ النعم الدنيوية عليه من محبة الله له وذلك من جهله فان الله أسبغ نعمه على الكافر الجاحد فينبغي للعارف ان لا يتكبر على عباده وليس منه التحديث بنعم الله فان الله يقول وأما بنعمة ربك فحدث (واقصد في مشيك) أي توسط فيه والقصد ما بين الاسراع والبطء يقال قصد فلان في مشيته اذا مشى مستويا لا يدب دبيب المتماوتين ولا يثب وثوب الشياطين وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان اذا مشى أسرع فلابد أن يحمل القصد هنا على ما جاوز الحد في السرعة وقال مقاتل معناه لا تختل في مشيتك وقال ابن مسعود كانوا ينهون عن خبب اليهود ودبيب النصارى ولكن مشيا بين ذلك وقيل انظر موضع قدميك متواضعا والمعنى اعدل فيه حتى يكون مشيا بين مشيين الدبيب والاسراع وقال عطاء امش بالسكينة والوقار كقوله يمشون على الارض هونا (واغضض من صوتك) أي انقص منه واخفضه ولا تتكلف رفعه فان الجهر بأكثر من الحاجة يؤذي السامع ومن تبعيضية وعند الاخفش مزيدة ويؤيده قوله ان الذين يغضون أصواتهم والمعنى شيأ من صوتك وكانت الجاهلية يتمدحون برفع الصوت (ان أنكر الاصوات) أي أوحشها وأقبحها (لصوت الحمير) تعليل للامر بالغض من الصوت على أبلغ وجه وآكده قال قتادة أقبح الاصوات صوت الحمير أوله زفير أي صوت قوي وآخره شهيق أي صوت ضعيف وهما صوتا أهل النار وأنكر قيل مبني من الفعل المبني للمفعول نحو أشغل من ذات النحيين وهو مختلف فيه قال المبرد تأويله ان الجهر بالصوت ليس بمحمود وانه داخل في باب الصوت المنكر واللام للتأكيد ووحد الصوت مع كونه مضافا الى الجمع لانه مصدر وهو يدل على الكثرة وهو مصدر صات يصوت صوتا فهو صائت وقيل انما وحده ولم يجمع لانه لم يرد ان يذكر صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل المراد ان كل جنس من الحيوان له صوت وأنكر أصوات هذه الاجناس صوت هذا الجنس فوجب توحيده وعن الثوري في الآية قال صياح كل شئ تسبيح الا الحمار وقيل معنى الآية هو العطسة القبيحة المنكرة والاول أولى وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق تنبيه على ان رفع الصوت في غاية الكراهة ولما فرغ سبحانه من قصة لقمان رجع الى توبيخ المشركين وتبكيتهم واقامة الحجج عليهم فقال (ألم

حسبته لجة وكشفت عن ساقيها لا تشك أنه ماء تخوضه قيل لها انه صرح ممرد من قوارير فلما وقفت على سليمان دعاها الى عبادة الله عز وجل وحده وعاتبها في عبادتها الشمس من دون الله فقالت بقول الزنادقة فوقع سليمان ساجدا اعظاما لما قالت وسجد معه الناس فسقط في يديها حين رأت سليمان صنع ما صنع فلما رفع سليمان رأسه قال ويحك ماذا قلت قال وأنسيت ما قالت فقالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين فأسلمت وحسن اسلامها وقد روى الامام أبو بكر بن أبي شيبة في هذا أثرا غريبا عن ابن عباس فقال حدثنا الحسين بن علي عن زائدة حدثني عطاء بن السائب حدثنا مجاهد ونحن في الازد قال حدثنا ابن عباس قال كان سليمان عليه السلام يجلس على سريره ثم يوضع كراسي حوله فيجلس عليها الانس ثم يجلس الجن ثم الشياطين ثم تأتي الريح فترفعهم ثم يظلهم الطير ثم تغدو قدر ما يشتهي الراكب ان ينزل شهرا ورواحها شهر قال فبينما هو ذات يوم في مسير له اذ تفقد الطير ففقد الهدهد فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين قال فكان عذابه اياه أن ينتفه ثم يلقيه في الارض فلا يمتنع من نملة ولا من شئ من هوام الارض قال عطاء وذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس مثل حديث مجاهد فمكث غير بعيد فقرأ حتى انتهى الى قوله سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا وكتب بسم الله الرحمن الرحيم الى بلقيس ان لا تعلوا على وأتوني مسلمين فلما ألقى الهدهد الكتاب اليها ألقي في روعها انه كتاب كريم وانه من سليمان وان لا تعلوا علي وأتوني مسلمين قالوا نحن أولو قوة قالت ان الملوك اذا

دخلوا قرية أفسدوها واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاءت الهدية سليمان قال أتمدونني بمال ارجع اليهم فلما نظر الى الغبار اخبرنا ابن عباس قال وكان بين سليمان وبين ملكة سبا ومن معها حين نظر الى الغبار كما بيننا وبين الحيرة قال عطاء ومجاهد حينئذ في الازد قال سليمان أيكم يأتيني بعرشها قال وبين عرشها وبين سليمان حين نظر الى الغبار مسيرة شهرين قال عفريت من الجن انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك قال وكان لسليمان مجلس يجلس فيه للناس كما يجلس الامراء ثم يقوم فقال انا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك قال سليمان أريد أعجل من ذلك فقال الذي عنده علم من الكتاب انا أنظر

في كتاب ربي ثم أتيته به قبل أن يرتد إليك طرفك قال فنسج عرشها من تحت قدم سليمان من تحت كرسي كان سليمان يضع عليه رجله
ثم يصعد إلى السرير قال فلما رأى سليمان عرشها قال هذا من فضل ربي الآية قال نكروا لها عرشها فلما جاءت قيل أهكذا عرشك
قالت كأنه هو قال فسألته حين جاءته عن أمرين قالت لسليمان أريد ماء ليس من أرض ولا سماء وكان سليمان إذا سئل عن شيء سأل
الإنس ثم الجن ثم الشياطين قال فقالت الشياطين هذا هين أجر الخيل ثم خذ عرقها ثم املأ منه الآنية قال فأمر بالخيل فأجريت ثم
أخذ عرقها فملأ منه الآنية قال وسألت عن (٢١٨) لون الله عز وجل قال فوثب سليمان عن سريره فخر ساجدا فقال يا رب لقد
سألتني عن أمر إنه ليتعاظم في قلبي أن أذكره لك فقال ارجع فقد كفيتكم قال فرجع إلى سريره قال ما سألت عنه قالت ما سألتك إلا عن الماء فقال لجنوده ما سألت عنه فقالوا ما سألتك إلا عن الماء قال ونسوه كلهم قال وقالت الشياطين إن سليمان يريد أن يتخذها لنفسه فإن اتخذها لنفسه ثم ولد بينهما ولد لم ننفك من عبوديته قال فجعلوا صرحا ممردا من قوارير فيه السمك قال فقيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها فإذا هي شعراء فقال سليمان هذا قبيح ما يذهبه قالوا يذهبه الموسى فقال أثر الموسى قبيح قال فجعلت الشياطين النورة قال فهو أول من جعلت له النورة ثم قال أبو بكر بن أبي شيبة ما أحسنه من حديث قلت بل هو منكر غريب جدا ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس والله أعلم والأقرب في مثل هذه السياقات أنها ملتقاة عن أهل الكتاب مما وجد في صحفهم كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار
بني إسرائيل من الأوابد والغرائب والعجائب مما كان ومما لم يكن ومما حرف وبدل ونسخ وقد أغنانا الله سبحانه
عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ ولله الحمد والمنة. أصل الصرح في كلام العرب هو القصر وكل بناء مرتفع قال الله
سبحانه وتعالى إخبارا عن فرعون لعنه الله أنه قال يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب الآية والصرح قصر في اليمن عالي
البناء والممرد المبني بناء محكما أملس من قوارير أي زجاج ومريد الماء فتلبسه ومارد حصن بدومة الجندل والغرض أن سليمان عليه
السلام اتخذ قصرا عظيما منيفا من زجاج لهذه الملكة ليريها عظمة سلطانه وتمكنه فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت

تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض) قال الزجاج معنى تسخيرها للآدميين
الانتفاع بها فمنها من مخلوقات السموات المسخرة لبني آدم بأمر الله سبحانه الشمس
والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك ومن مخلوقات الأرض المسخرة الأحجار والمعادن
والتراب والزرع والشجر والثمر والبحار والأنهار والحيوانات والدواب التي ينتفعون بها
والعشب الذي يرعون فيه دوابهم وغير ذلك مما لا يحصى كثرة فالمراد بالتسخير جعل المسخر
بحيث ينتفع به المسخر له سواء كان منقادا له وداخلا تحت تصرفه أم لا (وأسبغ عليكم
نعمه ظاهرة وباطنة) أي أتم وأكمل عليكم نعمه يقال سبغت النعمة إذا تمت وكملت
وقرئ أصبغ بإبدال السين صادا وهي لغة كلب يفعلون ذلك في كل سين اجتمع مع
الغين والخاء والقاف كصلخ وصقر والنعم جمع نعمة وقرئ نعمة على الإفراد والتنوين اسم
جنس يراد به الجمع ويدل به على الكثرة كقوله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها
والنعمة كل نفع قصد به الإحسان والمراد بالنعم الظاهرة ما يدرك بالعقل أو الحس
ويعرفه من يتعرفه وبالباطنة ما لا يدرك للناس ويخفى عليهم وقيل الظاهرة الصحة وكمال
الخلق والبصر والسمع واللسان وسائر الجوارح الظاهرة والباطنة المعرفة والعقل
والقلب والفهم وما أشبه ذلك وقيل الظاهرة ما يرى بالأبصار من المال والجاه والجمال
وفعل الطاعات والباطنة ما يجده المرء في نفسه من العلم بالله وحسن اليقين وما يدفعه الله
عن العبد من الآفات وقد سرد الماوردي في هذا أقوالا تسعة كلها ترجع إلى هذا وقيل
الظاهرة نعم الدنيا والباطنة نعم الآخرة وقيل الظاهرة الإسلام والقرآن والجمال والباطنة
ما ستره الله على العبد من الأعمال السيئة وقيل الظاهرة تسوية الأعضاء وحسن
الصورة والباطنة الاعتقاد بالقلب وقيل الظاهرة الرزق والباطنة حسن الخلق وقيل
الظاهرة تخفيف الشرائع والباطنة الشفاعة وقيل الظاهرة ظهور الإسلام والنصر على
الأعداء والباطنة الإمداد بالملائكة وقيل الظاهرة اتباع الرسول صلى الله عليه وآله
وسلم والباطنة محبته واللفظ أعم من ذلك وعن عطاء قال سألت ابن عباس عن هذا
فقال هذه من كنوز علمي سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال أما الظاهرة
فما سوى من خلقك وأما الباطنة فما ستر من عورتك ولو أبداها لقلاك أهلك فمن سواهم
أخرجه البيهقي وعنه قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله وأسبغ
عليكم

فى أمره انقادت لامر الله تعالى وعرفت أنه نبى كريم وملك عظيم وأسلمت لله عز وجل وقالت رب انى ظلمت نفسى اى بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها الشمس من دون الله وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين أى متابعة لدين سليمان فى عبادته لله وحده لاشريك له الذى خلق كل شئ فقدره تقديرا (ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام (٢١٩) حين بعثه الله اليهم فدعاهم الى عبادة الله وحده لاشريك له فاذا هم فريقان يختصمون قال مجاهد مؤمن وكافر كقوله تعالى قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون ان صالحا مرسل من ربه قالوا انا بما ارسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون * قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة أى لم تدعون بحضور العذاب ولا تطلبون من الله رحمته ولهذا قال لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك أى ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا وذلك انهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم سوء الا قال هذا من قبل صالح وأصحابه قال مجاهد تشاءموا بهم وهذا كما قال الله تعالى اخبارا عن قوم فرعون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الآية وقال تعالى وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله أى بقضائه وقدره وقال تعالى مخبرا عن أهل القرية اذ جاءها المرسلون قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم الآية وقال هؤلاء اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله أى الله يجازيكم على ذلك بل أنتم قوم تفتنون قال قتادة تبتلون بالطاعة والمعصية والظاهر ان المراد بقوله تفتنون اى تستدرجون فيما انتم فيه من الضلال (وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا

عليكم نعمه الخ فقال أما الظاهرة فالاسلام وما سوى من خلقك وما أسبغ عليك من رزقه وأما الباطنة فما ستر من مساوى عملك أخرجه ابن النجار والديلمى والبيهقى وعنه قال النعمة الظاهرة الاسلام والنعمة الباطنة كل ما ستر عليكم من الذنوب والعيوب والحدود أخرجه ابن مردويه وعنه انه قال فى تفسير الآية هى لا اله الا الله (ومن الناس من يجادل فى الله) أى فى شأن الله سبحانه فى توحيده وصفاته مكابرة وعنادا بعد ظهور الحق له وقيام الحجة عليه ولهذا قال (بغير علم) مستفاد من عقل ونقل (ولا هدى) من جهة رسول يهتدى به الى طريق الصواب (ولا كتاب منير) نيرواضح أنزله الله بل بمجرد تعنت ومحض عناد وتقليد وقد تقدم تفسير مثل هذه الآية فى سورة البقرة قيل نزلت فى النضر بن الحرث وأبى بن خلف وأمية بن خلف وأشباههم كانوا يجادلون النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الله وفى صفاته بغير علم (واذا قيل لهم) أى لهؤلاء المجادلين والجمع باعتبار معنى من (اتبعوا ما أنزل الله) على رسوله من الكتاب تمسكوا بمجرد التقليد البحت و(قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) فنعبد ما كانوا يعبدونه من الاصنام ونمشى فى الطريق التى كانوا يمشون فيها فى دينهم ومثل هذا فى القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء قال ابن القيم قد احتج العلماء بهذه الآية وأمثالها فى ابطال التقليد ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها لان التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وايمان الآخر وانما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد كما لو قلد رجلا فكفر وقلد آخر فأذنب وقلد آخر فى مسئلة فأخطأ وجهها كان كل واحد ملوما على التقليد بغير حجة لان كل تقليد يشبه بعضه بعضا وان اختلفت الآثام فيه والتقليد أنواع أحدها الاعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات اليه اكتفاء بتقليد الآباء الثانى تقليد من لا يعلم المقلد انه أهل لان يؤخذ بقوله الثالث التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد والفرق بين هذا وبين النوع الاول ان الاول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة وهذا قلد بعد ظهور الحجة له فهو أولى بالذم ومعصية الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وقد ذم الله سبحانه هذه الانواع الثلاثة من التقليد فى غير موضع من كتابه والتقليد ليس بعلم باتفاق أهل العلم ولا يكون العبد مهتديا حتى يتبع ما أنزل الله على رسوله فهذا المقلد ان كان يعرف ما أنزل الله على رسوله فهو مهتد وليس بمقلد وان كان لم يعرف ما أنزل الله فهو جاهل ضال باقراره على نفسه فمن أين يعرف

يتقون) يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤسهم الذين كانوا دعاة قومهم الى الضلالة والكفر وتكذيب صالح وآل بهم الحال الى أنهم عقروا الناقة وهموا بقتل صالح أيضاً بأن يبيتوه فى أهله ليلاً فيقتلوه غيلة ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه انهم ما علموا بشئ من أمره وانهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك فقال تعالى وكان فى المدينة أى مدينة ثمود تسعة رهط أى تسعة نفر يفسدون فى الارض ولا يصلحون وانما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم قال العوفى عن ابن عباس هؤلاء هم الذين عقروا الناقة أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم قبحهم الله ولعنهم وقد فعل ذلك

وقال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس كان أسماء هؤلاء (1) التسعة دعمى ودعيم وهرم وهريم وداب وصواب ومسطع وقدار بن سالف عاقر الناقة أى الذى باشر ذلك بيده قال الله تعالى فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر وقال تعالى اذ انبعث أشقاها وقال عبد الرزاق أنبأنا يحيى ابن ربيعة الصنعانى سمعت عطاء هو ابن أبى رباح يقول وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قال كانوا يقرضون الدراهم يعنى أنهم كانوا يأخذون منها وكأنهم كانوا يتعاملون بها عدداً كما كان العرب يتعاملون وقال الامام مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال قطع الذهب والورق من الفساد فى الارض وفى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن كسر سكة المسلمين الجائزة بينهم الا من بأس والغرض أن هؤلاء الكفرة الفسقة كان من صفاتهم الافساد فى الارض بكل طريق يقدرون عليها فمنها ما ذكره هؤلاء الأئمة وغير ذلك وقوله تعالى قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح عليه السلام من لا تقع لقيه ليلاً غيلة فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم قال مجاهد تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا اليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين وقال قتادة تواثقوا على أن يأخذوه ليلاً فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق الى صالح ليفتكوا به اذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم وقال العوفى عن ابن عباس هم الذين عقروا الناقة قالوا حين عقروها نبيت صالحاً وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ما شهدنا من هذا شيئاً وما لنا به من علم فدمرهم الله أجمعين وقال محمد بن اسحق قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة هلم فلنقتل

(1) قوله هؤلاء التسعة الخ كذا بأصله والمعدود ثمانية وهى مخالفة لما فى الكشاف والخطيب فحرر وانظر الناسخ اهـ مصححه

انه على هدى فى تقليده وهذا جواب كل سؤال يورد فى هذا الباب وكان طريقة الأئمة اتباع الحجة والنهى عن تقليدهم فمن ترك الحجة وارتكب ما نهوا عنه ونهى الله ورسوله عنه قبلهم فليس على طريقتهم بل هو من المخالفين لهم وانما يكون على طريقتهم من اتبع الحجة وانقاد للدليل ولم يتخذ رجلاً بعينه سوى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يجعله مختاراً على الكتاب والسنة يعرضهما على قوله وبهذا يظهر بطلان فهم من جعل التقليد اتباعاً وقد فرق الله ورسوله وأهل العلم بينهما كما فرقت الحقائق بينهما فان الاتباع سلوك طريق المتبع والاتيان بمثل ما أتى به والمصنفون فى السنة جمعوا بين فساد التقليد وابطاله وبيان زلة العالم ليبينوا بذلك فساد التقليد وان العالم قد يزل ولا بد اذ ليس بمعصوم فلا يجوز قبول كل ما يقوله وينزل قوله منزلة قول المعصوم فهذا الذى ذمه كل عالم على وجه الارض وحرموه وذموا أهله وهو أصل بلاء المقلدين وفتنتهم فانهم يقلدون العالم فيما زل فيه وفيما لم يزل وليس لهم تمييز بين ذلك فيأخذون الدين بالخطأ ولا بد فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ويشرعون ما لم يشرع ولا بد لهم من ذلك اذ كانت العصمة منتفية عمن قلدوه فالخطأ واقع منه ولا بد انتهى بتصرف فى العبارة ثم قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت (أولو كان الشيطان يدعوهم) أى آباءهم الذين اقتدوا بهم فى دينهم أى يتبعونهم فى الشرك ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع (الى عذاب السعير) لأنه زين لهم اتباع آبائهم والتدين بدينهم والأول أولى لأن مدار انكار الاتباع واستبعاده كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كونهم أنفسهم كذلك ويجوز أن يراد أنه يدعو جميع التابعين والمتبوعين الى العذاب فدعاؤه للمتبوعين بتزيينه لهم الشرك ودعاؤه للتابعين بتزيينه لهم دين آبائهم وجواب لو محذوف أى يدعوهم فيتبعونه وما أقبح التقليد وأكثر ضرره على صاحبه وأوخم عاقبته وأشأم عائدته على من وقع فيه فان الداعى له الى ما أنزل الله على رسوله كمن يريد أن يذود الفراش عن لهب النار لئلا تحترق فتأبى ذلك وتتهافت فى نار الحريق وعذاب السعير (ومن يسلم وجهه الى الله) أى يفوض أمره اليه ويخلص له عبادته ويقبل عليه بكليته وقرئ من يسلم بالتشديد قال النحاس التخفيف فى هذا أعرف كما قال عز وجل فقل أسلمت وجهى لله (وهو محسن) فى أعماله لأن العبادة من غير احسان فيها ولا معرفة بما يحتاج اليه فيها

لانتفع بالوقع الذى تقع به عبادة المحسنين وقد صح عن الصادق المصدوق لما سأله جبريل عن الاحسان انه قال له ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى اعتصم بالعهد الاوثق وتعلق به وهو تمثيل لحال من أسلم وجهه الى الله بحال من أراد ان يرتقى الى شاهق جبل فيمسك باوثق عرى حبل متدل منه (والى الله عاقبة الامور) أى مصيرها اليه لا الى غيره فيجازى عليها (ومن كفر فلا يحزنك كفره) أى لا تحزن لذلك فان كفره لا يضرك قرئ بفتح الياء وضم الزاى وبضم الياء وكسر الزاى سبحانه حال الكافرين بعد فراغه من بيان حال المؤمنين ثم توعدهم بقوله (الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا) أى نخبرهم بقبائح أعمالهم ونجازيهم عليها (ان الله عليم بذات الصدور) أى بما تسره صدورهم لا تخفى عليه من ذلك خافية فالسر عنده كالعلانية (نمتعهم) تمتيعاً أو زماناً (قليلا) أى نبقيهم فى الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها الى انقضاء آجالهم فان النعيم الزائل هو أقل قليل بالنسبة الى النعيم الدائم (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) أى نلجئهم ونردهم الى عذاب النار فى الآخرة لا يجدون عنها محيصاً والمراد الشدة والثقل على المعذب فانه لا أثقل منه على من وقع فيه وأصيب به فلهذا استعير له الغلظ (ولئن) لام قسم (سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) أى يعترفون بان الله خالق ذلك لوضوح الامر فيه عندهم وهذا اعتراف منهم بما يدل على التوحيد وبطلان الشرك والزام لهم على اقرارهم ولهذا قال (قل) يا محمد (الحمد لله) على اعترافكم فكيف تعبدون غيره وتجعلونه شريكا له أو المعنى فقل الحمد لله على ما هدانا له من دينه ولا حمد لغيره أو على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون ويجحدها الجاحدون ثم أضرب عن ذلك فقال (بل أكثرهم لا يعلمون) ان ذلك يلزمهم واذا نبهوا عليه لم يتنبهوا وقيل لا ينظرون ولا يتدبرون حتى يعلموا ان خالق هذه الاشياء هو الذى تجب له العبادة دون غيره (لله ما فى السموات والارض) ملكا وخلقا وعبيدا فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغنى) عن غيره (الحميد) أى المستحق للحمد وان لم يحمدوه أو المحمود من عباده بلسان المقال أو بلسان الحال ثم لما ذكر سبحانه أن له ما فى السموات والارض أتبعه بما يدل على ان له وراء ذلك ما لا يحيط به عد ولا يحصر بحد فقال (ولو أن) جميع (ما فى الارض من شجرة أقلام) وحد الشجرة لما تقرر فى علم المعانى ان استغراق المفرد أشمل قيل وتوحيد

ما لها فان كان صادقاً عجلناه قبلنا وان كان كاذباً نكون قد ألحقناه بناقته فأتوه ليلا ليبيتوه فى أهله فدمغتهم الملائكة بالحجارة فلما ابطؤا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم والله لا تقتلونه أبداً وقد وعدكم ان العذاب نازل بكم فى ثلاث فان كان صادقاً فلا تزيدوا ربكم عليكم غضباً وان كان كاذباً فانتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك وقال عبد الرحمن بن أبى حاتم لما عقروا الناقة قال لهم صالح تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب قالوا زعم صالح انه يفرغ منا الى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلى فيه فخرجوا الى كهف أى غار هناك ليلا فقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا اذا فرغنا منه الى أهله ففرغنا منهم فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا ان تشدخهم فبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار فلا يدرى قومهم أين هم ولا يدرون ما فعل بقومهم فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ثم قرأ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية أى فارغة ليس فيها أحد بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام انه أنذر قومه نقمة الله بهم فى فعلهم الفاحشة التى لم يسبقهم اليها أحد من بنى آدم وهى اتيان الذكور دون الاناث وذلك فاحشة عظيمة استغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء فقال أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أى يرى بعضكم بعضا وتأتون فى ناديكم المنكر أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون أى لا تعرفون شيأ لا طبعا ولا شرعا كما قال فى الآية الاخرى أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون * فما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون

أي يتحرجون من فعل ما تفعلونه ومن إقراركم على صنيعكم فأخرجوهم من بين أظهركم فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم فعزموا على ذلك فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها قال الله تعالى فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين أي من الهالكين مع قومها لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة وكانت تدل قومها على ضيفان لوط ليأتوا إليهم لأنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله صلى الله عليه وسلم لا كرامة لها وقوله تعالى وأمطرنا عليهم مطراً أي حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ولهذا قال فساء مطر المنذرين أي الذين قامت عليهم الحجة ووصل إليهم الإنذار فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا بإخراجه من بينهم (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون) يقول تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول الحمد لله أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى وأن يسلم على عباد الله الذين اصطفاهم واختارهم وهم رسله وأنبياؤه الكرام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره إن المراد بعباده الذين اصطفاهم الأنبياء قال وهو كقوله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وقال الثوري والسدي هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم أجمعين وروي نحوه عن ابن عباس أيضاً ولا منافاة فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى والقصد أن الله تعالى أمر رسوله الله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر أن يحمدوه على جميع أفعاله وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار وقد قال أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عمارة بن صبيح حدثنا طلق بن غنام حدثنا الحكم بن ظهير عن السدي إن شاء الله عن أبي مالك عن ابن عباس وسلام على عباده الذين اصطفى قال هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم اصطفاهم الله لنبيه رضي الله عنهم وقوله تعالى آلله خير أما يشركون استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله

شجرة لأن المراد تفصيل الشجر واستقصاؤه فكأنه قال كل شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدة إلا وقد بريت أقلاماً ولو لم يفرد لم يفد هذا المعنى إذ الجمع يتحقق بما دون الثلاثة إلا أن تدخل عليه لام الاستغراق هكذا قرروه قال الشهاب وفيه بحث فإن إفادة المفرد التفصيل بدون تكرار أو الاستغراق بدون في محل نظر لأنه إنما عهد ذلك في نحو جاءني رجل رجلاً رجلاً وما عندي تمرة قال أبو حيان وهو من وقوع المفرد موقع الجمع والنكرة موقع المعرفة كقوله ما ننسخ من آية وجمع الأقلام لقصد التكثير أي ولو أن بعد كل شجرة من الشجر أقلاماً ثم قال سبحانه (والبحر) أي المحيط لأنه المتبادر من التعريف إذ هو الفرد الكامل قرئ البحر بالرفع على أنه مبتدأ وخبره يمده وبالنصب عطفاً على اسم أن أو بفعل مضمر يفسره (يمده من بعده) أي بعد نفاده (سبعة أبحر) أي والحال أن البحر المحيط مع سعته يمده السبعة الأبحر مداً لا ينقطع كذا قال سيبويه وقال المبرد إن البحر مرتفع بفعل مقدر تقديره ولو ثبت البحر حال كونه تمده من بعده سبعة أبحر وقرئ يمده من أمد وقرئ والبحر مداده وجواب لو (ما نفدت كلمات الله) التي هي عبارة عن معلوماته لأنها لا نهاية لها قال أبو علي الفارسي المراد بالكلمات والله أعلم ما في المقدور والإمكان دون ما خرج منه إلى الوجود ووافقه القفال فقال المعنى أن الأشجار لو كانت أقلاماً والبحار مداداً فكتب بها عجائب صنع الله تعالى الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب قال القشيري رد القفال معنى الكلمات إلى المقدورات وحمل الآية على الكلام القديم أولى والمخلوق لا بد له من نهاية وإذا نفيت النهاية فهو نفي النهاية عما يقدر في المستقبل على إيجاده فأما ما حصره الوجود وعده فلا بد من تناهيه والقديم لا نهاية له على التحقيق قال النحاس قد تبين أن الكلمات هنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء لأنه جل وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السموات والأرض من شيء وعلم ما فيه من مثاقيل الذر وعلم الأجناس كلها وما فيها من شعرة وعضو وما في الشجرة من ورق وما فيها من ضروب الخلق وقيل إن قريشاً قالت ما أكثر كلام محمد فنزلت قاله السدي وعن ابن مسعود قال إن أحبار اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة يا محمد أرأيت قولك وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً إيانا تريد أم قومك فقال كلا فقالوا ألست تتلوه فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة وفيها تبيان كل شيء فقال إنها في علم الله قليل وأنزل

آلهة أخرى ثم شرع تعالى يبين أنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى أمن خلق السموات أي خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها وما جعل فيها من الكواكب المنيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة وخلق الأرض في استفالها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال والسهول والأوعار والفيافي والقفار والزروع والأشجار والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك وقوله تعالى وأنزل لكم من السماء ماء أي جعله رزقاً للعباد فأنبتنا به حدائق أي بساتين ذات بهجة أي منظر حسن وشكل بهي ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أي لم تكونوا تقدرون على انبات أشجارها وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون كما قال تعالى في الآية الأخرى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله أي هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ولهذا قال تعالى أإله مع الله أي أإله مع الله يعبد وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أيضاً أنه الخالق الرازق ومن المفسرين من يقول معنى قوله أإله مع الله فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول لأن تقدير الجواب أنهم يقولون ليس ثم أحد فعل هذا معه بل هو المتفرد به فقال فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير كما قال تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق الآية وقوله تعالى ههنا أمن خلق السموات والأرض أمن في هذه الآيات كلها تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر لأن في قوة الكلام ما يرشد إلى ذلك وقد قال الله تعالى آلله خير أم ما يشركون ثم قال في الآية الأخرى بل هم قوم يعدلون أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً وهكذا قال تعالى أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه أي أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ولهذا قال تعالى قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله الآية وقال تعالى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي أمن هو شهيد على أفعال الخلق حركاتهم

الله ولولا ما في الأرض الآية أخرجه ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم قال أبو عبيدة المراد بالبحر ههنا الماء العذب الذي ينبت الأقلام وأما الماء المالح فلا ينبتها قال الشوكاني ما أسقط هذا الكلام وأقل جدواه (إن الله عزيز حكيم) أي غالب لا يعجزه شيء ولا يخرج عن حكمته وعلمه فرد من أفراد مخلوقاته (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس) أي كخلق نفس (واحدة) وبعثها لأنه بكلمة كن فيكون قال النحاس هكذا قدره النحويون بمعنى إلا كخلق نفس كقوله واسأل القرية قال الزجاج أي قدرة الله على بعث الخلق كلهم وعلى خلقهم كقدرته على خلق نفس واحدة وبعث نفس واحدة أي سواء في قدرته القليل والكثير فلا يشغله شأن عن شأن (إن الله سميع) لكل ما يسمع (بصير) لكل ما يبصر (ألم تر) الخطاب لكل أحد يصلح لذلك أو للرسول صلى الله عليه وآله وسلم (أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي يدخل كل واحد منهما في الآخر فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر وقد تقدم تفسيره في سورة الحج والأنعام (وسخر الشمس والقمر) أي ذللهما وجعلهما منقادين بالطلوع والأفول تقديراً للآجال وتتميماً للمنافع والاختلاف بينهما في الصيغة لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدد في كل حين وأما تسخير النيرين فأمر لا تعدد فيه وإنما التعدد والتجدد في آثاره (كل) منهما (يجري إلى أجل مسمى) قيل هو يوم القيامة وقيل وقت الطلوع ووقت الأفول وقيل الشمس إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر والأول أولى وقال هنا بلفظ إلى وفي فاطر والزمر بلفظ اللام لأن ما هنا وقع بين آيتين دالتين على غاية ما ينتهي إليه الخلق وهما قوله ما خلقكم الآية وقوله اتقوا ربكم واخشوا يوماً الآية فناسب ذكر إلى الدالة على الانتهاء وما في فاطر والزمر خال عن ذلك إذ ما في فاطر لم يذكر مع ابتداء خلق ولا انتهائه وما في الزمر ذكر مع ابتدائه فناسب ذكر اللام والمعنى يجري كل لما ذكر لبلوغ أجل قاله الكرخي (وأن الله بما تعملون خبير) لا تخفى عليه خافية لأن من قدر على مثل هذه الأمور العظيمة فقدرته على العلم بما يعملونه بالأولى وهو عطف على أن الله يولج الخ داخل معه في حيز الرؤية (ذلك) أي ما تقدم ذكره من الآيات الكريمة المشتملة على سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري بها (بأن الله) أي بسبب أنه سبحانه (هو الحق) الثابت ألوهيته أو فعل ذلك ليعلموا أنه الحق وهو المستحق للعبادة (وأن ما يدعون من دونه الباطل)

وحتم بعلم الغيب جليله وحقيره كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الاصنام التى عبدوها من دون الله ولهذا قال تعالى
ربه بسلوا لله شر كاقل سموهم وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها
رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى أمن جعل الارض قرارا أى قارة ساكنة ثابتة
لا تميد ولا تتحرك باهلها ولا ترجف بهم فانها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة بل جعلها من فضله ورحمته مهادا بساطا
ثابتة لا تتزلزل ولا تتحرك كما قال تعالى في الآية الاخرى الله الذى جعل لكم الارض قرارا والسماء بناء
وجعل خلالها أنهارا أى جعل فيها الانهار العذبة الطيبة شقها فى خلالها وصرفها فيها ما بين انهار كبار وصغار وبين ذلك وسيرها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم واقطارهم حيث ذرأهم فى ارجاء الارض سير لهم ارزاقهم بحسب ما يحتاجون اليه وجعل لها رواسى أى جبالا شامخة ترسى الارض وتثبتها لئلا تميد بكم وجعل بين البحرين حاجزا أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا أى مانعا يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا فان الحكمة الالهية تقتضى بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه فان البحر الحلو هو هذه الانهار السارحة الجارية بين الناس والمقصود منها ان تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها والبحار المالحة هى المحيطة بالارجاء والاقطار من كل جانب والمقصود منها ان يكون ماؤها ملحا اجاجا لئلا تفسد الهواء بريحها كما قال تعالى وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح اجاج وجعل بينهما
برزخا وحجرا محجورا ولهذا قال تعالى أإله مع الله أى فعل هذا أو يعبد على القول الاول والآخر وكلاهما
متلازم صحيح بل أكثرهم لا يعلمون أى فى عبادتهم غيره (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع
الله قليلا ما تذكرون) ينبه تعالى انه المدعو عند الشدائد المرجو عند النوازل كما قال تعالى واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون
الا اياه وقال تعالى ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون وهكذا قال ههنا امن يجيب المضطر اذا دعاه أى من هو الذى لا يلجأ المضطر الا
اليه والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه قال الامام أحمد أنبأنا عفان أنبأنا وهيب أنبأنا خالد الحذاء عن أبى تميمة الهجيمى عن

لا يستحق العبادة قال مجاهد الذى يدعون من دونه هو الشيطان وقيل ما أشركوا به من
صنم أو غيره وهذا أولى (وأن الله هو العلى الكبير) أى ان ذلك الصنع البديع الذى وصفه
فى الآيات المتقدمة للاستدلال به على حقية الله وبطلان ما سواه وعلوه وكبر بأنه على
الخلق له الصفات العليا والاسماء الحسنى وهو على الذات سمى الصفات كبير الشان جليل
القدر رفيع الذكر مطاع الامر جلى البرهان ثم ذكر من عجيب صنعه وبديع قدرته وغاية
حكمته وشمول انعامه نوعا آخر فقال (ألم تر أن الفلك) أى السفن والمراكب (تجرى فى
البحر بنعمة الله) أى بلطفه بكم ورحمته لكم او بالريح لانها من نعم الله تعالى وذلك من
اعظم نعمه عليكم لانها تخلصكم من الغرق عند اسفاركم فى البحر لطلب الرزق وقرئ
بنعمات الله جمع نعمة والباء للصلة او للحال (ليريكم من آياته) من للتبعيض اى بعض آياته
قال يحيى بن سلام وهو جرى السفن فى البحر بالريح وقال ابن شجرة المراد بقوله من آياته
ما يشاهدونه من قدرة الله تعالى قال النقاش ما يرزقهم الله من البحر (ان فى ذلك لآيات
لكل صبار شكور) هذه الجملة تعليل لما قبلها اى ان فيما ذكر لآيات عظيمة وعبرا فخيمة
لكل من له صبر بليغ وشكر كثير يصبر عن معاصى الله ويشكر نعمه وهما صفتا المؤمن
فالايمان نصفان نصفه شكر ونصفه صبر فكأنه قال ان فى ذلك لآيات لكل مؤمن حيث
يبعث نفسه فى التفكر فى عدم غرقه وفى سيره الى البلاد الشاسعة والاقطار البعيدة وفى
كون سيره ذهابا وايابا بريحين وتارة بريح واحدة وفى انجائه نوح عليه السلام ومن
اراد الله تعالى من خلقه واغراق غيرهم من جميع اهل الارض وفى غير ذلك من شؤنه
واموره وافعاله وصنائعه (واذا غشيهم موج كالظلل) اى كالجبال التى تظل من تحتها شبه
الموج لكبره بما يظل الانسان من جبل او سحاب او غيرهما او غاشية الموج وهو واحد
بالظلل وهى جمع لان الموج يأتى شيأ بعد شئ ويركب بعضه بعضا وقيل ان الموج فى معنى
الجمع لانه مصدر واصل الموج الحركة والازدحام ومنه يقال ماج البحر وماج الناس
وقرئ كالظلال جمع ظل (دعوا الله) وحده (مخلصين له الدين) أى لا يعولون على غيره فى
خلاصهم لانهم يعلمون انه لا يضر ولا ينفع سواه ولكنه يغلب على طبائعهم العادات
وتقليد الاموات فاذا وقعوا فى مثل هذه الحالة اعترفوا بوحدانية الله تعالى واخلصوا
دينهم له طلبا للخلاص والسلامة مما وقعوا فيه لزوال ما ينازع الفطرة الايمانية

من الهوى والتقليد بما دهاهم من الشدائد (فلما نجاهم الى البر) صاروا قسمين (فمنهم مقتصد) أي فقسم مقتصد أي عدل موف في البر بما عاهد عليه الله في البحر من اخلاص الدين له باق على ذلك بعد ان نجاه الله من هول البحر وأخرجه الى البر سالما قال الحسن معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة وقال مجاهد مقتصد في القول مضمر للكفر وقال الرازي المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات والظالم لنفسه وهو الذي تساوت سيآته وحسناته وقيل متوسط بين الكفر والايمان لانه انزجر بعض الانزجار ومنهم باق على كفره ولان بعضهم كان أشد قولا وأعلى افتراء من بعض والاولى ماذكرناه قيل نزلت في عكرمة بن أبي جهل وذلك انه هرب عام الفتح الى البحر فجاءهم ريح عاصف فقال عكرمة لئن نجانا الله من هذا لارجعن الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولاضعن يده في يدي فسكنت الريح ورجع عكرمة الى مكة وحسن اسلامه وفي الكلام حذف والتقدير فمنهم مقتصد ومنهم كافر لم يوف بما عاهد ويدل على هذا المحذوف قوله (ومايجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لانه نقض العهد الفطري ورفض ما كان عليه في البحر وهذا في مقابلة صبار كما ان كفور في مقابلة شكور والختر أسوأ الغدر وأقبحه قال الجوهري الختر الغدر يقال ختره فهو ختار أي غدار قال الماوردي وهذا قول الجمهور وقال ابن عطية انه الجاحد وجحد الآيات انكارها والكفور عظيم الكفر بنعم الله سبحانه قال ابن عباس ختار جحاد (ياأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لايجزي) أي لايغني ولايقضي (والد عن ولده) شيأ ولاينفعه بوجه من وجوه النفع لاشتغاله بنفسه وقد تقدم بيان معناه في البقرة (ولامولود هو) مبتدأ ثان خبره (جاز عن والده شيأ) والجملة خبر مولود وجاز الابتداء به وهو نكرة لانه في سياق النفي ثم الخبر مع المبتدا كلام وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه لان الجملة الاسمية آكد من الجملة الفعلية وقد انضم الى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في ذلك ان الخطاب للمؤمنين فأريد حسم أطماعهم ان ينفعوا آباءهم بالشفاعة في الآخرة ومعنى التأكيد في لفظ المولود أن الواحد منهم لوشفع للاب الادنى الذي ولد منه لم تقبل شفاعته فضلا ان يشفع لاجداده اذ الولد يقع على الولد وولد الولد بخلاف المولود فانه لمن ولد منك كذا في الكشاف وبالجملة فقد ذكر سبحانه هنا فردين من القرابات وهما الوالد والولد وهما الغاية في الحنو

رجل من بلهجيم قال قلت يارسول الله الام تدعو قال أدعو الى الله وحده الذي ان مسك ضر فدعوته كشف عنك والذي ان أضلت بأرض قفر فدعوته رد عليك والذي ان أصابتك سنة فدعوته أنبت لك قال قلت أوصني قال لاتسبن أحدا ولاتزهدن في المعروف ولوان تلقى أخاك وأنت منبسط اليه وجهك ولوأن تفرغ من دلوك في اناء المستقي واتزر الى نصف الساق فان أبيت فالى الكعبين واياك واسبال الازار فان اسبال الازار من المخيلة وان الله لايحب المخيلة وقد رواه الامام أحمد من وجه آخر فذكر اسم الصحابي فقال حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة حدثنا يونس هو ابن عبيد حدثنا عبيدة الهجيمي عن أبيه عن أبي تميمة الهجيمي عن جابر بن سليم الهجيمي قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محتب بشملة وقد وقع هدبها على قدميه فقلت أيكم محمد رسول الله فأومأ بيده الى نفسه فقلت يارسول الله أنا من أهل البادية وفي جفاؤهم فأوصني قال لاتحقرن من المعروف شيأ ولو ان تلقى أخاك ووجهك منبسط ولو أن تفرغ من دلوك في اناء المستقي وان امرؤ شتمك بمايعلم فيك فلا تشتمه بماتعلم فيه فانه يكون لك أجره وعليه وزره واياك واسبال الازار فان اسبال الازار من المخيلة وان الله لايحب المخيلة ولاتسبن أحدا قال فماسببت بعده أحدا ولاشاة ولابعيرا وقد روى أبوداود والنسائي لهذا الحديث طرقا وعندهما طرف صالح منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن هشام حدثنا عبيدة بن نوح عن عمر بن الحجاج عن عبيدالله بن أبي صالح قال دخل علي طاوس يعودني فقلت له ادع الله لي (٢) يا أبا عبدالرحمن فقال ادع لنفسك فانه يجيب المضطر اذا دعاه وقال وهب بن منبه قرأت

في الكتاب الاول ان الله تعالى يقول بعزتي انه من اعتصم بي فان كادته السموات بمن فيهن والارض بمن فيهن فاني اجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بي فاني أخسف به من تحت قدميه الارض فأجعله في الهواء فأكله الى نفسه وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل كنت أكاري على بغل لي من دمشق الى بلد الزبداني فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لي خذ في هذه فانها أقرب فقلت لاخبرة لي فيها فقال بل هي أقرب فسلكناها فانتهينا الى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لي

(٢) قوله ادع الله لي يا أبا عبدالرحمن فقال ادع الخ في نسخة ادع الله لي قال يا أبا عبد الرحمن ادع الخ وحرر اهـ مصححه

أمسك رأس البعل حتى أنزل البول وتشر وجمع عليه ثيابه وسل سكينا معه وقصد إلى فقرت من بين يديه وتبعني فأنشدته الله وقلت ما فعلت ما عليه فقال دولي وما أريد إلا تقربي بخوف الله والعتق بقطع يسل فاستسلمت بين يديه وقلت أريد أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال عجل فقمت أصلي فأرتج علي القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول هيه افرغ فأجرى الله على لساني قوله تعالى أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة

فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده فخر صريعا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت فقال أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما وذكر في ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت هزم الكفار يوما المسلمين في غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوي اليسار ومن الصلحاء فقال للجواد ما لك ويلك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد وما لي لا أقصر وأنت تكل العلوفة إلى السواس فيظلموني ولا يطعموني إلا القليل فقال لك علي عهد الله أني لا أعلفك بعد هذا اليوم إلا في حجري فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا في حجره واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك وبلغ ملك الروم أمره فقال ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها واحتال ليحصله في بلده فبعث إليه رجلا من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد حسنت نيته في الإسلام وقومه حتى استوثق ثم خرجا يوما يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصا آخر من جهة ملك الروم ليتساعدا على أسره فلما اكتنفاه لأخذه رمق طرفه إلى السماء وقال اللهم إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت قال فخرج السبعان فأخذاهما ورجع الرجل سالما وقوله تعالى ويجعلكم خلفاء الأرض أي يخلف كل قرن منكم القرن الذي قبله ويخلف السلف كما قال تعالى إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين وقال تعالى وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات وقال تعالى وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة أي قوما يخلف بعضهم بعضا كما قدمنا تقريره وهكذا هذه الآية ويجعلكم خلفاء الأرض أي أمة بعد أمة وجيلا بعد جيل وقوما بعد قوم ولو شاء لأوجدهم كلهم

واحدة والشفقة على بعضهم لبعض شاملة لجميع القرابات لا يجزي بالأولى فكيف لا جانب ومنه يصابانا على الأدنى وبالأدنى على الأعلى قال الجزري عن والده في لسبيلكم شفقته عليه والأم يجزي عن ولده لما له عليه من حق التربية وغيرها فإذا كان يوم القيامة فكل إنسان يقول نفسي نفسي ولا يهتم بقريب ولا بعيد وقال ابن عباس كل امرئ تهمه نفسه اليوم اجعلنا من لا يحزنهم الفزع ولا تعوّل على غيرك (إن وعد الله) بالبعث (حق) لا يتخلف شيء وعد به من الخير وأوعد به من الشر وهو كائن لا محالة (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) وزخارفها عن الإسلام فإنها زائلة والآخرة باقية (ولا يغرنكم بالله) بحلمه وإمهاله (الغرور) بفتح الغين أي الشيطان أو الأمل بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصي وقال ابن عباس الغرور هو الشيطان وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة لأن من شأنه أن يغر الخلق ويمنيهم الأماني الباطلة ويلهيهم عن الآخرة ويصدهم عن طريق الحق وقال سعيد بن جبير يعمل بالمعاصي ويتمنى المغفرة وقرئ بضم الغين مصدر غر يغر غرورا ويجوز أن يكون مصدرا واقعا وصفا للشيطان على المبالغة (إن الله عنده علم الساعة) أي علم وقتها الذي تقوم فيه قال الفراء إن معنى هذا الكلام النفي أي ما يعلمه إلا الله عز وجل قال النحاس وإنما صار فيه معنى النفي لما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في قوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو إنها هذه أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله لا يعلم ما في غد إلا الله ولا متى تقوم الساعة إلا الله ولا ما في الأرحام إلا الله ولا متى ينزل الغيث إلا الله وما تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة في حديث سؤاله عن الساعة وجوابه بشراطها ثم قال في خمس لا يعلمهن إلا الله ثم تلا هذه الآية أي لا يدري أحد متى تقوم الساعة في أي سنة أو أي شهر أو أي يوم أو أي ساعة ليلا أو نهارا وفي الباب أحاديث وعن مجاهد قال جاء رجل من أهل البادية فقال إن امرأتي حبلى فأخبرني ما تلد وبلادنا مجدبة فأخبرني متى ينزل الغيث وقد علمت متى ولدت فأخبرني متى أموت فأنزل الله إن الله عنده علم الساعة الآية وعن عكرمة نحوه وزاد وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا وزاد أيضا أنه سأل عن قيام الساعة وقيل نزلت في الحارث بن عمرو بن حارثة من أهل

فى وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ولو شاء ان يجعلهم ذرية بعضهم من بعض ولكن لا يميت أحدا حتى يكون وفاة الجميع فى وقت واحد فكانت تضيق عنهم الارض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم فى الارض ويجعلهم قرونا بعد قرون وأمما بعد أمم حتى ينقضى الاجل وتفرغ البرية كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عدا ثم يقيم القيامة ويوفى كل عامل عمله اذا بلغ الكتاب أجله ولهذا قال تعالى (٢٢٧) أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله أى يقدر على ذلك أو أإله مع الله يعبد وقد علم ان الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له قليلا ما تذكرون أى ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم الى الحق ويهديهم الى الصراط المستقيم (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون) يقول تعالى أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر أى بما خلق من الدلائل السماوية والارضية كما قال تعالى وعلامات وبالنجم هم يهتدون وقال تعالى وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر الآية ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أى بين يدى السحاب الذى فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين الأزلين القنطين أإله مع الله تعالى الله عما يشركون (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) أى هو الذى بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال تعالى فى الآية الأخرى ان بطش ربك لشديد انه هو يبدئ ويعيد وقال تعالى وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ومن يرزقكم من السماء والارض أى بما ينزل من مطر السماء وينبت من بركات الارض كما قال تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع وقال تعالى يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركا فيسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به منها أنواع الزروع والثمار والازاهير وغير ذلك من ألوان شتى كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ولهذا قال تعالى أإله مع الله أى فعل هذا وعلى القول الآخر يعبد هذا قل هاتوا برهانكم على

البادية (وينزل الغيث) فى الاوقات والامكنة التى جعلها معينة لانزاله ولا يعلم ذلك غيره قرئ من التنزيل والانزال (ويعلم ما فى الارحام) من الذكور والاناث والصلاح والفساد (وما تدرى نفس) من النفوس كائنة ما كانت من غير فرق بين الملائكة والانبياء والجن والانس (ماذا تكسب غدا) من كسب دين أو كسب دنيا خيرا أو شرا (وما تدرى نفس بأى أرض تموت) وقرئ بأية أرض وجوز ذلك الفراء وهى لغة ضعيفة قال الاخفش يجوز ان يقال مررت بجارية أى جارية والمعنى ولا تعلم نفس بأى مكان يقضى الله عليها بالموت من الارض فى بر أو بحر فى سهل أو جبل وربما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها فترمى بها مرامى القدر حتى تموت فى مكان لم يخطر ببالها روى ان ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر الى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا قال ملك الموت قال كأنه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ثم قال ملك الموت لسليمان كان دوام نظرى اليه تعجبا منه لانى أمرت أن أقبض روحه بالهند وهو عندك ذكره النسفى فى المدارك ورأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمس أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة هو اشارة الى هذه الآية فان هذه العلوم الخمسة لا يعلمها الا الله قال الكرخى أضاف فى الآية العلم الى نفسه فى الثلاثة من الخمسة المذكورة ونفى العلم عن العباد فى الاخيرتين منها مع ان الخمسة سواء فى اختصاص الله تعالى بعلمها وانتفاء علم العباد بها لان الثلاثة الاولى أمرها أعظم وأفخم فخصت بالاضافة اليه تعالى والاخيرتان من صفات العباد فخصتا بالاضافة اليهم مع انه اذا انتفى عنهم علمهما كان انتفاء علم ما عداهما من الخمسة أولى (ان الله عليم) بهذه الاشياء وبغيرها من الغيوب (خبير) بما كان وبما يكون وببواطن الاشياء كظواهرها ليس علمه محيطا بالظاهر فقط قال ابن عباس هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبى مرسل فمن ادعى انه يعلم شيئا من هذه فانه كفر بالقرآن وعن الزهرى أكثروا قراءة سورة لقمان فان فيها أعاجيب والله أعلم وفيه رد على المنجم والكاهن اللذين يخبران بوقت الغيث والموت وغيرهما

(سورة السجدة آياتها تسع وعشرون آية وقيل ثلاثون آية)

بناء على الاختلاف في أن آخر الآية أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد أو هم كافرون فعلى الأول تكون ثلاثين وعلى الثاني تكون تسعا وعشرين وهي مكية قاله ابن عباس وابن الزبير وأخرج النحاس عنه هي مكية سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة أفمن كان مؤمنا الى تمام الآيات الثلاث وكذا قال الكلبي ومقاتل وقيل الا خمس آيات من قوله تتجافى جنوبهم الى قوله الذي كنتم به تكذبون وقد ثبت عند مسلم وأهل السنن من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بالم تنزيل السجدة وهل أتى على الانسان وأخرج أحمد والدارمي والترمذي والنسائي والحاكم وصححه وغيرهم عن جابر قال كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام حتى يقرأ الم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك وقد وردت في فضائل هذه السورة أحاديث

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد قدمنا الكلام على فاتحة هذه السورة في البقرة وفي مواضع كثيرة من فواتح السور والله أعلم بمراده به (تنزيل الكتاب) فيه أوجه حسنة ذكرها السمين (لا ريب فيه) أي لا شك في أنه (من رب العالمين) وانه ليس بكذب ولا سحر ولا كهانة ولا أساطير الاولين (أم يقولون) أم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة أي بل أيقولون فأضرب عن الكلام الاول الى ما هو معتقد الكفار مع الاستفهام المتضمن للتقريع والتوبيخ (افتراه) أي افتعله واختلقه من تلقاء نفسه ثم أضرب عن معتقدهم هذا الى بيان ما هو الحق في شأن الكتاب فقال (بل) اضراب ابطال لنفس افترائه وحده وعلى هذا كل ما في القرآن اضراب فهو انتقال الا هذا فانه يجوز ان يكون ابطالا لانه ابطال لقولهم أي ليس هو كما قالوا بل (هو الحق من ربك) فكذبهم سبحانه في دعوى الافتراء ثم بين العلة التي كان التنزيل لاجلها فقال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) وهم العرب وكانوا أمة أمية لم يأتهم رسول وقيل قريش خاصة والتقدير لتنذر قوما العقاب وجوز أبو حيان ان تكون ما موصولة أي العقاب الذي أتاهم وهو ضعيف جدا فان المراد تعليل الانزال بالانذار لقوم لم يأتهم نذير قبله لا تعليله بالانذار لقوم قد أنذروا بما أنذرهم به وقيل المراد بالقوم أهل الفترة ما بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم (لعلهم يهتدون) أي كي يهتدوا أو رجاء ان يهتدوا والترجي معتبر من جهته عليه السلام (الله الذي خلق) أي أوجد

على جميع ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ان كنتم صادقين في ذلك وقد علم انه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون) يقول تعالى آمرا رسوله صلى الله عليه وسلم ان يقول معلما لجميع الخلق انه لا يعلم أحد من أهل السموات والارض الغيب الا الله وقوله تعالى الا الله استثناء منقطع أي لا يعلم أحد ذلك الا الله عز وجل فانه المنفرد بذلك وحده لا شريك له كما قال تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو الآية وقال تعالى ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث الى آخر السورة والآيات في هذا كثيرة وقوله تعالى وما يشعرون أيان يبعثون أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والارض بوقت الساعة كما قال تعالى ثقلت في السموات والارض لا تأتيكم الا بغتة أي ثقل علمها على أهل السموات والارض وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد حدثنا أبو جعفر الرازي عن داود ابن أبي هند عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت من زعم انه يعلم يعني النبي صلى الله عليه وسلم ما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية لان الله تعالى يقول قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وقال قتادة انما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصلات جعلها زينة للسماء وجعلها يهتدى بها وجعلها رجوما للشياطين فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به وان أناسا جهلة بأمر الله قد أحدثوا من هذه النجوم كهانة من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ومن سافر بنجم كذا وأبدع وكذا كان كذا وكذا ومن ولد بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا ولعمري ما من نجم الا يولد به الاحمر والاسود والقصير والطويل والحسن والدميم وما علم هذا النجم وهذه الدابة وهذا الطير بشيء من الغيب وقضى الله تعالى أن لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون رواه ابن أبي حاتم عنه بحروفه وهو كلام جليل متين صحيح وقوله بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها وقرأ آخرون بل أدرك علمهم أي تساوى علمهم في ذلك كما في الصحيح

لسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل وقد سأله عن وقت الساعة ما المسؤل عنها بأعلم من السائل أي تساوى في العجز عن درك ذلك علم المسؤل والسائل قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بل ادارك علمهم في الآخرة أي غاب وقال قتادة بل ادارك علمهم في الآخرة يعني بجهلهم بربهم يقول لم ينفذ لهم علم في الآخرة هذا قول وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس بل ادارك علمهم في الآخرة حين لم ينفع العلم وبه قال عطاء الخراساني والسدي ان علمهم انما يدرك ويكمل يوم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين وقال سفيان عن عمرو بن عبيد عن الحسن انه كان يقرأ بل أدرك علمهم قال اضمحل علمهم في الدنيا حين عاينوا الآخرة وقوله تعالى بل هم في شك منها عائد على الجنس والمراد الكافرون كما قال تعالى وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا أي الكافرون منكم وهكذا قال ههنا بل هم في شك منها أي شاكون في وجودها ووقوعها بل هم منها عمون أي في عماية وجهل كبير في أمرها وشأنها (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا الأساطير الاولين قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون) يقول تعالى مخبرا عن منكري البعث من المشركين انهم استبعدوا اعادة الاجساد بعد صيرورتها عظاما ورفاتا وترابا ثم قال لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل أي مازلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا ولا نرى له حقيقة ولا وقوعا وقولهم ان هذا الا أساطير الاولين يعنون ما هذا الوعد باعادة الابدان الا أساطير الاولين أي أخذه قوم عمن قبلهم من كتبهم يتلقاه بعضهم عن بعض وليس له حقيقة قال الله تعالى مجيبا لهم عما ظنوه من الكفر وعدم المعاد قل يا محمد لهؤلاء سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين أي المكذبين بالرسل وبما جاؤهم به من أمر المعاد وغيره كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ونجى الله من بينهم رسله الكرام ومن اتبعهم من المؤمنين فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته ثم قال تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم ولا تحزن عليهم أي المكذبين بما جئت به ولا تأسف عليهم وتذهب نفسك عليهم حسرات

وأبدع (السموات والارض وما بينهما في ستة أيام) على التوزيع كما يأتي في سورة فصلت وقد تقدم تفسير هذه الآية في الاعراف وغيرها والمراد من ذكرها هنا تعريفهم كمال قدرته وعظيم صنعه ليسمعوا القرآن ويتأملوه قال الحسن الايام هنا هي من أيام الدنيا وقيل مقدار اليوم ألف سنة من سني الدنيا قاله الضحاك فعلى هذا المراد بالايام هنا هي من أيام الآخرة لا من أيام الدنيا وليست ثم للترتيب في قوله (ثم استوى على العرش) بل بمعنى الواو والعرش في اللغة سرير الملك والمراد به هنا الجسم النوراني المحيط بالعالم كله وهذا الاستواء في سبع مواضع من القرآن الكريم والاصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر في أن الله تعالى فوق العرش بائن من خلقه بالمعنى الذي يليق بجنابه الاقدس الاعلى وتأويله اخراج النص أو الظاهر عن معناه وهذا لا يجوز قطعا الا عند وجود ما يساويه أو يتقدم عليه ويعارضه ودونه خرط القتاد وقد اختلف الناس في هذا على أربعة عشر قولا أولاها بالصواب مذهب سلف الامة وأئمتها انه استوى عليه بلا كيف مع تنزيهه عما لا يجوز عليه والآيات الصريحة والاحاديث الصحيحة في هذا الباب كثيرة جدا وهي تغني عن غيرها وردت الجهمية هذه الصفة الثابتة لله سبحانه وتبعها المعتزلة ورد عليهم الحافظ ابن القيم في اعلام الموقعين بثمانية عشر وجها يطول ذكرها وقد جمع أهل العلم فيها أسماء أهل القرآن وأصحاب الحديث مباحث بل رسائل بل كتبا طولوها بذكر الادلة النقلية بل العقلية والمسئلة أوضح من ان تلتبس على عارف وأبين من أن يحتاج فيها الى التطويل ولكن لما وقعت فيها تلك القلاقل والزلازل بين بعض الطوائف الاسلامية لاسيما الحق الصراح فيها وأطال سيما الحنابلة وأهل الحديث فلهم في ذلك الفتن الكبرى والملاحم العظمى وما زالوا هكذا في عصر بعد عصر الى يومنا هذا والحق ما عرفناك من مذهب السلف الصالح فالاستواء على العرش وكونه تعالى فوق الخلق عاليا عليهم قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها ويطول نشرها وكذلك صرح به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غير حديث بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه ويحسه في فطرته وتجذبه اليه طبيعته كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه والتجأ اليه ووجه دعاءه الى جنابه الرفيع وعزه المنيع فانه يشير عند ذلك بكفه أو يومي بطرفه يستوي في ذلك عند عروض أسباب

ضيق مما يمكرون أي في حرج وردما جئت به فان الله مؤيدك وناصرك ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب (ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة في السماء والارض الا في كتاب مبين) يقول تعالى مخبرا عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة واستبعادهم وقوع ذلك ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قال الله تعالى مجيبا لهم

قل يا محمد عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون قال ابن عباس ان يكون قرب أو ان يقرب لكم بعض الذي تستعجلون وهكذا قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني وقتادة والسدي وهذا هو المراد بقوله تعالى ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا وقال تعالى ويستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين وانما دخلت اللام في قوله ردف لكم لانه ضمن معنى عجل لكم كما قال مجاهد في رواية عنه عسى أن يكون ردف لكم عجل لكم ثم قال الله تعالى وان ربك لذو فضل على الناس أي في اسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لانفسهم وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك الا القليل منهم وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر سواء منكم من أسر القول ومن جهر به يعلم السر وأخفى ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ثم أخبر تعالى بانه عالم غيب السموات والارض وانه عالم الغيب والشهادة وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى وما من غائبة قال ابن عباس يعني وما من شئ في السماء والارض الا في كتاب مبين وهذه كقوله ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله يسير (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) يقول تعالى مخبرا عن كتابه العزيز وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان انه يقص على بني اسرائيل وهم حملة التوراة والانجيل أكثر الذي هم

الادعية وحدوث بواعث الاستغاثة ووجود مقتضيات الازعاج وظهور دواعي الالتجاء عالم الناس وجاهلهم وباديهم وحاضرهم والماشي على طريقة السلف والمقتدي بأهل التأويل من الخلف فالامة والعامة في امرار ذلك على الظاهر والادعاء بأن الاستواء والاستقرار والكون في الفوق ثابتة على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكييف ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل والمؤول عن ربقة تقليد السلف ولا واقف في طريق النجاة ولا معصوم عن الخطأ ولا سالك في جادة السلامة والاستقامة قال في حجة الله البالغة واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث وسموهم مجسمة مشبهة وقالوا هم المستترون بالبلكفة وقد وضح على وضوحا بينا ان استطالتهم هذه ليست بشئ وانهم مخطئون في مقالتهم رواية ودراية وخاطئون في طعنهم أئمة الهدى انتهى (ما لكم من دونه) أي ليس لكم من دون الله أو من دون عذابه (من ولي) يواليكم ويرد عنكم عذابه (ولا شفيع) يشفع لكم عنده (أفلا تتذكرون) تذكر تدبر وتفكر وتسمعون هذه المواعظ سماع من يفهم ويعقل حتى تنتفعوا بها وتؤمنوا ولما بين سبحانه خلق السموات والارض وما بينهما بين تدبيره لامرهما فقال (يدبر) أي يحكم (الامر) بقضائه وقدره (من السماء الى الارض) الى أن تقوم الساعة والمعنى ينزل أمره من أعلى السموات الى أقصى تخوم الارض السابعة كما قال سبحانه الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن ومسافة ما بين سماء الدنيا والارض التي تحتها نزولا وطلوعا ألف سنة من أيام الدنيا وقيل المراد بالامر المأمور به من الاعمال أي ينزله مدبرا من السماء الى الارض وقيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة أحكامها وآثارها الى الارض وقيل ينزل الوحي مع جبريل وقيل العرش موضع التدبير كما ان ما دون العرش موضع التفصيل كما في قوله ثم استوى على العرش يدبر الامر يفصل الآيات وما دون السموات موضع التصرف قال تعالى ولقد صرفناه بينهم ليذكروا وقال ابن عباس يدبر الامر شهدا في الدنيا أي شأنها وحالها والامور التي تقع فيها والمراد تدبير أمرها القضاء السابق الذي هو الارادة الازلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ثم لما ذكر سبحانه تدبير الامر قال (ثم يعرج) قرأ الجمهور على البناء للفاعل وقرئ على البناء للمفعول والاصل يعرج به أي يرجع ذلك الامر ويعود ذلك التدبير والتصرف

فيه يختلفون كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه فاليهود افتروا والنصارى - ...فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل انه عبد من
عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون وقوله
وانه لهدى ورحمة للمؤمنين أى هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات ثم قال تعالى ان ربك يقضى بينهم أى يوم القيامة
بحكمه وهو العزيز أى فى انتقامه العليم بأفعال عباده وأقوالهم فتوكل على الله أى فى جميع أمورك وبلغ رسالة ربك انك على الحق
المبين أى أنت على الحق المبين وان خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة وحقت عليهم كلمة ربك انهم
لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ولهذا
قال تعالى انك لا تسمع الموتى أى
لا تسمعهم شيأ ينفعهم فكذلك
هؤلاء على قلوبهم غشاوة وفى آذانهم
وقر الكفر ولهذا قال ولا تسمع الصم
الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت
بهادى العمى عن ضلالتهم ان
تسمع الامن يؤمن بآياتنا فهم
مسلمون أى انما يستجيب لك من
هو سميع بصير السمع والبصر النافع
فى القلب والبصيرة الخاضع لله
ولما جاء عنه على ألسنة الرسل
عليهم السلام (واذا وقع القول
عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض
تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا
لا يوقنون) هذه الدابة تخرج فى آخر
الزمان عند فساد الناس وتركهم
أوامر الله وتبديلهم الدين الحق
يخرج الله لهم دابة من الارض قيل
من مكة وقيل من غيرها كما سيأتى
تفصيله ان شاء الله تعالى فتكلم
الناس على ذلك قال ابن عباس
والحسن وقتادة ويروى عن على
رضى الله عنه تكلمهم كلاما
أى تخاطبهم مخاطبة وقال عطاء
الخراسانى تكلمهم فتقول ان
الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويروى هذا عن على واختاره ابن جرير وفى هذا القول نظر لا يخفى والله أعلم وقال ابن عباس فى
رواية تجرحهم وعنه رواية قال كلا تفعل يعنى هذا وهذا وهو قول حسن ولا منافاة والله أعلم وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث وآثار
كثيرة فلنذكر منها ما تيسر وبالله المستعان قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن فرات عن أبى الطفيل عن حذيفة بن أسيد الغفارى
قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات طلوع
الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم عليه السلام والدجال وثلاثة خسوف

فى المخلوقات بالحشر والحساب ووزن الاعمال والتعذيب والتنعيم وغير ذلك مما يقع فى
ذلك اليوم (اليه) سبحانه (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) قرأ الجمهور بالفوقية
على الخطاب وقرئ بالتحتية على الغيبة أى تعدونه من أيام الدنيا وذلك باعتبار مسافة
النزول من السماء والطلوع من الارض كما قدمنا وقيل ان المراد يعرج اليه فى يوم القيامة
الذى مقداره كذا من أيام الدنيا وذلك حين ينقطع أمر الدنيا ويموت من فيها وقيل هى
أخبار أهل الارض تصعد اليه مع من يرسله اليها من الملائكة والمعنى انه يثبت ذلك عنده
ويكتب فى صحف ملائكته ما عمله أهل الارض فى كل وقت من الاوقات الى ان تبلغ مدة
الدنيا آخرها وقيل المعنى يثبت فى علمه موجودا بالفعل فى برهة من الزمان هى مقدار ألف
سنة والمراد طول امتداد ما بين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر
الحوادث اليومية باثباتها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم يعرج اليه فى زمان
هو كألف سنة من أيام الدنيا وقيل يقضى قضاء ألف سنة فينزل به الملائكة ثم يعرج بعد
الالف لالف آخر وقيل المراد ان الاعمال التى هى طاعات يدبرها الله سبحانه وينزل بها
ملائكته ثم لا يعرج منها اليه الا الخالص بعد مدة متطاولة لقلة المخلصين من عباده وقيل
الضمير فى يعرج يعود الى الملك وان لم يجر له ذكر لانه مفهوم من السياق وقد جاء صريحا
فى قوله تعرج الملائكة والروح اليه والضمير فى اليه راجع الى السماء على لغة من يذكرها
أو الى مكان الملك الذى يرجع اليه وهو الذى أقره الله فيه وقيل المعنى يدبر أمر الشمس
فى الطلوع والغروب ورجوعها الى موضعها من الطلوع فى يوم كان مقداره فى المسافة
ألف سنة وقيل المعنى ان الملك يعرج الى الله فى يوم كان مقداره لو ساره غير الملك ألف سنة
فان ما بين السماء والارض مسافة خمسمائة عام فمسافة النزول من السماء الى الارض
والرجوع من الارض الى السماء ألف عام وقد رجح هذا جماعة من المفسرين منهم
ابن جرير وقيل مسافة النزول ألف سنة ومسافة الطلوع ألف سنة روى ذلك عن الضحاك
وهذا اليوم هو عبارة عن زمان يتقدر بألف سنة وليس المراد به مسمى اليوم الذى هو مدة
النهار بين ليلتين والعرب قد تعبر عن المدة باليوم كما قال الشاعر

يومان يوم مقامات وأندية * ويوم سير الى الاعداء تأديب

فان الشاعر لم يرد يومين مخصوصين وانما أراد ان زمانهم ينقسم شطرين فعبر عن كل

خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا
وتقيل معهم حيث قالوا وهكذا رواه مسلم وأهل السنن من طرق عن فرات القزاز عن أبي الطفيل عامر بن واثلة عن حذيفة مرفوعا
وقال الترمذي حسن صحيح ورواه مسلم أيضا من حديث عبد العزيز بن رفيع عن أبي الطفيل عنه موقوفا فالله أعلم (طريق أخرى)
قال أبو داود الطيالسي عن طلحة بن عمرو وجرير بن حازم فأما طلحة فقال أخبرني عبد الله بن عبيد الله بن عمير الليثي ان أبا الطفيل
حدثه عن حذيفة بن أسيد الغفاري أبي سريحة وأما جرير فقال عن عبد الله بن عبيد عن رجل من آل عبد الله بن
مسعود وحديث طلحة أتم وأحسن قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدابة فقال لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية يعني مكة ثم تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية يعني مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بينما الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم الا وهي ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شتى ومعا وثبتت عصابة من المؤمنين وعرفوا انهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدري وولت في الارض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب حتى ان الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول يا فلان الآن تصلي فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس في الاموال ويصطحبون في الامصار يعرف المؤمن من الكافر حتى ان المؤمن
ليقول يا كافر اقضى حقي وحتى ان الكافر ليقول يا مؤمن اقضى حقي ورواه ابن جرير من طريقين عن حذيفة
ابن أسيد موقوفا والله أعلم ورواه من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعا وان ذلك في زمان عيسى بن مريم وهو يطوف بالبيت ولكن
اسناده لا يصح (حديث آخر) قال مسلم بن الحجاج حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر عن أبي حيان عن أبي زرعة عن عبد الله
ابن عمرو قال حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا لم أنسه بعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان أول الآيات
خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على أثرها قريبا (حديث

واحد من الشطرين يوم وعن ابن عباس في الآية قال من الايام الستة التي خلق الله
فيها السموات والارض وعنه قال لا ينتصف النهار في مقدار يوم من أيام الدنيا في ذلك
اليوم حتى يقضي بين العباد فينزل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ولو كان الى غيره لم
يفرغ في خمسين ألف سنة وعنه قال في يوم من أيامكم هذه ومسيرة ما بين السماء والارض
خمسمائة عام وقد استشكل جماعة الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعرج الملائكة
والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فقيل في الجواب ان يوم القيامة مقداره
ألف سنة من أيام الدنيا ولكنه باعتبار صعوبته وشدة أهواله على الكفار كخمسين ألف
سنة والعرب تصف كثيرا يوم المكروه بالطول كما تصف يوم السرور بالقصر وقيل ان يوم
القيامة فيه أيام فمنها ما مقداره ألف سنة ومنها ما مقداره خمسون ألف سنة وقيل هي
أوقات مختلفة يعذب الكافر بنوع من أنواع العذاب ألف سنة ثم ينقل الى نوع آخر
فيعذب خمسين ألف سنة وقيل مواقف القيامة خمسون موقفا كل موقف ألف سنة
فيكون معنى يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة أنه يعرج اليه في وقت من تلك
الاوقات أو موقف من تلك المواقف وعن مجاهد وقتادة والضحاك انه أراد سبحانه في قوله
تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة المسافة من الارض الى
سدرة المنتهى التي هي مقام جبريل والمراد انه يسير جبريل ومن معه من الملائكة في
ذلك المقام الى الارض مسيرة خمسين ألف سنة في مقدار يوم واحد من أيام الدنيا وأراد
بقوله في يوم كان مقداره ألف سنة المسافة التي بين الارض وبين السماء الدنيا هبوطا
وصعودا فانها مقدار ألف سنة من أيام الدنيا وقيل ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر
وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ في يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره
في سنين متطاولة فقوله في يوم كان مقداره ألف سنة يعني يدبر الامر في زمان يوم منه
ألف سنة فكم يكون الشهر منه وكم تكون السنة منه وعلى هذا فلا فرق بين ألف سنة
وبين خمسين ألف سنة وقيل غير ذلك وقد وقف حبر الامة ابن عباس لما سئل عن الآيتين
وقال هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما وأكره أن أقول في كتاب الله ما لا أعلم
وقال ابن المسيب للسائل هذا ابن عباس قد أبى أن يقول فيهما وهو أعلم مني والاشارة
بقوله (ذلك) الى الله سبحانه باعتبار اتصافه بتلك الاوصاف أي ذلك الخالق المدبر (عالم
الغيب

آخر) وروى مسلم في صحيحه من حديث العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها ... والدابة وخاصة أحدكم وأمر العامة تفرد به مسلم من حديث قتادة عن الحسن عن زياد بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالأعمال ستاً الدجال والدخان ودابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها وأمر العامة وخويصة أحدكم (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا حرملة بن يحيى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحرث (٢٢٣) وابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعيد عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بادروا بالأعمال ستاً طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة والدجال وخويصة أحدكم وأمر العامة تفرد به (حديث آخر) قال أبو داود الطيالسي حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أوس بن خالد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلي وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر ورواه الإمام أحمد عن بهز وعفان ويزيد بن هرون ثلاثتهم عن حماد بن سلمة به وقال فتخطم أنف الكافر بالخاتم وتجلو وجه المؤمن بالعصا حتى إن أهل الخوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا يا مؤمن ويقول هذا يا كافر ورواه ابن ماجه عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن يونس بن محمد المؤدب عن حماد بن سلمة به (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو حدثنا أبو تميلة

حدثنا خالد بن عبيد حدثنا عبد الله بن بريدة عن أبيه قال ذهب بي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع بالبادية قريب من مكة فإذا أرض يابسة حولها رمل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تخرج الدابة من هذا الموضع فإذا فتر في شبر قال ابن بريدة فحججت بعد ذلك بسنين فأرانا عصا له فإذا هو بعصاي هذه كذا وكذا وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة أن ابن عباس قال هي دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية قال قال عبد الله تخرج الدابة من صدع من الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام لم يخرج ثلثها

الغيب والشهادة) أي العالم بما غاب عن الخلق وما حضرهم وفي هذا معنى التهديد لأنه سبحانه إذا علم بما يغيب وما يحضر فهو مجاز لكل عامل بعمله أو فهو يدبر الأمر بما تقتضيه حكمته (العزيز) القاهر الغالب (الرحيم) بعباده (الذي أحسن كل شيء خلقه) قرئ بفتح اللام وبإسكانها فعلى الأولى خلقه فعل ماض نعتاً للشيء وعلى الثانية ففي نصبه أوجه الأول أن يكون بدلاً من كل شيء بدل اشتمال والضمير عائد إلى كل شيء وهذا هو الوجه المشهور وعند النحاة الثاني أنه بدل كل من كل والضمير راجع إلى الله سبحانه ومعنى أحسن حسن لأنه ما من شيء إلا وهو مخلوق على ما تقتضيه الحكمة فكل المخلوقات حسنة الثالث أن يكون كل شيء هو المفعول الأول وخلقه هو المفعول الثاني على تضمين أحسن معنى أعطى والمعنى أعطى كل شيء خلقه الذي خصه به وقيل على تضمينه معنى ألهم قال الفراء ألهم خلقه كل شيء يحتاجون إليه الرابع أنه منصوب على المصدر المؤكد لمضمون الجملة أي خلقه خلقاً كقوله صنع الله وهذا قول سيبويه والضمير يعود إلى الله سبحانه والخامس أنه منصوب بنزع الخافض والمعنى أحسن كل شيء في خلقه ومعنى الآية أنه أتقن وأحكم خلق مخلوقاته فبعض المخلوقات وإن لم تكن حسنة في نفسها فهي متقنة محكمة فيكون هذه الآية معناها معنى أعطى كل شيء خلقه أي لم يخلق الإنسان على خلق البهيمة ولا خلق البهيمة على خلق الإنسان وقيل هو عموم في اللفظ خصوص في المعنى أي أحسن خلق كل شيء حسن وقال ابن عباس أما رأيت القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها وعنه في الآية قال أما أن است القردة ليست بحسنة ولكنه أحكم خلقها وقال خلقه صورته وقال أحسن كل شيء القبيح والحسن والعقارب والحيات وكل شيء مما خلق وغيره لا يحسن شيئاً من ذلك وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ لقينا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة قد أسبل فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بناحية ثوبه فقال يا رسول الله إني أحمش الساقين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا عمرو بن زرارة إن الله عز وجل قد أحسن كل شيء يا عمرو إن الله لا يحب المسبلين وأخرج أحمد والطبراني عن الشريد بن سويد قال أبصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً قد أسبل إزاره فقال ارفع إزارك فقال يا رسول الله إني أحنف تصطك ركبتاي فقال ارفع إزارك كل خلق الله حسن (وبدأ خلق الإنسان) يعني آدم خلقه

وقال محمد بن إسحق عن أبان بن صالح قال سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم (١) أو لو شئت بعصاي الصخرة التي تخرج الدابة من تحتها قيل فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل ثم ماذا قال لا أعلم وعن عبد الله بن عمر أنه قال تخرج الدابة ليلة جمع رواهما ابن أبي حاتم وفي إسناده ابن البيلماني وعن وهب ابن منبه أنه حكى من كلام عزير عليه السلام أنه قال وتخرج من تحت سدوم دابة تكلم الناس كل يسمعها وتضع الحبالى قبل التمام ويعود الماء العذب أجاجا ويتعادى الأخلاء وتحرق الحكمة ويرفع العلم وتكلم الأرض التي تليها وفي ذلك الزمان يرجو الناس ما لا يبلغون ويتعبون فيما لا ينالون ويعملون فيما لا يأكلون رواه ابن أبي حاتم عنه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن أبي مريم أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول إن الدابة فيها من كل لون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وقال ابن عباس هي مثل الحربة الضخمة وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال إنها دابة لها ريش وزغب وحافر وما لها ذنب ولها لحية وإنها لتخرج حضر الفرس الجواد ثلاثا وما خرج ثلثها رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جريج عن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل وقرنها قرن أيل وعنقها عنق نعامة وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هر وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعا تخرج معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتفشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه حتى إن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن بكم ذا يا كافر وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ثم تقول لهم الدابة يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ويا فلان أنت من أهل النار فذلك قول الله تعالى وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب

(من طين) فصار على صورة بديعة وشكل بديع حسن (ثم جعل نسله) أي ذريته (من سلالة) أي نطفة سميت الذرية سلالة لأنها تسل من الأصل وتنفصل عنه وقد مر تفسيرها في سورة المؤمنين والمذكور هاهنا صفة ذرية آدم والمذكور ثمة صفة آدم (من ماء مهين) أي ممتهن لا خطر له عند الناس وهو المني وقال الزجاج من ماء ضعيف (ثم سواه) أي الإنسان الذي بدأ خلقه من طين وهو آدم أو جميع النوع والمراد أنه عدل خلقه وسوى شكله وقومه وناسب بين أعضائه على ما ينبغي كقوله في أحسن تقويم (ونفخ فيه من روحه) أي جعله حيا حساسا بعد أن كان جمادا والإضافة للتشريف والتكريم وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته وإن أمكن توجيهه بالنسبة إلى الجميع وقيل للتخصيص أي نفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه والأول أولى ثم خاطب جميع النوع فقال (وجعل لكم) وفيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب ولم يخاطبهم قبل ذلك لأن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه بعد ذلك وقال وجعل لكم (السمع) أي الأسماع (والأبصار والأفئدة) أي القلوب تكميلا لنعمته عليكم وتتميما لتسويته لخلقكم حتى يجتمع لكم بهذه النعم فتسمعون كل مسموع وتبصرون كل مبصر وتعقلون كل متعقل وتفهمون كل ما يفهم وأفرد السمع لكونه مصدرا يشمل القليل والكثير وخص السمع بذكر المصدر دون البصر والفؤاد فذكرهما بالاسم ولهذا جمعا لأن السمع قوة واحدة ولها محل واحد وهو الأذن ولا اختيار لها فيه فإن الصوت يصل إليها ولا تقدر على رده ولا على تخصيص السمع ببعض المسموعات دون بعض بخلاف الأبصار فمحلها العين وله فيه اختيار فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره وتطبق أجفانها إذا لم ترد الرؤية لشيء وكذلك الفؤاد له نوع اختيار في إدراكه فيتعقل هذا دون هذا ويفهم هذا دون هذا (قليلا ما) أي شكرا قليلا أو زمانا قليلا (تشكرون) وفي هذا بيان لكفرهم لنعم الله وتركهم لشكرها إلا فيما ندر من الأحوال (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان أباطيلهم بطريق الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة إيذانا بأن ما ذكر من عدم شكرهم لتلك النعم موجب للإعراض عنهم وتعديد جناياتهم (أئذا ضللنا في الأرض) الضلال الغيبوبة يقال ضل الميت في التراب إذا غاب وبطل والعرب تقول للشيء إذا غلب عليه غيره حتى خفي أثره قد ضل قال قطرب المعنى غبنا في الأرض وقرئ

(١) قوله أو لو شئت بعصاي كذا بالنسخ بأيدينا فحرر الرواية اهـ

بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يقول تعالى مخبرا عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله الى بين يدي الله عزوجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا فقال تعالى ويوم نحشر من كل أمة فوجا أي من كل قوم وقرن فوجا أي جماعة ممن يكذب بآياتنا كما قال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وقال تعالى واذا النفوس زوجت وقوله تعالى فهم يوزعون قال ابن عباس رضي الله عنهما يدفعون وقال قتادة وزعة يردّ أولهم على آخرهم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يساقون حتى اذا جاؤا ووقفوا بين يدي الله عزوجل في مقام المساءلة قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون أي فيسئلون عن اعتقادهم وأعمالهم فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون الآية وهكذا قال ههنا ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون أي بهتوا فلم يكن لهم جواب لانهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لانفسهم وقد ردوا الى عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه خافية ثم قال تعالى منبها على قدرته التامة وسلطانه العظيم وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لاوامره وتصديق أنبيائه فيما جاؤا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال تعالى ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب في نهارهم والنهار مبصرا أي منيرا مشرقا فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب والاسفار والتجارات وغير ذلك من شؤنهم التي يحتاجون اليها ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء انه خبير بما تفعلون من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون) يخبر تعالى عن هول يوم

ضللنا بفتح ضاد معجمة ولام مفتوحة بمعنى ذهبنا وضعنا وصرنا ترابا أو غبنا عن الاعين بالدفن فيها وقرئ ضللنا بكسر اللام وهي لغة العالية من نجد قال الجوهري وأهل العالية يقولون ضللت بالكسر قال وأضله أي أضاعه وأهلكه يقال ضل الميت اذا دفن وقرئ صللنا بصاد مهملة ولام مفتوحة أي أنتنا وبها قرأ علي والحسن والاعمش وأبان بن سعيد قال النحاس ولا يعرف في اللغة صللنا ولكن يقال صل اللحم اذا أنتن قال الجوهري صل اللحم يصل بالكسر صلولا اذا أنتن مطبوخا كان أو نيئا والعامل في اذا محذوف تقديره نبعث أو نخرج لدلالة قوله (أئنا لفي خلق جديد) عليه أي نبعث ونصير أحياء والهمزة للاستنكار وهذا قول منكري البعث من الكفار فاضرب الله سبحانه من بيان كفرهم بانكار البعث الى بيان ما هو أبلغ منه وهو كفرهم بلقاء الله فقال (بل هم بلقاء ربهم كافرون) أي جاحدون له مكابرة وعنادا فان اعترافهم بانه المبدئ للخلق يستلزم اعترافهم بانه قادر على الاعادة ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يبين لهم الحق ويرد عليهم ما زعموه من الباطل فقال (قل يتوفاكم ملك الموت) يقال توفاه الله واستوفى روحه اذا قبضه اليه وملك الموت هو عزرائيل وقال ذلك هنا وقال في الانعام توفته رسلنا وفي الزمر الله يتوفى الانفس حين موتها ولا منافاة لان الله تعالى هو المتوفي حقيقة بخلق الموت وأمر الوسائط بنزع الروح وهم غير ملك الموت أعوان له ينزعونها من الاظافر الى الحلقوم فصحت الاضافات كلها والتفعيل والاستفعال يلتقيان في مواضع مثل تقضيته واستقضيته وتعجلته واستعجلته (الذي وكل بكم) أي بقبض أرواحكم عند حضور آجالكم قيل ان ملك الموت يدعو الارواح فتجيبه ثم يأمر أعوانه بقبضها والله تعالى هو الآمر لذلك وهذا وجه الجمع بين الآيات كما تقدم (ثم الى ربكم ترجعون) أي تصيرون اليه تعالى أحياء بالبعث والنشور لا الى غيره فيجازيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر (ولو ترى) لو امتناعية وجوابه محذوف أي لرأيت أمرا فظيعا وهولا هائلا لا يقادر قدره والخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الزجاج والمخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم مخاطبة لامته فالمعنى ولو ترى يا محمد منكري البعث يوم القيامة لرأيت العجب أو الخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغها من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستعظامها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة

نفخة الفزع في الصور وهو كما في أسد الغابة قرن ينفخ فيه وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه بأمر الله تعالى فينفخ
فيه أولا نفخة الفزع ويطولها وهي في آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في
الأرض إلا من شاء الله وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري
حدثنا أبي حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي سمعت عبد الله بن عمرو رضي
الله عنه وجاءه رجل فقال ما هذا الحديث الذي تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا فقال سبحان

الأمور البديعة والدواهي الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها
وفظاعتها أو تحيران يكون للتمني والمضي فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع
(إذ المجرمون ناكسو رؤسهم) المراد بهم هم القائلون أئذا ضللنا في الأرض ويجوز أن
يراد بالمجرمين كل مجرم ويدخل فيه أولئك القائلون دخولا أوليا والمعنى مطأطئو
وخافضو رؤسهم حياء وندما على ما فرط منهم في الدنيا من الشرك بالله والعصيان له (عند
ربهم) أي عند محاسبته لهم (ربنا) أي يقولون ربنا (أبصرنا) الآن ما كنا نكذب به
(وسمعنا) ما كنا ننكره وقيل أبصرنا صدق وعيدك وسمعنا تصديق رسلك فهؤلاء
أبصروا حين لم ينفعهم البصر وسمعوا حين لم ينفعهم السمع (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل)
عملا (صالحا) كما أمرتنا وحسبما تقتضيه تلك الآيات (إنا موقنون) أي مصدقون وقيل
مصدقون بالذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفوا أنفسهم بالإيقان الآن طمعا
فيما طلبوه من إرجاعهم إلى الدنيا وأنى لهم ذلك فقد حقت عليهم كلمة الله إنهم لو ردوا
لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقيل هذا ادعاء منهم لصحة الأفئدة والاقتدار على فهم
معاني الآيات والعمل بموجبها كما أن ما قبله ادعاء لصحة مشعري البصر والسمع كأنهم قالوا
أيقنا وكنا من قبل لا نعقل شيئا أصلا وإنما عدلوا إلى الجملة الاسمية المؤكدة إظهارا لثباتهم
على الإيمان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد في الاستدعاء طمعا في الإجابة إلى ما سألوه من
الرجعة وقيل معنى إنا موقنون أنها قد زالت عنهم الشكوك التي كانت تخالطهم في الدنيا
لما رأوا ما رأوا وسمعوا ما سمعوا فيكون والمعنى صرنا نسمع ونبصر فلا يحتاج إلى تقدير
مفعول ثم رد الله عليهم لما طلبوا الرجعة بقوله (ولو شئنا لآتينا) أعطينا (كل نفس
هداها) أي رشدها وتوفيقها إلى الإيمان بمعنى ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم
اختيار ذلك لاهتدوا جميعا ولم يكفر منهم أحد ولكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم
اختيار الكفر وإيثاره وهو حجة على المعتزلة فإنهم قالوا الآية مشيئة الجبر وهو تأويل
فاسد قال النحاس في معنى هذا قولان أحدهما أنه في الدنيا والآخر أنه في الآخرة أي
لو شئنا لرددنا إلى الدنيا (ولكن حق القول مني) أي نفذ قضائي ووجب قدري وسبق
كلمتي وثبت وعيدي (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) هذا هو القول الذي
وجب من الله وحق على عباده ونفذ فيه قضاؤه فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كل
نفس

الله أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما
لقد هممت أن لا أحدث أحدا شيئا
أبدا إنما قلت إنكم سترون بعد
قليل أمرا عظيما يحرق البيت
ويكون ويكون ثم قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم يخرج
الدجال في أمتي فيمكث أربعين
لا أدري أربعين يوما أو أربعين
شهرا أو أربعين عاما فيبعث الله
عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود
فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناس
سبع سنين ليس بين اثنين عداوة
ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل
الشام فلا يبقى على وجه الأرض
أحد في قلبه مثقال ذرة من خير
أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن
أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته
عليه حتى تقبضه قال سمعتها من
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
فيبقى شرار الناس في خفة الطير
وأحلام السباع لا يعرفون معروفا
ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم
الشيطان فيقول ألا تستجيبون
فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة
الأوثان وهم في ذلك دار رزقهم
حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا
يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس
ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو قال الظل نعمان الشاك فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام
ينظرون ثم يقال يا أيها الناس هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ثم يقال أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف
تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا وذلك يوم يكشف عن ساق وقوله ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد
إلا أصغى ليتا ورفع ليتا الليت هو صفحة العنق أي أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا فهذه نفخة الفزع ثم بعد ذلك نفخة الصعق

وهو الموت ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور بجميع الخلائق ولهذا قال تعالى وكل أتوه داخرين قرئ بالمد وبقصره على الفعل وكل بمعنى واحد وداخرين أى صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وقال تعالى ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفى حديث الصور انه فى النفخة الثالثة يأمر الله الارواح فتوضع فى ثقب فى الصور ثم ينفخ اسرافيل فيه بعد ما تنبت الاجساد فى قبورها وأماكنها فاذا نفخ فى الصور طارت الارواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا وأرواح الكافرين ظلمة فيقول الله عز وجل وعزتى وجلالى لترجعن كل روح الى جسدها فتجئ الارواح الى اجسادها فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم قال الله تعالى يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون وقوله تعالى وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه وهى تمر مر السحاب أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا وقال تعالى ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وقال تعالى ويوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وقوله تعالى صنع الله الذى اتقن كل شئ أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذى اتقن كل شئ أى اتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع انه خبير بما يفعلون أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر وسيجازيهم عليه أتم الجزاء ثم بين تعالى حال السعداء والاشقياء يومئذ فقال من جاء بالحسنة فله خير منها قال قتادة بالاخلاص وقال زين العابدين هى لا اله الا الله وقد بين تعالى فى الموضع الآخر ان له عشر امثالها وهم من فزع يومئذ آمنون كما قال فى الآية الاخرى لا يحزنهم الفزع الاكبر وقال تعالى أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة وقال تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقوله تعالى ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار أى من لقى الله مسيئا لا حسنة له أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ولهذا قال تعالى هل تجزون الا ما كنتم تعملون وقال ابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهم وأنس بن مالك وعطاء وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وابراهيم النخعى وأبو وائل وأبو صالح ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم والزهرى والسدى

نفس هداها وانما قضى عليهم بذا لانه سبحانه قد علم انهم من أهل الشقاوة وانهم ممن يختار الضلالة على الهدى وقدم الجن لان المقام مقام تحقير ولان الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ولا يلزم من قوله أجمعين دخول جميع الانس والجن فيها لانها تفيد عموم الانواع لا الافراد قاله بعض المحققين ورد بانه لو قصد ما ذكر كان المناسب التثنية دون الجمع بان يقول كليهما فالظاهر انه العموم الافرادى والتعريف فيهما للعهد والمراد عصاتهما ويؤيده قوله فى آية أخرى خطابا لابليس لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين قاله الشهاب وفى تخصيص الانس والجن اشارة الى انه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم (فذوقوا) أى العذاب والفاء لترتيب الامر بالذوق على ما قبله أى فاذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة ذوقوا قاله مقاتل واستعار الذوق للاحساس وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس وان لم يكن مطعوما لاحساسها به كاحساس الذائقة بذوق المطعوم (بما نسيتم لقاء يومكم) الباء للسببية وفيه اشعار بأن تعذيبهم ليس لمجرد سبق القول المتقدم بل بذاك واختلف فى النسيان المذكور ههنا فقيل هو النسيان الحقيقى وهو الذى يزول عنده الذكر وقيل هو الترك قاله الضحاك ويحيى بن سلام والمعنى على الاول انهم لم يعملوا لذلك اليوم فكانوا كالناسين له وعلى الثانى لا بد من تقدير مضاف قبل اللقاء أى فذوقوا بسبب ترككم لما أمرتكم به عذاب لقاء يومكم هذا ورجح الثانى المبرد قال الرازى فى تفسيره ان اسم الاشارة فى قوله (هذا) يحتمل ثلاثة أوجه ان يكون اشارة الى اللقاء وان يكون الى اليوم وان يكون الى العذاب (انا نسيناكم) أى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعل الناسى قطعا لرجائكم قال يحيى المعنى نسيناكم بما تركتم الايمان بالبعث فى هذا اليوم تركناكم من الخير وكذا قال السدى وقال مجاهد تركناكم فى العذاب (وذوقوا) تكرير هذا للتأكيد والتشديد ولتبيين المفعول المطوى للذوق وللاشعار بأن سببه ليس مجرد النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا (عذاب الخلد) أى الدائم الذى لا انقطاع له (بما كنتم تعملون) فى الدنيا من الكفر والمعاصى والتكذيب (انما يؤمن بآياتنا) مستأنفة لبيان من يستحق الهداية الى الايمان ومن لا يستحقها والمعنى انما يصدق بآياتنا وينتفع بها (الذين اذا ذكروا بها) لا غيرهم ممن يذكر بها أى يوعظ بها ولا يتذكر ولا يؤمن بها (خروا

والضحاك والحسن وقتادة وابن زيد في قوله ومن جاء بالسيئة يعني بالشرك (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ وأمرت ان أكون من المسلمين وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) يقول تعالى مخبرا رسوله وآمرا له ان يقول انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شئ كما قال تعالى قل يا أيها الناس ان كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم واضافة الربوبية الى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها كما قال تعالى فليعبدوا

رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف وقوله تعالى الذي حرمها اي الذي انما صارت حراما شرعا وقدرا بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته الا من عرفها ولا يختلى خلاها الحديث بتمامه وقد ثبت في الصحاح والحسان والمسانيد من طرق جماعة تفيد القطع كما هو مبين في موضعه من كتاب الاحكام ولله الحمد والمنة وقوله تعالى وله كل شئ من باب عطف العام على الخاص أي هو رب هذه البلدة ورب كل شئ ومليكه لا اله الا هو وأمرت ان أكون من المسلمين اي الموحدين المخلصين المنقادين لامره المطيعين له وقوله وان أتلو القرآن أي على الناس أبلغهم اياه كقوله تعالى ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم وكقوله تعالى نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق الآية أي أنا مبلغ ومنذر فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين أي لي أسوة بالرسل الذين أنذروا قومهم وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة اليهم وخلصوا من عهدتهم وحساب أممهم على الله تعالى كقوله تعالى فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقال انما انت نذير والله على كل شئ وكيل وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها أي لله الحمد الذي لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه والانذار اليه ولهذا قال تعالى سيريكم آياته فتعرفونها كما قال تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وقوله تعالى وما ربك بغافل عما تعملون أي بل هو شهيد على كل

سجدا) أي سقطوا على وجوههم ساجدين تعظيما لآيات الله وخوفا من سطوته وعذابه وتواضعا وخشوعا وشكرا على ما رزقهم من الاسلام (وسبحوا بحمد ربهم) أي نزهوه عن كل ما لا يليق به متلبسين بحمده على نعمه التي أجلها وأكملها الهداية الى الايمان بالآيات قال ابن عباس نزلت هذه الآية في شأن الصلوات الخمس ومعنى الآية فالواقف سجودهم سبحان الله وبحمده وسبحان ربي الاعلى وبحمده وقال سفيان المعنى صلوا بحمد ربهم (وهم لا يستكبرون) عن الايمان به والسجود له كما استكبر أهل مكة عن السجود أي حال كونهم خاضعين لله متذللين له غير مستكبرين عليه وقال ابن عباس لا يستكبرون عن اتيان الصلاة في الجماعات قيل هذه من عزائم سجود القرآن للقارئ والمستمع قال سليمان الجمل والمراد بالآيات في هذه الآية ان كان مطلق القرآن وان لم تكن فيه آية سجدة أشكل قوله خروا سجدا فان السجود لا يشرع لتلاوة القرآن الا اذا كان فيه آية سجدة من آيات السجود المعروفة وان كان المراد بها خصوص آيات السجدات أشكل قوله اذا ذكروا بها مع تفسير التذكير بالوعظ كما ذكروه ووجه الاشكال ان أكثر آيات السجدات ليس كلها ليس فيها وعظ أي تخويف وتذكير بالعواقب اذ هذا حقيقة الوعظ بل غالبها المدح الساجدين تصريحا وذم غيرهم تلويحا كهذه الآية وقد يكون بعكس ذلك أي ذم غير الساجدين تصريحا ومدح الساجدين تلويحا كآية الانشقاق فليتأمل ولم ير من المفسرين من بين هذا ولا من تعرض له انتهى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) استئناف أو حال أي ترتفع وتنبو وتنحي يقال جفي الشئ عن الشئ وتجافى عنه اذا لم يلزمه ونبا عنه وتنحى قال الزجاج والرماني التجافي والتجفي الى جهة فوق وكذلك هو في الصفح عن المخطئ في سب ونحوه والجنوب جمع جنب أي متجافية جنوبهم عن مضاجعهم والمضاجع جمع مضجع وهو الموضع الذي يضطجع فيه وهم المتهجدون في الليل الذين يقومون للصلاة عن الفراش وبه قال الحسن ومجاهد وعطاء والجمهور والمراد بالصلاة صلاة التنفل بالليل من غير تقييد وقال قتادة وعكرمة هو التنفل ما بين المغرب والعشاء وبه قال أبو حازم ومحمد بن المنكدر وقيل هي صلاة الاوابين وقيل صلاة العشاء فقط وهو رواية عن الحسن وعطاء وقال الضحاك صلاة العشاء والصبح في جماعة وقيل هم الذين يقومون لذكر الله سواء كان في صلاة أو غيرها عن

ثني قال ابن أبي حاتم ذكر عن أبي عمر الحوضي حفص بن عمر حدثنا أبو امية بن ... سعيد بن أبي سعيد سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله فان الله لو كان غافلا شيأ لاغفل البعوضة والخردلة والذرة وقال أيضا حدثنا محمد بن يحيى حدثنا نصر بن علي قال أبي أخبرني عن خالد بن قيس عن مطر عن عمر بن عبد العزيز قال فلو كان الله مغفلا شيأ لاغفل ما تعفي الرياح من أثر قدمي ابن آدم وقد ذكر عن الامام أحمد رحمه الله تعالى انه كان ينشد هذين البيتين اما له واما لغيره

اذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل * خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة * ولا أن ما يخفى عليه يغيب

آخر تفسير سورة النمل ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة القصص وهي مكية)

قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا يحيى بن آدم حدثنا وكيع عن أبيه عن أبي اسحق عن معديكرب قال أتينا عبد الله فسألناه ان يقرأ علينا طسم المائتين فقال ماهي معي ولكن عليكم بمن أخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الارت قال فأتينا خباب بن الارت فقرأها علينا رضي الله عنه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة وقوله تلك أي هذه آيات الكتاب المبين أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الامور وعلم ما قد كان وما هو كائن وقوله نتلو عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق الآية كما قال تعالى نحن نقص عليك أحسن القصص أي نذكر لك الامر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى ان فرعون علا في الارض أي تكبر وتجبر وطغى وجعل أهلها شيعا أي أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى يستضعف طائفة منهم يعني بني اسرائيل وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الاعمال ويكدهم ليلا ونهارا في أشغاله وأشغال رعيته و يقتل مع هذا

أنس بن مالك ان هذه الآية نزلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة وعنه قال نزلت في صلاة العشاء وعنه قال كانوا لا ينامون حتى يصلوا العشاء وعنه قال كنا نجتنب الفراش قبل صلاة العشاء وعنه قال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم راقدا قط قبل صلاة العشاء ولا متحدثا بعدها فان هذه الآية نزلت في ذلك وعن ابن عباس في الآية ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال هم الذين لا ينامون قبل صلاة العشاء فاثنى عليهم فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة ان تغلبه عينه فوقتها قبل ان ينام الصغير ويكسل الكبير أخرجه ابن مردويه وعن بلال قال كنا نجلس في المسجد وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلون بعد المغرب العشاء تتجافى جنوبهم عن المضاجع وعن أنس نحوه وعنه قال كانوا ينتظرون ما بين المغرب والعشاء يصلون وعن معاذ بن جبل قال قيام العبد من الليل وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذكر حديثا وارشد فيه الى أنواع من الطاعات وقال فيه وصلاة الرجل في جوف الليل ثم قرأ هذه الآية أخرجه أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم وعن أبي هريرة مرفوعا في حديث قال فيه وصلاة المرء في جوف الليل ثم تلا هذه الآية أخرجه ابن مردويه وعن أنس في الآية قال كان لا تمر عليهم ليلة الا أخذوا منها وأشهر الاقاويل ان المراد منه صلاة الليل وبه قال جماعة من أهل العلم وقد ورد في فضل قيام الليل والحث عليه من الاحاديث الصحيحة ما هو مذكور في كتب السنة وعن كعب قال اذا حشر الناس نادى مناد هذا يوم الفصل أين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحديث رواه أحمد وعن ابن عباس يقول كلما استيقظوا ذكروا الله اما في الصلاة واما في القيام أو قعودا أو على جنوبهم لا يزالون يذكرون الله (يدعون) أي تتجافى جنوبهم حال كونهم داعين (ربهم خوفا) من عذابه (وطمعا) في رحمته قال ابن عباس خوفا من النار وطمعا في الجنة وفيه دليل على صحة العبادة والدعاء بالخوف والطمع وقد حققنا ذلك في هداية السائل فليرجع اليها (ومما رزقناهم) أي من الذي رزقناهم أو من رزقهم (ينفقون) وذلك الصدقة الواجبة وقيل صدقة النفل والاولى الحمل على العموم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) النكرة في سياق النفي تفيد العموم أي لا تعلم نفس من النفوس أي نفس كانت ما أخفاه الله سبحانه لاولئك الذين تقدم ذكرهم مما

أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل ولن ينفع حذر من قدر لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب ولهذا قال تعالى ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض إلى قوله يحذرون وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون إلى قوله يعرشون وقال تعالى كذلك وأورثناها بني إسرائيل أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة وقالوا لفرعون إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يتقاولون ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما فولد هارون عليه السلام في

قرة أعينهم قال أبو السعود أي لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلا عما عداهم وقيل المراد لا تعلم نفس ما أخفي لهم علما تفصيليا أو الأخص يعلم ما أعد للمؤمنين من النعم إجمالا من حيث إنه غرف في الجنة وقصور وأشجار وأنهار وملابس ومآكل وغير ذلك قرئ قرة بالإفراد وقرأت بالجمع وقرئ ما أخفي بسكون الياء على أنه فعل مضارع مسند إلى الله سبحانه وقرئ بفتحها فعلا ماضيا مبنيا للمفعول وما أخفى بالنون مضمومة ويخفى بالتحتية قال ابن عباس كان عرش الله على الماء فاتخذ جنة لنفسه ثم اتخذ دونها أخرى ثم أطبقهما لؤلؤة واحدة ثم قال ومن دونهما جنتان لم يعلم الخلق ما فيهما وهي التي قال الله فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين تأتيهم منها كل يوم تحفة وعنه قال هذا مما لا تفسير له وعن ابن مسعود قال إنه لمكتوب في التوراة لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلم ملك مقرب ولا نبي مرسل وإنه لفي القرآن فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وفي الباب أحاديث عن جماعة من الصحابة وهي معروفة فلا نطول بذكرها وقيل أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم وفيه دليل على أن المراد الصلاة في جوف الليل ليكون الجزاء وفاقا ثم بين سبحانه أن ذلك بسبب أعمالهم الصالحة فقال (جزاء بما كانوا يعملون) أي لأجل الجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الطاعات أو جوزوا جزاء بذلك (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) الاستفهام للإنكار أي ليس المؤمن كالفاسق فقد ظهر ما بينهما من التفاوت والتباين ولهذا قال (لا يستوون) وفيه زيادة تصريح لما أفاده الإنكار الذي أفاده الاستفهام على أبلغ وجه وآكده ليبني عليه التفصيل الآتي قال الزجاج جعل الاثنين جماعة حيث قال لا يستوون لأجل معنى من وقيل لكون الاثنين أقل الجمع وقيل أراد الجنس منهما ولم يرد مؤمنا واحدا ولا فاسقا واحدا وهذا أولى فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وفي السمين أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يتعمد الوقف على فاسقا ويبتدئ بقوله لا يستوون أي في المآل والمستقر أو في الشرف والمثوبة والضمير يحتمل

في السنة التي يتركون فيها الولدان وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم يفطن لها الدايات ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه فالسعيد

من أحبه طبعا وشرعا قال الله تعالى وألقيت عليك محبة مني فلما ضاقت به ذرعا ألهمت في سرها وألقي في خلدها ونفث في روعها كما قال تعالى وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل عليها من تخافه وذهبت فوضعته في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين ما فيها وخشين أن يفتتن عليها في فتحه دونها فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا الآية قال محمد بن إسحق وغيره اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله لهم عدوا وحزنا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ولهذا قال تعالى إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى ونرى

الواقعة على الفريقين وفيه مراعاة معناها بعد مراعاة لفظها والمراد بالفسق الكامل بقرينة المقابلة للمؤمنين وإلا فالمؤمن قد يكون فاسقا ونظيره أفنجعل المسلمين كالمجرمين وقوله أم حسب الذين اجترحوا السيئات الآية إذ ليس كل مجرم ومسيء كافرا وعن ابن عباس قال قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب أنا أحد منك سنانا وأشجع جنانا وأبسط منك لسانا وأملأ حشوا للكتيبة منك فقال له علي اسكت فإنما أنت فاسق فنزلت هذه الآية يعني بالمؤمن عليا وبالفاسق الوليد وروي نحو هذا عن عطاء بن يسار والسدي وعبد الرحمن بن أبي ليلى ثم بين سبحانه عاقبة حال الطائفتين وبدأ بالمؤمنين فقال (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) قرئ بالجمع وبالإفراد والمأوى هو الذي يأوون إليه وأضاف الجنات إليه لكونه المأوى الحقيقي وقيل المأوى جنة من الجنات تأوي إليها أرواح الشهداء وقيل هي عن يمين العرش وقد تقدم الكلام على هذا (نزلا) أي أنها معدة لهم عند نزولهم وهو في الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب إكراما له كما بيناه في آل عمران وقرئ نزلا بسكون الزاي (بما كانوا يعملون) أي بسبب ما كانوا يعملونه وليس المراد السبب الحقيقي حتى يخالف حديث لا يدخل أحدكم الجنة بعمله بل ما يفضي إلى الجنة بمقتضى وعد الله تعالى ثم ذكر الفريق الآخر فقال (وأما الذين فسقوا) أي خرجوا عن طاعة الله وتمردوا عليه وعلى رسله بالكفر والتكذيب واعلم أن العمل الصالح له مع الإيمان تأثير فلذلك قال آمنوا وعملوا الصالحات وأما الكفر فلا التفات إلى الأعمال معه فلهذا لم يقل وعملوا السيئات لأن المراد من قوله فسقوا كفروا ولو جعل العقاب في مقابلة الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه (فمأواهم النار) أي منزلهم الذي يصيرون إليه ويستقرون فيه هو النار (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها) أي إذا أرادوا الخروج منها أعيدوا إليها راغمين مكرهين وقيل إذا دفعهم اللهب إلى أعلاها ردوا إلى مواضعهم وكلمة في للدلالة على أنهم مستقرون فيها وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض (وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) والقائل لهم هذه المقالة هم خزنة جهنم من الملائكة أو القائل لهم هو الله عز وجل وفي هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا في النار من الإغاظة لهم ما لا يخفى وهذا دليل على أن المراد بالفاسق الكافر إذ التكذيب يقابل الإيمان (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) وهو عذاب الدنيا

عون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وقلتم ثم لو شاء فرعون ان يكون لموسى ولياً وناصراً والله تعالى يقول ليكون لهم عدواً وحزناً وقوله تعالى وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك الآية يعني ان فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من ان يكون من بني اسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه الى فرعون فقالت قرة عين لي ولك فقال فرعون اما لك فنعم واما لي فلا فكان كذلك وهداها الله بسببه واهلكه الله على يديه وقد تقدم في حديث الفتون في سورة طه هذه القصة بطولها من رواية ابن عباس مرفوعاً (٢٤٢) عند النسائي وغيره وقوله عسى ان ينفعنا وقد حصل لها ذلك وهداها الله به

واسكنها الجنة بسببه وقولها او نتخذه ولداً اي ارادت ان تتخذه ولداً وتتبناه وذلك انه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى وهم لا يشعرون اي لا يدرون ما اراد الله منه بالتقاطهم اياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة (واصبح فؤاد ام موسى فارغاً ان كادت لتبدي به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى امه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن اكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى مخبراً عن فؤاد ام موسى حين ذهب ولدها في البحر انه اصبح فارغاً اي من كل شيء من امور الدنيا الا من موسى قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وابو عبيدة والضحاك والحسن البصري وقتادة وغيرهم ان كادت لتبدي به اي ان كادت من شدة وجدها وحزنها واسفها لتظهر انه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه اي امرت ابنتها وكانت كبيرة تعي ما يقال لها فقالت لها قصيه اي اتبعي اثره وخذي خبره وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك فبصرت به عن جنب قال ابن عباس عن جانب وقال مجاهد بصرت به عن جنب عن بعيد وقال قتادة جعلت تنظر اليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون واحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم فلم يقبل منها ثدياً وابى ان يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به الى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما

قال الحسن وأبو العالية والضحاك والنخعي هو مصائب الدنيا وأسقامها وقيل الحدود وقيل القتل بالسيف يوم بدر وقيل سني الجوع بمكة سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب وقيل عذاب القبر ولا مانع من الحمل على الجميع والذوق حسي ومعنوي (دون العذاب الاكبر) وهو عذاب الآخرة (لعلهم يرجعون) مما هم فيه من الشرك والمعاصي بسبب ما ينزل بهم من العذاب الى الايمان والطاعة ويتوبون عما كانوا فيه وفي هذا التعليل دليل على ضعف قول من قال ان العذاب الادنى هو عذاب القبر قال ابن مسعود العذاب الادنى يوم بدر والعذاب الاكبر يوم القيامة لعل من بقي منهم ان يتوب فيرجع وعنه قال العذاب الأدنى سنون اصابتهم لعلهم يتوبون وقال أبي بن كعب العذاب الادنى مصائب الدنيا والروم والبطشة والدخان وعنه قال يوم بدر وقال ابن عباس الحدود قال الكرخي وفي هذا الترجي وجهان أحدهما معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله انا نسيناكم يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت اليه أصلاً وكذلك ههنا والثاني نذيقهم العذاب اذاقة يقول القائل اذا رآهم لعلهم يرجعون بسببه انتهى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) أي لا أحد أظلم منه لكونه سمع من آيات الله ما يوجب الاقبال على الايمان والطاعة فجعل الاعراض مكان ذلك والمجيء بثم للدلالة على استبعاد ذلك وانه مما لا ينبغي ان لا يكون والاستفهام انكاري (انا من المجرمين منتقمون) أي من أهل الاجرام على العموم فيدخل فيه من أعرض عن آيات الله دخولاً أولياً قال أبو السعود أي كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته فكيف بمن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرماً من كل مجرم أخرج ابن منيع وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وغيرهم قال السيوطي بسند ضعيف عن معاذ بن جبل سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ثلاث من فعلهن فقد أجرم من عقد لواء في غير حق أو عق والديه أو مشى مع ظالم لينصره فقد أجرم يقول الله انا من المجرمين منتقمون قال ابن كثير بعد اخراجه هذا حديث غريب (ولقد آتينا موسى الكتاب) أي التوراة وانما ذكر موسى اقربه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووجود من كان على دينه الزاماً لهم وانما لم يختر عيسى عليه السلام للذكر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه (فلا تكن) يا محمد (في مرية) أي شك

رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها قال الله تعالى وحرمنا عليه المراضع من قبل أي تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له ان يرتضع غير ثدي أمه ولان الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا الى رجوعه الى امه لترضعه وهي آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرون فيمن يرضعه قالت هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون قال ابن عباس فلما قالت ذلك اخذوها وشكوا في امرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه فقالت لهم نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من اذاهم ذهبوا معها الى منزلهم فدخلوا به على امه فاعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير الى امرأة الملك فاستدعت ام موسى واحسنت اليها واعطتها اعطاء جزيلا وهي لا تعرف انها امه في الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ثم سألتها آسية ان تقيم عندها فترضعه فابت عليها وقالت ان لي بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ولكن ان أحببت ان أرضعه في بيتي فعلت فاجابتها امرأة فرعون الى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوي والاحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق دار ولهذا جاء في الحديث مثل الذي يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها ولم يكن بين الشدة والفرج الا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الامر ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن الذي يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا ولهذا قال تعالى فرددناه الى أمه كي تقر عينها أي به ولا تحزن أي عليه ولتعلم أن وعد الله حق أي فيما وعدها من رده اليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده اليها انه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعا وشرعا وقوله تعالى ولكن أكثرهم لا يعلمون أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة فربما يقع الامر كريها الى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الامر كما قال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم وقال تعالى وعسى ان تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين

شك وريبة (من لقائه) قال الواحدي قال المفسرون وعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه سيلقى موسى قبل ان يموت ثم لقيه في السماء أو في بيت المقدس حين اسري به وهذا قول مجاهد والكلبي والسدي وقيل فلا تكن في شك من لقاء موسى في القيامة وستلقاه فيها وقيل فلا تكن في شك من لقاء موسى للكتاب قاله الزجاج وقال الحسن ان معناه ولقد آتينا موسى الكتاب فكذب وأوذي فلا تكن في شك من انه سيلقاك ما لقيه من التكذيب والأذى فيكون الضمير في لقائه على هذا الى محذوف والمعنى من لقائه ما لاقى موسى قال النحاس وهذا قول غريب وقيل في الكلام تقديم وتأخير والمعنى قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم فلا تكن في مرية من لقائه فجاء معترضا بين ولقد آتينا موسى الكتاب وبين قوله الآتي وجعلناه هدى لبني اسرائيل وقيل الضمير راجع الى الكتاب الذي هو الفرقان كقوله وانك لتلقى القرآن والمعنى انا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه مثل ما لقيناك من الوحي فلا تكن في شك من انك لقيت مثله ونظيره وما أبعد هذا ولعل الحامل لقائله عليه قوله وجعلناه هدى لبني اسرائيل فان الضمير راجع الى الكتاب وقيل ان الضمير في لقائه عائد الى الرجوع المفهوم من قوله ثم الى ربكم ترجعون أي لا تكن في مرية من لقاء الرجوع وهذا بعيد جدا قال السمين وهذه أقوال بعيدة ذكرت للتنبيه على ضعفها وأظهرها ان الضمير اما لموسى واما للكتاب أي لا ترتب في ان موسى لقي الكتاب وأنزل عليه وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما من حديث ابن عباس قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيت ليلة اسري بي موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة ورأيت عيسى بن مريم مربوع الخلق الى الحمرة والبياض سبط الرأس ورأيت مالكا خازن جهنم والدجال في آيات أراهن الله اياه قال فلا تكن في مرية من لقائه فكان قتادة يفسرها ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد لقي موسى وأخرج الطبراني وابن مردويه والضياء في المختارة بسند قال السيوطي صحيح عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا تكن في مرية من لقائه قال من لقاء موسى قيل أولقي موسى قال نعم الا ترى الى قوله واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا وروى البخاري عن أنس ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال أتيت على موسى ليلة المعراج عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره وصح في حديث المعراج أيضا انه رآه

في السماء السادسة فلعل رؤيته كانت في قبره قبل صعوده الى السماء ثم صعد اليها فوجده هنالك قد سبقه لما يريد الله وهذا وجه الجمع بين هذين الحديثين على ما ذكره الخازن واختلف في الضمير في قوله (وجعلناه) فقيل راجع الى الكتاب أي جعلنا التوراة (هدى لبني اسرائيل) قاله الحسن وغيره وقال قتادة انه راجع الى موسى أي وجعلنا موسى هدى لبني اسرائيل (وجعلنا منهم أئمة) أي قادة يقتدون بهم في دينهم وهم الانبياء الذين كانوا في بني اسرائيل وقيل هم اتباع الانبياء وقيل العلماء قاله قتادة وقرئ أئمة قال النحاس وهو لحن عند جميع النحويين لا يجمع بين همزتين في كلمة واحدة (يهدون) أي يدعونهم الى الهداية بما يلقونه اليهم من احكام التوراة ومواعظها (بأمرنا) لهم بذلك أو لاجل أمرنا (لما صبروا) أي حين صبروا والضمير للأئمة وفي لما معنى الجزاء والتقدير لما صبروا جعلناهم أئمة أي لصبرهم وهذا الصبر هو صبرهم على مشاق التكليف والهداية للناس وقيل صبروا عن الدنيا وفيه دليل على ان الصبر ثمرته امامة الناس (وكانوا بآياتنا) التنزيلية التي في تضاعيف الكتاب (يوقنون) أي يصدقون بها ويعلمون انها حق وانها من عند الله لمزيد تفكرهم وكثرة تدبرهم (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) أي يقضي بينهم ويحكم بين المؤمنين والكفار وقيل يقضي بين الانبياء وأممهم حكاه النقاش (فيما كانوا فيه يختلفون) فيظهر المحق من المبطل (أولم يهد لهم) أي أولم يتبين لاهل مكة والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا ولم يتبين لهم وقرئ نهد بالتحتية وبالنون وهي واضحة والفاعل ما دل عليه قوله (كم أهلكنا) أي كثرة اهلاكنا وقال المبرد ان الفاعل الهدى المدلول عليه بيهد أي أولم يهد لهم الهدى (من قبلهم) حال من قوله (من القرون) كعاد وثمود وقوم لوط ونحوهم (يمشون في مساكنهم) أي والحال انهم يمشون في مساكن المهلكين ويشاهدونها وينظرون ما فيها من العبر وآثار العذاب ولا يعتبرون بذلك وقيل الضمير يعود الى المهلكين والمعنى أهلكناهم حال كونهم ماشين في مساكنهم والاول أولى وقيل جملة مستأنفة بيان لوجه هدايتهم والمعنى يمرون في أسفارهم الى التجارة على ديارهم وبلادهم (ان في ذلك) المذكور من كثرة اهلاكنا الامم الخالية (لآيات) عظيمة (أفلا يسمعون) ويتعظون بها (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) أي أولم يعلموا انا نسوق الماء الى الارض التي لا تنبت الا بسوق الماء اليها وقيل هي

ية لان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر انه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكما وعلما قال مجاهد يعني النبوة وكذلك نجزي المحسنين ثم ذكر تعالى سبب وصوله الى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية الى بلاد مدين فقال تعالى ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها وقال ابن جريج عن عطاء الخراساني عن ابن عباس وذلك بين المغرب والعشاء وقال ابن جريج عن ابن المنكدر عن عطاء ابن يسار عن ابن عباس كان ذلك نصف النهار وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير والسدي وقتادة فوجد فيها رجلين يقتتلان أي يتضاربان ويتنازعان هذا من شيعته أي اسرائيلي وهذا من عدوه أي قبطي قاله ابن عباس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق فاستغاث الاسرائيلي بموسى عليه السلام ووجد موسى فرصة وهو غفلة الناس فعمد الى القبطي فوكزه موسى عليه السلام فقضى عليه قال مجاهد وكزه أي طعنه بجمع كفه وقال قتادة وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه أي كان فيها حتفه فمات قال موسى هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت علي أي بما جعلت لي من الجاه والعز والنعمة فلن أكون ظهيرا أي معينا للمجرمين أي للكافرين بك المخالفين لامرك (فأصبح في المدينة خائفا يترقب فاذا الذي استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوي مبين فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض وما تريد أن تكون من المصلحين) يقول تعالى مخبرا عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي انه أصبح في المدينة خائفا أي من معرة ما فعل يترقب أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الامر فمر في بعض الطرق فاذا ذلك الذي استنصره بالامس على ذلك القبطي يقاتل آخر فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له

موسى انك لغوي مبين أي ظاهر الغواية كثير الشر ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الاسرائيلي لخوره وضعفه
وذلته ان موسى انما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه ياموسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفسا بالامس وذلك لانه لم
يعلم به الا هو وموسى عليه السلام فلما سمعها ذلك القبطي لقفها من فمه ثم ذهب بها الى باب فرعون وألقاها عندهم فعلم فرعون بذلك
فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى ان الملأ
يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج اني لك من الناصحين) قال تعالى وجاء رجل

وصفه بالرجولية لانه خالف الطريق
فسلك طريقا أقرب من طريق
الذين بعثوا وراءه فسبق الى موسى
فقال له ياموسى ان الملأ يأتمرون
بك أي يتشاورون فيك ليقتلوك
فاخرج أي من البلد اني لك من
الناصحين (فخرج منها خائفا يترقب
قال رب نجني من القوم الظالمين
ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي
ان يهديني سواء السبيل ولما ورد ماء
مدين وجد عليه أمة من الناس
يسقون ووجد من دونهم امرأتين
تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقي
حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير
فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال
رب اني لما أنزلت الي من خير فقير)
لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه
فرعون ودولته في أمره خرج من
مصر وحده ولم يألف ذلك قبله بل
كان في رفاهية ونعمة ورياسة
فخرج منها خائفا يترقب أي يتلفت
قال رب نجني من القوم الظالمين
أي من فرعون وملئه فذكروا ان
الله سبحانه وتعالى بعث اليه ملكا
على فرس فارشده الى الطريق فالله
أعلم ولما توجه تلقاء مدين أي
أخذ طريقا سالكا مهيعا فرح
بذلك قال عسى ربي ان يهديني سواء السبيل أي الطريق الاقوم ففعل الله به ذلك وهداه الى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة
فجعله هاديا مهديا ولما ورد ماء مدين أي لما وصل الى مدين وورد ماءها وكان لها بئر ترده رعاء الشاء وجد عليه أمة من الناس
يسقون أي جماعة يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان أي تكفكفان غنمهما ان ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا فلما
رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما قال ما خطبكما أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء قالتا لانسقي حتى يصدر الرعاء أي
لا يحصل لنا سقي الا بعد فراغ هؤلاء وأبونا شيخ كبير أي فهذا الحال الملجئ لنا الى ماترى قال الله تعالى فسقى لهما قال أبو بكر بن

اليابسة وأصله من الجرز وهو القطع أي التي تقطع نباتها لعدم الماء وازيل بالمرة ولا يقال
للتي لاتنبت أصلا كالسباخ جرز لقوله الآتي نخرج به زرعا قال ابن عباس الجرز التي
لاتمطر الا مطرا لايغني عنها شيأ الاما يأتيها من السيول وعنه قال هي أرض باليمن وقيل
أبين قال القرطبي في تفسيره والاسناد عن ابن عباس صحيح لامطعن فيه وقيل أرض
عدن قال الضحاك هي الارض العطشى وقال الفراء هي الارض التي لانبات فيها وقال
الاصمعي هي الارض التي لاتنبت شيأ قال المبرد يبعد ان يكون لارض بعينها لدخول
الالف واللام وقيل هي مشتقة من قولهم رجل جرز اذا كان لايبقي شيأ الا أكله
وكذلك ناقة جرز اذا كانت تأكل كل شئ تجده وقال مجاهد انها أرض النيل لان الماء
انما يأتيها في كل عام (فنخرج به) أي بالماء (زرعا تأكل منه انعامهم) أي من الزرع كالتبن
والقصل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها ونحوها مما لا يأكله الناس (وأنفسهم)
أي يأكلون من الحبوب والثمار والاقوات الخارجة من الزرع مما يقتاتونه وقدم الانعام
لان انتفاعها مقصور على النبات ولان أكلها منه مقدم لانها تأكله قبل ان يثمر ويخرج
سنبله (أفلا يبصرون) هذه النعم ويشكرون المنعم ويوحدونه لكونه المتفرد بايجاد
ذلك وجعلت الفاصلة يبصرون لان الزرع مرئي وفيما قبلها يسمعون لان ماقبلها مسموع
أو ترقيا الى الاعلى في الاتعاظ مبالغة في التذكير ودفع العذر (ويقولون) بطريق الاستعجال
تكذيبا واستهزاء والقائلون هم الكفار على العموم أو كفار مكة على الخصوص (متى
هذا الفتح) الذي تعدنا به يعنون بالفتح القضاء والفصل بين العباد وهو يوم البعث الذي
يقضي الله فيه بين العباد قاله مجاهد وغيره قال الفراء والقتيبي هو فتح مكة قال قتادة
قال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للكفار ان لنا يوما ننتعم فيه ونستريح ويحكم
الله بيننا وبينكم يعنون يوم القيامة فقال الكفار متى هذا الفتح وقال السدي هو يوم
بدر لان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون للكفار ان الله ناصرنا
ومظهرنا عليكم وعن ابن عباس قال يوم بدر فتح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم ينفع
الذين كفروا ايمانهم بعد الموت (ان كنتم صادقين) فيما تدعونه من نصر المؤمنين
واظهارهم على الكفار ثم أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ان يجيب عليهم
فقال (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم) وفي هذا دليل على ان يوم الفتح هو يوم

أبي شيبة حدثنا عبيد الله أنبأنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون الاودي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون قال فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها الا عشرة رجال فاذا هو بامرأتين تذودان قال ما خطبكما فحدثتاه فاتى الحجر فرفعه ثم لم يستق الا ذنوبا واحدا حتى رويت الغنم اسناد صحيح وقوله تعالى ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير قال ابن عباس سار موسى من مصر الى مدين ليس له طعام الا البقل وورق الشجر وكان حافيا فما وصل الى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس في الظل وهو صفوة

القيامة الذي هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم لان يوم فتح مكة ويوم بدر كان مما ينفع فيه الايمان وقد أسلم أهل مكة يوم الفتح وقبل منهم ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا معنى ولا يقبل منهم الايمان والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على انه ليس مما ينبغي ان يسئل عنه لكونه أمرا بينا وانما المحتاج الى البيان عدم نفع ايمانهم في ذلك اليوم كانه قيل لا تستعجلوا وكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا والآية ان عمت غير المستهزئين فهي تعميم بعد تخصيص وان خصت بهم فهو اظهار في مقام الاضمار تسجيلا عليهم بالكفر وبيانا للعلة عدم النفع وعدم امهالهم (ولا هم ينظرون) أي لا يمهلون ولا يؤخرون بتأخير العذاب عنهم ليتوبوا أو يعتذروا ولما فتحت مكة هربت قوم من بني كنانة فلحقهم خالد بن الوليد فاظهروا الاسلام فلم يقبله منهم خالد وقتلهم (فاعرض عنهم) أي عن سفههم وتكذيبهم ولا تجبهم الا بما أمرت به (وانتظر) يوم الفتح وهو يوم القيامة أو يوم اهلاكهم بالقتل وموعدي لك بالنصر عليهم (انهم منتظرون) لاهلاككم أو انتظر عذابنا اياهم فهم منتظرون ذلك والآية منسوخة بآية السيف وذلك قوله لا ينفع الخ قاله ابن عباس وقيل غير منسوخة اذ يقع الاعراض مع الامر بالقتال وقرئ منتظرون بفتح الظاء مبنيا للمفعول قال الفراء لا يصح هذا الا باضمار أي انهم منتظر بهم قال أبو حاتم الصحيح الكسر أي انتظر عذابهم انهم منتظرون هلاكك

(سورة الاحزاب هي ثلاث وسبعون آية)

قال ابن عباس نزلت بالمدينة وعن ابن الزبير مثله وعن زر قال قال لي أبي بن كعب كأي تقرأ سورة الاحزاب أو كأي تعدها قلت ثلاثا وسبعين آية فقال أقط لقد رأيتها وانها لتعادل سورة البقرة أو أكثر من سورة البقرة ولقد قرأنا فيها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم فرفع فيما رفع قال ابن كثير واسناده حسن وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس ان عمر بن الخطاب قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس ان الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة

الله من خلقه وان بطنه للاصق بظهره من الجوع وان خضرة البقل لترى من داخل جوفه وانه لمحتاج الى شق تمرة وقوله الى الظل قال ابن عباس وابن مسعود والسدي جلس تحت شجرة وقال ابن جرير حدثني الحسين بن عمرو العنقزي حدثنا أبي حدثنا اسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو ابن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود قال أحثثت على جمل ليلتين حتى صبحت مدين فسألت عن الشجرة التي أوى اليها موسى فاذا هي شجرة خضراء ترف فاهوى اليها جملي وكان جائعا فاخذها فعالجها ساعة ثم لفظها فدعوت الله لموسى عليه السلام ثم انصرفت وفي رواية عن ابن مسعود انه ذهب الى الشجرة التي كلم الله منها موسى كما سيأتي ان شاء الله فالله أعلم وقال السدي كانت الشجرة من شجر السمر وقال عطاء بن السائب لما قال موسى رب اني لما أنزلت الى من خير فقير أسمع المرأة (فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال انى أريد ان أنكحك احدى ابنتي هاتين على ان تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد ان أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) لما رجعت المرأتان سريعا بالغنم الى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعا فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام فبعث احداهما اليه لتدعوه الى أبيها قال الله تعالى فجاءته احداهما تمشي على استحياء أي

ورجم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورجمنا بعده فاخشى ان يطول بالناس زمان ان يقول قائل لانجد آية فى كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله وقد روى عنه نحو هذا من طرق وعن عائشة قالت كانت سورة الاحزاب تقرأ فى زمان النبى صلى الله عليه وآله وسلم مائتى آية فلما كتب عثمان المصاحف لم يقدر منها الا على ما هو الآن قال النسفى واما ما يحكى ان تلك الزيادة كانت فى صحيفة فى بيت عائشة فاكلتها الداجن فمن تأليفات الملاحدة والروافض

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبى) أى يا أيها المخبر عنا المؤمن على أسرارنا المبلغ خطابنا وانما لم يقل يا محمد كما قال يا آدم يا موسى تشريفا له وتنويها بفضله وتصريحه باسمه فى قوله محمد رسول الله ونحوه لتعليم الناس بانه رسول الله ليلقبوه بذلك ويدعوه به (اتق الله) أى دم على ذلك وازدد منه فهو باب واسع وعرض عريض لا يدرك مداه ولا ينال منتهاه (ولا تطع الكافرين) من أهل مكة ومن هو على مثل كفرهم (والمنافقين) الذين يظهرون الاسلام ويبطنون الكفر قال الواحدى انه أراد سبحانه بالكافرين أبا سفيان وعكرمة وأبا الاعور السلمى وذلك انهم قالوا للنبى صلى الله عليه وآله وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل ان لها شفاعة لمن عبدها قال والمنافقين عبد الله بن أبى وعبد الله بن سعد بن أبى سرح (ان الله كان عليما حكيما) أى كثير العلم والحكمة بليغهما قال النحاس ودل بقوله هذا على انه كان يميل اليهم يعنى النبى صلى الله عليه وآله وسلم استدعاء لهم الى الاسلام والمعنى ان الله عز وجل لو علم ان ميلك اليهم فيه منفعة لما نهاك عنهم لانه حكيم ولا يخفى بعد هذه الدلالة التى زعمها ولكن هذه الجملة تعليل لجملة الامر بالتقوى والنهى عن طاعة الكافرين والمنافقين والمعنى انه لا يأمرك أو ينهاك الا بما علم فيه صلاحا أو فسادا لكثرة علمه وسعة حكمته (واتبع) فى جميع أمورك (ما يوحى اليك من ربك) من القرآن ولا تتبع شيأ مما عداه من مشورات الكافرين والمنافقين ولا من الرأى البحت فان فيما أوحى اليك ما يغنيك عن ذلك (ان الله كان بما تعملون خبيرا) تعليل لامره باتباع ما أوحى اليه وتأكيد لوجبه والامر له صلى الله عليه وآله وسلم أمر لامته فهم مأمورون

مشى الحرائر كما روى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه انه قال جاءت مستترة بكم درعها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو نعيم حدثنا اسرائيل عن أبى اسحق عن عمرو بن ميمون قال قال عمر رضى الله عنه جاءت تمشى على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع ولاجة ولاجة خراجة هذا اسناد صحيح قال الجوهرى السلفع من الرجال الجسور ومن النساء الجريئة السليطة ومن النوق الشديدة قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا وهذا تأدب فى العبارة لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة بل قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا يعنى ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا فلما جاءه وقص عليه القصص أى ذكر له ما كان من أمره وما جرى له فى السبب الذى خرج من أجله من بلده قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين يقول طب نفسا وقر عينا فقد خرجت من مملكتهم فلا حكم لهم فى بلادنا ولهذا قال نجوت من القوم الظالمين وقد اختلف المفسرون فى هذا الرجل من هو على أقوال أحدها انه شعيب النبى عليه السلام الذى أرسل الى أهل مدين وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء وقد قاله الحسن البصرى وغير واحد ورواه ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن عبد العزيز الاودى حدثنا مالك بن أنس انه بلغه ان شعيبا هو الذى قص عليه موسى القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين وقد روى الطبرانى عن سلمة بن سعد العنزى انه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مرحبا بقوم شعيب واختان موسى هديت وقال آخرون بل كان ابن أخى شعيب وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب وقال آخرون كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة لانه قال لقومه وما قوم لوط منكم ببعيد وقد كان هلاك قوم لوط فى زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن وقد علم انه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد وما قيل ان شعيبا عاش مدة طويلة انما هو والله أعلم احتراز من هذا الاشكال ثم من المقوى لكونه ليس بشعيب أنه لو كان اياه لاوشك ان ينص على اسمه فى القرآن ههنا وما جاء فى بعض الاحاديث من التصريح بذكره فى قصة موسى لم يصح اسناده كما سنذكره قريبا ان شاء الله ثم من الموجود فى كتب بنى اسرائيل ان هذا الرجل اسمه ثيرون والله أعلم قال أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود وثيرون هو ابن أخى شعيب

عليه السلام وعن أبي حمزة عن ابن عباس الذي استأجر موسى يثرى رواه ابن جرير ثم قال الصواب ان هذا لا يدرك الا بخبر ولا خبر بذلك تجب به الحجة في ذلك وقوله تعالى قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين أي قالت احدى ابنتي هذا الرجل قيل هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لابيها يا أبت استأجره أي لرعية هذه الغنم قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن اسحق وغير واحد لما قالت ان خير من استأجرت القوي الامين قال لها أبوها وما علمك بذلك قالت له انه رفع الصخرة التي

لا يطيق حملها الا عشرة رجال واني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لي كوني من ورائي فاذا اختلف على الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي اليه وقال سفيان الثوري عن أبي اسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله هو ابن مسعود قال أفرس الناس ثلاثة أبو بكر حين تفرس في عمر وصاحب يوسف حين قال أكرمي مثواه وصاحبة موسى حين قالت يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين أي طلب اليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه احدى ابنتيه هاتين قال شعيب الجبائي وهما صفورا وليا وقال محمد بن اسحق صفورا وشرفا ويقال ليا وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما اذا قال بعتك أحد هذين العبدين بمائة فقال اشتريت انه يصح والله أعلم وقوله على ان تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك أي على ان ترعى غنمي ثماني سنين فان تبرعت بزيادة سنتين فهو اليك والا ففي الثمان كفاية ستجدني ان شاء الله من الصالحين أي لا أشاقك ولا أوذيك ولا أماريك وقد استدلوا بهذه الآية الكريمة لمذهب الاوزاعي فيما اذا قال بعتك هذا بعشرة نقدا أو بعشرين نسيئة انه يصح ويختار المشتري بأيهما أخذه صح وحمل الحديث المروي في سنن أبي داود من باع بيعتين في بيعة فله أوكسهما أو الربا على هذا المذهب وفي الاستدلال بهذه الآية وهذا الحديث على هذا المذهب نظر ليس هذا موضع بسطه لطوله والله أعلم ثم قد استدل أصحاب الامام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الاجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية واستأنسوا في ذلك بما رواه أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في كتابه السنن حيث قال باب استئجار الاجير على طعام بطنه

الكـذارة

باتباع القرآن كما هو مأمور باتباعه ولهذا أتى بخطابه وخطابهم في قوله بما تعملون على قراءة الجمهور بالفوقية على الخطاب وقرئ بالتحتية والواو ضمير الكفرة والمنافقين أي انه خبير بكيدهم فيدفعه عنك (وتوكل على الله) أي اعتمد عليه وفوض امورك اليه (وكفى بالله وكيلا) أي حافظا يحفظ من توكل عليه وقيل كفيلا برزقك وقال الزجاج لفظه وان كان لفظ الخبر فالمعنى اكتف بالله وكيلا ثم ذكر سبحانه مثلا توطئة وتمهيدا لما يتعقبه من الاحكام القرآنية التي هي من الوحي الذي أمره الله باتباعه فقال (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) وقيل هي مثل ضربه الله للمظاهر أي كما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر امه حتى تكون له أمان وكذلك لا يكون الدعي ابن الرجل وقيل كان الواحد من المنافقين يقول لي قلب يأمرني بكذا وقلب بكذا فنزلت الآية لرد النفاق وبيان انه لا يجتمع مع الاسلام كما لا يجتمع قلبان والقلب بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة خلقها الله وجعلها محلا للعلم ومن زائدة وقال في جوفه لانه معدن الروح الحيواني المتعلق للنفس الانساني ومنبع القوى بأسرها فيمتنع تعدده لانه يؤدي الى التناقض وهو ان يكون كل منهما أصلا لكل القوى وغير أصل لها عن ابن عباس قال قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوما يصلي فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه ألا ترى ان له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم فنزل ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وعنه لفظ صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلاة فسها فيها فخطرت منه كلمة فسمعها المنافقون فقالوا ان له قلبين عن الذي وعنه أيضا قال كان رجل من قريش يسمى من دهائه ذا القلبين فانزل الله هذا في شأنه (وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم) قرئ اللائي بياء ساكنة بعد همزة وبياء ساكنة بعد ألف محضة قال أبو عمرو بن العلاء انها لغة قريش التي أمر الناس ان يقرؤا بها وتظاهرون مضارع ظاهر وقرئ مضارع تظاهر والاصل تتظاهرون وقرئ تظهرون والاصل تتظهرون وأخذ ذلك من لفظ الظهر كالحذلي من التلبية واعاعدي بمن لانه ضمن معنى التباعد كانه قيل متباعدين من نسائكم بسبب الظهار كما تقدم في تعدية الايلاء بمن في البقرة والظهار أصله ان يقول الرجل لامرأته أنت علي كظهر امي والمعنى ما جعل الله نساءكم اللائي تقولون لهن هذا القول كامهاتكم في التحريم ولكنه منكر من القول وزور وانما تجب به

حدثنا محمد بن المصفى الحمصي حدثنا بقية بن الوليد عن مسلمة بن علي عن سعيد بن أبي أيوب عن الحرث بن يزيد عن علي بن رباح قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي يقول كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ طس حتى اذا بلغ قصة موسى قال ان موسى آجر نفسه ثماني سنين أو عشر سنين على عفة فرجه وطعام بطنه وهذا الحديث من هذا الوجه ضعيف لان مسلمة بن علي وهو الخشني الدمشقي البلاطي ضعيف الرواية عند الائمة ولكن قد روي من وجه آخر وفيه نظر أيضا وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن الحرث بن يزيد الحضرمي (٢٤٩) عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة ابن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه وقوله تعالى اخبارا عن موسى عليه السلام قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل يقول ان موسى قال لصهره الامر على ما قلت من انك استأجرتني على ثماني سنين فان أتممت عشرا فمن عندي فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي أي فلا حرج علي مع ان الكامل وان كان مباحا لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى فمن تعجل في يومين فلا اثم عليه ومن تأخر فلا اثم عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحمزة بن عمرو الاسلمي رضي الله عنه وكان كثير الصيام وسأله عن الصوم في السفر فقال ان شئت فصم وان شئت فافطر مع ان فعل الصيام راجح من دليل آخر هذا وقد دل الدليل على ان موسى عليه السلام

(٣٢ - فتح البيان سابع) انما فعل أكمل الاجلين وأتمهما وقال البخاري حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مروان بن شجاع عن سالم الافطس عن سعيد بن جبير قال قال سألني يهودي من أهل الحيرة أي الاجلين قضى موسى فقلت لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضي الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما ان رسول الله اذا قال فعل هكذا رواه البخاري وهكذا رواه حكيم بن جبير وغيره عن سعيد بن جبير ووقع في حديث الفتون من رواية القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير أن الذي سأله رجل من أهل النصرانية والاول أشبه والله أعلم وقد روي من حديثه

الكفارة بشرطه وهو العود كما ذكر في سورة المجادلة بقوله والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا أي فيه بان يخالفوه بامساك المظاهر منها زمنا يمكنه ان يفارقها فيه أولا يفارقها لان مقصود المظاهر وصف المرأة بالتحريم وامساكها يخالفه قاله الكرخي (وما جعل ادعياءكم) أي وكذلك ما جعل الادعياء الذين تدعون انهم أبناؤكم (أبناءكم) والادعياء جمع دعي وهو الذي يدعى ابنا لغير أبيه فهو فعيل بمعنى مفعول ولكن جمعه على أدعياء غير مقيس لان افعلاء انما يكون جمع الفعيل المعتل اللام اذا كان بمعنى فاعل نحو تقي وأتقياء وغني وأغنياء وهذا وان كان فعيلا معتل اللام لان أصله دعيو فأدغم الا انه بمعنى مفعول فكان القياس جمعه على فعلى كقتيل وقتلى وجريح وجرحى ومريض ومرضى ونظيره هذا في الشذوذ قولهم أسير وأسارى والقياس أسرى وقد سمع فيه الاصل قاله السمين (ذلكم) أي ما تقدم من ذكر الظهار والادعاء (قولكم بأفواهكم) أي ليس ذلك الا مجرد قول بالافواه ولا تأثير له في الخارج فلا تصير المرأة به أما ولا ابن الغير به ابنا ولا يترتب على ذلك شيء من احكام الأمومة والبنوة وقيل الاشارة راجعة الى الادعاء أي ادعاؤكم ان أبناء الغير ابناؤكم لا حقيقة له بل هو مجرد قول بالفم اذ الابن لا يكون الا بالولادة وفيه نسخ التبني وذلك ان الرجل كان في الجاهلية يتبنى الرجل فيجعله كالابن المولود يدعوه اليه الناس ويرث ميراثه وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعتق زيد بن حارثة الكلبي وتبناه قبل الوحي وآخى بينه وبين حمزة فلما تزوج زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى الناس عن ذلك فانزل الله هذه الآية ونسخ بها التبني قال النحاس وهذا من نسخ السنة بالقرآن قال القرطبي اجمع أهل التفسير على ان هذا القول انزل في زيد بن حارثة (والله يقول الحق) الذي يحق اتباعه لكونه حقا في نفسه لا باطلا فيدخل تحته دعاء الابناء لآبائهم (وهو يهدي السبيل) أي يدل على الطريق الموصلة الى الحق وفي هذا ارشاد للعباد الى قول الحق وترك قول الباطل والزور ثم صرح سبحانه بما يجب على العباد من دعاء الابناء للآباء فقال (ادعوهم لآبائهم) للصلب وانسبوهم اليهم ولا تدعوهم الى غيرهم أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر أن زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن ادعوهم لآبائهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنت زيد بن حارثة بن شراحيل (هو أقسط

ابن عباس مرفوعا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن محمد الطوسي حدثنا الحميدي حدثنا سفيان حدثني ابراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سألت جبريل أي الاجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الحميدي عن سفيان وهو ابن عيينة حدثني ابراهيم بن يحيى بن أبي يعقوب وكان من أسناني أو أصغر مني فذكره وفي اسناده قلب وابراهيم هذا ليس بمعروف ورواه البزار عن أحمد بن أبان القرشي عن سفيان بن عيينة عن ابراهيم بن أعين عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قال لانعرفه مرفوعا عن ابن عباس الا من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم قرئ على يونس ابن عبد الاعلى أنبأنا ابن وهب أنبأنا عمرو بن الحرث عن يحيى بن ميمون الحضرمي عن يوسف بن تيرح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الاجلين قضى موسى قال لاعلم لي فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل فقال جبريل لاعلم لي فسأل جبريل ملكا فوقه فقال لاعلم لي فسأل ذلك الملك ربه عز وجل عما سأله عنه جبريل عما سأله عنه محمد صلى الله عليه وسلم فقال الرب عز وجل قضى أبرهما وأبقاهما أو قال أزكاهما وهذا مرسل وقد جاء مرسلا من وجه آخر وقال سنيد حدثنا حجاج عن ابن جريج قال قال مجاهد ان النبي صلى الله عليه وسلم سأل جبريل أي الاجلين قضى موسى فقال سوف أسأل اسرافيل فسأله فقال سوف أسأل الرب عز وجل فسأله فقال أبرهما وأوفاهما طريق أخرى مرسلة أيضا قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبي حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الاجلين قضى موسى قال أوفاهما وأتمهما فهذه طرق متعاضدة ثم قد روي هذا من وجه آخر من رواية أبي ذر رضي الله عنه قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أبو عبيد الله يحيى بن محمد بن السكن حدثنا اسحق بن ادريس حدثنا عويذ بن أبي عمران الجوني عن أبيه عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل أي الاجلين قضى موسى قال أوفاهما وأبرهما قال وان سئلت أي المرأتين تزوج فقل الصغرى منهما قال البزار لانعلم يروى عن أبي ذر الا بهذا الاسناد وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث عويذ بن أبي عمران وهو

عند الله) تعليل للامر بدعائهم لآبائهم والضمير راجع الى مصدر ادعوهم ومعنى أقسط أعدل أي أعدل من كل كلام يتعلق بذلك فترك الاضافة للعموم كقوله الله أكبر وأعدل من قولكم هو ابن فلان ولم يكن ابنه لصلبه وأقسط افعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل وانظر الى فصاحة هذا الكلام حيث وصل الجمل الطلبية ثم فصل الخبرية عنها ووصل بينها ثم فصل الاسمية عنها ووصل بينها ثم فصل بالطلبية ثم تمم الارشاد للعباد فقال (فان لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم) أي فهم اخوانكم (في الدين ومواليكم) فقولوا أخي ومولاي ولا تقولوا ابن فلان حيث لم تعلموا آباءهم على الحقيقة قال الزجاج مواليكم أي أولياؤكم في الدين وقيل المعنى فان كانوا محررين ولم يكونوا أحرارا فقولوا موالي فلان (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) أي لا اثم عليكم فيما وقع منكم من ذلك خطأ من غير عمد قبل النهي فنسبتموه الى غير أبيه (ولكن) الاثم (ما تعمدت قلوبكم) وهو ما قلتموه على طريقة العمد من نسبة الابناء الى غير آبائهم مع علمكم بذلك قال قتادة لو دعوت رجلا لغير أبيه وأنت ترى أنه أبوه لم يكن عليك بأس بخلاف الحال في زيد فانه لا يجوز أن يقال فيه زيد بن محمد فان قاله أحد متعمدا عصى لقوله هذا عن سعد بن أبي وقاص وأبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من ادعى الى غير أبيه وهو يعلم انه غير أبيه فالجنة عليه حرام أخرجه البخاري ومسلم (وكان الله غفورا رحيما) يغفر للمخطئ ويرحمه ويتجاوز عنه أو غفورا للذنوب رحيما بالعباد ومن جملة من يغفر له ويرحمه من دعا رجلا لغير أبيه خطأ أو قبل النهي عن ذلك أو على سبق اللسان ثم ذكر سبحانه لرسوله مزية عظيمة وخصوصية جليلة لا يشاركه فيها أحد من العباد فقال (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) أي هو أحق بهم وأرأف وأشفق في كل ما دعاهم اليه من أمور الدين والدنيا فان أنفسهم تدعوهم الى ما فيه هلاكهم وهو يدعوهم الى ما فيه نجاتهم فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وان كانوا محتاجين اليها ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لانفسهم وبالجملة فاذا دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم لشيء ودعتهم أنفسهم الى غيره وجب عليهم ان يقدموا ما دعاهم اليه ويؤخروا ما دعتهم أنفسهم اليه ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لانفسهم ويقدموا طاعته على ما تميل اليه أنفسهم

وتطلبه

وتطلبه خواطرهم وقيل المراد بانفسهم في الآية بعضهم فيكون المعنى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أولى بالمؤمنين من بعضهم ببعض وقيل هي خاصة بالقضاء أي هو أولى بهم من أنفسهم فيما قضى بينهم وقيل أولى بهم في الجهاد بين يديه وبذل النفس دونه وقيل أولى بهم اي أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم كقوله بالمؤمنين رؤف رحيم وفي قراءة ابن مسعود النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم وقال مجاهد كل نبي أبو أمته ولذلك صار المؤمنون اخوة لان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبوهم في الدين والاول أولى وقد أخرج البخاري وغيره عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤا ان شئتم النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته من كانوا فان ترك دينا أو ضياعا فليأتني فانا مولاه وقد ثبت في الصحيح انه صلى الله عليه وآله وسلم قال والذي نفسي بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين واخرج ابن ابي شيبة وأحمد والنسائي عن بريدة قال غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عليا فتنقصته فرأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغير وقال يا بريدة ألست اولى بالمؤمنين من انفسهم قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من كنت مولاه فعلي مولاه (وازواجه) صلى الله عليه وآله وسلم سواء دخل بهن أولا وسواء متن عنه او طلقهن (امهاتهم) اى مثل امهاتهم في الحكم بالتحريم ومنزلات منزلتهن في استحقاق التعظيم فلا يحل لاحد أن يتزوج بواحدة منهن كما لا يحل له ان يتزوج بأمه فهذه الامومة مختصة بتحريم النكاح لهن تحريما مؤبدا وبالتعظيم لجنابهن لا في النظر اليهن والخلوة بهن فانه حرام في حقهن كما في حق سائر الاجانب وتخصيص المؤمنين يدل على انهن لسن امهات نساء المؤمنين ولا بناتهن اخوات المؤمنين ولا اخوتهن اخوال المؤمنين وقال القرطبي الذي يظهر لي انهن امهات الرجال والنساء تعظيما لحقهن على الرجال والنساء كما يدل عليه قوله النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة قال ثم ان في مصحف أبي بن كعب وازواجه امهاتهم وهو أب لهم وقرأ ابن عباس بعد لفظ انفسهم وهو أب وازواجه امهاتهم عن عائشة ان امرأة قالت لها يا أمه فقالت أنا أم رجالكم ولست أم نسائكم وعن ام سلمة قالت أنا أم الرجال

ضعيف ثم قد روى أيضا نحوه من حديث عتبة بن المنذر بزيادة غريبة جدا فقال أبو بكر البزار حدثنا عمر بن الخطاب السجستاني حدثنا يحيى بن بكير حدثنا ابن لهيعة حدثنا الحرث بن يزيد عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر يقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل اي الاجلين قضى موسى قال أبرهما وأوفاهما ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم ان موسى عليه السلام لما أراد فراق شعيب عليه السلام أمر امرأته ان تسأل أباها ان يعطيها من غنمه ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قالب لون قال فما مرت شاة الا ضرب موسى جنبها بعصاه فولدت قوالب ألوان كلها وولدت اثنين وثلاثا كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كمشة تفوت الكف ولا ثعول وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا افتتحتم الشام فانكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية هكذا أورده البزار وقد رواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا فقال حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة ح وحدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان أنبأنا الوليد أنبأنا عبد الله بن لهيعة عن الحرث بن يزيد الحضرمي عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه فلما وفى الاجل قيل يا رسول الله أي الاجلين قال أبرهما وأوفاهما فلما أراد فراق شعيب أمر امرأته ان تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به فاعطاها ما ولدت غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام وكانت غنمه سوداء حسناء فانطلق موسى عليه السلام الى عصا فسماها من طرفها ثم وضعها في أدنى الحوض ثم أوردها فسقاها ووقف موسى بازاء الحوض فلم يصدر منها شاة الا ضرب جنبها شاة شاة قال فأتأمت وألبنت ووضعت كلها قوالب ألوان الا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش قال يحيى ولا ضبوب وقال صفوان ولا صبوب قال أبو زرعة الصواب ضبوب ولا عزوز ولا ثعول ولا كمشة تفوت الكف قال النبي صلى الله عليه وسلم لو افتتحتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم وهي السامرية وحدثنا أبو زرعة أنبأنا صفوان قال سمعت الوليد قال سألت ابن لهيعة ما الفشوش قال التي تفش بلبنها واسعة الشخب قلت فما الضبوب قال الطويلة الضرع تجره قلت فما العزوز قال ضيقة الشخب قلت فما

المعول قال التي ليس لها ضرع الا كهيئة حلمتين قلت فالكمشة قال التي تفوت الكف كمشة الضرع صغير لا يدركه الكف مداره . الحديث على عبد الله بن لهيعة المصري وفي حفظه سوء وأخشى ان يكون رفعه خطأ والله أعلم وينبغي ان يروى ليس فيها فشوش ولا عزوز ولا ضبوب ولا ثعول ولا كمشة لتذكر كل صفة ناقصة مع ما يقابلها من الصفات الناقصة وقد روى ابن جرير من كلام أنس بن مالك موقوفا عليه ما يقارب بعضه باسناد جيد فقال حدثنا محمد بن المثنى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي حدثنا قتادة حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما دعا نبي الله موسى عليه السلام صاحبه الى الاجل الذي كان بينهما قال له صاحبه كل شاة ولدت على غير لونها فذلك ولدها فهي لك فعمد موسى فدفع خيالا على الماء فلما رأت الخيال فزعت فجالت جولة فولدن كلهن بلقا الا شاة واحدة فذهب بأولادهن كلهن ذلك العام (فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني أنا الله رب العالمين وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه انهم كانوا قوما فاسقين) قد تقدم في تفسير الآية قبلها ان موسى عليه السلام قضى أتم الاجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما وقد يستفاد هذا أيضا من الآية الكريمة حيث قال تعالى فلما قضى موسى الاجل أي الاكمل منهما والله أعلم قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قضى عشر سنين وبعدها عشرا أخر وهذا القول لم أره لغيره وقد حكاه عنه ابن جرير وابن أبي حاتم فالله أعلم وقوله تعالى وسار بأهله قالوا كان موسى عليه السلام قد اشتاق الى بلده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة فنزل منزلا فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئا فتعجب من ذلك فبينما هو كذلك اذ آنس من جانب الطور نارا أي رأى نارا تضيء له على بعد فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا أي حتى أذهب اليها لعلي آتيكم منها بخبر وذلك لانه كان قد أضل الطريق أو جذوة

منكم والنساء وعن بجالة قال مر عمر بن الخطاب بغلام وهو يقرأ في المصحف وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم فقال يا غلام حكها فقال هذا مصحف أبي فذهب اليه فسأله فقال انه كان يلهيني القرآن ويلهيك الصفق في الأسواق وهي فيما وراء ذلك كالارث ونحوه كالاجنبيات ولهذا لم يتعد التحريم الى بناتهن ثم بين سبحانه أن القرابة أولى ببعضهم البعض فقال (وأولوا الارحام) جمع رحم وهو القرابة (بعضهم أولى) أي أحق (ببعض) في الميراث وقد تقدم تفسير هذه الآية في آخر سورة الانفال وهي ناسخة لما كان في صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة قال قتادة لما نزل قوله سبحانه في سورة الانفال والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا فتوارث المسلمون بالهجرة ثم نسخ ذلك بهذه الآية وكذا قال غيره ويحتمل أن يكون النسخ بآية الانفال وهو قوله وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله قال الشهاب وهذا الاحتمال أولى لان سورة الانفال متقدمة نزولا على هذه السورة فنسبة النسخ اليها أولى وتكون هذه الآية مؤكدة لذلك وقيل ان هذه الآية ناسخة للتوارث بالحلف والمواخاة في الدين وقيل معنى الآية لا توارث بين المسلم والكافر ولا بين المهاجر وغير المهاجر (في كتاب الله) أي هذه الاولوية وهذا الاستحقاق كائن وثابت فيه والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ أو القرآن أو آية المواريث (من المؤمنين والمهاجرين) المعنى ان ذوي القرابات من المؤمنين والمهاجرين بعضهم أولى ببعض أو أولوا الارحام بعضهم أولى ببعض من المؤمنين والمهاجرين الذين هم أجانب وقيل ان معنى الآية وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض الا ما يجوز لازواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من كونهن كالامهات في تحريم النكاح وفي هذا من الضعف ما لا يخفى (الا) هذا الاستثناء اما متصل من أعم العام والتقدير أولى ببعض في كل شيء من الارث وغيره الا (ان تفعلوا الى أوليائكم معروفا) من صدقة أو وصية فان ذلك جائز قاله قتادة والحسن وعطاء ومحمد بن الحنفية قال ابن الحنفية نزلت في اجازة الوصية لليهودي والنصراني فالكافر ولي في النسب لا في الدين فتجوز الوصية له قال في الخازن ان الله لما نسخ التوارث بالحلف والاخاء والهجرة أباح أن يوصي الرجل لمن يتولاه بما أحب من ثلث ماله ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعا والمعنى لكن فعل المعروف للاولياء لا بأس به وضمن تفعلوا معنى توصلوا أو تسدوا فعدى بالى وقال مجاهد أراد بالمعروف

النصرة

ى قبا أى قطعة منها لعلكم تصطلون أى تتدفؤون بها من البرد قال الله تعالى فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن أى من جانب
الوادى مما يلى الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر فهذا مما يرشد
إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربى عن يمينه والنار وجدها تضطرم فى شجرة خضراء فى لحف الجبل مما يلى الوادى
فوقف باهتا فى أمرها فناداه ربه من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو
معاوية عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن عبد الله قال رأيت (٢٥٣) الشجرة التى نودى منها موسى عليه السلام
سمرة خضراء ترف إسناده مقارب
وقال محمد بن إسحق عن بعض من
لا يتهم عن وهب بن منبه قال شجرة
من العليق وبعض أهل الكتاب
يقول إنها من العوسج وعصاه من
العوسج وقوله تعالى أن ياموسى
إنى أنا الله رب العالمين أى الذى
يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين
الفعال لما يشاء لا إله غيره ولا رب
سواه تعالى وتقدس وتنزه عن
مماثلة المخلوقات فى ذاته وصفاته
وأقواله وأفعاله سبحانه وقوله
وأن ألق عصاك أى التى فى يدك
كما قرره على ذلك فى قوله تعالى
وما تلك بيمينك ياموسى قال هى
عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على
غنمى ولى فيها مآرب أخرى والمعنى
أما هذه عصاك التى تعرفها ألقها
فألقاها فإذا هى حية تسعى فعرف
وتحقق أن الذى يكلمه ويخاطبه
هو الذى يقول للشىء كن فيكون كما
تقدم بيان ذلك فى سورة طه وقال
ههنا فلما رآها تهتز أى تضطرب
كأنها جان ولى مدبرا أى فى حركتها
السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها
واتساع فمها واصطكاك أنيابها
وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا
ابتلعتها تنحدر فيها تتقعقع كأنها حادرة فى واد فعند ذلك ولى مدبرا ولم يعقب أى ولم يكن يلتفت لأن طبع البشرية ينفر من ذلك
فلما قال الله له أقبل ولا تخف إنك من الآمنين رجع فوقف فى مقامه الأول ثم قال الله تعالى اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء
أى إذا أدخلت يدك فى جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ولهذا قال من غير سوء أى من غير
برص وقوله تعالى واضمم إليك جناحك من الرهب قال مجاهد من الفزع وقال قتادة من الرعب وقال عبد الرحمن بن
زيد بن أسلم وابن جرير مما حصل لك من خوفك من الحية والظاهر أن المراد أعم من هذا وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من
شىء أن يضم إليه جناحه من الرهب وهو يده فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل

العمرة وحقيقة الحرمة بحق الايمان والهجرة (كان ذلك) أى نسخ الميراث بالهجرة
والمحالفة والمعاقدة ورده إلى ذوى الأرحام من القرابات (فى الكتاب) أى فى اللوح المحفوظ
أو فى التوراة أو فى القرآن (مسطورا) مكتوبا (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) كأنه
قال يا أيها النبى اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق الانبياء أو التقدير كان هذا الحكم
مكتوبا فى الكتاب ووقت أخذنا قاله السمين قال قتادة أخذ الله الميثاق على النبيين
خصوصا على أن يصدق بعضهم بعضا ويتبع بعضهم بعضا وأن ينصحوا لقومهم وأن
يعبدوا الله ويدعوا الناس إلى عبادته وإلى الدين القيم وأن يبلغوا رسالات ربهم وذلك
حين أخرجوا من صلب آدم كالذر وهو جمع ذرة وهى أصغر النمل وهى صغيرة جدا بحيث
إن نحو الاربعين منها أصغر من جناح بعوضة والميثاق هو اليمين وقيل هو الاقرار بالله
والوصية والامر والاول أولى وقد سبق تحقيقه ثم خص سبحانه بعض النبيين بالذكر
بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم فقال (ومنك) خصوصا (ومن نوح وإبراهيم وموسى
وعيسى بن مريم) ووجه تخصيصهم بالذكر الاعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم
أصحاب الشرائع المشهورة والكتب المذكورة ومن أولى العزم من الرسل وتقديم
ذكر نبينا صلى الله عليه وآله وسلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى
وتقديم نوح فى آية شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا لأنها سيقت لوصف ما بعث به نوح
من العهد القديم وما بعث به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم من العهد الحديث وما بعث به
من توسطهما من الانبياء المشاهير فكان تقديم نوح فيها أشد مناسبة للمقصود من بيان
أصالة الدين وقدمه قاله الكرخى ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره
ووصفه بالغلظ فقال (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) أى عهدا شديدا على الوفاء بما حملوا
وما أخذه الله عليهم من عبادته والدعاء إليها ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق
مرتين فأخذه عليهم فى المرة الاولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد ثم أخذه عليهم ثانية
مغلظا شديدا ومثل هذه الآية قوله وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب
وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه أخرج الطبرانى وابن
مردويه وأبو نعيم فى الدلائل عن أبى مريم الغسانى أن أعرابيا قال يارسول الله أى شىء
كان أول نبوتك قال أخذ الله منى الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم ثم تلا هذه الآية

الاقتداء فوضع يده على فؤاده فانه يزول عنه ما يجد أو يخف ان شاء الله تعالى وبه الثقة قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين
حدثنا الربيع بن ثعلب الشيخ صالح أخبرنا أبو اسمعيل المؤدب عن عبد الله بن مسلم عن مجاهد قال كان موسى عليه السلام يد على
قلبه رعبا من فرعون فكان اذا رآه قال اللهم اني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره ففرغ الله ما كان في قلب موسى عليه السلام
وجعله في قلب فرعون فكان اذا رآه بال كما يبول الحمار وقوله تعالى فذانك برهانان من ربك يعني القاء العصا وجعلها حية تسعى
وادخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوة
من جرى هذا الخارق على يديه
ولهذا قال تعالى الى فرعون وملئه
أي وقومه من الرؤساء والكبراء
والاتباع انهم كانوا قوما فاسقين
أي خارجين عن طاعة الله مخالفين
لأمره ودينه (قال رب اني قتلت
منهم نفسا فأخاف ان يقتلون وأخي
هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله
معي ردأ يصدقني اني أخاف ان
يكذبون قال سنشد عضدك بأخيك
ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما
بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون)
لما أمره الله تعالى بالذهاب الى
فرعون الذي انما خرج من ديار مصر
فرارا منه وخوفا من سطوته قال
رب اني قتلت منهم نفسا يعني ذلك
القبطي فأخاف ان يقتلون اي اذا
رأوني وأخي هرون هو أفصح مني
لسانا وذلك ان موسى عليه السلام
كان في لسانه لثغة بسبب ما كان
تناول تلك الجمرة حين خير بينها
وبين التمرة أو الدرة فأخذ الجمرة
فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة
في التعبير ولهذا قال واحلل عقدة
من لساني يفقهوا قولي واجعل لي
وزيرا من أهلي هرون أخي اشدد به
ازري وأشركه في أمري أي يؤنسني فيما أمرتني به من هذا المقام العظيم وهو القيام بأعباء النبوة والرسالة نعم
الى هذا الملك المتكبر الجبار العنيد ولهذا قال وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردأ أي وزيرا ومعينا ومقويا لأمري
يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لان خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ولهذا قال اني أخاف ان يكذبون
وقال محمد بن اسحق ردا يصدقني أي يبين لهم عني ما أكلمهم به فانه يفهم عني ما لا يفهمون فلما سأل ذلك موسى قال الله تعالى
سنشد عضدك بأخيك أي سنقوي أمرك ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له ان يكون نبيا معك كما قال في الآية الاخرى قد

الى قوله سابقا فاعليظا ودعوة ابراهيم قال وابعث فيهم رسولا منهم وبشرى عيسى بن مريم
ورأت أم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منامها انه خرج من بين رجليها سراج
أضاءت له قصور الشام وعن ابن عباس قال قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك قال وآدم
بين الروح والجسد وعنه قال قيل يا رسول الله متى كنت نبيا قال وآدم بين الروح
والجسد أخرجه البزار والطبراني وفي الباب أحاديث قد صحح بعضها وعن أبي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال في الآية كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث
فبدأ بي قبلهم أخرجه ابن عساكر وابن مردويه وأبو نعيم وعن ابن عباس قال ميثاقهم
عهدهم وعنه قال انما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم (ليسأل) اي لكي يسأل
(الصادقين عن صدقهم) في تبليغ الرسالة الى قومهم تبكيتا للكافرين بهم وفي هذا وعيد
لغيرهم لانهم اذا كانوا يسألون عن ذلك فكيف غيرهم وقيل ليسأل الانبياء عما اجابهم به
قومهم كما في قوله فلنسألن الذين ارسل اليهم ولنسألن المرسلين وقوله يوم يجمع الله الرسل
فيقول ماذا اجبتم وقيل فعل ذلك ليسأل وقيل عن صدقهم عن عملهم لله عز وجل وقيل
ليسأل الصادقين بأفواههم عن صدقهم في قلوبهم والكافرين عن تكذيبهم فاستغني عن
الثاني بذكر مسببه وهو قوله (وأعد للكافرين) وقيل المعنى أثاب الصادقين وأعد
للكافرين وقيل المعنى اكد على الانبياء الدعوة الى دينه ليثيب المؤمنين وأعد للكافرين
(عذابا أليما) قاله السمين وقيل الكلام قد تم عند قوله عن صدقهم وجملة واعد مستأنفة
لبيان ما أعده للكفار (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله) الكائنة (عليكم) هذا
تحقيق لما سبق من الامر بالتقوى بحيث لا يبقى معه خوف من احد (اذ) اي حين
(جاءتكم جنود) والمراد بهم جنود الاحزاب الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه
وآله وسلم وغزوه الى المدينة وهي الغزوة المسماة غزوة الخندق وكانت بعد حرب أحد
بسنة وهم ابو سفيان بن حرب بقريش ومن معهم من الالفاف وعيينة بن حصن الفزاري
ومن معه من قومه غطفان وبنو قريظة والنضير فضايقوا المسلمين مضايقة شديدة كما
وصف الله سبحانه في هذه الآيات وكانت هذه الغزوة في شوال سنة خمس من الهجرة قاله
ابن اسحق وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك كانت في سنة اربع وقد بسط اهل السير
في هذه الوقعة ما هو معروف فلا نطيل بذكرها أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه وابن

أوتيت سؤلك ياموسى وقال تعالى ووهبنا له من ر[illegible] نبيا ولهذا قال بعض السلف ليس أحد أعظم منة على أخيه من موسى على هرون عليهما السلام فانه شفع فيه حتى جعله الله نبيا ورسولا معه الى فرعون وملئه ولهذا قال تعالى فى حق موسى وكان عند الله وجيها وقوله تعالى ونجعل لكما سلطانا أى حجة قاهرة فلا يصلون اليكما بآياتنا أى لاسبيل لهم الى الوصول الى أذاكم بسبب ابلاغكما آيات الله كما قال تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك الى قوله والله يعصمك من الناس وقال تعالى الذين يبلغون رسالات الله الى قوله وكفى بالله حسيبا أى وكفى بالله ناصرا ومعينا ومؤيدا ولهذا أخبرهما ان العاقبة لهما ولمن اتبعهما فى الدنيا والآخرة فقال تعالى أنتما ومن اتبعكما الغالبون كما قال تعالى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز وقال تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا الى آخر الآية ووجه ابن جرير على ان المعنى ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما ثم يبتدئ فيقول بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون تقديره انتما ومن اتبعكما الغالبون بآياتنا ولا شك ان هذا المعنى صحيح وهو حاصل من التوجيه الاول فلا حاجة الى هذا والله أعلم (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لايفلح الظالمون) يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هرون الى فرعون وملئه وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده واتباع أوامره فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه وأيقنوا انه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم الى العناد والمباهتة وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق فقالوا ما هذا الا سحر مفترى أى مفتعل مصنوع وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك وقوله وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين يعنون عبادة الله وحده لاشريك له يقولون ما رأينا أحدا من آبائنا على هذا الدين ولم نر الناس الا يشركون مع الله آلهة أخرى فقال موسى عليه السلام مجيبا لهم ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده يعنى منى ومنكم وسيفصل بينى وبينكم ولهذا قال ومن تكون له عاقبة الدار أى من النصرة والظفر والتأييد انه لايفلح الظالمون أى المشركون بالله عز وجل (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله

نعيم والبيهقى كلاهما فى الدلائل وابن عساكر من طرق عن حذيفة قال لقد رأيتنا ليلة الاحزاب ونحن صافون قعودا وأبو سفيان ومن معه من الاحزاب فوقنا وقريظة اليهود اسفل منا نخافهم على ذرارينا وما اتت علينا ليلة قط اشد ظلمة ولا اشد ريحا فى اصوات ريحها امثال الصواعق وهى ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه فجعل المنافقون يستأذنون رسول الله ويقولون ان بيوتنا عورة وما هى بعورة فما يستأذنه احد منهم الا اذن له فيتسللون ونحن ثلثمائة او نحو ذلك اذا استقبلنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلا رجلا حتى مر على وما على جنة من العدو ولا من البرد الا مرط لامرأتى ما يجاوز ركبتى فاتانى وانا جاث على ركبتى فقال من هذا فقلت حذيفة قال حذيفة فتقاصرت الى الارض فقلت بلى يارسول الله كراهية ان اقوم قال قم فقمت فقال انه كان فى القوم خبر فاتنى بخبر القوم قال وانا من اشد القوم فزعا واشدهم قرا فخرجت فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته قال فوالله ما خلق الله فزعا ولا قرا فى جوفى فما اجد منه شيأ فلما وليت قال يا حذيفة لاتحدثن فى القوم شيأ حتى تأتينى فخرجت حتى اذا دنوت من عسكر القوم نظرت فى ضوء نار لهم توقد واذا رجل ادهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ويقول الرحيل الرحيل ثم دخلت العسكر فاذا ادنى الناس منى بنو عامر يقولون يا آل عامر الرحيل الرحيل لامقام لكم واذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز شبرا فوالله انى لاسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم الريح تضربهم ثم خرجت نحو النبى صلى الله عليه وآله وسلم فلما انتصفت فى الطريق او نحو ذلك اذا انا بنحو من عشرين فارسا معتمين فقالوا اخبر صاحبك ان الله كفاه القوم فرجعت الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاخبرته وهو مشتمل فى شملة يصلى وكان اذا حزبه امر صلى فاخبرته خبر القوم انى تركتهم يترحلون وانزل الله يا ايها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود الآية وعن ابن عباس فى قوله اذ جاءتكم جنود قال كان يوم ابى سفيان يوم الاحزاب (فارسلنا عليهم ريحا) قال مجاهد هى ريح الصبا ارسلت على الاحزاب يوم الخندق حتى ألقت قدورهم ونزعت فساطيطهم وهى ريح تهب من الشرق وكانت باردة شديدة جدا ومع هذا لم تجاوزهم ويدل على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم من قوله نصرت بالصبا واهلكت عاد بالدبور اخرجه البخارى ومسلم

غيري فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا انهم الينا لا يرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين) يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الالهية لنفسه القبيحة لعنه الله كما قال الله تعالى فاستخف قومه فأطاعوه الآية وذلك لانه دعاهم الى الاعتراف له بالالهية فأجابوه الى ذلك بقلة عقولهم وسخافة أذهانهم ولهذا قال يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري وقال تعالى اخبارا عنه فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ان في ذلك لعبرة لمن يخشى يعني انه جمع قومه ونادى فيهم بصوته العالي مصرحا لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ولهذا انتقم الله تعالى منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة وحتى انه واجه موسى الكليم بذلك فقال لئن اتخذت الها غيري لأجعلنك من المسجونين وقوله فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع الى اله موسى يعني أمر وزيره هامان ومدبر رعيته ومشير دولته ان يوقد له على الطين يعني يتخذ له آجرا لبناء الصرح وهو القصر المنيف الرفيع العالي كما قال في الآية الاخرى وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السموات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب وذلك لان فرعون بنى هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه انما أراد بهذا ان يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه من دعوى اله غير فرعون ولهذا قال وانى لاظنه من الكاذبين أى في قوله ان ثم ربا غيري لا أنه كذبه في أن الله تعالى أرسله لانه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا فانه قال وما رب العالمين وقال لئن اتخذت الها غيري لاجعلنك من المسجونين وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيري وهذا قول ابن جرير وقوله تعالى واستكبر هو وجنوده في الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون أى طغوا وتجبروا وأكثروا في الارض الفساد واعتقدوا انه لا قيامة ولا معاد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد ولهذا قال تعالى ههنا فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم أى أغرقناهم

وغيرهما من حديث ابن عباس وعنه قال لما كان ليلة الاحزاب جاءت الشمال الى الجنوب فقالت انطلقي فانصري الله ورسوله فقالت الجنوب ان الحرة لا تسري بالليل فغضب الله عليها وجعلها عقيما فارسل الله عليهم الصبا فأطفأت نيرانهم وقطعت اطنابهم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور فذلك قوله فارسلنا عليهم ريحا الآية وقيل الصبا ريح فيها روح ما هبت على محزون الاذهب حزنه والشعراء تشبب بها كثيرا يعرفه كل من له المام بدواوينهم (وجنودا لم تروها) وهي الملائكة وكانوا ألفا ولم يقاتلوا وانما القوا الرعب في قلوب الاحزاب قال المفسرون بعث الله عليهم الملائكة تقلعت الاوتاد وقطعت أطناب الفساطيط واطفأت النيران واكفأت القدور وجالت الخيل بعضها في بعض وأرسل الله عليهم الرعب وكثر تكبيرهم في جوانب العسكر حتى كان سيد كل قوم يقول لقومه يابني فلان هلم الى فاذا اجتمعوا قال لهم النجاء النجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) أيها المسلمون من ترتيب الحرب وحفر الخندق واستنصاركم به وتوكلكم عليه (بصيرا) وقرئ يعملون بالتحتية أى بما يعمله الكفار من العناد لله ولرسوله والتحزب على المسلمين واجتماعهم عليهم من كل جهة (اذ جاؤكم من فوقكم) أى اذكر اذ جاؤكم من أعلى الوادي وهو من جهة المشرق والذين جاؤا من هذه الجهة هم غطفان وسيدهم عيينة بن حصن وهوازن وسيدهم عوف ابن مالك واهل نجد وسيدهم طليحة بن خويلد الاسدي وانضم اليهم عوف بن مالك وبنو النضير وعن عائشة في الآية قالت كان ذلك يوم الخندق (ومن أسفل منكم) أى من اسفل الوادي من جهة المغرب من ناحية مكة وهم قريش ومن معهم من الاحابيش وسيدهم أبو سفيان بن حرب وجاء أبو الاعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة من وجه الخندق ومعهم عامر بن الطفيل (واذ) معطوف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير (زاغت الابصار) أى مالت وعدلت عن كل شئ فلم تنظر الا الى عدوها مقبلا من كل جانب وقيل شخصت دهشا من فرط الهول والحيرة (وبلغت القلوب الحناجر) جمع حنجرة وهي جوف الحلقوم وقيل رأس الغلصمة والغلصمة رأس الحلقوم وقيل هي منتهى الحلقوم والحلقوم مجرى الطعام والشراب وقيل مجرى النفس والمرئ مجرى الطعام والشراب وهو تحت الحلقوم وقال الراغب رأس الغلصمة من

خارج

خارج والمعنى ارتفعت القلوب عن مكانها ووصلت من الفزع والخوف الى الحناجر فلولا انه ضاق الحلقوم عنها وهو الذي نهايته الحنجرة لخرجت كذا قال قتادة وقيل هو على طريق المبالغة المعهودة في كلام العرب وان لم ترتفع القلوب الى ذلك المكان ولا خرجت عن موضعها ولكنه مثل في اضطرابها وجبنها قال الفراء والمعنى انهم جبنوا وجزع أكثرهم وسبيل الجبان اذا اشتد الخوف ان تنتفخ رئته فاذا انتفخت الرئة ارتفع القلب الى الحنجرة ولهذا يقال للجبان انتفخ سحره (وتظنون بالله الظنونا) المختلفة فبعضهم ظن النصر ورجا الظفر وبعضهم ظن خلاف ذلك وقال الحسن ظن المنافقون انه يستأصل محمد وأصحابه وظن المؤمنون انه ينصر وقيل الآية خطاب للمنافقين والاولى ما قاله الحسن فيكون الخطاب لمن أظهر الاسلام على الاطلاق أعم من أن يكون مؤمنا في الواقع أو منافقا واختلف القراء في الالف في الظنونا فأثبتها وصلا ووقفا جماعة وتمسكوا بخط المصحف العثماني وجميع المصاحف في البلدان فان الالف فيها كلها ثابتة وتمسكوا أيضا بما في أشعار العرب من مثل هذا وأيضا ان هذه الالف تشبه هاء السكت لبيان الحركة وهاء السكت تثبت وقفا للحاجة اليها وقد تثبت وصلا اجراء للوصل مجرى الوقف وقرئ بحذفها في الوصل والوقف معا لانها لا أصل لها وقالوا هي من زيادات الخط فكتبت كذلك ولا ينبغي النطق بها وأما الشعر فهو يجوز فيه للضرورة ما لا يجوز في غيره وقولهم أجريت الفواصل مجرى القوافي غير معتد به لان القوافي يلزم الوقف عليها غالبا والفواصل لا يلزم ذلك فيها فلا تشبه بها وقرئ باثباتها وقفا وحذفها وصلا اجراء للفواصل مجرى القوافي في ثبوت ألف الاطلاق ولانها كهاء السكت وهي تثبت وقفا وتحذف وصلا قاله السمين وهذه القراءة راجحة باعتبار اللغة العربية وهذه الالف هي التي تسميها النحاة ألف الاطلاق والكلام فيها معروف في علم النحو وهكذا اختلف القراء في الالف التي في قوله الرسولا والسبيلا كما يأتي في آخر هذه السورة (هنالك ابتلي المؤمنون) ظرف مكان يقال للمكان البعيد هنالك كما يقال للقريب هنا وللمتوسط هناك أي في ذلك المكان الدحض وهو الخندق وقد يكون ظرف زمان أي عند ذلك الوقت ابتلوا وهو منصوب بابتلي وقيل بتظنون واستضعفه ابن عطية والمعنى ان في ذلك المكان أو الزمان اختبر المؤمنون بالخوف والقتال والجوع والحصر وغيرها ليتبين المؤمن من المنافق

في البحر في صبيحة واحدة فلم يبق منهم أحد فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع ويوم القيامة لا ينصرون أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة كما قال تعالى أهلكناهم فلا ناصر لهم وقوله تعالى وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله وكما انهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الانبياء وأتباعهم كذلك يوم القيامة هم من المقبوحين قال قتادة وهذه الآية كقوله تعالى وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم من انزال التوراة عليه بعد ما أهلك فرعون وملأه وقوله تعالى من بعد ما أهلكنا القرون الاولى يعني انه بعد انزال التوراة لم يعذب أمة بعامة بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين كما قال تعالى وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا محمد وعبد الوهاب قالا حدثنا عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الارض بعد ما أنزلت التوراة على وجه الارض غير القرية التي مسخوا قردة بعد موسى ثم قرأ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى الآية ورواه ابن أبي حاتم من حديث عوف بن أبي جميلة الاعرابي بنحوه وهكذا رواه

أبو بكر البزار في مسنده عن عمرو بن علي الفلاس عن يحيى القطان عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد موقوفا ثم رواه عن نصر بن علي عن عبد الاعلى عن عوف عن أبي نضرة عن أبي سعيد رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم قال (١) ما أهلك الله قوما من السماء والارض بعذاب بعد موسى ثم قرأ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى الآية وقوله بصائر للناس وهدى ورحمة أي من العمى والغي وهدى الى الحق ورحمة أي ارشادا الى العمل الصالح لعلهم يتذكرون أي لعل الناس يتذكرون به ويهتدون بسببه (وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا

(١) (قوله ما أهلك الله الخ) هكذا في نسخة وفي أخرى ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الارض الا قبل موسى الخ وحرراه

قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) يقول تعالى منبها على برهان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبر عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل

مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون الآية أي وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين الآية وقال في آخر السورة ذلك من أنباء القرى نقصه عليك وقال بعد ذكر قصة يوسف ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون الآية وقال في سورة طه كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق الآية وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطئ الوادي وما كنت من الشاهدين لذلك ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين وقوله تعالى وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا أي وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه ولكنا كنا مرسلين أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك وأرسلناك إلى الناس رسولا وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا علي بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه وما كنت بجانب الطور إذ نادينا قال نودوا يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني

وامتحنوا بالصبر على الإيمان (وزلزلوا زلزالا شديدا) قرأ الجمهور زلزالا بكسر الزاي الأولى وكسر الثانية على مثل الأصل في المبني للمفعول وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بكسر الأولى وروى الزمخشري عنه أنه قرأ بإشمامها كسرا وقرأ الجمهور زلزالا بكسر الزاي الأولى وقرأ عاصم والجحدري وعيسى بن عمر بفتحها وهما لغتان قال الزجاج كل مصدر من المضاعف على فعلال يجوز فيه الكسر والفتح نحو قلقلته قلقالا وزلزلته زلزالا والكسر أجود وقد يراد بالمفتوح اسم الفاعل نحو صلصال بمعنى مصلصل وزلزال بمعنى مزلزل قال ابن سلام معنى زلزلوا حركوا بالخوف تحريكا شديدا بليغا وقال الضحاك هو إزاحتهم عن أماكنهم حتى لم يكن لهم إلا موضع الخندق وقيل المعنى أنهم اضطربوا اضطرابا مختلفا فمنهم من اضطرب في نفسه ومنهم من اضطرب في دينه (وإذ يقول المنافقون) يعني معتب بن قشير وقيل عبد الله بن أبي وأصحابه (والذين في قلوبهم مرض) هو الشك والريبة أي أهل الشك والاضطراب قيل هم قوم لا بصيرة لهم في الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله) من النصر وظهور فتح فارس والروم (إلا غرورا) أي باطلا من القول وكان القائلون بهذه المقالة نحو سبعين رجلا من أهل النفاق والشك وهذا القول المحكي عن هؤلاء يفسر الظنون المذكورة أي كان ظن هؤلاء هذا الظن كما كان ظن المؤمنين النصر وإعلاء كلمة الله (وإذ قالت طائفة منهم) قال مقاتل هم بنو سالم من المنافقين وقال السدي هم عبد الله بن أبي وأصحابه وقيل هم أوس بن قيظي وأصحابه والطائفة تقع على الواحد فما فوقه والقول الذي قالته هذه الطائفة هو قوله (يا أهل يثرب لا مقام لكم) أي لا موضع ولا مكان إقامة لكم أو لا إقامة لكم ههنا في العسكر قرئ مقام بفتح الميم وبضمها على أنه مصدر من أقام يقيم وعلى الأول هو اسم مكان وهما سبعيتان قال أبو عبيدة يثرب اسم الأرض ومدينة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ناحية منها قال السهيلي وسميت يثرب لأن الذي نزلها من العماليق اسمه يثرب بن عميل وقيل يثرب اسم لنفس المدينة ولم تصرف للعلمية ووزن الفعل فإنها على وزن يضرب وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهي المدينة تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد وأخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء بن عازب قال

وأجبتكم قبل أن تدعوني وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث جماعة عن حمزة وهو ابن حبيب الزيات عن الاعمش ورواه ابن جرير من حديث وكيع ويحيى بن عيسى عن الاعمش عن علي بن مدركة عن أبي زرعة وهو ابن عمرو بن جرير انه قال ذلك من كلامه والله أعلم وقال مقاتل بن حيان وما كنت بجانب الطور اذ نادينا أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك اذا بعثت وقال قتادة وما كنت بجانب الطور اذ نادينا موسى وهذا والله أعلم أشبه بقوله تعالى وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر ثم أخبر ههنا بصفة أخرى أخص من ذلك وهو النداء كما قال تعالى واذ نادى ربك موسى وقال تعالى اذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى وقال تعالى وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا وقوله تعالى ولكن رحمة من ربك أي ما كنت مشاهد الشيء من ذلك ولكن الله تعالى أوحاه اليك وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بارسالك اليهم لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا الآية أي وأرسلناك اليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم اذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بانهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره انزال كتابه المبارك وهو القرآن ان تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وان كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو انا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة وقال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال تعالى يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير الآية والآيات في هذا كثيرة (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين. ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله هي طابة هي طابة هي طابة ولفظ احمد انما هي طابة واسناده ضعيف وكأنه صلى الله عليه وآله وسلم كره هذه اللفظة لما فيها من التثريب وهو التقريع والتوبيخ (فارجعوا) أمروهم بالهرب من عسكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين خرجوا عام الخندق حتى جعلوا ظهورهم الى سلع والخندق بينهم وبين القوم فقال هؤلاء المنافقون ليس ههنا موضع اقامة وامروا الناس بالرجوع الى منازلهم بالمدينة وسلع جبل خارج المدينة قريب منها بينها وبين الخندق وقيل المعنى ارجعوا عن الايمان الى الكفر وقيل عن القتال والاول اولى (ويستأذن فريق منهم النبي) في الرجوع الى منازلهم وهم بنو حارثة وبنو سلمة (يقولون ان بيوتنا عورة) اي ضائعة سائبة ليست بحصينة ولا ممتنعة من العدو وقال ابن عباس مخلية نخشى عليها السرق وعن جابر نحوه قال الزجاج يقال عور المكان يعور عورا وعورة وبيوت عورة وعورة وهي مصدر قال مجاهد ومقاتل والحسن قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق وقال قتادة قالوا بيوتنا مما يلي العدو ولا نأمن على اهلنا قال الهروي كل مكان ليس بممنوع ولا مستور فهو عورة والعورة في الاصل الخلل في البناء ونحوه بحيث يمكن دخول السارق فيها فأطلقت على المختل والمراد ذوات عورة وقرئ عورة بكسر الواو اي قصيرة الجدران قال الجوهري العورة كل حال يتخوف منه في ثغر وحرب قال النحاس يقال اعور المكان اذا تبينت فيه عورة واعور الفارس اذا تبين منه موضع الخلل ثم رد الله سبحانه عليهم بقوله (وما هي بعورة) فكذبهم الله سبحانه فيما ذكروه ثم بين سبب استئذانهم وما يريدونه به فقال (ان يريدون الا فرارا) أي ما يريدون الا الهرب من القتال وقيل المراد ما يريدون الا الفرار من الدين (ولو دخلت عليهم من أقطارها) يعني بيوتهم أو المدينة والاقطار النواحي جمع قطر وهو الجانب والناحية والمعنى لو دخلت عليهم بيوتهم أو المدينة من جوانبها جميعا لا من بعضها هذه العساكر المتحزبة ونزلت بهم هذه النازلة الشديدة واستبيحت ديارهم وهتكت حرمهم ومنازلهم (ثم سئلوا الفتنة) من جهة أخرى عند نزول هذه النازلة الشديدة بهم (لآتوها) أخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال جاء تأويل هذه الآية على رأس ستين سنة يعني ادخال بني حارثة أهل الشام على المدينة

انهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد لولا أوتي مثل ما أوتي موسى الآية يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وانزال المن والسلوى الى غير ذلك من الآيات الباهرة والحجج القاهرة التي أجراها الله تعالى على يدي موسى عليه السلام حجة وبراهين له على فرعون وملائه وبني اسرائيل ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملائه بل كفروا بموسى وأخيه هرون كما قالوا لهما أجئتنا لتلفتنا عما

وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الارض وما نحن لكما بمؤمنين وقال تعالى فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولهذا قال ههنا أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة قالوا ساحران تظاهرا أي تعاونا وقالوا انا بكل كافرون أي بكل منهما كافرون ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهرون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر

فما أدري اذا يممت أرضا
أريد الخير أيهما يليني

أي فما أدري يليني الخير أو الشر قال مجاهد أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك فقال الله أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا ساحران تظاهرا قال يعني موسى وهرون صلى الله عليهما وسلم تظاهرا أي تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين في قوله ساحران يعنون موسى وهرون وهذا قول جيد قوي والله أعلم وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس قالوا ساحران تظاهرا قال يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وهذا رواية الحسن البصري وقال الحسن وقتادة يعني عيسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم وهذا فيه بعد لان عيسى لم يجر له ذكر ههنا والله أعلم وأما من قرأ سحران تظاهرا فقال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندي والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال السدي يعني صدق كل واحد منهما الآخر وقال عكرمة يعنون التوراة والانجيل وهو رواية عن أبي زرعة واختاره ابن جرير وقال الضحاك وقتادة

ومعنى الفتنة هنا اما القتال في العصبية كما قال الضحاك او الشرك بالله او الرجعة الى الكفر الذي يبطنونه ويظهرون خلافه كما قال الحسن قرئ لأتوها بالمد اي لأعطوها من انفسهم وبالقصر اي لجاؤها وفعلوها وهما سبعيتان (وما تلبثوا بها) اي بالمدينة بعد ان اتوا الفتنة (الا) تلبثا (يسيرا) حتى يهلكوا كذا قال الحسن والسدي والفراء والقتيبي وقال اكثر المفسرين ان المعنى وما احتبسوا عن فتنة الشرك الا قليلا بل هم مسرعون اليها راغبون فيها لا يقفون عنها الا مجرد وقوع السؤال لهم ولا يتعللون عن الاجابة بأن بيوتهم في هذه الحالة عورة مع انها قد صارت عورة على الحقيقة كما تعللوا عن اجابة الرسول والقتال معه بأنها عورة ولم تكن اذ ذاك عورة ثم حكى الله سبحانه عنهم ما قد كان وقع منهم من قبل من المعاهدة لله ولرسوله بالثبات في الحرب وعدم الفرار عنه فقال (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل) أي حلفوا من قبل غزوة الخندق ومن بعد بدر ان لا يولوا ظهورهم فرارا من العدو بل يثبتوا على القتال حتى يموتوا شهداء وهم قوم لم يحضروا وقعة بدر قال قتادة وذلك انهم غابوا عن بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والنصر فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (لا يولون الادبار) أي لا ينهزمون وجاء على حكاية اللفظ فجاء بلفظ الغيبة ولو جاء على حكاية المعنى لقيل لا نولي (وكان عهد الله مسؤلا) عنه ومطلوبا صاحبه بالوفاء به ومجازى على ترك الوفاء به (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) لانه لا بد لكل انسان من الموت اما حتف أنفه أو بقتل بالسيف في وقت معين سبق به القضاء وجرى به القلم فمن حضر أجله مات أو قتل فر او لم يفر (واذا لا تمتعون) أي وان نفعكم الفرار مثلا فمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتع (الا) تمتعا أو زمانا (قليلا) بعد فراركم الى أن تنقضي آجالكم وكل آت قريب قرئ تمتعون بالفوقية والتحتية وبحذف النون (قل من ذا الذي يعصمكم) أي يجيركم (من الله ان أراد بكم سوأ) أي هلاكا أو هزيمة أو نقصا في الاموال وجدبا ومرضا (أو) يصيبكم بسوء ان (أراد) الله (بكم رحمة) يرحمكم بها من خصب ونصر وعافية واطالة عمر وهذا على حد قوله علفتها تبنا وماء باردا وليس معمولا للسابق وهو يعصمكم لعدم صحة المعنى عليه وفي السمين قال الزمخشري فان قلت كيف جعلت الرحمة قرينة السوء في العصمة ولا عصمة الا من الشر قلت معناه أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام وأجرى

الانجيل والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب والظاهر على قراءة سحران انهم يعنون التوراة والقرآن لانه قال بعده قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما في قوله تعالى قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس الى أن قال وهذا كتاب أنزلناه مبارك وقال في آخر السورة ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن الآية وقال وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون وقالت الجن انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه وقال ورقة بن نوفل هذا الناموس الذي أنزل على موسى وقد علم بالضرورة لذوي الالباب ان الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام وهو الكتاب الذي قال الله فيه انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء والانجيل انما أنزل متمما للتوراة ومحللا لبعض ما حرم على بني اسرائيل ولهذا قال تعالى قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين أي فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى فان لم يستجيبوا لك أي فان لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق فاعلم انما يتبعون أهواءهم أي بلا دليل ولا حجة ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين وقوله تعالى ولقد وصلنا لهم القول قال مجاهد فصلنا لهم القول وقال السدي بينا لهم القول قال قتادة يقول تعالى أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع لعلهم يتذكرون قال مجاهد وغيره وصلنا لهم يعني قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظي وجعله ابن منده رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيي وهو الذي طلق تميمة بنت وهب التي تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا كذا ذكره ابن الاثير قال نزلت ولقد وصلنا لهم القول في عشرة أنا أحدهم رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديثه

يجري قوله متقلدا سيفا ورمحا وحمل الثاني على الاول لما في العصمة من منع المنع قال الشيخ اما الوجه الاول ففيه حذف جملة لا ضرورة تدعو الى حذفها والثاني هو الوجه لا سيما اذا قدر مضاف محذوف أي يمنعكم من مراد الله قلت وأين الثاني من الاول ولو كان معه حذف جمل انتهى (ولا يجدون لهم من دون الله) أي غيره (وليا) يواليهم وينفعهم ويدفع الضر عنهم (ولا نصيرا) ينصرهم من عذاب الله (قد يعلم الله المعوقين منكم) يقال عاقه واعتاقه وعوقه اذا صرفه عن الوجه الذي يريده (والقائلين لاخوانهم هلم الينا) قال الواحدي قال المفسرون هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك انهم قالوا لهم ما محمد وأصحابه الا أكلة رأس ولو كانوا لحما لالتقمهم أبو سفيان وحزبه فخلوهم وتعالوا الينا وقيل ان القائل لهذه المقالة اليهود ومعنى هلم أقبل واحضر اسم فعل أمر وأهل الحجاز يسوون فيه بين الواحد والجماعة والمذكر والمؤنث وعند غيرهم من العرب كبني تميم فعل أمر يقولون هلم للواحد المذكر وهلمي للمؤنث وهلما للاثنين وهلموا للجماعة وقد مر الكلام على هذا في سورة الانعام والمعنى ارجعوا الينا واتركوا محمدا فلا تشهدوا معه الحرب فانا نخاف عليكم الهلاك وقيل تعالوا الينا لنستريحوا يعني ان يهود المدينة طلبوا المنافقين ليستريحوا وخوفوا المؤمنين ليرجعوا وهلم هنا لازم وفي الانعام متعد لنصبه مفعوله وهو شهداءكم بمعنى أحضروهم وههنا بمعنى احضروا وتعالوا وكلام الزمخشري هنا مؤذن بانه متعد أيضا وحذف مفعوله فانه قال هلموا الينا أي قربوا أنفسكم الينا (ولا يأتون البأس) أي الحرب والقتال (الا) اتيانا (قليلا) خوفا من الموت ويقفون قليلا مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون وقيل المعنى لا يحضرون القتال الا رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل لله لكان كثيرا (أشحة) أي بخلاء (عليكم) لا يعاونونكم بحفر الخندق ولا بالنفقة في سبيل الله قاله مجاهد وقتادة وقيل أشحة بالقتال معكم وقيل بالنفقة على فقرائكم ومساكينكم وقيل أشحة بالغنائم اذا أصابوها قاله السدي العامة على نصب أشحة وفيه وجهان احدهما انه منصوب على الذم والثاني على الحال من ضمير يأتون قاله الزجاج أو هلم الينا قاله الطبري وقرئ بالرفع أي هم أشحة وهو جمع شحيح وهو جمع لا يقاس عليه اذ قياس فعيل الوصف الذي عينه ولامه من واد واحد ان يجمع على افعلاء

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به وقال تعالى وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله وقال تعالى إن الذين أوتوا الكتاب من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا وقال تعالى ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى إلى قوله فاكتبنا مع الشاهدين قال سعيد ابن جبير نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم يس والقرآن الحكيم حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين يعني من قبل هذا القرآن كنا مسلمين أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له قال الله تعالى أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ثم بالثاني ولهذا قال بما صبروا أي على اتباع الحق فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس وقد ورد في الصحيح من حديث عامر الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي أمامة قال إني لتحت راحلة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فقال قولا حسنا جميلا وقال فيما قال من أسلم من أهل الكتابين فله أجره مرتين وله ما لنا وعليه ما علينا وقوله تعالى ويدرؤن بالحسنة السيئة أي لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون ومما رزقناهم ينفقون أي ومن الذي رزقهم من الحلال

نحو خليل وأخلاء وظنين وأظناء وضنين وأضناء وقد سمع أشحاء وهو القياس والشح البخل وتقدم في آل عمران قاله النحاس (فإذا جاء الخوف) من قبل العدو قاله السدي أو منه صلى الله عليه وآله وسلم قاله ابن شجرة (رأيتهم) أي أبصرتهم (ينظرون إليك) في تلك الحالة خوفا من القتال على القول الأول ومن النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الثاني (تدور أعينهم) يمينا وشمالا وذلك لذهول عقولهم حتى لا يصح منهم النظر إلى جهة وقيل لشدة خوفهم حذرا أن يأتيهم القتل من كل جهة وذلك سبيل الجبان إذا شاهد ما يخافه (كالذي يغشى عليه من الموت) أي كدوران عين الذي قرب من الموت وهو الذي نزل به الموت وغشيته أسبابه فيذهل لبه ويذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف ويقال للميت إذا شخص بصره دارت عيناه ودارت حماليق عينيه (فإذا ذهب الخوف سلقوكم) أي استقبلوكم (بألسنة حداد) أي ذربة تفعل كفعل الحديد يقال سلق فلان فلانا بلسانه إذا أغلظ له في القول مجاهرا قال الفراء أي آذوكم بالكلام في الأمن بألسنة سليطة ذربة ويقال خطيب مسلاق ومصلاق إذا كان بليغا قال القتيبي المعنى آذوكم بالكلام الشديد والسلق الأذى قال ابن عباس معناه عضهوكم وتناولوكم بالنقص والغيبة قال قتادة المعنى بسطوا ألسنتهم فيكم في وقت قسمة الغنيمة يقولون أعطونا فإنا قد شهدنا معكم فعند الغنيمة أشح قوم وأبسطهم لسانا ووقت البأس أجبن قوم وأخوفهم قال النحاس هذا قول حسن (أشحة على الخير) أي على الغنيمة يشاحون المسلمين عند القسمة قاله يحيى بن سلام وقيل على المال أن ينفقوه في سبيل الله قاله السدي ويمكن أن يقال معناه أنهم قليلو الخير من غير تقييد بنوع من أنواعه (أولئك) الموصوفون بتلك الصفات (لم يؤمنوا) إيمانا خالصا بل هم المنافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر (فأحبط الله أعمالهم) أي أبطلها بمعنى أظهر بطلانها لأنها لم تكن أعمالا صحيحة تقتضي الثواب حتى يبطلها الله وتحبط قال مقاتل أبطل جهادهم لأنه لم يكن في إيمان أو المراد أبطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا لمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الإحباط لأعمالهم أو كان نفاقهم (على الله يسيرا) هينا بإرادته (يحسبون الأحزاب لم يذهبوا) أي يحسب هؤلاء المنافقون لجبنهم أن الأحزاب أي قريشا وغطفان واليهود ذاهبون في معسكرهم لم يذهبوا إلى ديارهم ولم ينهزموا ففروا إلى

داخل المدينة وذلك لما نزل بهم من الفشل والروع والفرق والجبن (وان يأت الاحزاب) مرة أخرى بعد هذه المرة والذهاب (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب) أى يتمنون لو انهم كانوا فى بادية لما حل بهم من الرهبة والبادى خلاف الحاضر يقال بدا يبدو بداوة اذا خرج الى البادية وسكنها (يسألون عن أنبائكم) واخباركم وما آل اليه أمركم وما يجرى لكم كل قادم عليهم من جهتكم أو يسأل بعضهم بعضا عن الاخبار التى بلغته من اخبار الاحزاب ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمعنى انهم يتمنون انهم بعيد عنكم يسألون عن اخباركم من غير مشاهدة للقتال لفرط جبنهم وضعف نياتهم (ولو كانوا فيكم) أى معكم فى هذه الغزوة مشاهدين للقتال (ما قاتلوا) معكم (الا) قتالا (قليلا) خوفا من العار وحمية على الديار أو رياء من غير احتساب (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) أى قدوة صالحة يقال لى فى فلان أسوة أى لى به اقتداء والاسوة من الائتساء كالقدوة من الاقتداء اسم يوضع موضع المصدر يقال ائتسى فلان بفلان أى اقتدى به قال الجوهرى الاسوة والاسوة بالضم والكسر والجمع أسى واسى وقد قرئ بهما وهما سبعيتان وهما أيضا لغتان كما قال الفراء وغيره وفى هذه الآية عتاب للمتخلفين عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أى لقد كان لكم فى رسول الله حيث بذل نفسه للقتال وخرج الى الخندق لنصرة دين الله اسوة والمعنى اقتدوا به اقتداء حسنا وهو ان تنصروا دين الله وتوازروا رسوله ولا تتخلفوا عنه وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو اذ كسرت رباعيته وجرح وشج وجهه وجاع بطنه وقتل عمه حمزة واوذى بضروب الاذى فصبر وواساكم مع ذلك بنفسه فافعلوا أنتم كذلك أيضا واستنوا بسنته وهذه الآية وان كان سببها خاصا فهى عامة فى كل شئ ومثلها وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا وقوله قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله عن ابن عمر قال فى الآية هذا فى جوع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد استدل بهذه الآية جماعة من الصحابة فى مسائل كثيرة اشتملت عليها كتب السنة وهى خارجة عما نحن بصدده نعم فيه دلالة على لزوم الاتباع وترك التقليد الحادث الذى أصيب به الاسلام أى مصيبة وهل هذه الاسوة على الايجاب أو على الاستحباب فيه قولان قال القرطبى يحتمل ان تحمل على الايجاب فى أمور الدين وعلى الاستحباب فى أمور الدنيا (لمن كان يرجو الله) أى حسنة كائنة لمن يرجو الله والمراد انهم الذين يرجون

ينفقون على خلق الله فى النفقات الواجبة لاهليهم وأقاربهم والزكاة المفروضة والمستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات وقوله تعالى واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه أى لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم بل كما قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين أى اذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم الا كلام طيب ولهذا قال عنهم انهم قالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين أى لا نريد طريق الجاهلين ولا نحبها قال محمد بن اسحق فى السيرة ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة عشرون رجلا أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه فى المسجد فجلسوا اليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش فى أنديتهم حول الكعبة فلما فرغوا من مسألة رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أرادوا دعاهم الى الله تعالى وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم فى كتابهم من أمره فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام فى نفر من قريش فقالوا لهم خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ما نعلم ركبا أحمق منكم أو كما قالوا لهم فقالوا لهم سلام عليكم لا نجاهلكم لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيرا قال ويقال ان النفر النصارى من أهل نجران فالله أعلم أى ذلك كان قال ويقال والله أعلم ان فيهم نزلت هذه الآيات الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا نبتغى الجاهلين قال وسألت الزهرى عن هذه الآيات فيم نزلت قال ما زلت أسمع من علمائنا انهن نزلن فى النجاشى وأصحابه رضى الله عنهم والآيات اللاتى فى سورة المائدة ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا الى قوله فاكتبنا مع الشاهدين (انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم انك يا محمد لا تهدى من أحببت أى ليس اليك ذلك انما عليك البلاغ

والله يهدي من يشاء وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة كما قال تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وقال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهذه الآية أخص من هذا كله فانه قال انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية وقد ثبت في الصحيحين انها نزلت في أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في حقه ويحبه حبا طبعيا لا شرعيا فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الايمان والدخول في الاسلام فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة قال الزهري حدثني سعيد ابن المسيب عن أبيه وهو المسيب ابن حزن المخزومي رضي الله عنه قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عم قل لا اله الا الله كلمة أحاج لك بها عند الله فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا اله الا الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وأنزل في أبي طالب انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء أخرجاه من حديث الزهري وهكذا رواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عماه قل لا اله الا الله أشهد لك بها يوم القيامة فقال لولا ان تعيرني بها قريش يقولون ما حمله عليه الا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها الا لأقر بها عينك فأنزل الله تعالى انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقال الترمذي حسن غريب لا نعرفه الا من حديث يزيد بن كيسان ورواه الامام أحمد عن يحيى بن سعيد القطان عن يزيد بن كيسان حدثني أبو حازم عن أبي هريرة فذكره بنحوه وهكذا قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة انها نزلت في أبي

الله ويخافون عذابه يعني يرجون ثوابه ولقاءه (واليوم الآخر) أي انهم يرجون رحمة الله فيه أو يصدقون بحصوله وانه كائن لا محالة وهذه الجملة تخصيص بعد التعميم بالجملة الأولى (وذكر الله) أي ولمن ذكر الله في جميع أحواله ذكرا (كثيرا) وجمع بين الرجاء لله والذكر له فان بذلك تتحقق الاسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم بين سبحانه ما وقع من المؤمنين المخلصين عند رؤيتهم للأحزاب ومشاهدتهم لتلك الجيوش التي أحاطت بهم كالبحر العباب فقال (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله) الاشارة بهذا الى ما رأوه من الجيوش أو الى الخطب الذي نزل والبلاء الذي دهم وهذا القول منهم قالوه استبشارا بحصول ما وعدهم الله ورسوله من مجيء هذه الجنود وان يتعقب مجيئهم اليهم نزول النصر والظفر من عند الله وما في ما وعدنا هي الموصولة أو المصدرية ثم أردفوا ما قالوه بقولهم (وصدق الله ورسوله) أي ظهر صدق خبرهما ووجه اظهار الاسم الشريف والرسول بعد قوله ما وعدنا الله ورسوله هو قصد التعظيم وأيضا لو أضمرهما لجمع بين ضميري الله ورسوله في لفظ واحد وقال صدقا وقد ورد النهي عن جمعهما كما في حديث بئس خطيب القوم أنت لمن قال ومن يعصهما فقد غوى وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما فالجواب انه صلى الله عليه وآله وسلم أعرف بقدر الله منا وليس لنا أن نقول كما يقول قاله السمين (وما زادهم) ما رأوه من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم (الا ايمانا) بالله (وتسليما) لأمره قال الفراء ما زادهم النظر الى الأحزاب الا ذلك قال علي بن سليمان رأى يدل على الرؤية وتأنيث الرؤية غير حقيقي والمعنى ما زادهم الرؤية الا ايمانا بالرب وتسليما للقضاء ولو قال ما زادتهم لجاز وعن ابن عباس قال في الآية ان الله قال لهم في سورة البقرة أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء فلما مسهم البلاء حيث رابطوا الأحزاب في الخندق قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله فتأول المؤمنون ذلك فلم يزدهم الا ايمانا وتسليما (من المؤمنين) المخلصين (رجال صدقوا) أي أتوا بالصدق من صدقني اذا قال الصدق (ما عاهدوا الله عليه) أي وفوا بما عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة العقبة من الثبات معه والمقاتلة لمن قاتله بخلاف من كذب في عهده وخان الله ورسوله وهم المنافقون وقيل هم الذين نذروا انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله

صلى

صلى الله عليه وآله وسلم ثبتوا له ولم يفروا أخرج البخاري وغيره عن أنس قال نرى هذه الآية نزلت في أنس بن النضر وأخرج ابن سعد وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي والبغوي في معجمه وابن جرير وابن أبي حاتم وابو نعيم والبيهقي عن أنس قال غاب عمي أنس بن النضر عن بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غبت عنه لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليرين الله ما أصنع فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أبا عمرو أين قال واها لريح الجنة أجدها دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين طعنة وضربة ورمية ونزلت هذه الآية وكانوا يرون انها نزلت فيه وفي أصحابه وقد روي عنه نحوه من طريق أخرى عند الترمذي وصححه والنسائي وغيرهما وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين انصرف من أحد مر على مصعب بن عمير وهو مقتول فوقف عليه ودعا له ثم قرأ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم قال أشهد ان هؤلاء شهداء عند الله فأتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد الى يوم القيامة الا ردوا عليه وقد تعقب الحاكم في تصحيحه الذهبي كما ذكر ذلك السيوطي ولكنه قد أخرج الحاكم حديثا آخر وصححه وأخرجه أيضا البيهقي في الدلائل عن أبي ذر قال لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد مر على مصعب ابن عمير مقتولا على طريقه فقرأ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه الآية وأخرج ابن مردويه من حديث خباب مثله وهما يشهدان لحديث أبي هريرة ثم فصل سبحانه حال الصادقين بما وعدوا الله ورسوله وقسمهم الى قسمين فقال (فمنهم من قضى نحبه) أي فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد وقال ابن عمر أي مات على ما هو عليه من التصديق والايمان والنحب ما التزمه الانسان واعتقد الوفاء به وأوجبه على نفسه والقتل والموت قال ابن قتيبة قضى نحبه أي قتل وأصل النحب النذر كانوا يوم بدر نذروا ان لقوا العدو أن يقاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح الله لهم فقتلوا فقيل فلان قضى نحبه أي قتل والنحب أيضا الحاجة وادراك الامنية يقول قائلهم مالي عندهم نحب والنحب العهد ومعنى الآية ان من المؤمنين رجالا أدركوا أمنيتهم وقضوا حاجتهم ووفوا بنذرهم فقاتلوا حتى قتلوا وذلك يوم أحد كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر أخرج

طالب حين عرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يقول لا اله الا الله فأبى عليه ذلك وقال اى ابن أخي ملة الاشياخ وكان آخر ما قاله هو على ملة عبد المطلب وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن سلمة حدثنا عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن أبي راشد قال كان رسول قيصر جاء الي قال كتب معي قيصر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فأتيته فدفعت الكتاب فوضعه في حجره ثم قال ممن الرجل قلت من تنوخ قال هل لك في دين أبيك ابراهيم الحنيفية قلت اني رسول قوم وعلى دينهم حتى أرجع اليهم فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر الى أصحابه وقال انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وقوله تعالى وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أي نخشى ان اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالاذى والمحاربة ويتخطفونا أينما كنا قال الله تعالى مجيبا لهم أولم نمكن لهم حرما آمنا يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل لان الله تعالى جعلهم في بلد أمين وحرم معظم آمن منذ وضع فكيف يكون هذا الحرم آمنا لهم في حال كفرهم وشركهم ولا يكون آمنا لهم وقد اسلموا وتابعوا الحق وقوله تعالى يجبى اليه ثمرات كل شئ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره وكذلك المتاجر والامتعة رزقا من لدنا أي من عندنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ولهذا قالوا ما قالوا وقد قال النسائي أنبأنا الحسن بن محمد حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني ابن أبي مليكة قال قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ولم يسمعه منه ان الحرث بن عامر بن نوفل الذي قال ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا (وكم أهلكنا من قرية بطرت

معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون) يقول تعالى معرضا باهل مكة في قوله تعالى وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الارزاق كما قال في الآية الاخرى وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان الى قوله فأخذهم العذاب وهم ظالمون ولهذا قال تعالى فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا أي دثرت ديارهم فلا ترى الا مساكنهم وقوله تعالى وكنا نحن الوارثين أي رجعت خرابا ليس

فيها أحد وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا عن ابن مسعود أنه سمع كعبا يقول لعمر ان سليمان عليه السلام قال للهامة يعني البومة مالك لا تأكلين الزرع قالت لانه اخرج آدم من الجنة بسببه قال فمالك لا تشربين الماء قالت لان الله تعالى أغرق قوم نوح فيه قال فمالك لا تأوين الا الى الخراب قالت لانه ميراث الله تعالى ثم تلا وكنا نحن الوارثين ثم قال تعالى مخبرا عن عدله وانه لا يهلك أحدا ظالما له وانما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ولهذا قال وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها وهي مكة رسولا يتلو عليهم آياتنا فيه دلالة على ان النبي الامي وهو محمد صلى الله (٢٦٦) عليه وسلم المبعوث من أم القرى رسول الى جميع القرى من عرب وأعجام كما قال تعالى لتنذر أم القرى ومن حولها وقال تعالى قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا وقال لانذركم به ومن بلغ وقال ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده وتمام الدليل قوله تعالى وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا الآية فأخبر تعالى انه سيهلك كل قرية قبل يوم القيامة وقد قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا فجعل تعالى بعثة النبي الامي شاملة لجميع القرى لانه مبعوث الى أمها وأصلها التي ترجع اليها وثبت في الصحيحين عنه صلوات الله وسلامه عليه أنه قال بعثت الى الاحمر والاسود ولهذا ختم به النبوة والرسالة فلا نبي بعده ولا رسول بل شرعه باق بقاء الليل والنهار الى يوم القيامة وقيل المراد بقوله حتى يبعث في أمها رسولا أي أصلها وعظيمها كأمهات الرساتيق والاقاليم حكاه الزمخشري وابن الجوزي وغيرهما وليس ببعيد (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة الى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق وقال وما عند الله خير للابرار وقال وما الحياة الدنيا في الآخرة الا متاع وقال تعالى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ما الحياة الدنيا في الآخرة الا كما يغمس أحدكم اصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع اليه وقوله تعالى أفلا تعقلون أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة وقوله تعالى أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه

الترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن طلحة ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا لاعرابي جاهل سله عمن قضى نحبه من هو وكانوا لا يجترؤن على مسئلته يوقرونه ويهابونه فسأله الاعرابي فأعرض عنه ثم سأله فأعرض عنه ثم انى اطلعت من باب المسجد فقال أين السائل عمن قضى نحبه قال الاعرابي انا قال هذا ممن قضى نحبه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه من حديثه نحوه وأخرج الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن معاوية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول طلحة ممن قضى نحبه وعن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال من سره ان ينظر الى رجل يمشي على الارض قد قضى نحبه فلينظر الى طلحة أخرجه سعيد بن منصور وأبو يعلى وأبو نعيم وابن المنذر وغيرهم وأخرج ابن مردويه من حديث جابر مثله وأخرج ابن منده وابن عساكر من حديث أسماء بنت أبي بكر نحوه وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن علي ان هذه الآية نزلت في طلحة وأخرج أحمد والبخاري وابن مردويه عن سليمان بن صرد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاحزاب الآن نغزوهم ولا يغزونا (ومنهم من ينتظر) قضاء نحبه حتى يحضر أجله كعثمان ابن عفان وطلحة والزبير وأمثالهم فانهم مستمرون على الوفاء بما عاهدوا الله عليه من الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقتال لعدوه ومنتظرون لقضاء نحبهم وحصول أمنيتهم بالقتل وادراك فضل الشهادة (وما بدلوا تبديلا) أي ما غيروا عهدهم الذي عاهدوا الله ورسوله عليه كما غير المنافقون عهدهم بل ثبتوا عليه ثبوتا مستمرا أما الذين قضوا نحبهم فظاهر وأما الذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمروا على ذلك حتى فارقوا الدنيا ولم يغيروا ولا بدلوا (ليجزي الله) اللام يجوز ان يتعلق بصدقوا أو بزادهم أو بما بدلوا أو بمحذوف كأنه قيل وقع جميع ما وقع ليجزي الله (الصادقين بصدقهم) أي بوفائهم بالعهد (ويعذب المنافقين ان شاء) اذا لم يتوبوا (أو يتوب عليهم) بما صدر عنهم من التغيير والتبديل ان تابوا جعل المنافقين كأنهم قصدوا عاقبة السوء وأرادوها بسبب تبديلهم وتغييرهم كما قصد الصادقون عاقبة الصدق بوفائهم فكل من الفريقين مسوق الى عاقبته من الثواب والعقاب فكأنما استويا في طلبها والسعي لتحصيلها ومفعول ان شاء وجوابها محذوف أي ان شاء تعذيبهم عذبهم وذلك اذا أقاموا على النفاق ولم يتوبوا عنه (ان

متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين يقول تعالى أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الاعمال من الثواب الذي هو صائر اليه لامحالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل ثم هو يوم القيامة من المحضرين قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل انها نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أبي جهل وقيل في حمزة وعلي وأبي جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر انها عامة وهذا كقوله تعالى اخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات وذاك في الدركات فقال ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين وقال تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين) يقول تعالى مخبرا عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الاصنام والانداد هل ينصرونكم أو ينتصرون وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم انهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون وقوله قال الذين حق عليهم القول يعني الشياطين والمردة والدعاة الى الكفر ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون فشهدوا عليهم انهم أغووهم فاتبعوهم ثم تبرؤا من عبادتهم كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال تعالى ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون واذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين وقال الخليل عليه السلام لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا الآية وقال الله

(ان الله كان غفورا) لمن تاب منهم بقبول التوبة (رحيما) بمن أقلع عما كان عليه من النفاق بعفو الحوبة ثم رجع سبحانه الى حكاية بقية القصة وما امتن به على رسوله والمؤمنين من النعمة فقال (ورد الله الذين كفروا) وهم الاحزاب كأنه قيل وقع ما وقع من الحوادث ورد الله الذين كفروا (بغيظهم) الباء للسببية (لم ينالوا خيرا) المعنى ان الله ردهم بغيظهم لم يشف صدورهم ولا نالوا خيرا في اعتقادهم وهو الظفر بالمسلمين أو لم ينالوا خيرا أي خير بل رجعوا خاسرين لم يربحوا الا عناء السفر وغرم النفقة (وكفى الله المؤمنين القتال) بما أرسله من الريح والجنود من الملائكة (وكان الله قويا) على كل ما يريده اذا قال له كن فيكون (عزيزا) قاهرا غالبا لا يغالبه أحد من خلقه ولا يعارضه معارض في سلطانه وجبروته روى البخاري عن سليمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين انجلى الاحزاب يقول الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير اليهم (وأنزل الذين ظاهروهم) أي عاضدوهم وعاونوهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة فانهم عاونوا الاحزاب من قريش وغطفان ونقضوا العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاروا يدا واحدة مع الاحزاب وكانت في آخر ذي القعدة سنة خمس وقيل سنة أربع (من صياصيهم) جمع صيصية وهي الحصون وكل شئ يتحصن به فهو صيصية ومنه صيصية الديك وهي الشوكة التي في رجله وصياصي البقر والظباء قرونها لانها تمتنع بها ويقال للشوكة الحائك الذي يسوى بها السدى واللحمة صيصية وأخرج أحمد وابن مردويه وابن أبي شيبة عن عائشة خرجت يوم الخندق أقفو الناس فاذا أنا بسعد بن معاذ رماه رجل من قريش يقال له ابن العرقة بسهم فأصاب أكحله فقطعه فدعا الله سعد فقال اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من قريظة فبعث الله الريح على المشركين وكفى الله المؤمنين القتال ولحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى المدينة وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد قالت فجاء جبريل وان على ثناياه لوقع الغبار فقال أوقد وضعت السلاح لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح اخرج الى بني قريظة فقاتلهم فلبس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته وأذن في الناس بالرحيل ان يخرجوا فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فلما اشتد

تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب الى قوله وما هم بخارجين من النار ولهذا قال وقيل ادعوا شركاءكم ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب أي وتيقنوا انهم صائرون الى النار لا محالة وقوله لو انهم كانوا يهتدون أي فودوا حين عاينوا العذاب لو انهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا وهذا كقوله تعالى ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ورأى المجرمون النار فظنوا انهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا وقوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين النداء الاول عن سؤال التوحيد وهذا فيه اثبات النبوات ماذا كان جوابكم للمرسلين اليكم وكيف كان حالكم معهم وهذا كما يسئل العبد في قبره من ربك ومن نبيك وما دينك فاما المؤمن فيشهد أنه لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأما الكافر فيقول هاه هاه لا أدري ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت لان من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ولهذا قال تعالى فعميت عليهم الانباء يومئذ فهم لا يتساءلون قال مجاهد فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالانساب وقوله فاما من تاب وآمن وعمل صالحا أي في الدنيا فعسى أن يكون من المفلحين أي يوم القيامة وعسى من الله موجبة فان هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) يخبر تعالى انه المنفرد بالخلق والاختيار وانه ليس له في ذلك منازع ولا معقب قال تعالى وربك يخلق ما يشاء ويختار أي ما يشاء فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فالامور كلها خيرها وشرها بيده ومرجعها اليه وقوله ما كان لهم الخيرة نفي على أصح القولين كقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم وقد اختار ابن جرير ان ما ههنا بمعنى الذي تقديره ويختار الذي لهم فيه خيرة وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الاصلح والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضا فان المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار وانه لا نظير له في ذلك ولهذا قال سبحان الله وتعالى عما يشركون أي من

حصرهم واشتد البلاء عليهم قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ فنزلوا وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى سعد ابن معاذ فاتى به على حمار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احكم فيهم قال فاني أحكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم وتقسم أموالهم فقال لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله (وقذف في قلوبهم الرعب) أي الخوف الشديد حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبي وهي معنى قوله (فريقا تقتلون) منهم (وتأسرون فريقا) قرئ الفعلان بالتحتية وبالفوقية فيهما على الخطاب وبالفوقية في الاول وبالتحتية في الثاني فالفريق الاول هم الرجال والفريق الثاني هم النساء والذرية والجملة مبينة ومقررة لقذف الرعب في قلوبهم ووجه تقديم المفعول في الاول وتأخيره في الثاني ان الرجال لما كانوا أهل الشوكة وكان الوارد عليهم أشد الامرين وهو القتل كان الاهتمام بتقديم ذكرهم أنسب بالمقام وقد اختلف في عدد المقتولين والمأسورين فقيل كان المقتولون من ستمائة الى سبعمائة وقيل ستمائة وقيل سبعمائة وقيل ثمانمائة وقيل تسعمائة وكان المأسورون سبعمائة وقيل سبعمائة وخمسين وقيل تسعمائة (وأورثكم أرضهم) أي عقارهم ونخيلهم (وديارهم) أي منازلهم وحصونهم (وأموالهم) أي الحلي والاثاث والمواشي والسلاح والدراهم والدنانير والنقود والامتعة (و) أورثكم (أرضا لم تطؤها) بعد بقصد القتال واختلف المفسرون في تعيين هذه الارض المذكورة فقال يزيد بن رومان وابن زيد ومقاتل انها خيبر ولم يكونوا اذ ذاك قد نالوها فوعدهم الله بها قال سليمان الجمل وأحدثت بعد قريظة بسنتين أو ثلاث لان خيبر كانت في السابعة في المحرم وهي مدينة كبيرة ذات حصون غالية وذات مزارع ونخل كثير بينها وبين المدينة الشريفة أربع مراحل انتهى ملخصا وتمام هذه القصة في سيرة الحلبي وقال قتادة كنا نتحدث انها مكة وقال الحسن فارس والروم وقال عكرمة هي كل أرض تفتح على المسلمين الى يوم القيامة والمضي لتحقق وقوعه (وكان الله على كل شيء قديرا) أي هو سبحانه قدير على كل ما أراده من خير وشر ونعمة ونقمة وعلى انجاز ما وعدكم به من الفتح للمسلمين (يا أيها النبي قل لازواجك) قيل هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من المنع من ايذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان قد تأذى ببعض الزوجات قال الواحدي قال المفسرون ان أزواج النبي

الاصنام والانداد التي لا تخلق ولا تختار شيأ ثم قال تعالى وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون اى يعلم ما تكن الضمائر وما تنطوي عليه السرائر كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار وقوله وهو الله لا اله الا هو أي هو المنفرد بالالهية فلا معبود سواه كما لا رب يخلق ويختار سواه له الحمد في الاولى والآخرة أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته وله الحكم اى الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته واليه ترجعون أي جميعكم يوم القيامة فيجزى كل عامل بعمله من خير

وشر ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الاعمال (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) يقول تعالى ممتنا على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما وبين انه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا الى يوم القيامة لاضر ذلك بهم ولسئمته النفوس وانحصرت منه ولهذا قال تعالى من اله غير الله يأتيكم بضياء أى تبصرون به وتستأنسون بسببه أفلا تسمعون ثم أخبر تعالى انه لو جعل النهار سرمدا أى دائما مستمرا الى يوم القيامة لاضر ذلك بهم ولتعبت الابدان وكلت من كثرة الحركات والاشغال ولهذا قال تعالى من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أى تستريحون من حركاتكم وأشغالكم أفلا تبصرون ومن رحمته أى بكم جعل لكم الليل والنهار أى خلق هذا وهذا لتسكنوا فيه أى في الليل ولتبتغوا من فضله أى في النهار بالاسفار والترحال والحركات والاشغال وهذا من باب اللف والنشر وقوله ولعلكم تشكرون أى تشكرون الله بانواع العبادات في الليل والنهار ومن فاته شئ بالليل استدركه بالنهار أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا والآيات في هذا كثيرة (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله الها آخر يناديهم

صلى الله عليه وآله وسلم سألنه شيأ من عرض الدنيا وطلبن منه الزيادة في النفقة وآذينه بغيرة بعضهن على بعض فآلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منهن شهرا وأنزل الله آية التخيير هذه وكن يومئذ تسعا عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وسودة وهؤلاء من نساء قريش وصفية الخيبرية وميمونة الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية واختلف في عدة أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم وترتيبهن وعدة من مات منهن قبله ومن مات هو عنهن ومن دخل بها ومن لم يدخل بها ومن خطبها ولم ينكحها ومن عرضت نفسها عليه والمتفق على دخوله بهن احدى عشرة امرأة كذا في المواهب وقد بسط الكلام عليهن في المقصد الثاني منه جدا فارجع اليه ان شئت (ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها) أى سعتها ونضارتها ورفاهيتها وكثرة الاموال والتنعم فيها (فتعالين) أى أقبلن الى بارادتكن واختياركن لاحد الامرين (أمتعكن) أى أعطكن المتعة (وأسرحكن) أى أطلقكن قرأ الجمهور في الفعلين بالجزم جوابا للامر وقيل ان جزمهما على انهما جواب الشرط وعلى هذا يكون قوله فتعالين اعتراضا بين الشرط والجزاء وقرئ بالرفع فيهما على الاستئناف (سراحا جميلا) المراد به هو الواقع من غير ضرار على مقتضى السنة (وان كنتن تردن الله ورسوله) أى تردن رسوله وذكر الله للايذان بجلالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم عنده تعالى (والدار الآخرة) أى الجنة ونعيمها (فان الله أعد للمحسنات منكن) أى اللاتى عملن عملا صالحا (أجرا عظيما) لا يمكن وصفه ولا يقادر قدره وذلك بسبب احسانهن وبمقابلة صالح عملهن وقد اختلف العلماء في كيفية تخيير النبى صلى الله عليه وآله وسلم أزواجه على قولين الاول انه خيرهن باذن الله في البقاء على الزوجية أو الطلاق فاخترن البقاء وبهذا قالت عائشة ومجاهد وعكرمة والشعبى والزهرى وربيعة والثانى انه انما خيرهن بين الدنيا ففارقهن وبين الآخرة فيمسكهن ولم يخيرهن في الطلاق وبهذا قال على والحسن وقتادة والراجح الاول واختلفوا أيضا في المخيرة اذا اختارت زوجها هل يحسب مجرد ذلك التخيير على الزوج طلقة أم لا فذهب الجمهور من السلف والخلف الى انه لا يكون التخيير مع اختيار المرأة لزوجها طلاقا لا واحدة ولا أكثر وقال على وزيد بن ثابت ان اختارت زوجها فواحدة بائنة وبه قال الحسن والليث وحكاه الخطابى والنقاش عن مالك والراجح الاول لحديث عائشة الثابت في الصحيحين قالت خيرنا

الرب تعالى على رؤس الاشهاد فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون أي في دار الدنيا وعن ابن عباس كل أمة شهيدا قال يشهد نبي
رسولا وقلما هاتوا برهانكم أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء فعلموا أن الحق لله أي لا إله غيره فلم ينطقوا ولا يحيروا جوابا
وضل عنهم ما كانوا يفترون أي ذهبوا فلم ينفعوهم (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء
بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا
وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) قال الأعمش عن المنهال

ابن عمرو وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن قارون كان من قوم موسى قال كان ابن عمه وهكذا قال ابراهيم النخعي وعبد الله بن الحرث ابن نوفل وسماك بن حرب وقتادة ومالك بن دينار وابن جريج وغيرهم أنه كان ابن عم موسى عليه السلام قال ابن جريج هو قارون بن يصهر ابن قاهث وموسى بن عمران بن قاهث وزعم محمد بن اسحق بن يسار أن قارون كان عم موسى بن عمران عليه السلام قال ابن جريج وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه والله أعلم وقال قتادة بن دعامة كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله وقال شهر بن حوشب زاد في ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه وقوله وآتيناه من الكنوز أي الأموال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة أي ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها قال الأعمش عن خيثمة كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود كل مفتاح مثل الأصبع كل مفتاح على خزانة على حدته فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا وقيل غير ذلك والله أعلم وقوله إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين أي وعظه فيما هو فيه صالح قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد لا تفرح بما أنت فيه يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال إن الله لا يحب الفرحين قال ابن عباس يعني المرحين وقال مجاهد يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم وقوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاخترناه فلم يعده طلاقا ولا وجه لجعل مجرد التخيير طلاقا ودعوى أنه كناية من كنايات الطلاق مدفوعة بأن المخير لم يرد الفرقة بمجرد التخيير بل أراد تفويض المرأة وجعل أمرها بيدها فإن اختارت البقاء بقيت على ما كانت عليه من الزوجية وإن اختارت الفرقة صارت مطلقة واختلفوا في اختيارها لنفسها هل يكون ذلك طلقة رجعية أو بائنة فقال بالأول عمر وابن مسعود وابن عباس وابن أبي ليلى والثوري والشافعي وقال بالثاني علي وأبو حنيفة وأصحابه وروي عن مالك والراجح الأول لأنه يبعد كل البعد أن يطلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نساءه على خلاف ما أمره الله به وقد أمره بقوله إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وروي عن زيد بن ثابت أنها إذا اختارت نفسها فثلاث طلقات وليس لهذا القول وجه وقد روي عن علي أنها إذا اختارت نفسها فليس بشيء وإذا اختارت زوجها فواحدة رجعية وقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن مردويه عن جابر قال أقبل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والناس ببابه جلوس والنبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلا والنبي صلى الله عليه وآله وسلم جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعله يضحك فقال عمر يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد امرأة عمر سألتني النفقة آنفا فوجأت في عنقها فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه وقال هن حولي يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ليس عنده فنهاهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلن نساؤه والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله الخيار فبدأ بعائشة فقال إني ذاكر لك أمرا ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك قالت ما هو فتلا عليها يا أيها النبي قل لأزواجك الآية قالت عائشة أفيك أستأمر أبوي بل أختار الله ورسوله وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال إن الله لم يبعثني متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه قالت فبدأ بي فقال إني ذاكر لك أمرا فلا عليك

أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح فان لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزورك عليك حقا فآت كل ذي حق حقه وأحسن كما أحسن الله اليك أي احسن الى خلقه كما أحسن هو اليك ولا تبغ الفساد في الارض أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الارض وتسيء الى خلق الله ان الله لا يحب المفسدين (قال انما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) يقول تعالى مخبرا عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه

الى الخير قال انما أوتيته على علم عندي أي أنا لا أفتقر الى ما تقولون فان الله تعالى انما أعطاني هذا المال لعلمه باني أستحقه ولمحبته لي فتقديره انما أعطيته لعلم الله فيّ أني أهل له وهذا كقوله تعالى واذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما أوتيته على علم أي على علم من الله بي وكقوله تعالى ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي أي هذا أستحقه وقد روي عن بعضهم أنه أراد انما أوتيته على علم عندي أي أنه كان يعاني علم الكيمياء وهذا القول ضعيف لان علم الكيمياء في نفسه علم باطل لان قلب الاعيان لا يقدر أحد عليها الا الله عز وجل قال الله تعالى يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يقول الله تعالى ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة وهذا ورد في المصورين الذين يشبهون بخلق الله في مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل فكيف بمن يدعي أنه يحيل ماهية هذه الذات الى ماهية ذات أخرى هذا زور ومحال وجهل وضلال وانما يقدرون على الصبغ في الصورة الظاهرة وهي كذب وزغل وتمويه وترويج أنه صحيح في نفس الامر وليس كذلك قطعا لا محالة ولم يثبت بطريق شرعي أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التي يتعاناها هؤلاء الجهلة الفسقة الافاكون فأما ما يجريه الله سبحانه من خرق العوائد على يدي بعض الاولياء من قلب بعض الاعيان ذهبا أو فضة أو نحو ذلك فهذا أمر لا ينكره مسلم ولا يرده مؤمن ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات وانما هذا عن مشيئة رب الارض والسموات واختياره وفعله كما روي عن حيوة بن شريح المصري رحمه الله أنه سأله سائل فلم يكن عنده

ان لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك وقد علم ان أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه فقال ان الله قال يا أيها النبي قل لأزواجك الى تمام الآية فقلت ففي أي هذا أستأمر أبوي فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة وفعل أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثل ما فعلت ثم لما اختار نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اياه أنزل فيهن هذه الآيات تكرمة لهن وتعظيما لحقهن فقال (يا نساء النبي من يأت منكن) من بيانية لانهن كلهن محسنات (بفاحشة) أي معصية (مبينة) أي ظاهرة القبح واضحة الفحش وقد عصمهن الله عن ذلك وبرأهن وطهرهن فهو كقوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وقيل المراد بالفاحشة النشوز وسوء الخلق وقال قوم الفاحشة اذا وردت معرفة فهي الزنا واللواط واذا وردت منكرة فهي سائر المعاصي واذا وردت منعوتة فهي عقوق الزوج وفساد عشرته وقالت فرقة قوله هذا يعم جميع المعاصي وكذلك الفاحشة كيف وردت (يضاعف لها العذاب ضعفين) أي يعذبهن الله مثلي عذاب غيرهن من النساء اذا أتين بمثل تلك الفاحشة وذلك لشرفهن وعلو درجتهن وارتفاع منزلتهن ولان ما قبح من سائر النساء كان منهن أقبح فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل وليس لاحد من النساء مثل فضل نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل لان المعصية من العالم أقبح ولذا فضل حد الاحرار على العبيد وقد ثبت في هذه الشريعة في غير موضع ان تضاعف الشرف وارتفاع الدرجات يوجب لصاحبه اذا عصى تضاعف العقوبات وقرئ يضعف على البناء للمفعول وفرق أبو عمرو وأبو عبيد بين يضاعف ويضعف فقالا يكون يضاعف ثلاثة عذابات ويضعف عذابين قال النحاس هذه التفرقة التي جاآ بها لا يعرفها أحد من أهل اللغة والمعنى في يضاعف ويضعف واحد أي يجعل ضعفين وهكذا ضعف ما قالاه ابن جرير قال قوم لو قدر الله الزنا من واحدة وقد أعاذهن الله عن ذلك لكانت تحد حدين لعظم قدرها كما يزاد حد الحرة على الامة والعذاب بمعنى الحد قال تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين وعلى هذا فمعنى الضعفين معنى المثلين أو المرتين وقال مقاتل هذا التضعيف في العذاب انما هو في الآخرة كما ان ايتاء الاجر مرتين في الآخرة وهذا احسن لان نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يأتين بفاحشة توجب حدا وقد قال ابن عباس ما بغت امرأة نبي قط وانما خانتا

ما يعطيه ورأى ضرورته فاحتفن حفنة من الارض فألقاها في ... ثم ألقاها الى ذلك السائل فاذا هي ذهب أحمر والاحاديث والآثار في هذا كثيرة جدا يطول ذكرها وقال بعضهم ان قارون كان يعرف الاسم الاعظم فدعا الله به فتمول بسببه والصحيح المعنى الاول ولهذا قال الله تعالى رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا أي قد كان من هو أكثر منه مالا وما كان ذلك عن محبة منا له وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ولهذا قال ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون أي لكثرة ذنوبهم قال قتادة على علم عندي على خير عندي وقال السدي على علم أني أهل لذلك وقد أجاد في تفسير هذه الآية الامام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فانه قال في قوله قال انما أوتيته على علم عندي قال لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال وقرأ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا الآية (فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون) يقول تعالى مخبرا عن قارون انه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل الى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطي قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون انه لذو حظ عظيم أي ذو حظ وافر من الدنيا فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون وقوله ولا يلقاها الا الصابرون قال السدي وقد ولا يلقى الجنة الا الصابرون كأنه جعل ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم قال ابن جرير ولا يلقى هذه الكلمة الا الصابرون عن محبة الدنيا الراغبون في الدار الآخرة وكأنه جعل ذلك مقطوعا من كلام أولئك وجعله من كلام الله عز وجل واخباره بذلك (فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) لما ذكر تعالى اختيال

في الايمان والطاعة وقال بعض المفسرين العذاب الذي توعدن بضعفين هو عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وكذلك الاجر قال ابن عطية وهذا ضعيف اللهم الا أن يكون أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا ترفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة على ما هو حال الناس عليه بحكم حديث عبادة بن الصامت وهذا أمر لم يرد في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا حفظ تقريره (وكان ذلك) أي تضعيف العذاب (على الله يسيرا) هينا لا يتعاظمه ولا يصعب عليه فليس كونكن تحت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكونكن جليلات شريفات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حتى يتعذر عليه تعذيب الاغر بسبب كثرة أوليائه وأعوانه أو شفعائه واخوانه (ومن يقنت) قرئ بالتحتية وكذا يأت منكن حملا على لفظ من في الموضعين وقرئ بالفوقية حملا على المعنى والقنوت الطاعة أي يطع (منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) يعني انه يكون لهن من الاجر على الطاعة مثلا ما يستحقه غيرهن من النساء اذا فعلن تلك الطاعة وفي هذا دليل قوي على ان معنى يضاعف لها العذاب ضعفين أنه يكون العذاب مرتين لا ثلاثا لان المراد اظهار شرفهن ومزيتهن في الطاعة والمعصية بكون حسنتهن كحسنتين وسيئتهن كسيئتين ولو كانت كثلاث سيئات لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين فان الله أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على مضاعفة أجرهن فجعل الحسنة بعشرين حسنة وتضعيف ثوابهن لرفع منزلتهن وفيه اشارة الى انهن أشرف نساء العالمين (وأعتدنا لها) زيادة على الاجر مرتين (رزقا كريما) جليل القدر قال المفسرون هو نعيم الجنة حكى ذلك عنهم النحاس ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحا فقال (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء) قال الزجاج لم يقل كواحدة من النساء لان أحدا نفي عام للمذكر والمؤنث والواحد والجماعة وقد يقال على ما ليس بآدمي كما يقال ليس فيها أحد لا شاة ولا بعير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف قال ابن عباس يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم لدي ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال (ان اتقيتن) الله وأطعتنه فان الاكرم عند الله هو الاتقى فبين سبحانه أن هذه الفضيلة لهن انما تكون بملازمتهن للتقوى لا بمجرد اتصالهن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

وقد وقعت منهن ولله الحمد التقوى البينة والايمان الخالص والمشي على طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته و بعد مماته وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه أي ان اتقيتن فلستن كأحد من النساء وقيل ان جوابه قوله (فلا تخضعن بالقول) والاول أولى والمعنى لا تلن القول عند مخاطبة الناس كما تفعله المريبات من النساء ولا ترققن الكلام قال ابن عباس يقول لا ترخص بالقول ولا تخضعن بالكلام وعنه قال مقارنة الرجال بالقول فانه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة وهي قوله (فيطمع الذي في قلبه مرض) أي فجور وشهوة أو شك وريبة أو نفاق والمعنى لا تقلن قولا يجد المنافق والفاجر به سبيلا الى الطمع فيكن والمرأة مندوبة الى الغلظة في المقال اذا خاطبت الاجانب لقطع الاطماع فيهن (وقلن قولا معروفا) عند الناس أي حسنا مع كونه خشنا بعيدا من الريبة على سنن الشرع لا ينكر منه سامعه شيأ ولا يطمع فيكن أهل الفسق والفجور بسببه أو قولا يوجبه الاسلام والدين عند الحاجة اليه ببيان من غير خضوع وقيل القول المعروف ذكر الله تعالى والاول أولى (وقرن في بيوتكن) قرأ الجمهور بكسر القاف من وقر يقر وقارا أي سكن والامر منه قر بكسر القاف وللنساء قرن مثل عدن وزن وقال المبرد هو من القرار لا من الوقار تقول قررت بالمكان بفتح الراء والاصل اقررن بكسر الراء فحذفت الراء الاولى تخفيفا كما قالوا في ظللت ظلت ونقلوا حركتها الى القاف واستغنى عن ألف الوصل بتحريك القاف وقال أبو علي الفارسي أبدلت الراء الاولى ياء كراهة التضعيف كما أبدلت في قيراط ودينار وصارت الياء حركة الحرف الذي أبدلت منه والتقدير اقيرن ثم تلقى حركة الياء على القاف كراهة تحريك الياء بالكسر فتسقط الياء لاجتماع الساكنين وتسقط همزة الوصل لتحريك ما بعدها فيصير قرن وقرئ بفتح القاف وأصله قررت بالمكان اذا أقمت فيه بكسر الراء أقر بفتح القاف كحمد يحمد وهي لغة أهل الحجاز ذكر ذلك أبو عبيد عن الكسائي وذكرها الزجاج وغيره قال الفراء هو كما تقول هل حست صاحبك أي هل أحسسته قال أبو عبيد كان أشياخنا من أهل العربية ينكرون القراءة بالفتح للقاف وذلك لان قررت بالمكان أقر لا يجوزه كثير من أهل العربية والصحيح قررت أقر بالكسر ومعنى الآية الامر لهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يخرجن وهذا يخالف ما ذكرناه هنا عنه عن الكسائي وهو من أجل مشايخه وقد وافقه على الانكار لهذه

قارون في زينته وفخره على قومه و بغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به و بداره الارض كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل يجر ازاره اذ خسف به فهو يتجلجل في الارض الى يوم القيامة ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوه وقال الامام أحمد حدثنا النضر بن اسمعيل أبو المغيرة القاص حدثنا الاعمش عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الارض فأخذته فانه ليتجلجل فيها الى يوم القيامة تفرد به أحمد واسناده حسن وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا أبو خيثمة حدثنا يعلى بن منصور أخبرني محمد بن مسلم سمعت زيادا النميري يحدث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين فاختال فيهما فأمر الله الارض فأخذته فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الشكر في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال رأيت شابا في مسجد نجران فجعلت أنظر اليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله فقال مالك تنظر الي فقلت أعجب من جمالك وكمالك فقال ان الله ليعجب مني قال فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته في كمه وذهب به وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله عليه السلام واختلف في سببه فعن ابن عباس والسدي ان قارون أعطى امرأة بغيا مالا على ان تبهت موسى بحضرة الملا من بني اسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله تعالى فتقول يا موسى انك فعلت بي كذا وكذا فلما قالت ذلك في الملا لموسى عليه السلام أرعدت من الفرق وأقبل عليها بعدما صلى ركعتين ثم قال أنشدك بالله الذي فرق البحر وأنجاكم من فرعون وفعل كذا وكذا لما أخبرتني بالذي حملك على ما قلت فقالت أما اذا نشدتني فان قارون أعطاني كذا وكذا على ان أقول ذلك لك وانا أستغفر الله وأتوب اليه فعند ذلك خر موسى لله عز وجل ساجدا وسأل الله في قارون فأوحى الله اليه ان قد أمرت الارض ان تطيعك فيه فأمر موسى الارض ان تبتلعه وداره فكان ذلك وقيل ان قارون لما خرج على قومه في زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب وعليه وعلى خدمه

الساب الارجوان الصبغة تمر فى جحفلة دلك على مجلس نبى الله موسى عليه السلام وهو يذكرهم بأيام الله فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون الى ماهو فيه فدعاه موسى عليه السلام وقال ماحملك على ماصنعت فقال ياموسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فلقد فضلت عليك بالدنيا ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على وادعو عليك فخرج موسى وخرج قارون فى قومه فقال موسى عليه السلام تدعوا أو ادعو أنا فقال بل أدعو أنا فدعا قارون فلم يجب له ثم قال موسى أدعو قال نعم فقال موسى اللهم مر الارض أن تطيعنى اليوم فأوحى الله اليه (٢٧٤) انى قد فعلت فقال موسى يا أرض خذيهم فأخذتهم الى أقدامهم ثم قال خذيهم فأخذتهم الى ركبهم ثم الى مناكبهم ثم قال اقبلى بكنوزهم وأموالهم قال فأقبلت بها حتى نظروا اليها ثم أشار موسى بيده ثم قال اذهبوا بنى لاوى فاستوت بهم الارض وعن ابن عباس قال خسف بهم الى الارض السابعة وقال قتادة ذكر لنا انه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها الى يوم القيامة وقد ذكر هنا اسرائيليات أضربنا عنها صفحا وقوله تعالى فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين أى ما أغنى عنه ماله وما جمعه ولا خدمه وحشمه ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره وقوله تعالى وأصبح الذين تمنوا مكانه بالامس أى الذين لما رأوه فى زينته قالوا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم فلما خسف به أصبحوا يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أى ليس المال بدال على رضى الله عن صاحبه فان الله يعطى ويمنع ويضيق ويوسع ويخفض ويرفع وله الحكمة التامة والحجة البالغة وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن وليس مسعود ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم وان الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الايمان الا من يحب لولا ان من الله علينا لخسف بنا أى لولا لطف الله بنا واحسانه الينا لخسف بنا كما خسف به لانا وددنا ان نكون مثله ويكأنه لا يفلح الكافرون يعنون انه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله لا فى الدنيا ولا فى الآخرة وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا ويكأن فقال بعضهم معناه ويلك اعلم ان ولكن خففت فقيل ويك ودل فتح ان على حذف اعلم وهذا القول ضعفه ابن جرير

القراءة أبو حاتم فقال ان قرن بفتح القاف لا مذهب له فى كلام العرب قال النحاس قد خولف أبو حاتم فى قوله انه لا مذهب له فى كلام العرب بل فيه مذهبان أحدهما حكاه الكسائى والآخر عن على بن سليمان فأما المذهب الذى حكاه الكسائى فهو ما قد ساقه من رواية أبى عبيدة عنه وأما المذهب الذى حكاه على بن سليمان فقال انه من قررت به عينا أقر وقيل المعنى واقررن به عينا فى بيوتكن قال النحاس وهو وجه حسن وأقول ليس بحسن ولا هو معنى الآية فان المراد بها أمرهن بالسكون والاستقرار فى بيوتهن وليس من قرة العين أى الزمن بيوتكن عن محمد بن سيرين قال نبئت انه قيل لسودة زوج النبى صلى الله عليه وآله وسلم مالك لا تحجين ولا تعتمرين كما تفعل اخواتك فقالت قد حججت واعتمرت وأمرنى الله ان أقر فى بيتى فوالله لا أخرج من بيتى حتى أموت قال فوالله ماخرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى) التبرج ان تبدى المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعى به شهوة الرجل وقد تقدم معنى التبرج فى سورة النور قال المبرد هو مأخوذ من السعة يقال فى اسنانه برج اذا كانت متفرقة والمعنى اظهار الزينة وابراز المحاسن للرجال وقيل التبرج هو التبختر والتبخر والتكسر فى المشى وهذا ضعيف جدا والاول أولى وقد اختلف فى المراد بالجاهلية الاولى فقيل ما بين آدم ونوح أو بين داود وسليمان وقيل ما بين نوح وادريس قاله ابن عباس وكانت ألف سنة وقيل ما بين نوح وابراهيم وقيل ما بين موسى وعيسى أو ما بين عيسى ومحمد قاله ابن عباس وقيل ما قبل الاسلام والجاهلية الاخرى قوم يفعلون مثل فعلهم فى آخر الزمان أو الاولى جاهلية الكفر والاخرى جاهلية الفسوق والفجور فى الاسلام وقد بين حكمها فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الخ وقيل تذكر الاولى وان لم يكن لها أخرى وقال المبرد الجاهلية الاولى كما تقول الجاهلية الجهلاء قال وكان نساء الجاهلية تظهرن ما يقبح اظهاره حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها فينفرد خليلها بما فوق الازار الى أعلى وينفرد زوجها بما دون الازار الى أسفل وربما سأل أحدهما صاحبه البدل قال ابن عطية والذى يظهر لى انه أشار الى الجاهلية التى لحقنها وادركنها فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة لانهم كانوا لا غيرة عندهم فكان أمر النساء دون حجبة وجعلها أولى بالنسبة الى ما كن عليه

والظاهر انه قوي ولا يشكل على ذلك الا كتابتها في المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعي ا
العربي والله أعلم وقيل معناها ويكأن أي ألم تر أن قاله قتادة وقيل معناها وي كأن ففصلها وجعل حرف و
وكأن بمعنى أظن وأحتسب قال ابن جرير وأقوى الاقوال في هذا قول قتادة انها بمعنى ألم تر ان واستشهد بقول الشا
سألتاني الطلاق ان رأتاني * قل مالي قد جئتماني بنكر
ويكأن من يكن له نشب يحـ * ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين من جاء بالحسنة

وليس المعنى ان ثم جاهلية أخرى كذا قال وهو قول حسن ويمكن ان يراد بالجاهلية الاخرى ما يقع في الاسلام من التشبه باهل الجاهلية بقول أو فعل فيكون المعنى ولا تبرجن أيها المسلمات بعد اسلامكن تبرجا مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها وكان عليها من قبلكن أي لا تحدثن بافعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل وعن عائشة قالت الجاهلية الاولى كانت على عهد ابراهيم كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وكانت عائشة اذا قرأت هذه الآية تبكي حتى يبتل خمارها رواه مسروق (وأقمن الصلاة) الواجبة (وآتين الزكاة) المفروضة (وأطعن الله ورسوله) فيما أمر وفيما نهى وخص الصلاة والزكاة ثم عمم فأمرهن بالطاعة لله ولرسوله في كل ما هو شرع لانهما أصل الطاعات البدنية والمالية ولان من واظب عليهما جرتاه الى ما وراءهما (انما يريد الله) أي انما أوصاكن الله بما أوصاكن من التقوى وان لا تخضعن بالقول ومن قول المعروف والسكون في البيوت وعدم التبرج واقامة الصلاة وايتاء الزكاة والطاعة (ليذهب عنكم الرجس) والمراد بالرجس الاثم والذنب المدنسان للاعراض الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به وفعل ما نهى عنه فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه رضا الله وقيل الرجس الشك وقيل السوء وقيل عمل الشيطان والعموم أولى (أهل البيت) نصبه على النداء أو المدح (ويطهركم) من الارجاس والادناس (تطهيرا) كاملا وفي استعارة الرجس للمعصية والترشيح لها بالتطهير تنفير عنها بليغ وزجر لفاعلها شديد وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير ان أهل البيت المذكورين في الآية هم زوجات النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة قالوا والمراد بالبيت بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومساكن زوجاته لقوله واذكرن ما يتلى في بيوتكن وأيضا السياق في الزوجات من قوله يا أيها النبي قل لازواجك الى قوله لطيفا خبيرا وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة وروي عن الكلبي ان أهل البيت المذكورين في الآية هم علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة ومن حججهم الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للاناث وهو قوله عنكم وليطهركم ولو كان للنساء خاصة لقال عنكن وليطهركن وأجاب الاولون عن هذا بان التذكير باعتبار لفظ الاهل كما قال سبحانه

فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون) يخبر تعالى ان الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علوا في الارض أي ترفعا على خلق الله وتعاظما عليهم وتجبرا بهم ولا فسادا فيهم كما قال عكرمة العلو التجبر وقال سعيد بن جبير العلو البغي وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين العلو في الارض التكبر بغير حق والفساد أخذ المال بغير حق وقال ابن جريج لا يريدون علوا في الارض تعظما وتجبرا ولا فسادا عملا بالمعاصي وقال ابن جرير حدثنا وكيع حدثنا أبي عن أشعث السمان عن أبي سلام الاعرج عن علي قال ان الرجل ليعجبه من شراك نعله ان يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين وهذا محمول على ما اذا أراد بذلك الفخر على غيره وأما اذا أحب
ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به فقد ثبت أن رجلا قال يا رسول الله اني أحب ان يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة أفمن الكبر ذلك فقال لا ان الله جميل يحب الجمال وقال تعالى من جاء بالحسنة أي يوم القيامة فله خير منها أي ثواب الله خير من حسنة العبد فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة وهذا مقام الفضل ثم قال ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون كما قال في الآية الاخرى ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون وهذا مقام الفضل والعدل (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين وما كنت ترجوا أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك

أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت وكما في قول الرسول [illegible] كيف
أصبحت [illegible] أو زوجته [illegible] أما
الأولون فتمسكوا بالسياق فإنه في الزوجات كما ذكرنا وبما أخرجه ابن أبي حاتم وابن عساكر
من طريق عكرمة عن ابن عباس في الآية قال نزلت في نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم
خاصة وقال عكرمة من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم
وروي نحو هذا عنه بطرق وأما ما تمسك به الآخرون فأخرج الترمذي وصححه وابن جرير
وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن أم سلمة قالت في
بيتي نزلت إنما يريد الله الآية وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم بكساء كان عليه ثم قال هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس
وطهرهم تطهيرا وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه
عن أم سلمة أيضا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في بيتها على منامة له عليه كساء
خيبري فجاءت فاطمة ببرمة فيها حريرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ادعي
زوجك وابنيك حسنا وحسينا فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزلت على النبي صلى الله عليه
وآله وسلم إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا فأخذ النبي صلى
الله عليه وآله وسلم بفضلة كسائه فغشاهم إياها ثم أخرج يده من الكساء وألوى بها إلى
السماء ثم قال اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قالها
ثلاث مرات قالت أم سلمة فأدخلت رأسي في الستر فقلت يا رسول الله وأنا معكم فقال إنك
إلى خير مرتين وأخرجه أحمد أيضا من حديثها وفي إسناده مجهول وهو شيخ عطاء وبقية
رجاله ثقات وقد أخرجه الطبراني عنها من طريقين بنحوه وقد ذكر ابن كثير في تفسيره
لحديث أم سلمة طرقا كثيرة في مسند أحمد وغيره وأخرج ابن مردويه والخطيب من
حديث أبي سعيد الخدري نحوه وأخرج الترمذي وابن جرير والطبراني وابن مردويه
عن عمر بن أبي سلمة ربيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لما نزلت هذه الآية على النبي
صلى الله عليه وآله وسلم وذكر نحو حديث أم سلمة وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم
وابن جرير وابن أبي حاتم والحاكم عن عائشة قالت خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم غداة
وعليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن والحسين فأدخلهما معه ثم جاءت فاطمة
فأدخلها

[illegible] بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله
إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون) يقول تعالى آمرا رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ
الرسالة وتلاوة القرآن على الناس ومخبرا له بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ولهذا قال تعالى
إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد أي افترض عليك أداءه إلى الناس لرادك إلى معاد أي إلى يوم القيامة فيسألك عن
ذلك كما قال تعالى فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين وقال تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا
أجبتم وقال وجيء بالنبيين والشهداء
وقال السدي عن أبي صالح عن ابن
عباس إن الذي فرض عليك
القرآن لرادك إلى معاد يقول لرادك
إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن قاله
السدي وقال أبو سعيد مثلها وقال
الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن
عباس رضي الله عنهما لرادك إلى
معاد قال إلى يوم القيامة ورواه
مالك عن الزهري وقال الثوري
عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن
ابن عباس لرادك إلى معاد إلى الموت
ولهذا طرق عن ابن عباس رضي
الله عنهما وفي بعضها لرادك إلى
معدنك من الجنة وقال مجاهد يحييك
يوم القيامة وكذا روي عن عكرمة
وعطاء وسعيد بن جبير وأبي قزعة
وأبي مالك وأبي صالح وقال الحسن
البصري أي والله إن له لمعادا فيبعثه
الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة وقد
روي عن ابن عباس غير ذلك كما قال
البخاري في التفسير من صحيحه
حدثنا محمد بن مقاتل أنا يعلى
حدثنا سفيان العصفري عن عكرمة
عن ابن عباس لرادك إلى معاد قال
إلى مكة وهكذا رواه النسائي في
تفسير سننه وابن جرير من حديث يعلى وهو ابن عبيد الطنافسي به وهكذا روى العوفي عن ابن عباس لرادك
إلى معاد أي لرادك إلى مكة كما أخرجك منها وقال محمد بن إسحاق عن مجاهد في قوله لرادك إلى معاد إلى مولدك بمكة وقال ابن أبي حاتم
وقد روي عن ابن عباس ويحيى بن الجزار وسعيد بن جبير وعطية والضحاك نحو ذلك وحدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر قال قال سفيان
فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة عن الضحاك قال لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله
عليه إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد إلى مكة وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع

السورة مكيا والله أعلم وقد قال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله تعالى لرادك الى معاد قال هذه مما كان ابن عباس يكتمها
وقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن نعيم القاري أنه قال في قوله لرادك الى معاد قال الى بيت المقدس وهذا والله أعلم يرجع الى قول
من فسر ذلك بيوم القيامة لان بيت المقدس هو أرض المحشر والمنشر والله الموفق للصواب ووجه الجمع بين هذه الاقوال ان ابن
عباس فسر ذلك تارة برجوعه الى مكة وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم كما فسر
ابن عباس سورة اذا جاء نصر الله والفتح الى آخر السورة انه أجل

رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي اليه وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب ووافقه عمر على ذلك وقال لا أعلم منها غير الذي تعلم ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله لرادك الى معاد بالموت وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وابلاغها الى الثقلين الجن والانس ولانه أكمل خلق الله وأفصح خلق الله وأشرف خلق الله على الاطلاق وقوله تعالى ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد اذ أرسله اليهم وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب أي ما كنت تظن قبل انزال الوحي اليك ان الوحي ينزل عليك ولكن رحمة من ربك أي انما نزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك فاذا منحك بهذه
النعمة العظيمة فلا تكونن ظهيرا أي معينا للكافرين ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك
أي لا تتأثر لمخالفتهم لك وصدهم الناس عن طريقك لا تلوي على ذلك ولا تباله فان الله معل كلمتك ومؤيد دينك ومظهر ما أرسلك به
على سائر الاديان ولهذا قال وادع الى ربك أي الى عبادة ربك وحده لا شريك له ولا تكونن من المشركين وقوله ولا تدع مع الله الها
آخر لا اله الا هو أي لا تليق العبادة الا له ولا تنبغي الالهية الا لعظمته وقوله كل شيء هالك الا وجهه اخبار بانه الدائم الباقي الحي
القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت كما قال تعالى كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فعبر بالوجه عن الذات

فادخلها معه ثم جاء علي فادخله معه ثم قال انما يريد الله الآية وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد
وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن واثلة
ابن الاسقع قال جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى فاطمة ومعه علي وحسن وحسين
حتى دخل فادنى عليا وفاطمة وأجلسهما بين يديه وأجلس حسنا وحسينا كل واحد منهما
على فخذه ثم لف عليهم ثوبه وأنا مستدبرهم ثم تلا هذه الآية وقال اللهم هؤلاء أهل بيتي
اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا قلت يا رسول الله وأنا من أهلك قال وأنت من
أهلي قال واثلة انه لارجى ما أرجوه وله طرق في مسند أحمد وأخرج ابن أبي شيبة
وأحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه
عن انس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يمر بباب فاطمة اذا خرج الى صلاة
الفجر يقول الصلاة يا اهل البيت الصلاة انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم
تطهيرا واخرج مسلم عن زيد بن ارقم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال اذكركم
الله في اهل بيتي فقيل لزيد ومن اهل بيته اليس نساؤه من اهل بيته قال نساؤه من اهل بيته
ولكن اهل بيته من حرم عليهم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس
واخرج الحكيم الترمذي والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسما
فذلك قوله واصحاب اليمين واصحاب الشمال فانا من اصحاب اليمين وانا خير اصحاب اليمين ثم
جعل القسمين اثلاثا فجعلني في خيرها ثلثا فذلك قوله واصحاب الميمنة واصحاب المشأمة
والسابقون السابقون فانا من السابقين وانا خير السابقين ثم جعل الاثلاث قبائل فجعلني
في خيرها قبيلة وذلك قوله وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم
وانا اتقى ولد آدم واكرمهم على الله ولا فخر ثم جعل القبائل بيوتا فجعلني في خيرها بيتا فذلك
قوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا فانا واهل بيتي مطهرون
من الذنوب واخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابي الحمراء قال رابطت المدينة سبعة اشهر
على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
اذا طلع الفجر جاء الى باب علي وفاطمة فقال الصلاة الصلاة انما يريد الله الآية وفي اسناده
ابو داود الاعمى وهو وضاع كذاب وفي الباب احاديث وآثار وقد ذكرناها هنا ما يصلح

للجنس دون ما لا يعقل وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات ولعلي وفاطمة والحسن والحسين أما الزوجات فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا ولكونهن الساكنات في بيوته صلى الله عليه وآله وسلم النازلات في منازله ويعضد ذلك ما تقدم عن ابن عباس وغيره وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب ويؤيد ذلك ما ذكرنا من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول فمن جعل الآية خاصة بأحد الفريقين فقد أعمل بعض ما يجب إعماله وأهمل ما لا يجوز إهماله وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين منهم القرطبي وابن كثير وغيرهما وقال جماعة هم بنو هاشم واستدلوا بما تقدم من حديث ابن عباس و بقول زيد ابن أرقم المتقدم حيث قال ولكن آله من حرم الصدقة بعده آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس فهؤلاء ذهبوا الى ان المراد بالبيت بيت النسب (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) اي اذكرن موضع النعمة اذ صيركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة او اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله او اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها او اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة قال القرطبي قال أهل التأويل آيات الله هي القرآن والحكمة السنة وقال مقاتل المراد بالآيات والحكمة أمره ونهيه في القرآن وقيل ان القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد وصدق النبوة وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع وقال قتادة في الآية القرآن والسنة يمتن بذلك عليهن واخرج ابن سعد عن ابي امامة بن سهل في الآية قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصلي في بيوت ازواجه النوافل بالليل والنهار (ان الله كان لطيفا) بأوليائه (خبيرا) بجميع خلقه وجميع ما يصدر منهم من خير وشر وطاعة ومعصية فهو يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته (ان المسلمين والمسلمات) بدأ سبحانه بذكر الاسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين والانقياد له مع العمل كما ثبت في الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سأله جبريل عن الاسلام قال هو ان تشهد ان لا اله الا الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان ثم عطف على المسلمين المسلمات تشريفا لهن بالذكر وهكذا فيما بعد وان كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين ونحو ذلك فالتذكير انما هو لتغليب الذكور على الاناث

وهكذا قوله ههنا كل شيء هالك الا وجهه أي الا اياه وقد ثبت في الصحيح من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد ألا كل شيء ما خلا الله باطل * وقال مجاهد والثوري في قوله كل شيء هالك الا وجهه أي الا ما أريد به وجهه وحكاه البخاري في صحيحه كالمقرر له قال ابن جرير ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر

استغفر الله ذنبا لست محصيه * رب العباد اليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافي القول الاول فان هذا اخبار عن كل الاعمال بأنها باطلة الا ما أريد به وجه الله تعالى من الاعمال الصالحة المطابقة للشريعة والقول الاول مقتضاه ان كل الذوات فانية وزائلة الا ذاته تعالى وتقدس فانه الاول الآخر الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء قال أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر والاعتبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بكر حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا عمر بن سليم الباهلي حدثنا أبو الوليد قال كان ابن عمر اذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول أين أهلك ثم يرجع الى نفسه فيقول كل شيء هالك الا وجهه وقوله له الحكم أي الملك والتصرف ولا معقب لحكمه واليه ترجعون أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ان خيرا فخير وان شرا فشر آخر تفسير سورة القصص ولله الحمد والمنة

(تفسير سورة العنكبوت وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون) أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة وقوله تعالى أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون استفهام انكار ومعناه ان الله سبحانه وتعالى لا بد ان يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الايمان كما جاء في الحديث الصحيح أشد الناس بلاء الانبياء ثم الصالحون ثم الامثل فالامثل يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة زيد له في البلاء وهذه الآية كقوله أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ومثلها في سورة براءة وقال في البقرة أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم

البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ولهذا قال ههنا ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أي الذين صدقوا في دعوى الايمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله الا لنعلم الا لنرى وذلك لان الرؤية انما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية فانه يتعلق بالمعدوم والموجود وقوله تعالى أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا ساء ما يحكمون

أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الايمان

الاناث كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك ثم ذكر (والمؤمنين والمؤمنات) وهم من يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والقانتين والقانتات) القانت المطيع العابد وكذا القانتة وقيل المداومين على العبادة والطاعة (والصادقين والصادقات) هم من يتكلم بالصدق ويتجنب الكذب ويفي بما عوهد عليه (والصابرين والصابرات) هم من يصبر عن الشهوات وعلى مشاق التكليف (والخاشعين والخاشعات) أي المتواضعين لله الخائفين منه الخاضعين في عباداتهم لله (والمتصدقين والمتصدقات) هم من تصدق من ماله بما أوجبه الله عليه وقيل ذلك أعم من صدقة الفرض والنفل (والصائمين والصائمات) قيل ذلك يختص بالفرض وقيل هو أعم (والحافظين فروجهم والحافظات) فروجهن عن الحرام بالتعفف والتنزه والاقتصار على الحلال (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) الله كثيرا هما من يذكر الله على جميع أحواله وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان والخبر لجميع ما تقدم هو قوله (أعد الله لهم مغفرة) لذنوبهم التي أذنبوها (وأجرا عظيما) على طاعاتهم التي فعلوها من الاسلام والايمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر ووصف الاجر بالعظيم للدلالة على انه بالغ غاية المبالغ ولا شئ أعظم من أجر هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع ولا ينفد اللهم اغفر ذنوبنا وأعظم أجورنا وقد أخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما تذكر الرجال فلم يرعني منه ذات يوم الا نداؤه على المنبر وهو يقول ان الله يقول ان المسلمين والمسلمات الآية وأخرج عبد بن حميد والترمذي وحسنه والطبراني عن أم عمارة الانصارية انها أتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ما أرى كل شئ الا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشئ فنزلت هذه الآية وعن ابن عباس قال قالت النساء يا رسول الله ما باله يذكر المؤمنين ولا يذكر المؤمنات فنزلت هذه الآية أخرجه الطبراني وابن جرير وابن مردويه باسناد قال السيوطي حسن (وما كان) أي ما صح ولا استقام (لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) قال القرطبي لفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناها الحظر والمنع من الشئ والاخبار بانه لا يحل شرعا

انهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان فان من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ولهذا قال أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا أي يفوتونا ساء ما يحكمون أي بئس ما يظنون (من كان يرجوا لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون) يقول تعالى من كان يرجو لقاء الله أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل فان الله سيحقق له رجاءه ويوفيه عمله كاملا موفرا فان ذلك كائن لا محالة لانه سميع الدعاء بصير بكل الكائنات ولهذا قال تعالى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم وقوله تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه أي من عمل صالحا فانما يعود نفع عمله على نفسه فان الله تعالى غني عن أفعال العباد ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيأ ولهذا قال تعالى ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين قال الحسن البصري ان الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف ثم أخبر تعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم من بره واحسانه بهم يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو انه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم باحسن الذي كانوا يعملون فيقبل القليل من الحسنات ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ويجزي على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا

عظيما وقال فيهما والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) يقول تعالى آمرا عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان فالوالد بالإنفاق والوالدة بالإشفاق ولهذا قال تعالى وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما في مقابلة إحسانهما المتقدم قال وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياهما فلا تطعهما في ذلك فإن مرجعكم إلي يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب أي حبا دينيا ولهذا قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال نزلت في أربع آيات فذكر قصة وقال قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما الآية وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي أيضا وقال الترمذي حسن صحيح (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) يقول تعالى مخبرا عن صفات قوم من المكذبين من الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ولم يثبت الإيمان في قلوبهم بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة

أن يكون وقد يكون لما يمتنع عقلا كقوله ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ومعنى الآية أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرا أن يختار من أمر نفسه ما شاء بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له ويجعل رأيه تابعا لرأيه وجمع الضمير في قوله لهم ومن أمرهم لأن مؤمنا ومؤمنة وقعا في سياق النفي فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة قرئ أن يكون بالتحتية لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله لهم مع كون التأنيث غير حقيقي وقرئ بالفوقية لكونه مسندا إلى الخيرة وهي مؤنثة لفظا والخيرة مصدر بمعنى الاختيار ودل ذلك على أن الأمر للوجوب وقرئ بسكون التحتية وتحريكها ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره فقال (ومن يعص الله ورسوله) في أمر من الأمور ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء (فقد ضل ضلالا مبينا) أي ضل عن طريق الحق ضلالا ظاهرا واضحا لا يخفى فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطأ وفسق عن ابن عباس قال إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها قالت لست بناكحته قال بلى فانكحيه قالت يا رسول الله أؤامر نفسي فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسوله قالت قد رضيته لي يا رسول الله منكحا قال نعم قالت إذن لا أعصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أنكحته نفسي أخرجه ابن جرير وابن مردويه وعنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزينب إني أريد أن أزوجك زيد بن حارثة فإني قد رضيته لك قالت يا رسول الله لكني لا أرضاه لنفسي وأنا أيم قومي وبنت عمتك فلم أكن لأفعل فنزلت هذه الآية وما كان لمؤمن يعني زيدا ولا مؤمنة يعني زينب إذا قضى الله ورسوله أمرا يعني النكاح في هذا الموضع أن يكون لهم الخيرة من أمرهم يقول ليس لهم الخيرة من أمرهم خلاف ما أمر الله به قالت قد أطعتك فاصنع ما شئت فزوجها زيدا ودخل عليها أخرجه ابن مردويه وعن ابن زيد قال نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت أول امرأة هاجرت فوهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فزوجها زيد بن حارثة فسخطت هي وأخوها وقالا إنما أردنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فزوجنا عبده وكان تزوج زيد بزينب قبل الهجرة بنحو ثمان سنين وبعدما طلق زيد زينب زوجه

صلى

في الدنيا اعتقد وأن هذا من نقمة الله تعالى ... لام ولهذا قال تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال ابن عباس يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله وكذا قال غيره من علماء السلف وهذه الآية كقوله تعالى ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه إلى قوله ذلك هو الضلال البعيد ثم قال عز وجل ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم أي إخوانكم في الدين كما قال تعالى الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين وقال تعالى فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين وقال تعالى مخبرا عنهم ههنا ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم قال الله تعالى أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة وقوله تعالى وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ليميز هؤلاء من هؤلاء من يطيع الله في الضراء والسراء ومن يطيعه في حظ نفسه كما قال تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم وقال تعالى بعد وقعة أحد التي كان فيها ما كان من الاختبار والامتحان ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب الآية (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) يقول تعالى مخبرا عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم أي وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا كما يقول القائل افعل هذا وخطيئتك في رقبتي قال الله تعالى تكذيبا لهم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون أي فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى وقال تعالى

صلى الله عليه وآله وسلم أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فزوجها من زيد وكان تزوجه قبلها أم أيمن وولدت له أسامة وكانت ولادته بعد البعثة بثلاث سنين وقيل بخمس وفي شرح المواهب أن أم أيمن هي بركة الحبشية بنت ثعلبة أعتقها عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقيل بل أعتقها هو صلى الله عليه وآله وسلم وقيل كانت لأمه أسلمت قديما وهاجرت الهجرتين ماتت بعده صلى الله عليه وآله وسلم بخمسة أشهر وقيل بستة ودلت الآية على لزوم اتباع قضاء الكتاب والسنة وذم التقليد والرأي وعدم خيرة الأمر في مقابلة النص من الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان السبب خاصا فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب * لما زوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زيد بن حارثة زينب بنت جحش كما مر أنزل الله سبحانه (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك) هو زيد بن حارثة أنعم الله عليه بالإسلام وأنعم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن أعتقه من الرق وكان من سبي الجاهلية اشتراه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجاهلية وأعتقه وتبناه وسيأتي في سبب نزول الآية ما يوضح المراد منها قال القرطبي وقد اختلف في تأويل هذه الآية فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقع منه استحسان لزينب بنت جحش وهي في عصمة زيد وكان حريصا على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها وشكا منها غلظة القول وعصيان الأمر والأذى باللسان والتعظم بالشرف قال له اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك زينب وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها وهذا الذي كان يخفي في نفسه ولكنه فعل ما يجب عليه من الأمر بالمعروف قال علماؤنا رحمهم الله وهذا القول أحسن ما قيل في هذه الآية وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي أبي بكر بن العلاء القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم انتهى ما قاله القرطبي ملخصا (واتق الله) في أمرها ولا تعجل بطلاقها (وتخفي) الواو للحال أي والحال أنك تخفي (في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها إن طلقها زيد وقيل حبها (وتخشى الناس) أي تستحييهم أو تخاف من تعييرهم أن يقولوا أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجها (والله أحق أن تخشاه) في كل حال وتخاف منه وتستحييه ولا تأمر زيدا

ولا يسئل حميم حميما يبصرونهم وقوله تعالى وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم اخبار عن الدعاة الى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيأ كما قال تعالى ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الآية وفي الصحيح من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من اتبعه الى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيأ ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه الى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيأ وفي الصحيح ما قتلت نفس ظلما الا كان على ابن آدم الاول كفل من دمها لانه أول من سن القتل وقوله تعالى وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون أي يكذبون ويختلقون من البهتان وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا صدقة حدثنا عثمان بن حفص ابن أبي العاتكة حدثني سليمان بن حبيب المحاربي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغ ما أرسل به ثم قال اياكم والظلم فان الله يعزم يوم القيامة فيقول وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ثم ينادي مناد فيقول أين فلان ابن فلان فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس اليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرب عزوجل ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن فيقول الرحمن اقضوا عن عبدي فيقولون كيف نقضي عنه فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقي من أصحاب الظلامات فيقول اقضوا عن عبدي فيقولون لم يبق له حسنة فيقول من سيآتهم فاحملوها عليه ثم نزع النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية الكريمة وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن أبي الحواري حدثنا أبو بشر الحذاء عن أبي حمزة الثمالي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معاذ ان المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه وعن فتات الطينة باصبعه فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه

بامساكها وكره حبه بعد ان أعلمك الله أنها ستكون زوجتك فعاتبه الله على هذا قال بعضهم وما ذكروه في تفسير هذه الآية من وقوع محبتها في قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وارادته طلاق زيد لها فيه أعظم الحرج وما لا يليق بعصمته صلى الله عليه وآله وسلم واقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفضله وكيف يقال رآها فأعجبته وهي بنت عمته ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كانت النساء يحتجبن منه صلى الله عليه وآله وسلم وهو زوجها لزيد ولا يشك في تنزيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ان يأمر زيدا بامساكها وهو يحب تطليقه اياها قال وأصح ما في هذا الباب ما قال علي بن الحسين ان الله قد أعلمه انها ستكون من أزواجه وان زيدا سيطلقها فلما جاء زيد وقال اني أريد أن أطلقها قال له أمسك عليك زوجك فعاتبه الله تعالى وقال لم قلت أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك انها ستكون زوجتك قال الخطيب وهذا هو الاولى والاليق بحال الانبياء وهو مطابق للتلاوة لان الله تعالى أعلم انه يبدي ويظهر ما أخفاه ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى زوجناكها فلو كان الذي أضمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محبتها أو ارادة طلاقها لكان يظهر ذلك لانه لا يجوز ان يخبر الله انه يظهره ثم يكتمه فلا يظهره فدل على انه انما عوتب على اخفاء ما أعلمه الله من انها ستكون زوجته وانما أخفى ذلك استحياء ان يقول لزيد ان التي تحتك وفي نكاحك ستكون زوجتي قال الكرخي وهذا القول هو المنصور المعول عليه عند الجمهور وقال البغوي وهذا هو الاولى وان كان الآخر وهو انه أخفى محبتها أو نكاحها لو طلقها لا يقدح في حال الانبياء لان العبد غير ملوم على ما يقع في قلبه من مثل هذه الاشياء ما لم يقصد فيه المأثم لان الود وميل النفس من طبع البشر انتهى ولهذا قال ابن عباس كان في قلبه حبها وقال قتادة ود أنه لو طلقها زيد قال الخازن وهذا قول حسن مرضي وكم من شئ يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاع الناس عليه وهو في نفسه مباح متسع وحلال مطلق لا مقال فيه ولا عيب عند الله وربما كان الدخول في ذلك المباح سلما الى حصول واجبات يعظم أثرها في الدين وهو انما تحمل طلاق زيد لها وتزوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم اياها لازالة حرمة التبني وابطال سنته كما قال تعالى لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم (فلما قضى زيد منها وطرا) قضاء الوطر في اللغة بلوغ منتهى ما في

النفس

فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان و ... أصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين)

هذه تسلية (١) من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ... السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم الى الله تعالى ليلا ونهارا وسرا وجهارا ومع هذا ما زادهم ذلك الا فرارا عن الحق واعراضا عنه وتكذيبا له وما آمن معه منهم الا قليل ولهذا قال تعالى فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والانذار فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ولا تحزن عليهم فان الله (٢٨٣) يهدي من يشاء ويضل من يشاء وبيده الامر واليه ترجع الامور ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية الآية واعلم ان الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين* قال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن ماهك عن ابن عباس قال بعث نوح وهو لاربعين سنة ولبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما وعاش بعد الطوفان ستين عاما حتى كثر الناس وفشوا وقال قتادة يقال ان عمره كله ألف سنة الا خمسين عاما لبث فيهم قبل ان يدعوهم ثلثمائة سنة ودعاهم ثلثمائة سنة ولبث بعد الطوفان ثلثمائة سنة وخمسين عاما وهذا قول غريب وظاهر السياق من الآية انه مكث في قومه يدعوهم الى الله ألف سنة الا خمسين عاما وقال عون بن أبي شداد ان الله تعالى أرسل نوحا الى قومه وهو ابن خمسين وثلثمائة سنة فدعاهم ألف سنة الا خمسين عاما ثم عاش بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة وهذا أيضا غريب رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقول ابن عباس أقرب والله أعلم وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال قال لي ابن عمر كم لبث نوح في قومه قال قلت ألف سنة الا خمسين عاما قال فان

النفس من الشيء يقال قضى وطرا منه اذا بلغ ما أراد من حاجته فيه والمراد هنا انه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه وقيل المراد به الطلاق لان الرجل انما يطلق امرأته اذا لم يبق له فيها حاجة وقال المبرد الوطر الشهوة والمحبة وقال أبو عبيدة الوطر الارب والحاجة قال الامام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي كان يقال زيد بن محمد حتى نزل ادعوهم لآبائهم فقال انا زيد بن حارثة وحرم عليه أن يقول أنا زيد بن محمد فلما نزع عنه هذا الشرف وهذا الفخر منه وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يخص بها أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو انه سماه في القرآن أي في هذه الآية فذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم حتى صار اسمه قرآنا يتلى في المحاريب ونوه به غاية التنويه فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألا ترى الى قول أبي بن كعب حين قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله أمرني ان أقرأ عليك سورة كذا فبكى وقال أذكرت هنالك وكان بكاؤه من الفرح حيث ان الله تعالى ذكره فكيف بمن صار اسمه قرآنا يتلى مخلدا لا يبلى يتلوه أهل الدنيا اذا قرؤا القرآن وأهل الجنة كذلك أبدا لا يزال على ألسنة المؤمنين كما لم يزل مذكورا على الخصوص عند رب العالمين اذ القرآن كلام الله القديم وهو باق لا يبيد فاسم زيد في الصحف المكرمة المرفوعة المطهرة يذكره في تلاوتهم السفرة الكرام البررة وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين الا النبي من الانبياء ولزيد بن حارثة تعويضا من الله له مما نزع منه وزاد في الآية أن قال واذ تقول للذي أنعم الله عليه أي بالايمان فدل على انه من أهل الجنة علم ذلك قبل أن يموت وهذه فضيلة أخرى رضي الله تعالى عنه انتهى (زوجناكها) وقرئ زوجتكها يعني ولم نحوجك الى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشريفا لك ولها فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير اذن ولا عقد ولا تقدير صداق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته وهذا من خصوصياته صلى الله عليه وآله وسلم التي لا يشاركه فيها أحد باجماع المسلمين وكان تزوجه بزينب سنة خمس من الهجرة وقيل سنة ثلاث وهي أول من مات بعده من زوجاته الشريفات المطهرات ماتت بعده بعشر سنين عن ثلاث وخمسين سنة وقيل المراد به الامر له بأن يتزوجها والاول أولى وبه جاءت الاخبار الصحيحة وقد أخرج أحمد والبخاري والترمذي وغيرهم عن أنس قال جاء زيد بن حارثة يشكو زينب الى رسول

(١) في بعض نسخ ابن كثير زيادة هنا نصها ذكر سبحانه وتعالى ابتلاء نوح بقومه ألف سنة الا خمسين عاما وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه فابتلاهم الله بالغرق ثم بعده بالحرق ثم ذكر ابتلاء ابراهيم بقومه وما ردوا عليه وابتلاءهم بطاعته ومتابعته ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه وابتلاءهم به وما صار اليه أمره وأمرهم ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به وما انتهت اليه حاله وحالهم ثم ذكر ما ابتلى به عادا وثمود وقارون وفرعون وهامان وجنودهما من الايمان به وعبادته وحده لا شريك له ثم ابتلاءهم بأنواع العقوبات ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد أعظم المرسلين صلى الله عليه وسلم بأنواع الكفار من المشركين وأهل النفاق وامره ان لا يجادل أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن اه

الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم الى يومك هذا وقوله تعالى فأنجيناه وأصحاب السفينة أى الذين آمنوا بنوح عليه السلام وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى سورة هود وتقدم تفسيره بما أغنى عن اعادته وقوله تعالى وجعلناها آية للعالمين أى وجعلنا تلك السفينة باقية اما عينها كما قاله قتادة انها بقيت الى أول الاسلام على جبل الجودى أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان كما قال تعالى وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون الى قوله ومتاعا الى حين وقال (٢٨٤) تعالى انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية وقال ههنا فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين وهذا من باب التدريج من الشخص الى الجنس كقوله تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين أى وجعلنا نوعها رجوما فان التى يرمى بها ليست هى زينة للسماء وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ولهذا نظائر كثيرة وقال ابن جرير لو قيل ان الضمير فى قوله وجعلناها عائد الى العقوبة لكان وجها والله أعلم (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله ابراهيم امام الحنفاء انه دعا قومه الى عبادة الله وحده لا شريك له والاخلاص له فى التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده فى الشكر فانه المشكور على النعم لا مسدى لها غيره فقال لقومه اعبدوا الله واتقوه أى أخلصوا له العبادة والخوف ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون أى اذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير فى الدنيا والآخرة واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة ثم أخبر تعالى ان الاصنام التى تعبدونها والاوثان لا تضر ولا تنفع وانما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة وانما هى مخلوقة مثلكم هكذا رواه العوفى عن ابن عباس وبه قال مجاهد والسدى وروى الوالبى عن ابن عباس وتصنعون افكا أى تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد فى رواية وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم واختاره ابن جرير رحمه الله وهى لا تملك لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق وهذا أبلغ فى الحصر كقوله اياك نعبد واياك نستعين رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ولهذا قال فابتغوا أى فاطلبوا عند الله

الله صلى الله عليه وآله وسلم يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول اتق الله وأمسك عليك زوجك فنزلت وتخفى فى نفسك ما الله مبديه فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها ذبح شاة وأطعم الناس خبزا ولحما حتى تركوه فكانت تفتخر على أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم تقول زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات وكانت تقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جدى وجدك واحد وليس من نسائك من هى كذلك غيرى وقد أنكحنيك الله والسفير فى ذلك جبريل قاله الخازن وقال عمر وابن مسعود ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آية هى أشد عليه من هذه الآية وقال أنس فلو كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كاتما شيئا لكتم هذه الآية وكذا روى عن عائشة (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) أى ضيق ومشقة علة للتزويج وهو دليل على ان حكمه وحكم الأمة واحد الا ما خصه الدليل (فى أزواج أدعيائهم) أى فى التزوج بأزواج من يجعلونه ابنا كما كانت تفعله العرب فانهم كانوا يتبنون من يريدون وكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد تبنى زيد بن حارثة وكان يقال له زيد بن محمد حتى نزل قوله سبحانه أدعوهم لآبائهم وكانت العرب تعتقد انه يحرم عليهم نساء من تبنوه كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة والأدعياء جمع دعى وهو الذى يدعى ابنا من غير ان يكون ابنا على الحقيقة فأخبرهم الله ان نساء الادعياء حلال لهم (اذا قضوا منهن وطرا) بخلاف ابن الصلب فان امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها (وكان أمر الله مفعولا) أى قضاؤه فى أمر زينب ان يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قضاء ماضيا موجودا فى الخارج لا محالة وعن عائشة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما تزوج زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل الله أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله يعنى أعدل أخرجه الترمذى وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وغيرهم وأخرج أحمد ومسلم والنسائى وغيرهم عن أنس قال لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لزيد اذهب فاذكرها على فانطلق قال فلما رأيتها عظمت فى صدرى فقلت يا زينب أبشرى أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكرك قالت ما أنا

الرزق أي لا عند غيره فان غيره لا يملك شيأ واعبدوه واشكروا له أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم اليه ترجعون أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله وقوله تعالى وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل وما على الرسول الا البلاغ المبين يعني انما على الرسول ان يبلغكم ما أمره الله تعالى به من الرسالة والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فاحرصوا لانفسكم ان تكونوا من السعداء وقال قتادة في قوله وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم قال يعزي نبيه صلى الله عليه وسلم وهذا من قتادة يقتضي انه قد (٢٨٥) انقطع الكلام الاول واعترض بهذا الى قوله فما كان جواب قومه وهكذا نص على ذلك ابن جرير أيضا والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام ابراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لاثبات المعاد لقوله بعد هذا كله فما كان جواب قومه والله أعلم (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم) يقول تعالى مخبرا عن الخليل عليه السلام انه أرشدهم الى اثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله اياهم بعد ان لم يكونوا شيأ مذكورا ثم وجدوا وصاروا أناسا سامعين مبصرين فالذي بدأ هذا قادر على اعادته فانه سهل عليه يسير لديه ثم أرشدهم الى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الاشياء السموات وما فيهما من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات والارضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبراري وقفار وأشجار وأنهار وثمار وبحار كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها وعلى وجود صانعها الفاعل المختار الذي يقول للشئ كن فيكون ولهذا قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير كقوله تعالى وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ثم قال تعالى قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة أي يوم القيامة ان الله على كل شئ قدير وهذا المقام شبيه بقوله تعالى سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق وكقوله تعالى أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون أم خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون وقوله تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم

ما أنا بصانعة شيأ حتى أوامر ربي فقامت الى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودخل عليها بغير اذن ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أطعمنا الخبز واللحم فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم واتبعته فجعل يتتبع حجر نسائه يسلم عليهن ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك فما أدري أنا أخبرته ان القوم قد خرجوا أو أخبر فانطلق حتى دخل البيت فذهبت ادخل معه فالقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ووعظ القوم بما وعظوا ولا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم الآية ثم بين سبحانه انه لم يكن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حرج في هذا النكاح فقال (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له) أي فيما أحل الله له وقدره وقضاه يقال فرض له كذا أي قدر له (سنة الله) أي سن الله ذلك سنة أو اسم وضع موضع المصدر قاله الزمخشري أو مصدر كصنع الله ووعد الله (في الذين خلوا من قبل) أي ان هذا هو السنن الاقدم في الانبياء والامم الماضية ان ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره توسعة عليهم فكان لهم الحرائر والسراري عن كعب القرظي قال يعني يتزوج من النساء ما شاء هذا فريضة وكان من قبل من الانبياء هذا سنتهم قد كان لسليمان بن داود ألف امرأة منهم ثلثمائة سرية وكان لداود مائة امرأة وقال ابن جريج الذين خلوا هم داود والمرأة التي نكح وزوجها واسمها اليسية فذلك سنة في محمد وزينب (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا وحكما مبتوتا وهو كظل ظليل وليل أليل وروض أريض في قصد التأكيد والقضاء الارادة الازلية المتعلقة بالاشياء على ما هي عليه والقدر عبارة عن ايجاده اياها على تقدير مخصوص معين لكن كل منهما يستعمل بمعنى الآخر فالمراد ايجاد ما تعلقت به الارادة قاله الشهاب ثم ذكر سبحانه الانبياء الماضين وأثنى عليهم فقال (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به الى عباده وخشيته في كل فعل وقول (ولا يخشون أحدا الا الله) أي سواه ولا يبالون بقول الناس ولا تعييرهم فيما أحل الله لهم بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه (وكفى بالله حسيبا) حاضرا في كل مكان حافظا الاعمال خلقه يكفي عباده كل ما يخافونه أو محاسبا لهم في كل شئ ولما تزوج صلى الله عليه وآله وسلم زينب قال الناس امرأة ابنه فأنزل الله (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أي ليس هو

ما يريد لا معقب لحكمه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لأنه له الخلق والأمر مهما فعل فعدل لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة كما ورد في الحديث الذي رواه أهل السنن ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولهذا قال تعالى يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون أي ترجعون يوم القيامة وقوله تعالى وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء أي لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شيء خائف منه فقير اليه وهو الغني عما سواه وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير والذين كفروا بآيات الله ولقائه أي جحدوها وكفروا بالمعاد أولئك يئسوا من رحمتي أي لا نصيب لهم فيها وأولئك لهم عذاب أليم أي موجع شديد في الدنيا والآخرة (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) يقول تعالى مخبرا عن قوم ابراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل انهم ما كان لهم جواب بعد مقالة ابراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه وذلك لأنه قام عليهم البرهان وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا الى استعمال جاههم وقوة ملكهم فقالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب الى عنان السماء ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا الى ابراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وخرج منها سالما بعد ما مكث فيها أياما ولهذا وأمثاله جعله الله للناس اماما فانه بذل نفسه للرحمن وجسده للنيران وسخا بولده للقربان وجعل ماله للضيفان ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان وقوله تعالى فأنجاه الله من النار أي سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان انما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها في الدنيا صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض في الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على انه مفعول له وأما على قراءة الرفع فمعناه انما اتخاذكم هذا يحصل لكم المودة في الدنيا فقط ثم يوم القيامة ينعكس هذا

الله عليه وآله وسلم بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته ولا هو أب لأحد لم يلده قال الواحدي قال المفسرون لم يكن أبا أحد لم يلده وقد ولد له من الذكور ابراهيم والقاسم والطيب والمطهر قال القرطبي ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلا قال وأما الحسن والحسين فكانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له قال النسفي وكل رسول أبو أمته فيما يرجع الى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء وزيد واحد من رجالكم الذين ليسوا أولاده حقيقة فكان حكمه كحكمهم والتبني من باب الاختصاص والتقريب لا غير (ولكن رسول الله) قال الأخفش والفراء ولكن كان رسول الله وأجاز الرفع وكذا قرأ ابن أبي عبلة بالرفع في رسول وفي خاتم على معنى ولكن هو رسول الله (وخاتم النبيين) وقرأ الجمهور بتخفيف لكن ونصب رسول وخاتم ووجه النصب على خبرية كان المقدرة كما تقدم ويجوز أن يكون بالعطف على أبا أحد وقرئ بتشديد لكن ونصب رسول على أنه اسمها وخبرها محذوف أي ولكن رسول الله هو وقرأ الجمهور وخاتم بكسر التاء وقرئ بفتحها ومعنى الأولى انه ختمهم أي جاء آخرهم ومعنى الثانية انه صار كالخاتم لهم الذي يختمون به ويتزينون بكونه منهم وقيل كسر التاء وفتحها لغتان قال أبو عبيدة الوجه الكسر لأن التأويل انه ختمهم فهو خاتمهم وانه قال أنا خاتم النبيين وخاتم الشيء آخره ومنه قولهم خاتمه المسك وقال الحسن الخاتم هو الذي ختم به والمعنى ختم الله به النبوة فلا نبوة بعده ولا معه قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا يكون بعده نبيا وعنه ان الله لما حكم ان لا نبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شيء عليما) قد أحاط علمه بكل شيء ومن جملة معلوماته هذه الأحكام التي ذكرت هنا أخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى دارا فأتمها الا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل ابتنى دارا فأكملها وأحسنها الا موضع لبنة فكان من دخلها فنظر اليها قال ما أحسنها الا موضع اللبنة فأنا موضع اللبنة ختم بي الأنبياء وأخرج الشيخان من

حديثه

حديث أبى هريرة نحوه وأخرج أحمد والترمذى وصححه من حديث أبى بن كعب نحوه أيضا (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أمر سبحانه عباده بان يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير وكل ما هو ذكر لله تعالى قال مجاهد هو أن لا ينساه أبدا وقال الكلبى ويقال ذكرا كثيرا بالصلوات الخمس وقال مقاتل هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال وقال ابن عباس فى الآية لم يفرض على عباده فريضة الا جعل لها أجلا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فان الله لم يجعل له حدا ينتهى اليه ولم يعذر أحدا فى تركه الا مغلوبا على عقله فقال اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم بالليل والنهار فى البر والبحر فى السفر والحضر فى الغنى والفقر فى الصحة والسقم فى السر والعلانية وعلى كل حال وقد ورد فى فضل الذكر والاستكثار منه أحاديث كثيرة وقد صنف فى الاذكار المتعلقة بالليل والنهار جماعة من الائمة كالنسائى والنووى والجزرى وغيرهم وقد نطقت الآيات القرآنية بفضل الذاكرين وفضيلة الذكر ولذكر الله أكبر وقد ورد انه أفضل من الجهاد كما فى حديث أبى سعيد الخدرى عند أحمد والترمذى والبيهقى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل أى العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة قال الذاكرون الله كثيرا قلت يا رسول الله ومن الغازين فى سبيل الله قال لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى يتكسر ويختضب دما لكان الذاكرون أفضل منه درجة وأخرج أحمد عن أبى الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من اعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا أعداءكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما هو يا رسول الله قال ذكر الله عز وجل وأخرجه أيضا الترمذى وابن ماجه وفى صحيح مسلم وغيره من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبق المفردون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم وصححه والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذكروا الله حتى يقول المنافقون انكم مراؤن (وسبحوه بكرة وأصيلا) أى نزهوه عما لا يليق به فى وقت البكرة

الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضة وشنآنا ثم يكفر بعضكم ببعض أى تجاحدون ما كان بينكم ويلعن بعضكم بعضا أى يلعن الاتباع المتبوعين والمتبوعون الاتباع كلما دخلت أمة لعنت أختها وقال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ههنا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار الآية أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة الى النار وما لكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين فأما المؤمنون فبخلاف ذلك قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن اسمعيل الأحمسى حدثنا أبو عاصم الثقفى الربيع بن سليمان بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومى عن أبيه عن جده عن أم هانئ أخت على بن أبى طالب قالت قال لى النبى صلى الله عليه وسلم أخبرك ان الله تعالى يجمع الاولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفين قالت الله ورسوله أعلم ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبون قال أبو عاصم يرفعون رؤسهم ثم ينادى يا أهل التوحيد ثم ينادى الثالثة يا أهل التوحيد ان الله قد عفا عنكم قال فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلامات الدنيا يعنى المظالم ثم ينادى يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب (فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى انه هو العزيز الحكيم ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) يقول تعالى مخبرا عن ابراهيم انه آمن له لوط يقال انه ابن أخى ابراهيم يقولون هو لوط بن هاران بن آزر يعنى ولم يؤمن به من قومه سواه وسارة امرأة الخليل لكن يقال كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد فى الصحيح ان ابراهيم حين مر على ذلك الجبار فسأل ابراهيم عن سارة ما هى منه فقال أختى ثم جاء اليها فقال لها انى قد قلت له انك أختى فلا تكذبينى فانه ليس على وجه الارض مؤمن غيرك وغيرى فأنت أختى فى الدين وكأن المراد من هذا والله أعلم انه ليس على وجه الارض زوجان على الاسلام غيرى وغيرك فان لوطا عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه الى بلاد الشام ثم أرسل فى حياة الخليل الى أهل سدوم واقليمها وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتى وقوله تعالى وقال انى مهاجر الى ربى يحتمل عود الضمير فى قوله وقال انى مهاجر على لوط لانه هو أقرب المذكورين ويحتمل عوده الى ابراهيم قاله ابن عباس والضحاك وهو المكنى

عنه بقوله فآمن له لوط أي من قومه ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك ولهذا
قال إنه هو العزيز الحكيم أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين به الحكيم في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية وقال قتادة
هاجرا جميعا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام قال وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال إنها ستكون هجرة بعد
هجرة ينحاز أهل الأرض إلى مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضوهم وتقذرهم روح الله عز وجل
وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت (٢٦٨) معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل ما سقط منهم وقد أسند الإمام

أحمد هذا الحديث فرواه مطولا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن شهر بن حوشب قال لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأخبرت بمقام يقومه نوف البكالي فجئته إذ جاء رجل فانتبذ الناس عليه خميصة وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنها ستكون هجرة بعد هجرة فيحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها فتلفظهم أرضوهم تقذرهم نفس الرحمن تحشرهم النار مع القردة والخنازير فتبيت معهم إذا باتوا وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل من تخلف منهم قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج منهم قرن قطع كلما خرج منهم قرن قطع حتى عدها زيادة على عشرين مرة كلما خرج منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم

ووقت الأصيل وهو آخر النهار وآخره وتخصيصهما بالذكر ليس لقصر التسبيح عليهما
وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله اذكروا تنبيها على مزيد شرفه ورفعة
ثوابه على غيره من الأذكار وقيل المراد بالتسبيح بكرة صلاة الفجر وبالتسبيح أصيلا صلاة
المغرب وقال قتادة أي صلوا لله صلاة الغداة وصلاة العصر وقال الكلبي أما بكرة فصلاة
الفجر وأما أصيلا فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء * قال المبرد والأصيل العشي
وجمعه أصائل وقد ورد في فضل التسبيح بخصوصه أحاديث ثابتة في صحيح البخاري وغيره منها
حديث أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قال في يوم مائة مرة
سبحان الله وبحمده حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر أخرجه أحمد ومسلم والترمذي
وغيرهم عن سعد بن أبي وقاص قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال
أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله رجل كيف يكسب أحدنا ألف حسنة
قال يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة وقيل معنى
سبحوه قولوا سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله
العلي العظيم فعبر بالتسبيح عن أخواته والمراد بقوله كثيرا كما أشار إليه صاحب الكشاف يقولها
الطاهر والجنب الخالص البحث (هو الذي يصلي عليكم وملائكته) الصلاة من الله على
العباد رحمته لهم وبركته عليهم ومن الملائكة الدعاء لهم والاستغفار كما قال ويستغفرون
للذين آمنوا قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان المعنى يأمر ملائكته بالاستغفار
لكم والجملة مستأنفة كالتعليل لما قبلها من الأمر بالذكر والتسبيح وقيل الصلاة من
الله على العبد هي إشاعة الذكر الجميل في عباده وقيل الثناء عليه وعطف ملائكته على
الضمير المستكن في يصلي لوقوع الفصل بينهما بقوله عليكم فأغنى عن التأكيد بالضمير
المنفصل والمراد بالصلاة هاهنا معنى مجازي يعم صلاة الله بمعنى الرحمة وصلاة الملائكة بمعنى
الدعاء لئلا يجمع بين حقيقة ومجاز في كلمة واحدة وقوله (ليخرجكم من الظلمات
إلى النور) متعلق بيصلي أي يعتني بأموركم هو وملائكته ليخرجكم من ظلمات
المعاصي إلى نور الطاعات ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهداية ومعنى الآية تثبيت المؤمنين
على الهداية ودوامهم عليها لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية قاله البيضاوي وجمع
الأول لتعدد أنواع الكفر وأفرد الثاني لأن الإيمان شيء واحد لا تعدد فيه ثم أخبر سبحانه

ورواه أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به وقد رواه أبو داود رحمته
في سننه فقال في كتاب الجهاد باب ما جاء في سكنى الشام حدثنا عبيد الله بن عمر حدثنا معاذ بن هشام حدثني (١) عن قتادة
عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول ستكون هجرة بعد هجرة فخيار أهل الأرض
ألزمهم مهاجر إبراهيم ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير
وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا أبو جناب يحيى بن أبي حية عن شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول لقد رأيتنا

(١) بياض بأصله ولعله سقط من الناسخ رجل من الرواة فحرره من النسخ المعتمدة اه

برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم وتثبيتاً فقال (وكان بالمؤمنين رحيما) وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها ثم بين سبحانه ان هذه الرحمة منه لا تخص السامعين وقت الخطاب بل هي عامة لهم ولمن بعدهم وفي الدار الآخرة فقال (تحيتهم يوم يلقونه سلام) أي تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت أو عند البعث وعند دخول الجنة هي التسليم عليهم منه عز وجل يقول الله تبارك وتعالى السلام عليكم وقيل المراد تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم سلام وذلك لانه كان بالمؤمنين رحيما فلما شملتهم رحمته وأمنوا من عقابه حيا بعضهم بعضا سرورا واستبشارا والمعنى سلامة لنا من عذاب النار قال الزجاج المعنى فيسلمهم الله من الآفات ويبشرهم بالامن من المخافات يوم يلقونه وقيل الضمير في يلقونه راجع الى ملك الموت وهو الذي يحييهم كما ورد انه لا يقبض روح مؤمن الاسلم عليه قاله البراء بن عازب وقال ابن مسعود اذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام وقال مقاتل هو تسليم الملائكة عليهم يوم يلقون الرب كما في قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم (وأعد لهم أجرا كريما) أي في الجنة أو أعد لهم في الجنة رزقا حسنا ما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم وهذا بيان لآثار رحمته تعالى الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقيب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ثم ذكر سبحانه صفات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي أرسله بها فقال (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا) أي على أمته يشهد لمن صدقه وآمن به وعلى من كذبه وكفر به قال مجاهد شاهدا على أمته بالتبليغ اليهم وعلى سائر الامم بتبليغ أنبيائهم اليهم (ومبشرا) للمؤمنين برحمة الله وبالجنة وبما أعد لهم من جزيل الثواب وعظيم الاجر ونذيرا للكافرين والعصاة بالنار وبما أعد الله لهم من أليم العقاب (وداعيا الى الله) يدعو عباد الله الى التوحيد والايمان بما جاء به والعمل بما شرعه لهم ومعنى (باذنه) بامره بذلك وتقديره وقيل بتيسيره قاله الكرخي وغيره (وسراجا منيرا) يستضاء به في ظلم الضلالة كما يستضاء بالمصباح في الظلمة قال الزجاج وسراجا أي ذا سراج منير أي كتاب نير وهو القرآن وانما شبه الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالسراج دون الشمس مع انها أتم لان المراد بالسراج هنا الشمس كما قال تعالى وجعل الشمس سراجا أو شبه بالسراج لانه تفرع منه هدايته جميع العلماء كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى بخلاف الشمس (وبشر

وما صاحب الدينار والدرهم بأحق من أخيه المسلم ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب الى أحدنا من أخيه المسلم ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لئن انتم اتبعتم أذناب البقر وتبايعتم بالعينة وتركتم الجهاد في سبيل الله ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا الى ما كنتم عليه وتتوبوا الى الله تعالى وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لتكونن هجرة بعد هجرة الى مهاجر أبيكم ابراهيم حتى لا يبقى في الارض الا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم وتقذرهم روح الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث يبيتون وماسقط منهم فلها ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج قوم من أمتي يسيئون الاعمال يقرؤن القرآن لا يجاوز حناجرهم قال يزيد لا أعلمه الا قال يحقر أحدكم علمه مع علمهم يقتلون أهل الاسلام فاذا خرجوا فاقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم ثم اذا خرجوا فاقتلوهم فطوبى لمن قتلهم وطوبى لمن قتلوه وكلما طلع منهم قرن قطعه الله فردد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع وقال الحافظ أبو بكر البيهقي حدثنا أبو الحسن بن الفضل أخبرنا عبد الله بن جعفر حدثنا يعقوب بن سفيان حدثنا أبو النضر اسحق بن ابراهيم بن يزيد وهشام بن عمار الدمشقيان قالا حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الاوزاعي عن نافع وقال أبو النضر عمن حدثه عن نافع عن عبد الله بن عمر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال سيهاجر أهل الارض هجرة بعد هجرة الى مهاجر ابراهيم حتى لا يبقى الا شرار أهلها تلفظهم الارضون وتقذرهم روح الرحمن وتحشرهم النار مع القردة والخنازير تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا لها ماسقط منهم غريب من حديث نافع والظاهر ان الاوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء والله أعلم وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب الى الحفظ وقوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب كقوله فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا أي انه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده وكذلك قال تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة أي زيادة كما قال تعالى فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب أي يولد لهذا الولد ولد في حياتكما تقر به أعينكما وكون

يعقوب ولد لاسحق نص عليه القرآن وثبتت به السنة النبوية قال الله تعالى أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق الها واحدا الآية وفي الصحيحين ان الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليهم الصلاة والسلام فاما ما رواه العوفي عن ابن عباس في قوله ووهبنا له اسحق ويعقوب قال هما ولدا ابراهيم فمعناه ان ولد الولد بمنزلة الولد فان هذا الامر لا يكاد يخفى على من هو دون ابن عباس وقوله تعالى وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله اياه خليلا وجعله للناس اماما أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد ابراهيم عليه السلام الا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني اسرائيل من سلالة يعقوب بن اسحق بن ابراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم فقام في ملئهم مبشرا بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الاطلاق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة اسمعيل بن ابراهيم عليهما السلام ولم يوجد نبي من سلالة اسمعيل سواه عليه أفضل الصلاة والسلام وقوله وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين أي جمع الله له من سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني والمنزل الرحب والمورد العذب والزوجة الحسنة الصالحة والثناء الجميل والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه كما قال تعالى وابراهيم الذي وفى أي قام بجميع ما أمر به وكمل طاعة ربه ولهذا قال تعالى وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين وكما قال تعالى ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين الى قوله وانه في الآخرة لمن الصالحين (ولوطا اذ قال لقومه انكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين) يقول تعالى مخبرا عن نبيه لوط عليه السلام انه أنكر على قومه سوء صنيعهم وما كانوا يفعلونه من قبيح الاعمال في اتيانهم الذكران من العالمين

المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين من أمتك (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) على مؤمني سائر الامم في الرتبة والشرف وزيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان وقد بين ذلك سبحانه بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير عن ابن عباس قال لما نزلت يا أيها النبي الآية وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أمر عليا ومعاذا ان يسيرا الى اليمن فقال انطلقا فبشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا فانه قد أنزلت علي يا أيها النبي انا أرسلناك الآية وأخرج أحمد والبخاري وغيرهما عن عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت اخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة قال أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للاميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح وزاد أحمد ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بان يقولوا لا اله الا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا وقد ذكر البخاري في صحيحه في البيوع هذا الحديث فقال وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام ولم يقل عبد الله بن عمرو وهذا أولى فعبد الله بن سلام هو الذي كان يسئل عن التوراة فيخبر بما فيها ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال (ولا تطع الكافرين والمنافقين) فيما يشيرون به عليك من المداهنة في الدين والمداراة في أمر الدعوة ومن استعمال لين الجانب في التبليغ وفي الآية تعريض لغيره من أمته لانه صلى الله عليه وآله وسلم معصوم عن طاعتهم في شئ مما يريدونه ويشيرون به عليه وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة (ودع أذاهم) اي لا تبال بما يصدر منهم اليك من الاذى بسبب تصلبك في دين الله وشدتك على اعدائه أو دع أن تؤذيهم أنت مجازاة لهم على ما يفعلونه من الاذى لك فالمصدر على الاول مضاف الى الفاعل وعلى الثاني مضاف الى المفعول قيل هي منسوخة بآية السيف (وتوكل على الله) في كل شؤنك (وكفى بالله وكيلا) توكل اليه الامور وتفوض اليه الشؤن فمن فوض اليه اموره كفاه ومن وكل اليه أحواله لم يحتج فيها الى سواه ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب وكان قد دخل بها وخطبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد انقضاء عدتها كما تقدم خاطب

ولم يسبقهم الى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم وكانوا مع هذا ... ـر بالله تعالى ويكذبون رسوله ويخالفون ويقطعون السبيل
أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم وتأتون في ناديكم المنكر أي يفعلون مالا يليق من الاقوال والافعال في
مجالسهم التي يجتمعون فيها لا ينكر بعضهم على بعض شيأ من ذلك فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملا قاله مجاهد ومن قائل
كانوا يتضارطون ويتضاحكون قالته عائشة رضي الله عنها والقاسم ومن قائل كانوا يتناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك
وكل ذلك كان يصدر عنهم وكانوا شرا من ذلك وقال الامام أحمد حدثنا حماد بن اسامة أخبرني حاتم بن أبي
صغيرة حدثنا سماك بن حرب عن
أبي صالح مولى أم هانئ عن أم هانئ
قالت سألت رسول الله صلى الله
عليه وسلم عن قوله تعالى وتأتون في
ناديكم المنكر قال يحذفون أهل
الطريق ويسخرون منهم وذلك
المنكر الذي كانوا يأتونه ورواه
الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم
من حديث أبي اسامة حماد بن
اسامة أبي يونس القشيري عن حاتم
ابن أبي صغيرة به ثم قال الترمذي
هذا حديث حسن لا نعرفه الا من
حديث حاتم بن أبي صغيرة عن
سماك وقال ابن أبي حاتم حدثنا
الحسن بن عرفة حدثنا محمد بن كثير
عن عمرو بن قيس عن الحكم عن
مجاهد وتأتون في ناديكم المنكر قال
الصفير ولعب الحمام والجلاهق
والسؤال في المجلس وحل أزرار القباء
وقوله تعالى فما كان جواب قومه
الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت
من الصادقين وهذا من كفرهم
واستهزائهم وعنادهم ولهذا
استنصر عليهم نبي الله فقال رب
انصرني على القوم المفسدين (ولما
جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا
مهلكوا أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين
ولما ان جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا
منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) لما استنصر لوط عليه
السلام عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على ابراهيم عليه السلام في هيئة اضياف فجاءهم بما ينبغي للضيف فلما رأى ابراهيم انه
لا همة لهم الى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة

المؤمنين مبينا لهم حكم الزوجة اذا طلقها زوجها قبل الدخول فقال (يا أيها الذين آمنوا
اذا نكحتم المؤمنات) أي عقدتم بهن عقد النكاح أو بالكتابيات وانما خص المؤمنات
بالذكر للتنبيه على ان من شأن المؤمن أن لا ينكح الا مؤمنة تخيرا للنطفة وقد اختلف في
لفظ النكاح هل هو حقيقة في الوطء أو في العقد أو فيهما على طريقة الاشتراك وكلام
صاحب الكشاف في هذا الموضع يشعر بانه حقيقة في الوطء فانه قال النكاح الوطء
وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث انه طريق اليه ونظيره تسمية الخمر اثما لانها
سبب في اقتراف الاثم ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله الا في معنى العقد كما قاله صاحب
الكشاف والقرطبي وغيرهما (ثم) التراخي ليس قيدا وفائدة التعبير بثم ازالة ما عسى ان
يتوهم من ان تراخي الطلاق بقدر امكان الاصابة كما يؤثر في النسب يؤثر في العدة
(طلقتموهن من قبل ان تمسوهن) اى تجامعوهن فكنى عن ذلك بلفظ المس ومن آداب
القرآن الكناية عن الوطء بلفظ الملامسة والمماسة والقربان والغشي والاتيان وقد
استدل بهذه الآية القائلون بانه لا طلاق قبل النكاح وهم الجمهور وبه قال علي وابن
عباس وجابر ومعاذ وعائشة وبه قال سعيد بن المسيب وعروة وشريح وسعيد بن جبير
والقاسم وطاوس والحسن وعكرمة وعطاء وسليمان بن يسار ومجاهد والشعبي وقتادة
واكثر اهل العلم وبه قال الشافعي وذهب ابن مسعود ومالك وابو حنيفة الى صحة الطلاق
قبل النكاح اذا قال اذا تزوجت فلانة فهي طالق فتطلق اذا تزوجها وبه قال النخعي
واصحاب الرأي وقال ربيعة والاوزاعي ان عين امرأة وقع وان عمم فلا يقع وعن عمرو بن
شعيب عن أبيه عن جده ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لا طلاق فيما لا تملك
ولا عتق فيما لا تملك ولا بيع فيما لا تملك أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه وعن ابن عباس
قال جعل الله الطلاق بعد النكاح أخرجه البخاري (فما لكم عليهن من عدة تعتدونها)
أي تحصونها بالاقراء والاشهر أجمع العلماء على انه اذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة
فلا عدة وذهب أحمد الى ان الخلوة توجب العدة والصداق وقد حكى ذلك الاجماع القرطبي
وابن كثير والمعنى تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها واسناد ذلك الى
الرجال للدلالة على ان العدة حق لهم كما يفيده قوله فما لكم وقرئ تعتدونها بتشديد الدال
وبتخفيفها وفي هذه وجهان احدهما ان يكون بمعنى الاولى مأخوذ من الاعتداد اى

فتعجبت من ذلك كما تقدم بيانه في سورة هود والحجر فلما جاءت ابراهيم البشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم ينظرون لعل الله ان يهديهم ولما قالوا انا مهلكو أهل هذه القرية قال ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين أي من الهالكين لانها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان فلما رآهم كذلك سيء بهم وضاق بهم ذرعا أي اهتم بأمرهم ان هو أضافهم خاف عليهم من قومه وان لم يضفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة قالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك وأهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون وذلك ان جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الارض ثم رفعها الى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد وجعل مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة الى يوم التناد وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ولهذا قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة أي واضحة لقوم يعقلون كما قال تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون (والى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام انه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له وان يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر قال ابن جرير قال بعضهم معناه واخشوا اليوم الآخر وهذا كقوله تعالى لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وقوله ولا تعثوا في الارض مفسدين نهاهم عن العبث في الارض بالفساد وهو السعي فيها والبغي على أهلها وذلك لانهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ويقطعون الطريق على الناس هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة وزلزلت عليهم بلادهم وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الارواح من مستقرها انه كان عذاب يوم عظيم وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الاعراف وهود والشعراء وقوله فأصبحوا في دارهم جاثمين قال قتادة ميتين وقال غيره قد ألقي بعضهم على بعض

تستوفون عددها ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف قال الرازي ولو كان من الاعتداء الذي هو الظلم لضعف لان الاعتداء يتعدى بعلى وقيل من الاعتداء بحذف حرف الجر أي تعتدون عليها أي على العدة مجازا والوجه الثاني ان يكون المعنى تعتدون فيها والمراد بالاعتداء هذا هو ما في قوله ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا فيكون معنى الآية على القراءة الآخرة فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة وقد انكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير وقال ان البزي غلط عليه وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولقوله واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة اشهر (فمتعوهن) أي اعطوهن ما يستمتعن به والمتعة المذكورة هنا قد تقدم الكلام عليها في البقرة وقال سعيد بن جبير هذه المتعة المذكورة هنا منسوخة بالآية التي في البقرة وهي قوله وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم وقيل المتعة هنا هي أعم من أن تكون نصف الصداق أو المتعة خاصة ان لم يكن قد سمى لها فمع التسمية للصداق تستحق نصف المسمى عملا بقوله فنصف ما فرضتم ومع عدم التسمية تستحق المتعة عملا بهذه الآية ويؤيد ذلك قوله تعالى ولا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وهذا الجمع لا بد منه وهو مقدم على الترجيح وعلى دعوى النسخ ويخصص من هذه الآية من توفي عنها زوجها فانه اذا مات بعد العقد عليها وقبل الدخول بها كان الموت كالدخول فتعتد أربعة أشهر وعشرا قال ابن كثير بالاجماع فيكون المخصص هو الاجماع (وسرحوهن سراحا جميلا) أي اخرجوهن من غير اضرار ولا منع حق من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة والسراح الجميل الذي لا ضرار فيه وقيل هو ان لا يطالبها بما كان قد أعطاها وقيل هو هنا كناية عن الطلاق وهو بعيد لانه قد تقدم ذكر الطلاق ورتب عليه التمتع وعطف عليه السراح الجميل فلا بد ان يراد به معنى غير الطلاق وعن ابن عباس في الآية قال هذا في الرجل يتزوج المرأة ثم يطلقها من قبل ان يمسها فاذا طلقها واحدة بانت منه ولا عدة عليها تتزوج من شاءت ثم قال فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا يقول ان كان سمى لها صداقا فليس لها الا النصف وان لم يكن سمى لها صداقا فمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل وعن ابن عمر قال اذا

تكلمتم

(وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الارض وما كانوا سابقين فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) يخبر تعالى عن هؤلاء الامم المكذبة للرسل كيف أبادهم وتنوع فى عذابهم وأخذهم والانتقام منهم فعاد قوم هود وكانوا يسكنون الاحقاف وهى قريبة من حضرموت بلاد اليمن وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريبا من وادى القرى وكانت العرب تعرف مساكنها جيدا وتمر عليها كثيرا وقارون صاحب الاموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة وفرعون ملك مصر فى زمان موسى ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم فكلا أخذنا بذنبه أى كانت عقوبته بما يناسبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا وهم عاد وذلك انهم قالوا من أشد منا قوة فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جدا تحمل عليهم حصباء الارض فتلقيها عليهم وتقتلعهم من الارض فترفع الرجل منهم من الارض الى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدنا بلا رأس كأنهم أعجاز نخل منقعر ومنهم من أخذته الصيحة وهم ثمود قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التى انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ومع هذا ما آمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم وتهددوا نبى الله صالحا ومن آمن معه وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم فجاءتهم صيحة أخمدت الاصوات منهم والحركات ومنهم من خسفنا به الارض وهو قارون الذى طغى وبغى وعتا وعصى الرب الاعلى ومشى فى الارض مرحا وفرح ومرح وتاه بنفسه واعتقد انه أفضل من غيره واختال فى مشيته فخسف الله به وبداره الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ومنهم من أغرقنا وهو فرعون ووزيره هامان وجنودهما عن آخرهم أغرقوا فى صبيحة واحدة فلم ينج منهم مخبر وما كان الله ليظلمهم أى فيما فعل بهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أى انما فعل ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبت أيديهم وهذا الذى ذكرناه ظاهر سياق الآية وهو من باب اللف والنشر وهو انه ذكر الامم المكذبة ثم قال فكلا أخذنا بذنبه أى من هؤلاء المذكورين وانما

نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن منسوخة نسختها التى فى البقرة فنصف ما فرضتم وعن سعيد ابن المسيب نحوه وعن الحسن وأبى العالية قالا ليست بمنسوخة لها نصف الصداق ولها المتاع وعن ابن جريج قال بلغ ابن عباس ان ابن مسعود يقول ان طلق مالم ينكح فهو جائز فقال ابن عباس أخطأ فى هذا ان الله يقول اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل ان تمسوهن ولم يقل اذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن وعن ابن عباس انه تلا هذه الآية وقال لا يكون طلاق حتى يكون نكاح وقد وردت أحاديث فيها انه لا طلاق الا بعد نكاح وهى معروفة (ياأيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) ذكر سبحانه فى هذه الآية انواع الانكحة التى أحلها لرسوله وبدأ بأزواجه اللاتى قد أعطاهن أجورهن أى مهورهن فان المهور أجور الابضاع ولهذا قال الكرخى ان النكاح بلفظ الاجارة جائز وقال أهل الرأى التأبيد من شرط النكاح والتأقيت من شرط الاجارة وبينهما منافاة وايتاء الاجور اما تسليمها معجلة أو فرضها أو تسميتها فى العقد واختلف فى معنى الآية فقال ابن زيد والضحاك ان الله أحل له ان يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها فتكون الآية مبيحة لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم وقال الجمهور المراد احللنا لك أزواجك الكائنات عندك لانهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها وهذا هو الظاهر لان قوله أحللنا وآتيت ماضيان وتقييد الاحلال بايتاء الاجور ليس لتوقف الحل عليه لانه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل مع الوطء والمتعة مع عدمه فكأنه لقصد الارشاد الى ما هو أفضل (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى السرارى اللاتى دخلن فى ملكك بالغنيمة والمعنى مما رده الله عليك من الكفار بالغنيمة من نسائهم المأخوذات على وجه القهر والغلبة مثل صفية وجويرية فاعتقهما وتزوجهما وقد كانت مارية مما ملكت يمينه فولدت له ابراهيم وليس المراد بهذا القيد اخراج ما ملكه بغير الغنيمة فانها تحل السرية المشتراة والموهوبة ونحوهما ولكنه خرج مخرج الغالب وأشار به الى ما هو الافضل كالقيد الاول المصرح بايتاء الاجور وهكذا قيد المهاجرة فى قوله (وبنات عمك وبنات عماتك) أى نساء قريش (وبنات خالك وبنات خالاتك) أى نساء بنى زهرة (اللاتى هاجرن معك) فانه للاشارة الى ما هو الافضل وللايذان بشرف الهجرة وشرف من هاجر أى أحللنا لك ذلك زائدا على الازواج اللاتى آتيت أجورهن على قول

بهت على هذه الامة فقد روى ابن جريج قال قال ابن عباس في قوله فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا قال قوم لوط ومنهم من أغرقنا قال قوم نوح وهذا منقطع عن ابن عباس فان ابن جريج لم يدركه ثم قد ذكر الله في هذه السورة اهلاك قوم نوح بالطوفان وقوم لوط بانزال الرجز من السماء وأطال السياق والفصل بين ذلك وبين هذا السياق وقال قتادة فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا قال قوم لوط ومنهم من أخذته الصيحة قوم شعيب وهذا بعيد أيضا لما تقدم والله أعلم (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا (٢٩٤) يعلمون ان الله يعلم ما يدعون من دونه من شئ وهو العزيز الحكيم وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم الا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فانه لا يجدي عنه شيئا فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فانه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ثم قال تعالى متوعدا لمن عبد غيره وأشرك به انه تعالى يعلم ما هم عليه من الاعمال ويعلم ما يشركون به من الانداد وسيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم ثم قال تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون أي وما يفهمها ويتدبرها الا الراسخون في العلم المتضلعون منه قال الامام أحمد حدثنا اسحق ابن عيسى حدثني ابن لهيعة عن أبي قبيل عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه النبي حيث يقول الله تعالى وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أحمد بن عبد الرحمن حدثنا أبي حدثنا أبو سنان عن عمرو بن مرة قال ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها الا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون (خلق الله السموات والأرض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون) يقول تعالى مخبرا

الجمهور ولا ملزم أراد أحللنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها لما قال بعد ذلك وبنات عمك وبنات عماتك لان ذلك داخل فيما تقدم والاول أولى والمراد بالمعية هنا الاشتراك في الهجرة لا في الصحبة فيها قال السمين ليس مع للقران بل لوجودها فحسب كقوله وأسلمت مع سليمان وقيل ان هذا القيد أعني المهاجرة معتبر وانها لا تحل له من لم تهاجر من هؤلاء كما في قوله والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا ويؤيده هذا حديث ام هانئ وسيأتي ووجه افراد العم والخال وجمع العمة والخالة ما ذكره القرطبي ان العم والخال في الاطلاق اسم جنس كالشاعر والراجز وليس كذلك العمة والخالة قال وهذا عرف لغوي جاء الكلام عليه بغاية البيان وحكاه عن ابن العربي وقال ابن كثير انه وحد لفظ الذكر لشرفه وجمع الاناث كقوله عن اليمين وعن الشمائل وقوله يخرجهم من الظلمات الى النور وجعل الظلمات والنور وله نظائر كثيرة انتهى وقال النيسابوري وانما لم يجمع العم والخال اكتفاء بجنسيتهما مع ان لجمع البنات دلالة على ذلك لامتناع اجتماع أختين تحت واحد ولم يحسن هذا الاختصار في العمة والخالة لامكان سبق الوهم الى ان التاء فيهما للوحدة انتهى وكل وجه من هذه الوجوه يحتمل المناقشة بالنقض والمعارضة وأحسنها تعليل جمع العمة والخالة بسبق الوهم الى ان التاء للوحدة وليس في العم والخال ما يسبق الوهم اليه بانه أريد الوحدة الا مجرد صيغة الافراد وهي لا تقتضي ذلك بعد اضافتها لما تقرر من عموم أسماء الاجناس المضافة على ان هذا الوجه الاحسن لا يصفو عن شوب المناقشة أيضا قال الشهاب وقد سئل كثير عن حكمة افراد العم والخال دون العمة والخالة حتى ان السبكي صنف جزءا فيه سماه بذل الهمة في افراد العم وجمع العمة وقد رأيت لهم فيه كلمات كلها ضعيفة كقول الرازي ان العم والخال على زنة المصدر ويستوي فيه المفرد والجمع بخلاف العمة والخالة وقيل انهما يعمان اذا أضيفا والعمة والخالة لا يعمان لتاء الوحدة انتهى أخرج الترمذي وحسنه وابن جرير والطبراني وغيرهم عن ام هانئ بنت أبي طالب قالت خطبني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاعتذرت اليه فعذرني فأنزل الله يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى قوله هاجرن معك قالت فلم أكن أحل له لاني لم أهاجر معه كنت من الطلقاء وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من وجه آخر عنها قالت نزلت في هذه الآية وبنات عماتك اللاتي هاجرن معك أراد

عن قدرته العظيمة انه خلق السموات والارض بالحق يعني لا على وجه العبث واللعب لتجزى كل نفس بما تسعى ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى وقوله تعالى ان فى ذلك لآية للمؤمنين أى لدلالة واضحة على انه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والالهية ثم قال تعالى آمرا رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن وهو قراءته وابلاغه للناس وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر يعني ان الصلاة تشتمل على شيئين على ترك الفواحش والمنكرات أى ان مواظبتها تحمل على ترك ذلك وقد جاء فى الحديث من رواية عمران وابن عباس مرفوعا من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله الا بعدا ذكر الآثار الواردة فى ذلك قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن هرون المخرمى الفلاس حدثنا عبد الرحمن بن نافع أبو زياد حدثنا عمر بن أبى عثمان حدثنا الحسن عن عمران بن حصين قال سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له وحدثنا على بن الحسين حدثنا يحيى بن أبى طلحة اليربوعى حدثنا أبو معاوية عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا خالد بن عبد الله عن العلاء بن المسيب عمن ذكره عن ابن عباس فى قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال فمن لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهاه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله الا بعدا فهذا موقوف قال ابن جرير وحدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا على بن هاشم بن البريد عن جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة ان تنهاه عن الفحشاء والمنكر قال وقال سفيان قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك قال فقال سفيان اى والله تأمره وتنهاه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد عن جويبر عن الضحاك عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبو خالد مرة عن عبد الله لا صلاة لمن لم يطع الصلاة وطاعة الصلاة تنهاه عن الفحشاء والمنكر والموقوف أصح كما رواه الاعمش عن مالك بن الحرث عن عبد الرحمن بن يزيد قال قيل لعبد الله ان فلانا يطيل الصلاة قال

النبى ان يتزوجنى فنهى عنى اذ لم أهاجر وعن ابن عباس فى قوله انا أحللنا لك أزواجك الى قوله خالصة لك قال فحرم الله عليه سوى ذلك من النساء وكان قبل ذلك ينكح فى أى النساء شاء لم يحرم ذلك عليه وكان نساؤه يجدن من ذلك وجدا شديدا ان ينكح فى أى النساء أحب فلما أنزل انى حرمت عليك من النساء سوى ما قصصت عليك أعجب ذلك نساءه (وامرأة مؤمنة) أى وأحللنا لك امرأة مصدقة بالتوحيد وهذا يدل على ان الكافرة لا تحل له قال امام الحرمين وقد اختلف فى تحريم الحرة الكافرة عليه قال ابن العربى والصحيح عندى تحريمها وبهذا يتميز علينا فانه ما كان فى جانب الفضائل والكرامات فحظه فيه أكثر وما كان من جانب النقائص فجانبه عنها اطهر فجوز لنا نكاح الحرائر الكتابيات وقصر هو صلى الله عليه وآله وسلم على المؤمنات ولهذا كان لا تحل له الكتابية الكافرة لنقصانها بالكفر انتهى واما تسريه بالامة الكتابية فالاصح فيه الحل لانه صلى الله عليه وآله وسلم استمتع بأمته ريحانة قبل ان تسلم كذا فى المواهب وكانت يهودية من سبى قريظة ومما خص به ايضا انه يحرم عليه نكاح الامة ولو مسلمة لان نكاحها معتبر بخوف العنت وهو معصوم وبفقدان مهر الحرة ونكاحه غنى عن المهر ابتداء وانتهاء وبرق الولد ومنصبه صلى الله عليه وآله وسلم ينزه عنه كذا فى الروض وشرحه (ان وهبت نفسها للنبى) اى ملكتك بضعها باى عبارة كانت بغير صداق واما من لم تكن مؤمنة فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك بل مقيد بارادتك فهى جملة شرطية لا تستلزم الوقوع ولهذا قال (ان اراد النبى ان يستنكحها) يقال نكح واستنكح مثل عجل واستعجل وعجب واستعجب ويجوز ان يراد الاستنكاح بمعنى طلب النكاح او طلب الوطء قاله القرطبى اى يصيرها منكوحة له ويتملك بضعها بتلك الهبة بلا مهر وذلك جار منه مجرى القبول وحيث لم تكن الآية نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم تصلح ان تكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة وايراده فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات عن الخطاب للايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به كما ينطق به قوله الآتى خالصة لك وقد قيل انه لم ينكح النبى من الواهبات انفسهن احدا ولم يكن عنده منهن شئ وقال قتادة كانت عنده ميمونة بنت الحرث قال الشعبى هى زينب بنت خزيمة الانصارية أم المساكين

ان الصلاة لا تنفع الا من أطاعها وقال ابن جرير حدثنا علي حدثنا اسمعيل بن مسلم عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى صلاة لم تنهه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله الا بعدا والاصح في هذا كله الموقوفات عن ابن مسعود وابن عباس والحسن وقتادة والاعمش وغيرهم والله أعلم وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا يوسف بن موسى أنبأنا جرير يعني ابن عبد الحميد عن الاعمش عن أبي صالح قال أراه عن جابر شك الاعمش قال قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ان فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق قال سينهاه ما تقول وحدثنا محمد بن موسى الحرشي أخبرنا زياد بن عبد الله عن الاعمش عن أبي صالح عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ولم يشك ثم قال وهذا الحديث قد رواه عن الاعمش غير واحد واختلفوا في اسناده فرواه غير واحد عن الاعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أو غيره وقال قيس عن الاعمش عن أبي سفيان عن جابر قال جرير وزياد عن عبد الله عن الاعمش عن أبي صالح عن جابر وقال الامام أحمد حدثنا وكيع أخبرنا الاعمش قال أرى أبا صالح عن أبي هريرة قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ان فلانا يصلي بالليل فاذا أصبح سرق فقال انه سينهاه ما تقول وتشتمل الصلاة أيضا على ذكر الله تعالى وهو المطلوب الاكبر ولهذا قال تعالى ولذكر الله أكبر أي أعظم من الاول والله يعلم ما تصنعون أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم وقال أبو العالية في قوله تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر قال ان الصلاة فيها ثلاث خصال فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة الاخلاص والخشية وذكر الله فالاخلاص يأمره بالمعروف والخشية تنهاه عن المنكر وذكر الله القرآن يأمره وينهاه وقال ابن عون الانصاري اذا كنت في صلاة فأنت في معروف وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر والذي أنت فيه من ذكر الله أكبر وقال حماد بن أبي سليمان ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر يعني ما دمت فيها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ولذكر الله أكبر يقول ولذكر الله لعباده أكبر اذا ذكروه من ذكرهم اياه وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الاشج حدثنا أبو خالد الاحمر عن داود بن أبي هند عن رجل عن ابن عباس ولذكر الله أكبر قال ذكر الله عند طعامك

الزمخشري

وقال علي بن الحسين والضحاك ومقاتل هي أم شريك بنت جابر الاسدية وقال عروة ابن الزبير وهي أم حكيم بنت الاوقص السلمية أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في السنن عن عائشة قالت التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خولة بنت حكيم وأخرج البخاري وغيره عن عروة ان خولة بنت حكيم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن محمد بن كعب وعمر بن الحكم وعبد الله ابن عبيدة قالوا تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث عشرة امرأة ست من قريش خديجة وعائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة وثلاث من بني عامر بن صعصعة وامرأتان من بني هلال بن عامر ميمونة بنت الحرث وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وزينب أم المساكين والعامرية وهي التي اختارت الدنيا وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه وزينب بنت جحش الاسدية والسبيتين صفية بنت حيي وجويرية بنت الحرث الخزاعية وأخرج البخاري وابن مردويه عن أنس قال جاءت امرأة الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت يا رسول الله هل لك بي حاجة فقالت ابنة أنس ما كان أقل حياءها فقال هي خير منك رغبت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعرضت نفسها عليه وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن سهل بن سعد الساعدي ان امرأة جاءت الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فوهبت نفسها له فصمت الحديث بطوله وكان من خصائصه صلى الله عليه وآله وسلم ان النكاح ينعقد في حقه بمعنى الهبة من غير ولي ولا شهود ولا مهر والزيادة على أربع ووجوب تخيير النساء وعليه جماعة واختلفوا في انعقاد النكاح بلفظ الهبة في حق الامة فذهب أكثرهم الى انه لا ينعقد الا بلفظ النكاح والتزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهري ومجاهد وعطاء وبه قال ربيعة ومالك والشافعي وقال ابراهيم النخعي وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة ومن قال بالقول الاول اختلفوا في نكاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذهب قوم الى انه كان ينعقد في حقه صلى الله عليه وآله وسلم بلفظ الهبة وذهب قوم آخرون الى انه لا ينعقد كما في حق سائر الامة وكان اختصاصه في ترك المهر وعدم لزومه له لا في لفظ النكاح واختلفوا في ان العقد بلفظ الهبة هل وقع له بالفعل أم لا فقال ابن عباس ومجاهد لم يكن عنده امرأة الا بعقد نكاح أو ملك يمين وقال آخرون وقع واختلفوا فيها كما تقدم وقال

الزمخشرى قيل الموهوبات أربع ميمونة وزينب وأم شريك وخولة وفى السمين هذا من اعتراض الشرط على الشرط والثانى قيد فى الاول ولذلك أعربوه حالا لان الحال قيد ولهذا اشترط الفقهاء ان يتقدم الثانى على الاول فى الوجود فلو قال ان أكلت ان ركبت فأنت طالق فلا بد ان يتقدم الركوب على الاكل وانه يشترط ان لا يكون ثمة قرينة تمنع من تقدم الثانى على الاول كقولك ان تزوجتك ان طلقتك فعبدى حر فانه لا يتصور هنا تقديم الطلاق على التزويج الا انى قد عرض لى اشكال على ما قاله الفقهاء بهذه الآية وذلك ان الشرط الثانى هنا لا يمكن تقدمه فى الوجود بالنسبة الى الحكم الخاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم لا أنه لا يمكن عقلا وذلك ان المفسرين فسروا قوله تعالى ان أراد بمعنى قبل الهبة لانه بالقبول منه يتم نكاحه وهذا لا يتصور تقدمه على الهبة اذ القبول متأخر وأيضا فالقصة كانت على ما ذكرته من تأخر ارادته عن هبتها وهو مذكور فى التفسير وقد عرضت هذا الاشكال على جماعة من أعيان زماننا فاعترفوا به ولم يظهر عنهم جواب الا ما قدمته من ان ثم قرينة مانعة من ذلك كما مثلت لك آنفا انتهى وقد بين الله سبحانه ان هذا النوع من النكاح خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يحل لغيره من أمته فقال (خالصة لك من دون المؤمنين) لفظ خالصة اما حال من امرأة قاله الزجاج أو حال من فاعل وهبت أى حال كونها خالصة لك دون غيرك أو مصدر مؤكد كوعد الله أى خلص لك خلوصا أو نعت مصدر مقدر أى هبة خالصة فنصبها بوهبت وقد أجمع العلماء على ان هذا خاص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم وانه لا يجوز لغيره ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها الا ما روى عن أبى حنيفة وصاحبيه انه يصح النكاح اذا وهبت وأشهد هو على نفسه بمهر وأما بدون مهر فلا خلاف فى ان ذلك خاص برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولهذا قال (قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من خلوص الاحلال له أى ما فرضه الله سبحانه على المؤمنين فى حق أزواجهم من شرائط العقد وحقوقه فان ذلك حق عليهم مفروض لا يحل لهم الاخلال به ولا الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما خصه الله به توسعة عليه وتكريما له فلا يتزوجوا الا أربعا بمهر وبينة وولى وعن ابن عمر فى الآية قال فرض الله عليهم انه لا نكاح الا بولى وشاهدين وعن ابن عباس مثله وزاد ومهر (وما ملكت أيمانهم) أى وعلمنا ما فرضنا

وعند منازلك قلت فان صاحبا لى فى المنزل يقول غير الذى تقول قال وأى شئ يقول قلت قال يقول الله تعالى فاذكرونى أذكركم فلذكر الله ايانا أكبر من ذكرنا اياه قال صدق قال وحدثنا أبى حدثنا النفيلى حدثنا اسمعيل عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله تعالى ولذكر الله أكبر قال لها وجهان قال ذكر الله عند ما حرم قال وذكر الله اياكم أعظم من ذكركم اياه وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم أخبرنا هشيم أخبرنا عطاء بن السائب عن عبد الله بن ربيعة قال قال لى ابن عباس هل تدرى ما قوله تعالى ولذكر الله أكبر قال قلت نعم قال فما هو قلت التسبيح والتحميد والتكبير فى الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك قال لقد قلت قولا عجبا وما هو كذلك ولكنه انما يقول ذكر الله اياكم عند ما أمر به أو نهى عنه اذا ذكرتموه أكبر من ذكركم اياه وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس و روى أيضا عن ابن مسعود وأبى الدرداء وسلمان الفارسى وغيرهم واختاره ابن جرير (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون) قال قتادة وغير واحد هذه الآية منسوخة بآية السيف ولم يبق معهم مجادلة وانما هو الاسلام أو الجزية أو السيف وقال آخرون بل هى باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم فى الدين فيجادل بالتى هى أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة الآية وقال تعالى لموسى وهرون حين بعثهما الى فرعون فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد وقوله تعالى الا الذين ظلموا منهم أى حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح المحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال الى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله عز وجل لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد الى قوله ان الله قوى عزيز قال جابر أمرنا من خالف كتاب الله ان نضربه بالسيف قال مجاهد الا الذين ظلموا منهم يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية وقوله تعالى وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم يعنى اذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا يقدم على تكذيبه لانه قد يكون حقا ولا على تصديقه فلعله ان يكون باطلا ولكن يؤمن به ايمانا

مجملا معلقا على شرط وهو ان تكون مسلمة لا مؤولا قال البخاري رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا علي
ابن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية
ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي
أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وهذا الحديث تفرد به البخاري وقال الامام أحمد حدثنا عثمان
ابن عمر أخبرنا يونس عن الزهري أخبرني ابن أبي نملة ان أبا نملة الانصاري أخبره انه بينما هو

عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهم ممن يجوز سبيه وحربه لا ممن كان لا يجوز سبيه أو كان له عهد من المسلمين أي تكون الامة ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف المجوسية والوثنية وان تستبرأ قبل الوطء (لكيلا يكون عليك حرج) قال المفسرون هذا يرجع الى أول الآية أي أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والواهبة نفسها لك لكيلا يكون عليك حرج وتكون اللام متعلقة بأحللنا وقيل هي متعلقة بخالصة قاله البيضاوي وأبو السعود والتعلق باعتبار ما فيه من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له صلى الله عليه وآله وسلم والاول أولى والحرج الضيق أي وسعنا عليك في الحلال لئلا يضيق صدرك فتظن انك قد أثمت في بعض المنكوحات (وكان الله غفورا رحيما) يغفر الذنوب فيما يعسر التحرز عنه ويرحم العباد بالتوسعة في ذلك ولذلك وسع الامر ولم يضيقه (ترجي من تشاء منهن) قرئ ترجي مهموزا وغير مهموز وهما لغتان والارجاء التأخير يقال أرجأت الامر وأرجيته اذا أخرته (وتؤوي اليك من تشاء) أي تضم اليك يقال آواه اليه بالمد ضمه اليه وأوى مقصورا أي ضم اليه والمعنى ان الله وسع على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وجعل الخيار اليه في نسائه فيؤخر من شاء منهن ويؤخر نوبتها ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق ويضم اليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها وقد كان القسم واجبا عليه حتى نزلت هذه الآية فارتفع الوجوب وصار الخيار اليه وكان ممن آوى اليه عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب وممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية فكان صلى الله عليه وآله وسلم يسوي بين من آوى في القسم وكان يقسم لمن أرجاه ما شاء هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية وهو الذي يناسب ما مضى وقد دلت عليه الادلة الثابتة في الصحيح وغيره قال ابن العربي هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي ان يعول عليه لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون فرض عليه تطييبا لنفوسهن وصونا لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي الى ما لا ينبغي وقيل هذه الآية في الواهبات أنفسهن لا في غيرهن من الزوجات قاله الشعبي وغيره وقيل معنى الآية في الطلاق أي تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقال الحسن ان المعنى تنكح من شئت من نساء أمتك وتترك نكاح من شئت منهن وقد قيل ان هذه الآية ناسخة لقوله لا يحل لك النساء من بعد وعن ابن عباس ترجي أي تؤخر وعنه قال من شئت خليت سبيلها منهن ومن

جالس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أعلم قال اليهودي أنا أشهد انها تتكلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وكتبه ورسله فان كان حقا لم تكذبوهم وان كان باطلا لم تصدقوهم قلت وأبو نملة هذا هو أبو عمارة وقيل عمار وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الانصاري رضي الله عنه ثم ليعلم ان أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لانه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحا قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا أبو عاصم أخبرنا سفيان عن سليمان بن عامر عن عمارة بن عمير عن حريث ابن ظهير عن عبد الله هو ابن مسعود قال لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فانهم لن يهدوكم وقد ضلوا اما أن تكذبوا الحق أو تصدقوا الباطل فانه ليس أحد من أهل الكتاب الا وفي
قلبه تالية تدعوه الى دينه كتالية المال وقال البخاري حدثنا موسى بن اسمعيل حدثنا ابراهيم بن سعد أخبرنا ابن احسن
شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على رسول الله صلى
الله عليه وسلم أحدث تقرؤنه محضا لم يشب وقد حدثكم ان أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله
ليشتروا به ثمنا قليلا الا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسئلتهم لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم وقال
البخاري وقال أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري أخبرني حميد بن عبد الرحمن انه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر

كعب الأحبار فقال إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب قلت معناه أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد لأنه يحدث عن صحف هو يحسن بها الظن وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة لأنهم لم يكن في ملتهم حفاظ متقنون كهذه الأمة العظيمة ومع ذلك وقرب العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لا يعلمها إلا الله عز وجل ومن منحه الله تعالى علما بذلك كل بحسبه ولله الحمد والمنة (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) قال ابن جرير يقول الله تعالى كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب وهذا الذي قاله حسن ومناسبة وارتباط جيد وقوله تعالى فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما وقوله تعالى ومن هؤلاء من يؤمن به يعني العرب من قريش وغيرهم وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ويغطي ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ثم قال تعالى وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر الآية وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائما إلى يوم الدين لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري ثم أخذ فكتب وهذه محمولة على الرواية الأخرى ثم أمر فكتب ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرؤا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في

أحببت أمسكت منهن وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأقول تهب المرأة نفسها فلما أنزل الله ترجي من تشاء منهن الآية قلت ما أرى ربك إلا يسارع في هواك وعن أبي رزين قال هم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يطلق من نسائه فلما رأين ذلك أتينه فقلن لا تخل سبيلنا وأنت في حل فيما بيننا وبينك افرض لنا من نفسك ومالك ما شئت فأنزل الله ترجي من تشاء منهن يقول تعزل من تشاء فأرجى منهن نسوة وآوى نسوة وكان ممن أرجى ميمونة وجويرية وأم حبيبة وصفية وسودة وكان يقسم بينهن من نفسه وماله ما شاء وكان ممن آوى عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب فكانت قسمته من نفسه وماله بينهن سواء وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يستأذن في يوم المرأة منا بعد أن أنزلت هذه الآية ترجي من تشاء منهن فقلت لها ما كنت تقولين قالت كنت أقول إن كان ذلك إلي فإني أريد أن لا أوثر عليك أحدا (ومن ابتغيت ممن عزلت) الابتغاء الطلب والعزل الإزالة والمعنى إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن قد عزلتهن من القسمة وتضمها إليك (فلا جناح عليك) في ذلك والحاصل أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير وعزل وإمساك وضم من أرجى وإرجاء من ضم إليه وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه ونفيا للحرج عنه وأصل الجناح الميل يقال جنحت السفينة إذا مالت والمعنى لا ميل عليك بلوم ولا عتب فيما فعلت (ذلك) أي ما تقدم من التفويض إلى مشيئته وهو مبتدأ وخبره قوله (أدنى أن تقر أعينهن) أي ذلك التخيير والتفويض الذي فوضنا أقرب إلى رضاهن وأطيب لأنفسهن إذ كان من عندنا لأنهن إذا علمن أنه من الله قرت أعينهن واطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا قرئ تقر على البناء للفاعل مسندا إلى أعينهن وقرئ بضم التاء من أقرر وفاعله ضمير المخاطب وبنصب أعينهن على المفعولية وقرئ على البناء للمفعول وقد تقدم بيان معنى قرة العين في سورة مريم (ولا يحزن) أي لا يحصل معهن حزن بتأثيرك بعضهن دون بعض (ويرضين بما آتيتهن كلهن) أي بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء وعزل وإيواء وكان يقسم بينهن في القسمة حتى مات ولم يستعمل شيئا مما أبيح له ضبطا لنفسه وأخذا بالأفضل غير سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنهما (والله يعلم ما في قلوبكم) من

بجاههم وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لأنه كان يحسن الكتابة كما قال صلى الله عليه وسلم إخبارا عن الدجال مكتوب بين عينيه كافر وفي رواية ك ف ر يقرؤه كل مؤمن وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت صلى الله عليه وسلم حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له قال الله تعالى وما كنت تتلو أي تقرأ من قبله من كتاب لتأكيد النفي ولا تخطه بيمينك تأكيد أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى ولا طائر يطير بجناحيه وقوله تعالى إذا لارتاب المبطلون أي لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنه تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قال الله تعالى قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض الآية وقال ههنا بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من نبي إلا وقد أعطي ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم يقول الله تعالى إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظانا أي لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك المحل لأنه قد جاء في الحديث الآخر لو كان القرآن في إهاب ما أحرقته النار ولأنه محفوظ في الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء في الكتب المتقدمة في صفة هذه الأمة أناجيلهم في صدورهم واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصري فقط قلت وهو الذي رواه العوفي عن ابن عباس وقاله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم وقوله تعالى وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون أي ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أي المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون

كل ما تضمرونه ومن ذلك ما تضمرونه من أمور النساء والميل إلى بعضهن (وكان الله عليما) بكل شيء ومنها ما في ضمائركم لا يخفى عليه خافية (حليما) عليكم لا يعاجل العصاة بالعقوبة فقد ينبغي أن يتقي مخالفته لأن إمام الحلم وعصمته أمر عظيم (لا يحل لك النساء من بعد) أي من بعد هؤلاء التسع اللاتي اخترنك واخترن في صحبتك وهن التسع اللاتي توفي عنهن وهن عائشة بنت أبي بكر الصديق وحفصة بنت عمر وأم حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي أمية وصفية بنت حيي بن أخطب الخيبرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية قاله أبو السعود وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال الأول أنها محكمة وأنه حرم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله له بذلك وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والحسن وابن سيرين وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حرم عليه أن يتزوج غيرهن وقال أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين إن المعنى لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله قال القرطبي وهو اختيار ابن جرير وقيل لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات لأنهن لا يصح أن يتصفن بأمهات المؤمنين وهذا القول فيه بعد لأنه يكون التقدير لا يحل لك النساء من بعد المسلمات ولم يجر للمسلمات ذكر وقيل هذه الآية منسوخة بالسنة وبقوله ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء وبهذا قال أم سلمة وعائشة وعلي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وغيرهم وهذا هو الراجح وسيأتي ما يدل عليه من الأدلة عن زياد رجل من الأنصار قال قلت لأبي بن كعب أرأيت لو أن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم متن أما كان يحل له أن يتزوج قال وما يمنعه من ذلك قلت قوله لا يحل لك النساء من بعد قال إنما أحل له ضربا من النساء ووصف له صفة فقال يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك إلى قوله وامرأة مؤمنة ثم قال لا يحل لك النساء من بعد هذه الصفة وعن ابن عباس قال نهي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات قال لا يحل لك النساء من بعد الآية فأحل له الفتيات المؤمنات وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي وحرم كل ذات

عند كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم ما في السموات والارض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون) يقول تعالى مخبرا عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدهم الى ان محمدا رسول الله كما جاء صالح بناقته قال الله تعالى قل يا محمد انما الآيات عند الله أي انما أمر ذلك الى الله فانه

لو علم انكم تهتدون لاجابكم الى سؤالكم لان ذلك سهل عليه يسير لديه ولكنه يعلم منكم انكم انما قصدتم التعنت والامتحان فلا يجيبكم الى ذلك كما قال تعالى وما منعنا ان نرسل بالآيات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وقوله وانما أنا نذير مبين أي انما بعثت نذيرا لكم بين النذارة فعلي ان أبلغكم رسالة الله تعالى ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقال تعالى ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ثم قال تعالى مبينا كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما جاءهم وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه الذي هو أعظم من كل معجزة اذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه فقال تعالى أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم أي أولم يكفهم آية انا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم وانت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتهم بأخبار ما في الصحف الاولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي كما قال تعالى أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل وقال تعالى وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الاولى وقال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا ليث حدثني سعيد بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من الانبياء من نبي الا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فارجو ان أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة أخرجاه من حديث الليث وقد قال

دين غير الاسلام وقال يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك الى قوله خالصة لك من دون المؤمنين وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء وعنه قال نهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان يتزوج بعد نسائه الاول شيأ وعنه في الآية قال حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه وعن أنس قال لما خيرهن فاخترن الله ورسوله قصره عليهن فقال لا يحل لك النساء من بعد وعن أم سلمة قالت لم يمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له ان يتزوج من النساء ما شاء الا ذات محرم وذلك قول الله ترجي من تشاء منهن الآية وأخرج أحمد وأبو داود في ناسخه والترمذي وصححه والنسائي والحاكم وصححه عن عائشة قالت لم يمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحل الله له ان يتزوج من النساء ما شاء الا ذات محرم لقوله ترجي من تشاء منهن الآية وعن ابن عباس مثله وعن أبي رزين لا يحل لك النساء من بعد قال من المشركات الا ما سبيت فملكت يمينك (ولا ان تبدل بهن من أزواج) أي ليس لك ان تطلق واحدة منهن أو أكثر وتتزوج بدل من طلقت منهن أي من المسلمات غيرهن من الكتابيات لانه لا تكون أم المؤمنين يهودية ولا نصرانية ومن مزيدة لتأكيد النفي وفائدته استغراق جنس الازواج بالتحريم وقال ابن زيد هذا شئ كانت العرب تفعله تقول خذ زوجتي وأعطني زوجتك وقد أنكر ابن جرير والنحاس ما ذكره ابن زيد قال ابن جرير ما فعلت العرب هذا قط ويدفع هذا الانكار منهما ما أخرجه الدارقطني عن أبي هريرة قال كان البدل في الجاهلية ان يقول الرجل للرجل تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله عز وجل ولا ان تبدل بهن وأخرجه أيضا عنه البزار وابن مردويه وأخرجا عن أبي هريرة قال كان البدل في الجاهلية ان يقول الرجل للرجل بادلني امرأتك وأبادلك امرأتي أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله هذه الآية قال فدخل عيينة بن حصن الفزاري على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعنده عائشة فدخل بغير اذن فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أين الاستئذان قال يا رسول الله ما استأذنت على رجل من الانصار منذ أدركت ثم قال من هذه الحميراء الى جنبك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه عائشة أم المؤمنين قال أفلا أنزل لك عن أحسن خلق الله قال يا عيينة ان الله حرم ذلك فلما ان خرج قالت عائشة من هذا قال أحمق مطاع وانه على ما ترين لسيد قومه (ولو أعجبك حسنهن) وهذا كقولك اعطوا السائل ولو على فرس أي في كل

الله تعالى ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون أي ان في هذا القرآن لرحمة أي بيان للحق وازاحة للباطل وذكرى بما فيه حلول النقمات ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون ثم قال تعالى قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من اخباري عنه بانه أرسلني ولو كنت كذبا عليه لانتقم مني كما قال تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين وانما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات يعلم ما في السموات والارض أي لا تخفى عليه خافية والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا رسل الله مع قيام الادلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والاوثان بلا دليل فيجازيهم على ذلك انه حكيم عليم (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله ان يقع بهم وبأس الله ان يحل عليهم كما قال تعالى واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم وقال ههنا ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب الى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريبا سريعا كما استعجلوه ثم قال وليأتينهم بغتة أي فجأة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة قال شعبة عن سماك عن عكرمة قال في قوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين قال البحر وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا عمر بن اسمعيل بن خالد حدثنا أبي عن مجالد عن الشعبي انه سمع ابن عباس يقول ان جهنم لمحيطة بالكافرين وجهنم هو هذا البحر الاخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم وقال الامام أحمد حدثنا أبو عاصم أخبرنا عبد الله بن أمية حدثني محمد بن حيي أخبرني صفوان بن يعلى عن أبيه ان النبي صلى

حل لك على هذه الحالة المنافية للاعطاء وقيل تقديره مفروضا العطايا من أي لا يحل لك التبدل بازواجك ولو أعجبك حسن غيرهن وجمالهن ممن أردت ان تجعلها بدلا من احداهن وهذا التبدل أيضا من جملة ما نسخه الله في حق رسوله على القول الراجح ونسخها اما بالسنة أو بقوله انا أحللنا لك أزواجك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف قال ابن عباس يعني أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب لما استشهد جعفر أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان يخطبها فنهي عن ذلك (الا ما ملكت يمينك) استثناء من النساء لانه يتناول الحرائر والاماء وقيل منقطع والمعنى تحل لك الاماء وقد ملك صلى الله عليه وآله وسلم بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس ملك القبط وهم أهل مصر والاسكندرية وولدت له ابراهيم في ذي الحجة سنة ثمان ومات في حياة أبيه وله سبعون يوما وقيل سبعة وعشرة اشهر وفي رواية انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يصل عليه بنفسه بل امرهم فصلوا قاله ابن حجر في شرح الهمزية وقد اختلف العلماء في تحليل الامة الكافرة على قولين الاول انها تحل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لعموم هذه الآية وبه قال مجاهد وسعيد ابن جبير وعطاء والحسن والثاني انها لا تحل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتنزيهه القدر عن مباشرة الكافرة ويترجح القول الاول بعموم هذه الآية وتعليل المنع بالتنزيه ضعيف فلا نزه عما أحله الله فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بامور النكاح لا باعتبار غير ذلك فالمشركون نجس بنص القرآن ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه ولا تمسكوا بعصم الكوافر فانه نهي عام (وكان الله على كل شيء رقيبا) أي مراقبا حافظا وفي الآية دليل على جواز النظر الى من يريد نكاحها من النساء ويدل عليه ما روي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا خطب أحدكم المرأة فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل أخرجه أبو داود وعن أبي هريرة ان رجلا أراد أن يتزوج امرأة من الانصار فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم انظر اليها فان في أعين الانصار شيأ قال الحميدي يعني هو الصغر وعن المغيرة بن شعبة قال خطبت امرأة فقال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل نظرت اليها قلت لا قال فانظر اليها فانه أحرى ان يؤدم بينكما أخرجه الترمذي وقال حسن (يا أيها الذين آمنوا) شروع في بيان ما يجب رعايته على الناس من حقوق نساء النبي اثر بيان ما يجب مراعاته عليه من حقوقهن (لا تدخلوا

الله عليه وسلم قال البحر هو جهنم قالوا للبعلى فقال ألا ترون ان الله تعالى ... قال لا والذى نفسى يعلى بيده لا أدخلها أبدا حتى أعرض على الله ولا يصيبنى منها قطرة حتى أعرض على الله ... هذا تفسير غريب وحديث غريب جدا والله أعلم ثم قال عز وجل يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم كقوله تعالى لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وقال تعالى لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل وقال تعالى لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم الآية فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب

الحسى وقوله تعالى ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر انا كل شئ خلقناه بقدر وقال تعالى يوم يدعون الى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون (يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على اقامة الدين فيها الى أرض الله الواسعة حيث يمكن اقامة الدين بان يوحدوا الله و يعبدوه كما أمرهم ولهذا قال تعالى يا عبادى الذين آمنوا ان أرضى واسعة فاياى فاعبدون قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا بقية بن الوليد حدثنى جبير بن عمرو القرشى حدثنى أبو سعد الانصارى عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام عن الزبير بن العوام قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين الى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيدهم بنصره وجعلهم سيوما ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة الباقون الى المدينة النبوية يثرب المطهرة ثم قال تعالى كل نفس ذائقة الموت ثم الينا

بيوت النبى) هذا نهى عام لكل مؤمن ان يدخل بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الا باذن منه وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة فى وليمة زينب وقد أخرج البخارى ومسلم عن أنس قال قال عمر بن الخطاب يا رسول الله ان نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب وفى لفظ انه قال عمر يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس قال لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون واذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وآله وسلم ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وآله وسلم انهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الآية وأخرج ابن جرير عن عائشة ان أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم كن يخرجن بالليل اذا تبرزن الى المناصع وهو صعيد أفيح وكان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفعل ذلك فخرجت سودة بنت زمعة ليلة من الليالى عشيا وكانت امرأة طويلة فناداها عمر بصوته الاعلى قد عرفناك يا سودة حرصا على ان ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب قال يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الآية وأخرج ابن سعد عن أنس قال نزل الحجاب مبتنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزينب بنت جحش وذلك سنة خمس من الهجرة وحجب نساءه من يومئذ وأنا ابن خمس عشرة سنة وكذا أخرج ابن سعد عن صالح بن كيسان وقال نزل الحجاب على نسائه فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة وبه قال قتادة والواقدى وزعم أبو عبيدة وخليفة بن خياط ان ذلك كان فى سنة ثلاث وفى الآية دليل على ان البيت للرجل ويحكم له به فان الله أضافه اليه اضافة ملك وأما اضافته الى الازواج فى قوله ما يتلى فى بيوتكن فهى اضافة محل بدليل انه جعل فيها الاذن الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم والاذن انما يكون من المالك واختلف العلماء فى بيوت النبى صلى الله عليه وآله وسلم التى كان يسكن فيها نساؤه بعد موته هل هى ملك لهن أولا على قولين فقالت طائفة كانت ملكا لهن بدليل انهن سكن فيها بعد موت النبى صلى

ترجعون أي أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة الله وحيث أمركم الله فهو خير لكم فان الموت لا بد منه ولا محيد عنه ثم
الى الله المرجع والمآب فمن كان مطيعا له جازاه أفضل الجزاء ووفاه أتم الثواب ولهذا قال تعالى والذين آمنوا وعملوا الصالحات
لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الانهار أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الانهار على اختلاف أصنافها من
ماء وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاؤا خالدين فيها أي ماكثين فيها أبدا لا يبغون عنها حولا نعم أجر العاملين نعمت
هذه الغرف أجرا على اعمال المؤمنين الذين صبروا أي على دينهم وهاجروا الى الله ونابذوا الاعداء وفارقوا
الاهل والاقرباء ابتغاء وجه الله
و رجاء ما عنده وتصديق موعوده
قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا
أبي أخبرنا صفوان المؤذن أخبرنا
الوليد بن مسلم أخبرنا معاوية بن
سلام عن أخيه زيد بن سلام عن
جده أبي سلام الاسود حدثني أبو
معاوية الاشعري ان ابا مالك
الاشعري حدثه ان رسول الله صلى
الله عليه وسلم حدثه ان في الجنة
غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها
من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن
أطعم الطعام وأطاب الكلام وتابع
الصلاة والصيام وقام بالليل
والناس نيام وعلى ربهم يتوكلون في
أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم
ثم اخبرهم تعالى ان الرزق لا يختص
ببقعة بل رزقه تعالى عام لخلقه
حيث كانوا واين كانوا بل كانت
ارزاق المهاجرين حيث هاجروا
اكثر وأوسع واطيب فانهم بعد
قليل صاروا حكام البلاد في سائر
الاقطار والامصار ولهذا قال تعالى
وكأين من دابة لا تحمل رزقها اي
لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر
شيأ لغد الله يرزقها واياكم اي الله
يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث الى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الارض والطير
في الهواء والحيتان في الماء قال تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين
وقال ابن ابي حاتم حدثنا محمد بن عبد الرحمن الهروي حدثنا يزيد يعني ابن هرون حدثنا الجراح بن منهال الجزري هو أبو العطوف عن
الزهري عن رجل عن ابن عمر قال خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر
ويأكل فقال لي يا ابن عمر مالك لا تأكل قال قلت لا أشتهيه يا رسول الله قال لكني اشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده

الله عليه وآله وسلم الى وفاتهن وذلك ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهب لهن ذلك في
حياته الثاني ان ذلك كان اسكانا كما يسكن الرجل أهله ولم يكن هبة واستمرت سكناهن بها
الى الموت وهذا هو الصحيح وهو الذي ارتضاه أبو عمر بن عبد البر وابن العربي وغيرهما فان
ذلك من مؤنتهن التي كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استثناها لهن كما استثنى لهن
نفقاتهن حين قال لا تقسم ورثتي دينارا ولا درهما ما تركت بعد نفقة أهلي ومؤنة
عاملي فهو صدقة هكذا قال أهل العلم قالوا ويدل على ذلك ان مساكنهن لم يرثها عنهن
ورثتهن قالوا وفي ترك ورثتهن ذلك دليل على انها لم تكن لهن ملكا وانما كان لهن سكنى
حياتهن فلما توفين جعل ذلك زيادة في المسجد الحرام الذي يعم المسلمين نفعه كما جعل ذلك
الذي كان لهن من النفقات في تركة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما مضين الى
سبيلهن فزيد الى أصل المال فصرف في منافع المسلمين مما يعم نفعه الجميع والله الموفق كذا
قاله القرطبي واعلم ان قالون همز النبي حيث وقع الا في موضعين من هذه السورة أحدهما
هذه الآية والثاني قوله ان وهبت نفسها للنبي فابدلها ياء في الوصل وهمزها في الوقف
كما ذكره الشاطبي ولم يسهلها كما سهل غيرها لانه رأى الابدال هنا جاريا على القياس فيه
فرجحه او اقتصه لغيره ولانه أفصح من التسهيل ولذلك أنكر على من قال يا نبيء الله
بالهمز وهذا اعتبار عليه فلله در التنزيل وما فسره من دقائق التأويل (الا أن يؤذن
لكم) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أي لا تدخلوها في حال من الاحوال الا في حال
كونكم مأذونا لكم أي الا مصحوبين بالاذن أو الا بأن يؤذن لكم أو الا وقت ان
يؤذن لكم وقوله (الى طعام) متعلق بيؤذن على تضمينه معنى الدعاء أي الا ان يؤذن لكم
مدعوين الى طعام (غير ناظرين اناه) انتصاب غير على الحال والعامل فيه يؤذن أو مقدر
أي ادخلوا غير ناظرين ومعنى ناظرين منتظرين وأناه نضجه وادراكه يقال انى يأني اناء اذا
حان وأدرك قال الرازي في الآية اما ان يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى
طعام الا ان يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول في غير وقت الطعام بغير اذن واما ان لا
يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا ان يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن
مشروطا بكونه الى طعام فان لم يؤذن الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في
الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام فلا يجوز فنقول المراد هو الثاني ليعم النهي عن
الدخول

ولوشئت لدعوت ربي فاعطاني مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر اذا بقيت في قوم يخبؤن رزق سنتهم و يضعف اليقين قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فان الحياة بيد الله الاواني لا أكنز دينارا ولا درهما ولا اخبأ رزقا لغد هذا حديث غريب وأبو العطوف الجزري ضعيف وقد ذكروا ان الغراب اذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فاذا رآهم أبوهم كذلك نفر عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه

الدخول واما كونه لا يجوز الا باذن الى الطعام فلما هو مذكور في سبب النزول ان الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير اذن وقال ابن عادل الاولى ان يقال المراد هو الثاني لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لاسيما اذا علم ان غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله باذنه الى غير الطعام انتهى والاولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال قد دلت الادلة على جواز دخول بيوته صلى الله عليه وآله وسلم باذنه لغير الطعام وذلك معلوم لاشك فيه فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام فيأذن لهم وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذي نزل فيه وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه وأمثالهم فلا تدل على المنع من الدخول مع الاذن لغير ذلك والا لما جاز لاحد أن يدخل بيوته باذنه لغير الطعام واللازم باطل فالملزوم مثله قال ابن عطية وكانت سيرة القوم اذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء الى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه وكذلك اذا فرغوا منه جلسوا كذلك فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودخل في النهي سائر المؤمنين والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك فمنعهم من الدخول الا باذن عند الاكل لا قبله لانتظار نضج الطعام ثم بين سبحانه ما ينبغي في ذلك فقال (ولكن اذا دعيتم) وأذن لكم فادخلوا وفيه تأكيد بليغ للمنع وبيان الوقت الذي يكون فيه الدخول وهو عند الاذن وقال ابن العربي وتقدير الكلام ولكن اذا دعيتم وأذن لكم (فادخلوا) والا فنفس الدعوة لا يكون اذنا كافيا في الدخول وقيل ان فيه دلالة بينة على أن المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه قال الرازي فيه لطيفة وهي ان في العادة اذا قيل لمن يعتاد دخول دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى و ينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين اذا قيل لكم لا تدخلوا فلا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وقوله الا أن يؤذن لكم يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فليس تأكيدا بل هو مفيد فائدة جديدة (فاذا طعمتم) أي أكلتم الطعام يقال طعم بكسر العين يطعم بفتحها طعما كفهم وطعما كقفل وفي الخطيب

فيقيض الله تعالى طيرا صفارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الايام حتى يسود ريشه والابوان يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فاذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق ولهذا قال الشاعر

يارازق النعاب في عشه
وجابر العظم الكسير المهيض

وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الاوامر كقول النبي صلى الله عليه وسلم سافروا تصحوا وترزقوا قال البيهقي أخبرنا املاء أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد ابن عبيد أخبرنا محمد بن غالب حدثني محمد بن سنان أخبرنا محمد بن عبد الرحمن بن يزداد شيخ من أهل المدينة حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سافروا تصحوا وتغنموا قال ورويناه عن ابن عباس وقال الامام أحمد حدثنا قبيصة أخبرنا ابن لهيعة عن دراج عن عبد الرحمن بن محمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سافروا تربحوا وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا وقد

 وورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعا وعن معاذ بن جبل مرفوعا وفي لفظ سافروا مع ذي الجدود والمسرة قال ورويناه عن ابن عباس وقوله وهو السميع العليم أي السميع لاقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم

(ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شيء عليم ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون) يقول تعالى مقررا انه لا اله الا هو لان المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بانه المستقل بخلق السموات والارض

والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار وانه الخالق الرازق لعباده ومقدر آجالهم واختلافها واختلاف أرزاقهم فتفاوت بينهم فمنهم الغني والفقير وهو العليم بما يصلح كلا منهم ومن يستحق الغنى ممن يستحق الفقر فذكر انه المستقل بخلق الاشياء المتفرد بتدبيرها فاذا كان الامر كذلك فلم يعبد غيره ولم يتوكل على غيره فكما انه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته وكثيرا ما يقرر تعالى مقام الالهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك الا شريكا هو لك تملكه وما ملك (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب (٣٠٦) وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها وانها لا دوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الآباد وقوله تعالى لو كانوا يعلمون أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى ثم أخبر تعالى عن المشركين انهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له فهلا يكون هذا منهم دائما فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين كقوله تعالى واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم الآية وقال ههنا فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقد ذكر محمد بن اسحق عن عكرمة ابن أبي جهل انه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ذهب فارا منه فلما ركب في البحر ليذهب الى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم اخلصوا لربكم الدعاء فانه لا ينجي ههنا الا هو فقال عكرمة والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره فانه لا ينجي في البر أيضا غيره اللهم   دون

لك علي عهد لئن خرجت لاذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤفا رحيما فكان كذلك وقوله تعالى ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الاصول لام العاقبة لانهم لا يقصدون ذلك ولا شك انها كذلك بالنسبة اليهم وأما بالنسبة الى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه اياهم لذلك فهي لام التعليل وقد قدمنا تقرير ذلك في قوله ليكون لهم عدوا وحزنا (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ومن أظلم ممن

اذا أكلتم طعاما أو شربتم شرابا (فانتشروا) أي اذهبوا حيث شئتم في الحال ولا تمكثوا بعد الاكل والشرب والمراد الالزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة اليه عند انقضاء المقصود من الاكل ولا تدخلوها حين (ولا) تمكثوا (مستأنسين لحديث) يستأنس بعضكم ببعض لاجل حديث يحدثه به يقال أنست به انسا من باب علم وفي لغة من باب ضرب والانس بالضم اسم منه واستأنست به وتأنست به اذا سكن القلب ولم ينفر (ان ذلكم) أي الانتظار أو المكث والاستئناس للحديث وأشير اليهما بما يشار به الى الواحد بتأويلهما بالمذكور كما في قوله تعالى عوان بين ذلك أي ان ذلك المذكور من الامرين (كان) في علم الله (يؤذي النبي) لانهم كانوا يضيقون عليه المنزل وعلى أهله ويتحدثون بما لا يريده قال الزجاج كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحتمل اطالتهم كرما منه فيصبر على الاذى في ذلك فعلم الله من يحضره الادب فصار أدبا لهم ولمن بعدهم (فيستحيي منكم) أي يستحيي ان يقول لكم قوموا أو اخرجوا (والله لا يستحيي من الحق) أي لا يترك ان يبين لكم ما هو الحق ولا يمتنع من بيانه واظهاره والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة قرأ الجمهور يستحيي بيائين وروي عن ابن كثير انه قرأ بياء واحدة وهي لغة تميم يقولون استحى يستحي مثل استقى يستقي وهذا أدب أدب الله به الثقلاء وعن عائشة حسبك في الثقلاء ان الله تعالى لم يحتملهم وقال اذا طعمتم فانتشروا ثم ذكر سبحانه أدبا آخر متعلقا بنساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال (واذا سألتموهن) أي أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم (متاعا) أي شيأ يتمتع به من الماعون وغيره والمتاع يطلق على كل ما يتمتع به فلا وجه لما قيل من ان المراد به العارية أو الفتوى أو المصحف (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب) أي من وراء ستر بينكم وبينهن فبعد آية الحجاب لم يكن لاحد أن ينظر الى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة (ذلكم) أي سؤال المتاع من وراء الحجاب وقيل الاشارة الى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول وسؤال المتاع والاول أولى واسم الاشارة مبتدأ وخبره قوله (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي أكثر تطهيرا لها من الريبة وخواطر السوء التي تعرض للرجال في أمر النساء وللنساء في أمر الرجال وأبعد للتهمة وأقوى في الحماية وفي هذا أدب لكل مؤمن وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له والمكالمة من

افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)
يقول تعالى ممتنا على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ومن دخله كان آمنا فهم في أمن عظيم والاعراب حوله ينهب بعضهم بعضا ويقتل بعضهم بعضا كما قال تعالى لإيلاف قريش الى آخر السورة وقوله تعالى أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا معه غيره من الاصنام والانداد وبدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار فكفروا بنبي الله

وعبده ورسوله فكان اللائق بهم اخلاص العبادة لله وان لا يشركوا به وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره فأخرجوه من بين أظهرهم ولهذا سلبهم الله تعالى ما كان أنعم به عليهم وقتل من قتل منهم ببدر ثم صارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين ففتح الله على رسوله مكة وأرغم آنافهم وأذل رقابهم ثم قال تعالى ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال ان الله أوحى اليه ولم يوح اليه شئ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهكذا لا احد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالاول مفتر والثاني مكذب ولهذا قال تعالى أليس في جهنم مثوى للكافرين ثم قال تعالى والذين جاهدوا فينا يعني الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأتباعه الى يوم الدين لنهدينهم سبلنا أي لنبصرنهم سبلنا أي طرقنا في الدنيا والآخرة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد ابن أبي الحواري أخبرنا عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكا في قول الله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون قال أحمد بن أبي الحواري فحدثت به أبي سليمان يعني الداراني فأعجبه وقال ليس ينبغي لمن ألهم شيأ من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الاثر فاذا سمعه في الاثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما في قلبه وقوله وان الله لمع المحسنين قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عيسى بن جعفر قاضي الري حدثنا أبو جعفر الرازي عن المغيرة عن الشعبي قال قال عيسى بن مريم عليه السلام انما الاحسان أن تحسن الى من أساء اليك ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن اليك والله أعلم آخر تفسير سورة العنكبوت ولله الحمد والمنة

دون حجاب لمن تحرم عليه فان مجانبة ذلك أحسن بحاله وأحصن لنفسه وأتم لعصمته (وما كان) أي ما صح ولا استقام (لكم ان تؤذوا رسول الله) بشئ من الاشياء كائنا ما كان ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير اذن منه واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده وتكليم نسائه من دون حجاب (ولا ان تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أي ولا كان لكم ذلك بعد وفاته أو فراقه لانهن أمهات المؤمنين ولا يحل للاولاد نكاح الامهات قال ابن عباس في الآية نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته قال سفيان وذكروا أنها عائشة وعن السدي قال بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال أيحجبنا محمد عن بنات عمنا ويتزوج نساءنا من بعدنا لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت هذه الآية وعن قتادة قال قال طلحة بن عبيد الله لو قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتزوجت عائشة فنزلت وعن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قال نزلت في طلحة لانه قال اذا توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم تزوجت عائشة قال ابن عطية وهذا عندي لا يصح على طلحة قال القرطبي قال شيخنا الامام أبو العباس وقد حكي هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله وانما الكذب في نقله وانما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال وعن ابن عباس قال قال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو قد مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تزوجت عائشة وأم سلمة فأنزل الله وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله الآية وعنه أن رجلا أتى بعض أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا فقال يا رسول الله انها ابنة عمي والله ما قلت لها منكرا ولا قالت لي قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد عرفت ذلك انه ليس أحد أغير من الله وانه ليس أحد أغير مني فمضى ثم قال يمنعني من كلام ابنة عمي لاتزوجنها من بعده فأنزل الله هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشيا توبة من كلمته وعن أسماء بنت عميس قالت خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقالت ان أسماء متزوجة عليا فقال لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما كان لها ان تؤذي الله ورسوله والذي جرى عليه الرملي في شرح المنهاج ان من عقد عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم تحرم على غيره سواء دخل بها صلى الله عليه وآله وسلم أولا وأما حكم امائه فمن

(تفسير سورة الروم وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه الى القسطنطينية وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي وقال الامام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا أبو اسحق عن سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى الم غلبت الروم في أدنى الارض قال غلبت وغلبت قال كان المشركون يحبون ان تظهر فارس على الروم لانهم أصحاب أوثان وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لانهم أهل الكتاب فذكر ذلك لابي بكر فذكره أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما انهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم فقالوا اجعل بيننا وبينك أجلا فان ظهرنا كان لنا كذا وكذا وان ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الا جعلتها أراه قال العشر قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله الم غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون الى قوله وهو العزيز الرحيم هكذا رواه الترمذي والنسائي جميعا عن الحسين بن حريث عن معاوية بن عمرو عن أبي اسحق الفزاري عن سفيان بن سعيد الثوري به وقال الترمذي حسن غريب انما نعرفه من حديث سفيان عن حبيب ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن اسحق الصغاني عن معاوية بن عمرو به ورواه ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد بن سعيد أو سعيد الثعلبي الذي يقال له أبو سعد من أهل طرسوس حدثنا أبو اسحق الفزاري فذكره وعندهم قال سفيان فبلغني انهم غلبوا يوم بدر حديث آخر قال سليمان بن مهران الاعمش عن مسلم عن مسروق قال قال عبد الله خمس قد مضين الدخان واللزام والبطشة والقمر والروم أخرجاه وقال ابن جرير حدثنا ابن

دخل بهن انهن حرمت على غيره والا فلا (ان ذلكم) أي نكاح أزواجه من بعده (كان عند الله عظيما) أي ذنبا عظيما وخطبا هائلا شديدا وهذا من اعلام تعظيم الله لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا واعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فان من الناس من تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده (ان تبدوا شيئا) أي تظهروه على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله كان بكل شئ عليما) يعلم كل شئ من الاشياء ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله وما تكتمونه في صدوركم وفي هذا وعيد شديد لان احاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها قال أبو امامة بن سهل في الآية ان تكلموا به فتقولون نتزوج فلانة لبعض أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو تخفوا ذلك في أنفسكم فلا تنطقوا به يعلمه الله ثم بين سبحانه من لا يلزم الحجاب منه فقال (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء اخواتهن) فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم في رؤية وكلام ولم يذكر العم والخال لانهما يجريان مجرى الوالدين وقال الزجاج العم والخال ربما يصفان المرأة لولديهما فان المرأة تحل لابن العم وابن الخال فكره لهما الرؤية وهذا ضعيف جدا فان تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر اليها لا سيما أبناء الاخوة وأبناء الاخوات واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا يستلزم ان لا يجوز للنساء الاجنبيات ان ينظرن اليها لانهن يصفنها واللازم باطل فالملزوم مثله وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة من انه يكره للمرأة ان تضع خمارها عند عمها أو خالها والاولى ان يقال انه سبحانه اقتصر ههنا على بعض من ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاء بما تقدم (ولا نسائهن) هذه الاضافة تقتضي ان يكون المراد بالنساء المؤمنات لان الكافرات غير مأمونات على العورات والنساء كلهن عورة فيجب على أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم الاحتجاب عنهن كما يجب على سائر المسلمات أي ما عدا ما يبدو عند المهنة اما هو فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات له ذا قيل هو خاص أي لا يجوز للكتابيات الدخول على أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيل عام في المسلمات والكتابيات (ولا ما ملكت أيمانهن) من العبيد والاماء ان يروهن ويكلموهن من غير حجاب وقيل

الاماء

الاماء خاصة ومن لم يبلغ من العبيد والخلاف فى ذلك معروف وقد تقدم فى سورة النور مافيه كفاية ثم أمر سبحانه بالتقوى التى هى ملاك الامر كله ونقل الكلام من الغيبة الى الخطاب وفى هذا النقل فضل تشديد كأنه قيل (واتقين الله) فى كل الامور التى من جملتها ماهو مذكور هنا من الاحتجاب أى ان يراكن أحد غير هؤلاء قال ابن عباس فى الآية أنزلت هذه فى نساء النبى صلى الله عليه وآله وسلم خاصة (ان الله كان على كل شئ) من أعمال العباد (شهيدا) لم يغب عنه شئ من الاشياء كائنا ما كان فهو مجاز للمحسن باحسانه وللمسئ باساءته والشهيد الذى يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح (ان الله وملائكته يصلون على النبى) هذه الآية شرف الله بها رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حياته وموته وأظهر بها منزلته عنده تعالى والضمير فى يصلون راجع الى الله والى الملائكة وفيه تشريف للملائكة عظيم حيث جعل الضمير لهم ولله سبحانه واحدا فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه صلى الله عليه وآله وسلم لما سمع الخطيب يقول من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال بئس خطيب القوم أنت قل ومن يعص الله ورسوله ووجه ذلك انه ليس لاحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره فى ضمير واحد وهذا الحديث ثابت فى الصحيح وثبت أيضا فى الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر مناديا ينادى يوم خيبر ان الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الاهلية ولاهل العلم أبحاث فى الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله وللملائكة واحدا والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله فى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويحمل الذم لذلك الخطيب الجامع بينهما على انه صلى الله عليه وآله وسلم فهم منه ارادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله فيختص المنع بمثل ذلك وهذا أحسن ماقيل فى الجمع وقالت طائفة فى هذه الآية حذف والتقدير ان الله يصلى وملائكته يصلون وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره فى ضمير واحد ولا يرد أيضا ماقيل ان الصلاة من الله الرحمة ومن ملائكته الدعاء فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين فى لفظ يصلون ويقال على القول الاول انه أريد بيصلون معنى مجازى يعم المعنيين وذلك بان يراد بقوله يصلون يهتمون باظهار شرفه أو يعظمون شأنه أو يعتنون بامره وحكى البخارى عن أبى العالية ان صلاة الله سبحانه ثناؤه عليه عند ملائكته

وكيع حدثنا المحاربى عن داود بن أبى هند عن عامر هو الشعبى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال كان فارس ظاهرة على الروم وكان المشركون يحبون ان تظهر فارس على الروم وكان المسلمون يحبون ان تظهر الروم على فارس لانهم أهل كتاب وهم أقرب الى دينهم فلما نزلت الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين قالوا يا أبا بكر ان صاحبك يقول ان الروم تظهر على فارس فى بضع سنين قال صدق قالوا هل لك الى أن نقامرك فبايعوه على أربع قلايص الى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شئ ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال ما بضع سنين عندكم قالوا دون العشر قال اذهب فزايدهم وازدد سنتين فى الاجل قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس ففرح المؤمنون بذلك وأنزل الله تعالى الم غلبت الروم الى قوله تعالى وعد الله لا يخلف الله وعده حديث آخر قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن عمر الوكيعى حدثنا مؤمل عن اسرائيل عن أبى اسحق عن البراء قال لما نزلت الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون قال المشركون لابى بكر ألا ترى الى مايقول صاحبك يزعم ان الروم تغلب فارس قال صدق صاحبى قالوا هل لك ان نخاطرك فجعل بينه وبينهم أجلا فحل الاجل قبل ان يغلب الروم فارس فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وساءه ذلك وكرهه وقال لابى بكر مادعاك الى هذا قال تصديقا لله ولرسوله قال تعرض لهم وأعظم لهم الخطر واجعله الى بضع سنين فأتاهم أبو بكر فقال لهم هل لكم فى العود فان العود أحمد قالوا نعم فلم تمض تلك السنين حتى غلبت الروم فارس وربطوا خيولهم بالمدائن وبنوا الرومية فجاء به أبو بكر الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال هذا السحت قال تصدق به حديث آخر قال أبو عيسى الترمذى حدثنا محمد بن اسمعيل حدثنا اسمعيل بن أبى أويس أخبرنى ابن أبى الزناد عن عروة بن الزبير عن نيار بن مكرم الأسلمى قال لما نزلت الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين فكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم لانهم واياهم أهل كتاب وفى ذلك قوله تعالى يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وكانت قريش تحب ظهور فارس لانهم واياهم

بينوا هل كتبوا سنين ستا فلما أنزلت هذه الآية خرج أبو بكر يصيح في نواحي مكة الم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين فقال ناس من قريش لأبي بكر فذلك بيننا وبينكم زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك على ذلك قال بلى وذلك قبل تحريم الرهان فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين فسم بيننا وبينك وسطا تنتهي إليه قال فسموا بينهم ست سنين قال فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر فلما دخلت (٣١٠) السنة السابعة ظهرت الروم على فارس فعاب المسلمون على أبي بكر تسمية ست سنين قال لأن الله تعالى يقول في بضع سنين قال وأسلم عند ذلك ناس كثير هكذا ساقه الترمذي ثم قال هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن ابن أبي الزناد وقد روي نحو هذا مرسلا عن جماعة من التابعين مثل عكرمة والشعبي ومجاهد وقتادة والسدي والزهري وغيرهم ومن أغرب هذه السياقات ما رواه الإمام سنيد بن داود في تفسيره حيث قال حدثني حجاج عن أبي بكر بن عبد الله عن عكرمة قال كانت في فارس امرأة لا تلد إلا الملوك الأبطال فدعاها كسرى فقال إني أريد أن أبعث إلى الروم جيشا وأستعمل عليهم رجلا من بنيك فأشيري علي أيهم أستعمل فقالت هذا فلان وهو أروغ من ثعلب وأحذر من صقر وهذا فرخان وهو أنفذ من سنان وهذا شهربراز وهو أحلم من كذا تعني أولادها الثلاثة فاستعمل أيهم شئت قال إني استعملت الحليم فاستعمل شهربراز فسار إلى الروم بأهل فارس فظهر عليهم فقتلهم وخرب مدائنهم وقطع زيتونهم قال أبو بكر بن عبد الله فحدثت بهذا الحديث عطاء الخراساني فقال أما رأيت بلاد الشام عسيا قلت لا قال أما إنك لو رأيتها لرأيت المدائن التي خربت والزيتون الذي قطع فأتيت الشام بعد ذلك فرأيته قال عطاء الخراساني حدثني يحيى بن يعمر أن قيصر بعث رجلا يدعى قطمة بجيش من الروم وبعث كسرى شهربراز فالتقيا بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إليكم فلقيت فارس الروم فغلبتهم فارس ففرحت بذلك كفار قريش وكرهه المسلمون قال عكرمة ولقي المشركون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم

وصلاة الملائكة الاستغفار وروى الترمذي في سننه عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا صلاة الرب الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار وقال عطاء بن أبي رباح صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس سبقت رحمتي غضبي والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة نبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند ملائكته وأن الملائكة تصلي عليه وأمر عباده بأن يقتدوا بذلك ويصلوا عليه وقد اختلف أهل العلم في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم هل هي واجبة أم مستحبة بعد اتفاقهم على أن الصلاة عليه فرض في العمر مرة وقد حكى هذا الإجماع القرطبي في تفسيره فقال قوم من أهل العلم إنها واجبة عند ذكره وقال قوم تجب في كل مجلس مرة وقد وردت أحاديث مصرحة بذم من سمع ذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلم يصل عليه واختلف العلماء في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تشهد الصلاة المفروضة هل هي واجبة أم لا فذهب الجمهور إلى أنها فيها سنة مؤكدة غير واجبة قال ابن المنذر يستحب أن لا يصلي أحد صلاة إلا صلى فيها على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن ترك ذلك تارك فصلاته مجزئة في مذهب مالك وأهل المدينة وسفيان الثوري وأهل الكوفة من أصحاب الرأي وغيرهم وهو قول جمهور أهل العلم قال وشذ الشافعي فأوجب على تاركها الإعادة مع تعمد تركها دون النسيان وهذا القول عن الشافعي لم يروه عنه إلا حرملة بن يحيى ولا يوجد عن الشافعي إلا من روايته قال الطحاوي لم يقل به أحد من أهل العلم غير الشافعي وقال الخطابي وهو من الشافعية إنها ليست بواجبة في الصلاة قال وهو قول جماعة الفقهاء إلا الشافعي ولا أعلم له في ذلك قدوة انتهى وقد قال بقول الشافعي جماعة من أهل العلم منهم الشعبي والباقر ومقاتل بن حيان وإليه ذهب أحمد بن حنبل آخرا كما حكاه أبو زرعة الدمشقي عنه وقال ابن راهويه وابن المواز من المالكية وقد جمع الشوكاني رحمه الله في هذه المسألة رسالة مستقلة ذكر فيها ما احتج به الموجبون لها وما أجاب به الجمهور وفي شرحه على المنتقى ورسالتي هداية السائل إلى أدلة المسائل ما يشفي ويكفي وأنهض ما يستدل به على الوجوب الحديث الثابت بلفظ أن الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك في صلاتنا قال قولوا الحديث فإن هذا الأمر يصلح للاستدلال به على الوجوب وأما على بطلان الصلاة بتركه ووجوب الإعادة لها فلا لأن الواجبات لا يستلزم

عدمها العدم كما يستلزم ذلك الشروط والاركان واعلم انه قد ورد فى فضل الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحاديث كثيرة لو جمعت لجاءت فى مصنف مستقل ولو لم يكن منها الا الاحاديث الثابتة فى الصحيح من قوله صلى الله عليه وآله وسلم من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرا فناهيك بهذه الفضيلة الجليلة والمكرمة النبيلة وأما صفة الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم فقد وردت فيها صفات كثيرة بأحاديث ثابتة فى الصحيحين وغيرهما منها ماهو مقيد بصفة الصلاة عليه فى الصلاة ومنها ماهو مطلق وهى معروفة فى كتب الحديث فلا نطيل بذكرها والذى يحصل به الامتثال لمطلق الامر فى هذه الآية هو ان يقول القائل اللهم صل وسلم على رسولك أو على محمد او على النبى أو اللهم صل على محمد وسلم ومن أراد أن يصلى ويسلم عليه بصفة من الصفات التى ورد التعليم بها او الارشاد اليها فذلك أكمل وهى صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة وسيأتى بعضها وسيأتى الكلام فى الصلاة على الآل وكان ظاهر هذا الامر بالصلاة والتسليم فى الآية ان يقول القائل صليت عليه وسلمت عليه او الصلاة عليه والسلام عليه أو عليه الصلاة والتسليم لان الله سبحانه أمرنا بايقاع الصلاة عليه والتسليم منا فالامتثال هو ان يكون ذلك على ماذكرنا فكيف كان الامتثال لامر الله لنا بذلك ان نقول اللهم صل عليه وسلم بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بان نصلى عليه ونسلم عليه وقد أجيب عن هذا بان هذه الصلاة والتسليم لما كانا شعارا عظيما للنبى صلى الله عليه وآله وسلم وتشريفا كريما وكلنا ذلك الى الله عز وجل وأرجعناه اليه وهذا الجواب ضعيف جدا وأحسن ما يجاب به ان يقال ان الصلاة والتسليم المأمور بهما فى الآية هما ان نقول اللهم صل عليه وسلم أو نحو ذلك مما يؤدى معناه كما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاقتضى ذلك البيان فى الاحاديث الكثيرة ان هذه هى الصلاة الشرعية واعلم ان هذه الصلاة من الله على رسوله وان كان معناها الرحمة فقد صارت شعارا له يختص به دون غيره فلا يجوز لنا ان نصلى على غيره من أمته كما يجوز لنا ان نقول اللهم ارحم فلانا أو رحم الله فلانا وبهذا قال الجمهور من العلماء مع اختلافهم هل هو محرم أو مكروه كراهة شديدة أو مكروه كراهة تنزيه على ثلاثة أقوال وقد قال ابن عباس كما رواه عنه ابن أبى شيبة والبيهقى فى الشعب لا تصلح الصلاة على احد الا على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولكن يدعى للمسلمين

من أهل الكتاب وانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فانزل الله تعالى الم غلبت الروم فى أدنى الارض الى قوله ينصر من يشاء فخرج أبو بكر الصديق الى الكفار فقال أفرحتم بظهور اخوانكم على اخواننا فلا تفرحوا ولا يقرن الله أعينكم فوالله ليظهرن الروم على فارس أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام اليه أبى بن خلف فقال كذبت يا أبا فضيل فقال له أبو بكر أنت أكذب يا عدو الله فقال أناحبك عشر قلائص منى وعشر قلائص منك فان ظهرت الروم على فارس غرمت وان ظهرت فارس غرمت الى ثلاث سنين ثم جاء أبو بكر الى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال ماهكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الاجل فخرج أبو بكر فلقى أبيا فقال لعلك ندمت فقال لا تعال ازايدك فى الخطر وأمادك فى الاجل فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين قال قد فعلت فظهرت الروم على فارس قبل ذلك فغلبهم المسلمون قال عكرمة لما ان ظهرت فارس على الروم جلس فرخان يشرب وهو أخو شهر براز فقال لاصحابه لقد رأيت كأنى جالس على سرير كسرى فبلغت كسرى فكتب كسرى الى شهر براز اذا أتاك كتابى فابعث الى برأس فرخان فكتب اليه شهر براز أيها الملك انك لن تجد مثل فرخان له نكاية وصوت فى العدو فلا تفعل فكتب اليه ان فى رجال فارس خلفا منه فعجل الى برأسه فراجعه فغضب كسرى فلم يجبه وبعث بريدا الى أهل فارس انى قد نزعت عنكم شهر براز واستعملت عليكم فرخان ثم رفع الى البريد صحيفة لطيفة صغيرة فقال اذا ولى فرخان الملك وانقاد له أخوه فاعطه هذه فلما قرأ شهر براز الكتاب قال سمعا وطاعة ونزل عن سريره وجلس عليه فرخان ورفع اليه الصحيفة اللطيفة فلما قرأها قال ائتونى بشهر براز وقدمه ليضرب عنقه فقال شهر براز لا تعجل حتى أكتب وصيتى قال نعم فدعا بالسفط فاعطاه الصحائف فقال كل هذا راجعت فيك كسرى وأنت أردت ان تقتلنى بكتاب واحد فرد الملك الى أخيه شهر براز وكتب شهر براز الى قيصر ملك الروم ان لى اليك حاجة لا تحملها البرد ولا تحملها الصحف فالقنى ولا تلقنى الا فى خمسين روميا فانى لا ألقاك الا فى خمسين فارسيا فاقبل قيصر فى خمسمائة ألف رومى وجعل يضع العيون بين يديه فى الطريق وخاف ان يكون قد مكر به حتى أتاه عيونه بانه ليس معه الا خمسين رجلا ثم بسط لهما والتقيا فى قبة ديباج ضربت لهما مع كل واحد منهما

سكن قد عيا ترجمانا بينهما فقال شهر براز ان السر جرى بين اثنين فاذا جاوز اثنين فشا فقال أجل فقتلا الترجمان جميعا بسكينهما فأهلك الله كسرى وجاء الخبر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح والمسلمون معه فهذا سياق غريب وبناء عجيب ولنتكلم على كلمات هذه الآيات الكريمات فقوله تعالى الم غلبت الروم قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة وأما الروم فهم من سلالة العيص بن اسحق بن ابراهيم وهم أبناء عم بني اسرائيل ويقال لهم بنو الاصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لهم المتحيرة ويصلون الى القطب الشمالي وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب الى جهة الشمال فكان الروم على دينهم الى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل في دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطنطين وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته الى دينها وكان قبل ذلك فيلسوفا فتابعها يقال تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا في زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط الا انه اتفق من جماعتهم ثلثمائة وثمانية عشر اسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهي التي يسمونها الامانة الكبيرة وانما هي الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الاحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا الى المشرق واعتاضوا عن السبت بالاحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الاساقفة والقساقسة ثم الشمامسة وابتدعوا الرهبانية وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهي القسطنطينية يقال انه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة وبنى بيت لحم بثلاث

ابو

والمسلمات بالاستغفار وقال في المواهب لم ينقل ان الامم المتقدمة كان يجب عليهم ان يصلوا على أنبيائهم انتهى وقال في الانموذج ومن خواصه صلى الله عليه وآله وسلم انه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله تعالى على غيره صلى الله عليه وآله وسلم فهي خصيصة اختصه الله بها دون سائر الانبياء انتهى وقال قوم ان ذلك جائز لقوله تعالى وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ولقوله أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ولقوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته ولحديث عبد الله بن أبي أوفى الثابت في الصحيحين وغيرهما قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا أتاه قوم بصدقتهم قال اللهم صل عليهم فأتاه أبي بصدقته فقال اللهم صل على آل أبي أوفى ويجاب عن هذا بان هذا الشعار الثابت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم له ان يخص به من شاء وليس لنا ان نطلقه على غيره واما قوله تعالى هو الذي يصلي الخ وقوله أولئك عليهم صلوات فهذا ليس فيه الا ان الله سبحانه يصلي على طوائف من عباده كما يصلي على من صلى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مرة واحدة عشر صلوات وليس في ذلك أمر لنا ولا شرعه الله في حقنا بل لم يشرع لنا الا الصلاة والسلام على رسوله وكما ان لفظ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شعار له فكذا لفظ السلام عليه وقد جرت عادة جمهور هذه الامة والسواد الاعظم من سلفها وخلفها على الترضي عن الصحابة والترحم على من بعدهم والدعاء لهم بمغفرة الله وعفوه كما أرشدنا الى ذلك بقوله سبحانه والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم عن ابن عباس ان بني اسرائيل قالوا لموسى هل يصلي ربك فناداه ربه ياموسى سألوك هل يصلي ربك فقال نعم أنا أصلي وملائكتي على أنبيائي ورسلي فانزل الله على نبيه ان الله وملائكته يصلون على النبي الآية أي يبركون وعنه ان صلاة الله على النبي هي المغفرة ان الله لا يصلي ولكن يغفر واما صلاة الناس على النبي فهي الاستغفار له (ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه) أي ادعوا له بالرحمة وقولوا اللهم صل على محمد أو وصلى الله على محمد فانكم أولى بذلك وعن ابن عباس انه قرأ صلوا عليه كما صلى الله عليه (وسلموا تسليما) أي حيوه بتحية السلام وقولوا اللهم سلم على محمد او انقادوا لامره انقيادا والاول أولى ثم هي واجبة مرة عند الطحاوي وكلما ذكر اسمه عند الكرخي وهو الاحتياط وعليه الجمهور قال

أبو السعود وهذه الآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا أى من غير تعرض لوجوب التكرار وقال القسطلانى قيل هى مستحبة وقيل واجبة فى التشهد الاخير من كل صلاة وعليه الشافعى وهو رواية عن أحمد وقيل تجب فى الصلاة من غير تعيين لمحل منها وقيل تجب فى خارج الصلاة وقيل كلما ذكر وقيل فى كل مجلس مرة وان تكرر ذكره فيه وقيل تجب فى العمر مرة واحدة وقيل تجب فى الجملة من غير حصر وقيل يجب الاكثار منها من غير تقييد بعدد وتسليما مصدر مؤكد قال الامام ولم تؤكد الصلاة لانها مؤكدة بقوله ان الله وملائكته الخ وقيل انه من الاحتباك فحذف عليه من أحدهما والمصدر من الآخر وقال بعض الفضلاء انه سئل فى منامه لم خص السلام بالمؤمنين دون الله والملائكة ولم يذكر له جوابا قلت وقد لاح لى فيه نكتة سرية أى شريفة وهى ان السلام تسليمه عما يؤذيه فلما جاءت هذه الآية عقيب ذكر ما يؤذى النبى والاذية انما هى من البشر فناسب التخصيص بهم والتأكيد واليه الاشارة بما ذكر بعده قاله الشهاب وأقول هذه الآية من باب الاكتفاء على حد قوله سرابيل تقيكم الحر والمعنى ان الله وملائكته يصلون على النبى ويسلمون وقد ثبت بالادلة الصحيحة القرآنية وغيرها تسليم الله تعالى على غيره صلى الله عليه وآله وسلم من الانبياء والصلحاء والنكتة التى ذكرها الشهاب لا تخلو عن تكلف وبعد تأمل وعن كعب بن عجرة قال لما نزلت ان الله وملائكته الآية قلنا يارسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد أخرجه سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه وأخرجه البخارى ومسلم وغيرهما من حديثه بلفظ قال رجل يارسول الله اما السلام عليك فقد علمنا فكيف الصلاة عليك قال قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم انك حميد مجيد اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم انك حميد مجيد وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى من حديث طلحة بن عبيد الله قال قلت يارسول الله كيف الصلاة عليك قال قل اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد وفى الاحاديث اختلاف ففى بعضها على ابراهيم فقط وفى بعضها على آل ابراهيم فقط وفى بعضها بالجمع بينهما كحديث طلحة هذا وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى حميد الساعدى انهم قالوا يارسول الله كيف نصلى عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل ابراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل ابراهيم انك حميد مجيد والاحاديث فى هذا الباب كثيرة جدا وفى بعضها التقييد بالصلاة كما فى حديث ابن مسعود عند ابن خزيمة والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه ان رجلا قال يارسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك اذا نحن صلينا

محارب وبنت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية اتباع يعقوب الاسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطور وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة والغرض انهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وابهة كثيرة فناواه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهور ان كسرى بنفسه غزاه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك

عليك في صلاتنا الحديث وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله وجميع التعليمات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه الا النادر اليسير من الاحاديث فينبغي للمصلي عليه ان يضم آله اليه في صلاته عليه وقد قال بذلك جماعة ونقله امام الحرمين والغزالي قولا عن الشافعي كما رواه عنهما ابن كثير في تفسيره ولا حاجة الى التمسك بقول قائل في مثل هذا مع تصريح الاحاديث الصحيحة به ولا وجه لقول من قال ان هذه التعليمات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في صفة الصلاة عليه مقيدة بالصلاة في الصلاة حملا لمطلق الاحاديث على المقيد منها بذلك القيد لما في حديث كعب بن عجرة وغيره ان ذلك السؤال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان عند نزول الآية وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال صلوا على انبياء الله ورسله فان الله بعثهم كما بعثني ثم لما ذكر سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم ذكر الوعيد الشديد للذين يؤذونه فقال

(ان الذين يؤذون الله ورسوله) قيل المراد بالاذى هنا هو فعل ما يكرهانه من المعاصي لاستحالة التأذي في حقه سبحانه وقيل الاذى هذا القدر الايذاء حقيقي في حق الرسول والمجاز في حقه تعالى لاستحالة حقيقة التأذي عليه سبحانه قال الواحدي قال المفسرون هم المشركون واليهود والنصارى وصفوا الله بالولد فقالوا عزير ابن الله والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله وكذبوا رسول الله وشجوا وجهه وكسروا رباعيته وقالوا مجنون شاعر كذاب ساحر وبه قال ابن عباس قال القرطبي وبهذا قال جمهور العلماء وقال عكرمة الاذية لله سبحانه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله الا الله بنحت الصور وغيرها وقال جماعة ان الآية على حذف مضاف والتقدير ان الذين يؤذون أولياء الله وقيل معنى الاذية الالحاد في أسمائه وصفاته وأما أذية رسوله فهي كل ما يؤذيه من الاقوال والافعال ومنه ترك الاتباع وفعل التقليد لآراء الرجال وايثاره عليه (لعنهم الله) معنى اللعنة الطرد والابعاد من رحمته وجعل ذلك (في الدنيا والآخرة) لتشملهم اللعنة فيهما بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم الا واللعنة واقعة عليهم مصاحبة لهم (وأعد لهم) مع ذلك اللعن (عذابا مهينا) يصيرون به في الاهانة في الدار الآخرة لما يفيده معنى الاعداد من كونه في الدار الآخرة عن ابن عباس في الآية قال نزلت في الذين طعنوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين اتخذ صفية بنت حيي وروى عنه انها نزلت في الذين قذفوا عائشة ثم لما فرغ من الذم لمن آذى الله ورسوله ذكر الاذية لصالحي عباده فقال (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) بوجه من وجوه الاذى من قول أو فعل ومعنى قوله (بغير ما اكتسبوا) انه لم يكن ذلك بسبب فعلوه يوجب عليهم الاذية ويستحقونها به وقيل يقعون فيهم ويرمونهم بغير جرم فأما الاذية للمؤمن والمؤمنة بما كسبوه مما يوجب عليه حدا أو تعزيرا أو نحوهما فذلك حق أثبته الشرع وأمر أمر الله به وندبنا اليه وهكذا اذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة أو ضرب فان القصاص من الفاعل ليس من الاذية المحرمة على أي وجه كان ما لم يجاوز ما شرعه الله ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير

لخصامتم الان تصفهما من ناحية البر وتصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الامر دبر قيصر مكيدة ورأى في نفسه خديعة وطلب من كسرى ان يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه ويشترط عليه ما شاء فأجابه الى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه ان عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو واياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشره وسأل من كسرى ان يمكنه من الخروج الى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال اني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيشي فان رجعت اليكم قبل الحول فأنا ملككم وان لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار ان شئتم استمررتم على بيعتي وان شئتم وليتم عليكم غيري فأجابوه بانك ملكنا ما دمت حيا ولو غبت عشرة أعوام فلما خرج من

ما اكتسبوا فقال (فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا) أى ظاهرا واضحا الاشك فى كونه من البهتان والاثم وقد تقدم بيان حقيقة البهتان وحقيقة الاثم قيل انها نزلت فى على بن أبى طالب كانوا يؤذونه وقيل نزلت فى شأن عائشة وقيل نزلت فى الزناة كانوا يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء وهن كارهات وعن الفضيل لايحل لك ان تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق فكيف ايذاء المؤمنين والمؤمنات ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذى رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده أمر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يأمر بعض من ناله الاذى ببعض مايدفع ما يقع عليه منه فقال (يا أيها النبى قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهو ثوب أكبر من الخمار وهو الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار قال الجوهرى الجلباب الملحفة وقال الشهاب ازار واسع يلتحف به وقيل القناع وقيل هو كل ثوب يستر جميع بدن المرأة من كساء وغيره كما ثبت فى الصحيح من حديث أم عطية انها قالت يارسول الله احدانا لايكون لها جلباب فقال لتلبسها أختها من جلبابها قال الواحدى قال المفسرون يغطين وجوههن ورؤسهن الا عينا واحدة فيعلم انهن حرائر فلا يعرض لهن بأذى وبه قال ابن عباس وقال الحسن تغطى نصف وجهها وقال قتادة تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الانف وان ظهرت عيناها لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه وقال المبرد يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن ومن للتبعيض أى ترخى بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنع حتى تتميز عن الامة (ذلك) أى ادناء الجلابيب وهو مبتدأ وخبره (أدنى) أقرب (ان يعرفن) فيتميزن عن الاماء ويظهر للناس انهن حرائر (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن مراقبة لهن ولاهلهن وليس المراد بقوله ذلك أدنى ان تعرف الواحدة منهن من هى بل المراد ان يعرفن انهن حرائر لا اماء لانهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر قال السبكى فى الطبقات الكبرى ان من أئمة الشافعية أحمد بن عيسى شارح التنبيه استنبط من هذه الآية ان مايفعله علماء هذا الزمان فى ملابسهم من سعة الاكمام والعمة ولبس الطيلسان حسن وان لم يفعله السلف لان فيه تمييزا لهم وبذلك يعرفون فيلتفت الى فتاواهم وأقوالهم انتهى ومنه يعلم ان تمييز الاشراف بعلامة أمر مشروع أيضا انتهى أقول ما أرده هذا الاستنباط وما أقل نفعه لاسيما بعد ماورد فى السنة المطهرة من النهى عن الاسراف فى اللباس واطالته وقد منع عن ذلك سلف الامة وأئمتها فأين هذا من ذلك وانما هو بدعة أحدثها علماء السوء ومشايخ الدنيا ولذا قال على القارى فى معرض الذم لهم عمائم كالابراج وكمائم كالاخراج وأنكر عليهم ذلك أشد الانكار وماذكره من ان زى العلماء والاشراف سنة رده ابن الحاج فى المدخل بانه مخالف لزيهم فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم وزمن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من خير القرون فان قيل انهم به يعرفون قيل انهم لو بقوا على الزى الاول عرفوا به أيضا لمخالفته لما عليه غيرهم الآن وأطال فى انكار ما قالوه وقد بسطنا القول على ذلك فى حجج الكرامة بالفارسية أيضا فراجعه (وكان الله غفورا) لما سلف من ترك ادناء الجلابيب (رحيما) بهن او غفورا

القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى الى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يتصل حتى انتهى الى المدائن وهى كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الاساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة وكتب الى كسرى يقول هذا ماطلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه الا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر الى القسطنطينية الا منها فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو انه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة وركب فى بعض الجيش وأمر باحمال من التبن والبعر والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الاحمال فى النهر

لذنوب المذنبين رحيماً بهم فيدخل في ذلك دخولاً أولياً وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها فرآها عمر فقال يا سودة أما والله ما تخفين علينا فانظري كيف تخرجين قالت فانكفأت راجعة ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بيتي وانه ليتعشى وفي يده عرق فدخلت وقالت يا رسول الله اني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا فأوحى اليه ثم رفع عنه وان العرق في يده ما وضعه فقال انه قد أذن لكن ان تخرجن لحاجتكن وعن أبي مالك قال كان نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخرجن لحاجتهن بالليل وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن فيؤذين فقيل ذلك للمنافقين فقالوا انما نفعله بالاماء فنزلت هذه الآية يا أيها النبي قل لأزواجك الآية وعن محمد بن كعب القرظي قال كان رجل من المنافقين يتعرض لنساء المؤمنين يؤذيهن فاذا قيل له قال كنت أحسبها أمة فأمرهن الله ان يخالفن زي الاماء ويدنين عليهن من جلابيبهن تخمر وجهها الا احدى عينيها ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين يقول ذلك أحرى ان يعرفن وعن ابن عباس في هذه الآية قال أمر الله نساء المؤمنات اذا خرجن من بيوتهن في حاجة ان يغطين وجوههن من فوق رؤسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة وعن أم سلمة قالت لما نزلت هذه الآية يدنين عليهن من جلابيبهن خرج نساء الانصار كأن على رؤسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها هكذا في الرواية بلفظ من السكينة وليس لها معنى فان المراد تشبيه الاكسية السود بالغربان لا أن المراد وصفهن بالسكينة كما يقال كأن على رؤسهم الطير وعن عائشة قالت رحم الله نساء الانصار لما نزلت يا أيها النبي قل لأزواجك الآية شققن مروطهن فاعتجرن بها وصلين خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كأن على رؤسهن الغربان وعن ابن عباس في الآية قال كانت الحرة تلبس لباس الأمة فأمر الله نساء المؤمنات ان يدنين عليهن من جلابيبهن وادناء الجلباب أن تقنع وتشده على جبينها قال أنس مرت بعمر بن الخطاب جارية متقنعة فعلاها بالدرة وقال يا لكاع تتشبهين بالحرائر ألقي القناع قلت ولكاع كلمة تقال لمن يستحقر به مثل العبد والأمة والجاهل والقليل العقل مثل قولك يا خسيس وذلك ان النساء في أول الاسلام على هجيراهن في الجاهلية متبذلات تبرز المرأة في درع وخمار لا فصل بين الحرة والامة وكان الفتيان يتعرضون اذا خرجن بالليل لقضاء حوائجهن في النخيل والغيطان للاماء وربما تعرضوا للحرة بحسبان الامة فأمرن ان يخالفن بزيهن عن زي الاماء بلبس الملاحف وستر الرؤس والوجوه فلا يطمع فيهن طامع ثم توعد سبحانه أهل النفاق والارجاف فقال

(لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق (والذين في قلوبهم مرض) أي شك وريبة عما هم عليه من الاضطراب (والمرجفون في المدينة) عما يصدر منهم من الارجاف بذكر الاخبار الكاذبة المتضمنة لتوهين جانب المسلمين وظهور المشركين عليهم قال القرطبي أهل التفسير على ان الاوصاف الثلاثة لشيء واحد والمعنى ان المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والارجاف على المسلمين فهو على هذا من باب قوله

فلما مرت كسرى وجنده ظن انهم قد خاضوا من هنالك فركبوا في طلبهم فعرفت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالخوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا عند النصارى وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسوادرايهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهي طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز وقال مجاهد كان ذلك في الجزيرة وهي أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهي تسع فان البضع في كلام العرب ما بين الثلاث الى التسع وكذلك جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحي عن الزهري عن عبيد الله بن

الى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

والواو مقحمة وقيل الموصوف متغاير ومتعدد فكان من المنافقين قوم يرجفون وقوم يتبعون النساء للريبة وقال عكرمة وشهر بن حوشب الذين فى قلوبهم مرض هم الزناة من قوله فيطمع الذى فى قلبه مرض والمرض هو الزنا والارجاف فى اللغة اشاعة الكذب والباطل يقال أرجف بكذا اذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبرا متزلزلا غير ثابت من الرجفة وهى الزلزلة يقال رجفت الارض أى تحركت وتزلزلت ترجف رجفا والرجفان الاضطراب الشديد وسمى البحر رجافا لاضطرابه والارجاف واحد الاراجيف وأرجفوا فى الشئ خاضوا فيه وذلك بان هؤلاء المرجفين كانوا يخبرون عن سرايا المسلمين بانهم هزموا وتارة بانهم قتلوا وتارة بانهم غلبوا ونحو ذلك مما تنكسر له قلوب المسلمين من الاخبار فتوعدهم الله سبحانه بقوله (لنغرينك بهم) أى لنحرشنك ولنسلطنك عليهم فتستأصلهم بالقتل والتشريد بأمرنا لك بذلك قال المبرد قد أغراه الله بهم فى قوله الآتى ملعونين أينما ثقفوا الخ فهذا فيه معنى الامر بقتلهم وأخذهم أى هذا حكمهم اذا كانوا مقيمين على النفاق والارجاف قال النحاس وهذا من أحسن ما قيل فى الآية وأقول ليس هذا بحسن ولا أحسن فان قوله ملعونين الخ انما هو لمجرد الدعاء عليهم لا انه أمر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتالهم ولا تسليط له عليهم وقد قيل انهم انتهوا بعد نزول هذه الآية عن الارجاف فلم يغره الله بهم وجملة لنغرينك بهم جواب القسم (ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا) وانما عطف بثم لان الجلاء عن الاوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به فتراخت حاله عن حال المعطوف عليه يعنى انها للتفاوت الرتبى وللدلالة على ان ما بعدها أبعد مما قبلها وأعظم وأشد عندهم والمعنى لا يساكنونك فى المدينة الا جوارا قليلا حتى يخرجوا أو يهلكوا (ملعونين أينما ثقفوا) أى مطرودين أينما وجدوا وأدركوا (أخذوا وقتلوا تقتيلا) دعاء عليهم بأن يؤخذوا ويقتلوا والتشديد يدل على التكثير وقيل ان هذا هو الحكم فيهم وليس بدعاء عليهم والاول أولى وقيل معنى الآية انهم ان أصروا على النفاق لم يكن لهم مقام بالمدينة الا وهم مطرودون ملعونون وقد فعل بهم صلى الله عليه وآله وسلم هذا فانه لما نزلت سورة براءة جمعوا فقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم يا فلان قم فاخرج فانك منافق ويا فلان قم فقام اخوانهم من المسلمين وتولوا اخراجهم من المسجد (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الامم الماضية وهو لعن المنافقين وأخذهم وتقتيلهم وكذا حكم المرجفين وهو منتصب على المصدر قال الزجاج سن الله فى الذين ينافقون الانبياء ويرجفون بهم ان يقتلوا حيثما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى تحويلا وتغييرا بل هى ثابتة دائمة فى أمثال هؤلاء فى الخلف والسلف يجريها الله مجرى واحدا فى الامم لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع وقال الخطيب أى ليست هذه السنة مثل الحكم الذى يتبدل وينسخ فان النسخ يكون فى الاقوال أما الافعال اذا وقعت والاخبار فلا تنسخ (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت حصولها ووجودها وقيامها قيل السائلون عنها هم

عبد الله عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابى بكر فى مناحبة الم غلبت الروم الآية الا احتطت يا أبا بكر فان البضع ما بين ثلاث الى تسع ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو انه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله أى للروم اصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم والبزار من حديث الاعمش عن عطية عن أبى سعيد قال لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فاعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به وأنزل الله ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وقال آخرون بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية

أولئك المنافقون والمرجفون والمشركون واليهود لما توعدوا بالعذاب سألوا عن الساعة استبعادا وتكذيبا أو امتحانا لأن الله تعالى عمّى وقتها في التوراة وسائر الكتب (قل إنما علمها عند الله) يعني أنه سبحانه قد استأثر به ولم يطلع عليه نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا (وما يدريك) أي ما يعلمك ويخبرك يا محمد (لعل الساعة تكون قريبا) أي في زمان قريب وانتصاب قريبا على الظرفية ولتذكير تكون والساعة في معنى اليوم أو الوقت مع كون التأنيث ليس بحقيقي والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبيان أنها إذا كانت مخفية عنه لا يعلم وقتها وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فكيف بغيره من الناس وفي هذا تهديد عظيم للمستعجلين وإسكات للممتحنين والمشركين ولمن يبحث عن المغيبات للأنبياء والصلحاء وغيرهم من الخلق (إن الله لعن الكافرين) أي طردهم وأبعدهم من رحمته (وأعد لهم) في الآخرة مع ذلك اللعن منه لهم في الدنيا (سعيرا) أي نارا شديدة التسعر (خالدين فيها) أي في السعير لأنها مؤنثة أو لأنه في معنى جهنم (أبدا) بلا انقطاع وهذا تأكيد لما استفيد من خالدين (لا يجدون وليا) يواليهم ويحفظهم من عذابها (ولا نصيرا) ينصرهم ويخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم في النار) أي اذكر وقرئ تقلب بضم التاء وفتح اللام على البناء للمفعول وقرئ بالنون وكسر اللام على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وبضم التاء وكسر اللام على معنى تقلب السعير وجوههم وقرئ بفتح التاء واللام على معنى تتقلب ومعنى هذا التقلب المذكور في الآية هو تقلبها تارة على جهة منها وتارة على جهة أخرى ظهرا لبطن أو تغير ألوانهم بلفح النار فتسود تارة وتخضر أخرى أو تبديل جلودهم بجلود أخرى وخصت الوجوه لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده أو يكون الوجه عبارة عن الجملة حينئذ (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) الجملة مستأنفة كأنه قيل فما حالهم فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم أو حال من ضمير وجوههم أو من نفس الوجوه والمعنى أنهم أطاعوا الله والرسول وآمنوا بما جاء به لينجوا مما هم فيه من العذاب كما نجا المؤمنون وهذه الألف في الرسولا والتي تأتي في السبيلا هي الألف التي تقع في الفواصل وتسمى ألف الإطلاق لإطلاق الصوت كقوافي الشعر وفائدتها الوقف والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف وقد سبق بيان هذا في أول هذه السورة (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) وقرئ ساداتنا بكسر التاء جمع سادة فهو جمع الجمع وسادة جمع على غير قياس سواء جعل السيد أو سائد والجملة معطوفة على الجملة الأولى والعدول إلى الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمرا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة والمراد بالسادة والكبراء هم الرؤساء والقادة الذين كانوا يمتثلون أمرهم في الدنيا ويقتدون بهم وقال مقاتل هم المطعمون في غزوة بدر والأول أولى ولا وجه للتخصيص بطائفة معينة والتعبير عنهم بعنوان السادة والكبراء لتقوية الاعتذار وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة وفي هذا زجر عن التقليد شديد وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا والتحذير منه ولكن لمن يفهم معنى

قال عكرمة والزهري وقتادة وغير واحد ووجه بعضهم هذا القول بأن قيصر كان قد نذر لئن أظفره الله بكسرى ليمشين من حمص إلى إيليا وهو بيت المقدس شكرا لله تعالى ففعل فلما بلغ بيت المقدس لم يخرج منه حتى وافاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعثه مع دحية ابن خليفة فأعطاه دحية لعظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى قيصر فلما وصل إليه سأل من بالشام من عرب الحجاز فأحضر له أبو سفيان صخر بن حرب الأموي في جماعة من كفار قريش تجارة حتى قدموا عليه فجلسوا بين يديه فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي فقال أبو سفيان أنا فقال لأصحابه وأجلسهم خلفه إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذب فكذبوه فقال أبو سفيان فوالله لولا أن يأثروا علي الكذب لكذبت فسأله هرقل عن نسبه وصفته فكان فيما سأله أن قال فهل يغدر قال قلت لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها يعني بذلك الهدنة التي كانت قد وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكفار قريش عام الحديبية على وضع الحرب بينهم عشر سنين فاستدلوا بهذا على أن نصر الروم على فارس كان عام

كلام

كلام الله ويقتدى به وينصف من نفسه لا لمن هو من جنس الانعام فى سوء الفهم ومزيد البلادة وشدة التعصب (فأضلونا السبيلا) أى عن السبيل بما زينوا لنا من الكفر بالله وبرسوله والسبيل هو التوحيد ثم دعوا عليهم فى ذلك الموقف فقالوا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) أى مثلى عذابنا مرتين للضلال والاضلال وقال قتادة عذاب الدنيا والآخرة وقيل عذاب الكفر وعذاب الاضلال (والعنهم لعنا كبيرا) أى كبيرا فى نفسه شديدا عليهم وقرئ بالمثلثة أى كثير العدد عظيم القدر شديد الموقع (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) بقولهم ان به أدرة أو برصا أو عيبا وسيأتى بيان ذلك وفيه تأديب للمؤمنين وزجر لهم من أن يدخلوا فى شئ من الامور التى تؤذى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال مقاتل وعظ الله المؤمنين أن لا يؤذوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كما آذى بنو اسرائيل موسى وقد وقع الخلاف فيما أوذى به نبينا صلى الله عليه وآله وسلم حتى نزلت هذه الآية فحكى النقاش ان أذيتهم محمدا صلى الله عليه وآله وسلم قولهم زيد بن محمد وقال أبو وائل انه صلى الله عليه وآله وسلم قسم قسما فقال رجل من الانصار ان هذه قسمة ما أريد بها وجه الله وعن ابن مسعود مثله فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وآله وسلم فاحمر وجهه ثم قال رحم الله موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما وقيل نزلت فى زيد بن ثابت وزينب بنت جحش وما سمع فيها من قالة الناس (فبرأه) أى طهره (الله مما قالوا) وأظهر براءته لهم وما مصدرية أو موصولة وأيهما كان فالمراد البراءة عن مضمون القول ومؤداه وهو الامر المعيب وأذى موسى هو حديث المومسة التى أرادها قارون على قذفه بنفسها وقد أخرج البخارى وغيره من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ان موسى كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شئ استحياء منه فآذاه من آذاه من بنى اسرائيل فقالوا ما يستتر هذا الستر الا من عيب بجلده اما برص واما ادرة واما آفة وان الله عز وجل اراد ان يبرئ موسى مما قالوا فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على الحجر ثم اغتسل فلما فرغ أقبل الى ثيابه ليأخذها وان الحجر عدى بثوبه فأخذ موسى عصاه فطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا فوالله ان بالحجر لندبا من ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا وأخرج نحوه البزار وابن الانبارى وابن مردويه من حديث أنس وقال ابن عباس قال له قومه انه آدر فخرج ذات يوم يغتسل فوضع ثيابه على حجر فخرجت الصخرة تشتد بثيابه فخرج موسى يتبعها عريانا حتى انتهت به الى مجالس بنى اسرائيل فرأوه وليس بآدر فذلك قوله فبرأه الله مما قالوا الآية وأخرج الحاكم وصححه عن ابن مسعود وناس من الصحابة ان الله أوحى الى موسى انى متوف هرون فأت به جبل كذا وكذا فانطلقا نحو الجبل فاذا هم بشجرة وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب فلما نظر هرون الى ذلك الجبل والبيت وما فيه أعجبه قال يا موسى انى أحب ان أنام على هذا السرير قال نم عليه قال نم معى فلما ناما أخذ هرون الموت فلما قبض رفع ذلك البيت وذهبت

الحديبية لان قيصر انما وفى بنذره بعد الحديبية والله أعلم ولاصحاب القول الاول ان يجيبوا عن هذا بأن بلاده كانت قد خربت وتشعثت فما تمكن من وفاء نذره حتى أصلح ما ينبغى اصلاحه وتفقد بلاده ثم بعد أربع سنين من نصرته وفى بنذره والله أعلم والامر فى هذا سهل قريب الا أنه لما انتصر فارس على الروم ساء ذلك المؤمنين فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك لان الروم أهل كتاب فى الجملة فهم أقرب الى المؤمنين من المجوس كما قال تعالى لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى الى قوله ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وقال تعالى ههنا ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنى أسيد الكلابى قال سمعت العلاء بن الزبير الكلابى يحدث عن أبيه قال رأيت غلبة فارس الروم ثم رأيت غلبة الروم فارس ثم رأيت غلبة المسلمين فارس والروم كل ذلك فى خمسة عشر سنة وقوله

الشجرة ورفع السرير الى السماء فلما رجع موسى الى بنى اسرائيل قالوا قتل هرون وحسده حب بنى اسرائيل وكان هرون أألف لهم وألين لهم وكان فى موسى بعض الغلظة عليهم فلما بلغه ذلك قال ويحكم انه كان أخى أفترونى أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا اليه بين السماء والارض فصدقوه ‏(وكان عند الله وجيها)‏ أى عظيما ذا وجاهة والوجيه العظيم القدر الرفيع المنزلة يقال وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه وقيل مستجاب الدعوة وقيل الوجاهة انه كلمه تكليما وقرأ عبد الله بالموحدة من العبودية وهى حسنة قاله الكرخى ‏(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله)‏ فى كل أمر من الامور ‏(وقولوا قولا سديدا)‏ أى صوابا وحقا قال قتادة ومقاتل يعنى فى شأن زيد وزينب ولا تنسبوا النبى صلى الله عليه وآله وسلم الى ما لا يحل وقال عكرمة ان القول السديد لا اله الا الله وقيل هو الذى يوافق ظاهره باطنه وقيل هو ما أريد به وجه الله دون غيره وقيل هو الاصلاح بين الناس والسديد مأخوذ من تسديد السهم ليصاب به الغرض والظاهر من الآية انه أمرهم بأن يقولوا قولا سديدا فى جميع ما يأتونه ويذرونه فلا يخص ذلك نوع دون نوع وان لم يكن فى اللفظ ما يقتضى العموم فالمقام يفيد هذا المعنى لانه أرشد سبحانه عباده الى أن يقولوا قولا يخالف قول أهل الاذى وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن أبى موسى الاشعرى قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الظهر ثم قال على مكانكم اثبتوا ثم أتى الرجال فقال ان الله أمرنى ان آمركم ان تتقوا الله وان تقولوا قولا سديدا ثم أتى النساء فقال ان الله أمرنى ان آمركن ان تتقين الله وان تقلن قولا سديدا ثم ذكر الله سبحانه ما لهؤلاء الذين امتثلوا الامر بالتقوى والقول السديد من الاجر فقال ‏(يصلح لكم أعمالكم)‏ أى يجعلها صالحة لا فاسدة بما يهديكم اليه ويوفقكم فيه أو يتقبلها ‏(ويغفر لكم ذنوبكم)‏ أى يجعلها مكفرة مغفورة ‏(ومن يطع الله ورسوله)‏ فى فعل ما هو طاعة واجتناب ما هو معصية ‏(فقد فاز فوزا عظيما)‏ أى ظفر بالخير ظفرا عظيما ونال خير الدنيا والآخرة وهذه الجملة مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما هو لاهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لاهل المعصية من العذاب بين عظم شأن التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها فقال ‏(انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها)‏ أى خفن من الامانة ان لا يؤدينها فيلحقهن العقاب أو خفن من الخيانة فيها واختلف فى تفسير الامانة المذكورة هنا فقال الواحدى معنى الامانة ههنا فى قول جميع المفسرين الطاعة والفرائض التى يتعلق بأدائها الثواب وبتضييعها العقاب قال القرطبى الامانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الاقوال وهو قول الجمهور وقد اختلف فى تفاصيل بعضها فقال ابن مسعود هى فى أمانة الاموال كالودائع وغيرها وروى عنه انها فى كل الفرائض وأشدها أمانة المال وقال أبى بن كعب من الامانة ان ائتمنت المرأة على فرجها وقال أبو الدرداء غسل الجنابة أمانة وان الله لم يأمن ابن آدم على شئ من دينه غيرها وقال ابن عمر أول ما خلق الله من الانسان فرجه وقال هذه أمانة استودعكها فلا تلبسها

تعالى وهو العزيز أى فى انتصاره وانتقامه من أعدائه الرحيم بعباده المؤمنين وقوله تعالى وعد الله لا يخلف الله وعده أى هذا الذى أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق وخبر صدق لا يخلف ولا بد من كونه ووقوعه لان الله قد جرت سنته بنصر أقرب الطائفتين المقتتلتين الى الحق ويجعل لها العاقبة ولكن أكثر الناس لا يعلمون أى بحكم الله فى كونه وأفعاله المحكمة الجارية على وفق العدل وقوله تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون أى أكثر الناس ليس لهم علم الا بالدنيا وأكسابها وشؤنها وما فيها فهم حذاق أذكياء فى تحصيلها ووجوه مكاسبها وهم غافلون فى أمور الدين وما ينفعهم فى الدار الآخرة كان أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة قال الحسن البصرى والله ليبلغ أحدهم بدنياه ان يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن يصلى وقال ابن عباس فى قوله تعالى يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال

الا بحق فان حفظتها حفظتك فالفرج أمانة والاذن أمانة والعين أمانة واللسان أمانة والبطن أمانة واليد أمانة والرجل أمانة ولا ايمان لمن لا أمانة له وقال السدى هى ائتمان آدم ابنه قابيل على ولده هابيل وخيانته اياه فى قتله وما أبعد هذا القول وليت شعرى ماهو الذى سوّغ للسدى تفسير هذه الآية بهذا فان كان ذلك لدليل دله على ذلك فلا دليل وليست هذه الآية حكاية عن الماضين من العباد حتى يكون له فى ذلك متمسك أبعد من كل بعيد وأوهن من بيت العنكبوت وان كان تفسيره هذا عملا بما تقتضيه اللغة العربية فليس فى لغة العرب ما يقتضى هذا ويوجب حمل هذه الامانة المطلقة على شئ كان فى أول هذا العالم وان كان هذا تفسيرا منه بمحض الرأى فليس الكتاب العزيز عرضة لتلاعب آراء الرجال به ولهذا ورد الوعيد على من فسر القرآن برأيه فاحذر أيها الطالب للحق عن قبول مثل هذه التفاسير واشدد يديك فى تفسير كتاب الله على ما تقتضيه اللغة العربية فهو قرآن عربى كما وصفه الله فان جاءك التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا تلتفت الى غيره واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وكذلك ما جاء عن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فانهم من جملة العرب ومن أهل اللغة وممن جمع الى اللغة العربية العلم بالاصطلاحات الشرعية ولكن اذا كان معنى اللفظ أوسع مما فسروه به فى لغة العرب فعليك ان تضم الى ما ذكره الصحابى ما تقتضيه لغة العرب وأسرارها فخذ هذه كلية تنتفع بها وقد ذكرنا فى خطبة هذا التفسير ما يرشدك الى هذا قال الحسن ان الامانة عرضت على السموات والارض والجبال فقالت وما فيها فقال لها ان أحسنت آجرتك وان أسأت عذبتك فقالت لا قال مجاهد فلما خلق الله آدم عرضها عليه وقيل له ذلك فقال قد تحملتها وروى نحو هذا عن غير الحسن ومجاهد قال النحاس وهذا القول هو الذى عليه أهل التفسير وقيل هذه الامانة هى ما أودعه الله فى السموات والارض والجبال وسائر المخلوقات من الدلائل على ربوبيته ان يظهروها فأظهروها الا الانسان فانه كتمها وجحدها كذا قال بعض المتكلمين مفسر القرآن برأيه الزائف فيكون على هذا معنى عرضنا أظهرنا قال جماعة من العلماء ومن المعلوم ان الجماد لا يفهم ولا يجيب فلا بد من تقدير الحياة فيها وهذا العرض فى الآية هو عرض تخيير لا عرض الزام ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل مطيعة لامره ساجدة له وقيل المراد بالعرض هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها وقال القفال وغيره العرض فى هذه الآية ضرب مثل أى ان السموات والارض والجبال على كبر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب أى أن التكليف أمر عظيم حقه ان تعجز عنه السموات والارض والجبال وقد كلفه الانسان وهو ظلوم جهول لو عقل وهذا كقوله لو أنزلنا هذا القرآن على جبل وقيل ان عرضنا بمعنى عارضنا أى عارضنا الامانة بالسموات والارض والجبال فضعفت هذه الاشياء عن الامانة ورجحت الامانة بثقلها عليها وقيل ان عرض الامانة على السموات والارض والجبال انما كان من آدم عليه السلام وان الله أمره ان يعرض ذلك عليها وهذا أيضا تحريف لا تفسير وقد قيل

(أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن) يقول تعالى منبها على التفكر فى مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها وانه لا اله غيره ولا رب سواه فقال أولم يتفكروا فى أنفسهم يعنى به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الاشياء من العالم العلوى والسفلى وما بينهما من المخلوقات المتنوعة والاجناس المختلفة فيعلموا انها ما خلقت سدى ولا باطلا بل بالحق وانها مؤجلة الى أجل مسمى وهو يوم القيامة ولهذا قال تعالى وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من اهلاك من كفر بهم ونجاة من

ان المراد بالامانة العقل والراجح ما قدمناه عن الجمهور وما عداه فلا يخلو عن ضعف لعدم وروده على المعنى العربي ولا انطباقه على ما تقتضيه الشرع ولا موافقته لما يقتضيه العرف بالامانة عن ابن عباس في الآية قال الامانة الفرائض عرضها الله على السموات والارض والجبال ان ادوها أثابهم وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ولكن تعظيما لدين الله ان لا يقوموا بها ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وعنه في الآية قال عرضت على آدم فقيل خذها بما فيها فان أطعت غفرت لك وان عصيت عذبتك قال قبلها بما فيها فما كان الا ما بين العصر الى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الذنب ومنها أمانات الناس والوفاء بالعهود فحق على كل مؤمن ان لا يغش مؤمنا ولا معاهدا في شئ لا في قليل ولا في كثير فعرض الله هذه الامانة على أعيان السموات والارض والجبال وهذا قول جماعة من التابعين وأكثر السلف وانما أتى في قوله فابين الخ بضمير كضمير الاناث لان جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك وان كان مذكرا وانما ذكرنا ذلك لئلا يتوهم انه قد غلب المؤنث وهو السموات على المذكر وهو الجبال (وحملها الانسان) أي التزم بحقها وهو آدم بعد عرضها عليه قيل انما كلف الانسان حملها مع من عظمه وثقل محملها انه عرض على أعظم ما خلق الله تعالى من الاجرام وأقواه وأشده ان يحملها ويشتغل به فأبى حملها وأشفق منه وحملها الانسان على ضعفه وضعف قوته قال الزجاج معنى حملها خان فيها وجعل الآية في الكفار والفساق والعصاة وقيل معنى حملها كلفها وألزمها أو صار مستعدا لها بالفطرة أو حملها بعد عرضها عليه في عالم الذر عند خروج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق عليهم (انه كان ظلوما جهولا) أي وهو في ذلك الحمل ظلوم لنفسه جهول لما يلزمه وجهول لقدر ما دخل فيه كما قال سعيد بن جبير أو جهول بأمر ربه كما قال الحسن وقيل ظلوما حين عصى ربه جهولا لا يدري ما العقاب في ترك الامانة وقيل ظلوما جهولا حيث حمل الامانة ولم يف بها وضيعها ولم يف بضمانها ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن الا على أساليبهم وفي تفسير الآية أقوال أخر والاول أولى وهو قول السلف (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) متعلق بحملها أي حملها الانسان ليعذب الله العاصي ويثيب المطيع وعلى هذا فجملة انه كان ظلوما جهولا معترضة بين الجملة وغايتها للايذان بعدم وفائه بما تحمله قال مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان ليعذبهم بما خانوا من الامانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهر آدم وقال الحسن وقتادة هؤلاء المعذبون هم الذين خانوها وهؤلاء الذين يتوب الله عليهم هم الذين أدوها والالتفات الى الاسم الجليل أولا لتهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار في موضع الاضمار ثانيا في قوله (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) لابراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه والله أعلم أي يهديهم ويرحمهم بما أدوا من الامانة قال ابن قتيبة أي عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر ايمان المؤمن فيعود عليه بالمغفرة والرحمة ان حصل منه تقصير في بعض الطاعات ولذلك ذكر لفظ التوبة فدل على ان

صدقهم فقال تعالى أولم يسيروا في الارض أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ولهذا قال فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة أي كانت الامم الماضية والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث اليهم محمد صلى الله عليه وسلم وأكثر أموالا وأولادا وما أوتيتم معشار ما أوتوا ومكنوا في الدنيا تمكينا لم تبلغوا اليه وعمروا فيها أعمارا طوالا فعمروها أكثر منكم واستغلوها أكثر من استغلالكم ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ولا حالت أموالهم وأولادهم بينهم وبين بأس الله ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ولكن كانوا أنفسهم يظلمون أي وانما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله واستهزؤا بها وما ذاك الا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم ولهذا قال تعالى ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن كما قال تعالى ونقلب

المؤمن

المؤمن العاصي خارج من العذاب (وكان الله غفورا) أي كثير المغفرة للمؤمنين التائبين من عباده اذا قصروا في شيء مما يجب عليهم من الامانة وغيرها حيث عفا عن فرطاتهم (رحيما) بهم حيث أثابهم بالعفو على طاعتهم مكرما لهم بأنواع الكرم وقد وردت أحاديث كثيرة في الحث على الامانة وذكر رفعها عن القلوب عند قرب الساعة فلا نطول بذكرها

(سورة سبا هي أربع أو خمس وخمسون آية وهي مكية)

قال القرطبي في قول الجميع الا آية واحدة اختلف فيها وهي قوله ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك فقالت فرقة هي مكية وقالت فرقة هي مدنية وسيأتي الخلاف في معنى هذه الآية ان شاء الله تعالى وفيمن نزلت وعن ابن عباس قال نزلت سورة سبا بمكة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله) التعريف ان أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود وان أجرى على الاستغراق فالتعريف مشعر باستحقاق جميع افراد الحمد لله سبحانه على ما تقدم تحقيقه في فاتحة الكتاب وقيل معناه ان كل نعمة من الله فهو الحقيق بان يحمد و يثنى عليه واللام لام التمليك لانه خالق ناطق الحمد أصلا فكان بملكه مالك الحمد للتحميد أهلا وقيل هي لام التخصيص والمعنى متقارب أي وله بكل المحامد الاختصاص (الذي له ما في السموات وما في الارض) معناه ان جميع ما هو فيهما في ملكه وتحت تصرفه يفعل به ما يشاء و يحكم فيه بما يريد فكل نعمة واصلة الى العبد فهي مما خلقه له ومن به عليه فحمده على ما في السموات والارض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم ولما بين ان الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به بين ان الحمد الاخروي مختص به كذلك أيضا فقال (وله الحمد في الآخرة) كما له في الدنيا لان النعم في الدارين كلها منه وقيل المعنى ان له على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه في الدار الآخرة اذا دخلوا الجنة كما في قوله وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وقوله الحمد لله الذي هدانا لهذا وقوله الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقوله الحمد لله الذي أحلنا دار المقامة من فضله وقوله وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين فهو سبحانه المحمود في الآخرة كما انه المحمود في الدنيا وهو المالك للآخرة كما انه المالك للدنيا غير ان الحمد هنا واجب لان الدنيا دار تكليف وثم لا لعدم التكاليف وانما يحمد أهل الجنة سرورا بالنعيم وتلذذا بما نالوا من الاجر العظيم كما ورد يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس (وهو الحكيم) الذي أحكم أمر الدارين (الخبير) بأمر خلقه فيهما او بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض ثم ذكر سبحانه بعض ما يحيط به علمه من أمور السموات والارض التي نيطت بها مصالحهم الدينية والدنيوية فقال (يعلم ما يلج في الارض) أي ما يدخل و يوضع فيها من مطر أو كنز او دفين أو أموات (وما يخرج منها) من زرع ونبات وحيوان وشجر وعيون ومعادن وأموات اذا بعثوا (وما ينزل من السماء)

أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون وقال تعالى فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وقال تعالى فان تولوا فاعلم انما يريد الله ان يصيبهم ببعض ذنوبهم وعلى هذا يكون السوأى منصوبة مفعولا لاساؤا وقيل بل المعنى في ذلك ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أي كانت السوأى عاقبتهم لانهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن فعلى هذا يكون السوأى منصوبة خبر كان هذا توجيه ابن جرير ونقله عن ابن عباس وقتادة ورواه ابن أبي حاتم عنهما وعن الضحاك بن مزاحم وهو الظاهر والله أعلم لقوله وكانوا بها يستهزؤن (الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) يقول تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيده أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على اعادته ثم اليه ترجعون أي يوم القيامة

من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق وأنواع البركات ومن ذلك ما ينزل منها من الملائكة وكتبه إلى أنبيائه وقرئ ينزل مسنداً إلى الله أو ينزل مشدداً مسنداً إلى الله سبحانه (وما يعرج فيها) أي في السماء من الملائكة وأعمال العباد والدعوات ومعنى العروج معنى الاستقرار فعداه بفي دون إلى والسماء جهة العلو مطلقاً (وهو الرحيم) بعباده (الغفور) لذنوبهم وبعرته بهم في أنه موجب عليهم من شكر نعمه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) المراد بهؤلاء القائلين جنس الكفرة على الإطلاق أو كفار مكة على الخصوص والأول أولى والمعنى لا تأتينا بحال من الأحوال إنكاراً منهم لوجودها بالكلية لا مجرد إتيانها في حال تكلمهم أو في حال حياتهم مع تحقق وجودها فيما بعد وإنما عبروا عنها بذلك لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها فرد الله عليهم كلامهم وأثبت ما نفوه وأمر رسوله أن يقول لهم (قل بلى) على معنى ليس الأمر إلا إتيانها (وربي لتأتينكم) وهذا القسم لتأكيد الإتيان على أتم الوجوه وأكملها وقرئ لتأتينكم بالفوقية أي الساعة وبالتحتية على أن المراد الساعة باليوم أو الوعد كأنه قال ليأتينكم البعث أو أمره كما قال هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك (عالم الغيب) تقوية للتأكيد لأن تعقيب القسم بجلائل نعوت المقسم به يؤذن بفخامة شأن المقسم عليه وقوة إثباته وصحته لما أن ذلك في حكم الاستشهاد على الأمر (لا يعزب) أي لا يغيب (عنه) ولا يستتر عليه ولا يبعد منه من عزب يعزب بكسر الزاي إذا غاب وبعد وخفي وقرئ بضم الزاي قال الفراء والكسر أحب إلي وهما لغتان (مثقال ذرة) أي مقدار أصغر نملة ووزن ذرة (في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك) أي من مثقال ذرة وفيه إشارة إلى أن مثقال الذر ذكر للتحديد بل الأصغر منه لا يعزب أيضاً ولو اقتصر على الأصغر لتوهم أنه يثبت الصغار لكونها محل النسيان وأما الأكبر فلا ينسى فلا حاجة إلى إثباته فقال (ولا أكبر) منه (إلا في كتاب مبين) أي إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه ومكتوب فيه فهو مؤكد لمعنى العزوب (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات) اللام للتعليل لقوله لتأتينكم أي إتيان الساعة فائدته جزاء المؤمنين بالثواب (أولئك) أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات (لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) أي حسن وهو الجنة بسبب إيمانهم وعملهم الصالح مع التفضل عليهم من الله سبحانه ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة فقال (والذين سعوا في) إبطال (آياتنا) المنزلة على الرسل وقدحوا فيها وصدوا الناس عنها وجاهدوا في ردها بالطعن فيها ونسبتها إلى السحر والشعر وغير ذلك لأن المكذب بآيات الله بإخفاء آياته يحتاج إلى السعي العظيم والجد البليغ ليروج كذبه لعله يعجز المبلغ له (معاجزين) مقدرين عجزنا أو مسابقين لنا يحسبون أنهم يفوتونا ولا يدركون وذلك باعتقادهم أنهم لا يبعثون يقال أعجزه وعاجزه إذا غالبه وسبقه وقرئ معاجزين ومعجزين أي مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات (أولئك) الذين سعوا (لهم عذاب من رجز) الرجز هو العذاب فمن للبيان وقيل الرجز هو أسوأ العذاب وأشده والأول أولى ومن ذلك قوله فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء (أليم) أي الشديد

فجازى كل عامل بعمله ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون قال ابن عباس ييأس المجرمون وقال مجاهد يفتضح المجرمون وفي رواية يكتئب المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون قال قتادة هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها يعني أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون قال مجاهد وقتادة ينعمون وقال يحيى بن أبي كثير يعني سماع الغناء والحبرة أعم من هذا كله قال العجاج

فالحمد لله الذي أعطى الحبر

موالي الحق إن المولى شكر

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون)

الالم ولما ذكر الذين سعوا فى ابطال آيات الله ذكر الذين يؤمنون بها فقال (ويرى) أى يعلم (الذين أوتوا العلم) وهم الصحابة قاله قتادة وقال مقاتل هم مؤمنو أهل الكتاب وقيل جميع المسلمين والاولى انه كلام مستأنف لدفع ما يقوله الذين سعوا فى الآيات أى ان ذلك السعى منهم يدل على جهلهم لانهم مخالفون لما يعلمه اهل العلم فى شأن الكتاب (الذى انزل اليك من ربك هو الحق) أى الصدق يعنى انه من عند الله (ويهدى الى صراط) معطوف على الحق عطف فعل على اسم لانه فى تأويله كما فى قوله صافات ويقبضن أى وقابضات كأنه قيل وهاديا وقيل انه مستأنف وفاعله ضمير يرجع الى فاعل أنزل وهو القرآن والصراط الطريق أى ويهدى الى طريق (العزيز) فى ملكه (الحميد) عند خلقه والمراد انه يهدى الى دين الله الاسلام وهو التوحيد ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من كلام منكرى البعث فقال (وقال الذين كفروا) بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل) أى هل نرشدكم الى رجل يعنون محمدا صلى الله عليه وآله وسلم والتعبير برجل المنكر من باب التجاهل كأنهم لم يعرفوا منه الا انه رجل وهو عندهم أشهر من الشمس قاله الشهاب وقال القرطبى كانوا يقصدون بذلك السخرية والهزاة (ينبئكم) يخبركم بامر عجيب ونبا غريب هو انكم (اذا مزقتم كل ممزق) أى فرقتم كل تفريق وقطعتم كل تقطيع وصرتم بعد موتكم رفاتا وترابا وقال الكرخى أى كل مكان تمزيق من القبور وبطون الوحش والطير (انكم لفى خلق جديد) أى تخلقون وتنشؤن خلقا جديدا وتبعثون من قبوركم أحياء وتعودون الى الصور التى كنتم عليها بعد ان تمزقت أجسادكم كل تمزيق قالوا هذا القول بعضهم لبعض استهزاءً بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث وأخرجوا الكلام مخرج التلهى به والتضاحك مما يقوله من ذلك قال الزجاج التقدير اذا مزقتم كل ممزق بعثتم أو ينبئكم بانكم تبعثون اذا مزقتم وأصل المزق خرق الاشياء يقال ثوب مزيق وممزق ومتمزق وممزوق وعن قتادة فى الآية قال قال ذلك مشركو قريش اذا أكلتكم الارض وصرتم رفاتا وعظاما وتقطعتكم السباع والطير انكم ستحيون وتبعثون قالوا ذلك تكذيبا له وجديد عند البصريين بمعنى فاعل يقال جد الشئ فهو جاد وعند الكوفيين بمعنى مفعول من جددته أى قطعته ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار انهم رددوا ما وعدهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من البعث بين أمرين فقالوا (أفترى على الله كذبا أم به جنة) أى أهو كاذب فيما قاله أم به جنون بحيث لا يعقل ما يقوله قال قتادة اما ان يكون يكذب على الله واما ان يكون مجنونا والهمزة فى أفترى همزة الاستفهام وحذفت لاجلها همزة الوصل كما تقدم فى قوله أطلع الغيب ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه فى رسوله فقال (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ليس الامر كما زعموا بل هم الذين ضلوا عن الفهم وادراك الحقائق فكفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بما جاءهم به فصاروا بسبب ذلك (فى العذاب) الدائم فى الآخرة وهم اليوم (والضلال البعيد) عن الحق غاية البعد ثم وبخهم سبحانه بما اجترؤا عليه من التكذيب مبينا لهم ان ذلك لم يصدر منهم الا لعدم التفكر والتدبر

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وارشاد لعباده الى تسبيحه وتحميده فى هذه الاوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو اقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو اسفار النهار بضيائه ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى وله الحمد فى السموات والارض أى هو المحمود على ما خلق فى السموات والارض ثم قال تعالى وعشيا وحين تظهرون فالعشاء هو شدة الظلام والاظهار قوة الضياء فسبحان خالق هذا وهذا فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا كما قال تعالى والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها وقال تعالى والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وقال تعالى والضحى والليل اذا سجى والآيات فى هذا كثيرة وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله الذى وفى لانه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات

فى خلق السماء والارض وان من قدر على هـذا الخلق العظيم لايعجزه ان يبعث من مخلوقاته ماهودون ذلك ويعيده الى ما كان عليه من الذات والصفات فقال (أفلم يروا الى مابين أيديهم وماخلفهـم من السماء والارض) والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام والمعنى أعموا فلم يروا ومن المعلوم ان مابين يدى الانسان هوكل مايقع نظره عليه من غيران يحول وجهه اليه وخلفه هوكل مالايقع نظره عليه حتى يحول نظره اليه فعم الجهات كلها أى انهـم اذا نظروا رأوا السماء قدامهـم وخلفهـم وكذلك اذا نظروا الى الارض رأوها خلفهم وقدامهـم فالسماء والارض محيطتان بهم فهو القادر على ان ينزل بهم ماشاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله وانكارهـم للبعث فهذه الآية اشتملت على أمرين أحدهما ان هذا الخلق الذى خلقـه الله من السماء والارض يدل على كمال القدرة على ماهو دونه من البعث كما فى قوله أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهـم والامر الآخر التهديد لهـم بان من خلق السموات والارض على هـذه الهيئة التى قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما قادر على تعجيل العـذاب لهـم كما قال (ان نشأ نخسف بهم الارض) كما خسفنا بمن كان قبلهم كقارون (أونسقط عليهم كسـفا) أى قطعا (من السمـاء) كما أسقطها على أصحاب الايكة فكيف يأمنون ذلك وقال قتادة ان يشأ أن يعذب بسمائه فعل وان يشأ أن يعذب بارضه فعل وكل خلقه له جند قرئ بالنون وبالتحتيـة فى الافعال الثلاثة (ان فى ذلك) المذكور المرئى من خلق السماء والارض من حيث احاطتهما بالناظرين من جميع الجوانب (لآية) واضحة ودلالة بينة (لكل عبـد منيب) أى راجع الى ربه بالتوبة والاخلاص وخص المنيب لانه المنتفع بالتفكر وقال قتادة منيب أى تائب مقبل الى الله وقال هنا الآية بالتوحيـد وفيما بعـد ذلك لآيات بجمعها الان ماهنا اشارة الى احياء الموتى فناسب التوحيد وما بعـد اشارة الى سبا قبيلة تفرقت فى البلاد فصار وافرقا فناسب الجمع ثم ذكر سبحانه من عباده المنيبين اليـه داود وسليمان كما قال فى داود فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب وقال فى سليمان وألقينا على كرسيه جسـدا ثم أناب فقال (ولقد آتينا داود منا فضلا) أى آتيناه بسبب انابته فضلا منا على سائر الانبياء واختلف فى هذا الفضـل على أقوال فقيل النبوة وقيل الزبور وقيل العـلم وقيل القوة كما فى قوله واذكر عبدنا داود ذا الايد وقيـل تسخير الجبال كما فى قوله ياجبال أوبى معه وقيل التوبة وقيل الحكم بالعدل كما فى قوله ياداود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق وقيل هو الانة الحديد كما فى قوله وألنا له الحديد وقيل حسن الصوت والاولى أن يقال ان هذا الفضل المذكور هو ماذكره الله بعـده من قوله (ياجبال) الى آخر الآية أى قلنا ياجبال (أوبى معه) التأويب التسبيح كما فى قوله انا سخرنا الجبال معـه يسبحن قال أبو ميسرة هو التسبيح بلسان الحبشة وقال ابن عباس أوبى سبحى وروى مثـله عن مجاهد وعكرمة وابن زيد وكان اذا سبح داود سبحت الجبال معه ومعنى تسبيحها ان الله يجعلها قادرة على ذلك أو يخلق فيها التسبيح معجزة لداود وقيـل معنى أوبى سيرى معه من التأويب الذى هو سير النهار أجمع قراء العامة أوبى على صيغة

والارض وعشـيا وحين تظهرون وقال الطبرانى حـدثنا مطلب بن شعيب الازدى حدثنا عبـد الله بن صالح حدثنى الليث بن سـعد عن سعيد بن بشير عن محمد بن عبد الرحمن ابن البيلمانى عن أبيه عن عبد الله ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال من قال حين يصبح سبحان الله حـين تمسون وحـين تصبحون وله الحمـد فى السموات والارض وعشـيا وحين تظهرون الآية بكمالها أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته اسناد جيـد ورواه أبو داود فى سننه وقوله تعالى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى هو مانحن فيه من قدرته على خلق الاشياء المتقابلة وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هـذا النمط فانه يذكر فيها خلقه الاشـياء واضدادها ليدل خلقـه على كمال قدرته فمن ذلك اخراج النبات من الحب والحب من النبات والبيض من الدجاج والدجاج من البيض والانسان من النطفة والنطفة من الانسـان والمؤمن من الـكافر والـكافر من المؤمن وقوله تعالى ويحيى الارض بعـد موتها كقوله

الامر من التأويب وهو الترجيع والتسبيح أو السير أو النوح وقرئ أوبي بضم الهمزة أمر امن آب يؤوب اذا رجع أي ارجعي معه (والطير) بالنصب عطفا على فضلا على معنى وسخرنا له الطير لان ايتاءها اياها تسخيرها له أو نادينا الجبال والطير وقال سيبويه وأبو عمرو ابن العلاء انتصابه بفعل مضمر على معنى وسخرنا له الطير وقال الزجاج والنحاس يجوز أن يكون مفعولا معه كما تقول استوى الماء والخشبة وقال الكسائي أي آتيناه فضلا وتسبيح الطير وفي هذا النظم من الفخامة ما لا يخفى (وألنا له الحديد) أي جعلناه لينا له ليعمل به ما شاء قال ابن عباس كالعجين وقال الحسن كالشمع يعمله من غير نار وقال السدي كان الحديد في يده كالطين المبلول والعجين والشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بمطرقة وكذا قال مقاتل وكان يفرغ من عمل الدرع في بعض يوم (أن اعمل سابغات) أي بان اعمل أو لان اعمل أو ان مفسرة لقوله ألنا فاله الحوفي وفيه نظر لانها لا تكون الا بعد القول أو ما هو في معناه وقيل التقدير أمرناه ان اعمل ولا ضرورة تدعو الى ذلك والمعنى دروعا سابغات والسوابغ الكوامل الواسعات يقال سبغ الدرع والثوب وغيرهما اذا غطى كل ما هو عليه وفضل منه فضلة وقرئ صابغات بالصاد لاجل الغين (وقدر في السرد) السرد نسج الدروع ويقال السرد والزرد كما يقال السراد والزراد لصانع الدروع والسرد أيضا الخرز يقال سرد يسرد اذا خرز ومنه سرد الكلام اذا جاء به متواليا ومنه حديث عائشة لم يكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسرد الحديث كسردكم قال سيبويه ومنه سربد أي جرى ومعنى سرد الدروع احكامها وان يكون نظام حلقها ولاء غير مختلف قال قتادة كانت الدروع قبل داود ثقالا فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع الخفة والحصانة أي قدر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه فلا تقصد الحصانة فتثقل ولا الخفة فتزيل المنعة وقال ابن زيد التقدير الذي أمر به في قدر الحلقة أي لا تعملها صغيرة فتضعف ولا يقوى الدرع على الدفاع ولا تعملها كبيرة فتثقل على لابسها وقيل ان التقدير في المسمار أي لا تعمل مسمار الدرع دقيقا فيقلق ولا غليظا فيفصم الحلق وقال ابن عباس قدر في السرد أي في حلق الحديد وعنه لا تدق المسامير وتوسع الحلق فتسلس ولا تغلظ المسامير وتضيق الحلق فتفصم واجعله قدرا وقال البقاعي انه لم تكن في حلقها مسامير لعدم الحاجة اليها بسبب الانة الحديد والا لم يكن بينه وبين غيره فرق ولا كان للالانة كبير فائدة وقد أخبر بعض من رأى ما نسب اليه بغير مسامير وقال الرازي معناه انك غير مأمور به أمر ايجاب وانما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الايام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل فيه القوت فحسب ثم خاطب داود وأهله فقال (واعملوا) عملا (صالحا) كما في قوله اعملوا آل داود شكرا ثم علل الامر بالعمل الصالح بقوله (اني بما تعملون بصير) أي لا يخفى علي شئ من ذلك فأجازيكم به (ولسليمان الريح) أي سخرنا له الريح كما قال الزجاج قرأ عاصم بالرفع على الابتداء والخبر أي ولسليمان الريح ثابتة أو مسخرة وقرئ الريح والرياح بالافراد والجمع (غدوها) أي سيرها من الغدوة بمعنى الصباح الى الزوال أي جريها من أول النهار

تعالى وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون الى قوله وفجرنا فيها من العيون وقال تعالى وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج الى قوله وان الله يبعث من في القبور وقال تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى اذا اقلت سحابا ثقالا الى قوله لعلكم تذكرون ولهذا قال ههنا وكذلك تخرجون (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) يقول تعالى ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته انه خلق أباكم آدم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الانسان ثم كسا الله تلك العظام لحما ثم نفخ فيه الروح فاذا هو سميع بصير ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال الى ان صار يبني

الى الزوال (شهر ورواحها) أى سيرها من الزوال الى الغروب (شهر) والجملة مستأنفة لبيان تسخير الريح أو حالية من الريح والمعنى انها كانت تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين قال الحسن كان يغدو من دمشق فيقيل باصطخر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ثم يروح من اصطخر فيبيت بكابل أو بابل وبينهما مسيرة شهر وقيل انه كان يتغدى بالرى ويتعشى بسمرقند (وأسلنا) أى أذبنا (له عين القطر) أى النحاس الذائب قال الواحدى قال المفسرون أجريت له عين الصفر ثلاثة أيام بلياليهن تجرى الماء وكان بأرض اليمن وانما يعمل الناس اليوم مما أعطى سليمان ولولاها ما لان النحاس أصلا لانه قبل سليمان لم يكن يلين أصلا لا بنار ولا بغيرها والمعنى أسلنا له عين النحاس كما ألنا الحديد لداود وقال قتادة أسال الله عينا يستعملها فيما يريد قال ابن عباس القطر النحاس لم يقدر عليها أحد بعد سليمان وانما يعمل الناس بعد فيما كان أعطى سليمان وقال مجاهد القطر الصفر والمعنى جعلنا النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته أى كالعين النابعة من الارض (ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه) الاذن مصدر مضاف الى فاعله أى بحكمه أو بتيسيره أو بأمره (ومن يزغ منهم) أى ومن يعدل من الجن (عن أمرنا) الذى أمرناه به وهو طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) قال أكثر المفسرين وذلك فى الآخرة وقيل فى الدنيا قال السدى وكل الله بالجن ملكا بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان ضربه بذلك السوط ضربة تحرقه ثم ذكر سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال (يعملون له ما يشاء من محاريب) من للبيان والمحاريب فى اللغة كل موضع مرتفع وهى الابنية الرفيعة والقصور العالية واصله الشريفة المصونة عن الابتذال والمساكن قال المبرد لا يكون المحراب الا ان يرتقى اليه بدرج ومنه قيل للذى يصلى فيه محراب لانه يرفع ويعظم وقال مجاهد المحاريب دون القصور وقال أبو عبيدة المحراب أشرف بيوت الدار وقال الضحاك وقتادة المراد بالمحاريب هنا المساجد وكان مما عملوا له بيت المقدس (وتماثيل) جمع تمثال وهو كل شئ مثلته بشئ أى صورته بصورة من نحاس أو زجاج أو رخام أو غير ذلك قيل كانت هذه التماثيل صور الانبياء والملائكة والعلماء والصلحاء كانوا يصورونها فى المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة واجتهادا وفى الحديث ان أولئك كان اذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ليذكروا عبادتهم فيجتهدوا فى العبادة وقيل هى تماثيل أشياء ليست من الحيوان وقيل صور السباع والطيور وقد استدل بهذا على ان التصوير كان مباحا فى شرع سليمان ونسخ ذلك بشرع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعن ابن عباس قال اتخذ سليمان تماثيل من نحاس فقال يا رب انفخ فيها الروح فانها أقوى على الخدمة فنفخ الله فيها الروح فكانت تخدمه وكان أسفنديار من بقاياهم فقيل يا داود وسليمان اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور (وجفان) جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة (كالجواب) جمع جابية وهى حفيرة كالحوض وقيل هى الحوض الكبير يجبى الماء أى يجمعه قال الواحدى قال المفسرون يعنى قصاعا فى العظم كحياض الابل يجتمع

على

المدائن والحصون ويسافر فى أقطار الاقاليم ويركب من البحور ويدور أقطار الارض ويكتسب ويجمع الاموال وله فكرة وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه فسبحان من قدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم فى العلوم والفكرة والحسن والقبح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة ولهذا قال تعالى ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون وقال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد وغندر قالا حدثنا عوف عن قسامة ابن زهير عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض منهم الابيض والاحمر والاسود وبين ذلك الخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك ورواه أبو داود والترمذى من طرق عن عوف الاعرابى به وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقوله تعالى ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا أى خلق لكم من جنسكم اناثا تكون لكم أزواجا

على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها قال النحاس الاولى اثبات الياء في الجوابي ومن حذف الياء قال سبيل الالف واللام أن يدخل على النكرة فلا يغيرها عن حالها فلما كان يقال جواب ودخلت الالف واللام أقر على حاله فحذف الياء قال الكسائي يقال جبوت الماء وجبيته في الحوض أي جمعته والجابية الحوض الذي يجبى فيه الماء للابل وقال النحاس والجابية القدر العظيمة والحوض العظيم الكبير الذي يجبى فيه الشيء أي يجمع ومنه جبيت الخراج وجبيت الجراد جمعته في الكساء وقال ابن عباس كالجوبة من الارض (وقدور راسيات) قال ابن عباس أثافيها منها وقال قتادة هي قدور النحاس تكون بفارس وقال النحاس هي قدور نحتت من الجبال الصم عملتها له الشياطين ومعنى راسيات ثابتات لا تحمل ولا تحرك لعظمها وكان يصعد اليها بالسلالم وكانت باليمن قيل انها باقية الى الآن ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم سليمان وأهله فقال (اعملوا آل داود شكرا) أي وقلنا لهم اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكرا له على ما آتاكم أو اعملوا عملا شكرا على انه صفة مصدر محذوف أو اعملوا للشكر على انه مفعول له أو حال أي شاكرين أو مفعول به وسميت الطاعة شكرا لانها من جملة أنواعه أو منصوب على المصدرية بفعل مقدر من جنسه أي اشكروا شكرا قيل المراد بآل داود نفسه وقيل داود وسليمان وأهل بيته وقيل المعنى ارحموا أهل البلاء واسألوا ربكم العافية وسئل الجنيد عن الشكر فقال بذل المجهود بين يدي المعبود ثم بين بعد أمرهم بالشكر ان الشاكرين له من عباده ليسوا بكثير فقال (وقليل من عبادي الشكور) أي العامل بطاعتي الشاكر لنعمتي قليل وقال ابن عباس يقول قليل من عبادي الموحدين توحيدهم والشكور المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقادا واعترافا وكدحا وعن ابن عباس من يشكر على أحواله كلها وقيل من يشكر على الشكر ومن يرى عجزه عن الشكر وعن داود عليه السلام انه جزأ ساعات الليل والنهار على أهله فلم تكن تأتي ساعة من الساعات الا وانسان من آل داود قائم يصلي (فلما قضينا عليه الموت) أي حكمنا على سليمان به وألزمناه اياه (ما دلهم) اي الجن (على موته الا دابة الارض) يعني حتى أكلت الارضة عصاه فخر ميتا وهي دويبة يقال لها سرفة وقرئ الارض بفتح الراء اي الاكل يقال أرضت الخشبة أرضا اذا أكلتها الارض (تأكل منسأته) قال البخاري يعني عصاه اي عصاه التي كان متكئا عليها والمنسأة العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم اي زجرتها قال الزجاج المنسأة التي ينسأ بها اي يطرد قرأ الجمهور منسأته بهمزة مفتوحة وقرئ بهمزة ساكنة وبألف محضة قال المبرد بعض العرب تبدل من همزتها ألفا فلما أكلتها الارضة شكرتها الجن وأحبوها فهم يأتونها بالماء والطين في خروق الخشب وزاد السدي وقالوا لها لو كنت تأكلين الطعام والشراب لاتيناك بهما (فلما خر) اي سقط سليمان (تبينت الجن) اي ظهر لهم وانكشف من تبينت الشيء اذا علمته اي علمت الجن (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين) اي لو صح ما يزعمونه من انهم يعلمون الغيب لعلموا بموته ولم يلبثوا بعد موته مدة

لتسكنوا اليها كما قال تعالى هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها يعني بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الاقصر الايسر ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكورا وجعل اناثهم من جنس آخر من غيرهم اما من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الازواج بل كانت تحصل نفرة لو كانت الازواج من غير الجنس ثم من تمام رحمته ببني آدم ان جعل أزواجهم من جنسهم وجعل بينهم مودة وهي المحبة ورحمة وهي الرأفة فان الرجل يمسك المرأة اما لمحبته لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة اليه في الانفاق أو للالفة بينهما وغير ذلك ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته العظيمة خلق السموات والارض أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وسقوف اجرامها وزهارة

طولبثوا في العذاب اى العمل الذى أمرهم به والطاعة له وهو اذ ذاك ميت قال مقاتل العذاب المهين الشقاء والنصب فى العمل قال الواحدى قال المفسرون كانت الناس فى زمان سليمان يقولون ان الجن تعلم الغيب فلما مكث سليمان قائما على عصاه حولا ميتا والجن تعمل تلك الاعمال الشاقة التى كانت تعمل فى حياة سليمان لا يشعرون بموته حتى اكلت الارضة عصاه فخر ميتا فعلموا بموته وعلم الناس ان الجن لا تعلم الغيب ويجوز ان يكون تبينت من تبين الشئ لا من تبينت الشئ أى ظهر وتجلى وان وما فى حيزها بدل اشتمال مع تقدير محذوف أى ظهر أمر الجن للناس انهم لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين قرأ الجمهور تبينت على البناء للفاعل مسندا الى الجن وقرأ ابن عباس وغيره على البناء للمفعول ومعنى القراءتين يعرف مما قدمنا قال ابن عباس لبث سليمان على عصاه حولا بعد ما مات ثم خر على رأس الحول فأخذت الجن عصى مثل عصاه ودابة مثل دابته فارسلوها عليها فاكلتها فى سنة وكان ابن عباس يقرأ فلما خر تبينت الانس قال سفيان وفى قراءة ابن مسعود وهم يدأبون له حولا واخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبرانى وابن السنى وغيرهم عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال كان سليمان اذا صلى رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها ما اسمك فتقول كذا وكذا فيقول لما انت فتقول لكذا وكذا فان كانت لغرس غرست وان كانت لدواء كتبت فصلى ذات يوم فاذا شجرة نابتة بين يديه فقال لها ما اسمك قالت الخروب قال لاى شئ انت قالت لخراب هذا البيت قال لها سليمان ما كان الله ليخربه وأنا حى أنت التى على وجهك هلاكى وخراب بيت المقدس ثم نزعها وغرسها فى حائط له ثم قال سليمان اللهم عم عن الجن موتى حتى تعلم الانس ان الجن لا يعلمون الغيب فهيأ عصى فتوكأ عليها وقبضه الله وهو متكئ عليها فمكث حولا ميتا والجن تعمل فاكلتها الارضة فسقطت فعلموا عند ذلك بموته فتبينت الانس ان الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين وكان ابن عباس يقرؤها كذلك فشكرت الجن للارضة فأينما كانت يأتونها بالماء وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن عباس موقوفا وأخرج الديلمى عن زيد بن أرقم مرفوعا يقول الله انى تفضلت على عبادى بثلاث القيت الدابة على الحبة ولولا ذلك لكنزها الملوك كما يكنزون الذهب والفضة وألقيت النتن على الجسد ولولا ذلك لم يدفن حبيب حبيبه واسلبت الحزن ولولا ذلك لذهب النسل ذكر أهل التاريخ ان سليمان ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة وبقى فى الملك مدة أربعين سنة وشرع فى بناء بيت المقدس لاربع سنين مضين من ملكه وتوفى وهو ابن ثلاث وخمسين سنة وقيل ان داود أسس بناء بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى فمات قبل ان يتمه فوصى به الى سليمان فأمر الشياطين باتمامه فلما بقى من عمره سنة سأل ربه ان يعمى عليهم موته حتى يفرغوا منه وليبطل دعواهم على الغيب روى ان افريدون جاء ليصعد كرسيه فلما دنا ضرب الاسدان ساقه فكسراها فلم يجسر أحد بعده ان يدنو منه ولما ذكر سبحانه حال بعض الشاكرين لنعمه عقبه بحال بعض الجاحدين لها والمقصود من ذكر هذه القصة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يذكرها لقومه لعلهم

كواكبها ونجومها النوات والسيارات وخلق الارض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار وقوله تعالى واختلاف ألسنتكم يعنى اللغات فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء بلغتهم لغة أخرى وهؤلاء كرج وهؤلاء روم وهؤلاء فرنج وهؤلاء بربر وهؤلاء تكرور وهؤلاء حبشة وهؤلاء هنود وهؤلاء عجم وهؤلاء صقالبة وهؤلاء خزر وهؤلاء أرمن وهؤلاء أكراد الى غير ذلك مما لا يعلمه الا الله تعالى من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم وهى حلاهم فجميع أهل الارض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم الى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر بل لا بد ان يفارقه بشئ من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه أخرى ولو توافق جماعة من جمال أو قبح لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ان فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله اى ومن الآيات ما جعل الله من صفة

يتعظون وينزجرون ويعتبرون بها فقال (لقد كان لسبا) المراد بها القبيلة التي هي من أولاد سبا وهو سبأ بن يشجب بضم الجيم بن يعرب بن قحطان بن هود قرأ الجمهور لسبا بالتنوين على انه اسم حى اى الحى الذين هم اولاد سبا وقرئ لسبأ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة ويقوى القراءة الاولى قوله (فى مسكنهم) ولو كان على تأويل القبيلة لقال فى مسكنها وقرأ الجمهور على الجمع واختار هذه القراءة أبو عبيد وابو حاتم ووجه الاختيار انها كانت لهم منازل كثيرة ومساكن متعددة وقرئ بالافراد ووجه الافراد انه مصدر يشمل القليل والكثير أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن مأرب وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال وكانت أخصب البلاد وقد أخرج احمد والبخاري والترمذى وحسنه والحاكم وصححه وغيرهم عن فروة بن مسيك المرادى قال أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقلت يارسول الله ألا اقاتل من ادبر من قومى بمن اقبل منهم فأذن لى فى قتالهم وأمرنى فلما خرجت من عنده أرسل فى اثرى فردنى فقال ادع القوم فمن أسلم منهم فاقبل منه ومن لم يسلم فلا تعجل حتى أحدث اليك وانزل فى سبا ما انزل فقال رجل يارسول الله وما سبا ارض أم امرأة قال ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من العرب فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة فأما الذين تشاءموا فلخم وجذام وغسان وعاملة واما الذين تيامنوا فالازد والاشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار فقال رجل يارسول الله وما انمار قال الذين منهم خثعم وبجيلة واخرج احمد وعبد بن حميد والطبراني وابن عدى والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس نحوه بأخصر منه (آية) اى علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه بملاحظة احوالها السابقة وهي نضارتها وخصبها وثمارها واللاحقة كتبدلها وعدم ثمرها ثم بين هذه الآية فقال (جنتان) اى جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) اى وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد احاطتا به من جهتيه وقيل عن يمين من اتاهما وشماله وكانت مساكنهم فى الوادى وكل طائفة من تلك الجماعتين فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة والآية هى الجنتان كانت المرأة تمشى فيهما وعلى رأسها المكتل فيمتلئ من انواع الفواكه التى تتساقط من غير ان تمسها بيدها وقال عبد الرحمن بن زيد ان الآية التى كانت لاهل سبا فى مساكنهم انهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابا ولا برغوثا ولا قملة ولا عقربا ولا حية ولا غير ذلك من الهوام واذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم قال القشيرى ولم يرد جنتين اثنتين بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة فى كل جهة بساتين كثيرة وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها (كلوا من رزق ربكم) اى قيل لهم ذلك وهذا الامر للاذن والاباحة وقيل لم يكن ثم أمر ولكن المراد تمكينهم من تلك النعم والاول أظهر وقيل انها قالت لهم الملائكة وقيل انهم خوطبوا بذلك على لسان نبيهم والمراد بالرزق هو ثمار الجنتين (واشكروا له) على مارزقكم من هذه النعم واعملوا بطاعته واجتنبوا معاصيه (بلدة طيبة) مستأنفة لبيان موجب الشكر والمعنى هذه بلدة طيبة فكثيرة أشجارها وطيبة ثمارها وقيل معنى كونها طيبة انها غير سبخة وقيل ليس فيها

النوم فى الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب وجعل لكم الانتشار والسعى فى الاسباب والاسفار فى النهار وهذا ضد النوم ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون أى يعون قال الطبرانى حدثنا حجاج ابن عمران السدوسى حدثنا عمرو ابن الحصين العقيلى حدثنا محمد بن عبد الله بن علاقة حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت رضى الله عنه قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قل اللهم غارت النجوم وهدأت العيون وأنت حى قيوم ياحى ياقيوم اهد ليلى فقلتها فذهب عنى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الارض بعد موتها ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون) يقول تعالى ومن آياته الدالة على عظمته انه يريكم البرق خوفا وطمعا اى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة

دوام لب ثمراتها قد بحاسنها صبغا وقيل كان على ثمرة فراسخ من صنعاء
وفي اسناح بطلق البلدة والبلدة على كل موضع من الارض عامرا كان او خلاء (ورب
غفور) اى والمنعم بها عليكم رب غفور لمن شكره فجمع لهم بين المغفرة وطيب البلدة ولم يجمع
ذلك لجميع خلقه وقال مقاتل المعنى وربكم ان شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب
وقيل انما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للاشارة الى ان الرزق قد يكون فيه حرام
وقرئ بنصب البلدة وربا على المدح او اسكنوا البلدة واشكروا ربا ثم ذكر سبحانه ما كان منهم
بعد هذه النعمة التي انعم بها عليهم فقال (فاعرضوا) عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا
انبياءهم قال السدي بعث الله الى اهل سبا ثلاثة عشر نبيا فكذبوهم وكذا قال وهب
وزاد وقالوا ما نعرف لله علينا نعمة فقولوا لربكم فليحبس هذه النعمة عنا ان استطاع
فذلك اعراضهم ثم لما وقع منهم الاعراض عن شكر النعمة ارسل الله عليهم نقمة سلب
بها ما انعم به عليهم كما قال (فارسلنا عليهم سيل العرم) وذلك ان الماء كان ياتي ارض سبا
من اودية اليمن من مواردها من جبال وحفروا الماء وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة ابواب
بعضها فوق بعض وكانوا يسقون من الباب الاعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فاخصبوا
وكثرت اموالهم فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذا ففتقت ذلك الردم حتى انتقض فدخل
الماء جنتهم فغرقها ودفن السيل بيوتهم فهذا هو سيل العرم وهو جمع عرمة وهي السكر
التي تحبس الماء وكذا قال قتادة وغيره وقال السدي العرم اسم للسد والمعنى ارسلنا عليهم
سيل السد العرم وقال عطاء العرم اسم الوادي وقال الزجاج العرم اسم الجرذ الذي نقب
السد عليهم وهو الذي يقال له الخلد فنسب السيل اليه لكونه سبب جريانه قال ابن
الاعرابي العرم من اسماء الفارة وقال مجاهد وابن ابي نجيح العرم ماء احمر ارسله الله في السد
فشقه وهدمه وقيل ان العرم اسم المطر الشديد وقيل اسم للسيل الشديد والعرامة في
الاصل الشدة والشراسة والصعوبة يقال عرم فلان اذا اشتد وتصعب وروي عن ابن
الاعرابي انه قال العرم السيل الذي لا يطاق وقال المبرد العرم كل شيء حاجز بين شيئين
وعن ابن عباس قال العرم الشديد وعنه قال واد كان باليمن كان يسيل الى مكة (وبدلناهم
بجنتيهم جنتين) اى اهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة
والانواع الحسنة واعطيناهم بدلهما جنتين لا خير فيهما ولا فائدة لهم فيهما
وتسميتهما جنتين تهكم بهم على طريق المشاكلة وبعدها قال (ذواتي) تثنية ذوات مفرد
على الاصل لان اصلها ذوية فالواو عين الكلمة والياء لامها فالاصل ذوي وقرئ
فتحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت الفا فصارت ذوات ثم حذفت الواو تخفيفا وتنبيه
وجب ان تقر لفظة الاصل فيقال ذاتا وتارة تقر اذ قيل حذف الواو فيقال ذاتان
وقال الشيخ في شرح ذوات لغتان احدهما الرد الى الاصل فان اصلها ذوية فالعين واو
واللام ياء لانها مؤنث ذوا والثانية على اللفظ فقال ذاتا (اكل خمط) قرئ بتنوين
اكل وعدم اضافته الى خمط وقرئ بالاضافة والاول اولى قال الخليل الخمط ضرب من
الاراك له حمل يؤكل وقال ابن عباس وكذا قال كثير من المفسرين وقال ابو عبيدة

الخمط

ومنه ترجون بمعنيه وما يأتي بعده
من السراج منه ولما قال
تعالى وينزل من السماء ماء فيحيي
به الارض بعد موتها اى بعد
ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء
فلما انزلنا عليها الماء اهتزت وربت
وانبتت من كل زوج بهيج وفي ذلك
عبرة ودلالة واضحة على المعاد
وقيام الساعة ولهذا قال ان في
ذلك لآيات لقوم يعقلون ثم قال
تعالى ومن آياته ان تقوم السماء
والارض بامره كقوله تعالى ويمسك
السماء ان تقع على الارض الا باذنه
وقوله ان الله يمسك السموات
والارض ان تزولا وكان عمر بن
الخطاب رضي الله عنه اذا اجتهد في
اليمين قال والذي تقوم السماء
والارض بامره اى هي قائمة ثابتة
بامره لها وتسخيره اياها ثم اذا كان
يوم القيامة بدلت الارض غير
الارض والسموات وخرجت
الاموات من قبورها احياء بامره
تعالى ودعائه اياهم ولهذا قال تعالى
ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا
انتم تخرجون اى من الارض كما
قال تعالى يوم يدعوكم فتستجيبون
بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا
وقال تعالى فانما هي زجرة واحدة
فاذا هم بالساهرة وقال تعالى ان
كانت الا صيحة واحدة فاذا هم

الخمط كل شجرة مرة ذات شوك وقيل هو ثمر شجر يقال له فسوة الضبع على صورة الخشخاش يتفرك ولا ينتفع به وقال الزجاج كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله وقال المبرد كل شئ يتغير الى ما لا يشتهى يقال له خمط ومنه اللبن اذا تغير والخمط اسم للمر والحامض من كل شئ والخمط نعت لأكل او بدل منه لان الأكل هو الخمط بعينه وقال الاخفش الاضافة احسن فى كلام العرب مثل ثوب خز ودار آجر والاولى تفسير الخمط بما ذكره الخليل ومن معه قال الجوهرى الخمط ضرب من الأراك له حمل يؤكل (وأثل) هو الشجر المعروف الشبيه بالطرفاء كذا قال الفراء وغيره قال الاثل أعظم من الطرفاء طولا وورقه كورق الطرفاء ومنه اتخذ منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواحدة أثلة والجمع أثلات وقال الحسن الاثل الخشب وقال أبو عبيدة هو شجر النضار والاول أولى ولا ثمر للاثل (وشئ من سدر قليل) السدر شجر معروف قال الفراء هو السمر وقال الازهرى السدر من الشجر سدران برى لا ينتفع به ولا يصلح للغسول وله ثمر عفص لا يؤكل وهو الذى يسمى الضال والثانى سدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول يشبه شجر العناب قيل ووصف السدر بالقلة لان منه نوعا يطيب أكله وهو النوع الثانى الذى ذكره الازهرى ولذا يغرس فى البساتين قال قتادة بينما شجرهم من خير شجر اذ صيره الله من شر الشجر بأعمالهم فأهلك أشجارهم المثمرة وأنبت بدلها الاراك والطرفاء والسدر ويحتمل ان يرجع قوله قليل الى جميع ما ذكر من الخمط والاثل والسدر والاشارة بقوله (ذلك) الى ما تقدم من التبديل أو الى المصدر (جزيناهم بما كفروا) أى ذلك التبديل أو ذلك الجزاء بسبب كفرهم للنعمة باعراضهم عن شكرها (وهل نجازى الا الكفور) أى وما نجازى هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النقمة الا الشديد الكفر المتبالغ فيه قرأ الجمهور بضم التحتية وفتح الزاى على البناء للمفعول وقرئ بالنون وكسر الزاى مبنيا للفاعل وهو الله سبحانه والكفور على الاولى مرفوع وعلى الثانية منصوب وظاهر الآية انه لا يجازى الا الكفور مع كون أهل المعاصى يجازون وقد قال قوم ان معنى الآية انه لا يجازى هذا الجزاء وهو الاصطلام والاهلاك الا من كفر وقال مجاهد ان المؤمن تكفر عنه سيآته والكافر يجازى بكل عمل عمله وقال طاوس هو المناقشة فى الحساب وأما المؤمن فلا يناقش وقال الحسن ان المعنى انه يجازى الكافر مثلا بمثل ورجح هذا الجواب النحاس (وجعلنا بينهم) أى وكان من قصتهم انا جعلنا بينهم سبأ (؟) قبل ارسال السيل عليهم (وبين القرى التى باركنا فيها) بالماء والشجر وهى قرى الشام يعنى الارض المقدسة قاله ابن عباس (قرى ظاهرة) أى متواصلة عامرة خصبة وكان متجرهم من أرضهم التى هى مأرب الى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا وكانوا لا يحتاجون الى زاد يحملونه من أرضهم الى الشام فهذا من جملة الحكاية لما أنعم الله به عليهم قال الحسن ان هذه القرى هى بين اليمن والشام قيل انها كانت أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة من سبأ الى الشام وقيل هى بين المدينة والشام قال المبرد القرى الظاهرة هى المعروفة وانما قيل لها ظاهرة لظهورها اذا خرجت من هذه ظهرت

جميع لدينا محضرون (وله من فى السموات والارض كل له قانتون وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الاعلى فى السموات والارض وهو العزيز الحكيم) يقول له تعالى وله من فى السموات والارض أى ملكه وعبيده كل له قانتون أى خاضعون خاشعون طوعا وكرها وفى حديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا كل حرف يذكر فيه القنوت فى القرآن فهو الطاعة وقوله وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى أيسر عليه وقال مجاهد الاعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة وكذا قال عكرمة وغيره وروى البخارى حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب اخبرنا ابو الزناد عن الاعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه اياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون على من اعادته وأما شتمه اياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الاحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

تلك الاخرى فكانت قرى ظاهرة أى معروفة يقال هذا أمر ظاهر أى معروف وقيل
ظاهرة للناظرين أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم (وقدرنا
فيها السير) أى جعلنا السير من القرية الى القرية ومن المنزل الى المنزل مقدرا معينا
واحدا وذلك نصف يوم فى الغدو والرواح فاذا ساروا نصف يوم وصلوا الى قرية ذات مياه
وأشجار فكان ما بين اليمن والشام كذلك كما قال المفسرون قال الفراء أى جعلنا بين كل
قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل فى قرية والمبيت فى أخرى الى أن يصل الى الشام
وانما يبالغ الانسان فى السير لعدم الزاد والماء ولخوف الطريق فاذا وجد الزاد والامن
لم يحمل نفسه المشقة بل ينزل أينما أراد والحاصل ان الله سبحانه عدد عليهم النعم ثم ذكر
ما نزل بهم من النقم ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال
القرى بينهم وبين ما يريدون السفر اليه ثم ذكر بعد ذلك تبديلها بالمفاوز والبرارى كما سيأتى
(سيروا فيها) أى قلنا لهم سيروا فى تلك القرى المتصلة فهو أمر تمكين أى ومكناهم من
السير فيها متى شاؤا أو فى لفظ فى اشعار بشدة القرب حتى كأنهم لم يخرجوا من نفس
القرى قال ابن عباس أى اذا ظعنوا من منازلهم الى أرض الشام المقدسة (ليالى وأياما
آمنين) مما تخافونه وقال قتادة كانوا يسيرون غير خائفين ولا جياع ولا ظماء كانوا
يسيرون مسيرة أربعة أشهر فى أمان لا يحرك بعضهم بعضا ولو لقى الرجل قاتل أبيه لم
يحركه قيل وأتى بلفظ النكرة تنبيها على قصر أسفارهم أى كانوا لا يحتاجون الى طول
السفر لوجود ما يحتاجون اليه ثم ذكر سبحانه انهم لم يشكروا النعمة بل طلبوا التعب
والكد (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) وكان هذا القول منهم بطرا وطغيانا لما سئموا
النعمة ولم يصبروا على العافية فتمنوا طول الاسفار والتباعد بين الديار وسألوا الله تعالى
ان يجعل بينهم وبين الشام مكان تلك القرى المتواصلة الكثيرة الماء والشجر والامن
من المفاوز والقفار والبرارى المتباعدة الاقطار فأجابهم الله الى ذلك وخرب تلك القرى
المتواصلة وذهب بما فيها من الخير والماء والشجر فكانت دعوتهم هذه كدعوة بنى
اسرائيل حيث قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها الآية مكان
المن والسلوى وكقول النضر بن الحرث اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر
علينا حجارة من السماء الآية قرأ الجمهور ربنا بالنصب على أنه منادى مضاف وقرؤا أيضا
باعد وقرئ بعد بتشديد العين وقرأ ابن السميفع بضم العين فعلا ماضيا فيكون معنى
هذه القراءة الشكوى من بعد الاسفار وقرئ ربنا بالرفع وباعد بفتح العين على أنه فعل
ماض على الابتداء والخبر والمعنى لقد باعد ربنا بين أسفارنا ورويت هذه القراءة عن
ابن عباس واختارها أبو حاتم وقال لانهم ما طلبوا التبعيد انما طلبوا أقرب من ذلك
القرب الذى كان بينهم وبين الشام بالقرى المتواصلة بطرا وأشرا وكفرا للنعمة وقرئ ربنا
بالرفع وبعد بفتح العين مشددة والمعنى على هذه القراءة الشكوى بأن ربهم بعد بين
أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء فيكون هذا من جملة بطرهم وقرأ
أخو الحسن البصرى كقراءة ابن السميفع السابقة مع رفع بين على أنه الفاعل كما قيل فى

انفرد باخراجه البخارى كما انفرد
بروايته أيضا من حديث عبد
الرزاق عن معمر عن همام عن أبى
هريرة وقد رواه الامام أحمد
منفردا به عن حسن بن موسى عن
ابن لهيعة حدثنا أبو يونس سليم بن
جبير عن أبى هريرة عن النبى صلى
الله عليه وسلم بنحوه أو مثله وقال
آخرون كلاهما بالنسبة الى القدرة
على السواء وقال العوفى عن ابن
عباس كل عليه هين وكذا قاله
الربيع بن خثيم ومال اليه ابن جرير
وذكر عليه شواهد كثيرة قال ويحتمل
ان يعود الضمير فى قوله وهو أهون
عليه الى الخلق اى وهو اهون
على الخلق وقوله وله المثل الاعلى
فى السموات والارض قال على بن
أبى طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى
ليس كمثله شئ وقال قتادة مثله انه
لا اله الا هو ولا رب غيره وقال مثل
هذا ابن جرير وقد أنشد بعض
المفسرين عند ذكره لهذه الآية
لبعض أهل المعارف

اذا سكن الغدير على صفاء
وجنب ان يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء
كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى
يرى فى صفوها الله العظيم

قوله لقد تقطع بينكم وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة لكن مع نصب بين
على انه ظرف والتقدير بعد سيرنا بين أسفارنا قال النحاس وهذه القراآت اذا اختلفت
معانيها لم يجز ان يقال احداهما أجود من الاخرى كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد اذا
اختلفت معانيها ولكن أخبر عنهم بأنهم دعوا ربهم ان يبعد بين أسفارهم فلما فعل ذلك
شكوا وتضرروا ولهذا قال سبحانه (وظلموا أنفسهم) حيث كفروا بالله وطغوا
وبطروا نعمته وتعرضوا لنقمته (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بأخبارهم وعبرة لمن
بعدهم والاحاديث جمع حديث بمعنى الخبر كما في القاموس والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث
يتحدث بها من بعدهم تعجبا من فعلهم وأمرهم وشأنهم واعتبارا بحالهم وعاقبتهم
(ومزقناهم كل ممزق) أي فرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق بحيث لا يتوقع
بعده عود اتصال وهذه الجملة مبينة لجعلهم أحاديث وذلك ان الله سبحانه لما أغرق مكانهم
وأذهب جنتهم تفرقوا في البلاد فصارت العرب تضرب بهم الامثال فتقول تفرقوا أيدي
سبا وذهبوا أيادي سبا والايدي ههنا بمعنى الاولاد لانهم يعتضد بهم وفي المفصل الايدي
الانفس كناية أو مجاز قال في الكشف وهو أحسن قال الشعبي فلحقت الانصار يعني
الاوس والخزرج بيثرب وغسان بالشام والازد بعمان وخزاعة بتهامة وكان الذي قدم
منهم المدينة عمرو بن عامر وهو جد الانصار ولحق آل خزيمة بالعراق (ان في ذلك) أي فيما
ذكر من قصتهم وما فعل الله بهم (لآيات) بينات وعبرا ظاهرات ودلالات واضحات
(لكل صبار شكور) أي لكل من هو كثير الصبر عن المعاصي والشكر لله على نعمه
وخص الصبار والشكور لانهما المنتفعان بالمواعظ والآيات (ولقد صدق عليهم ابليس
ظنه فاتبعوه) قرئ بتخفيف صدق ونصب ظنه قال الزجاج وهو على المصدر أي صدق وظن
ظنا أو صدق في ظنه أو على الظرفية والمعنى انه ظن بهم انه اذا أغواهم اتبعوه فوجدهم
كذلك وقرئ صدق بالتشديد وظنه بالنصب على انه مفعول به وقال أبو علي الفارسي أي
صدق الظن الذي ظنه قال مجاهد ظن ظنا فصدق ظنه فكان كما ظن وقرئ صدق
بالتخفيف وابليس بالنصب وظنه بالرفع وقد أجاز هذه القراءة الفراء وذكرها الزجاج
وجعل الظن فاعل صدق وابليس مفعوله والمعنى ان ابليس سول له ظنه شيأ فيهم فصدق
ظنه فكأنه قال ولقد صدق عليهم ظن ابليس قيل وهذه الآية خاصة بأهل سبا والمعنى انهم
غيروا وبدلوا بعد ان كانوا قد آمنوا واجابوا رسلهم وقيل هي عامة أي صدق ابليس ظنه
على الناس كلهم الا من أطاع الله قاله مجاهد والحسن قال الكلبي انه ظن انه ان أغواهم
أجابوه وان أضلهم أطاعوه فصدق ظنه فاتبعوه قال الحسن ما ضربهم بسوط ولا بعصى
وانما ظن ظنا فكان كما ظن بوسوسته وعن ابن عباس في الآية قال قال ابليس ان آدم
خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون خلقا ضعيفا واني خلقت من نار والنار تحرق كل
شئ لأحتنكن ذريته الا قليلا قال فصدق ظنه عليهم وانتصاب (الا فريقا من المؤمنين)
على الاستثناء وفيه وجهان أحدهما ان يراد به بعض المؤمنين لان كثيرا من المؤمنين يذنب
وينقاد لابليس في بعض المعاصي ولم يسلم منه الا فريق وهم الذين قال الله فيهم ان عبادي

وهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع
بل قد غلب كل شئ وقهر كل شئ
بقدرته وسلطانه الحكيم في أقواله
وأفعاله شرعا وقدرا وعن مالك في
تفسيره المروي عنه عن محمد بن
المنكدر في قوله تعالى ولله المثل
الاعلى قال لا اله الا الله (ضرب لكم
مثلا من أنفسكم هل لكم مما
ملكت أيمانكم من شركاء فيما
رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم
كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل
الآيات لقوم يعقلون بل اتبع
الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن
يهدي من أضل الله وما لهم من
ناصرين) هذا مثل ضربه الله تعالى
للمشركين به العابدين معه غيره
الجاعلين له شركاء وهم مع ذلك
معترفون ان شركاءه من الاصنام
والانداد عبيد له ملك له كما
كانوا يقولون لبيك لا شريك لك
الا شريكا هو لك تملكه وما ملك
فقال تعالى ضرب لكم مثلا من
انفسكم أي تشهدونه وتفهمونه
من أنفسكم هل لكم مما ملكت
أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم
فأنتم فيه سواء أي يرضى أحدكم
ان يكون عبده شريكا له في ماله
فهو وهو فيه على السواء تخافونهم
كخيفتكم أنفسكم أي تخافون ان
يقاسموكم الاموال قال أبو مجلز

ليس له عليهم سلطان وقيل المراد به المؤمنون كلهم لأنهم لم يتبعوه في أصل الدين على
أن تكون من بيانية (وما كان له عليهم من سلطان) أي من تسلط عليهم أي بإكراههم على
الكفر وإنما كان منه الدعاء والوسوسة والتزيين والضمير في عليهم يعود على من صدق
عليهم ظنه إبليس وعلى الفريق المؤمنين وقيل السلطان القوة وقيل الحجة والاستثناء في
قوله (إلا لنعلم) منقطع والمعنى لا سلطان له عليهم ولكن ابتليناهم بوسوسته لنعلم وقيل
المراد بالعلم الامتياز فنميز حينئذ وقيل إلا لنعلم أي لتعلموا أنتم وقيل ليعلم أولياؤنا وحزبنا وقرئ
ليعلم على البناء للمفعول والأحسن أن العلم على التمييز والاختيار كما ذكرنا وقيل
إن العلم موجود دائما عليه بعد علمه المتعلق بالعلم الأزلي وقيل هو متصل مفرغ من
أعم الأحوال أي ما كان له تسلط عليهم بحال من الأحوال إلا لنعلم (من يؤمن بالآخرة
ممن هو منها في شك) لأنه سبب لحدوث علمنا بها (وربك على
كل شيء حفيظ) أي محافظ عليه والحفيظ بمعنى في صيغة فعيل وقدرة القادر على
الشيء لا يكسب حفظه ولا العاجز لا يتمكن من حفظ كل شيء من الأشياء (قل ادعوا
الذين زعمتم من دون الله) قرئ قل بكسر اللام على أصل التخلص من التقاء الساكنين
وبضمها اتباعا لضمة العين وهما قراءتان سبعيتان
وهذا أمر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن يقول لكفار قريش أو لكفار العرب على الإطلاق
هذا القول ومفعولا زعمتم محذوفان أي زعمتموهم آلهة لدلالة السياق عليهما قال مقاتل
يقول ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع ثم أجاب سبحانه عنهم
فقال (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) أي ليس لهم قدرة على خير
ولا شر ولا على جلب نفع ولا دفع ضر في أمر من الأمور وذكر السموات والأرض لقصد
التعميم لكونهما ظرف الموجودات الخارجية (وما لهم فيهما من شرك) أي ليس للآلهة
في السموات والأرض مشاركة لا بالخلق ولا بالملك ولا بالتصرف (وما له منهم من ظهير) أي
وما لله سبحانه من تلك الآلهة من معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض ومن
فيهما بل هو المنفرد بالإيجاد والتدبير لا يحتاج إلى معين (ولا تنفع الشفاعة عنده
إلا لمن أذن له) استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال
إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين ونحوهم من أهل العلم والعمل
ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين ويجوز أن يكون
المعنى لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن
له أي لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير المستحقين لها قيل
والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلا إلا لمن أذن له وإنما علق النفي بنفعها
لا بوقوعها تصريحا بنفي ما هو غرضهم من وقوعها قرأ الجمهور أذن مبنيا للفاعل أي أذن له
الله سبحانه لأن اسمه سبحانه مذكور قبل هذا وقرئ على البناء للمفعول والآذن هو الله
سبحانه ومثل هذه الآية قوله تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه وقوله تعالى
ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهذا تكذيب لقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله ثم أخبر الله

سبحانه

أن شركاءك لا تخاف أن يقاسموك
حيث وليس له ذلك كذلك الله
لا شريك له والمعنى أن أحدكم
يأنف من ذلك فكيف تجعلون
لله من خلقه وهذا كقوله تعالى
ويجعلون لله ما يكرهون أي من
البنات حيث جعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثا وجعلوها
بنات لله وقد كان أحدهم إذا بشر
بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم
يتوارى من القوم من سوء ما بشر
به أيمسكه على هون أم يدسه في
التراب فهم يأنفون من البنات
وجعلوا الملائكة بنات الله فنسبوا
إليه ما لا يرتضونه لأنفسهم فهذا
أغلظ الكفر وهكذا في هذا المقام
جعلوا له شركاء من عبيده وخلقه
وهم يأنفون غاية الأنفة ويأبى
غيرة لأنفسهم ذلك أن يكون عبده
شريكا في ماله يساويه فيه
تعالى الله عن ذلك علوا
كبيرا قال الطبراني حدثنا محمود بن
الفرج الأصبهاني حدثنا إسماعيل
ابن عمرو البجلي حدثنا حماد بن شعيب
عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد
بن جبير عن ابن عباس قال كان
يلبي أهل الشرك لبيك اللهم لبيك
لا شريك لك إلا شريكا هو لك
تملكه وما ملك فأنزل الله تعالى

سبحانه عن خوف هؤلاء الشفعاء والمشفوع لهم فقال (حتى اذا فزع عن قلوبهم) قرئ مبنيا للمفعول والفاعل هو الله سبحانه وقرئ مبنيا للفاعل وفاعله ضمير يرجع الى الله سبحانه وكلتا القراءتين بتشديد الزاي وفعل معناه السلب فالتفزيع ازالة الفزع وقرئ مخففا وقرئ فرغ بالراء المهملة والغين المعجمة من الفراغ والمعنى فرغ الله قلوبكم أي كشف عنها الخوف وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه أفرنقع من الافرنقاع وهو التفرق قال قطرب معنى فزع أخرج ما فيها من الفزع وهو الخوف وقال مجاهد كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة وقال ابن عباس فزع جلي وهو التفرق والمعنى ان الشفاعة لا تكون من أحد من هؤلاء المعبودين من دون الله من الملائكة والانبياء والاصنام كائنا من كان الا ان يأذن الله سبحانه للملائكة والانبياء ونحوهم في الشفاعة لمن يستحقها وهم على غاية الفزع من الله كما قال تعالى وهم من خشيته مشفقون فاذا اذن لهم في الشفاعة فزعوا لما يقترن بتلك الحالة من الامر الهائل والخوف الشديد من أن يقع في تنفيذ ما أذن لهم فيه تقصير او يحدث شئ من اقدار الله فاذا اسري عنهم (قالوا) للملائكة فوقهم وهم الذين يوردون عليهم الوحي بالاذن (ماذا قال ربكم) أي ماذا أمر الله به (قالوا) أي فيقولون لهم قال القول (الحق) وهو قبول شفاعتكم للمستحقين لها دون غيرهم (وهو العلي الكبير) فله ان يحكم في عباده بما يشاء ويفعل ما يريد ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم الا باذنه وان يشفع الا لمن ارتضى وقيل هذا الفزع يكون للملائكة في كل أمر يأمر به الرب والمعنى لا تنفع الشفاعة الا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم مطيعون لله دون الجمادات والشياطين وقيل ان الذين يقولون ماذا قال ربكم هم المشفوع لهم والذين أجابوهم هم الشفعاء من الملائكة والانبياء وقال الحسن وابن زيد ومجاهد معنى الآية حتى اذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة قالت لهم الملائكة ماذا قال ربكم في الدنيا قالوا الحق فاقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقيل انما يفزعون حذرا من قيام الساعة وقيل كشف الفزع عن قلوبهم عند نزول الموت أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال لما أوحى الجبار الى محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله فقالوا الحق وقد علموا ان الله لا يقول الا حقا قال ابن عباس وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا فلما سمعوا خروا سجدا فلما رفعوا رؤسهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم أيضا عنه قال ينزل الامر الى السماء الدنيا له وقعة كوقعة السلسلة على الصخرة فيفزع له جميع أهل السموات فيقولون ماذا قال ربكم ثم يرجعون الى أنفسهم فيقولون الحق وهو العلي الكبير وأخرج البخاري وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم من حديث أبي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا قضى الله الامر في السماء ضربت الملائكة باجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك فاذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الذي قال الحق وهو العلي

هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فانتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ولما كان التنبيه بهذا المثل على براءته تعالى ونزاهته عن ذلك بطريق الاولى والاحرى قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ثم قال تعالى مبينا ان المشركين انما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا بل اتبع الذين ظلموا أي المشركون أهواءهم أي في عبادتهم الانداد بغير علم فمن يهدي من أضل الله أي فلا أحد يهديهم اذا كتب الله ضلالهم وما لهم من ناصرين أي ليس لهم عن قدرة الله منقذ ولا مجير ولا محيد لهم عنه لانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) يقول تعالى فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة ابراهيم الذي هداك الله لها وكملها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فانه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه

الكبير الحديث وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وعن ابن مسعود قال اذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفاة فيصعقون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون ياجبريل ماذا قال ربك فيقول الحق أخرجه أبو داود والصلصلة صوت الاجراس الصلبة بعضها على بعض وفي معناه أحاديث ثم أمر الله سبحانه رسوله ان يبكت المشركين ويوبخهم فقال (قل من يرزقكم من السموات والارض) أي من ينعم عليكم بهذه الارزاق التي تتمتعون بها فان آلهتكم لايملكون مثقال ذرة والرزق من السماء هو المطر وما ينتفع به منها من الشمس والقمر والنجوم والرزق من الارض هو النبات والمعادن ونحو ذلك ولما كان الكفار لايقدرون على جواب هذا الاستفهام ولا تقبل عقولهم نسبة هذا الرزق الى آلهتهم وربما يتوقفون في نسبته الى الله مخافة ان تقوم عليهم الحجة أمر الله رسوله بان يجيب عن ذلك فقال (قل الله) أي هو الذي يرزقكم من السموات والارض ثم أمره الله سبحانه ان يخبرهم بانهم على ضلالة لكن على وجه الانصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى ومن هو على الضلالة فقال (وانا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) والمعنى ان أحد الفريقين من الذين يوحدون الله الخالق الرازق ويخصونه بالعبادة والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر لعلى أحد الامرين من الهدى والضلالة ومعلوم لكل عاقل ان من عبد الذي يخلق ويرزق وينفع ويضر هو الذي على الهدى ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر هو الذي على الضلالة فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى وهم المسلمون وفريق الضلالة وهم المشركون على وجه أبلغ من التصريح وهذا من الكلام المنصف الذي كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك قال المبرد ومعنى هذا الكلام معنى قول المتبصر في الحجة لصاحبه أحدنا كاذب وقد عرف انه الصادق المصيب وصاحبه الكاذب المخطئ انتهى وخولف بين حرفي الجر الداخلين على الهدى والضلال لان صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد يركضه حيث شاء والضال كأنه ينغمس في ظلام لا يرى أين يتوجه قال المبرد أو عند البصريين على بابها وليست للشك لكنها على ما تستعمله العرب في مثل هذا اذا لم يرد المخبر ان يبين وهو عالم بالمعنى وقال أبو عبيدة والفراء هي بمعنى الواو وتقديره وانا على هدى واياكم لفي ضلال مبين قيل أو اياكم معطوف على اسم ان وخبرها هو المذكور وحذف خبر الثاني للدلالة عليه أي انا لعلى هدى أو في ضلال مبين أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ويجوز العكس وهو كون المذكور خبر الثاني وخبر الاول محذوفا كما في قوله والله ورسوله أحق ان يرضوه ثم أردف سبحانه هذا الكلام المنصف بكلام أبلغ منه في الانصاف وأدخل فيه وأبعد من الجدل والمشاغبة فقال (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون) أي انما أدعوكم الى ما فيه خير لكم ونفع ولا ينالني من كفركم وترككم لاجابتي ضرر وهذا كقوله سبحانه لكم دينكم ولي دين وفي اسناد الجرم الى المسلمين ونسبة مطلق العمل الى المخاطبين مع

لا الى غيره كما تقدم عند قوله تعالى وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى وستذكر الاحاديث ان الله تعالى فطر خلقه على الاسلام ثم طرأ على بعضهم الاديان الفاسدة كاليهودية والنصرانية والمجوسية وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله قال بعضهم معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون خبرا بمعنى الطلب كقوله تعالى ومن دخله كان آمنا وهو معنى حسن صحيح وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه انه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد الا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك ولهذا قال ابن عباس وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد في قوله لا تبديل لخلق الله أي لدين الله وقال البخاري قوله لا تبديل لخلق الله لدين الله خلق الاولين الدين والفطرة الاسلام حدثنا عبدان أخبرنا عبد الله أخبرنا يونس عن الزهري أخبرني أبو سلمة ابن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد الا على الفطرة فأبواه

كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والاثم الواضح من الانصاف مالا يقادر قدره والمقصود المهادنة والمتاركة وقد قيل نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف ثم أمره سبحانه بان يهددهم بعذاب الآخرة لكن على وجه لا تصريح فيه فقال (قل يجمع بيننا ربنا) أي يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) أي يحكم ويقضي بيننا فيثيب المطيع ويعاقب العاصي (وهو الفتاح) أي الحاكم بالحق القاضي بالصواب (العليم) بما يتعلق بحكمه وقضائه من المصالح قيل وهذه أيضا منسوخة بآية السيف ثم أمره الله سبحانه أن يورد عليهم حجة أخرى ليظهر بها ما هم عليه من الخطا فقال (قل أروني الذين ألحقتم به شركاء) أي ألحقتموهم بالله شركاء له وهذه الرؤية هي القلبية فيكون شركاء هو المفعول الثالث ويجوز أن تكون هي البصرية ويكون شركاء منتصبا على الحال وأريد بأمرهم باراءته الاصنام مع كونها بمرأى منه صلى الله عليه وآله وسلم اظهار خطئهم واطلاعهم على بطلان رأيهم أي أرونيها لانظر أي صفة فيها اقتضت الحاقها بالله تعالى في استحقاق العبادة وفيه مزيد تبكيت لهم بعد الزامهم الحجة ثم ردعليهم ما يدعونه من الشركاء وأبطل ذلك فقال (كلا بل) أي ارتدعوا عن دعوى المشاركة بل المنفرد بالالهية (هو الله العزيز) بالقهر والغلبة (الحكيم) بالحكمة الباهرة (وما أرسلناك الا كافة للناس) في انتصاب كافة وجوه فقيل انه منتصب على الحال من الكاف في أرسلناك قال الزجاج أي وما أرسلناك الا جامعا للناس بالانذار والابلاغ والكافة بمعنى الجامع والهاء فيه للمبالغة كعلامة قال أبو حيان ان اللغة لا تساعد عليه لان كف ليس معناه جمع بل معناه منع يقال كف يكف أي منع يمنع والمعنى الا مانعا لهم من الكفر ومنه الكف لانه يمنع من خروج ما فيه وقيل انه منتصب على المصدرية والهاء للمبالغة كالعاقبة والعافية والمراد أنها صفة مصدر محذوف أي الارسالة كافة وقيل انه حال من الناس والتقدير وما أرسلناك الا للناس كافة ورد بانه لا يتقدم الحال من المجرور عليه كما هو مقرر في علم الاعراب ويجاب عنه بانه قد جوز ذلك أبو علي الفارسي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون وممن رجح كونها حالا من المجرور بعدها ابن عطية وقال قدمت للاهتمام والتقوي ورده الزمخشري وقال خطأ وقال الحلي بل هو الصحيح وقيل المعنى الا ذا كافة أي ذا منع فحذف المضاف وقيل اللام في للناس بمعنى الى أي ما أرسلناك الى الناس الا جامعا لهم بالانذار والابلاغ أو مانعا لهم من الكفر والمعاصي عن قتادة قال أرسل الله محمدا الى العرب والعجم فأكرمهم على الله أطوعهم له وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة أخرجه البخاري ومسلم وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الانس والجن وهذه درجة خص بها دون سائر الانبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام (بشيرا ونذيرا) حال أي مبشرا لهم بالجنة

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ورواه مسلم من حديث عبد الله بن وهب عن يونس ابن يزيد الايلي عن الزهري به وأخرجاه أيضا من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي معنى هذا الحديث قد وردت أحاديث عن جماعة من الصحابة فمنهم الاسود بن سريع التميمي قال الامام أحمد حدثنا اسمعيل حدثنا يونس عن الحسن عن الاسود بن سريع قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت معه فاصبت ظفرا فقتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية فقال رجل يا رسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا انما خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية وقال كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها

أو بالفضل لمن أقر ومنه مزاله سهم من النار أو بالعدل لمن أصر (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ما عند الله وما لهم من النفع في ارسال الرسل فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون متى) يكون (هذا الوعد) الذي تعدوننا به وهو قيام الساعة أخبرونا به (ان كنتم صادقين) قالوا هذا على طريقة الاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن معه من المؤمنين فأمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيب عنهم فقال (قل لكم ميعاد يوم) أي ميقات يوم وهو يوم البعث وقيل وقت حضور الموت وقيل أراد يوم بدر لانه كان يوم عذابهم في الدنيا وعلى كل تقدير فهذه الاضافة للبيان وميعاد مصدر بمعنى الوعد أو اسم زمان قال أبو عبيدة الوعد والوعيد والميعاد بمعنى (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أي هذا الميعاد المضروب لكم لا تتأخرون عنه بالاستمهال ولا تتقدمون عليه بالاستعجال بل يكون لا محالة في الوقت الذي قد قدر الله وقوعه فيه وهذا جواب تهديد جاء مطابقا لما قصدوه بسؤالهم من التعنت والانكار ثم ذكر سبحانه طرفا من قبائح الكفار ونوعا من أنواع كفرهم فقال (وقال الذين كفروا) يعني مشركي العرب (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) أي بما أنزل قبل القرآن من كتب الله تعالى كالتوراة والانجيل أو القيامة أو الجنة والنار يعني انهم جحدوا ان يكون القرآن من الله وان يكون لما دل عليه من الاعادة للجزاء حقيقة ثم أخبر سبحانه عن حالهم في الآخرة فقال (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم) الخطاب لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له والمعنى محبوسون في موقف الحساب وجواب لو محذوف أي لرأيت أمرا عجيبا وحالا فظيعا (يرجع بعضهم الى بعض القول) أي فيما بينهم باللوم والعتاب بعد ان كانوا في الدنيا متعاضدين متناصرين متحابين ثم بين سبحانه تلك المراجعة فقال (يقول الذين استضعفوا) وهم الاتباع (للذين استكبروا) وهم الرؤساء المتبوعون (لولا أنتم) صددتمونا عن الايمان بالله والاتباع لرسوله (لكنا مؤمنين) بالله مصدقين لرسوله وكتابه (وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا) مجيبين عليهم مستنكرين لما قالوه (أنحن صددناكم عن الهدى) أي أمنعناكم عن الايمان (بعد اذ جاءكم) الهدى قالوا هذا منكرين لما ادعوه عليهم من الصد لهم وجاحدين لما نسبوه اليهم من ذلك ثم بينوا لهم انهم الصادون لانفسهم الممتنعون من الهدى بعد اذ جاءهم فقالوا (بل كنتم مجرمين) أي مصرين على الكفر كثيري الاجرام عظيمي الآثام (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا) ردا لما أجابوا به عليهم ودفعا لما نسبوه اليهم من صدهم لانفسهم (بل مكر الليل والنهار) أي أبطلوا اضرابهم باضرابهم كأنهم قالوا بل من جهة مكركم بنا ليلا ونهارا وأصل المكر في كلام العرب الخديعة والحيلة يقال مكر به اذا خدعه واحتال عليه فقيل هو طول السلامة في الدنيا وطول الامل فيها وقال الاخفش هذا مكر الليل والنهار قال النحاس والمعنى والله أعلم بل مكركم في الليل والنهار ودعاؤكم لنا الى الكفر هو الذي حملنا على هذا وقال سفيان الثوري بل عملكم في الليل والنهار ويجوز ان يجعل الليل والنهار ماكرين على الاسناد المجازي كما تقرر في علم المعاني قال المبرد كما تقول العرب

قالوا اشيم وذابهم أو نبصرانهم ورواه النسائي في كتاب السير عن زياد بن أيوب عن هشيم عن يونس وهو ابن عبيد عن الحسن البصري به ومنهم جابر بن عبد الله الانصاري قال الامام أحمد حدثنا هاشم أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فاذا عبر عنه لسانه اما شاكرا واما كفورا ومنهم عبد الله بن عباس الهاشمي قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة حدثنا أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين اذ خلقهم أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي بشر جعفر بن اياس اليشكري عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس مرفوعا كذلك وقد قال الامام أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا حماد يعني ابن سلمة أنبأنا عمار بن أبي عمار عن ابن عباس قال أتى علي زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد

نهاره صائم وليله قائم وفي السمين واضافة المكر الى الليل والنهار اما على الاسناد المجازي كقولهم ليل ماكر فيكون مصدرا مضافا لمرفوعه واما على الاتساع في الظرف فجعل كالمفعول به فيكون مضافا لمنصوبه وهذا أحسن من قول من قال ان الاضافة بمعنى في أي في الليل لان ذلك لم يثبت في غير محل النزاع وقرئ برفع مكر ونصب الليل والتقدير بل مكر كائن في الليل والنهار وقرئ مكر بفتح الكاف وتشديد الراء مضافا بمعنى الكرور من كر يكر اذا جاء وذهب أي مكر الليل والنهار صدنا أو صدنا مكرهما وقرئ مكر بفتح الكاف وتشديد الراء لكنه بنصب على المصدرية أي بل يكون الاغواء مكرا دائما لا يفترون عنه (اذ تأمروننا) أي بل مكركم بنا وقت أمركم لنا (أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أي اشباها وأمثالا قال المبرد يقال ند فلان فلان أي مثله وهذا قول القادة للاتباع ان ديننا الحق وان محمدا كذاب ساحر وهذا تنبيه للكفار ان تصير طاعة بعضهم لبعض في الدنيا سبب عداوتهم في الآخرة (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) الضمير راجع الى الفريقين أي أضمر الفريقان الندامة على مافعلوا من الكفر وأخفوها عن غيرهم وأخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة وقيل المراد بأسروا هنا أظهروا والاسرار من الاضداد يكون تارة بمعنى الاخفاء وتارة بمعنى الاظهار وقيل المعنى تبينت الندامة في أسرة وجوههم والجملة مستأنفة أو حال من الذين استضعفوا والذين استكبروا (وجعلنا الاغلال في أعناق الذين كفروا) الاغلال جمع غل يقال في رقبته غل من حديد أي جعلت الاغلال من الحديد في أعناق هؤلاء في النار والمراد بالذين كفروا هم المذكورون سابقا والاظهار لمزيد الذم أو للكفار على العموم فيدخل هؤلاء فيهم دخولا أوليا (هل) أي ما (يجزون الا) جزاء (ما كانوا يعملون) في الدنيا من الشرك والكفر بالله والمعاصي أو الا بما كانوا يعملون على حذف الخافض ولما قص سبحانه حال من تقدم من الكفار اتبعه بما فيه التسلية لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وبيان ان كفر الامم السابقة بمن أرسل اليهم من الرسل هو كائن مستمر في الاعصر الاول فقال (وما أرسلنا في قرية) من القرى (من نذير) ينذرهم ويحذرهم عقاب الله (الا قال مترفوها) حال من قرية وان كانت نكرة لوقوعها في سياق النفي والمعنى قال متنعموها ورؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر لرسلهم (انا بما) أي بالذي (أرسلتم به) من الايمان والتوحيد (كافرون) عن أبي رزين قال كان رجلان شريكين خرج أحدهما الى الساحل وبقي الآخر فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم كتب الى صاحبه يسأله مافعل فكتب اليه انه لم يتبعه أحد من قريش الا رذالة الناس ومساكينهم فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلني عليه وكان يقرأ الكتب فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الى ماتدعو قال الى كذا وكذا قال أشهد انك رسول الله قال وما علمك بذلك قال انه لم يبعث نبي الا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم فنزلت هذه الآية فارسل اليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان الله قد أنزل تصديق ماقلت ثم ذكر سبحانه ما افتخروا به من الاموال والاولاد وما قاسوا حالهم في الدار الآخرة على حالهم في هذه

المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان عن فلان ان رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنهم فقال الله أعلم بما كانوا عاملين قال فلقيت الرجل فاخبرني فامسكت عن قولي ومنهم عياض بن حمار المجاشعي قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا هشام عن قتادة عن مطرف عن عياض بن حمار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم فقال في خطبته ان ربي عز وجل أمرني ان أعلمكم ماجهلتم مما علمني في يومي هذا كل مال نحلته عبادي حلال واني خلقت عبادي حنفاء كلهم وانهم أتتهم الشياطين فاضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم ان يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا ثم ان الله عز وجل نظر الى أهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب وقال انما بعثتك لابتليك وأبتلي بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم ان الله أمرني ان أحرق قريشا فقلت رب اذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما

الدار على تقدير صحة ما أنذرهم به الرسل فقال (وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا) والمعنى ان الله فضلنا عليكم بالأموال والأولاد في الدنيا وذلك يدل على انه قد رضي ما نحن عليه من الدين (وما نحن بمعذبين) في الآخرة بعد احسانه الينا في الدنيا ورضاه عنا أرادوا انهم أكرم على الله من أن يعذبهم نظرا الى أحوالهم في الدنيا وظنوا انهم لو لم يكرموا على الله لما رزقهم الله ولولا ان المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم فأبطل الله ظنهم وأمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأن يجيب عنهم ردا عليهم وحسما لمادة طمعهم وتحقيقا للحق الذي عليه يدور أمر التكوين وقال (قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء) ان يبسطه له (ويقدر) أي يضيق على من يشاء ان يضيقه عليه فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصي استدراجا له وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير توفيرا لأجره وليس مجرد بسط الرزق لمن يبسطه له يدل على انه قد رضي عنه ورضي عمله ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على انه لم يرضه ولا رضي عمله بل كل ذلك حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم البالغة فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين أو المغالطة الواضحة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك ومن جملة هذا الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) كلام مستأنف من جهته تعالى خوطب به الناس بطريق التلوين والالتفات مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق والمعنى ليسوا بالخصلة التي تقربكم عندنا قربى قال مجاهد الزلفى القربى والزلفة القربة قال الأخفش زلفى اسم مصدر كأنه قال بالتي تقربكم عندنا تقريبا قال الفراء ان التي تكون للأموال والأولاد جميعا وهو الصحيح وقيل المعنى وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم بالتي الخ وذلك ان الجمع المكسر عقلاء وغير عقلاء سواء في حكم التأنيث وقال الزجاج ان المعنى وما أموالكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ثم حذف الخبر الأول لدلالة الثاني عليه ويجوز في غير القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذي للأولاد خاصة أي لا تزيدكم الأموال والأولاد عندنا درجة ورفعة ولا تقربكم تقريبا (الا من آمن) هو استثناء منقطع أي لكن من آمن (وعمل) عملا (صالحا) وقيل انه متصل على ان يجعل الخطاب عاما للكفرة والمؤمنين على انه ابتداء كلام لا مقول لهم (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما ان الافراد في الفعلين باعتبار لفظها (لهم جزاء الضعف) أي جزاء الزيادة وهي المرادة بقوله من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وهو من اضافة المصدر الى المفعول أي جزاء التضعيف للحسنات وقيل لهم جزاء الأضعاف لان الضعف في معنى الجمع أو من اضافة الموصوف الى صفته أي لهم الجزاء المضاعف قال مجاهد أي تضعيف الحسنة وعن محمد بن كعب قال اذا كان الرجل غنيا تقيا آتاه الله أجره مرتين وتلا هذه الآية الى قوله فأولئك لهم جزاء الضعف وقال تضعيف الحسنة (بما عملوا) الباء للسببية (وهم في الغرفات) أي غرفات الجنة قرئ بالجمع لقوله لنبوئنهم من الجنة غرفا وفي قراءة سبعية بالافراد بمعنى الجمع حملا للأل على انها جنسية لقوله أولئك يجزون الغرفة (آمنون) من كل هائل وشاغل وسائر المكاره ومن جميع ما يكرهون ثم لما ذكر سبحانه

استخرجوك واغزهم نغزك وانفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا والخائن الذي لا يخفى له طمع وان دق الا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسي الا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش انفرد باخراجه مسلم فرواه من طرق عن قتادة به وقوله تعالى ذلك الدين القيم أي التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون أي فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال تعالى وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله الآية وقوله تعالى منيبين اليه قال ابن زيد وابن جريج أي راجعين

حال المؤمنين ذكر حال الكافرين فقال (والذين يسعون في آياتنا) بالرد لها وابطالها والطعن فيها حال كونهم (معاجزين) مسابقين لنا زاعمين انهم يفوتوننا بانفسهم أو معاندين لنا بكفرهم (أولئك في العذاب) أي عذاب جهنم (محضرون) تحضرهم الزبانية اليها لا يجدون عنها محيصا ثم كرر سبحانه ما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة فقال (قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أي يوسعه لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ليس في ذلك دلالة على سعادة ولا شقاوة وفي القاري هذا في شخص واحد باعتبار وقتين أو في المؤمن وما سبق في شخصين أو في الكافر فلا تكرار ونحوه في البيضاوي قال الشهاب بل فيه تقرير لان التوسيع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان فانه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد (وما أنفقتم من شئ) على أنفسكم وعيالكم وقيل ما تصدقتم (فهو يخلفه) عليكم أي يعطي خلفه اذا كان في غير اسراف يقال أخلف له وأخلف عليه اذا أعطاه عوضه وبدله وذلك البدل اما في الدنيا واما في الآخرة أو فيهما معا اما عاجلا بالمال أو بالقناعة التي هي كنز لا ينفد واما آجلا بالثواب في الآخرة الذي كل خلف دونه وقال مجاهد هذا في الآخرة وعن أبي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو الا عزا وما تواضع أحد لله الا رفعه الله أخرجه مسلم وقال ابن عباس في الآية يعني في غير اسراف ولا تقتير وعن مجاهد والحسن مثله وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كلما أنفق العبد من نفقة فعلى الله خلفها ضامنا الا نفقة في بنيان أو معصية أخرجه الدارقطني والبيهقي وأخرج نحوه ابن عدي في الكامل والبيهقي من وجه آخر عنه مرفوعا باطول منه وقد ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال قال الله عز وجل أنفق يا ابن آدم أنفق عليك وثبت في الصحيح من حديثه أيضا قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا وعن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول ان لكل يوم نحسا فادفعوا نحس ذلك اليوم بالصدقة ثم قال اقرؤا مواضع الخلف فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه اذا لم تنفقوا كيف يخلف أخرجه ابن مردويه وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ان المعونة تنزل من السماء على قدر المؤنة (وهو خير الرازقين) فان رزق العباد لبعضهم البعض انما هو بتيسير الله وتقديره وليسوا برازقين على الحقيقة بل على طريق المجاز كما يقال في الرجل انه يرزق عياله وفي الامير انه يرزق جنده والرازق للامير والمأمور والكبير والصغير هو الخالق لهم ومن أخرج من العباد الى غيره شيأ فهو مما رزقه الله وأجراه على يده قال بعضهم الحمد لله الذي أوجدني وجعلني ممن يشتهي فكم من مشتهيه لا يجد وكم من واجد لا يشتهي (و) اذكر (يوم يحشرهم جميعا) هو متصل بقوله ولو ترى اذ الظالمون موقوفون أي ولو تراهم أيضا يوم يحشرهم الله جميعا للحساب العابد والمعبود والمستكبر والمستضعف (ثم يقول

اليه واتقوه أي خافوه وراقبوه وأقيموا الصلاة وهي الطاعة العظيمة ولا تكونوا من المشركين أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه قال ابن جرير حدثني يحيى بن واضح حدثنا يونس عن ابن اسحق عن يزيد ابن أبي مريم قال مر عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر ما قوام هذه الآية قال معاذ ثلاث وهن المنجيات الاخلاص وهي الفطرة فطرة الله التي فطر الناس عليها والصلاة وهي الملة والطاعة وهي العصمة فقال عمر صدقت حدثني يعقوب أنبأنا ابن علية أنبأنا أيوب عن أبي قلابة ان عمر رضي الله عنه قال لمعاذ ما قوام هذا الامر فذكر نحوه وقوله تعالى من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض وقرأ بعضهم فارقوا دينهم أي تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الاوثان وسائر أهل الاديان الباطلة

للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون) أي يقول تعالى للمشركين وتوبيخا لمن عبد غير
الله عز وجل كما في قوله لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله وانما
خص الملائكة بالذكر مع ان بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والاصنام
لانهم أشرف معبودات المشركين قال النحاس والمعنى ان الملائكة اذا كذبتهم كان في
ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين واردا على المثل السائر اياك أعني فاسمعي
ياجارة (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) مستأنفة أي تنزيها لك أنت الذي نتولاه
ونطيعه ونعبده من دونهم ما اتخذناهم عابدين ولا توليناهم وليس لنا غيرك وليا ثم صرحوا
بما كان المشركون يعبدونه فقالوا (بل كانوا يعبدون الجن) أي الشياطين وهم ابليس
وجنوده ويزعمون انهم يرونهم وانهم ملائكة وانهم بنات الله وقيل كانوا يدخلون أجواف
الاصنام ويخاطبونهم منها (أكثرهم بهم مؤمنون) أي أكثر المشركين بالجن مؤمنون
مصدقون لهم فيما يقولون لهم قيل والاكثر في معنى الكل (فاليوم لا يملك بعضكم) وهم
المعبودون (لبعض) وهم العابدون (نفعا) أي شفاعة ونجاة (ولا ضرا) أي عذابا وهلاكا
وانما قيل لهم هذا القول اظهارا لعجزهم وقصورهم وتبكيتا لعابديهم وقوله ولا ضرا هو
على حذف مضاف أي لا يملكون لهم دفع ضر والفاء ليست لترتيب ما بعدها من الحكم
على جواب الملائكة فانه محقق أجابوا بذلك أم لا بل لترتيب الاخبار به عليه (ونقول
للذين ظلموا) أنفسهم بعبادة غير الله (ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون) في الدنيا
ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من أنواع كفرهم فقال (واذا تتلى عليهم آياتنا) القرآنية حال
كونها (بينات) واضحات الدلالات ظاهرات المعاني على التوحيد (قالوا ما هذا) يعنون
التالي لها وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الا رجل يريد ان يصدكم عما كان يعبد
آباؤكم) أي اسلافكم من الاصنام التي كانوا يعبدونها (وقالوا) ثانيا (ما هذا) يعنون
القرآن الكريم (الا افك مفترى) أي كذب في حد ذاته غير مطابق للواقع مختلق على الله
من حيث نسبته اليه فمفترى تأسيس لا تأكيد (وقال الذين كفروا) ثالثا (للحق لما
جاءهم) أي لامر الدين الذي جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ان هذا الا سحر
مبين) وفي تكرير الفعل والتصريح بالفاعل انكار عظيم له وتعجيب بليغ منه وهذا
الانكار منهم خاص بالتوحيد وأما انكار القرآن والمعجزة فكان متفقا عليه بين أهل
الكتاب والمشركين وقيل أريد بالاول وهو قولهم الا افك مفترى معناه وبالثاني وهو
قولهم ان هذا الا سحر مبين نظمه المعجز وقيل ان طائفة منهم قالوا انه افك وطائفة قالوا
انه سحر وقيل انهم جميعا قالوا تارة انه افك وتارة انه سحر والاول أولى (وما آتيناهم من
كتب يدرسونها) أي ما أنزلنا على العرب كتبا سماوية دالة على صحة الاشراك يدرسون
فيها ويقرؤنها (وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير) يدعوهم الى الاشراك أو الى الحق
وينذرهم بالعذاب فليس لتكذيبهم بالقرآن وبالرسول وجه ولا شبهة يتشبثون بها قال
قتادة ما أنزل الله على العرب كتابا قبل القرآن ولا بعث اليهم نبيا قبل محمد صلى الله عليه وآله
وسلم قال الفراء أي من أين كذبوك ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه ثم خوفهم

عما عدا أهل الاسلام كما قال تعالى
ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا
لست منهم في شيء انما أمرهم الى
الله الآية فأهل الاديان قبلنا
اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل
باطلة وكل فرقة منهم تزعم انهم على
شيء وهذه الامة أيضا اختلفوا فيما
بينهم على نحل كلها ضلالة الا
واحدة وهم أهل السنة والجماعة
المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم وبما كان عليه
الصدر الاول من الصحابة والتابعين
وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه
كما رواه الحاكم في مستدركه انه سئل
صلى الله عليه وسلم عن الفرقة
الناجية منهم فقال من كان على
ما أنا عليه اليوم وأصحابي (واذا
مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين
اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا
فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا
بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون
أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم
بما كانوا به يشركون واذا أذقنا
الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم
سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم
يقنطون أولم يروا ان الله يبسط الرزق

سبحانه وأخبر عن عاقبتهم وعاقبة من كان قبلهم فقال (وكذب الذين من قبلهم) أى من كفار القرون الخالية (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى ما بلغ أهل مكة من مشركى قريش وغيرهم من العرب عشر ما آتينا من قبلهم من القوة والنعمة وكثرة المال والاولاد وطول الاعمار فأهلكهم الله كعاد وثمود وأمثالهم ولم تنفعهم قوتهم شيأ فى دفع الهلاك عنهم حين كذبوا رسلهم فهؤلاء أولى بان يحل بهم العذاب لتكذيبهم رسولهم والمعشار لغة فى العشر قال الجوهرى معشار الشئ عشره وفى البحر المعشار مفعال من العشر ولم يبن على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره وغير المرباع ومعناهما العشر والربع وقيل المعشار عشر العشر والاول أولى وقيل ان المعنى ما بلغ من قبلهم معشار ما آتيناه هؤلاء من البينات والهدى وقيل ما بلغ من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم وقيل ما أعطى الله من قبلهم معشار ما أعطاهم من العلم والبيان والحجة والبرهان والاول أولى وقيل المعشار عشر العشير والعشير هو عشر العشر فيكون جزأ من ألف جزء قال الماوردى وهو الاظهر لان المراد به المبالغة فى التقليل قلت مراعاة المبالغة فى التقليل لا يسوغ لاجلها الخروج عن المعنى العربى وقال ابن عباس فى الآية يقول من القوة فى الدنيا وعن ابن جريج نحوه (فكذبوا رسلى) عطف على كذب الذين من قبلهم على طريقة التفسير كقوله كذبت قوم نوح فكذبوا عبدنا الآية والاولى ان يكون من عطف الخاص على العام لان التكذيب الاول لما حذف منه المتعلق للتكذيب أفاد العموم فمعناه كذبوا الكتب المنزلة والرسل المرسلة والمعجزات الواضحة وتكذيب الرسل أخص منه وان كان مستلزما له فقد روعيت الدلالة اللفظية لا الدلالة الالتزامية وما بينهما حال أو اعتراض وقال البيضاوى لا تكرير لان الاول للتكثير والثانى للتكذيب ونحوه فى الكشاف وبمثله قال الكرخى (فكيف كان نكير) أى فكيف كان انكارى لهم بالعذاب والعقوبة فليحذر هؤلاء من مثل ذلك قيل والتقدير فأهلكناهم فكيف نكيرى والنكير اسم بمعنى الانكار ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ان يقيم عليهم حجة ينقطعون عندها فقال (قل انما أعظكم بواحدة) أى أحذركم وأنذركم سوء عاقبة ما أنتم فيه وأوصيكم بخصلة واحدة وهى (أن تقوموا لله مثنى وفرادى) فهذا تفسير للخصلة الواحدة أو بدل منها أى هى قيامكم وتشميركم فى طلب الحق بالفكرة الصادقة متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا لان الاجتماع يشوش الفكر ويعمى البصر ويمنع من الروية ويقل الانصاف فيه ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع الا نصرة المذهب وليس المراد القيام على الرجلين والنهوض والانتصاب على القدمين بل المراد القيام بطلب الحق والاعتناء والاشتغال بالتدبر واحداق الفكر فيه كما يقال قام فلان بأمر كذا وقيل المراد بواحدة هى لا اله الا الله كذا قال مجاهد والسدى وقيل القرآن لانه يجمع المواعظ كلها والاولى ما ذكرناه وقال الزجاج المعنى لان تقوموا وقال السدى معنى مثنى وفرادى منفردا برأيه ومشاورا لغيره وقال القتيبى مناظرا مع عشيرته ومتفكرا فى نفسه وقيل المثنى عمل النهار والفرادى عمل الليل قاله الماوردى وما أبرد هذا القول وأقل جدواه

لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يقول تعالى مخبرا عن الناس انهم فى حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له وانه اذا أسبغ عليهم النعم اذا فريق منهم فى حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره وقوله تعالى ليكفروا بما آتيناهم هى لام العاقبة عند بعضهم ولام التعليل عند آخرين ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك ثم توعدهم بقوله فسوف يعلمون قال بعضهم والله لو توعدنى حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا الذى يقول للشئ كن فيكون ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلقوه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان أم أنزلنا عليهم سلطانا أى حجة فهو يتكلم أى ينطق بما كانوا به يشركون وهذا استفهام انكار

ونصبهما على الحال وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحدة فإن انقدح الحق بين الاثنين فكر كل واحد منهما بعد ذلك فيزداد بصيرة قال الشاعر

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل غريبة * فيزداد بعض القوم من بعضهم علما

(ثم تتفكروا) في أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما جاء به من الكتاب فإنكم عند ذلك تعلمون أن (ما بصاحبكم من جنة) وذلك لأنهم كانوا يقولون إن محمدا مجنون فقال الله سبحانه قل لهم اعتبروا أمري بواحدة وهي أن تقوموا لله وفي ذاته مجتمعين فيقول الرجل لصاحبه هلم فلنتصادق هل رأينا بهذا الرجل من جنة أي جنون أو جربنا عليه كذبا ثم ينفرد كل واحد عن صاحبه فيتفكر وينظر فإن في ذلك ما يدل على أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم صادق وأنه رسول من عند الله وأنه ليس بكاذب ولا ساحر ولا مجنون قال محمد بن كعب في الآية يقوم الرجل مع الرجل أو وحده فيتفكر ما بصاحبه من جنة وقال قتادة يقول إنه ليس مجنونا وقيل مستأنفة من جهة الله سبحانه مسوقة على طريقة النظر والتأمل بأن هذا الأمر عظيم والدعوى الكبيرة لا يعرض نفسه له إلا مجنون لا يبالي بما يقال فيه وما ينسب إليه من الكذب وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم حلما وأحدهم ذهنا وأرصنهم رأيا وأصدقهم قولا وأزكاهم نفسا وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به فوجب أن يصدقوه في دعواه لا سيما مع انضمام المعجزة الواضحة وإجماعهم على أنه لم يكن ممن يفتري الكذب ولا قد جربوا عليه كذبا مدة عمره وعمرهم وقيل ثم تتفكروا أي شيء به من آثار الجنون واختار أبو حاتم وابن الأنباري الوقف على قوله ثم تتفكروا وعلى هذا تكون جملة ما بصاحبكم من جنة مستأنفة كما قدمنا وقيل ليس بوقف لأن المعنى ثم تتفكروا هل جربتم عليه كذبا أو رأيتم منه جنة أو في أحواله من فساد (إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد) أي ما هو إلا نذير لكم بين يدي الساعة أي قدامها وهو عذاب الآخرة وهو كقوله صلى الله عليه وآله وسلم بعثت بين يدي الساعة ثم أمره سبحانه أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا ولا رغبة فيها حتى تنقطع عندهم الشكوك ويرتفع الريب فقال (قل ما سألتكم من أجر) أي من جعل (فهو لكم) يقول لم أسألكم على الإسلام جعلا أي ما طلبت منكم من جعل تجعلونه لي في مقابل الرسالة فهو لكم إن سألتكموه والمراد نفي السؤال بالكلية كما يقول القائل ما أملكه في هذا فقد وهبته لك يريد أنه لا ملك له فيه أصلا ومثل هذه الآية قوله قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى وقوله ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ثم بين لهم أن أجره عند الله سبحانه فقال (إن أجري إلا على الله) لا على غيره (وهو على كل شيء شهيد) أي مطلع لا يغيب عنه منه شيء فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصحكم ودعائكم إليه إلا منه (قل إن ربي يقذف) القذف في الأصل الرمي بالسهم والحصى والكلام قال الكلبي يرمي على معنى يأتي به وقال مقاتل يتكلم (بالحق) وهو القرآن والوحي أي يلقيه إلى أنبيائه وقال قتادة بالحق أي بالوحي والمعنى أنه يبين الحجة

أي لم يكن شيء من ذلك ثم قال تعالى وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور أي يفرح في نفسه ويفخر على غيره وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية قال الله تعالى إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أي صبروا في الضراء وعملوا الصالحات في الرخاء كما ثبت في الصحيح عجبا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وقوله تعالى أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته

ويطهرها

ويظهره للناس على ألسن رسله وقيل يرمى الباطل بالحق فيدمغه (علام الغيوب) قرئ برفع علام وبنصبه قال الفراء والرفع فى مثل هذا أكثر كقوله ان ذلك لحق تخاصم أهل النار وقرئ الغيوب بالحركات الثلاث فى الغين وهو جمع غيب والغيب هو الامر الذى غاب وخفى جدا (قل جاء الحق) أى الاسلام والتوحيد وقال قتادة القرآن وقال النحاس التقدير صاحب الحق أى الكتاب الذى فيه البراهين والحجج وأقول لا وجه لتقدير المضاف فان القرآن قد جاء كما جاء صاحبه (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى ذهب الباطل ذهابا لم يبق له اقبال ولا ادبار ولا ابداء ولا اعادة فجعل مثلا فى الهلاك بالمرة والابداء فعل الشئ ابتداء والاعادة فعله على طريق الاعادة ولما كان الانسان ما دام حيا لا يخلو عن ذلك كنى به عن حياته وبنفيه عن هلاكه ثم شاع ذلك فى كل ما ذهب ولم يبق له أثر وان لم يكن ذا روح فهو كناية أيضا أو مجاز متفرع على الكناية وقيل يجوز أن تكون ما استفهامية أى أى شئ يبدئه وأى شئ يعيده وعن قتادة قال الشيطان لا يبدئ ولا يعيد اذا هلك وعنه قال ما يخلق ابليس شيأ ابتداء ولا يبعثه وبه قال مقاتل والكلبى وقيل الباطل الاصنام والاول أولى (قل ان ضللت) عن الطريق الحقة الواضحة وقرئ بفتح اللام وهذه لغة نجد وهى الفصيحة وبكسرها وهى لغة أهل العالية (فانما أضل) أى اثم ضلالتى يكون (على نفسى) وقال عمر بن سعد أى انما أوخذ بجنايتى وذلك ان الكفار قالوا له تركت دين آبائك فضللت فأمره الله ان يقول لهم هذا القول (وان اهتديت فبما يوحى الى ربى) من الحكمة والموعظة والبيان بالقرآن وما مصدرية أو موصولة والتقابل هنا من جهة المعنى دون اللفظ (انه سميع قريب) منى ومنكم يعلم الهدى والضلالة وان بولغ فى اخفائهما وهذا حكم عام لكل مكلف وانما أمر رسوله ان يسنده الى نفسه لان الرسول اذا دخل تحته مع جلالة محله وسداد طريقته كان غيره أولى به ثم ذكر سبحانه حالا من أحوال الكفار فقال (ولو ترى اذ فزعوا) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له قيل المراد فزعهم عند نزول الموت بهم أو غيره من بأس الله تعالى وقال الحسن هو فزعهم فى القبور من الصيحة وقال قتادة هو فزعهم اذا خرجوا من قبورهم وقال السدى هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة فلم يستطيعوا فرارا ولا رجوعا الى التوبة وقال ابن معقل هو فزعهم اذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة وقال سعيد بن جبير هو الخسف الذى يخسف بهم فى البيداء فيبقى رجل منهم فيخبر الناس بما لقى أصحابه فيفزعون وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا عظيما وحالا هائلة (فلا فوت) أى فلا يفوتنى أحد منهم ولا ينجو منهم ناج قال مجاهد فلا مهرب وقال ابن عباس فلا نجاة (وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الارض أو من القبور وهى قريبة من مساكنهم فى الدنيا كما قاله أبو حيان أو قريب من موقف الحساب وقيل أى قبضت أرواحهم فى أماكنها فلم يمكنهم الفرار من الموت وهذا على قول من يقول هذا الفزع عند النزع وقيل أخذوا من جهنم فألقوا فيها وقيل من حيث كانوا فهم من الله قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه وقال ابن عباس من تحت أقدامهم وعنه قال

وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون (فآت ذى القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ سبحانه وتعالى عما يشركون) يقول تعالى آمرا باعطاء ذى القربى حقه أى من البر والصلة والمسكين وهو الذى لا شئ له ينفق عليه أوله شئ لا يقوم بكفايته وابن السبيل وهو المسافر المحتاج الى نفقة وما يحتاج اليه فى

رات في عباس قال يغزون في آخر الزمان الكعبة لجيش فاذا دخلوا البيداء يخسف بهم وقد ثبت في الصحيح ان جيشا يغزو الكعبة فيخسف بهم في البيداء من حديث حفصة وعائشة وخارج الصحيح من حديث أم سلمة وصفية وأبي هريرة وابن مسعود وليس في شيء منها ان ذلك سبب نزول هذه الآية ولكنه أخرج ابن جرير من حديث حذيفة بن اليمان قصة الخسف هذه مرفوعة وقال في آخرها فذلك قوله عز وجل في سورة سبأ ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت الآية وقيل يجوز أن يكون هذا الفزع هو الفزع الذي بمعنى الاجابة يقال فزع الرجل اذا أجاب الصارخ الذي يستغيث به كفزعهم الى الحرب يوم بدر (وقالوا) وقت النزع وهو وقت نزول العذاب بهم عند الموت كقوله تعالى فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده أو عند البعث قال الكفار كأنهم قائلون حينئذ (آمنا به) أي بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم قاله قتادة أو بالقرآن وقال مجاهد بالله عز وجل وقال الحسن بالبعث ثم نفى الله عنهم نفع الايمان بقوله (وأنى) أي من أين (لهم التناوش) أي التناول وهو تفاعل من النوش الذي هو التناول والمعنى كيف لهم أن يتناولوا الايمان من بعد يعني في الآخرة وقد تركوه في الدنيا وهو معنى قوله (من مكان بعيد) وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بعد ما فات عنهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من علوة تناوله من ذراع في الاستحالة قال ابن السكيت يقال للرجل اذا تناول رجلا ليأخذ برأسه أو لحيته ناشه ينوشه نوشا ومنه المناوشة في القتال وذلك اذا تدانى الفريقان وقيل التناوش الرجعة أي وأنى لهم الرجعة الى الدنيا ليؤمنوا وقال ابن عباس قال يسألون الرد الى الدنيا وليس بحين رد وقال التناوش تناول الشيء وليس بحين ذلك وقال السدي هو التوبة أي طلبوها وقد بعدت لانه انما تقبل في الدنيا وقرئ التناوش بالواو وبالهمز واستبعد الثانية أبو عبيد والنحاس ولا وجه للاستبعاد فقد ثبت ذلك في لغة العرب وأشعارها قال الفراء الهمز وتركه متقارب (وقد كفروا به من قبل) أي والحال ان قد كفروا بما آمنوا به من قبل هذا الوقت وذلك حال كونهم في الدنيا قيل بالقرآن وقيل بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم من قبل ان يعاينوا العذاب وأهوال القيامة (ويقذفون بالغيب) أي يرمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم في الرسول من المطاعن أو في العذاب من البت على نفيه فيقولون لا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار (من مكان بعيد) أي من جهة بعيدة ليس فيها مستند لظنهم الباطل وهو الشبه التي تمحلوها في أمر الآخرة كما حكاه من قبل وقيل المعنى يقولون في القرآن أقوالا باطلة انه سحر وشعر وأساطير الاولين وقيل يقولون في محمد صلى الله عليه وآله وسلم انه ساحر شاعر كاهن مجنون قرئ يقذفون مبنيا للمفعول أي يرجمون بما يسوءهم من جزاء أعمالهم من حيث لا يحتسبون وفيه تمثيل لحالهم بحال من يرمي شيئا لا يراه من مكان بعيد لا مجال للوهم في لحوقه وهذا استعارة تمثيلية والجملة اما معطوفة على وقد كفروا به على انها حكاية للحال الماضية واستحضار لصورتها أو مستأنفة لبيان تمثيل حالهم (وحيل بينهم) فعل مبني للمفعول واذا بني للفاعل يقال فيه حال وهو فعل لا يتعدى ونائب الفاعل

سفره ذلك خير للذين يريدون وجه الله أي النظر اليه يوم القيامة وهو الغاية القصوى وأولئك هم المفلحون أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبي وهذا الصنيع مباح وان كان لا ثواب فيه الا أنه نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى ولا تمنن تستكثر أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه وقال ابن عباس الربا رباآن فربا لا يصح يعني ربا البيع

ضمير المصدر المفهوم من الفعل كأنه قيل وحيل هو أى الحول وجعل بعضهم نائب الفاعل الظرف وهو بينهم واعترض بانه ينبغي حينئذ ان يرفع (وبين ما يشتهون) من النجاة من العذاب ومنعوا من ذلك وقيل حيل بينهم وبين ما يشتهون فى الدنيا من أموالهم وأهليهم أو حيل بينهم وبين ما يشتهون من الرجوع الى الدنيا (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بامثالهم ونظرائهم من كفار الامم الماضية الذين كانوا قبلهم فى الدنيا سابقين عليهم فى الزمان والاشياع جمع شيع وشيع جمع شيعة وشيعة الرجل أتباعه وأنصاره وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع فالاشياع جمع الجمع (انهم كانوا فى شك مريب) تعليل لما قبله أى فى شك موقع فى الريبة أو ذى ريبة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار أو فى التوحيد وما جاءتهم به الرسل من الدين يقال أراب الرجل اذا صار ذا ريبة فهو مريب وقيل هو من الريب الذى هو الشك والتهمة فهو كما يقال عجب عجيب وشعر شاعر وهذا رد على من زعم ان الله لا يعذب على الشك والله أعلم

(سورة فاطر وتسمى سورة الملائكة وهى خمس أو ست وأربعون آية وهى مكية)

قال القرطبي فى قول الجميع وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس أنزلت سورة فاطر بمكة وهذه السورة ختام السور المفتتحة بالحمد التى فصلت فيها النعم الاربع التى هى أمهات النعم المجموعة فى الفاتحة وهى الايجاد الاول ثم الابقاء الاول ثم الايجاد الثانى المشار اليه بسورة سبا ثم الابقاء الثانى الذى هو أتمها وأحكمها وهو الختام المشار اليه بهذه السورة المفتتحة بالابتداء قاله الخطيب

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله فاطر السموات والارض) أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق وعلى غير مدة كذا قال المفسرون والظاهر ان هذا ليس من معنى الفطر لغة وانما أخذوه من المعنى وسياق الكلام وأصل الفطر فى اللغة الشق عن الشئ مطلقا يقال فطرته فانفطر ومنه فطر ناب البعير اذا طلع فهو بعير فاطر وتفطر الشئ تشقق وقيل الشق طولا فكأنه شق العدم باخراجهما منه وبابه نصر كما فى المختار والفطر أيضا الابتداء والاختراع وهو المراد هنا عن ابن عباس قال كنت لا أدرى ما فاطر حتى أتانى اعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما أنا فطرتها يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع والمعنى الحمد لله مبدع السموات والارض ومخترعهما والمقصود من هذا ان من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الاعادة وانما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيما له وتعليما لعباده كيفية الثناء عليه تعالى قرئ فاطر على صيغة اسم الفاعل وفطر على صيغة الفعل الماضى (جاعل الملائكة رسلا) الى عباده يجوز فيه الوجهان كما تقدم والرسل من الملائكة هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل فالمراد بالملائكة بعضهم اذ ليس كلهم رسلا كما هو معلوم صرح الطيبى بان جاعل هنا للاستمرار فباعتبار انه يدل على المضى يصلح كونه صفة للمعرفة وباعتبار انه يدل على الحال والاستقبال يصلح للعمل وقرئ رسلا بسكون

و ربا لا بأس به وهو هدية الرجل يريد فضلها واضعافها ثم تلا هذه الآية وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وانما الثواب عند الله فى الزكاة ولهذا قال تعالى وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء كما جاء فى الصحيح وما تصدق احد بعدل تمرة من كسب طيب الا اخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد وقوله عز وجل الله الذى خلقكم ثم رزقكم أى هو الخالق الرازق يخرج الانسان من بطن

السنين وهي لغة تميم قال يحيى بن سلام يرسلهم الله الى الانبياء يبلغون اليهم رسالاته بالوحي والالهام والرؤيا الصادقة وقال السدي الى العباد بنعمة أو نقمة أو يوصلون اليهم آثار صنعته (أولي) أي ذوي اسم جمع لذو (أجنحة) جمع جناح نعت لرسلا وهو جيد لفظا لتوافقهما تنكيرا أو للملائكة وهو جيد معنى اذ كل الملائكة لها أجنحة فهي صفة كاشفة والمسوغ للتخالف في التعريف جعل أل جنسية (مثنى وثلاث ورباع) صفات لاجنحة والقصد بها التكثير واختلافهم في عدد الاجنحة لا الحصر والا فبعضهم له ستمائة وغير ذلك واعمالها تتصرف لتكرر العدل فيها وذلك انها عدلت عن الفاظ الاعداد عن صيغ الى صيغ أخر كما عدل عمر عن عامر وعن تكرير الى غير تكرير وقيل للعدل والوصف والتعويل عليه وقد تقدم الكلام عليها في النساء قال قتادة بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة ولعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدهما بقوة وبعضهم له أربعة ينزلون بها من السماء الى الارض ويعرجون بها من الارض الى السماء أو قول الاصل جناحان لانهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الاصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه (يزيد في الخلق ما يشاء) مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة والمعنى انه يزيد في خلق الملائكة والاجنحة ما يشاء وهو قول أكثر المفسرين واختاره الفراء والزجاج قال ابن مسعود رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل في صورته له ستمائة جناح وقيل ان هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة فقال الزهري وابن جريج انها حسن الصوت وقال قتادة الملاحة في العينين والحسن في الانف والحلاوة في الفم وقيل الوجه الحسن وقيل الخط الحسن وقيل الشعر الجعد وقيل العقل والتمييز وقيل العلوم والصنائع وقيل الصوت الحسن وجودة العقل وتمامه ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة واعتدال صورة وتمام في الاعضاء وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس ولباقة في التكلم وحسن تأن في مزاولة الامور وذلاقة في اللسان ومحبة في قلوب المؤمنين وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف وبه قال الزمخشري (ان الله على كل شيء قدير) تعليل لما قبله من انه يزيد في الخلق ما يشاء (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها) أي ليس لك من الامر شيء فما يأتيهم الله به من مطر ورزق ونعمة وصحة وأمن وعلم وحكمة الى غير ذلك مما لا يحاط به لا يقدر أحد ان يمسكه وقال ابن عباس ما يفتح الله للناس من باب توبة فلا ممسك لها هم يتوبون ان شاءوا وان أبوا وما أمسك من باب توبة فلا مرسل له من بعده وهم لا يتوبون واستعير الفتح للاطلاق والارسال ايذانا بانها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالا وتنكير الرحمة للاشاعة والابهام كأنه قيل أي رحمة كانت سماوية أو أرضية والعموم مفهوم من اسم الشرط ومن رحمة بيان لذلك العام من أي صنف هو وهو مما اجتزئ فيه بالنكرة المفردة عن الجمع المعرف المطابق في العموم لاسم الشرط وتقديره من الرحمات ومن في موضع الحال وقيل المعنى ان الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر على ارسالهم غير الله وقيل هو الدعاء وقيل

أمه عريانا لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك والرياش واللباس والمال والاملاك والمكاسب كما قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن سلام بن شرحبيل عن حبة وسواء ابني خالد قالا دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلح شيئا فأعناه فقال لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما فان الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يرزقه الله عز وجل وقوله تعالى ثم يميتكم أي بعد هذه الحياة ثم يحييكم أي يوم القيامة وقوله تعالى هل من شركائكم أي الذين تعبدونهم من دون الله من

التوبة وقيل التوفيق والهداية ولا وجه لهذا التخصيص بل المعنى كل ما يفتحه الله للناس من خزائن رحمته فيشمل كل نعمة ينعم الله بها على خلقه (وما يمسك) من ذلك (فلا مرسل له من بعده) أي لا يقدر أحد أن يرسله من بعد امساكه والامساك يتناول كل شئ يمنعه الله من نعمه فهو سبحانه المعطي المانع القابض الباسط لا معطي سواه ولا منعم غيره (وهو العزيز الحكيم) فيما أمسك وفيما أرسل على مقتضى حكمته ثم أمر الله سبحانه عباده أن يتذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فقال (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم) قيل الخطاب لاهل مكة ونعمة الله عليهم اسكانهم الحرم ومنع الغارات عنهم وقيل لجميع الناس ونعمة الله عليهم هي التي تقدمت من بسط الارض كالمهاد ورفع السماء بلا عماد وارسال الرسل لبيان السبيل دعوة اليه وزلفة لديه والزيادة في الخلق وفتح أبواب الرزق ومعنى هذا الذكر هو ارشادهم الى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها وليس المراد ذكرها باللسان فقط ولكن المراد ذكرها به وبالقلب أي لا تنسوها والنعمة هنا بمعنى الانعام وعليه درج الجلال وقيل انها بمعنى المنعم به ثم نبه على رأس النعم وهو اتحاد المنعم بقوله (هل من خالق غير الله) من زائدة مؤكدة أي لا خالق الا الله سبحانه وهو استفهام تقرير وانكار وتوبيخ (يرزقكم من السماء والارض) خبر المبتدا أو جملة مستأنفة أو صفة أخرى لخالق وخبره محذوف والرزق من السماء بالمطر ومن الارض بالنبات وغير ذلك (لا اله الا هو) مستأنفة مسوقة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام (فأنى تؤفكون) أي فكيف تصرفون وهو مأخوذ من الافك بالفتح وهو الصرف يقال ما أفكك عن كذا أي ما صرفك عنه وقيل هو مأخوذ من الافك بالكسر وهو الكذب لانه مصروف عن الصدق قال الزجاج أي من أين يقع لكم الافك والتكذيب بتوحيد الله والبعث وأنتم مقرون بان الله خلقكم ورزقكم ثم عزى الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وان يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك) ليتأسى بمن قبله من الانبياء ويتسلى عن تكذيب كفار العرب له ولهذا نكر رسلا أي رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم لانه أسلى له وجواب الشرط محذوف أي فاصبر كما صبروا ودل عليه قوله فقد كذبت الخ (والى الله) لا الى غيره (ترجع الامور) فيجازي كلا بما يستحقه قرئ ترجع بفتح التاء على البناء للفاعل وبضمها على البناء للمفعول (يا أيها الناس ان وعد الله) بالبعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار (حق) كما أشير اليه بقوله والى الله ترجع الامور (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) بزخرفها ونعيمها والمراد نهيهم عن الاغترار بها وان توجه النهي صورة اليها كما في قولهم لا أرينك ههنا قال سعيد بن جبير غرور الحياة الدنيا أن يشتغل الانسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول يا ليتني قدمت لحياتي والمعنى لا تخدعنكم الدنيا ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة وطلب ما عند الله تعالى (ولا يغرنكم بالله) في حلمه وامهاله (الغرور) بفتح الغين أي المبالغ في الغرور وهو الشيطان قاله ابن السكيت وأبو حاتم ويجوز أن يكون مصدرا

يفعل من ذلكم من شئ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شئ من ذلك بل الله سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ولهذا قال بعد هذا كله سبحانه وتعالى عما يشركون أي تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساو أو ولد أو والد بل هو الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين)

واستبعده الزجاج لأن غررته متعد ومصدر المتعدي إنما هو على فعل نحو ضربته ضربا إلا في أشياء يسيرة معروفة لا يقاس عليها ومعنى الآية لا يغرنكم الشيطان بالله فيقول لكم إن الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضله عليكم أو لسعة رحمته لكم وقرئ بضم الغين وهو الباطل قال ابن السكيت والغرور بالضم ما يغر من متاع الدنيا وقال الزجاج يجوز أن يكون الغرور بالضم جمع غار مثل قاعد وقعود قيل ويجوز أن يكون مصدر غره كاللزوم والنهوك وفيه ما تقدم عن الزجاج من الاستبعاد ثم حذر سبحانه عباده من الشيطان فقال (إن الشيطان لكم عدو) ظاهر العداوة فعل بأبيكم ما فعل وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بأحواله والتنكير للتعظيم أي عدو عظيم لأن عداوته عامة قديمة والعموم يفهم من قوله لكم حيث لم يخص بعض دون بعض والتقدم من الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار (فاتخذوه عدوا) أي فعادوه بطاعة الله ولا تطيعوه في معاصي الله وكونوا على حذر منه في جميع أحوالكم وأفعالكم وعقائدكم عن صميم قلوبكم وإذا فعلتم فعلا فتفقدوا فيه فإنه ربما يدخل عليكم فيه الرياء ويزين لكم القبائح قال القشيري ولا يتقوى على عداوته إلا بدوام الاستعانة بالرب فإنه لا يغفل عن عداوتكم فلا تغفلوا أنتم عن مولاكم لحظة ذكره الخطيب ثم بين الله سبحانه لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم وحذرهم عن طاعته فقال (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أي إنما يدعو أشياعه وأتباعه والمطيعين له إلى معاصي الله سبحانه لأجل أن يكونوا من أهل النار واللام للتعليل ومحل الموصول في قوله (الذين كفروا) الرفع على الابتداء وقوله (لهم عذاب شديد) خبره أو الرفع على البدل من فاعل يكونوا أو النصب على البدل من حزبه أو الجر على البدل من أصحاب والرفع على الابتداء أقوى الوجوه لأنه سبحانه بعد ذكر عداوة الشيطان ودعائه لحزبه ذكر حال الفريقين من المطيعين له والعاصين عليه فالفريق الأول قال لهم عذاب شديد والفريق الثاني قال فيه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أي يغفر الله لهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ويعطيهم أجرا كبيرا وهو الجنة قال ابن جريج كل شيء في القرآن لهم مغفرة وأجر كبير ورزق كريم فهو الجنة (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) هذه الجملة مستأنفة لتقرير ما سبق من ذكر التفاوت بين عاقبتي الفريقين ومن في موضع رفع بالابتداء وخبره محذوف قال الكسائي والتقدير ذهبت نفسك عليهم حسرات قال ويدل عليه قوله فلا تذهب الخ قال وهذا كلام عربي ظريف لا يعرفه إلا القليل وقال الزجاج تقديره كمن هداه وقدره غيرهما كمن لم يزين له وهذا أولى لموافقته لفظا ومعنى وقد وهم صاحب الكشاف فحكى عن الزجاج ما قاله الكسائي قال النحاس والذي قاله الكسائي أحسن ما قيل في الآية لما ذكره من الدلالة على المحذوف والمعنى أن الله عز وجل نهى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم عن شدة الاغتمام بهم والحزن عليهم كما قال فلعلك باخع نفسك قيل التقدير أفمن زين الخ تريد أن تهديه إنما ذلك إلى الله لا إليك والذي إليك هو التبليغ قال قتادة والحسن الشيطان زين لهم هي والله الضلالات وقيل نفسه الأمارة وهواه القبيح وهو من إضافة الصفة للموصوف أي عمله السيء قال ابن

قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدي وغيرهم المراد بالبر هنا الفيافي وبالبحر الأمصار والقرى وفي رواية عن ابن عباس وعكرمة البحر الأمصار والقرى ما كان منها على جانب نهر وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف وقال زيد بن رفيع ظهر الفساد يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط وعن البحر تعمى دوابه رواه ابن أبي حاتم وقال حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقري عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ظهر الفساد في البر والبحر قال فساد البر قتل ابن آدم وفساد البحر أخذ السفينة غصبا

عباس نزلت في أبي جهل ومشركي مكة وقيل نزلت في أصحاب الاهواء والبدع ومنهم الخوارج الذين يستحلون دماء المسلمين وأموالهم وليس أصحاب الكبائر من الذنوب منهم لانهم يعتقدون تحريمها مع ارتكابهم اياها وجملة (فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء) مقررة لما قبلها ومحققة للحق ببيان ان الكل بمشيئته أي يضل من يشاء ان يضله ويهدي من يشاء ان يهديه وهذه الآية ترد على القدرية قولهم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أي لا تحزن عليهم قرئ بفتح الفوقية والهاء مسندا الى النفس فيكون من باب لا أرينك هاهنا أي لا تتعاط أسباب ذلك وقرئ بضم التاء وكسر الهاء ونصب نفسك أي فلا تهلكها عليهم أي على عدم ايمانهم وقوله حسرات مفعول لاجله والجمع للدلالة على تضاعف اغتمامه على كثرة قبائحهم الموجبة للتأسف والتحسر عليهم ويجوز ان ينتصب حسرات على الحال كأنها صارت كلها حسرات لفرط التحسر كما روى عن سيبويه وقال المبرد انها تمييز وعليهم صلة لتذهب كما يقال هلك عليه حبا ومات عليه حزنا والحسرة شدة الحزن وهم النفس على ما فات من الامر وأشد التلهف على الشيء الفائت تقول حسر على الشيء من باب طرب وحسره أيضا فهو حسير (ان الله عليم بما يصنعون) لا تخفى عليه من أفعالهم وأقوالهم خافية والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنته من الوعيد الشديد ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه وعظيم قدرته ليتفكروا في ذلك وليعتبروا به فقال (والله الذي أرسل الرياح) قرأ الجمهور بالجمع وقرئ الريح بالافراد وهي سبعية عن ابن مسعود قال يقوم ملك بالصور بين السماء والارض فينفخ فيه فلا يبقى خلق لله في السموات والارض الا من شاء الله الا مات ثم يرسل الله من تحت العرش منيا كمني الرجال فتنبت أجسامهم ولحومهم من ذلك الماء كما تنبت الارض من الثرى ثم قرأ هذه الآية (فتثير سحابا) جاء بالمضارع بعد الماضي استحضارا لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة لان ذلك أدخل في اعتبار المعتبرين والمعنى انها تزعجه وتحركه من حيث هو (فسقناه) فيه التفات عن الغيبة وقال أبو عبيدة سبيله فتسوقه لانه قال فتثير سحابا قيل النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق (الى بلد) هو يذكر ويؤنث والبلدة البلد (ميت) أي أرض ليس بها نبات ولا مرعى قال المبرد ميت وميت واحد وقال هذا قول البصريين (فأحيينا به الارض) أي أحيينا بالمطر النازل منه الارض بانبات النبات فيها وان لم يتقدم ذكر المطر فالسحاب يدل عليه أو أحيينا بالسحاب لانه سبب المطر (بعد موتها) أي بعد يبسها استعار الاحياء للنبات والموت لليبس (كذلك النشور) أي كذلك يحيي الله العباد بعد موتهم كما أحيا الارض بعد موتها والنشور البعث من نشر الانسان نشورا أي مثل احياء موات الارض في صحة المقدورية وسهولة التأتي احياء الاموات اذ ليس بينهما الا احتمال اختلاف المادة في المقيس عليه وذلك لا مدخل له فيها فكيف تنكرونه وقد شاهدتم غير مرة ما هو مثله وشبيه به عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى قال أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت بها مخصبة تهتز خضراء قلت بلى قال كذلك يحيي الله الموتى وكذلك النشور

وقال عطاء الخراساني المراد بالبر ما فيه من المدائن والقرى وبالبحر جزائره والقول الاول أظهر وعليه الاكثرون ويؤيده ما قاله محمد بن اسحق في السيرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح ملك ايلة وكتب اليه ببحره يعني ببلده ومعنى قوله تعالى ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس أي بان النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي وقال أبو العالية من عصى الله في الارض فقد أفسد في الارض لان صلاح الارض والسماء بالطاعة ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود لحد يقام في الارض أحب الى اهلها من أن يمطروا أربعين صباحا والسبب في هذا أن الحدود اذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات واذا تركت المعاصي كان سببا في حصول البركات في السماء والارض ولهذا اذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر

أخرجه أحمد والبيهقي والطبراني وغيرهم (من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً) فليطلبها منه لا من غيره قال الفراء معناه من كان يريد أن يعلم لمن العزة فإنها لله جميعاً وقال قتادة من كان يريد العزة فليتعزز بطاعة الله فجعل معنى فلله العزة الدعاء إلى طاعة من له العزة كما يقال من أراد المال فالمال لفلان أي فليطلبه من عنده وقال الزجاج تقديره من كان يريد بعبادة الله العزة فالعزة له سبحانه فإن الله عز وجل يعزه في الدنيا والآخرة وقيل المراد به المشركون فإنهم كانوا يتعززون بعبادة الأصنام كقوله واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا وقيل المراد الذين كانوا يتعززون بهم من الذين آمنوا بألسنتهم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة والظاهر في معنى الآية إن من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل فلله العزة جميعاً ليس لغيره منها شيء فتشمل الآية كل من طلب العزة ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة وتستحق ومن أي جهة تطلب فتكون الألف واللام للاستغراق وهو المفهوم من آيات هذه السورة (إليه) تعالى لا إلى غيره (يصعد الكلم الطيب) الصعود الحركة إلى فوق وهو العروج أيضاً وموضع الثواب فوق وموضع العذاب أسفل ومعنى صعوده إليه قبوله له أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف وخص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه وهو يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتلاوة وغير ذلك فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد وقيل المراد بصعوده صعوده إلى سماء الدنيا وقيل يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم وفيه دليل على علوه تعالى فوق الخلق وكونه بائناً عنهم بذاته الكريمة كما تدل له الآيات الأخرى الصريحة والأحاديث المستفيضة الصحيحة وقيل المراد بصعوده علم الله به والأولى ما ذكرناه أيضاً (والعمل الصالح يرفعه) أي يرفع الكلم الطيب كما قال الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وأبو العالية والضحاك ووجهه أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح وقيل إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب ومفعوله العمل الصالح ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان وقيل إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب لأن العمل يحقق الكلام وقيل العمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذي أراد العزة وقال قتادة المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه أي يقبله فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع وكذا على قول من قال يرفع صاحبه قرأ الجمهور يصعد من صعد الثلاثي والكلم بالرفع على الفاعلية وقرأ علي وابن مسعود يصعد بضم حرف المضارعة من أصعد والكلم بالنصب على المفعولية وقرأ الضحاك على البناء للمفعول وقرأ الجمهور الكلم وقرأ أبو عبد الرحمن الكلام وقرؤوا العمل بالرفع على العطف أو على الابتداء وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال عن ابن مسعود في الآية قال إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله سبحانه إن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله

الصلاة ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف فإذا أهلك الله في زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجي بركتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بقحفها ويكفي اللقحة الجماعة من الناس وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير وثبت في الصحيح أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ولهذا قال الإمام أحمد ابن حنبل حدثنا محمد والحسين قالا حدثنا عوف(١) عن أبي مخذم قال وجد في زمان زياد صرة فيها حب يعني من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت في زمان كان يعمل فيه بالعدل وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك وفيه نظر وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا الآية أي يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ومجازاة

(١) في نسخة أخرى ابن أبي مخذم وحرر اهـ مصححه

قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ثم يصعد بهن الى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن حتى يجئ بهن وجه الرحمن ثم قرأ اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه قال أداء الفرائض فمن ذكر الله في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله فصعد به الى الله ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله وكان عمله أولى به أخرجه الطبراني والبيهقي والحاكم وصححه وغيرهم (والذين يمكرون السيآت) ليس مفعولا به لان مكر لازم فانتصابه على انه صفة لمصدر محذوف أي يمكرون المكرات السيآت ويجوز ان يضمن يمكرون معنى يكسبون فيكون السيآت مفعولا به قال مجاهد وقتادة هم أهل الربا وقال أبو العالية هم الذين مكروا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لما اجتمعوا في دار الندوة وقال الكلبي هم الذين يعملون السيآت في الدنيا وقال مقاتل هم المشركون (لهم عذاب شديد) أي بالغ الغاية في الشدة (ومكر أولئك هو يبور) أي يهلك ويفسد ويبطل ومنه وكنتم قوما بورا وقد أبارهم الله ابارة بسبب مكراتهم حيث أخرجهم من مكة وقتلهم وأثبتهم في قليب فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه بواحدة منها والمكر في الاصل الخديعة والاحتيال والاشارة بقوله أولئك الى الذين مكروا السيآت على اختلاف الاقوال في تفسير مكرهم وجملة هو يبور خبر مكر أولئك ووضع اسم الاشارة موضع ضميرهم للايذان بكمال تميزهم بما هم عليه من الشر والفساد عن سائر المفسدين واشتهارهم بذلك ثم ذكر سبحانه دليلا آخر على صحة البعث والنشور فقال (والله خلقكم) ابتداء في ضمن خلق أبيكم آدم (من تراب) وقال قتادة يعني آدم والتقدير على هذا خلق أباكم الاول وأصلكم الذي ترجعون اليه من تراب (ثم من نطفة) أخرجها من ظهر أبيكم (ثم جعلكم أزواجا) أي زوج بعضكم ببعض فالذكر زوج الانثى أو جعلكم أصنافا ذكرانا واناثا (وما تحمل من أنثى ولا تضع الا بعلمه) أي لا يكون حمل ولا وضع الا والله عالم به فلا يخرج شئ من علمه وتدبيره ومن زائدة (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب) قرئ ينقص مبنيا للمفعول وللفاعل ومن عمره بضم الميم وبسكونها والمعنى ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمره الا في اللوح المحفوظ قال الفراء يريد آخر غير الاول فكني عنه بالضمير كأنه الاول لان لفظ الثاني لو ظهر كان كالاول كأنه قال ولا ينقص من عمر معمر فالكناية في عمره ترجع الى آخر غير الاول ومثله قولك عندي درهم ونصفه أي نصف آخر قيل انما سمي معمرا باعتبار مصيره اليه والمعنى ما يمد في عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائدا بل على معنى انه لا يجعل من الابتداء ناقصا الا وهو في كتاب قال سعيد بن جبير وما يعمر من معمر الا كتب عمره كم هو سنة كم هو شهرا كم هو يوما كم هو ساعة ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره ساعة نقص من عمره يوم نقص من عمره شهر نقص من عمره سنة حتى يستوفي أجله فما مضى من أجله فهو النقصان وما يستقبل فهو الذي يعمره قال النسفي هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأفهام السامعين واتكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وانه لا يلتبس عليهم احالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس

على صنيعهم لعلهم يرجعون أي عن المعاصي كما قال تعالى وبلوناهم بالحسنات والسيآت لعلهم يرجعون ثم قال تعالى قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل أي من قبلكم كان أكثرهم مشركين أي فانظروا ماذا حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم (فأقم وجهك للدين القيم من قبل ان يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله انه لا يحب الكافرين) يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة الى الاستقامة في طاعته والمبادرة الى الخيرات فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله أي يوم القيامة اذا أراد كونه فلا راد له يومئذ يصدعون أي يتفرقون ففريق في الجنة وفريق في السعير ولهذا قال تعالى من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من

يقولون لا يزيد الله في الشيء ذا ولد نعاقبه الاثنى أو تأول الآية انه يكتب في الصحيفة عمره
كذا كذا سنة ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره فذلك
نقصان عمره الى وقال قتادة المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل
ستين وقيل المعنى ان الله كتب عمر الانسان كذا ان أطاع ودونه ان عصى فأيهما بلغ فهو
في كتاب والضمير في هذا يرجع الى معمر وقيل المعنى وما يعمر من معمر الى الهرم ولا ينقص
آخر من عمر الهرم الا في كتاب الله أي بقضاء الله ذلك قاله الفراء واختار النحاس قال وهو
أشبهها بظاهر التنزيل والاولى أن يقال ظاهر النظم القرآني ان تطويل العمر وتقصيره هما
بقضاء الله وقدره لاسباب تقتضي التطويل وأسباب تقتضي التقصير فمن أسباب
التطويل ما ورد في صلة الرحم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله من أحب أن
يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره أي أجله فليصل رحمه ونحو ذلك ومن أسباب
التقصير الاستكثار من معاصي الله سبحانه فاذا كان العمر المضروب للرجل مثلا سبعين
سنة فقد يزيد الله له عليها اذا فعل أسباب الزيادة وقد ينقصه منها اذا فعل أسباب النقصان
والكل في كتاب مبين فلا تخالف بين هذه الآية وبين قوله سبحانه فاذا جاء أجلهم
لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ويؤيد هذا قوله سبحانه يمحو الله ما يشاء ويثبت
وعنده أم الكتاب وقد قدمنا في تفسير هذه الآية ما يزيد ما ذكرناه هنا وضوحا وبيانا قال ابن عباس
في الآية يقول ليس أحد قضيت له طول العمر والحياة الا وهو بالغ ما قدرت له من العمر
وقد قضيت له ذلك وانما ينتهي الى الكتاب الذي قدرت له لا يزاد عليه وليس أحد قضيت
عليه انه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ولكن ينتهي الى الكتاب الذي كتبت له فذلك قوله
ولا ينقص من عمره الا في كتاب يقول كل ذلك في كتاب عنده وأخرج أحمد ومسلم وأبو عوانة
وابن حبان والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين
أو بخمس وأربعين ليلة فيقول أي رب أشقي أم سعيد أذكر أم أنثى فيقول الله ويكتبان
ثم يكتب عمله ورزقه وأجله وأثره ومصيبته ثم تطوى الصحيفة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها
وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم والنسائي وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال قالت أم حبيبة
اللهم أمتعني بزوجي النبي وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية فقال النبي صلى الله عليه وآله
وسلم انك سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل الله شيئا قبل
حله أو يؤخر شيئا ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان
خيرا وأفضل وهذه الاحاديث مخصصة بما ورد من قبول الدعاء وانه يعتلج هو والقضاء وبما
ورد في صلة الرحم انها تزيد في العمر فلا معارضة بين الادلة كما قدمنا (ان ذلك) أي
ما سبق من الخلق وما بعده (على الله يسير) لا يصعب عليه شيء ولا يعزب عنه كثير
ولا قليل ولا كبير ولا صغير ثم ذكر سبحانه نوعا آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته فقال
(وما يستوي البحران هذا) أي أحدهما (عذب فرات) شديد العذوبة (سائغ شرابه)
مرئ سهل انحداره في الحلق لعذوبته (وهذا ملح أجاج) شديد الملوحة وقيل هو الذي

فضله أي يجازيهم مجازاة الفضل الجسيمة بعد توفيتهم ما لها التي يستحقونه
ضعف الى ما شاء الله انه لا يحب
الكافرين ومع هذا هو العادل فيهم
الذي لا يجور (ومن آياته أن يرسل
الرياح مبشرات وليذيقكم من
رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا
من فضله ولعلكم تشكرون ولقد
أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم
فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين
أجرموا وكان حقا علينا نصر
المؤمنين) يذكر تعالى نعمه على خلقه
في ارساله الرياح مبشرات بين يدي
رحمته بمجيء الغيث عقبها ولهذا
قال تعالى وليذيقكم من رحمته
أي المطر الذي ينزله فيحيي به العباد
والبلاد ولتجري الفلك بأمره أي في
البحر وانما سيرها بالريح ولتبتغوا
من فضله أي في التجارات والمعايش
والسير من اقليم الى اقليم وقطر الى
قطر ولعلكم تشكرون أي تشكرون
الله على ما أنعم به عليكم من النعم
الظاهرة والباطنة التي لا تعد ولا
تحصى ثم قال تعالى ولقد أرسلنا
من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم

يحرق الحلق بملوحته فالمراد بالبحرين العذب والمالح فالعذب الفرات الحلو والاجاج المر وقرئ سيغ مشددا وقرئ ملح بفتح الميم وقيل المقصود من الآية ضرب مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر (ومن كل) منهما (تأكلون لحما طريا) وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل وهذا وما بعده اما استطراد في صفة البحرين وما فيهما من النعم والمنافع واما تكملة للتمثيل والمعنى كما أنهما وان اشتركا في بعض الفوائد لا يتساويان من حيث انهما متفاوتان فيما هو المقصود بالذات من الماء لما خالط أحدهما ما أفسده وغيره عن كمال فطرته كذلك لا يساوي الكافر المؤمن وان شاركه في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ونحوهما لتباينهما فيما هو الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الاصلية وحيازته لكماله اللائق دون الآخر أو تفضيل للاجاج على الكافر من حيث انه يشارك العذب في منافع كثيرة والكافر خلو من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة الخ قاله أبو السعود (وتستخرجون حلية) وهي اللؤلؤ والمرجان وهو صغار اللؤلؤ وقال الطرطوشي هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف وهكذا شاهدناه بمغارب الارض كثيرا انتهى والظاهر ان المعنى وتستخرجون منهما حلية وقال المبرد انما تستخرج الحلية من المالح وروى عن الزجاج انه قال انما تستخرج الحلية منهما اذا اختلطا لا من كل واحد منهما على انفراده ورجح النحاس قول المبرد ومعنى (تلبسونها) تلبسون كل شئ منها بحسبه كالخاتم في الاصبع والسوار في الذراع والقلادة في العنق والخلخال في الرجل ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما (وترى الفلك فيه) أي في كل واحد من البحرين وقال النحاس الضمير يعود الى المالح خاصة ولولا ذلك لقال فيهما (مواخر) يقال مخرت السفينة تمخر اذا شقت الماء بجريها فيه فالمعنى وترى السفن في البحرين شواق للماء بعضها مقبلة وبعضها مدبرة بريح واحدة وقد تقدم الكلام على هذا في سورة النحل (لتبتغوا من فضله) أي فعل ذلك لتبتغوا قال مجاهد ابتغاء الفضل هو التجارة في البحر الى البلدان البعيدة في المدة القريبة كما تقدم في البقرة (ولعلكم تشكرون) الله على ما أنعم به عليكم من ذلك (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي يضيف بعض أجزائهما الى الآخر فيزيد في أحدهما بالنقص في الآخر وقد تقدم تفسيره في آل عمران وفي مواضع من الكتاب العزيز (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج واختلاف الصيغة لما ان ايلاج احد الملوين في الآخر متجدد حينا فحينا وأما تسخير النيرين فأمر لا تجدد ولا تعدد فيه وانما المتعدد المتجدد آثاره (كل) منهما (يجري) في فلكه (لاجل مسمى) قدره الله لجريانهما وهو يوم القيامة وقيل هو المدة التي يقطعان في مثلها الفلك وهو سنة للشمس وشهر للقمر وقيل المراد به جري الشمس في اليوم والقمر في الليلة وقد تقدم تفسير هذا مستوفى في سورة لقمان (ذلكم) أي الفاعل لهذه الافعال المتقدمة من أول السورة الى هنا وهو مبتدأ وخبره (الله ربكم له الملك) أي هذا الذي من صنعته ما تقدم هو الخالق المقدر والقادر والمقتدر المالك للعالم والمتصرف فيه ويجوز ان يكون قوله

بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بانه وان كذبه كثير من قومه ومن الناس فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤا أممهم به من الدلائل الواضحات ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم وكان حقا علينا نصر المؤمنين أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرما وتفضلا كقوله تعالى كتب ربكم على نفسه الرحمة وروى ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا موسى بن أعين عن ليث عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من امرئ مسلم يرد عن عرض أخيه الا كان حقا على الله ان يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ثم تلا هذه الآية وكان حقا علينا نصر المؤمنين (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا

الملك جملة مستقلة في مقابلة قوله (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)
أي لا يقدرون عليه ولا على خلقه والقطمير القشرة الرقيقة التي تكون بين التمرة
والنواة وتصير على النواة كاللفافة لها وقال المبرد هو شق النواة وقال قتادة هو القمع
الذي على رأس النواة قال الجوهري ويقال هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت
منها النخلة وقال ابن عباس القطمير القشر وقيل الخلاف الذي يكون على ظهر النواة
ومعلوم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة الفتيل وهو ما في شق النواة
والقطمير وهو اللفافة والثفروق وهو ما بين القمع والنواة والنقير وهو ما في ظهرها
ثم بين سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون فقال
(إن تدعوهم) أي إن تستغيثوا بهم في النوائب (لا يسمعوا دعاءكم) لكونها
جمادات لا تدرك شيئاً من المدركات (ولو سمعوا) فرضاً وتقديراً (ما استجابوا لكم) لعجزهم
عن ذلك قال قتادة المعنى ولو سمعوا لم ينفعوكم وقيل المعنى لو جعلنا لهم سماعاً وحياة
فسمعوا دعاءكم لكانوا أطوع لله منكم ولما استجابوا لكم إلى ما دعوتموهم إليه من الكفر
(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أي يتبرؤون من عبادتكم لهم ويقولون ما كنتم إيانا
تعبدون ويجوز أن يرجع والذين تدعون من دونه وما بعده إلى من يعقل ممن عبدهم
الكفار وهم الملائكة والجن والشياطين والمعنى أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه
حقاً وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم كما أخبر الله عن عيسى بقوله ما يكون لي أن
أقول ما ليس لي بحق قال القرطبي ويجوز أن يندرج فيه الأصنام أيضاً أي يحييها الله
حتى تخبر بأنها ليست أهلاً للعبادة (ولا ينبئك مثل خبير) أي لا يخبرك أيها المفتون
بأسباب الغرور مثل من هو خبير بالأشياء عالم بحقائق الأمور وهو الله سبحانه فإنه لا أحد
أخبر بخلقه وأقوالهم وأفعالهم منه سبحانه وهو الخبير بكنه الأمور وحقائقها ثم ذكر
سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله فقال (يا أيها الناس أنتم الفقراء)
المحتاجون (إلى الله) في جميع أمور الدين والدنيا فهم الفقراء إليه على الإطلاق في
أنفسهم وفيما يعرض لهم من سائر الأمور وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم كأنهم
لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء وأن افتقار سائر الخلائق بالإضافة إلى
فقرهم غير معتد به ولذلك قال وخلق الإنسان ضعيفاً ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل
للتعريض على الاستغناء ولما وصف نفسه بالغنى الذي هو مطمع الأغنياء قال (والله
هو الغني) على الإطلاق (الحميد) المستحق للحمد من عباده بإحسانه إليهم ثم ذكر سبحانه
نوعاً آخر من الأنواع التي تقتضي عند التأمل فقرهم إليه واستغناءه عنهم فقال (إن يشأ
يذهبكم) يفنكم إلى العدم ويسبكم موقعه بلا عبء كلفة أي ليس إذهابكم موقوفاً على
مشيئته ثم زاد على بيان الاستغناء قوله (ويأت) بدلكم (بخلق جديد) يطيعونه
ولا يعصونه أو يأت بنوع من أنواع الخلق وعالم من العوالم غير ما تعرفون (وما ذلك)
الإذهاب بكم والإتيان بآخرين (على الله بعزيز) أي بممتنع ولا متعسر وقد مضى
تفسير هذا في سورة إبراهيم (ولا تزر) أي لا تحمل نفس (وازرة) آثمة (وزر) إثم نفس

(أخرى)

أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون) يبين تعالى كيف يخلق السحب التي ينزل منها الماء فقال تعالى الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً إما من البحر كما ذكره غير واحد أو مما يشاء الله عز وجل فيبسطه في السماء كيف يشاء أي يمده فيكثره وينميه ويجعل من القليل كثيراً ينشئ سحابة فترى في رأي العين مثل الترس ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ماء كما قال تعالى وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت إلى قوله كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون وكذلك قال ههنا الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً قال مجاهد وأبو عمرو بن

(أخرى) فحذف الموصوف للعلم به بل كل نفس تحمل وزرها ولا تخالف هذه الآية قوله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم لانهم انما حملوا أثقال اضلالهم مع أثقال ضلالهم والكل من أوزارهم لا من أوزار غيرهم ومثل هذا حديث من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة فان الذى سن السنة السيئة انما حمل وزر سنته السيئة وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفى وقد أخرج أحمد والترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه عن عمرو بن الاحوص ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال فى حجة الوداع ألا لا يجنى جان الا على نفسه لا يجنى والد على ولده ولا مولود على والده وأخرج أبو داود والترمذى والنسائى والبيهقى وغيرهم عن أبى رمثة قال انطلقت مع أبى نحو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأيته قال لابى ابنك هذا قال اى ورب الكعبة قال أما انه لا يجنى عليك ولا تجنى عليه ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قال ابن عباس يلقى الاب والام الابن فيقولان له يا بنى احمل عنا بعض ذنوبنا فيقول لا استطيع حسبى ما على (وان تدع مثقلة الى حملها) قال الفراء أى نفس مثقلة بالذنوب قال وهذا يقع للمذكر والمؤنث قال الاخفش أى وان تدع مثقلة انسانا الى حملها وهو ذنوبها والحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه والجمع احمال وحمول وحملت المتاع حملا من باب ضرب فأنا حامل والانثى حاملة بالتاء لانها صفة مشتركة قال ابن السكيت الحمل بالفتح ما كان فى البطن أو على رأس شجرة والحمل بالكسر ما كان على ظهر أو رأس قال الازهرى وهذا هو الصواب وهو قول الاصمعى وقال امرأة حامل وحاملة اذا كانت حبلى (لا يحمل منه) أى من حملها (شئ) قال ابن عباس لكونه عليه وزر لا يجد أحدا يحمل عنه من وزره شيأ (ولو كان ذا قربى) أى ولو كان الذى تدعوه ذا قرابة لها لم يحمل من حملها شيأ ومعنى الآية وان تدع نفس مثقلة بالذنوب نفسا أخرى الى حمل شئ من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيأ ولو كانت قريبة لها من النسب كالاب والام والابن والاخ فكيف بغيرها ممن لا قرابة بينها وبين الداعية لها وقرئ ذو قربى على ان كان تامة كقوله وان كان ذو عسرة قال الزمخشرى ونظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لان المعنى على ان المثقلة اذا دعت أحدا الى حملها لا يحمل منه ولو كان مدعوها ذا قربى وهو ملتئم ولو قلت ولو وجد ذو قربى لخرج عن التئامه انتهى (انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب) مستأنفة مسوقة لبيان من يتعظ بالانذار أى انهم يخشونه حال كونهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم ويخشونه فى الخلوات عن الناس قال الزجاج تأويله ان انذارك انما ينفع الذين يخشون ربهم فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الانذار كقوله انما أنت منذر من يخشاها وقوله انما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب (وأقاموا الصلاة) أى احتفلوا بأمرها ولم يشتغلوا عنها بشئ مما يلهيهم وأداموها (ومن تزكى فانما يتزكى لنفسه) وقرئ من ازكى فانما يزكى لنفسه والتزكى التطهر من ادناس الشرك والفواحش والمعنى ان من تطهر بترك المعاصى واستكثر من العمل الصالح فانما

العلاء ومطر الوراق وقتادة يعنى قطعا وقال غيره مترا كما قاله الضحاك وقال غيره المسود من كثرة الماء تراه مدلهما ثقيلا قريبا من الارض وقوله تعالى فترى الودق يخرج من خلاله اى فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون أى لحاجتهم اليه يفرحون بنزوله عليهم ووصوله اليهم وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين معنى الكلام ان هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين آزلين من نزول المطر اليهم قبل ذلك فلما جاءهم جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعا عظيما وقد اختلف النحاة فى قوله من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فقال ابن جرير هو تأكيد وحكاه عن بعض أهل العربية(١) وقال آخرون من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبله أى الانزال لمبلسين ويحتمل ان يكون ذلك من دلالة التأسيس ويكون معنى الكلام انهم كانوا محتاجين اليه

(١) قوله وقال آخرون الى قوله لمبلسين هذه العبارة زائدة فى بعض النسخ ولعلها عين ما قبلها فتأمل اه مصححه

يتطهر لنفسه لان نفع ذلك مختص به كما ان وزر من تدنس لا يكون الا عليه لا على غيره (والى الله المصير) لا الى غيره ذكر سبحانه أولا انه لا يحمل أحد ذنب أحد ثم ذكر ثانيا ان المذنب ان دعا غيره وان كان من قرابته الى حمل شئ من ذنوبه لا يحمله ثم ذكر ثالثا ان ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شئ ثم ضرب مثلا للمؤمن والكافر وقد قرر بيان التنافي أولا بين ذاتيهما وثانيا بين وصفيهما وثالثا بين مستقريهما وداريهما في الآخرة فقال (وما يستوي الاعمى) أي المسلوب حاسة البصر واستوى من الافعال التي لا يكتفي فيها بواحد فلو قلت استوى زيد لم يصح فمن ثم لزم العطف على الفاعل أو تعدده (والبصير) الذي له ملكة البصر فشبه الكافر بالاعمى وشبه المؤمن بالبصير وقيل مثل للجاهل والعالم (ولا) تستوي (الظلمات ولا النور) فشبه الباطل بالظلمات وشبه الحق بالنور قيل انما جمع الظلمات وأفرد النور لتعدد فنون الباطل واتحاد الحق (ولا الظل ولا الحرور) بالفتح شدة حر الشمس وهو خلاف البرد يقال حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حرا وحرورا من بابي ضرب وقعد لغة والاسم الحرارة فهو حار وحرت النار تحر من باب تعب توقدت واستعرت والحرة بالفتح أرض ذات حجارة سود والجمع حرار مثل كلبة وكلاب والحرور وزان رسول الريح الحارة قال الاخفش لا يكون الحرور الا مع شمس النهار والسموم يكون بالليل وقيل عكسه وقال رؤبة بن العجاج الحرور يكون بالليل خاصة والسموم يكون بالنهار خاصة وقال الفراء السموم لا يكون الا بالنهار والحرور يكون فيهما قال النحاس وهذا أصح وقال قطرب الحرور الحر والظل البرد والمعنى انه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى والحر الذي يؤذي قيل أراد الثواب والعقاب وسمى الحر حرورا مبالغة في شدة الحر لان زيادة البناء تدل على زيادة المعنى وقال الكلبي أراد بالظل الجنة وبالحرور النار وقال عطاء يعني ظل الليل وشمس النهار ثم ذكر سبحانه تمثيلا آخر للمؤمن والكافر وهو أبلغ من الاول فقال (وما يستوي الاحياء ولا الاموات) فشبه المؤمنين بالاحياء وشبه الكافرين بالاموات وهو أبلغ من الاول لكمال التنافي بين الحي والميت ولذلك أعيد الفعل وأما التنافي بين الاعمى والبصير فليس تاما لامكان اشتراكهما في كثير من الادراكات وقال ابن قتيبة الاحياء العقلاء والاموات الجهال قال قتادة هذه كلها أمثال اي كما لا يستوي هذه الاشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن وقد زيدت لا في المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين في الاولى واثنتين في الثانية وواحدة في الثالثة والكل تأكيد لنفي الاستواء فلا زيادة شاملة لاصل زيادتهما كالاولى من الجملة الاولى ولتكريرها كالثانية منها (ان الله يسمع من يشاء) ان يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته ووفقهم لطاعته وهذا شروع في تسلية النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمهيد بقوله فكيف كان نكير والمراد من قوله يسمع يهدي ويوصل من يشاء وصوله وهدايته فيحييه بالايمان (وما أنت بمسمع من في القبور) يعني الكفار الذين أمات الكفر قلوبهم اي كما لا يسمع من مات كذلك لا يسمع من مات قلبه قرئ بتنوين مسمع وقطعه عن الاضافة وباضافته (ان أنت الا نذير) أي ما أنت الا رسول

قبل نزوله ومن قبله أيضا قد فات عندهم نزوله وقتا بعد وقت فترقبوه في ابانه فتأخر ثم مضت مدة فترقبوه فتأخر ثم جاءهم بغتة بعد الاياس منه والقنوط فبعدما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ولهذا قال تعالى فانظر الى آثار رحمة الله يعني المطر كيف يحيي الارض بعد موتها ثم نبه بذلك على احياء الاجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى ان ذلك لمحيي الموتى أي ان الذي فعل ذلك لقادر على احياء الاموات انه على كل شئ قدير ثم قال تعالى ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون يقول تعالى ولئن أرسلنا ريحا يابسة على الزرع الذي زرعوه ونبت وشب واستوى على سوقه فرأوه مصفرا أي قد اصفر وشرع في الفساد لظلوا من بعده أي بعد هذا الحال يكفرون أي يجحدون ما تقدم اليهم من النعم كقوله تعالى أفرأيتم ما تحرثون الى قوله بل نحن محرومون قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن أبيه

منذر ليس عليك الا الانذار والتبليغ وليس لك من الهدى شيء انما الهدى والضلالة بيد الله عزوجل (انا أرسلناك بالحق) أي محقا أو محقة أو ارسالا متلبسا بالحق أي بالهدى (بشيرا) بالوعد الحق (ونذيرا) بالوعيد الحق أو بشيرا لاهل الطاعة ونذيرا لاهل المعصية (وان من أمة الا خلا فيها نذير) أي ما من أمة من الامم الماضية الا مضى فيها نذير من الانبياء ينذرها والامة الجماعة الكثيرة ويقال لكل أهل عصر والمراد هنا أهل العصر واقتصر على ذكر النذير دون البشير لانه الصق بالمقام فان قلت كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يخل فيها نذير قلت اذا كانت آثار النذارة باقية لم تخل من نذير الا أن تندرس وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وآثار نذارته باقية الى يوم القيامة لانه لا نبي بعده فهل من مذكر وهذا يقتضي ان أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم وهو خلاف ما في شرح ابن حجر على الهمزية ان أهل الفترة من أهل الجنة وان غيروا وبدلوا وعبدوا غير الله لانه لم يرسل اليهم رسولا لان من قبلهم من الرسل انتهت رسالته بموته اذ لم يعلم لاحد من الرسل استمرار رسالته بعد الموت الا نبينا صلى الله عليه وآله وسلم فهم غير مكلفين بما يفعلونه ولو كان صورة معصية لكن ورد النص بتعذيب بعض أهل الفترة كعمرو ابن لحي فيلتزم و يعتقد فيمن ورد فيهم بخصوصهم لا لان ما فعلوه كفر بل لحكمة يعلمها الله تعالى لم نطلع عليها انتهى ملخصا وحينئذ فالظاهر انه لا يحصل الاتصال بين الآية و بين ما تقرر الا بان يلتزم ان جملة العرب أمة و يصدق تقدم النذير فيها بتقدم سمعيل وان بني اسرائيل أمة ويصدق تقدم النذير فيهم بتقدم عيسى ومن قبله فتأمل ثم سلى سبحانه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وعزاه فقال (وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم) من الامم الماضية أنبياءهم (جاءتهم رسلهم بالبينات) أي بالمعجزات الواضحة والدلالات الظاهرة (وبالزبر) أي الكتب المكتوبة كصحف ابراهيم وهي ثلاثون وكصحف موسى قبل التوراة وهي عشرة وكصحف شيث وهي ستون فجملة الصحف مائة تضم لها الكتب الاربعة فجملة الكتب المنزلة على الانبياء مائة وأربعة قاله الحفناوي (وبالكتاب المنير) كالتوراة والانجيل قيل الكتاب المنير داخل تحت الزبر وتحت البينات والعطف لتغاير المفهومات وان كانت متحدة في الصدق والاولى تخصيص البينات بالمعجزات والزبر بالكتب التي فيها مواعظ والكتاب بما فيه شرائع وأحكام وجواب الشرط محذوف أي فاصبر كما صبروا وان المذكور دليل له (ثم أخذت الذين كفروا) وضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التصريح بذمهم بما في حيز الصلة ويشعر بعلة الاخذ (فكيف كان نكير) الاستفهام تقريري كما قاله الكرخي وينبغي ان يتأمل فيه أي فكيف كان نكيري عليهم وعقوبتي لهم والنكير بمعنى الانكار وهو تغيير المنكر وقد مضى بيان هذا قريبا ثم ذكر سبحانه نوعا من أنواع قدرته الباهرة وخلقه من مخلوقاته البديعة فقال (ألم تر) والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو لكل من يصلح له وهذه الرؤية هي القلبية أي ألم تعلم (ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) أي بالماء يعني المطر والنكتة في هذا الالتفات

عن عبد الله بن عمرو قال الرياح ثمانية أربعة منها رحمة وأربعة منها عذاب فأما الرحمة فالناشرات والمبشرات والمرسلات والذاريات وأما العذاب فالعقيم والصرصر وهما في البر والعاصف والقاصف وهما في البحر وقال ابن أبي حاتم حدثنا ابن عبد الله ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا عبد الله بن عياش حدثني عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدفي عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الريح مسخرة من الثانية يعني من الارض الثانية فلما أراد الله أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك فقال يارب أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور قال له الجبار

[illegible] كل ... تعالى ... جمع ... وثلاث ... أخراج ... (ثمرات مختلفاً ألوانها) أي أجناسها أو أصنافها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغير ذلك مما لا يحصر أو هيئاتها أي بعضها أبيض وبعضها أحمر وبعضها أصفر وبعضها أخضر وبعضها أسود أو ألوانها من البياض والحمرة والسواد (ومن الجبال جدد) الجدد جمع جدة وهي الطريق قال الأخفش ولو كان جمع جديد لقال جدد بضم الجيم والدال نحو سرير وسرر وقرأ الزهري جدد بضم الجيم جمع جديدة بمعنى جديدة وجدد وجدائد وقال أبو الفتح معناها آثار جديدة واضحة الألوان وقرئ جدداً بفتحتين وقد ردها أبو حاتم من حيث النقل والمعنى وقد صححها غيره وقال الجدد الطريق الواضح البين وقيل الجدد القطع مأخوذ من جددت الشيء إذا قطعته حكاه ابن عزير قال الجوهري الجدة الخطة التي في ظهر الحمار تخالف لونه والجدة الطريقة والجمع جدد وجدات قال المبرد جدد طرائق وخطوط قال الواحدي ونحو هذا قال المفسرون في تفسير الجدد وقال الفراء هي الطرائق تكون في الجبال كالعروق بيض وسود وحمر واحدها جدة (بيض وحمر) صفة (مختلف ألوانها) بالشدة والضعف والمعنى أن الله سبحانه أخبر عن جدد الجبال وهي طرائقها والخطوط التي فيها بأن لون بعضها البياض ولون بعضها الحمرة (وغرابيب سود) الغربيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب قال الجوهري تقول هذا أسود غربيب أي شديد السواد وإذا قلت غرابيب سود جعلت السود بدلاً من غرابيب قال الفراء الكلام فيه تقديم وتأخير تقديره وسود غرابيب لأنه يقال أسود غربيب وقلما يقال غربيب أسود وقيل الغربيب تأكيد للأسود كما يقال للأحمر ومن حق التأكيد أن يتبع المؤكد فتقدم ... والمعنى ومن الجبال جدد بيض وحمر ومن الجبال غرابيب على لون واحد وهو السواد أو ومن الجبال جدد بيض وحمر وسود وقيل التقدير ومن الجبال ذو جدد لأن الجدد إنما هي في ألوان بعضها (ومن الناس والدواب) وقرئ بتخفيف الباء (والأنعام) أي ومنهم صنف أو نوع أو بعض (مختلف ألوانه) بالحمرة والسواد والبياض والخضرة والصفرة قال الفراء أي خلق مختلف ألوانه كاختلاف الثمرات والجبال وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله وبديع صنعه (كذلك) أي مختلفاً مثل ذلك الاختلاف والتقدير مختلف ألوانه اختلافاً كما اختلفت الألوان في الجبال والثمار وقال ابن عطية متعلق بما بعده أي مثل ذلك المطر والاعتبار في مخلوقات الله واختلاف ألوانها يخشى الله من عباده العلماء وهذا مردود بأن ما بعد إنما لا يعمل فيما قبلها والراجح أنه الأول والوقف على كذلك تام ثم استأنف الكلام وأخبر سبحانه بقوله (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وهذا متصل بما قبله ... بين يخشون ربهم بالغيب على معنى إنما يخشاه سبحانه العالمون به وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته وهم العلماء به وبعظيم قدرته قال مجاهد إنما العالم من خشي الله عز وجل ومثله عن الشعبي وقال

تبارك وتعالى لا ذا يكف الأرض ومر عليها ولكن أرسل عليهم بشد ... فهي التي ذكرها الله في كتابه ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم هذا حديث غريب ورفعه منكر والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله عنه (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) يقول تعالى كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ولا يبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم بل ذلك إلى الله فإنه تعالى بقدرته يسمع

مسروق كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار جهلا وعن ابن مسعود نحوه فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له قال الربيع بن أنس من لم يخش الله فليس بعالم ووجه تقديم المفعول ان المقام مقام حصر الفاعلية ولو أخر لانعكس الامر وقرئ برفع الاسم الشريف ونصب العلماء وروبت هذه القراءة عن أبي حنيفة قال في الكشاف الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى انه يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس قال ابن عباس العلماء بالله الذين يخافونه وعنه قال الذين يعلمون ان الله على كل شئ قدير وعن ابن مسعود قال ليس العلم من كثرة الحديث ولكن العلم من الخشية وفي لفظ بكثرة الرواية وعن حذيفة بحسب المؤمن من العلم ان يخشى الله وعن عائشة قالت صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيأ فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فخطب فحمد الله ثم قال ما بال أقوام يتنزهون عن الشئ أصنعه فوالله اني لاعلمهم بالله واشدهم له خشية أخرجه البخاري ومسلم (ان الله عزيز غفور) تعليل لوجوب الخشية لدلالته على انه معاقب على معصيته غافر لمن تاب من عباده (ان الذين يتلون كتاب الله) أي يستمرون على تلاوته ويداومونها والكتاب هو القرآن العظيم ولا وجه لما قيل ان المراد به جنس كتب الله (وأقاموا الصلاة) أي فعلوها في أوقاتها مع كمال أركانها واذ كارها عن ابن عباس قال نزلت في حصين بن الحرث بن عبد المطلب ابن عبد مناف (وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) فيه حث على الانفاق كيفما تهيأ فان تهيأ سرا فهو أفضل والا فعلانية ولا يمنعه ظنه ان يكون رياء فان ترك الخير مخافة ذلك هو عين الرياء ويمكن ان يكون المراد بالسر الصدقة المطلقة وبالعلانية الزكاة واليه أشار في التقرير قاله الكرخي وقيل السر في المسنونة والعلانية في المفروضة (يرجون تجارة) أي ثواب الطاعة (لن تبور) أي لن تكسد ولن تهلك والاخبار برجائهم لثواب ما عملوا بمنزلة الوعد بحصول مرجوهم واللام في قوله (ليوفيهم أجورهم) متعلقة بلن تبور على معنى انها لن تكسد لاجل ان نوفيهم أجور أعمالهم الصالحة ومثل هذه الآية قوله سبحانه فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وقيل ان اللام متعلقة بمحذوف دل عليه السياق أي فعلوا ذلك ليوفيهم ومعنى (ويزيدهم من فضله) انه يتفضل عليهم بزيادة على أجورهم التي هي جزاء أعمالهم قيل بتفسيح القبور أو بتشفيعهم فيمن أحسن اليهم أو بتضعيف حسناتهم أو بتحقيق وعد لقائه (انه غفور شكور) تعليل لما ذكر من التوفية والزيادة أي غفور لذنوبهم شكور لطاعاتهم (والذى أوحينا اليك من الكتاب) يعني القرآن وقيل اللوح المحفوظ على ان من تبعيضية أو ابتدائية (هو الحق مصدقا لما بين يديه) أي موافقا لما تقدمه من الكتب (ان الله بعباده لخبير بصير) أي محيط بجميع أمورهم الباطنة والظاهرة (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) انما قدم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب والمعنى ثم أورثنا الذين اصطفيناهم من عبادنا الكتاب وهو القرآن أي قضينا وقدرنا بان نورث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي نزلناه عليك فأورثنا استعارة تبعية سمى

الاموات أصوات الاحياء اذا شاء ويهدى من يشاء ويضل من يشاء وليس ذلك لاحد سواه ولهذا قال تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون أي خاضعون مستجيبون مطيعون فأولئك هم الذين يسمعون الحق فيتبعونه وهذا حال المؤمنين والاول مثل الكافرين كما قال تعالى انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية انك لا تسمع الموتى على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته اياهم وتقريعه لهم حتى قال له عمر

اعطاء الكتاب اياهم من غير كد وتعب فى وصوله اليهم بتوريث الوارث ومن للبيان أو للتبعيض والمراد بعبادنا أمة الاجابة سواء حفظوه أولا ومعطية لجميعهم حتى من لم يحفظه لانه قدوته وفيه هدايته وبركته ومعنى اصطفائهم اختيارهم واستخلاصهم ولاشك ان علماء هذه الامة من الصحابة فمن بعدهم الى يوم القيامة قد شرفهم الله على سائر العباد وجعلهم أمة وسطا ليكونوا شهداء على الناس وأكرمهم بكونهم أمة خير الانبياء وسيد ولد آدم عليه وعليهم الصلاة والسلام وخصهم بحمل أفضل الكتب قال مقاتل يعنى قرآن محمد جعلناه ينتهى الى الذين اصطفيناهم من عبادنا وقيل ان المعنى أورثناه من الامم السالفة أى أخرناه عنهم وأعطيناه الذين اصطفينا والاول أولى ثم قسم سبحانه هؤلاء الذين أورثهم كتابه واصطفاهم من عباده الى ثلاثة أقسام فقال (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وفى قوله (باذن الله) تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها أى بأمره أو بعلمه أو بتوفيقه (ذلك) أى توريث الكتاب والاصطفاء وقيل السبق الى الخيرات والاول أولى وهو مبتدأ وخبره (هو الفضل الكبير) أى الفضل الذى لا يقادر قدره وقد استشكل كثير من أهل العلم معنى هذه الآية لانه سبحانه جعل هذا القسم الظالم لنفسه من ذلك المقسم وهو من اصطفاهم من العباد فكيف يكون من اصطفاه الله ظالما لنفسه فقيل ان التقسيم هو راجع الى العباد أى فمن عبادنا ظالم لنفسه وهو الكافر ويكون ضمير يدخلونها عائدا الى المقتصد والسابق وقيل المراد بالظالم لنفسه هو المقصر فى العمل به وهو المرجى لامر الله وليس من ضرورة وراثة الكتاب مراعاته حق رعايته لقوله فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب وهذا فيه نظر لان ظلم النفس لا يناسب الاصطفاء وقيل الظالم لنفسه هو الذى عمل الصغائر وقد روى هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبى الدرداء وعائشة وهذا هو الراجح لان عمل الصغائر لا ينافى الاصطفاء ولا يمنع من دخول صاحبه مع الذين يدخلون الجنة ووجه كونه ظالما لنفسه انه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له فانه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات لكان لنفسه فيها من الثواب حظ عظيم وقيل الظالم هو صاحب الكبائر قلت ومنشأ الاشكال هو من جعل الوارثين هم العلماء من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم اذ لو جعلت الوراثة لجميع الامة زال الاشكال للقطع بان منهم ظالما لنفسه ولا ينافى الاصطفاء لكونهم فضلوا الامم الآخرة وقد ورد فى ذلك شئ كثير كما لا يخفى ويؤيده ما سيأتى آخر البحث والله أعلم وقد اختلف السلف فى تفسير السابق والمقتصد فقال عكرمة وقتادة والضحاك ان المقتصد المؤمن العاصى والسابق التقى على الاطلاق وبه قال الفراء وقال مجاهد فى تفسير الآية فمنهم ظالم لنفسه أصحاب المشأمة ومنهم مقتصد أصحاب الميمنة ومنهم سابق بالخيرات السابقون من الناس كلهم وقال المبرد ان المقتصد هو الذى يعطى الدنيا حقها والآخرة حقها وقال الحسن الظالم الذى ترجح سيآته على حسناته والمقتصد الذى استوت حسناته وسيآته والسابق من رجحت حسناته على سيآته وقال مقاتل الظالم لنفسه أصحاب الكبائر من أهل التوحيد والمقتصد الذى

يارسول الله ما تخاطب من قوم قد جيفوا فقال والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون وتأولته عائشة على انه قال انهم الآن يعلمون ان ما كنت أقول لهم حق وقال قتادة أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة من أشهر ذلك مارواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه الا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام (الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو

لم يصب كبيرة والسابق الذى سبق الى الاعمال الصالحة وحكى النحاس ان الظالم صاحب الكبائر والمقتصد الذى لم يستحق الجنة بزيادة حسناته على سيآته فيكون قوله الآتى جنات عدن يدخلونها الذين سبقوا بالخيرات لا غير قال وهذا قول جماعة من أهل النظر لان الضمير فى حقيقة النظر لما يليه أولى وقال الضحاك فمنهم ظالم لنفسه أى من ذريتهم ظالم لنفسه وقال سهل بن عبد الله السابق العالم والمقتصد المتعلم والظالم لنفسه الجاهل وقال ذو النون المصرى الظالم لنفسه الذاكر لله بلسانه فقط والمقتصد الذاكر بقلبه والسابق الذى لا ينساه وقال الانطاكى الظالم صاحب الاقوال والمقتصد صاحب الافعال والسابق صاحب الاحوال وقال ابن عطاء الظالم الذى يحب الله من أجل الدنيا والمقتصد الذى يحب الله من أجل العقبى والسابق الذى أسقط مراده بمراد الحق وقيل الظالم الذى يعبد الله خوفا من النار والمقتصد الذى يعبده طمعا فى الجنة والسابق الذى يعبده لا لسبب وقيل الظالم الذى يحب نفسه والمقتصد الذى يحب دينه والسابق الذى يحب ربه وقيل الظالم الذى ينتصف ولا ينصف والمقتصد الذى ينصف وينتصف والسابق الذى ينصف ولا ينتصف وقيل الظالم هو المرجأ لامر الله والمقتصد هو الذى خلط عملا صالحا وآخر سيأ قال النسفى وهذا التأويل يوافق التنزيل فانه تعالى قال والسابقون الاولون من المهاجرين الآية وقال بعده وآخرون اعترفوا بذنوبهم الآية وقال بعده وآخرون مرجون لامر الله انتهى وقال الربيع بن أنس الظالم صاحب الكبائر والمقتصد صاحب الصغائر والسابق المجتنب لهما وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال كلهم مؤمنون وأما صفة الكفار فبعد هذا وهو قوله والذين كفروا لهم نار جهنم وأما الطبقات الثلاث فهم الذين اصطفى من عباده وهم أهل الايمان وعليه الجمهور وقيل الظالم من كان ظاهره خيرا من باطنه والمقتصد الذى استوى ظاهره وباطنه والسابق الذى باطنه خير من ظاهره وقيل الظالم التالى للقرآن ولم يعمل به والمقتصد التالى له العالم به والسابق القارئ له العالم به العامل بما فيه وقد ذكر الثعلبى وغيره أقوالا كثيرة ولا شك ان المعانى اللغوية للظالم والمقتصد والسابق معروفة وهو يصدق الظالم للنفس بمجرد احرامها الحظ وتفويت ما هو خير لها فتارك الاستكثار من الطاعات قد ظلم نفسه باعتبار ما فوتها من الثواب وان كان قائما بما أوجب الله عليه تاركا لما نهاه عنه فهو ممن هذه الجنة ممن اصطفاه الله ومن أهل الجنة فلا اشكال فى الآية ومن هذا قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا وقول يونس انى كنت من الظالمين ومعنى المقتصد هو من يتوسط فى أمر الدين ولا يميل الى جانب الافراط ولا الى جانب التفريط وهذا من أهل الجنة وأما السابق فهو الذى سبق غيره فى أمور الدين وهو خير الثلاثة وقد استشكل تقديم الظالم على المقتصد وتقديمهما على السابق مع كون المقتصد أفضل من الظالم لنفسه والسابق أفضل منهما فقيل ان التقديم لا يقتضى التشريف كما فى قوله لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ونحوها من الآيات القرآنية التى فيها تقديم أهل الشر على أهل الخير وتقديم المفضولين على الفاضلين وقيل وجه التقديم هنا ان الظالمين كثير وان المقتصدين بالنسبة الى أهل

العليم القدير) ينبه تعالى على تنقل الانسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال فأصله من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يصير عظاما ثم تكسى العظام لحما وينفخ فيه الروح ثم يخرج من بطن أمه ضعيفا نحيفا واهن القوى ثم يشب قليلا قليلا حتى يكون صغيرا ثم حدثا ثم مراهقا ثم شابا وهو القوة بعد الضعف ثم يشرع فى النقص فيكهل ثم يشيخ ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ولهذا قال تعالى ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء أى يفعل ما يشاء ويتصرف فى عبيده بما يريد وهو العليم القدير قال

المعاصي قليل والسابقين بالنسبة الى الفريقين أقل قليل فقدم الاكثر على الاقل والاول أولى فان الكثرة بمجردها لا تقتضي تقديم الذكر وقال ابن عطاء انما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله وقيل انما قدمه ليعرفه ان ذنبه لا يبعده من ربه وقيل ان أول الاحوال معصية ثم توبة ثم استقامة وقال جعفر الصادق بدأ بالظالمين اخبارا بأنه لا يتقرب اليه الا بكرمه وان الظلم لا يؤثر في الاصطفاء ثم ثنى بالمقتصدين لانهم بين الخوف والرجاء ثم ختم بالسابقين لئلا يأمن أحد مكره وكلهم في الجنة وقد قيل في وجه التقديم غير ما ذكرناه مما لا حاجة الى التطويل به وعن ابن عباس في الآية قال هم أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ورثهم الله كل كتاب أنزل فظالمهم مغفور له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وغيرهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال في هذه الآية هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة وكلهم يدخلون الجنة وفي اسناده رجلان مجهولان وأخرج أحمد وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وغيرهم عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول قال الله ثم أورثنا الكتاب الآية فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب وأما الذين اقتصدوا فأولئك يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الآية قال البيهقي اذا كثرت روايات في حديث ظهر أن للحديث أصلا انتهى وفي اسناد أحمد محمد بن اسحق وفي اسناد ابن أبي حاتم رجل مجهول وأخرج الطبراني وابن أبي حاتم عن عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أمتي ثلاثة أثلاث فثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة وثلث يمحصون ويكشفون ثم تأتي الملائكة فيقولون وجدناهم يقولون لا اله الا الله وحده فيقول الله ادخلوهم الجنة بقولهم لا اله الا الله وحده واحملوا خطاياهم على أهل التكذيب وهي التي قال الله وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وتصديقها في التي ذكر في الملائكة قال الله تعالى ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فجعلهم ثلاثة أفواج فمنهم ظالم لنفسه فهذا الذي يكشف ويمحص ومنهم مقتصد وهو الذي يحاسب حسابا يسيرا ومنهم سابق بالخيرات فهو الذي يلج الجنة بغير حساب ولا عذاب باذن الله يدخلون الجنة جميعا قال ابن كثير بعد ذكره هذا الحديث غريب جدا انتهى وهذه الاحاديث يقوي بعضها بعضا ويجب المصير اليها ويدفع بها قول من حمل الظالم لنفسه على الكافر ويؤيدها ما أخرجه الطبراني وابن مردويه والبيهقي في البعث عن اسامة بن زيد فمنهم ظالم لنفسه الآية قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلهم من هذه الامة وكلهم في الجنة وما أخرجه الطيالسي وعبد بن حميد والطبراني وغيرهم عن عقبة بن صهبان قال قلت لعائشة أرأيت قول الله ثم أورثنا الكتاب الآية قالت أما السابق فمن مضى في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشهد له بالجنة وأما المقتصد فمن تبع

الامام أحمد حدثنا وكيع عن فضيل ويزيد حدثنا فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي قال قرأت على ابن عمر الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا فقال الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا ثم قال قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قرأت علي فأخذ علي كما أخذت عليك ورواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث فضيل به ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبي سعيد نحوه (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم

آثارهم فعمل بمثل عملهم حتى لحق بهم وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلك ومن اتبعنا وكل فى الجنة وعن ابن مسعود قال هذه الامة ثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيؤن بذنوب عظام الا انهم لم يشركوا فيقول الرب ادخلوا هؤلاء فى سعة رحمتى ثم قرأ ثم أورثنا الكتاب الآية وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر والبيهقى فى البعث عن عمر بن الخطاب انه كان اذا قرأ بهذه الآية ثم أورثنا الكتاب قال الا ان سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وأخرجه البيهقى وغيره عنه من وجه آخر مرفوعا وأخرجه ابن النجار من حديث أنس مرفوعا وأخرج الطبرانى عن ابن عباس قال السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الاعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأخرج سعيد بن منصور وغيره عن عثمان بن عفان انه نزع بهذه الآية ثم قال ألا ان سابقنا أهل جهادنا الا وان مقتصدنا أهل حضرنا الا وان ظالمنا أهل بدونا وأخرج البيهقى فى البعث عن البراء بن عازب قال أشهد على الله انه يدخلهم الجنة جميعا وأخرج الفريابى وابن جرير وابن مردويه عنه قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية قال كلهم ناج وهى هذه الامة وأخرج الفريابى وعبد بن حميد عن ابن عباس فى الآية قال هى مثل التى فى الواقعة أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة والسابقون صنفان ناجيان وصنف هالك وعنه قال هو الكافر والمقتصد أصحاب اليمين وهذا المروى عنه رضى الله عنه لا يطابق ما هو الظاهر من النظم القرآنى ولا يوافق ما قدمنا من الروايات عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعن جماعة من الصحابة وعن عبد الله بن الحارث ان ابن عباس سأل كعبا عن هذه الآية فقال نجوا كلهم ثم قال تحاكت مناكبهم ورب الكعبة ثم اعطوا الفضل بأعمالهم أخرجه ابن أبى شيبة وغيره وقد قدمنا عن ابن عباس ما يفيد أن الظالم لنفسه من الناجين فتعارضت الاقوال عنه وقوله (جنات عدن) مبتدأ وخبره (يدخلونها) والضمير يعود الى الاصناف الثلاثة فلا وجه لقصره على الصنف الاخير وقرئ جنة بالافراد وقرئ جنات بالنصب على الاشتغال وقرئ يدخلونها على البناء للمفعول (يحلون فيها) هو من حليت المرأة فهى حال وفيه اشارة الى سرعة الدخول فان فى تحليتهم خارج الجنة تأخير الدخول فلما قال يحلون فيها اشار الى ان دخولهم على وجه السرعة (من أساور من ذهب) من الاولى تبعيضية والثانية بيانية أى يحلون بعض أساور كائنة من ذهب والاساور جمع اسورة جمع سوار (ولؤلؤا) منصوب بالعطف على محل من أساور وقرئ بالجر عطفا على ذهب أى مرصعا باللؤلؤ ويحلون أساور ولؤلؤا وهو الاولى أخرج الترمذى والحاكم وصححه والبيهقى فى البعث عن أبى سعيد الخدرى ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم تلا قول الله جنات عدن يدخلونها الآية فقال ان عليهم التيجان ان أدنى لؤلؤة لتضئ ما بين المشرق والمغرب (ولباسهم فيها حرير) لما فيه من

قوله نزع بهذه الآية هكذا فى الاصل وحرر اه مصححه

والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) يخبر تعالى عن جهل الكفار فى الدنيا والآخرة ففى الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الاوثان وفى الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضا فمنه اقسامهم بالله انهم مالبثوا غير ساعة واحدة فى الدنيا ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وانهم لم ينظروا حتى يعذر اليهم قال الله تعالى كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث أى فيرد عليهم المؤمنون العلماء فى الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله فى الدنيا فيقولون لهم حين يحلفون

اللؤلؤ وقد تقدم تفسير هذه الآية مستوفى في سورة الحج (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) بفتحتين وقرئ بضم الحاء وسكون الزاي والمعنى انهم يقولون هذه المقالة اذا دخلوا الجنة وصيغة الماضي للدلالة على التحقق قال قتادة حزن الموت وقال عكرمة حزن السيئات والذنوب وخوف رد الطاعات وقال ابن عباس حزن النار وقال القاسم حزن زوال النعم وخوف العاقبة وقيل حزن أهوال يوم القيامة وقال الكلبي ما كان يحزنهم في الدنيا من أمر يوم القيامة وقال سعيد بن جبير هم الخبز في الدنيا وقيل هم المعيشة وقال الزجاج أذهب الله عن أهل الجنة كل الأحزان ما كان منها لمعاش أو لمعاد وهذا أرجح الاقوال فان الدنيا وان بلغ نعيمها أي مبلغ لا تخلو عن شوائب ونوائب تكثر لحلولها الأحزان وخصوصا أهل الايمان فانهم لا يزالون وجلين من عذاب الله خائفين من عقابه مضطربي القلوب في كل حين هل يقبل أعمالهم أو تردّ عليهم مترددين من خاتمة السوء وخاتمة الامر ثم لا تزال همومهم وأحزانهم حتى يدخلوا الجنة وأما أهل العصيان فهم وان نفس عن خناقهم قليلا في حياة الدنيا التي هي دار الغرور وتناسوا دار القرار يوما من دهرهم فلا بد أن يشتد وجلهم وتعظم مصيبتهم وتغلي مراجل أحزانهم اذا شارفوا الموت وقربوا من منازل الآخرة ثم اذا قبضت أرواحهم ولاح لهم ما يسوءهم من جزاء أعمالهم ازداد وجلهم وعظم حزنهم فان تفضل الله عليهم بالمغفرة وأدخلهم الجنة فقد أذهب عنهم أحزانهم وأزال غمومهم وهمومهم أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في الآية قال هم قوم في الدنيا يخافون الله ويجتهدون له في العبادة سرا وعلانية وفي قلوبهم حزن من ذنوب قد سلفت منهم فهم خائفون ان لا يتقبل منهم هذا الاجتهاد من الذنوب التي سلفت فعندها قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وروى البغوي بسنده عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس على أهل لا اله الا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا اله الا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن (ان ربنا لغفور شكور) غفور لنا العظيم وشكور لنا القليل من أعمالنا أو يغفر الجنايات ويقبل الطاعات وقيل غفور لمن عصاه شكور لمن أطاعه (الذي أحلنا) أي أنزلنا (دار المقامة) أي التي يقام فيها أبدا لا ينتقل عنها (من فضله) أي تفضلا منه ورحمة (لا يمسنا فيها نصب) أي لا يصيبنا في الجنة عناء ولا تعب ولا مشقة (ولا يمسنا فيها لغوب) أي اعياء من التعب وكلال من النصب ثم لما فرغ سبحانه من ذكر جزاء عباده الصالحين ذكر جزاء عباده الطالحين فقال (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم) بالموت (فيموتوا) ويستريحوا من العذاب قرئ فيموتوا بالنصب جوابا للنفي وقرئ باثبات النون قال ابن عطية هي ضعيفة ولا وجه لهذا التضعيف بل هي كقوله ولا يؤذن لهم فيعتذرون (ولا يخفف عنهم من عذابها) بل كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب وكلما خبت النار زيد اسعارها وهذه الآية مثل قوله سبحانه لا يموت فيها ولا يحيى (كذلك نجزي كل كفور) أي مثل ذلك الجزاء الفظيع

ما لبثوا غير ساعة لعدم لبثهم في كتاب الله أي كان الاعمال الى يوم البعث أي من يوم خلقهم الى ان بعثهم ولكنكم كنتم لا تعلمون قال الله تعالى فيومئذ أي يوم القيامة لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم أي اعتذارهم عما فعلوا ولا هم يستعتبون اي ولا هم يرجعون الى الدنيا كما قال تعالى وان يستعتبوا فما هم من المعتبين (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان انتم الا مبطلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) يقول تعالى ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل أي قد بينا لهم الحق ووضحناه لهم وضربنا

يجزى كل من هو مبالغ فى الكفر لاجزاء أخف وأدنى منه وقرئ يجزى على البناء للمفعول (وهم يصطرخون فيها) من الصراخ وهو الصياح أى وهم يستغيثون فى النار رافعين أصواتهم والصارخ المستغيث (ربنا) أى يقولون ربنا أو قائلين ربنا وقال مقاتل انهم ينادون ربنا (أخرجنا نعمل) عملا (صالحا غير الذى كنا نعمل) من الشرك والمعاصى فنجعل الايمان منا بدل ما كنا عليه من الكفر والطاعة بدل المعصية قيل وزيادة قوله غير الذى كنا نعمل للتحسر على ما عملوه من غير الاعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأن أعمالهم فى الدنيا كانت غير صالحة فأجاب الله عليهم بقوله (أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والواو للعطف على مقدر كما فى نظائره وما نكرة موصوفة أى أولم نعمركم عمرا يتمكن من التذكر فيه من تذكر فقيل هو ستون سنة وقيل أربعون وقيل ثمانى عشرة سنة قال بالاول جماعة من الصحابة ومنهم ابن عباس وبالثانى الحسن ومسروق وغيرهما وبالثالث عطاء وقتادة أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال اذا كان يوم القيامة قيل أين أبناء الستين وهو العمر الذى قال الله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وفى اسناده ابراهيم بن الفضل المخزومى وفيه مقال وأخرج أحمد والبخارى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعذر الله الى امرئ أخر عمره حتى بلغ ستين سنة وعن سهل بن سعيد مرفوعا نحوه أخرجه عبد بن حميد والطبرانى والحاكم وعن على ابن أبى طالب قال العمر الذى عيرهم الله به ستون سنة وأخرج الترمذى وابن ماجه والحاكم وابن المنذر والبيهقى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمار أمتى ما بين الستين الى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك قال الترمذى بعد اخراجه حسن غريب لانعرفه الا من هذا الوجه وعن ابن عباس فى هذه الآية هو ست وأربعون سنة وعنه قال العمر الذى أعذر الله الى ابن آدم فيه بقوله أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر أربعون سنة (وجاءكم النذير) قال الواحدى قال جمهور المفسرين هو النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقال عكرمة وسفيان بن عيينة ووكيع والحسن بن الفضل والفراء وابن جرير هو الشيب ويكون معناه على هذا القول أولم نعمركم حتى شبتم وقيل هو القرآن وقيل الحمى قال الازهرى معناه ان الحمى رسول الموت أى كأنها تشعر بقدومه وتنذر بمجيئه والشيب نذير أيضا لانه يأتى فى سن الاكتهال وهو علامة لمفارقة سن الصبا الذى هو سن اللهو واللعب وقيل هو موت الاهل والاقارب وقيل هو كمال العقل وقيل البلوغ (فذوقوا فما للظالمين من نصير) الفاء لترتيب الامر بالذوق على ما قبلها من التعمير ومجئ النذير وفى فما للتعليل أى فذوقوا عذاب جهنم لانكم لم تعتبروا ولم تتعظوا فما لكم ناصر يمنعكم من عذاب الله ويحول بينكم وبينه قال مقاتل فذوقوا فما للمشركين من مانع يمنعهم (ان الله عالم غيب السموات والارض) قرأ الجمهور بالاضافة وقرئ بالتنوين

أنهم فيه الامثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون أى لو رأوا أى آية كانت سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ويعتقدون انها سحر وباطل كما قالوا فى انشقاق القمر ونحوه كما قال تعالى ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ولهذا قال ههنا كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون فاصبر ان وعد الله حق أى اصبر على مخالفتهم وعنادهم فان الله تعالى منجزلك ما وعدك من نصره اياك عليهم وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك

ونصب غيب والمعنى انه عالم بكل شيء ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية فلو ردكم الى الدنيا لم تعملوا صالحا كما قال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (انه عليم بذات الصدور) تعليل لما قبله لانه اذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء علم ما فوقها بالاولى وقيل هذه الجملة مفسرة للجملة الاولى وذات تأنيث ذو بمعنى صاحب أي بالامور صاحبة الصدور ومصاحبتها لها من حيث اختباؤها فيها (هو الذي جعلكم خلائف في الارض) جمع خليفة ويقال للمستخلف خليفة وخليف ويجمع الاول على خلائف والثاني على خلفاء أي جعلكم أمة خالفة لمن قبلها قال قتادة خلفا بعد خلف وقرنا بعد قرن والخلف هو التالي للمتقدم وقيل جعلكم خلفاء في أرضه (فمن كفر) منكم هذه النعمة (فعليه كفره) أي عليه ضرر كفره لا يتعداه الى غيره (ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا) أي غضبا وبغضا (ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا) أي نقصا وهلاكا والمعنى ان الكفر لا ينفع عند الله حيث لا يزيدهم الا المقت ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم الا خسارا والتكرير لزيادة التقرير والتنبيه على ان اقتضاء الكفر لكل واحد من الامرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والاصالة ثم أمر سبحانه ان يوبخهم ويبكتهم فقال (قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون) أي اخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهة وعبدتموهم (من دون الله) أي غيره وهم الاصنام وغيرها (أروني ماذا خلقوا من الارض) بدل اشتمال من أرأيتم والمعنى اخبروني عن شركائكم أروني أي شيء خلقوا من الارض وقيل ان الفعلين وهما أرأيتم وأروني من باب التنازع وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين (أم لهم شرك في السموات) أي أم لهم شركة مع الله في خلقها أو ملكها أو التصرف فيها حتى يستحقوا بذلك الشركة في الالهية (أم آتيناهم) الضمير فيه وفي قوله لهم الاحسن ان يعود الى الشركاء لتناسق الضمائر وقيل يعود على المشركين فيكون التفاتا من الخطاب الى الغيبة أي أم أنزلنا عليهم (كتابا) بالشركة وأم في الموضعين منقطعة بمعنى بل والهمزة فيكون قد أضرب عن الاستفهام الاول وشرع في استفهام آخر والاستفهام انكاري (فهم على بينة منه) أي على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب قرئ بينة بالتوحيد وبالجمع قال مقاتل يقول هل أعطينا كفار مكة كتابا فهم على بيان منه بان مع الله شريكا ثم أضرب سبحانه عن هذا الى غيره فقال (بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا) أي ما يعد الظالمون بعضهم بعضا كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لاتباعهم الا غرورا يغرونهم به ويزينونه لهم وهو الاباطيل التي تغر ولا حقيقة لها وذلك قولهم ان هذه الآلهة تنفعهم وتقربهم الى الله وتشفع لهم عنده وقيل ان الشياطين تعد المشركين بذلك وقيل المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضا هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم (ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا) أي يمنعهما من الزوال قاله الزجاج أو كراهة ان تزولا

في الدنيا والآخرة ولا يستخفنك الذين لا يوقنون أي بل اثبت على ما بعثك الله به فانه الحق الذي لا مرية فيه ولا تعدل عنه وليس فيما سواه هدى يتبع بل الحق كله منحصر فيه قال سعيد عن قتادة نادى رجل من الخوارج عليا رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين فأنصت له حتى فهم ما قال فاجابه وهو في الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون رواه ابن جرير وابن أبي حاتم وقد رواه ابن جرير من وجه آخر فقال حدثنا

وقيل لئلا تزولا والجملة مستأنفة لبيان قدرة الله سبحانه وبديع صنعه بعد بيان ضعف الأصنام وعدم قدرتها على شئ وقيل المعنى ان شركهم يقتضي زوال السموات والارض كقوله تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وعن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول على المنبر قال وقع في قلب موسى هل ينام الله عز وجل فأرسل الله اليه ملكا فأرقه ثلاثا وأعطاه قارورتين في كل يد قارورة وأمره ان يحتفظ بهما فجعل ينام وتكاد يداه تلتقيان ثم يستيقظ فيحبس أحداهما على الاخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه وانكسرت القارورتان قال ضرب الله له مثلا ان الله تبارك وتعالى لو كان ينام لم تستمسك السماء والارض أخرجه أبو يعلى وابن جرير وابن أبي حاتم والدارقطني والبيهقي في الاسماء والصفات وغيرهم وروي من طرق عن ابن سلام وابن أبي بردة (ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده) أي ما أمسكهما أحد من بعد امساكه أو من بعد زوالهما والجملة سادة مسد جواب القسم والشرط ومن الاولى زائدة والثانية ابتدائية قال الفراء أي ولو زالتا ما أمسكهما من أحد قال وهو مثل قوله ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون وقيل المراد زوالهما يوم القيامة (انه كان حليما غفورا) تعليل لما قبله من امساكه تعالى السموات والارض (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم) المراد قريش اقسموا قبل ان يبعث الله محمدا صلى الله عليه وآله وسلم بهذا القسم حين بلغهم ان أهل الكتاب كذبوا رسلهم قالوا لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم وأقسموا بالله لو جاءنا نذير لنكونن أهدى دينا منهم فلما بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم كذبوه فأنزل الله هذه الآية والمعنى من احدى الامم المكذبة للرسل والنذير النبي والهدى الاستقامة وكانت تمنى ان يكون منهم رسول كما كان الرسل في بني اسرائيل وأنث احدى لكون أمة مؤنثة كما قال الاخفش وقيل المعنى من احدى الامم على العموم وقيل من الامة التي يقال لها احدى الامم تفضيلا لها (فلما جاءهم نذير) أي ما تمنوه وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو أشرف نذير وأكرم رسول وكان من أنفسهم (ما زادهم) مجيئه (الا نفورا) منهم عنه وتباعدا عن اجابته (استكبارا في الارض) أي لاجل الاستكبار والعتو أو بدل من نفورا أو حال قاله الاخفش وهذا جواب لما وفيه دليل على انها حرف لا ظرف اذ لا يعمل ما بعد ما النافية فيما قبلها وتقدمت له نظائر واسناد الزيادة الى النذير مجاز لانه سبب في ذلك كقوله فزادتهم رجسا الى رجسهم (ومكر السيئ) أي ولاجل مكر العمل السيئ أو ومكروا المكر السيئ والمكر هو الحيلة والخداع والعمل القبيح وأضيف الى صفته كقولهم مسجد الجامع وصلاة الاولى وقرأ الجمهور ومكر السيئ بخفض همزة السيئ وقرأ الاعمش وحمزة بسكونها وصلا وقد غلط كثير من النحاة هذه القراءة ونزهوا الاعمش على جلالته ان يقرأ بها قالوا وانما كان

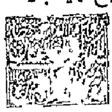
وكيع حدثنا يحيى بن آدم عن شريك عن عثمان عن أبي زرعة عن علي ابن ربيعة قال نادى رجل من الخوارج عليا رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر فقال ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين فاجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون طريق أخرى قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن الجعد أخبرنا شريك عن عمران بن ظبيان عن أبي يحيى قال صلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه صلاة الفجر فناداه رجل من الخوارج لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من

يقف بالسكون فغلط من روى عنه انه كان يقرأ بالسكون وصلا وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأها اجرى الوصل مجرى الوقف ومثله قراءة من قرأ ما يشعركم بسكون الراء ومثل ذلك قراءة أبي عمرو الى بارئكم بسكون الهمزة وغير ذلك كثير قال أبو علي الفارسي هذا على اجراء الوصل مجرى الوقف وقرأ ابن مسعود ومكرا سيئا (ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله) أي لا تنزل عاقبة السوء الا بمن أساء قال الكلبي يحيق بمعنى يحيط والحوق الاحاطة يقال حاق به كذا أي أحاط به وهذا هو الظاهر من معنى يحيق في لغة العرب ولكن قطرب فسره هنا بينزل (فهل ينظرون) أي ما ينتظرون (الا سنة الاولين) أي سنة الله فيهم بان ينزل بهؤلاء العذاب كما نزل بأولئك (فلن تجد لسنة الله تبديلا) أي لا يقدر أحد أن يبدل سنة الله التي سنها بالامم المكذبة من انزال عذابه بهم بان يضع موضعه غيره بدلا عنه والفاء لتعليل ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب (ولن تجد لسنة الله تحويلا) بان يحول أحد ما جرت به سنة الله من العذاب فيدفعه عنهم ويضعه على غيرهم ونفي وجدان التبديل والتحويل كناية عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما (أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هذه الجملة مسوقة لتقرير ما قبلها وتأكيده أي ألم يسيروا في أرض الشام واليمن والعراق فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل فان ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول وآثار عذابهم وما أنزل الله بهم موجودة في مساكنهم ظاهرة في منازلهم والهمزة للانكار أو النفي والواو للعطف على مقدر يليق بالمقام (وكانوا) أي والحال انهم كانوا (أشد منهم قوة) وأطول أعمارا وأكثر أموالا وأقوى أبدانا فما نفعهم طول المدى وما أغنت عنهم شدة القوة (وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الارض) أي ما كان ليسبقه ويفوته شئ من الاشياء كائنا ما كان فيهما وهذا تقرير لما يفهم مما قبله من استئصال الامم السابقة (انه كان عليما قديرا) أي كثير العلم كثير القدرة لا يخفى عليه شئ ولا يصعب عليه أمر وهذا تعليل لذلك التقرير (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا) من الذنوب وعملوا من الخطايا (ما ترك على ظهرها) أي الارض (من دابة) من الدواب التي تدب كائنة ما كانت أما بنو آدم فلذنوبهم وأما غيرهم فلشؤم معاصي بني آدم وقيل المراد ما ترك على ظهر الارض من دابة تدب من بني آدم والجن وقال بالاول ابن مسعود وقتادة وقال بالثاني الكلبي وقال ابن جريج والاخفش والحسين بن الفضل أراد بالدابة هنا الناس وحدهم دون غيرهم أخرج الفريابي وغيره عن ابن مسعود قال ان كاد الجعل ليعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ هذه الآية قيل وجه الملازمة بين الشرط والجزاء انه تعالى اذا كان يؤاخذ الناس بما كسبوا كان يقطع عنهم النعم التي من جملتها المطر فاذا انقطع عنهم المطر انقطع النبات فيموت جميع الحيوانات فهذا كناية أريد بها الملزوم وقوله على ظهرها فيه استعارة مكنية قال قتادة وقد فعل ذلك في زمن

الخاسرين فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون * (ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر) * قال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن عبد الملك بن عمير سمعت شبيبا أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم فلما انصرف قال انه يلبس علينا القرآن فان أقواما منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء وهذا

نوح وقال يحيى بن سلام يحبس الله المطر فيهلك كل شيء (ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) وهو يوم القيامة (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا) أى بمن يستحق منهم الثواب ومن يستحق منهم العقاب وفى هذا تسلية للمؤمنين ووعيد للكافرين والعامل فى اذا هو جاء لا بصيرا

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن أوله سورة يس)



اسناد حسن ومتن حسن وفيه سر عجيب ونبأ غريب وهو أنه صلى الله عليه وسلم تأثر بنقصان وضوء من ائتم به فدل ذلك على ان صلاة المأموم متعلقة بصلاة الامام

آخر تفسير سورة الروم ولله الحمد والمنة

وممّا قيل في تقريظ هذا التفسير الجليل حسن الشكل عديم المثيل ما أنشأه علامة زمانه ونابغة آنه الهمام الأكمل الألد الأفضل مديد الباع رحب الذراع بديع الاختراع حسن البديهة بلا دفاع الذي قطع في حلبة البيان كل مجاري الاستاذ الشيخ محمد بن أحمد بن عبد البارى فقال

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الرحيم الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان نحمده على توفيقه للاشتغال بعلوم الحكمة والتأويل ونستمده الهداية لمعالم الآثار وأنوار التنزيل ونشهد أن لا اله الا الله شهادة سالمة من التداول في الجنان ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث بروح الحق وجامع البيان صلى الله وسلم عليه وعلى آله السادة الأئمة وعلى أصحابه حملة السنة وهداة الامة ﴿ وبعد ﴾ فقد وقفت على التفسير المسمى فتح البيان في مقاصد القرآن لمولانا وسيدنا الامام العلامة القدوة احقق الفهامة الجامع الشهير الحجة الناسك الداعي السامي الى المحجة سلطان العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين السيد الجليل والعالم الفاضل النبيل صديق بن حسن بن علي القنوجي الذي ما زال في نشر العلوم يروح ويجي فرأيته تفسيرا جامعا لما تفرق في غيره من الفوائد وفائقا لما عداه لكثرة ما حواه من الشوارد والزوائد مشتملا على صحيح التفسير المأخوذ من منقول الاثر طاويا لما في غيره من المطولات فدا نشر لا يستلذه الا من حوى الكمالين ولا يشهد بفضله الا من مشى طريقة الجلالين ولا يعرف انه سليم من زائف النقود الا من له خبرة بتفسير الزمخشري والبيضاوي وأبي السعود ولا يدري انه أحد اللسان وطرح المشهور الا من طالع ابن كثير وابن جرير والقرطبي والبغوي والدر المنثور والله انه لكتاب كريم يجل عن الصفة وتفسير عظيم طوبى لمن حصله وعرفه فمن أراد تفسير كتاب الله رواية ودراية أو طلب ان يستفيد بانوار التنزيل توفيقا وهداية فعليه بالاشتغال بهذا التفسير الجليل وليعكف عليه فانه كفيل بما يبغيه من اعراب وقراءة وتفسير وتأويل لأني تأملته تأمل ناقد بصير فرأيته آية باهرة ولا ينبئك مثل خبير

دررٌ أضاءت في لجين صحائف * كالكوكب الدري في اضوائه
فكأنها منثورة بطروسها * نجم تضيء سماؤه بسمائه
وكأنما هي في يدي غواصها * نور اليد البيضا وحسن ثنائه
لله غواص أتى بفوائد * يستوجب الاعلاء على نظرائه

فأدم اللهم على مؤلفه النعمة وادفع اللهم عنه البلاء والنقمة وأفض على قلبه أنوار

المعارف وانفع ما أبداه في تفسيره هذا من الفوائد واللطائف فلقد أحيا به ما اندرس
من تفاسير الأئمة الفحول وجاء بها معزوة الى الصحاح والاصول
لم يغادر مما يعول عليه في فن التفسير شيأ الا أبداه
فعافاه الله ورعاه وأطال عمره في
طاعته ورضاه
آمين

وحرر في السابع والعشرين من شهر صفر سنة اثنين وتسعين بعد الالف ومائتين
كتبه محمد بن أحمد
ابن عبد البارى
انتهى بلفظه